

المملكة المغربية
جامعة محمد الخامس
منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط
سلسلة بحوث ودراسات رقم 20

محمد المنوني

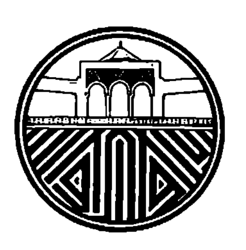
ورقات عن حضارة المرينيين

حميدي

حضارة المرينيين

بسم الله الرحمن الرحيم

المملكة المغربية
جامعة محمد الخامس
منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط
سلسلة بحوث ودراسات رقم 20



ورقات عن حضارة المرينيين

محمد المنوني

الكتـــاب : ورقات عن حضارة المرينيين.
المـــؤلـف : محمد المنوني.
منشـــورات : كلية الآداب بالرباط.
الغـــلاف : إعداد عمر أفا.
الخطـــوط : محمد المعلمين وبلعيد حميدي.
الحقـــوق : محفوظة للكلية بمقتضى ظهير 1970/7/29.
التصفيف : أنسيف الزنايدي-الرباط.
الطبـــع : مطبعة النجاح الجديدة-الدار البيضاء.
ردمـــك : 9981-825-69-7
التصفيف الدولي : 0369/ 1113.
الإيـــداع : القانوني رقم 53 /2000.
الطبـعـة : الثالثة 1420/ 2000.

طبع هذا الكتاب بدعم من برنامج التعاون
بين كلية الآداب ومؤسسة كونراد أديناور

بين يدي الكتاب

انطلاقاً من العصر الحديث، بدأ الباحثون ــ عرباً وغربيين ــ من لمّ أعمالهم المتناثرة بين الدوريات والمؤلفات، وتنسيقها في سفرٍ أو مجلدات. وفي هذا الإتجاه تخيرت مجموعة من الأبحاث التي سبق أن نشرتها في المجلات المغربية لتقوم بطبعها ــ مشكورة ــ عمادة كلية الآداب بالرباط سنة 1974، وكان ذلك بعنوان «**ورقات عن الحضارة المغربية في عصر بني مرين**»، وهو الإسم الذي اختصرته في هذه الطبعة الثانية إلى «**ورقات عن حضارة بني مرين**».

واليوم وقد نفدت نسخ الكتاب، اقترح قيدوم كلية الآداب بالرباط الأستاذ المحترم السيد عبد الواحد بنداود أن تتبنى الكلية نشرة ثانية لهذا العمل، مما يذكر له الشكر والتقدير.

وتجاوباً مع هذه الرغبة الكريمة قمت بمراجعة معمقة وزيادات على الطبعة الأولى، حيث أسفرت عن ميزات جديدة لهذه الطبعة.

ومنها إضافات مُسهبة تناولت ــ في فَصْل مطول ــ تبريز المسار الثقافي لمجموعة من العلوم الإسلامية والبَحَثَة في العصر المريني (ص. 263ـ371)؛ فضلاً عن إضافات قصيرة تخلّلت بعض الفصول كما أن من المزيد هنا الملحق الرابع لفصل الصلات الثقافية بين المغرب المريني وتونس الحفصية (ص. 488ـ512). ومن هذه الميزات تعديلات في ترتيب بعض المباحث وعنونة مَضامين الكتاب بمداخل وأبواب وفصول.

هذا إلى أن الهوامش صارت منسقة أسفل الصفحات بدلًا من تأخيرها إلى نهاية الفصل كما كان واقع الطبعة الأولى.

وبما أن هذا العمل جاء بين أبحاثه دراسات ترقى إلى أواخر الخمسينيات، فقد حاولت ـ جهد الإمكان ـ تقريب أسلوب هذا القطاع من المنهجية التي سار عليها معظم الكتاب.

وإلى هنا أذيل هذا التقديم بجزيل الشكر ووافر التقدير، للمساعدات الثمينة التي بذلها كل من سيادة قيدوم الكلية الأستاذ عبد الواحد بنداود والكاتب العام الأستاذ محمد منيار، فضلا عن المجهود الجاد الذي قام به الأستاذ عمر أفا، وساير به مراحل نشر الكتاب : طبعة وتحسينا وتذليلا للصعوبات؛ يساعده في ذلك من مصلحة النشر: كل من العضوين المقتدرين السيد أحمد بن علي والسيد محمد معتصم مع السيدة خديجة برادة. والله سبحانه لا يضيع أجر من أحسن عملا.

توضيحات

1 ـ الإختصارات التي استخدمت في الهوامش

ط.ف	:	المطبعة الحجرية بفاس.
خ.ع.د	:	الخزانة العامة بالرباط، قسم حرف الدال.
خ.ع.ك	:	الخزانة العامة بالرباط، قسم حرف الكاف.
خ.ع.ق	:	الخزانة العامة بالرباط، قسم حرف القاف.
خ.ع.ج	:	الخزانة العامة بالرباط، قسم حرف الجيم.
خ.م خ.س	}	الخزانة الحسنية بالرباط
خ.س.ز	:	الخزانة الحسنية بالرباط قسم المجموعة الزيدانية.
م.س	:	المصدر أو المرجع السابق.

2 ـ المصادر والمراجع تذكر وضعيتها عند أول إحالة، ولا يتكرر ذلك عند الإحالات التالية.

3 ـ يجد القارئ في عدد من الهوامش إشارات إلى مصادر أو مراجع يُعتمد فيها النص المخطوط دون المطبوع، ومردُّ ذلك إلى أن هذه المستندات كانت لا تزال غير منشورة في فترة إعداد الدراسة المعنيَّة، وحين نشرت صار الإعتماد على النص المطبوع في دراسات أخرى. ونفس الإعتبار بالنسبة للمستندات التي تجدَّد طبعها.

مَدْخَل

أولا: وضع الدولة الموحدية وهي في دور الانحلال

من المعروف أن الدولة الموحدية أعظم دولة إسلامية قامت في المغرب، بما كان لها من سعة الرقعة، وانبساط النفوذ في الشمال الإفريقي والأندلس، وفي عهدها بلغت العلوم والآداب والصناعات شأوا عظيما في التقدم والازدهار.

ثم أخذ يبدو ضعف الموحدين بعد موقعة العقاب (609هـ/1209م)، وهي التي أفضت ـ على حد تعبير ابن الأبار[1] ـ إلى خراب الأندلس، وكانت السبب الأقوى في تَحَيُّف الروم بلادها حتى استولت عليها[2].

وقد كان أثر هذا الحادث بالأندلس أسبق منه في بقية أجزاء الأمبراطورية الموحدية، فمنذ سنة 610هـ/1210م أخذت مدن أندلسية تسقط بيد إسبانيا النصرانية دون أن يستطيع الموحدون الدفاع عنها.

وفي المغرب الأقصى بالخصوص، يبتدئ الانحلال الموحدي من سنة 615هـ/1215م، وتتلاحق بوادر الضعف الحكومي، فقد انحسر نفوذ السلطة إلى المدن خاصة، حيث اعتصم بها الولاة الذين لم يعد لهم نفوذ على البوادي، كما اشتعلت الثورات في كثير من الجهات، وانعدم الأمن في الطرقات، وظهرت المناكر، بينما امتنع عامة الشعب من أداء الضرائب[3].

---

(1) التكملة لكتاب **الصلة**، ط الجزائر رقم 262.

(2) **الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية**، لمؤلف مجهول (الجزائر سنة 1920)، ص. 51.

(3) **الذخيرة السنية**، ص. 35 ـ **العبر** (بولاق، سنة 1284)، ج 7، ص. 170.

وزاد الأمر خطورة أن السلطة المركزية انتابتها فوضى، وأصبح أشياخ الموحدين يتلاعبون بملوكهم، فخلعوا عبد الواحد بن يوسف الأول، ثم قتلوه سنة 621هـ/1221م وبايعوا ـ بعده ـ العادل، ثم خنقوه وبايعوا المامون، ثم نكثوا وبايعوا ابن أخيه يحيى في الحين[4].

وساوق هذه الهزاهز غلاء ومجاعات اجتاحت المغرب والأندلس سنوات طويلة[5].

وقد نشأ عن هذا كله انحلال في حياة المملكة الموحدية : ففي المغرب توقفت حركة الحراثة في البوادي[6]، كما أن عددا من المدن انتابها الخراب : ففي فاس اضمحلت كثير من المنشئات الصناعية والعمرانية[7]، كما كثر الخراب في ديار مدينة مراكش[8]، وفي مكناس دثرت مدائنها القديمة ولم يبق منها سوى الصوامع والأطلال العتيقة[9]، وفي الرباط تهدم جامع حسان الذي نقضه السعيد الموحدي ليصنع بخشبه الأجفان الغزوانية[10]، وفي هذه الفترة أيضا خربت ـ نهائيا ـ مدينة مغيلة[11] التي لا تزال أطلالها قائمة غرب مدينة فاس.

يضاف لهذا أن أمن المغرب الخارجي صار مهددا نتيجة ضعف القوى الداخلية، وهكذا تعرضت عدة مدن شاطئية لهجمات بحرية، فقد شدد الجنويون الحصار على سبتة، ونصبوا عليها المجانيق وآلات الحرب، وأسرفوا في التضييق عليها حتى صالحهم أهلها بأربعمائة ألف دينار، فأقلعوا عنها سنة 633هـ[12]. وفي سنة 658هـ

---

(4) **الذخيرة السنية**، ص. 28 ـ **روض القرطاس**، فاس، 1305، ص. 204، وفي الذيل والتكملة لدى ترجمة ابن الصفار الملقب بالبرناج سجل ابن عبد الملك أن خلع عبد الواحد وما تبعه كان سببا في إبادة دولة الموحدين، مصور الخزانة العامة بالرباط رقم د 2647، لوحة 488. ونحو هذا في **نظم السلوك** للملزوزي (المطبعة الملكية بالرباط)، ص. 60.

(5) **روض القرطاس**، ص. 29، 196ـ198.

(6) **الذخيرة السنية**، ص. 35.

(7) أنظر **روض القرطاس**، ص. 29 وجنى **زهرة الآس**، الجزائر، ص. 34.

(8) **البيان المُغرب**، لابن عذاري، طبعة تطوان.

(9) **الروض الهتون**، المطبعة الملكية بالرباط، ص. 32ـ33.

(10) **الذخيرة السنية**، ص. 66.

(11) **ذكر مشاهير بيوتات فاس في القديم**، نسخة مخطوطة لدى بيت بني المغيلي.

(12) **روض القرطاس**، ص. 198 ـ **البيان المغرب**، ص. 404ـ405.

هاجم القشتاليون مدينة سلا ودخلوها وخرّبوها[13]، وفي سنة 668هـ دخل النصارى حصن العرائش وحصن تشمس فقتلوا الرجال وسبوا النساء والأموال، وأضرموا الحصنين نارا ثم ارتحلوا[14]، قال في **الاستقصا**[15] : ولم يبين في **القرطاس** هؤلاء النصارى من هم.

ولقد فكّر فرديناند الثالث ملك قشتالة، في أن يعبر البحر بأسطول إلى إفريقيا و يغزو هنالك و يفتتح، وقام أسطول قشتالة بالفعل بإحراز نصر على الأسطول المغربي سنة 649هـ/1251م[16].

أما في الأندلس فقد افترقت كلمة الأمراء الموحدين بها، وتحاربوا على الخلافة، واستجاشوا بجيرانهم الكفار، وأمكنوهم من كثير من الحصون الإسلامية طمعا في التغلب، وفي سنة 625هـ قام ابن هود بمرسية وشرق الأندلس وقضى على النفوذ الموحدي بالأندلس، وبعده ـ في سنة 629هـ ـ ثار محمد بن يوسف ابن الأحمر بغرب الأندلس، وثارت الحروب بينه وبين ابن هود، وفي خلال هذه التقلبات التي مرت بالأندلس كانت القواعد والمدن والحصون تتساقط بيد إسبانيا النصرانية. وكان عدد من الجهات ينزل عنها ابن هود أو ابن الأحمر فيتملكها هؤلاء الإسبانيون بدون قتال، وقد بلغت الجزية التي كان يؤديها ابن هود أربعمائة ألف دينار سنوية[17].

ثم آلت الحال بالأندلس ـ سنة 663هـ ـ إلى أن عزم ألفونسو ملك قشتالة على استئصال الصبابة التي تبقت للمسلمين بالأندلس، وقرر أن يبعث إلى كل بلدة إسلامية جيشا لمحاصرتها[18].

ولا ننسى أن نذكر ـ بعد هذا ـ أنه في هذه الفترة كان قد انفصل عن المملكة الموحدية تونس التي قامت بها الدولة الحفصية ابتداء من سنة 625هـ[19]، ثم

(13) توجد تفاصيل هذه الحادثة في **البيان المغرب**، مخطوط الخزانة العامة بالرباط، رقم ق 200. وهناك نبذ عنها في **روض القرطاس**، ص. 216، **والذخيرة السنية**، ص. 103، **والعبر**، ج 7، ص. 178.

(14) **الذخيرة السنية**، ص. 137، واقتصر في **روض القرطاس**، ص. 295، على ذكر خصوص العرائش.

(15) ج 2، ص. 15، القاهرة، سنة 1312هـ.

(16) **تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين**، تأليف المؤرخ الألماني يوسف أشباخ، الترجمة العربية؛ الطبعة الثانية، ص. 445.

(17) **العبر**، ج 7، ص. 190، مع **روض القرطاس**، ص. 197.

(18) **الذخيرة السنية**، ص. 113.

(19) **العبر**، ج 7، ص. 180ـ181.

الجزائر التي ظهرت بها دولة بني عبد الواد من سنة 633هـ[20].

وهكذا نتبين مظاهر الضعف الذي لحق المملكة الموحدية خلال النصف الأول من القرن السابع الهجري، وطبيعي أن يتبع هذا انحطاط في العلوم والآداب والصناعات، وانتكاس في المستوى الأخلاقي والاجتماعي، وقد كانت هذه ـ مضافة إلى مظاهر الضعف الأخرى ـ من الأسباب التي أطاحت بالدولة الموحدية العظيمة، حيث تناثرت أجزاء أمبراطوريتها في الأندلس والشمال الإفريقي، وقد صار المغرب الأقصى من نصيب الدولة المرينية التي سنتناول التعريف بها توّا.

ثانيا : تعريف بالدولة المرينية

لم يتوفر المرينيون على القوة والنظام اللذين كانا لدى الموحدين، وهذا من الأسباب التي جعلت بني مرين لا يستطيعون استعادة المملكة الموحدية بشمال إفريقيا والأندلس، وإنما توزعت هذه الأمبراطورية بين الحفصيين بتونس وبني عبد الواد بالجزائر.

أما في الأندلس فقد تقاسم معظم القواعد الإسلامية بها القشتاليون والقطلانيون، وآلت رقعة صغيرة في الجنوب إلى بني الأحمر ابتداء من سنة 629هـ/1231[21].

وبهذا لم يبق قارا للمرينيين سوى المغرب الأقصى الذي ابتدأ ظهورهم به أواخر سنة 1216/613[22] أيام الأمير الأول عبد الحق بن محيو، ثم قامت الدولة بصفة نهائية سنة 1219/616 في عهد عثمان بن عبد الحق[23]، وفي ثاني محرم 668/1269، استولى يعقوب بن عبد الحق على مدينة مراكش حيث انقرضت الدولة الموحدية[24]، وبعد هذا الحادث أخذ يعقوب يتلقب بأمير المسلمين بدل لقب

(20) **العبر**، ج 7، ص. 79.

(21) **العبر**، ج 7، ص. 190 ؛ **روض القرطاس**، ص. 197.

(22) **الذخيرة السنية**، ص. 25 ؛ **روض القرطاس**، ص. 205.

(23) **الذخيرة السنية**، ص. 35؛ **روض القرطاس**، ص. 207.

(24) **الذخيرة السنية**، ص. 133.

«الأمير» الذي كان يدعى به[25]، لما كان هو ومن تقدمه من المؤسسين الأوليين يقيمون الدعوة للموحدين ثم للحفصيين القائمين بتونس[26].

ثم تابع يعقوب الاستيلاء على ما تبقى من الجهات خارجا عن نفوذه إلى أن اتسق له سائر المغرب الأقصى، بما في ذلك المغرب الشرقي والساقية الحمراء[27]، مع سبتة التي أبقاها في ولاية العزفيين مقابل ضريبة سنوية للخزينة المغربية[28]، ثم اندمجت ــ بعد ــ في حظيرة الوطن الكبير أواخر عهد أبي سعيد الأول سنة 728/ 1328[29].

وقد امتدت المملكة المغربية أيام أبي سعيد هذا في الجنوب إلى معاقل الصحراء وقصور توات وتيكورارين وتمنطيت[30].

كما امتد المرينيون في فترات خارج المغرب الأقصى، فامتلك يعقوب بالأندلس 53 مسورا ما بين مدن وحصون، زيادة على القرى والبروج التي تزيد على 300[31]، وكان الحد بينه وبين المملكة النصرية هو حصن ذكوان بمقربة من مالقة[32].

كما أن يوسف بن يعقوب بسط نفوذه على نواحي كثيرة من الجزائر[33]، وفي بعض أيام أبي الحسن توحد المغرب العربي تحت قيادته من السوس الأقصى إلى مسراته قرب الحدود المصرية، زيادة على انفساح هذه المملكة إلى «رندة» بالأندلس[34].

وفي أيام أبي عنان بن أبي الحسن برقت بارقة لاستعادة وحدة المغرب العربي ثم سرعان ما خبث[35].

---

(25) **نفسه**، ص. 134.

(26) **المقدمة**، لابن خلدون، المطبعة البهية بمصر، ص. 200.

(27) **الذخيرة السنية**، ص. 98 ؛ **روض القرطاس**، ص. 214 ؛ **العبر**، ج 7، ص. 206.

(28) **الذخيرة السنية**، ص. 98 ؛ **روض القرطاس**، ص. 214.

(29) **العبر**، ج 7، ص. 247.

(30) **نفسه**، 244/7.

(31) **الذخيرة السنية**، ص. 98.

(32) **روض القرطاس**، ص. 274.

(33) **المصدر**، ص. 284، ويضيف قائلا : «وفي سنة إحدى وسبعمائة توفي ملك الأندلس أبو عبد الله ابن الأحمر ووليّ بعده ولده محمد المخلوع، فكتب بالبيعة إلى أمير المسلمين أبي يعقوب، وبعث له بهدية عظيمة».

(34) **العبر**، ج 7، ص. 270.

(35) **نفسه**، ج 7، ص. 296–298 و301–302.

أما الفترة الواقعة بعد عهد أبي عنان إلى نهاية الدولة فلم يحدث فيها امتداد منظم نحو شرق المغرب، ولا يستثنى من هذا سوى غارات عابرة ارتجلها ملوك وحكام مرينيون[36].

* * *

وقد امتدت قوة الدولة المرينية حتى أيام أبي الحسن، ثم أخذت في التراجع تأثرا بعدة عوامل : فهناك الضعف الذي نزل بالجيش بعد موقعتي طريف[37] والقيروان[38]، حيث انقطع العبور المريني إلى الأندلس، وفشلت محاولة استعادة الأمبراطورية الموحدية في شمال إفريقيا.

وهناك بدأ تفوق دولتي إسبانيا والبرتغال في القوى البحرية والبرية[39]، وهناك ـ مرة ثالثة ـ العواقب الخطيرة التي نجمت عن وباء 749ـ1348/750، وفي **المقدمة**[40] وصف دقيق لأثار هذا الوباء الذي أصاب المغرب والشرق معا، وفيما يخص عواقبه في الأمم المغربية، يذكر ابن خلدون أنه «تحيف الأمم، وذهب بأهل الجيل، وطوى كثيرا من محاسن العمران ومحاها، وجاء للدول على حين هرمها وبلوغ الغاية من مداها، فقلص من ظلالها، وفل من حدها، وأوهن من سلطانها، وتداعت إلى التلاشي والاضمحلال أحوالها، وانتقص عمران الأرض بانتقاص البشر، فخربت الأمصار والمصانع، ودرست السبل والمعالم، وخلت الديار والمنازل، وضعفت الدول والقبائل، وتبدل الساكن».

هكذا يصف ابن خلدون عواقب هذا الوباء التي ساوقت ـ بالمغرب ـ ضعف القوة المرينية وتفوق جيرانها، فكان من ذلك كله التراجع الذي نزل بالدولة، والذي لم يظهر كثيرا في أيام أبي عنان، وإنما ظهر بعد وفاته حيث دخلت الدولة في فترتها الثالثة.

(36) **نفسه**، ج 7، ص. 302ـ303 و311 و328، و 348ـ349 و361ـ362.

(37) هي موقعة «ريو سالادو» التي يقول عنها ابن الخطيب في **الإحاطة** : «وبالجملة فهذه الواقعة من الدواهي المعضلة الداء والارزاء، التي تضعضع لها ركن الدين بالمغرب وقرت بذلك عيون الأعداء»، **شذرات الذهب**، ج 6، ص. 128 ؛ ومن بين المصادر التي تحدثت عن هذه الموقعة **العبر**، ج 7، ص. 261ـ262.

(38) من المصادر التي تحدثت عن موقعة «القيروان»، **العبر**، ج 7، ص. 273ـ276.

(39) **الاستقصا**، ج 2، ص. 155ـ156، ط. مصر.

(40) ص. 27.

وقد كان من نتائج ضعف الدولة في هذه الفترة أن تعرض عدد من الملوك المرينيين للحجر من طرف الوزراء أو الحجاب[41]، كما صار للملك النصري محمد الغني بالله تدخل في سياسة المغرب الداخلية أثناء هذا الدور[42]، مما أدى إلى إضافة سبتة للأندلس واقتطاعها من المغرب[43] الذي استطاع أن يسترجعها ـ بعد ـ لحظيرته[44]، وفي هذه الفترة ـ أيضا ـ تنازل الوزير المتغلب عمر بن عبد الله الياباني عن مدينة رندة بالأندلس لفائدة الغني بالله ابن الأحمر وقت عزله من الملك واستقراره بالمغرب، وذلك أواخر سنة 1360/762[45]، وبعد هذا تم للغني بالله ـ بعد عودته إلى ملكه ـ الاستيلاء على جبل طارق، فمحا بذلك دعوة بني مرين مما وراء البحر[46].

ومن العواقب الوخيمة لهذا الانحلال أن تعرض المغرب أواخر العهد المريني لاحتلال بعض شواطئه، فاستولى البرتغال على مدائن سبتة 1415/818[47]، وقصر مصمودة : القصر الصغير[48]1458/863، ثم طنجة 1364/869[49]، وهو التاريخ الذي انتهت فيه الدولة المرينية في 27 رمضان بعد ما استمرت 253 عاما.

وكانت عاصمة الدولة المرينية هي فاس التي ابتنى يعقوب بن عبد الحق غربيها المدينة البيضاء : «فاسا الجديد»[50] مقر الجهاز الحكومي للدولة.

وإلى جانب العاصمة المركزية توجد مدن أخرى بمثابة عواصم ثانوية، وبهذا ابتنى بها الملوك المرينيون قصبات خاصة، فقد أسس يعقوب بن عبد الحق القصبة المرينية شرق مدينة مكناس[51]، وبالأندلس ابتنى نفس الملك البلد الجديد على الجزيرة

(41) انظر **العبر**، ج 7، ص. 299 و312 و317 و336، مع **الاستقصا**، ج 2، ص. 144–150، ط. مصر.

(42) **العبر**، ج 7 وبالخصوص ص. 349 مع **الاستقصا**، ج 2 وبالخصوص ص. 134.

(43) **العبر**، ج 7، ص. 350.

(44) **نفسه**، ج 7، ص. 354.

(45) **نفسه**، ج 7، ص. 317؛ وفي سنة 1485م استولى عليها فرناندو نهائيا.

(46) **نفسه**، ج 7، ص. 339.

(47) **الاستقصا**، ج 2، ص. 147، ط. مصر.

(48) **نفسه**، ج 2، ص. 149.

(49) **نفسه**، ج 2، ص. 150.

(50) **الذخيرة السنية**، ص. 186–187؛ **روض القرطاس**، ص. 232 ؛ **العبر**، ج 7، ص. 195.

(51) **الذخيرة السنية**، ص. 188؛ **روض القرطاس**، ص. 295.

الخضراء[52]، وهو الذي يسميه ابن مرزوق[53] «البنية»، وبنى يوسف بن يعقوب مدينة «المنصورة» بجوار تلمسان[54]، ثم بنى أبو سعيد الأول على سبتة القصبة المسماة «أفراك»[55]، وجدد أبو الحسن بنبتي تلمسان وسبتة حيث أطلق على كل واحدة منهما اسم «المنصورة»[56].

أما أهم المدن المغربية في عهد المريني فهي حسب مركزها الاقتصادي آنذاك :

فاس، ومراكش، وسجلماسة، ومكناس، وسبتة، وأسفي، وانفا، وسلا، والرباط، وطنجة، وتازى، وأغمات، وازمور[57].

وبالرغم من كون المرينيين لم يوفقوا في تحقيق كل برامجهم، فإن أهمية عصرهم تبدو في الطابع القار الذي طبعوا به المغرب في كثير من مظاهره :

فإلى العصر المريني يعود التنظيم الجديد لشمال إفريقية حيث تأسست الدولة المغربية تأسيسا جديدا. وإلى هذا العصر يرجع استقرار كثير من العادات والتقاليد المغربية وتنسيق التشريع المغربي.

وأيضا تتجلى قيمة هذا العصر في العمل القيم الذي أسهم به المغرب ـ حكومة وشعبا ـ في بعث الحضارة الإسلامية بعدما كادت تقضي عليها عواصف الحروب الصليبية في المغرب الإسلامي[58]، وفي الشرق الذي أصيب ـ أكثر ـ بكارثة النسف التتري لسائر مظاهر الحضارة والعمران في أكثر جهاته[59].

(52) **روض القرطاس**، ص. 264 و273 ؛ **الذخيرة السنية**، ص. 99.

(53) **المسند الصحيح الحسن**، الباب الأول، خ.ع.ق. 111.

(54) **روض القرطاس**، ص. 284 ؛ **العبر**، ج 7، ص. 221.

(55) **العبر**، ج 7، ص. 247، وانظر **اختصار الأخبار**، ص. 20 من طبعة باريس، وقد استمرت قصبة أفراك هذه معروفة إلى أوائل القرن 12هـ، ومنها كان ركوب السفير المغربي محمد بن عبد الوهاب الغساني : في رحلته إلى إسبانيا، حسب **رحلة الوزير في افتكاك الأسير** المنشورة بمدينة العرائش، ص. 6.

(56) انظر **المسند الصحيح الحسن**، الباب الخمسون.

(57) قطعة من **مسالك الأبصار** لابن فضل الله العمري تشتمل على قسم الممالك من الكتاب وتقع أول مجموع، ورقة 106بـ ؛ «نسخة خاصة».

(58) في خصوص الكتب العلمية يسجل في **الذيل والتكملة** أثناء ترجمة أبي المطرف ابن عميرة : إن المسيحيين ابتذلوا ذخائر دواوين العلم أثناء إستيلائهم على قرطبة وكثير من بلاد الأندلس سواها، «نسخة المكتبة الملكية» بالرباط، ج 1، رقم 269.

(59) من المصادر التي تحدثت عن غارة التتر وآثارها، **الكامل** لابن الأثير، ج 12، ص. 137–139 و145. وقد عاصر مؤلفه هذه الحادثة، وانظر أيضا **الذخيرة السنية**، ص. 55، **وتاريخ الدولتين الموحدية والحفصية** للزركشي، ص. 26، لبطبعة الأولى.

وإن هذه العواصف التخريبية التي حاقت بالمغرب والمشرق معا كانت أحد الأسباب لقصور الحضارة المرينية عن الحضارة الموحدية.

ومن مزايا العصر المريني أنه استطاع أن يؤخر كارثة الأندلس بنحو قرنين من الزمن، لما بذل المغرب من دفاع مجيد عن الفردوس المفقود.

وبعد هذا فإن المغرب مدين لعظماء المرينيين بما قاموا به من إنعاشه بعد الخراب والفوضى اللذين خيَّما على ربوعه في أعقاب العصر الموحدي حيث انتكست الحضارة المغربية انتكاسا.

وقد كان أول ما بدأوا به هو إعادة إقرار الأمن بالمغرب، قال في «**البيان المغرب**»[60] لما ذكر قيام بني مرين :

«... فما قدموا عملا من الأعمال قبل تمهيد البلاد، والضرب على أيدي أهل الضرر والفساد، فأمنوا السبل، وسدوا الخلل، فاتسعت أحوالهم، وانبسطت آمالهم، فصار أهل تلك البلاد يعظمونهم غاية الإعظام، ويعاملونهم بالبر والإكرام».

وبعد استقرار الأمن بالبلاد أخذوا في تنفيذ برامجهم في الدفاع عن الأندلس، وقد كان نجاحهم ـ أكثر ـ في تشجيع العلم وإقامة معالم العمران، وبذلك حققوا كثيرا من الآمال التي كان المغاربة يعلقونها على هذه الدولة الجديدة، والتي عبر عنها الشاعر المغربي الكبير مالك ابن المرحل أثناء قصيدة[61] قدمها ليعقوب بن عبد الحق في التهنئة بفتح مراكش، وقد بث فيها الآمال التالية :

من سنة الله أن يحيى خليقته على يديك وأن يكفيهم النقما
وأن يقيم بك الاسلام من أود وأن يديم بك الاحسان والنعما

(60) ص. 408، طبعة تطوان، الأولى.

(61) القصيدة واردة في الذخيرة السنية، ص. 135–137.

الباب الأول

فايز الجديد وصاحبتها

أولا : فاس الجديد داخليا

مقدمة

اتخذ بنو مرين مدينة فاس عاصمة لهم، وكان أول من نزل بهذه المدينة هو الأمير أبو يحيى أبو بكر بن عبد الحق[1]، وقد جعل مقامه في قصر القصبة الموحدية : «قصبة النوار»[2]، التي كان محمد الناصر الموحدي بناها على مقربة من باب الشريعة عام 600هـ[3]/1203-1204م، وفي هذه القصبة كانت وفاة أبي يحيى، ثم صارت مقرا لأخيه أبي يوسف يعقوب ابن عبد الحق، ومنها كان خروجه لتأسيس فاس الجديد[4].

ويوضح ابن خلدون في **العبر**[5] الأسباب التي حفزت أبا يوسف لتأسيس المدينة الجديدة، ويقدمها في هذه الفقرة :

«ولما سكن غرب الثوار، وتمهد أهل المغرب، ورأى أمير المسلمين أن أمره قد استفحل، وملكه قد استوسق، واتسع نطاق دولته، وعظمت غاشيته، وكثر وافده،

---

(1) أنظر **الذخيرة السنية**، ط. الجزائر، ص. 79، و**روض القرطاس**، ط. فاس 1305هـ، ص. 210-211 و**العبر**، ج 7، ص. 174.

(2) يبدو أن أصل التسمية «قصبة الأنوار»، ثم صحفها الاستعمال الدارج إلى «قصبة النوار».

(3) أنظر **جنى زهرة الآس**، ط. الجزائر، ص. 32، و**الدوحة المشتبكة في أحكام دار السكة**، مخطوطة خاصة ؛ وعن وصف هذه القصبة أيام أبي عنان : يرجع إلى أوائل **فيض العباب** لابراهيم ابن الحاج النميري، مخطوطة المكتبة الملكية بالرباط رقم 3267. ص. 5.

(4) **روضة النسرين**، ط. المطبعة الملكية بالرباط، ص. 19.

(5) ط. مصر 1284هـ، ج 7، ص. 195.

رأى أن يختط بلدا يتميز بسكناه في حاشيته وأهل خدمته وأوليائه حاملين سرير ملكه، فأمر ببناء البلد الجديد لصق فاس بساحة الوادي...».

* * *

وعن المؤسسات الأولى بفاس الجديد، يتفق المؤرخون المعنيون بالأمر على أن وضع الحجر الأساسي لفاس الجديد كان يوم ثالث شوال عام 674هـ[6]/21 مارس سنة 1276م، وقد جاء تصميم هذه المدينة ينقسم إلى ثلاثة أقسام :

1 ـ القصر الملكي وملحقاته.

2 ـ معسكرات الجيش.

3 ـ المدينة وملحقاتها الداخلية.

(6) الذخيرة السنية، ص. 176 وروض القرطاس، ص. 233 و295 والعبر، ج 7، ص. 195.

الفصل الأول

القصر الملكي ومُلحقاته

الفصل الأول

القصر الملكي وملحقاته

أ ـ القصر

حسب العمري في «**مسالك الأبصار**»[7]، فقد كان القصر الملكي عالي البناء، يشتمل على قبات علية ضخمة، وغرف مرتفعة، ومجالس سلطانية.

وكان بداخله القبة المعروفة بـ«ـقبة الرضا»، وهي قبة عظيمة الارتفاع، خارقة الاتساع، وأمامها بركة ممتدة، بها مركب لاتساعها وكبرها، وخلفها بركة أخرى مثلها بها مركب آخر، ومساحة المركبين واحدة، والقبة العظمى بينهما، وفي جميع جدران القباب شبابيك مطلة، والبستان حاف بالجميع، وهو بستان جليل منوع بصنوف الأشجار والغراسات على اختلافها[8]، وكان الماء يجري إلى هذا القصر من الموضع المعروف بـ«ـرأس الماء»[9]، مرفوعا في قنوات على قناطر مبنية لهذا الصدد.

هذا ما يذكره العمري عن هذا القصر، وهو ـ على اقتضابه ـ يقدم في هذا الصدد معلومات كنا سنجهلها تماما لولا هذا المصدر. غير أنه لا يعرف ـ لحد الآن ـ هل لا تزال أطلال هذا القصر ماثلة أم اندثرت بالكلية؟

---

(7) محمد المنوني :**وصف المغرب أيام السلطان أبي الحسن المريني**.

(8) هذا غير «بستان المصارة» الذي كان خارج فاس الجديد، وسيرد ذكره بعد.

(9) تعيين هذا المنبع عن **روضة النسرين**، ص. 20.

ب ـ الجامع الكبير

على مقربة من القصر الملكي أسس يعقوب المريني ـ أيضا ـ مسجدا عظيما هو «الجامع الكبير» الذي لا يزال قائما لحد الآن، وقد استخدم في بنائه أسرى الإسبان إلى جانب العملة المغاربة، وهذا ما جعل بنايته يزدوج فيها ـ إلى حد ـ الفن المغربي بالإسباني، وكان الذي أشرف على عمارته هما أبو عبد الله بن عبد الكريم الجدودي ووالي مكناس أبو علي الأزرق، ويظهر أن الأول كان مشرفا على التصميمات، بينما أشرف الثاني على النفقات، حيث إنها كانت من مداخيل معصرة مكناس، وقد كمل بناء الجامع في شهر رمضان عام 677هـ[10]/1279م، وبعد هذا أضيفت له التحسينات التالية :

فقد تم عمل المنبر أول جمعة من رمضان عام 678هـ[11]/1280م، وفي يوم السبت 27 ربيع الأول عام 679هـ/27 يوليوز سنة 1280 علقت به الثريا الكبرى[12] التي لا تزال به وسط الصف الثالث حتى الآن، مكتوبا على نطاقها الأسفل اسم يعقوب بن عبد الحق، مع تاريخ الفراغ من عملها الذي هو عام 678 هـ/1279ـ1280م، ثم في رمضان من نفس سنة 679هـ/1280ـ1281م ركبت به المقصورة[13]، وهذه ـ بالقطع ـ غير الموجودة الآن حيث إنها حديثة، ولا تتسم بالطابع المريني، بآستثناء واجهتها المقابلة للمحراب، فهي مرينية مرممة ترميما حديثا.

ومن الإنشاءات الأخرى بهذا الجامع : أنه يوجد به عند الجدار الواقع شمال قبلة الصف الثاني، وقفية منقوشة بوسطه في إطار مستطيل، وقد كتب فيها :

«أنه أمر ببناء هذا السبع السلطان، أمير المسلمين المستنصر بالله، أبو فارس ابن أبي العباس أحمد بن أبي سالم «المريني»[14]، لتلاوة الكتاب العزيز: ختمة في كل أسبوع مرة، وعين لذلك إثني عشر طالبا ممن يجيد التلاوة، ويقوم بحفظ القرآن، على

(10) آنظر **الذخيرة السنية**، ص. 187ـ188، مع **روض القرطاس**، ص. 296.

(11) **المصدر الأول**، ص. 188.

(12) **الذخيرة السنية**، ص. 188، و**روض القرطاس**، ص. 296.

(13) **الذخيرة السنية**، ص. 188.

(14) ترجمته في **روضة النسرين**، ص. 39ـ40، و**جذوة الاقتباس**، ص. 268ـ269، ط.ف، و**الاستقصا**، ط. دار الكتاب بالدار البيضاء، ج 4، ص. 79ـ80.

أن يكون لكل واحد منهم ستون درهما فضة في كل شهر، جارية من الأحباس المعينة لذلك، ثم تعدد الوثيقة أعيان الأملاك الموقوفة لهذا الغرض، وأخيرا يأتي تاريخ الوقفية: 17 ربيع الأول، عام 798هـ/«30 دجنبر سنة 1395م».

ومن الجدير بالذكر أن السيد بوريس ماسلو مؤلف كتاب «**مساجد فاس وشمال المغرب**»[15] لم يتبين كلمة السبع الواردة أول هذه الوقفية، فوقع في الاشتباه، ولعله اكتفى بقراءتها من رسم لوحة الوقفية التي أثبتها في هذا الكتاب[16]، وقد وقفت على عين الوقفية مباشرة، فعاينت كلمة السبع واضحة.

وبعد هذا نوضح أن تعبير السبع الوارد في هذه الوثيقة جاء عوضا عن كلمة «الأسبوع»، وقد كانت تطلق ـ ابتداء من هذه الفترة ـ على المكان الذي يقوم فيه القراء بختم القرآن الكريم مرة في كل أسبوع، حيث يقرأون كل يوم سبعا واحدا حسب تجزئه متعارفة لديهم، جاء في «**الروض الهتون**» لدى الحديث عن أعمال أبي زكرياء الوطاسي بمدينة مكناس :

«وأنشأ بجامعها المجلس المسمى بالأسبوع، لكون القراء يختمون فيه القرآن العزيز في كل أسبوع»[17].

وفي حوالة القرويين القديمة[18] وردت هذه الفقرة: «زمام يشتمل بحول الله تعالى وقوته. على عقد أكرية الربع المحبس على القراء بالأسبع «كذا» بجامع القرويين، شرفه الله تعالى بدوام ذكره...».

ولا شك أن المقصود بالأسبوع في هذه الحوالة : المكان الذي صار يعرف بالخلوة يسرة قبلة الصف الأول من جامع القرويين. ونقتطف من **زهرة الأس**[19] في التعريف به ما يلي : «وأما زاوية القراء، البهية الغراء، التي أمر بها مولانا المستعين بالله ـ «يقصد أبا سالم المريني» ـ عن يسار قبلة هذا الجامع... فإنه أقامها على

---

(15) **Les mosquées de Fès et du Nord du Maroc, par Boris Maslow, Paris, Les Editions d'Arts et d'Histoire, MCMXXXVII, p. 38.**

(16) لوحة 57، صورة 142.

(17) ورد هذا النص هكذا في نسخة **الروض الهتون** المكتوبة بخط مؤلفه ابن غازي، وهي مخطوطة بالمكتبة الزيدانية بمكناس، رقم 3444، حسب الفهرس الجديد.

(18) خ.ع.، قسم الحوالات.

(19) ط. المطبعة الملكية بالرباط، ص. 76–77.

ساباط هنالك... ورتب فيها قراء يقرأون القرآن، ويختمونه في كل سبعة أيام بطول الأزمان، وأجرى لهم جراية في كل شهر ينتفعون بها، ويرتبون لذلك بسببها، وتم عملها في أواخر شهر رمضان سنة اثنتين وستين وسبعمائة».

وهكذا يتبين مدلول تعبير السبع، ويتضح أن الأمر يتعلق بإنشاء مجلس بجامع فاس الجديد، لقراءة القرآن العزيز، وختمه ــ أسبوعيا ــ على الطريقة المشار لها.

وهنا نتساءل : أين كان موقع المجلس الذي بناه السلطان المريني عبد العزيز الثاني بهذا الجامع ؟ إن الوقفية ــ كما هو معلوم ــ منقوشة على الجدار الواقع عند نهاية الصف الثاني عن يسار القبلة، ومن الواضح أن المكان الواقع أسفله هذه الوقفية هو من جملة الجامع الذي هو من تأسيس السلطان يعقوب بن عبد الحق، ولهذا لا يعقل أن تكون هذه البقعة هي المعنية في الوقفية بالبناء من طرف عبد العزيز الثاني.

وتفسيرا لهذا يفترض أن يكون هذا المجلس هو عين مكان مكتبة الجامع الواقعة يمنة نفس الصف الثاني في مقابلة لوحة الوقفية، وتكون هذه اللوحة نقلت من المكتبة إلى مكانها الحالي، لما حول الموضع من طرف السلطان العلوي : الرشيد بن الشريف، إلى مستودع لحفظ الكتب التي أوقفها بهذا الجامع[20]، ومما يؤيد هذا الافتراض، أن أرض هذه المكتبة تغطي طرفا من مقبرة توجد بجامع الجنائز جنوب غرب المسجد، وتضم رفات عدد من الشخصيات المرينية[21]، وفي هذه الحالة يكون من المناسب أني يبنى فوق هذه المقبرة مكان لتلاوة القرآن يوميا في أكثر حصة ممكنة.

* * *

وهذه عقدة أخرى تثيرها إحدى أثريات هذا الجامع، فإنه يوجد على العنزة المنصوبة به كتابة منقوشة في الخشب بخط شرقي عريض في الوجه الموالي للصحن. وهي تشتمل على قصيدة من تسعة أبيات هذا نصها :

أنظر لبهجـــة بيت الله يا رائـــي   وسرح الجفـــن فيها بين أرجـــــاء
تخالها جنـــة تزهـــــى مزخرفـــــة   بطـــيب الزهـــر من أنفـــاس قراء

(20) أنظر **الدرر الفاخرة** لابن زيدان، ص. 13–15، مع **الجريدة الأسيوية**، ج 10، ص. 109–116.
(21) أنظر عن هذه المقبرة : ألفريد بيل : كتابات عربية بفاس، **الجريدة الأسيوية**، ج 10، ص. 94–109.

تهدي حلى قارئيهـا من شمائلهـا فتحسب الزهر ناجت ذات أنداء
بيت الصلاة وإيواء الطلاب ومـا يغشى من البر أو يرى من إهداء
وقـد تأنـق واشيها وطرزهـا حسن الـزرابي من تحبير وشاء
ونمـمت بردهـا بسطـا مدبجة مثـل العـرائس في حلي واحـلاء
كأنما احتفـلت للوفـد زاهيـة كالروض في أرج يذكو، وازهـاء
توريقها كالعـذارى ضفرهـا نشرت على شقائـق وجنـات كادمـاء
أنوارهـا تخطـف الأبصار مشرقـة من أجل ذا «خطفت» تاريخ إنشاء

وقد جاء المقطع الأخير من القصيدة هو عبارة : «خطفت تاريخ إنشاء»، وهذا يبين أن تاريخ الإنشاء يأتي من مجموع حروف كلمة «خطفت» بحساب الجمل على الطريقة المغربية، وهو عام 1089 هـ، وإلى حد الآن فإن المتبادر أن القصيدة تتناول وصف وتمجيد الجامع الكبير بفاس الجديد، بمناسبة العنزة التي نصبها به السلطان العلوي إسماعيل بن الشريف، غير أن الواقع وراء هذا كله، فإن القصيدة من عمل أبي زيد عبد الرحمان بن عبد القادر الفاسي الفهري، وليس هذا كل ما في الأمر، وإنما العقدة هي أن جامع آثار أبي زيد الفاسي[22] أثبت هذه القصيدة ضمن أشعاره، وقد صدرها بهذه الفقرة : «وقال ـ رضي الله عنه ـ في المدرسة الرشيدية لما كمل بناؤها»، ثم ساق نفس القصيدة الآنفة الذكر.

وهكذا نجد نفسنا أمام قصيدة قيلت في مدرسة الشراطين بفاس الإدريسية، ولم تنظم برسم الجامع الكبير بفاس المرينية، على حين أنها إنما نقشت على عنزة منصوبة بهذا الجامع، لا بالمدرسة الرشيدية، وهنا نعيد قراءة القصيدة، لنجد أحد أبياتها واضحا في أن هذا الشعر أنشيء في مدرسة لا في مسجد، وسنقرؤ هذا في البيت التالي :

بيت الصـلاة وإيـواء الطـلاب ومـا يغشى من البر أو يـرى من إهـداء

ومن الممكن أن تفسر هذه الظاهرة بأن العنزة صنعت أول الأمر برسم مدرسة الشراطين، ثم عدل عن وضعها بها من أجل أن حجمها غير مناسب. أو

(22) هو ولده أبو عبد الله محمد، وقد سمى مجموعة آثار والده باللؤلؤ والمرجان، من كلام الإمام أبي زيد عبد الرحمان، ويوجد القسم الخامس منه في مجلد ـ من حجم صغير ـ بالمكتبة الملكية بالرباط، رقم 597، وقد وردت به القصيدة المعنية بالأمر ص. 10.

لسبب آخر، ثم في ظروف أخرى ركبت نفس العنزة في جامع فاس الجديد(°)، دون التنبه إلى موضوع القصيدة المكتوبة خلفها.

وبهذا يتضح أن هذا الأثر ليس مريني النشأة، وإنما يعود صنعه إلى العهد الإسماعيلي، وقد غابت هذه الملاحظات عن مؤلف كتاب «**مساجد فاس وشمال المغرب**».

وقد كان هذا الجامع يستعمل مركزا للمجالس العلمية المرينية، وجاء التصريح بهذا في «**تحفة النظار**»[23]، حيث ورد فيها لدى الحديث عن أبي عنان :

«...وأما اشتغاله بالعلم فها هو ـ أيده الله تعلى ـ يعقد مجالس العلم في كل يوم بعد صلاة الصبح، ويحضر لذلك أعلام الفقهاء ونجباء الطلبة بمسجد قصره الكريم، فيقرأ بين يديه تفسير القرآن العظيم، وحديث المصطفى صلى الله عليه وسلم، وفروع مذهب مالك رضي الله عنه، وكتب المتصوفة...».

وبعد هذا سيبقى علينا الوصف المادي لبناية هذا الجامع، وهذا ما ينبغي أن يرجع فيه إلى كتاب «**مساجد فاس وشمال المغرب**»[24] المتكرر الذكر في هذا البحث.

ج ـ الدولاب

على مقربة من الجامع الكبير في رجب 685/«1386» : ركب دولاب فاس الجديد الذي لا تزال بقاياه قائمة، وحسب «**الإحاطة**» المطبوعة[25]، فقد كان الذي صنعه ـ برسم يعقوب بن عبد الحق ـ هو المهندس الإشبيلي : محمد بن علي بن عبد الله بن محمد ابن الحاج، المتوفى بفاس الجديد عام 714 هـ/1314 م، ويزيد نفس المصدر[26] فيصف هذا الأثر بانفساح القطر، وبعد المدى، وسعة المحيط

(°) يؤكد البعض أن هذه العنزة إنما ركبت بالجامع خلال الإصلاحات التي تناولته في العهد اليوسفي، بينما صارت العنزة القديمة المتلاشية مع المنبر القديم إلى حوزة مصلحة الآثار.

(23) هي رحلة ابن بطوطة، ط. المكتبة التجارية الكبرى بمصر، ج 2، ص. 183.

(24) ص. 38ـ53، وأنظر أيضا **الجريدة الأسيوية** : الموضوع والجزء الآنفي الذكر، ص. 82ـ94.

(25) ط. مطبعة الموسوعات بمصر عام 1319هـ. ج 2، ص. 99.

(26) في نفس الجزء والصفحة الآنفي الذكر.

المتعدد الأكواب، وخفاء الحركة، وأنه كانت تحدي الركاب إلى مشاهدته، وقد أنشد مؤلف «**الإحاطة**»[27] في هذا الدولاب :

وقوراء من قوس الغمام ابتغوا لها ... مثالا أداروها عليه بلا شك
فبين الثريا والثرى سد جرمها ... وللفلك الدوار قد أصبحت تحكى
تصوغ لجين الماء في النهر دائما ... دراهم نور قد خلصن من السبك
وترسل من شهبانها ذا ذؤابه ... فتبغي استراق السمع عن حوزة الملك
تذكرت العهد الذي اخترعت به ... وحنت فما تنفك ساجعة تبكي[*]

د ـ دار السكة

وهي ـ أيضا ـ من تأسيس يعقوب المريني، الذي نقل مركز ضرب السكة من قصبة فاس القديمة «قصبة النوار»، وأسس له بناية جديدة ضمن مباني فاس المرينية، وقد بناها بمقربة من القصر الملكي، على هيئة مكان مربع محاط ببعض الحجرات الصغيرة حيث يسكن عمال دار السكة، وفي وسط هذه البناية يقع مكان ناظر الدار مع العدول والكتاب، وبالقرب من هذه الدار توجد دكاكين الصياغين مع الأمين الذي تعرض عليه المصوغات، ويضع طابعه على المقبول منها[28].

وحسب فقرة وردت ضمن لوحة الوقفية المنقوشة بداخل الجامع الكبير[29]، فإن جهة الصاغة ـ «دكاكين الصياغين» ـ كانت يمين الخارج من زنقة المدرسة، وإذا علمنا أن هذه المدرسة المرينية توجد الآن داخل القصر الملكي الحالي جهة باب الدكاكين، يتبين ـ على وجه التقريب ـ مكان دكاكين الصاغة، ثم موقع دار السكة.

(*) بعد كتابة هذا حدث أن سقط «الدولاب» في الوادي، متأثرا بتيار مياه الأمطار الغزيرة المتساقطة حوالي آخر فبراير 1968م، وقد انجرفت قطعة منه مع الماء، بينما رسب باقيه في الوادي ينتظر الإنقاذ من إدارة الآثار.

(27) في مقاماته : **معيار الاختبار في ذكر المعاهد والديار**، ط. مطبعة أحمد يمني بفاس سنة 1325هـ، ص. 49-50.

(28) **جغرافية إفريقيا**، ترجمة شيفير، ج 2، ص 110.

(29) أنظر عنها التعليق رقم 16.

الفصل الثاني

مُعسكَراتُ الجيش

الفصل الثاني

معسكرات الجيش

ويقصد بها مراكز الجيش مع الاصطبلات، ويمدنا ابن الخطيب[30] بأسماء ثلاثة من هذه المعسكرات، وهو إنما يشير لها إشارة بمناسبة تعداد البنايات المرينية بفاس الجديد، حيث يذكرها هكذا :

ــ مقاعد الحرس.

ــ سقائف الترس والنصل.

ــ أهداف الناشبة ذوي الخصل.

وقد جاء ذكر مقاعد الحرس عند الحسن الوزان الفاسي: «**ليون الافريقي**»[31]، بمناسبة الحديث عن مؤسسات يعقوب المريني بفاس الجديد، وهو يقول في هذا :

«وقرب الباب الغربية التي تقع في السور الثاني [يقصد باب السبع]، عين «يعقوب المريني» مساكن كبيرة، محاطة بأخرى صغيرة يسكنها الضابط حارس المدينة مع جنوده».

والغالب أن هذا يعني به «قصبة الخميس» المعروفة ــ أيضا ــ بقصبة شراكَة، وقد صار الجانب الشرقي منها مركزا لمستشفى ابن الخطيب، كما صار الجانب الغربي مركزا لثانوية القرويين، وبهذا يتبين أن هذه القصبة مرينية البناء، ويدل لهذا قطعة كبيرة من سورها التي لا تختلف عن هيئة السور المحيط بالقصر المريني، بما في ذلك

---

(30) **في معيار الاخبار**، ص. 49.

(31) **جغرافية أفريقيا**، طبعة شيفير، ج 2، ص. 110.

الشرافات والأبراج المقوية، كما أن النقش الذي يتوج باب مستشفى ابن الخطيب موسوم بالطابع المريني الواضح، حيث يبدو أن هذا الباب كان هو المدخل الرئيسي للقصبة.

والظاهر أنه سقط بعض هذا السور جهة معهد الشراردة وباب الساكَمة، فأعاد بناء ذلك السلطان العلوي الرشيد بن الشريف، وهذا ما يفسر شكل السور في هذه الجهة المغاير لهيئة باقي سور القصبة، وهذا ـ أيضا ـ ما أوهم البعض[32] أن هذا السلطان هو مؤسس القصبة، مع أنه إنما جدد منها القسم المشار له، بعدما كان ثكنة عسكرية في عهد السعديين، يدل لهذا ما جاء في «**تقاييد تاريخية**»[33] لدى الحديث عن السلطان الرشيد :

«وأمر شراكَة ببناء الدور في قصبة لهم، وأدار هو السور عليهم بموضع دور كَراوة من جيش السعديين»، وفي البستان الظريف للزياني عند ترجمة السلطان أبي الفداء العلوي عام 1091هـ: «ولما بلغ لفاس أنزل بقصبة الخميس التي بنى سورها الرشيد خمسمائة من الجند بأولادهم من شراكَة»[2/33].

* * *

أما سقائف الترس والنصل فقد كانت جهة حي مولاي عبد الله حيث جاء في حوالة أحباس فاس الجديد[34] ذكر حوانيت الصف الأيمن من ناحية السقيف، ومن الواضح أن هذا يعني به حوانيت فاس الجديد، الواقعة يمنة الذاهب نحو باب السمارين، وبهذا يكون موقع هذه الثكنة جهة حي مولاي عبد الله : بداخله أو قريب منه، وقد أشار ابن الخطيب لوظيفة هذا السقيف لما قال : «وسقائف الترس والنصل، وهو يقصد سقائف أصحاب الترس والنصل : لفرقة خاصة من الجيش، ولا يبعد أن تكون هذه الثكنة تضم أكثر من ذلك، فإن السقائف الموحدية بمراكش الجديدة كان بها سائر قبائل الموحدين، وبها موضع صاحب الشرطة»[35].

---

(32) مؤلف **الدرر الفاخرة**، ص. 18.

(33) تأليف عبد السلام بن محمد الخياط القادري، مخطوطة المكتبة الملكية بالرباط، رقم 248. ص. 13.

(2/33) مخطوط، خ.ع. : د 1577.

(34) فيلم، خ.ع. رقم 161.

(35) أنظر «وصف المغرب أيام السلطان أبي الحسن المريني»، وهو من محتويات هذا الكتاب.

وحسب الحسن الوزان[36] فإن مؤسس فاس الجديد شيد ـ أيضا ضمن هذه المعسكرات ـ اصطبلات كثيرة خاصة بخيله، مع عدد كثير من القصور لضباطه وحاشيته.

ولا يزال يوجد بحي مولاي عبد الله ما يشير إلى أن هذه الاصطبلات أو بعضها كان موقعها في مؤخرته، فهناك ـ أقصى هذا الحي ـ سكة غير نافذة تحمل اسم «درب العودات» قرب جامع مولاي عبد الله، وهناك ـ أيضا ـ باب العودة.

* * *

أما المعسكر الثالث عند ابن الخطيب فهو الذي يقول عنه : «وأهداف الناشبة أولى الخصل»، وفيما يظهر فهو يشير بهذا لميدان تمرينات فرقة الغز الذين كانوا يمتازون في الجيش المريني بشعارهم الذي هو خصلة من الشعر بأعلى أعلامهم[37]، ولا أزال لم أقف على ما يرشد لمعرفة مكان هذا الميدان، كما لا نعرف ـ الآن ـ أماكن باقي هذه المعسكرات، باستثناء ما ثبت من أن موضع دار السلاح الحسنية كان به ـ أثناء عهد الحسن الأول ـ ثكنة عسكرية بها مسجد بمناره[38]، فهل كانت هذه من بقايا العهد المريني ؟

(36) في المصدر السابق عند التعليق رقم 31.
(37) أنظر «نظم الدولة المرينية»، فيما يأتي.
(38) **العز والصولة** لابن زيدان، المطبعة الملكية بالرباط، ج 2، ص. 206.

الفصل الثالث

I. المدينة ومُلحقاتها الدّاخلية

II. مؤسّسات أخرى بفاس الجديد.

الفصل الثالث

I ـ المدينة وملحقاتها الداخلية

أ ـ المدينة

حسب «**الذخيرة السنية**»[39] فإن قسم المدينة تأخر تأسيسه، حيث إنها إنما بنيت عام 679هـ/1280ـ1281م، بعدما كان تأسيس فاس الجديد ابتدأ من ثالث شوال عام 674هـ، ويظهر أن هذا التأخير راجع إلى ما يشير له ابن خلدون[40] : «من أن هذا البلد لم يراع في وضعه طيب الهواء، فكانت أمراضه كثيرة لقلة الساكن، فلما كثر السكان به انتقل حاله عن ذلك».

فهذا يشير إلى سبب تأخير بناء هذا القسم، ويوضح أن تأسيس البلد إنما كان ـ في أول الأمر ـ لسكنى السلطان وذويه.

وقد تحدث في «**الذخيرة السنية**»[41] ـ في سياق حوادث سنة 679هـ ـ عن بناء هذا القسم من فاس الجديد وقال :

«وفيها بنى «أبو يوسف» في المدينة المذكورة الأسواق من باب القنطرة إلى باب عيون صنهاجة، وبنى بها حماما عظيما، وأمر ـ رحمه الله ـ عماله ووزراءه ببناء الديار بها، فبنى كل واحد منهم دارا».

وعبارة روضة النسرين[42] في تحديد السوق : «والسوق الذي حده من باب القنطرة ـ التي يقال لها الآن باب الوادي، المصاقبة لباب السبع ـ إلى باب عيون صنهاجة.

(39) ص. 188.
(40) **المقدمة**، ط. المطبعة البهية المصرية، ص. 304.
(41) ص. 188.
(42) ص. 20.

وهكذا يتبين أن باب عيون صنهاجة هو الذي يعرف ـ الآن ـ بباب السمارين، بينما يظهر أن باب القنطرة أو الوادي اندثر، بعدما كان موضعه عند مدخل السوق الحالي لفاس الجديد أو قريبا منه.

ثم من المؤكد أن بعضا من الجوامع الأخرى بهذه المدينة البيضاء بني في هذا الظرف بالذات، حسب إشارة في الموضوع واردة في «**الذخيرة السنية**»[43]، كما يظهر أن مخازن الدولة أو بعضها كانت توجد في هذا القسم، فقد جاء في «**السلوة**»[44] عند تعيين أحد المشاهد : بأنه يوجد بالدرب الملاصق لباب السمارين، يسار الخارج بجوار الهرى.

ويلاحظ أن الوضع المريني للمدينة قد تغير، ففي جهة مشور الدكاكين، كانت المدرسة المرينية تقع خارج القصر الملكي، وحسب اللوحة الرخامية لأوقاف هذه المدرسة[45]، فقد كان بابها القبلي يقع عن ميمنة الخارج منه حانوت، كما أن دكاكين الصياغين ـ في الفترة المرينية ـ كانت تقع يمين الخارج من زنقة المدرسة أيضا[46]، وبهذا يتبين أن هذه المدرسة كانت خارجة عن القصر الملكي المريني، على حين أنها اليوم تقع داخل القصور السلطانية، تحجبها أبواب وأسوار، أما في ناحية مشور أبي الخصيصات فقد اختفى قسم من السور المريني وراء البناءات الحسنية، ومن جهة أخرى : فقد وقع ـ خلال القرن الأخير ـ تحويل مجرى وادي فاس الذي كان يمر تحت جدران إحدى المنتزهات السلطانية[47].

وحسب العمري[48] : فإن هذه المدينة يحيط بها سوران اثنان، وتشاهد بقايا السور الداخلي يسرة المخترق لممر بوطويل ابتداء من جهة باب الجياف، وتنقطع هذه البقايا عند نهاية سوق فاس الجديد على مقربة من البويبة النازلة للبستان العمومي : «جنان السبيل»، ثم يظهر نفس السور في واجهة باب معمل السلاح الحسني

---

(43) جا في **الذخيرة السنية**، ص. 99 : إن أبا يوسف المريني بنى مدينتين : إحداهما فاس الجديد، والثانية بخارج الجزيرة الخضراء بالأندلس، ثم عقب على هذا وقال : وبنى في المدينتين الجوامع والصوامع...

(44) ج 3، ص. 235.

(45) أنظر ألفريد بيل : «كتابات عربية بفاس»، **الجريدة الأسيوية**، ج 10، ص. 158ـ160.

(46) أنظر لوحة الوقفية الواردة في التعليق رقم 16.

(47) **الإعلام بمن حلّ بمراكش وأغمات من الأعلام** : القسم المخطوط ـ عند ترجمة عبد الرحمان العلج الذي باشر تحويل هذا المجرى.

(48) «وصف المغرب أيام السلطان أبي الحسن المريني».

لينعطف خلف القصر الملكي، وليحيط به خارج المدينة في شبه قوس تتوجه بدنات، إلى أن يختفي وراء الأسوار الحسنية المحيطة بمشور بولخصيصات، ثم يظهر بعد هذا حتى يتصل بباب السمارين.

أما السور الثاني للمدينة، فيظهر منه الجانب الذي يقع غرب ساحة التجارة، ويمر وراء الملاح إلى باب الجياف، ثم يحيط بالبلد الجديد مطلا على شارع الحرية، وينعطف حتى يشرف على البستان العمومي، إلى أن يتصل بباب السبع : «باب المكينة»، ويلاحظ أن هيئة هذا السور، تبدو ــ عند نهاية شارع الحرية ــ في شكل مخروط، وقد يدل هذا على أن هذا القسم من البلد، أضيفت له زيادات مرينية، ناشئة عن تكاثف السكان في هذه الناحية.

ثم من المؤكد أن السور الداخلي هو من بناء أبي يوسف مؤسس المدينة، أما السور الثاني فيبدو أن كله أو معظمه من تأسيس ملوك آخرين جاءوا بعده، فقد ورد في بعض نسخ «**روض القرطاس**»[49] : أن أبا سعيد المريني الأول أدار الستارة على مدينته الجديدة، التي سيذكر بعد أنه أسسها بجوار البلد الجديد، وقد علق البعض على فقرة «**روض القرطاس**»، موضحا أن هذا السلطان أدار السور البراني من فاس الجديد، كما أن السلطان العلوي الحسن الأول، سور عدة جهات من هذا البلد، فبنى السور الحائط بالمشور الخارج عن سور المدينة خارج باب البوجات، وبنى أيضا السور المواجه لباب دار السلاح[50].

وسيبقى علينا ــ بعد هذا ــ ذكر السور الخارجي المحيط بالقصر المريني، ليفصل بينه وبين الطريق، وقد امتد هذا من باب البوجات حتى ساحة التجارة، ولم أقف على اسم بانيه ولا تاريخ بنائه، غير أنه جاء عند ابن خلدون في «**العبر**»[51] أن السلطان أحمد بن أبي سالم المريني بنى سياجا على البلد الجديد، قصدا لحصار جيش الأمير عبد الرحمن المريني، فهل هذا السياج هو السور الخارجي الدائر بهذا القصر ؟

(49) هذا ما ورد في قطعة مخطوطة من هذا المصدر، بها زيادات على المطبوع، وتقع ضمن مجموع، خ.ع. د 2152. ص 147.

(50) **الحلل البهية في ذكر ملوك الدولة العلوية**، لمحمد بن مصطفى المشرفي، مخطوطة بالمكتبة الملكية بالرباط، رقم 1019، ص.299، والغالب أن السور المواجه لدار السلاح إنما وقع ترميمه.

(51) ج 7، ص. 340.

وقد كانت أبواب فاس الجديد في السور الأول هي :

أ ـ «باب عيون صنهاجة» حسب تسمية «**روضة النسرين**»[52] : «باب السمارين» الحالي الذي كان معروفا بهذا الاسم منذ عصر ابن الخطيب[53]. وغلط الأستاذ ماسينيون[54]، حيث ذكر أن باب عيون صنهاجة هو باب الساكمة.

ب ـ «باب الوادي» حسب تسميته في عصر مؤلف «**روضة النسرين**»، بعدما كان يسمى باب القنطرة أوائل الفترة المرينية[55]، وقد سبق تحديد موقعه قبل أن يندثر بالمرة[56].

ج ـ وفي السور الثاني : باب الجياف[57]، الذي يسميه البعض «باب الجياد»[58]، وهو الواقع شرق باب السمارين.

د ـ «باب السبع»[59] المعروف ـ حاليا ـ بباب المكينة، وكان هو مدخل فاس الجديد من جهة المدينة القديمة[60]، أما الباب المقابل له ـ شمالا ـ فهو من بناء السلطان العلوي الحسن الأول[61]، وسائر الأبواب الأربعة مرينية البناء.

---

(52) ص. 20.

(53) **الإحاطة المطبوعة**، ج 2، ص. 11: ط. 1319هـ.

(54) **المغرب في السنوات الأولى للقرن السادس عشر**، مطبعة جوردان بالجزائر سنة 1906، ص. 227.

(55) أنظر **روضة النسرين**، ص. 20.

(56) انظر ص. 44 من هذه الدراسة، هذا وقد جاء في **سلوك الطريق الوارية**، لمحمد بن علي الزبادي «مخطوطة خاصة» : ذكر «باب الصرف» بفاس الجديد ضمن فقرة هكذا : «وأنا خارج من باب الصرف... ثم لما بلغت باب السبع» أثناء ترجمة الرجل الصالح الحاج عبد الواحد الزنبور، وقد يكون هذا هو باب الوادي المتحدث عنه، حيث صار يحمل هذا الاسم نظرا لقربه من «دار السكة» المرينية، وهكذا يخمن أن هذا الباب كان لا يزال قائما أثناء القرن الثاني عشر للهجرة.

(57) كان هذا الاسم معروفا منذ عهد المؤلف المجهول لتاريخ الدولة السعدية، الذي اعتنى بنشره الأستاذ جورج كولان، بالمطبعة الجديدة بالرباط، عام 1353هـ/1934م، أنظر ص. 20.

(58) ورد هذا في تعليقة بخط بعضهم على هامش كتاب **التنبيه على من لم يقع به من فضلاء فاس تنويه**، مخطوطة خاصة بمناسبة ذكر مذفن السيد أبي نافع، كما ورد ـ أيضا ـ في حوالة أحباس فاس الجديد، فيلم خ.ع. رقم 161.

(59) **روضة النسرين**، ص. 20.

(60) هذا يؤخذ من **تاريخ الدولة السعدية** الآنف الذكر، ص. 20 و31.

(61) هذا ذكره المشرفي في **الحلل البهية**.

ومن الأكيد التنبيه إلى أن الأبراج أو البستيونات الواقعة خلف أسوار فاس الجديد ليست مرينية البناء وإنما هي سعدية، يدل لهذا شكلها المطبوع بطابع سعدي واضح، كما يؤيده ما جاء في «**مناهل الصفا**»[62] : أن المنصور السعدي أدار بهذا البلد أبراجا ضخمة انتبذت لصق سوره حصونا شامخة، وجهزها بالعدد العديد من الأنفاض، وحسب المنتقى المقصور[63]، فقد كان عدد هذه الأبراج تسعة، ولا يزال يشاهد من هذه الحصون خمسة : إثنان خلف أسوار القصور الملكي، في مواجهة وادي فاس والمدينة الجديدة، وواحد يمنة الخارج من باب الجياف، ورابع يطل على شارع الحرية، وخامس خلف السور المار بالبستان العمومي، في مقابلة الداخل له من الباب الكبير بشارع أبي الجنود، وقد كان أكبر هذه الأبراج التسعة هو الواقع أمام باب السبع[64] ولم يبق له ـ الآن ـ أثر، وقد يكون مكانه هو مركز الباب الحسني المقابل ـ شمالا ـ لباب السبع.

ب ـ حي اليهود

جاء في «**روض القرطاس**»[65] في سياق أحداث أيام أبي يوسف المريني :

«وفي سنة سبع وسبعين «يعني وستمائة»، أنزل اليهود بالملاح حول فاس الجديد، وأخرجهم من فاس الإدريسية بعد نهب أمتعتهم وقتل منهم عدد كثير».

ولا يعرف بالضبط ـ المكان الذي أنزلهم به السلطان المريني حول فاس الجديد، وهو ـ بالقطع ـ غير الملاح الحالي كما يتبين، ووفاقا لماسينيون[66]، فإن السلطان أبا سعيد المريني الأول، جعل من مدينة، حمص ـ التي أسسها إزاء البلد

(62) ط. المطبعة المهدية بتطوان، ص. 184.

(63) اسمه الكامل : **المنتقى المقصور على مآثر خلافة أبي العباس المنصور**، تأليف أحمد ابن القاضي، مخطوطة المكتبة الملكية بالرباط، الباب 20. وقد تحدث عن هذه الأبراج أيضا المؤلف المجهول لتاريخ الدولة السعدية، ص. 52 و65.

(64) **مناهل الصفا**، ص. 184.

(65) القطعة المارة الذكر عند التعليق رقم 49، ص. 150.

(66) **المغرب في السنوات الأولى للقرن السادس عشر**، ص. 227.

الجديد ـ[67] مسكنا لليهود، وقد كان موضعها ـ حسب العمري ـ[68] يعرف بالملاح.

وعلى هذا فلا يبعد أن يكون بناء هذه المدينة وقع مكان الحي اليهودي الأول، وبهذا يكون موقع مدينة حمص هو نفس موقع الملاح القديم، وحسب مصدر يهودي[69] فإن الملاح القديم كان موضعه في الجهة التي تسمى اليوم ساحة التجارة، بينما كان الملاح الحالي مقبرة يهودية قبل أن يصير حيا يهوديا بعد عام 1724 م.

غير أن هذا المصدر[70] يذكر أن اليهود إنما انتقلوا للملاح القديم عام 5198 بالتاريخ العبري، وهذا يوافقه من الميلادي سنة 1438، ومن الهجري عام 808، وهو في هذا يخالف ما أثبته ابن أبي زرع، الذي كان قريبا من عصر الحادثة، حيث وصل في تأليف «**روض القرطاس**» إلى عام 726 هـ، أي بعد 49 عاما فقط من تاريخ عام 677 هـ، حيث وقع نقل اليهود إلى السكنى حول فاس الجديد.

وهكذا يتبين أن مدينة حمص التي بناها أبو سعيد الأول، صارت هي نفس الحي اليهودي القديم الذي اندثر الآن، أما وجه تسمية هذه بحمص، فيبدو أن ذلك راجع لسكنى جالية يهودية وفدت على فاس من مدينة إشبيلية التي تسمى ـ أيضا ـ بحمص، وقد تحدث المصدر اليهودي[71] الآنف الذكر عن جالية إشبيلية كانت تسكن الملاح القديم، غير أنه ذكر هذا عام 5225 بالتاريخ العبري، الذي يوافقه من التاريخ الميلادي سنة 1465.

---

(67) أجرى ذكر هذه المدينة مصدران معاصران لتأسيسها : الأول : قطعة **روض القرطاس** المتكررة الذكر، حيث وردت فيها الإشارة التالية ص. 147 : «وفي سنة خمس عشرة (يعني وسبعمائة هـ) أمر أمير المسلمين أبو سعيد ببناء القنيطرة من مدينته الجديدة...»
أما المصدر الثاني فهو **مسالك الأبصار** للعمري، الذي قال عند تعداد المدن الثلاثة لفاس الجديد : «...ثم مدينة حمص، ويعرف موضعها بالملاح، بناها ولده «ولد أبي يوسف المريني» : أبو سعيد عثمان بن أبي يوسف، والد سلطانها القائم الآن، بناها إلى جانب البيضاء».

(68) هذا ورد في نص **مسالك الأبصار** عند الرقم الأخير : 67.

(69) **Textes judéo-arabes de Fès**, par Louis Brunot et Elie Malka - Rabat, Typo-Litho Ecole du Livre, 1939، النص العربي، ص. 4.

(70) ص. 2.

(71) ص. 2.

هذا وهناك رأى في سبب تسمية هذه المدينة بحمص يقول : يظهر أن مدينة حمص بنيت للأندلسيين، كما يشير له اسمها الذي يتفق مع اسم إشبيلية[72]، وقد بقي على صاحب هذا الرأي توضيح نوع الأندلسيين الذين بنيت المدينة برسمهم، وهذا رأي آخر يربط هذه التسمية بجند الرماة الغز الواردين من مدينة حمص بسورية[73]، وهو ــ إلى جانب بعده ــ عار عن كل دليل يؤيده.

ج ــ ربض النصارى

وموقعه ــ حسب ماسينيون ــ[74] هو المدينة الجديدة الحالية: «دار الدبيبغ»، وقد كان ــ دائما ــ مزودا بشارع طويل، ولابد أن يكون في مؤخرة هذه المدينة بالناحية الموالية لساحة التجارة، حيث بناية مدينة حمص التي يذكر العمري[75] إنها كانت آخذة إلى ربض النصارى، وقد كان معدا لسكنى فرقة الروم القبشتاليين الذين كانوا منتظمين في الجيش المريني[76]، ويذكر العمري[77] هذا الربض كمدينة مرينية دون أن يعين مؤسسها، ولذلك لا نذكره هنا كأثر لأبي يوسف، وإنما ليتم تنسيق المدن الثلاث التي يتألف منها فاس الجديد كما سنذكر، وقد كان هذا الربض يسمى ــ أيضا ــ بالملاح من طرف ابن الخطيب[78]، ثم ابن خلدون[79]، ولعل هذه التسمية جاءت من المكان الواقع به، حيث تقدم أن موضع مدينة حمص ــ وهو مجاور للربض ــ يسمى بالملاح، فلما كان المكان يسمى بهذا الاسم سرى ذلك إلى البنايتين المحدثتين به : هذا الربض مع مدينة حمص.

ومن الجدير بالذكر التنبيه إلى أن هذا الربض غير الثكنة التي بناها أبو يوسف المريني لسكنى هذه الفرقة المسيحية، حيث أن الربض موقعه بالمدينة الجديدة، أما

(72) M Gaudefroy Demombynes, **L'Afrique moins l'Egypte**.
ط. باريس، 1927، ص. 153 : تعليق.

(73) **المغرب في السنوات الأولى للقرن السادس عشر**، ص. 227.

(74) **المصدر الأخير**، ص. 227.

(75) «وصف المغرب أيام السلطان أبي الحسن المريني».

(76) أنظر عن هذه الفرقة : «نظم الدولة المرينية»، عند الباب 2 من هذا الكتاب.

(77) أنظر «وصف المغرب أيام السلطان أبي الحسن المريني».

(78) نفاضة الجراب، مصورة معهد مولاي الحسن بتطوان عن مخطوطة الإسكوريال، رقم 27، ج 2، لوحة 141 أ ــ ب.

(79) **العبر**، ج 7، في موضعين من ص. 315.

الثكنة فقد جاء تعيينها في «**الذخيرة السنية**»[80] بأنها بنيت بالمرس القديم[81] خارج باب الشريعة، وبعد كبير بين الموضعين، حيث يفصل بينهما ما يزيد على إثنين من الكيلومترات، ويبدو أن سبب هذا التعدد أن الثكنة بناها أبو يوسف لما كان مقر حكمه لا يزال بقصبة النوار، بدليل أن تاريخ بنائها ـ الذي هو عام 659 هـ[82] ـ كان قبل تأسيس البلد الجديد عام 674 هـ، ولذلك بناها بمقربة من قصبته الأولى، أما الربض فقد بني بعد هذا لما انتقل مقر الدولة إلى المدينة البيضاء.

وأخيرا : فإن هذا الربض مع مدينة حمص والبلد الجديد تؤلف ـ ثلاثتها ـ مدلول اسم فاس الجديد في هذه الفترة المرينية[83] الأولى.

II ـ مؤسسات أخرى بفاس الجديد

ويعني بها : المؤسسات المرينية التي أنشئت بعد عهد أبي يوسف : في داخل هذه المدينة، سوى ما تقدم في تضاعيف الحديث عن الموضوع الأول، وستشمل هذه المؤسسات : المدرسة المرينية والمساجد، ثم القصور والرياض الداخلية وما إليها.

أ ـ المدرسة المرينية

وقد كان موقعها ـ في هذه الفترة المرينية ـ خارج القصر الملكي، ثم بعد الزيادات التي أضيفت له في جهة مشور الدكاكين صارت تقع في هذا المشور، داخل الباب الخارجي حيث هي الآن[84]، وهي من إنشاء السلطان المريني أبي سعيد الأول، في شهر ذي القعدة عام 721هـ/«1321»م، وهو التاريخ الذي كمل فيه

(80) ص. 106.

(81) جاء في **مسالك الأبصار** عن هذا المرس ما يلي :

«ويلي القصبة القديمة مخازن الغلال داخلها المطامير، وهي مجموعة في مكان واحد يستدير به سور منيع، عليه باب وغلق، ويسمى هذا الموضع بـ«المرس القديم». وقد ورد رسم ساحة هذه المطامير في خريطة فاس في العهد الموحدي : «خريطة كايار»، ص. 31، حسب ذكر ألفريد بيل في الترجمة الفرنسية لـ**زهرة الآس** للجزنائي، ص. 80 : تعليق رقم 3.

(82) **الذخيرة السنية**، ص. 106.

(83) «وصف المغرب أيام السلطان أبي الحسن المريني».

(84) أنظر ص. 44 من هذه الدراسة.

بناؤها وبدئ بالإقراء فيها وسكناها من طرف الطلبة(85)، وقد ورد ذكرها في «**روض القرطاس**»(86) عام 720 هـ، حيث صدر الأمر ببنائها، ويقدم هذا المصدر الحادث هكذا :

«وفي سنة عشرين وسبعمائة : أمر أمير المسلمين أبو سعيد ـ أيده الله ـ ببناء المدرسة بحضرته من فاس الجديدة، فبنيت أتقن بناء، ورتب فيها الطلبة لقراءة القرآن، والفقهاء لتدريس العلم، وأجري عليهم المرتبات والمؤن في كل شهر، وحبس عليها الرباع والمجاشر...».

ولا يعرف ـ لحد ـ من مدرسيها سوى اسم واحد، وهو أبو العباس أحمد بن قاسم بن عبد الرحمن الجذامي الفاسي، الشهير بالقباب، والمتوفى عام 778هـ/«1377»م، وقد كان يدرس بها كتاب التهذيب للبرادعي(87).

هذا : وقد جاء في «**بيوتات فاس الكبرى**»(88) : نسبة بناء هذه المدرسة لأبي عنان المريني، الذي نصب فيها ـ لتدريس صحيح مسلم ـ قاضي القضاة: محمد بن محمد بن أحمد المقري التلمساني القرشي، ويلاحظ : أن هذا يعارض تاريخ بناء المدرسة الآنف الذكر، وهو لا يزال منقوشا بداخل المدرسة على اللوحة الرخامية لأوقافها، كما يعارض ما جاء في «**روض القرطاس**» وهو المصدر المعاصر لهذا التاريخ، ولهذا فإن مؤلف «**بيوتات فاس**» إنما سبقه القلم فذكر هذه المدرسة بدلا عن المدرسة العنانية، ومن المعروف أن هذه الأخيرة هي التي بناها أبو عنان، أعلى شارع الطالعة من فاس الإدريسية، ومما يؤكد هذا أن أبا العباس المقري يذكر عن هذا السلطان أنه بنى هذه المدرسة المتوكلية برسم جده المقري الكبير آنف الذكر(89).

---

(85) ورد هذا التاريخ عند نهاية اللوحة الوقفية المنقوشة بداخل هذه المدرسة، آنظر ـ عن النص الكامل لهذه اللوحة ـ **الجريدة الأسيوية**، ج 10، ص. 160/158.

(86) ص. 299.

(87) فهرسة يحيى السراج: القسم الأول منها، مخطوطة المكتبة التطوانية بسلا : عند ترجمة القباب، مع **سلوة الأنفاس**، ج 3، ص. 244، هذا : ويذكر ابن غازي في **فهرسه التعلل برسوم الإسناد**، مخطوطة خاصة ـ اسم أبي يعقوب يوسف ابن مبخوت، مع تحليته بأستاذ البلد الجديد، فهل يقصد بهذا أنه أستاذ القراءات بمدرسة فاس الجديد، فيكون هذا اسما ثانيا للمدرسين بهذه المدرسة؟

(88) مخطوطة خاصة، آخر بيت بني أبي مدين، رقم 66.

(89) **أزهار الرياض**، ط. لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة، ج 1، ص. 5.

أما وصف مدرسة فاس الجديد : فينبغي أن يرجع فيه إلى ما كتبه عنها الأستاذ الفريد بيل، في دراساته عن الكتابات العربية بفاس[90].

ب ـ الجوامع

إن الجوامع المرينية في هذه المدينة ـ بعد الجامع الكبير ـ هي :

1 ـ جامع البيضاء.

2 ـ جامع الحمراء.

3 ـ مسجد العباسيين : «مسجد الصفصاف قديما»[91].

4 ـ جامع الغريبة، «الذي قد يكون هو جامع الرياض قديما»[92].

5 ـ جامع الزهر : «جامع الحجر قديما»[93].

ومن حسن الحظ أن نستطيع أن نعرف مؤسسَيْ الجامعين الأخيرين : حيث يتوج ـ إلى الآن ـ الباب الحجري لجامع الزهر بكتابة فيها تاريخ بنائه : أوائل رجب عام 759هـ/«1358»م، من طرف السلطان المريني أبي عنان، وقد ألحق به ـ يسرة مدخل الباب المذكور ـ كتاباً، وسقاية تعلوها بقايا كتابة محفورة في الخشب، حسبما عاينت ذلك كله صبيحة الأحد 23 حجة عام 1384 هـ/25 أبريل سنة «1965»م.

وحسب ألفريد بيل[94] فقد كان جامع الغريبة يسمى زمن بنائه مسجد السوق الكبير، ونحن نعرف أن مسجد السوق الكبير هو من تأسيس القائد عبد الله الطريفي، حاجب السلطان المريني أبي سعيد الثاني أوائل القرن التاسع هـ، وقد جاء في «**جذوة الاقتباس**»[95] عند ذكر الحاجب الطريفي :

---

(90) **الجريدة الأسيوية**، ج 10، ص. 170/139.

(91) اسم «جامع الصفصاف» ورد في وقفية جامع الغريبة آتي الذكر، وقد علق عليه ألفريد بيل بأنه هو نفس مسجد العباسيين، **الجريدة الأسيوية**، ج 10، ص. 122 : تعليق رقم 1.

(92) في حوالة أحباس فاس الجديد ترجمة نصها : «هذا جامع يشتمل على أوقاف جامع الرياض الكائنة بفاس العليا، لتسخين الماء بها زمن الشتاء» ـ فيلم خ.ع. رقم 161.

(93) ورد هذا في نفس الحوالة الآنفة الذكر.

(94) **الجريدة الأسيوية**، ج 10، ص. 125.

(95) ص. 289، ط.ف..

«وهو الذي بنى مسجد السوق الكبير[96] بالبلد الجديد، وحبس عليه كتبا كثيرة».

ولا يزال معلقا أسفل منارة جامع الغريبة رخامة نقشت فيها وقفية تحمل تاريخ 16 قعدة عام 810هـ/«1408»م، وهي تعدد الأملاك التي أوقفها الطريفي على الإمام بهذا الجامع وعلى تفريق الكتب التي بخزانته بين صلاتي الظهر والعصر، وغير ذلك[97].

وسيبقى ـ بعد هذا ـ ثلاثة مساجد : جامع البيضاء وجامع الحمراء، ومسجد العباسيين، وقد كان هذا الأخير موجودا قبل بناء جامع الغريبة، حيث ورد ذكره أثناء الوقفية الآنفة الذكر باسم «مسجد الصفصاف»، أما مؤسسه ومؤسس جامع البيضاء فلا يزال غير معروف بالضبط، مع أنه يعلم مما سبق[98] أن أبا يوسف المريني بنى في هذا البلد الجديد أكثر من مسجد، كما أن أبا الحسن المريني ساهم ـ كذلك ـ في تشييد بعض هذه المساجد[99]، غير أنه لا يستطاع ـ الآن ـ تعيين ما ابتنياه في هذا الصدد.

وعن أبي عنان ورد في «**تحفة النظار**»[100] عند الحديث عن هذا السلطان :

«ومن أعظم حسناته ـ أيده الله ـ عمارة «المسجد الجديد» بالمدينة البيضاء : دار ملكه العلي، وهو الذي امتاز بالحسن واتقان البناء، وإشراق النور وبديع الترتيب».

ومن الواضح أن هذا المسجد لا يعني به جامع الزهر، الذي عرفنا ـ آنفا ـ أنه بني في أوائل رجب عام 759 هـ، بينما كتابة الرحلة تسبق هذا التاريخ بأكثر من عامين اثنين، فقد تم تقييدها في ثالث ذي الحجة عام 756 هـ، ووقع الفراغ من تأليفها في صفر عام 757 هـ، ولهذا سيكون «المسجد الجديد» غير جامع الزهر،

---

(96) رأينا ألفريد بيل يفسر هذا المسجد بجامع الغريبة، أما المؤرخ المغربي محمد السليماني فهو يفسره بجامع الحمراء، عند ترجمة أبي سعيد الثاني من تاريخه «اللسان المغرب»، مخطوط المكتبة الملكية بالرباط، ج 1، رقم 297، وفي الترجمان للزياني ينسب لأبي سعيد نفسه بناء مسجد السوق بفاس العليا، دون أن يفسره، ودون أن يعرج على ذكر الحاجب الطريفي، مخطوط خ.ع.، رقم 658 د، ص. 320.

(97) أنظر بحثا عن هذه الوقفية في **الجريدة الأسيوية**، ج 10، ص. 126/117.

(98) ص.

(99) **المسند الصحيح الحسن**، خ.ع.، ق 111 ـ الباب الأربعون، الفصل الثاني.

(100) ج 2، ص. 185.

وإنما هو مسجد عناني آخر يتقدم على جامع الزهر في البناء، ومن القريب ـ جدا ـ أن تنطبق أوصاف ابن بطوطة على جامع الحمراء، ومما يؤكد هذا : التشابه القائم بين شكل زخرفته وزخرفة مدرسة أبي عنان بطالعة فاس الإدريسية، وهكذا يترجح أن جامع الحمراء هو نفس «المسجد الجديد» الذي تصفه تحفة النظار، كما تبين أن جامع البيضاء ومسجد العباسيين، هما ـ فقط ـ المسجدان المرينيان اللذان لا يضبط مؤسسهما.

وعن الوصف المادي لهذه الجوامع الخمسة : أنظر الفريد بيل بالنسبة لجامع الغريبة[101]، أما الجوامع الأربعة الباقية، فقد ورد وصفها عند السيد بوريس ماسلو في كتابه المتكرر الذكر : «**مساجد فاس وشمال المغرب**»[102].

* * *

هذا : ومن المباني بحي مولاي عبد الله، يوجد الجامع الذي يضاف لاسم هذا السلطان بجوار مشهده، وقد نسب البعض[103] تأسيسه للسلطان العلوي **محمد** الرابع، أيام ولايته للعهد، حدود عام 1274 هـ[104]/1857 ـ 1858 م، وانظر عن وصف هذا الجامع كتاب «**مساجد فاس وشمال المغرب**»[105].

أما المدرسة الواقعة بجواره فهي من تأسيس محمد الحاج الدلائي أيام حكمه على فاس، وقد بنى ـ أيضا ـ المقبرة التي يقع بها مشهد السلطان العلوي مولاي

(101) **الجريدة الأسيوية**، ج 10، ص. 126/117.

(102) **جامع الحمراء**، ص. 64/54.
جامع الزهر، ص. 73/65.
جامع البيضاء، ص. 121/120.
مسجد العباسيين، ص. 137/136.

(103) هو محمد بن مصطفى المشرفي في كتابه : **الحلل البهية في ذكر ملوك الدولة العلوية**، مخطوط المكتبة الملكية بالرباط رقم 1019، ص. 230/229، ونحوه في **المفاخر العلية والدرر السنية في الدولة الحسنية العلوية**، لعبد السلام اللجائي، مخطوط نفس المكتبة، رقم 460، ص. 234.

(104) وقع تدقيق هذا التاريخ بعام 1273هـ في شهر شوال، كما هو منقوش داخل باب الجامع الواقع يمنه الصف الثالث.

(105) ص. 90/86.

عبد الله[106]، ويوجد وصف وجيز لخصوص المدرسة في كتاب «**مساجد فاس وشمال المغرب**»[107].

ج ـ القصور والرياض وما إليها

قال في «**روضة النسرين**»[108] في صدد حديثه عن تأسيس هذه المدينة من طرف أبي يوسف : «وكلفت همم الملوك من بنيه بها، فشيدوا القصور الضخمة الرائعة المنظر، المختلفة الأسماء».

هذه فقرة ابن الأحمر عن هذه القصور، وهي ـ على وجازتها وإجمالها ـ الوحيدة في هذا الباب، ولهذا لا تزال معلوماتنا عن هذه المباني المرينية ضعيفة جدا، وسنقدم ـ فيما يلي ـ ما وقفت عليه من ذلك.

د ـ مبان مرينية أخرى

وقد استطرد ذكرها ابن الخطيب في «**نفاضة الجراب**»[109]، عند حديثه على حريق شب بالبلد الجديد، وهو يقول في هذا الصدد :

... «إلا أن النار ... عدت عن هذه المدينة، فاصطلمت القصر المعروف «بأبي فير»[110] مطرح الأموال المجموعة، وسمر الركاب المجنوبة، ومخرس الألسنة الناطقة، ومرجع الغيول الطامحة، المشتملة دوره وزواياه على الكثير من عدد الملك، وآلات الحركات، وأجرام المنشئات، وثمين السلع : من اللك، والنليج، والعاج، والأبنوس، والصندل، وشبهه.

ثم تعدت إلى «دار الصنعة»، وبها ما لا يأخذه الوصف من السروج والمهندات والسلاح ونقر الذهب والفضة، إلى المواعين ـ والموازين ـ وآلات الخيل.

---

(106) **نزهة الأخيار المرضيين في مناقب العلماء الدلائيين البكريين**، لعبد الودود التازي، مخطوطة خ.ع.، ضمن مجموع يحمل رقم ك 1264، ص. 103ـ104، وجاء في **تقاييد تاريخية** لعبد السلام القادري نسبة بناء المدرسة للسلطان اليزيد العلوي، «مخطوطة المكتبة الملكية بالرباط»، رقم 248، ص. 21 ؛ وفي **الدرر الفاخرة** لابن زيدان، ص. 90 : ينسب بناءها للسلطان العلوي محمد الرابع.

(107) ص. 90ـ91.

(108) ص. 20.

(109) المصورة السابقة الذكر عند التعليق رقم 78، ج 2، لوحة 112 ب، 113 أ.

(110) وردت ياؤه في الأصل عارية عن النقط الذي سيستفاد من أوائل التعليقات التالية لنص النفاضة.

ثم اتصلت بـ«ـدار الديباج»، فالتهمت من الحرير، والأثواب وآلات النسيج، وضخام المناول، وألواح الرسوم، وجبال الشموع، وعقار الصبغ، وغزل الذهب : ما لا يأخذه الوصف».

وإلى هنا يكون ابن الخطيب قد وصف ثلاثة مبان مرينية، وهي قصر أبي فير، ودار الصنعة، ودار الديباج، وسنقول بضع كلمات عن كل من القصر الأول مع دار الديباج :

إن قصر أبي فير ورد ذكره ــ أيضا ــ في «**تاريخ الدولة السعدية**»[111] المجهول المؤلف، حيث ذكر عن أحد السعديين أنه أخذ في بناء قصر بوفير بالبلد الجديد، ولعله يعني قيامه بتجديد هذا الأثر المريني، والغالب أن في هذا الاسم تصحيفا عاميا عن أبي فهر بالهاء وسطه، وقد ظهر هذا الاسم ــ أولا ــ عند بني حفص في تونس أيام أبي عبد الله المستنصر، المتوفى عام 675هـ/«1277»م، فكان أبو فهر علما على بستان فخم أغترسه هذا السلطان بخارج حضرته، وورد وصفه عند ابن خلدون في «**العبر**»[112]، وقال في وصفه أكثر من شاعر[113]، وهو هنا ــ في البلد الجديد ــ علم على قصر يشتمل على روض لوح له ابن الخطيب بعبارة : «مرجع الغيول الطامحة»[114]، ثم كان لبني عبد الواد بتلمسان «أبو فهر» أيضا، أنشأه السلطان أبو تاشفين الأول[115] المتوفى عام 737 هـ/«1337»م.

---

(111) ص. 34.

(112) ج 6، ص. 282.

(113) منهم أبو عبد الله محمد ابن الأبار في عدة مواضع من ديوانه، الذي تحتفظ المكتبة الملكية بالرباط بنسخة فريدة منه تحت رقم 4602، وقد حققه عن هذه النسخة الدكتور عبد السلام الهراس، وأنظر ــ أيضا ــ **رحلة التجاني**، نشر المطبعة الرسمية بتونس عام 1378هـ/1958م، ص. 375-376. وأنظر ــ كذلك ــ **رفع الحجب المستورة** لأبي القاسم السبتي، مطبعة السعادة بمصر، ج 1، ص. 78.

(114) الغيول جمع غِيل، بكسر أوله ويفتح : الشجر الكثير الملتف، والطامحة : المرتفعة، أخذا من القاموس.

(115) **نظم الدرر والعقيان في بيان شرف بني زيان**، تأليف محمد بن عبد الله بن عبد الجليل التنسي، مخطوط المكتبة الملكية بالرباط رقم 5210، ج 1، ورقة 54 أ، وهذا الروض هو الذي ورد ذكره ــ أيضا ــ في **فيض العباب، وإجالة قداح الآداب في الحركة السعيدة إلى قسنطينة والزاب**، تأليف أبي إسحاق ابراهيم ابن الحاج النميري الغرناطي نزيل فاس، مخطوط نفس المكتبة تحت رقم 3267، ص. 334، كما ورد ذكره في **المسند الصحيح الحسن**، خ.ع.، ق 111: الباب 26، الفصل الثاني.

وهكذا يتبين وجود اسم أبي فهر كعلم على روض ملكي فاخر في كل من تونس وتلمسان، وهذا ما يقرب أن يكون هذا الأثر المريني ـ الذي يتحدث عنه ابن الخطيب ـ سمى أولا بأبي فهر، ثم صحفه الاستعمال العامي إلى أبي فير.

ولنذكر ـ بعد هذا ـ ان دار الديباج التي تصفها النفاضة هي ـ فيما يظهر ـ نفس دار الطراز المرينية، وقد أشار لها ابن خلدون في «**المقدمة**»[116] لما ذكر ديار الطراز في الدول وقال :

«وأما لهذا العهد فأدركنا بالمغرب ـ في الدولة المرينية لعنفوانها وشموخها ـ رسما جليلا لقنوه من دولة ابن الأحمر معاصرهم بالأندلس...».

هـ ـ روض الغزلان

وهو ـ حسب القصيدة الآتية ـ بستان معجب، وجنة خضراء، تضاحك نورها، وفاح شذى زهرها، وغنت أطيارها فوق أغصان الدوح الناعمة، تشق بساطها الأخضر مياه النهر الأزرق، وهي تزدان بقبة غراء، غريبة الشكل، بديعة الحسن، متعددة المقاصير الجميلة، بناها السلطان أبو سالم المريني، الذي تشير القصيدة إلى أنه هو منشيء روض الغزلان نفسه، ومن حسن الحظ أن يكون أديب أندلسي كبير، احتفظ بوصف هذا الروض والقبة معا، في مطلع قصيدة له في مدح أبي سالم المذكور، وهذا هو أبو القاسم عبد الله ابن رضوان النجاري المالقي نزيل المغرب ودفينه[117]، وقد نظم هذه القصيدة عن اذن السلطان الآنف الذكر، لتكتب في طرة قبة رياض الغزلان، وهذه مطالعها[118].

هذا محل المنى بالأمن مغسور ... من حله فهو بالأمان محبور
مأوى النعيم به ما شئت من ترف ... تهوى محاسنه الولدان والحور
ويُطلِع الروض منه مصنعا عجبا ... يضاحك النوْر من لألاؤه النور
ويسطع الزهر من أرجائه أرجا ... ينافح الند نشر منه منشور
مغنى السرور سقاه الله ما حملت ... غر الغمام وحلته الأزاهير

---

(116) ص. 232.

(117) هناك جملة من مصادر ومراجع ترجمته في **مجلة البحث العلمي**، العدد الرابع والخامس «مزدوج»، ص. 261 و268.

(118) **الاستقصا**، ط. الدار البيضاء، ج 4، ص. 39–40، وأصله في **نفح الطيب**، ج 3، ص. 463: المطبعة الأزهرية.

انظر إلى الروض تنظر كل معجبه — مما ارتضاه لرأى الـــعين تحبير
مر النسيم به يبغي القـرا فقـرا — دراهـم النـوْر تبديـد وتنـثير
وهامت الشمس في حسن الظلال به — ففـرقت فوقـه منها دنـانير
كأنما الطير في افنائهـا صدحت — بشكـر مالكها والفضل مشكـور
والدوح ناعمـة تهتـز من طرب — همسا وصوت غناء الطير مجهـور
والنهر شق بساط الأرض تحسبـه — سيفا. ولاكنه في السلم مشهور
ينساب للجنـة الخضراء أزرقـه — كالأيم جد انسياب وهو مذعور
هذي مصانع مولانا التي جمعت — شمل السرور وأمر السعد مأمور...
وهذه القبـة الغـراء ما نظـرت — لشكلها العين الأعـز تنـظير
ولا يصورها في الفهم ذو فكـر — إلا ومنـه لكـل الحسن تصويـر
ولا يرام بحصر وصف ما جمعت — من المحاسن إلا صد تقصير
فيها المقـاصير تحميها مهابتـه — لله ما جمعت تلك المقـاصير
كأنها الأفـق تبـدو النيرات به — ويستـقيم بها في السعـد تسيير
ويـنشأ المزن في أرجائـه ولـه — من عنبر الشحـر إنشاء وتسخير
وينهمي القطر منه وهو منسكب — ماء من الورد يذكو منه تعـطير
وتخفق الريح منـه وهي ناسمة — مما أهب به مسك وكافـور
ويشرق الصبح منه وهو من غرر — غر تلألأ منهن الأساريـر
وتطلع الشمس فيه من سناملك — تبسم الدهر منه وهو مسرور..»

و ـ بستان آمنة

ولا يزال مكانه معروفا خلف القصر الملكي من الجهة الغربية، في مساحة مترامية يطلق عليها اسم «عرصة للاّ مينة»، وقد تفيد هذه الإضافة أنها هي منشئة البستان. وحسب «**الاستقصا**»[119] فإن آمنة هذه هي بنت السلطان المريني أحمد بن أبي سالم، وقد ألم كنسوس[120] بلمحة من وصف هذا البستان الذي يسميه : «عرصة للاّ مينة»، وقال :

(119) ج 4، ص. 89، ط. الدار البيضاء.

(120) **الجيش العرمرم**، ط. فاس عام 1336م هـ، ج 2، ص. 54-55، مع تصحيح النص من مخطوط المكتبة الملكية رقم 26.

«وقد كانت في الدولة المرينية ـ التي أنشأت تلك البلدة من أصلها ـ على هيئة بهية، جامعة للمحاسن الغير المنتهية، فيها ظهرت زينة تلك الدولة وضخامتها، وجلالة سلطنتهم وفخامتها، فيها مقاعدهم ومنازههم العالية، ومجالسهم المشرفة على بساتين «المستقى»[121] المجاورة والموالية، يشقها نهر فاس عرضا، ولاكن لا يسقي لها أرضا، يدخل من الجهة الغربية، ويخرج من الناحية الشرقية، ومرادهم بالدخول التمتع بالتنزه على ضفتيه، وإقامة مواسم الأنس حول ضفتيه، وأما سقي العرصة فقد رفعوا له الماء بالدوالب السامية النحاسية، وأجروه في القواديس والقنوات الرصاصية، وبالجملة فقد كانت تلك العرصة منية من زينة الحياة الدنيا. وجنة حائزة من الابتهاج المرتبة العليا».

وقد جدد هذا البستان السلطان المولى عبد الرحمن بن هشام العلوي[122]، وبعده عمد حفيده الحسن الأول إلى ناحية منه فبنى فيها مقاصير ومنتزهات[123].

ز ـ رسم مجسم لجبل الفتح

وقد كان موضوعا في مشور القصر المريني بهذا البلد الجديد، جاء في «**تحفة النظار**»[124] عند حديثه عن اهتمامات أبي عنان بجبل طارق :

«وبلغ من اهتمامه بأمور الجبل أن أمر ـ أيده الله ـ ببناء شكل بهيئة شكل الجبل المذكور، مثل فيه أشكال أسواره وأبراجه وحصنه وأبوابه ودار صنعته ومساجده ومخازن عدده وأهرية زرعه وصورة الجبل وما اتصل به من التربة الحمراء، فصنع ذلك بالمشور السعيد، فكان شكلا عجيبا أتقنه الصناع إتقانا، يعرف قدره من شاهد الجبل وشاهد هذا المثال».

ح ـ ملعب السباع

ذكره ابن الخطيب في «**معيار الاختبار**»[125] باسم «**ملاعب الليث المفترس**، وقد يدل اسم «باب السبع» ـ الذي كان يطلق على «باب المكينة» الحالي ـ على

(121) سيرد ذكره ضمن منشآت خارج فاس الجديد.
(122) **الجيش العرمرم**، ج 2، ص. 54.
(123) أنظر **الاستقصا**، ج 9، ص. 145 و 160، نفس الطبعة حوله.
(124) ج 2، ص. 187، مع تصحيح النص عن مخطوط المكتبة الملكية رقم 3030.
(125) ص. 49.

أن موقع الملعب كان جهة هذا الباب، وحسب مصدر معاصر[126] : فإن هذا الملعب كان من ملحقات القصر الملكي أيام أبي عنان، يعلوه مجلس للملك وخواصه للتفرج على المعركة.

وكان الملعب ميدانا رحبا يتصارع فيه الأسد مع ثور قوي يقدمه قطيع من الجواميس، ويسير المعركة طائفة من الرجال المحترفين، يختفي أحدهم داخل كرة خشبية مستديرة صلبة، ويحركها، ويمشي بها، فيرى الأسد الرجل فيهم به، ويدور بالكرة ويضربها بيده، فلا يستطيع كسرها لشدتها، ثم تحتدم المعركة بينه وبين الثور، ويبلغ الزئير والجؤار مبلغه، وأخيرا يصدم الثور الأسد صدمة دامية توهن قواه، ثم يتعاوره الرجال المحترفون قصعا بالرماح، فيجندل بين يدي السلطان مضرجا بالدماء[127].

وقد تعددت هذه الفرجات في هذه الفترة، فلذلك تكرر وصفها، وورد عند ابن الخطيب وابن الأحمر[128]، وأثبت هذا الأخير قصيدتين ـ في هذا الصدد ـ للشاعر أحمد بن عبد المنان.

ومن الجدير بالذكر أن هذه المصارعة وجدت قبل هذا العهد، وكانت عند الموحدين بمراكش، ثم الحفصيين بتونس مع بعض فروق في الوحوش المتقاتلة[129]، كما انتشرت بالأندلس في شكل مصارعة الثيران التي لا تزال مشهورة الآن في إسبانية وأمريكة اللاتينية[130].

(126) نثير الجمان في شعر من نظمني وإياه الزمان لأبي الوليد إسماعيل ابن الأحمر، مصورة المكتبة التطوانية بسلا عن نسخة دار الكتب المصرية التي تحمل رقم 1863، أدب ـ أثناء ترجمة الشاعر أحمد ابن عبد المنان.

(127) أنظر عن وصف هذه المصارعة : **الإحاطة المطبوعة** (1)، ج 2، ص. 6ـ7، مع نثير الجمان المصورة الآنفة الذكر: عند ترجمة الشاعر ابن عبد المنان...

وفي **وصف إفريقيا** لليون الإفريقي : الترجمة العربية الأولى، ص. 295 : يفيد أن هذه العادة استمرت إلى أيام بني وطاس.

(128) في المصدرين الآنفي الذكر.

(129) أنظر **الحلة السيراء** لابن الأبار، تحقيق وتعليق الدكتور حسين مؤنس، ج 2، ص. 261ـ263.

(130) أنظر **مشاهدات لسان الدين ابن الخطيب في بلاد المغرب والأندلس**، نشر وتحقيق الدكتور أحمد مختار العبادي، ص. 6 : تعليق رقم 1، وراجع عن وصف «مصارعة الثيران» بمدريد أوائل عام 1194هـ/ 1780م : **الاكسير في فكاك الأسير**، لمحمد ابن عثمان المكناسي، تحقيق وتعليق الأستاذ محمد الفاسي، رئيس الجامعة، نشر المركز الجامعي للبحث العلمي، ص. 107ـ109.

ط ـ بيت البزاة :

والـمعنى به مكان استراحـة البزاة في المدة التـي لا تستخدم للصيد، وهي تبتدئ ـ غالبا ـ من أول شهر ماي[131].

ولا يزال يوجد بين أبواب القصر المريني بفاس الجديد : «باب البزاة» يسرة الخارج من باب الساكَمة، غير أنه تقع كتابته بالجيم التابعة للباء المشبعة بالواو[132]، كما يكتب بباء متصلة بالجيم دون إشباع[133]، وهو ـ في الحالتين ـ تصحيف عن البزاة بالزاي فيما يظهر، حتى تكون إضافة اسم الباب لما بعده معقولة، والغالب أن مرد هذه الإضافة إلى أنه كان يتصل بالباب ـ من الداخل ـ بيت استراحة البزاة، حيث كان بعض السلاطين المرينيين يتخذونها للاصطياد بها، ومن الثابت أن أبا عنان كان له بزاة يستعملها في الصيد، حسب «فيض العباب» الذي تناول مؤلفه وصفها بإسهاب[134].

وهكذا تتبين هذه الإضافة، كما يترجح وجود هذا المركز في العصر المريني بفاس الجديد.

ثانيا : منشئات مرينية بضاحية فاس الجديد

إلى جانب مآثر بني مرين داخل فاس الجديد، جملوا خارجها بمنشآت معمارية وفلاحية حفت بها من أكثر الجهات.

ففي الشمال الغربي قامت المأثرتان المتناظرتان: حديقة المصارة والزاوية المتوكلية.

وفي الشمال الشرقي تركزت قباب بني مرين.

وفي الجنوب الغربي : القصر المشتهر باسم الدار البيضاء.

(131) أنظر مبحث **علم البيزرة من الأقنوم في مبادئ العلوم** لأبي زيد الفاسي، مخطوطة خاصة.

(132) **تاريخ الدولة السعدية** المتكرر الذكر ص. 50 و82، مع **الدرر الفاخرة** لابن زيدان، ص. 17 وغيرهما.

(133) **الاستقصا**، ج 9، ص. 34، ط. الدار البيضاء.

(134) المخطوط المار الذكر، ص. 54-55.

وعلى بعد من هذه الآثار ـ إلى الغرب ـ القصر المشيد عند منابع وادي الجواهر.

ويحاول هذا البحث الكشف عن واقع هذه البنيات، ليعرضها حسب ترتيب ذكرها وشيكا.

1 ـ حديقة المُصَارة :

المُصارة ـ بضم الميم ـ تعبير عربي معروف، وجاء ذكر المادة في «**القاموس**»[135] هكذا : «ومُصر الفرس كعني استخرج جريه، والمصارة ـ بالضم ـ الموضع تمصر فيه الخيل».

ويرسمها هذا المصدر بالصاد، وهو الوارد عند مؤلفي **الغرب الإسلامي** : ابن أبي زرع[136]. وابن الحاج النميري[137]. وابن الخطيب[138]. وابن الأحمر[139]، وابن خلدون[140]، والمقري[141]، غير أن العمري[142] ينفرد بكتابتها بالسين، فيخالف الرسم اللغوي للكلمة.

وقد استعمل هذا الاسم بالأندلس للدلالة على الفضاء الواسع في جوار المدن، حيث يكون ميدانا لألعاب الفروسية وعرض الجيوش، ومن الأندلس انتقل للمغرب واشتهر في ضاحية فاس، ثم في ناحية مدينة تازا عند مزارع بني عبد الله[143].

---

(135) المطبعة المصرية، الطبعة الثانية، 134/2.

(136) **روض القرطاس**، ط.ف. 1305، ص. 23، 25.

(137) **فيض العباب**، مخطوط. خ.م. 3267، ص. 39ـ43 حيث يرد ذكرها ثلاث مرات.

(138) **الإحاطة**، مطبعة الموسوعات بالقاهرة، 14/2.

اللمحة البدرية، المطبعة السلفية، ص. 114.

نفاضة الجواب، دار الكتاب العربي... بالقاهرة، ص. 184، 263، 317.

(139) **نثير الجمان**، مطابع دار الملاح في بيروت، ص. 343، 350.

نثير فرائد الجمان، دار الثقافة في بيروت، ص. 351، 355.

بيوتات فاس الكبرى، دار المنصور بالرباط، ص. 48.

(140) **العبر**، ط. مصر 1284، 255/7.

(141) **أزهار الرياض**، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة، 201/1، 316/2.

(142) **مسالك الأبصار** : القطعة المنشورة منها أواخر هذا العمل حيث جاء ذكر المسارة بالسين، ص.

(143) **حوالة أحباس تازا**، مصورة على الشريط، خ.ع. 134، ج 6، لوحة 56.

وعرف هذا الاسم بفاس في صدر الدولة المرينية، وضمن منجزات السلطان يوسف بن يعقوب، يتدرج الحديث عن مصارة المدينة البيضاء كالتالي :

في رجب من عام 685/«1286» ركّب على وادي الجواهر الدولاب الكبير المنفسح المدار.

ثم في شهر صفر من السنة التالية بدأ هذا الجهاز في الدوران.

وفي السنة ذاتها غرست «المصارة» حسب تعبير ابن أبي زرع[144] مصدر تسلسل هذه المنجزات.

وحسب إشارة في «**روض القرطاس**»[145] فإن هذه الحديقة كان موقعها بالضاحية الشمالية لفاس الجديد، ويحدد البعض[146] مركزها بأنه على مقربة من المكان المعروف بالملعب، حيث تقام ألعاب الفروسية أيام الأعياد على ضفة وادي الجواهر.

وإلى هنا : فإن هذه المأثرة ـ في نشأتها الأولى ـ تمثل حديقة مغترسة ومجهزة بدولاب مائي لسقيها، وفي عهد أبي الحسن المريني ترد إشارة إلى دار فخمة مشيدة بالبستان، وكان العمري[147] أول من أعلن عن هذه الدار، في فقرة يصف بها «المُصارة» ويقول بعد ذكر وادي الجواهر : «وعليه الناعورة المشهورة، ترفع الماء إلى بستان السلطان المعروف بالمسارة، وهو بستان جليل فيه قصر جميل، وهذا البستان خارج المدينة الجديدة، وهذه الناعورة مشهورة الذكر : يضرب بها المثل ويتحدث بها الرفاق».

(144) **روض القرطاس**، ص. 297.
وقد كان بجوار مدينة فاس حديقة مذكورة تحمل اسم «البحيرة»، فيتحدث عنها ابن منقد في «رسالته المغربية»، حسب قطعة «**مسالك الأبصار**» المنوه بها وشيكا، ثم أشار لها ابن غازي في **الروض الهتون**، المطبعة الملكية، ص. 6ـ7.
فهل جاءت عملية غراسة المصارة إحياء لهذا البستان الموحدي، بعد ما اندثر متأثرا بالأحداث التي واكبت نقل السلطة إلى بني مرين؟

(145) ص. 23.

(146) هو محمد الفاطمي الصقلي في تعليق له على **روض القرطاس**، بمناسبة ذكر المصارة: ص. 23، وكان هو المصحح للطبعة التي نعتمدها من **روض القرطاس**.

(147) قطعة «**مسالك الأبصار**» المنشورة بالعدد الأول من **مجلة البحث العلمي**، وهي ـ الآن ـ ضمن هذا الكتاب.

ويشيد كاتب أندلسي[148]، بهذا القصر أيام أبي عنان، فيصنفه مع المباني العربية الفاخرة : الخورنق والسدير والجعفرية العباسية.

كما يتحدث الكاتب ذاته[149]، عن دولابين قديمين بالحديقة المرينية : الناعورة الكبرى وأخرى صغرى تتصل بسور المدينة البيضاء.

ويعقب المؤلف نفسه[150]، بوصف خمسة دواليب جديدة جهز بها أبو عنان مرتفعات روض «المصارة»، فانتظم سير الدورة المائية في الدولابين الكبيرين، بينما آل أمر الدواليب الثلاثة الصغار إلى التعطيل.

وإلى جانب هذا الوصف الأندلسي، نقفي بوصف مغربي للمصارة، في نبذة من قصيدة رفعها لأبي عنان منشئها ابن عبد المنان : أحمد بن يحيى الأنصاري الخزرجي، المكناسي الدار الأندلسي الأصل، وقد تخاص أثناءها لوصف جنة المصارة، وذكر دولابها الفسيح المدار :

أحسن بها من روضة غنـــــاء قد	غنى الحمام بها طروبـــا أو شدا
حاكت لها الأنواء مطرف سندس	أرج وشاه يد الربيــــــع بما وشي
وبجانب البـــيضاء منها مرتقـــــى	جبارة الأرجــاء ساميـــة الـــدرى
كرحى الصياقل ما سعت لتديرها	رجـــل ولا نسبت لأمهـــاء المدى
أتـــرى حسام النهر جلـــل متنـــه	صدأ فمـــا تنـــفك تجلـــوه جلا
ناعـــورة، لا بل أبـــــثك أنـــــة	وغـدت تكنفـه البروج وقـد رقـــا.
فلك مضى في الروض ما حكمت به	أدواره والقـطب منـه ومـا اقـــتضى
فقضى برفـــــع الماء إلا أنــــــه	قد خفض الأدواح عيشا والربى[151]

2 ـ برج الذهب

والآن : نشير إلى بنية شاخة بحديقة فاس الجديد، وهي قبة عالية تحمل اسم

(148) ابن الحاج النميري في **فيض العباب**، ص. 33.

(149) نفس المصدر، ص. 34-36.

(150) نفس المصدر، ص. 36-41.

(151) **نثير الجمان**، ص. 350-351.

نثير فرائد الجمان، ص. 355.

«برج الذهب»، وقد أشار لها ابن مرزوق[152] وهو يتحدث عن يوميات السلطان أبي الحسن المريني، فذكر أنه لما يكون بفاس ينتقل يومي الاثنين والخميس «لبرج الذهب»، فيستعرض ـ أمامه ـ الجيش ويتفقده، ويلعب ـ بين يديه ـ الفرسان ليعرف الفارس من غيره، كما يستمع إلى المشتكين، وتعرض عليه الهدايا وما يحمل من الأموال، ويختتم هذا المصدر فقرته قائلا : «وهنالك يجلس كبراء أرسال الملوك وأبناء الملوك إذا وفدوا».

ومن الزائرين الكبار الذين كان نزولهم بهذه القبة : سلطان غرناطة محمد الرابع في وفادته على أبي الحسن عام 732/(1331)، وقد أنزله بروض المصارة لصق داره حسب تعبير ابن خلدون[153]، حيث سنستشف منه تحديد موقع «برج الذهب»، بعدما تبينا ـ وشيكا ـ أنه كان معدا لاستضافة أمثال الوافد الغرناطي، فتكون بنية النزل المغربي تتصل ـ في وضعها ـ «بقصر المُصارة» الذي هو دار العاهل المريني في تعبير ابن خلدون.

وبعد أبي الحسن يتردد ـ أكثر ـ اسم «برج الذهب» أيام أبي سالم، فيأتي ذكره بمناسبة جلوس السلطان المريني لثائر وقع في قبضته عام 761/(1360) : «فجلس ببرج الذهب ـ مقعده من ساحة البلد ـ لاعتراض عساكره»، حسب تعبير ابن خلدون[154].

وبالبنية ذاتها، يجلس أبو سالم لوفد سلطان مالي وما إليها لتقبل هدية الزرافة عام 762/[155] (1360 ـ 1361).

وبها ـ أيضا ـ اقتعد نفس العاهل المغربي لتوديع سلطان غرناطة : محمد الخامس، منصرفه من التجائه بفاس، ليحاول استرداد عرشه السليب عام 762/(1361)، ويسمى ابن الخطيب ـ هنا ـ برج الذهب بقبة العرض، ثم يقول عن ابن الأحمر :

«... واستحضر السلطان فصعد إلى القبة...»[156]، إعلانا بارتفاع هيكلها.

(152) **المسند الصحيح الحسن**، مخطوط الإسكوريال رقم 1666 : عند الفصل الخامس من الباب الرابع.
(153) **العبر**، 255/7.
(154) **المصدر**، 310/7.
(155) **المصدر**، 310/7.
(156) **نفاضة الجواب**، ص. 184، ط. مصر.

وقد استمر روض المصارة بعد عهد أبي سالم، فيتحدث عنه ابن الأحمر ويفيد أنه يزدان بقصور، لا بقصر واحد كما رأينا سلفا، ويبرز بينها «برج الذهب»، كما يشير إلى بعض أنظمة الروض، فيسجل اسم الناظر المدبر لشؤونه أيام أبي الحسن المريني، وهو يورد في بيوتات فاس الكبرى[157] اسم محمد بن حسين بن الخلوف الصنهاجي، ويعقب بهذه الفقرة :

«وكان عاملا على الروض الأفيح المسمى بالمصارة، حيث قصور السلطان من ظاهر دار الإمارة بالمدينة البيضاء، حيث برج الذهب مجلس السلطان ــ يوم الخميس والاثنين ــ لعرض الجيوش والفصل بين الناس».

ونتبين من هذا النص وضع جنة المصارة بعد عصر أبي سالم حوالي نهاية المائة الهجرية الثامنة، ونقفي على ذلك بوصف الروض ذاته مع إشارة لبرج الذهب في فترة لاحقة، حيث يسجل المصدر المعني بالأمر[158] ما يلي :

«وقد كان لأحد سلاطين بني مرين ــ ولعله السلطان أبو يوسف ــ[159] حديقة ملكية كانت تحتل سفح تل تكسوه غابات الزيتون، ويقع إلى الشمال من فاس الجديد، وقد كان فيها بركتان لا تزال بعض آثارهما قائمة إلى الآن، وكانت البركتان لري الحديقة، كما كانت مبعث سرور للسلطان وجلسائه، وكانت توصل المياه إليهما ناعورة ضخمة كانت تقوم على مقربة من باب السباع، فكانت الناعورة ترفع الماء من النهر إلى قناة تحمله ــ بدورها ــ إلى البركتين، ولاشك في أن المكان كان رائعا لما نمت الأشجار وأينعت الزهور، وكانت الحديقة تعلو المدينة الملكية بعض الشيء، فكان الواقف فيها يتبين أحياء المدينة القديمة والمنظر العام لسهل سايس وجبال الأطلس الأوسط التي غالبا ما كان الثلج يغطيها، وكان في الحديقة بيوت بنيت إكراما للضيوف والزوار الممتازين ليقضوا فيها لياليهم».

3 ــ الزاوية المتوكلية :

بعد حديقة المصارة ننتقل إلى المأثرة المرينية الثالثة بضاحية فاس الجديد، وسنتبين أنها تحمل اسم «الزاوية المتوكلية»، وقد كان المغرب المريني يستعمل كلمة

(157) ص. 48ـ49، ط. دار المنصور بالرباط.

(158) **فاس في عصر بني مرين**، تأليف روجيه لوتورنو ؛ ترجمة الدكتور نقولا زياد، نشر مكتبة لبنان : ص. 56.

(159) تبينا ــ سالفا ــ أن منشئ الحديقة الملكية هو أبو يعقوب يوسف بن يعقوب المريني.

الزاوية للدلالة على مؤسسات إحسانية تشيد بأرباض المدن أو في الفلوات، برسم استقبال الواردين عليها لإيوائهم والقيام بضيافتهم، وذلك ما يشرحه ابن مرزوق في هذه الفقرة :

«والظاهر أن الزوايا ــ عندنا بالمغرب ــ هي المواضع المعدة لإرفاق الواردين، وإطعام المحتاجين من القاصدين»(160).

والآن : نشير إلى المعلمة المعنية بالأمر، وتسمى «بالزاوية المتوكلية»(161) نسبة إلى مؤسسها أبي عنان المريني الملقب بالمتوكل على الله(162)، ثم صارت تعرف بـ«ـدار الضيفان»(163) تلميحا لوظيفتها الإحسانية.

ويرجع تأسيسها إلى عام 754/«1353ـ54»، حيث قامت على الضفة الشمالية لوادي الجواهر في مواجهة فاس الجديد، ولئن صارت ــ الآن ــ إلى الاندثار، فإن مصدرا معاصرا لفترة إنشائها، حافظ على وصف هذه المأثرة وهي في رونق جدتها، وهو ابن الحاج النميري في «**فيض العباب**»(164).

فيصفها بأنها شامخة البناء، منفسحة الساحة، مبيضة المظهر، يقوم في قبليها جامع زينت سقفه ببدائع الزخارف، وقابله ــ في الشمال ــ قبة سامقة آزدوج فيها الحسن الباطن مع الجمال الظاهر.

ويدور بالزاوية ــ من جهاتها الأربع ــ مباحات بديعة الاختراع، متقابلة الأشكال والأوضاع، قامت أساطينها كأنها عرائس تجلى، وكسيت أرضها من الصنائع حللا.

وقد امتد من الجامع إلى القبة صهريج بديع الطول والعرض، ينتصب على حافتيه أسدان مصوران من الصفر، ليقذفا ــ من أفواههما ــ الماء النازل للصهريج.

وفي كل ركن من أركان الزاوية باب ينفذ إلى دار بديعة البناء، متناسبة الأجزاء،

(160) **المسند الصحيح الحسن** عند الباب 42، الفصل الرابع، مخطوط، خ.ع.ق.

(161) هو الاسم الذي يذكرها به مؤلف **فيض العباب**.

(162) **روضة النسرين**، المطبعة الملكية، ص. 27.

(163) هذه التسمية مستفادة من تعليق بخط البعض على هامش ص. 67 من مخطوطة **فيض العباب**.

(164) مخطوط الخزانة الملكية رقم 3267، ص. 67ـ70.

مكتملة المنافع، إلا الباب الواقع في الشمال الغربي، فإنه يشرع إلى دار وضوء مستوفية المرافق.

والديار الثلاث : إحداها لإمام الصلاة، والأخرى للقائم بالآذان، والثالثة للناظر في الأوقاف، المتصرف في إعداد الطعام وترتيب الناس.

ويتصل بالزاوية دار معدة لاستقبال الواردين، مفتحة أبوابها لنزول القاصدين، تقابلها دار أخرى برسم الطبخ.

وللزاوية والدارين المتصلتين بها : باب جليل في جهة الشرق، مقابل لمدينة فاس الجديد، وبمقربة منه قامت المنارة العالية، وهي من أحسن الصوامع صنعة، تكسوها أشغال الزليج الملون في شكل بديع، وتتوجها تفافيح مذهبة.

ويتصل بالزاوية ـ من الغرب الشمالي ـ روض أريض مغترس بالأشجار المنتظمة سطورا بديعة الجمال.

ولتجهيز الزاوية بروافد للدورة المائية، كان بغربيها صهريج عميق تتدفق المياه في جنباته، وفي موازاتها ـ خارجا عنها ـ قامت سانية بديعة الأشكال، لسقي الروض وسد حاجة المرافق من الماء.

ثم نصب على وادي الجواهر دولاب يضاعف كميات الماء، لينصبّ في قناة واصلة إلى الزاوية.

ذلك وصف دار الضيافة المرينية بضاحية فاس الجديد حسب المصدر المنوه به.

ويؤكد ابن بطوطة(165) من جهته، تفوق هذه المؤسسة ـ إطلاقا ـ في إتقان الوضع وحسن البناء والنقش في الجبس.

---

(165) **تحفة النظار**، نشر المكتبة التجارية بمصر 23/1، مع 185/2.
ويؤكد الرحالة ـ في الموضعين معا ـ أن الزاوية المتوكلية لا نظير لها في المعمور من الوجهة الفنية.
والغالب أن ابن بطوطة غيَّر مجازف في ارتساماته، فمن ناحية تفوق المغاربة في الحفر على الخشب : يشهد ابن مرزوق : إن أهل المشرق لم يجر لهم في بنائهم احتفال في نقش الخشب، حسب **المسند الصحيح الحسن**، عند الفصل الثاني من الباب 40.
وعن الفن المريني عموما : يسجل أندري جوليان : إن تأثيره وجلاله لا مثيل لهما، لا في بلاد البربر بأكملها فقط، بل حتى في المشرق، **تاريخ إفريقيا الشمالية**، الترجمة العربية 243/2.

وقد استمرت قائمة حتى صدر المائة الهجرية الحادية عشرة، حيث يسجل المقري[166] الكتابة المرقومة عليها في نتفة شعرية سباعية الأبيات، من نظم محمد بن أبي القاسم ابن جزي الذي يقول فيها :

هذا محل الفضل والإيثار والرفق بالسكان والزوار
دار على الإحسان شيدت والتقى فجزاؤها الحسنى وعقبى الدار
هي ملجأ للواردين ومورد لابن السبيل وكل ركب سار

إلى أن يقول في تاريخ بنائها :

في عام أربعة وخمسين انقضت من بعد سبع مئين في الأعصار

4 ـ قباب بني مرين

وهي المأثرة الرابعة الملحقة بفاس الجديد، وموضعها هو المعروف بـ«قلل بني مرين»، أعلى التل المشرف على خارج باب الجيسة، وقد كانت هذه الهضبة تعرف ـ قديما ـ باسم «جبل العرض»[167]، ثم بـ«جبل الزعفران»[168].

ولنتبين أهمية المكان قبل أن يتصير روضة مرينية، نشير إلى رابطة بالجهة ذاتها، لمع اسمها من مطلع القرن الهجري السادس.

فذكرت ـ أولا ـ بمناسبة دفن أبي جبل الفاسي جوارها لما توفي عام 501/ (1107 ـ 1108)، حسب فقرة «**روض القرطاس**»[169] عن ملحد أمام فاس : «ودفن بظاهر الرابطة التي بخارج باب أصليتن من أبواب فاس».

ومما يحدد موقع هذه الرابطة قول ابن الزيات[170] في الموضوع ذاته : «وقبره

---

(166) **أزهار الرياض**، 196/3ـ 197.
نفح الطيب، المطبعة الأزهرية المصرية، 290/3.
(167) **التشوف** لابن الزيات، مطبوعات إفريقيا الشمالية الفنية بالرباط، ع 10، 71.
(168) **الروض العطر الأنفاس** لابن عيشون خند ترجمة ابن جبل. مخطوط خاص، مع **سلوة الأنفاس**، ط.ف. 149/3.
(169) ص. 118، وقد أشار ابن الزيات إلى أن أبا إسحاق الأندلسي ابتنى «رابطة» خارج باب الجيسة، حسب **التشوف**، ع 154، ولما ذكر ابن أبي زرع باب المقبرة في عدوة القرويين عقب عليه قائلا : «ومنه يخرج إلى الرابطة القديمة التي في رأس العقبة»، حسب **روض القرطاس**، ص. 23.
(170) **التشوف**، رقم 10.

بجبل العرض»، وأوضح من هذا فقرة ابن عيشون[171] : «وقبره بجبل العرض يعني بجبل الزعفران»، وسنتبين أن هذا الجبل ـ باسميه ـ هو الذي تعلوه قلة بني مرين.

وهكذا نستجلي ـ على وجه التقريب ـ موقع هذه الرابطة التي تبينا أنها عرفت من أول المائة الهجرية السادسة، وفي أواسط نفس المائة يرد ذكرها للمرة الثانية، حيث أقبر قبليها محمد بن عمر الكاتب المالقي المتوفى عام 563/(1168)، ويقول عنه ابن الأبار[172].

«وتوفي بفاس ... ودفن بجوفي الرباط الذي بمقربة من المصلى هنالك».

والغالب أنه يقصد مصلى القرويين القديمة، وهي التي أحدث البناء بها محمد الناصر الموحدي عام 604/[173] (1207 ـ 1208)، ويعين ابن القاضي[174] موقع هذه المصلى قائلا : «وهي موضع (بستيون) باب الجيسة اليوم، الذي هو قريب من القلة».

وقد تكون الرابطة المنوه بها هي التي تمت بها بيعة نواب فاس للأمير أبي بكر بن عبد الحق ماهد دولة بني مرين، فقد جاء في «**الذخيرة السنية**»[175]، أنهم بايعوه بـ«الرابطة» التي بخارج باب الشريعة، وعند ابن خلدون[176]: «وكانت البيعة بـ«الرابطة» خارج باب الفتوح».

ولا تنافي بين التعبيرين، وإنما يؤكد ذلك أن الرابطة بين البابين جهة موقع القلة.

وإلى هذا فإن هذه الهضبة ـ ذات الأسماء الثلاثة ـ تعتبر من أقدم مقبرات فاس العتيق، فمن مفتتح المائة الهجرية الخامسة دفن بها قاضي فاس ابن محسود : عبد الله بن محمد الهواري، المتوفى عام 401/(1010 ـ 1011)[177].

---

(171) مخطوط **الروض العطر الأنفاس** عند ترجمة أبي جبل.

(172) **التكملة**، ط. مجريط، ع 558.

(173) **الذخيرة السنية**، دار المنصور بالرباط. ص. 42.

(174) **جذوة الاقتباس**، دار المنصور بالرباط عند الترجمة رقم 166.

(175) ص. 72، مع **جذوة الاقتباس**، ع 24.

(176) **العبر**، 147/7.

(177) **سلوة الانفاس**، 161/3.

ثم أقبر بها ــ أواخر المائة الهجرية السادسة ــ أبو محمد يسكر بن موسى الجورائي، المتوفى عام 598/(1202)(178).

وإلى هنا تبينا ــ من هذا العرض ــ أهمية تل القلة على المستوى الروحي، وفي الميدان المعماري شيد بالبقعة ذاتها ــ أوائل القرن السابع» هـ ــ قلعة حصينة تشرف على المدينة القديمة، بنى بها محمد الناصر الموحدي أربع قباب، يحوطها سور بنى خارجه جامعا وحماما، وجلب الماء للجميع من وادي فاس في مسافة طويلة، ثم خربت البناية أيام المجاعة والوباء آخر عصر الدولة الموحدية(179).

* * *

ويبدو أن الأهمية المزدوجة ــ الروحية والمعمارية ــ للتل المنوه به، كانت الحافز للمرينيين المتأخرين أن يختاروا الموضع مكانا لمرقدهم الأخير.

ويمكن أن القباب الموحدية استمرت قائمة الأطلال، فرممها هؤلاء المرينيون وعدلوها، ثم اتخذوها مقبرة ملكية عرفت بقباب بني مرين، واشتهرت بقعتها باسم «القلة».

وهذا الاسم الأخير بدأ ذكره يتردد من النصف الثاني للمائة الهجرية الثامنة، فأعلن به ابن الخطيب ثم ابن الأحمر وابن السكاك(180).

---

(178) **المصدر**، 166/3.

(179) ورد هذا في تقييد مخطوط (خاص) لا يزال بحاجة إلى دراسة، وهو يحمل اسم «**كتاب البستان في الاعتبار وأخبار الزمان**»، وينسب لابن زرع، فيتناول الأنساب وبعض الأخبار المغربية.
وللمقارنة مع الفقرة التي نعلق عليها، نشير إلى فترة مماثلة ــ في الجملة ــ وردت في كتاب **فاس في عصر بني مرين** حسب الترجمة العربية، ص. 56 : «لقد أنشأ أحد سلاطين بني مرين ــ في وقت لا ندريه بالضبط، ولا يفصله عن الفترة التي نتحدث عنها إلا القليل من الزمن ــ منزها على التل المشرف على فاس البالي ــ مباشرة ــ من جهة الشمال، وقد سميت هذه ــ فيما بعد ــ قبور بني مرين، لأن مقبرة أخذت تحتل سفوح التل تدريجيا ؛ أما في أول الأمر فلم يكن ثمة سوى منزه ومسجد لا تزال بعض آثاره قائمة»، وقد ختمت الفقرة التي نعلق بها بالإشارة إلى أيام المجاعة والوباء آخر عصر الموحدين، ونوضح ــ هنا ــ أن هذه المأساة امتدت عشرين عاما من 618هـ حتى 637هـ، حسب **روض القرطاس**، ص. 29، مع **جني زهرة الآس**، المطبعة الملكية، ص 45.

(180) أنظر مصادر التعليقين التاليين رقم 181، 182.

وحسب إشارة «**نصح ملوك الإسلام**» (الأوسط)[181]، كانت قباب بني مرين ثلاث مشيدات :

ـ القبة العالية البناء التي تقابل المدينة القديمة، وبها دفن السلطان المريني أحمد بن أبي سالم.

ثم القبة الفخمة، وهي مقابلة لسابقتها في مواجهة المدينة، حيث مدفن عبد العزيز الثاني بن أحمد بن أبي سالم.

الثالثة : يجعلها نفس المصدر في ناحية الأولى، وهي ملحد أبي عامر أخي عبد العزيز الثاني.

وهكذا أفادتنا إشارة المصدر المنوه به ثلاثة أسماء ألحدوا بهذه المقبرة، ونضيف لهم زمرة أخرى من دفناء القلة، فياتي ـ على رأس القائمة ـ أبو سالم، حيث كان أول سلطان مريني ذكرت مواراة جدثه بهذه البقعة، بعد مقتله عام 762/1361[182].

ثم الأميرة آمنة بنت أبي العباس أحمد بن أبي سالم[183]، وهي التي يضاف لها بستان آمنة بالقصر الملكي في فاس الجديد.

ومن الوزراء الوطاسيين : علي بن يوسف[184]، ويحيى بن عمر بن زيان[185]، ومحمد بوزكري دعى الحلو[186].

ومن السعديين : عبد الملك المعتصم شهيد غزوة وادي المخازن[187]، حيث يتبين أن الدفن بالقلة استمر بعد انقراض دولة بني مرين إلى أواسط عصر السعديين،

---

(181) مخطوط في نسخة فريدة أول مجموع : خ.ع. ك 1256: ص. 100، وينسب لابن السكاك : محمد بن آبي غالب المكناسي القبيل الفاسي الدار، وهو مؤلف **نصح ملوك الإسلام** (الأصغر)، المنشور بالمطبعة الحجرية الفاسية، وآنظر **سلوة الأنفاس** 3/166ـ167.

(182) **نفاضة الجواب**، ص. 276، مع **روضة النسرين**، ص. 31.

(183) سترد الإشارة إلى الوثيقة التي تحدد مدفن الأميرة المرينية عند التعليق رقم 190.

(184) ابن القاضي في **جذوة الاقتباس**، ع 506 مع **درة الحجال**، المطبعة الجديدة بالرباط، ع 1262.

(185) المصدران : **الجذوة** ع 616، **والدرة**، ع 1435.

(186) **درة الحجال**، ع 592.

(187) **تاريخ الدولة السعدية** لمؤرخ مجهول الاسم، المطبعة الجديدة بالرباط، ص. 66.

وهي ملاحظة أشار لها ابن القاضي[188]، فيذكر أن هذا التل «مدفن بني مرين وغيرهم من الملوك».

وسيبقى ـ بعد هذا ـ استجلاء الوصف المعماري لمدافن بني مرين بالقلة، ولحسن الحظ فإن الحسن الوزان الفاسي[189]، حافظ على ملامح من بهاء مشيدات هذه المقبرات قبل تراجعها، فيذكر فخامة زينتها، في زخارف باهرة على الأحجار والرخام، إلى كتابات منقوشة عليها منمقة بألوان زاهية، تثير إعجاب وتقدير المتأملين فيها.

وبالإضافة إلى ليون الإفريقي، نشير إلى وثيقة تسجل وقف ربعة قرآنية على ضريح الأميرة آمنة المرينية آنفة الذكر، وتحدد الوثيقة موقع الضريح بأنه الذي بالقلة من خارج فاس : «على أن يقرأ في الربعة هنالك، ويتبرك بها، على عادة المصاحف المحبسة»[190].

وفائدة هذه الوثيقة أنها تلقي الضياء على بعض مظاهر الاعتمار بهذه المشاهد المرينية، وتذهب بالذهن إلى أنها قد تضاهي ـ في الاحتفال بها ـ واقع أضرحة شالة، «حيث الحسنات المكتتبة، والقباب كالأزهار، مجودة بذكر الله آناء الليل وأطراف النهار»، حسب ابن الخطيب في «**معيار الاختبار**»[191].

وهو الذي يقول ـ أيضا ـ في مطلع رسالة[192] في الاتجاه ذاته : «... حيث الجلال قد رست هضابه، والملك قد كسيت بأستار الكعبة قبابه، والبيت العتيق قد ألحفت الملابس الإمامية أثوابه، والقرآن العزيز ترتل أحزابه...».

(188) **جذوة الاقتباس**، ع 166.

(189) **وصف إفريقيا**، ترجمة الدكتور عبد الرحمن حميده، ومراجعة الدكتور علي عبد الواحد وافي، نشر كلية العلوم الاجتماعية بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض، عام 1399هـ: ص. 675.
جغرافية المغرب في السنوات الأولى من القرن 16م، نقلا عن كتاب **وصف إفريقيا** لليون الإفريقي، تأليف المستشرق الفرنسي لويس ماسينون، كتبه بالفرنسية، وطبع في الجزائر سنة 1906: ص. 231 :
— **Maroc**, par Prosper Ricard, 7ème édition, Librairie Hachette, 1959, p. 347.

(190) الوثيقة المنوه بها غير تامة، والباقي منها قطعة مكتوبة ـ في صفحة واحدة ـ على جزء من ربعة قرآنية تجزئة 30، في 49 ورقة، مسطرة 7، مقياس 250/280 سم، مكتوبة بخط أندلسي مبسوط جميل عتيق، وقد صارت إلى خزانة جامع الأندلس بفاس، ومنها إلى خزانة القرويين، حيث تحفظ بها تحت رقم 80/3. وكان وقوفي عليها ووصفها، ضحوة يوم الثلاثاء فاتح رجب 24/1388 سنتمبر 1968.

(191) مطبعة أحمد يمني بفاس، ص. 42.

(192) **نقاضة الجراب**، ص. 91-92.

والآن يصل بنا المطاف إلى حاضر «قباب بني مرين» في تل القلة، وقد سنحت الفرصة فوقفت عليها ضحى يوم الأحد 12 شوال 14/1384 فبراير 1965، حيث لم يتبق منها سوى أطلال لبنياتها الثلاثة في وضع مربع :

اثنتان منها في مواجهة فاس العتيق، وسقف إحداهما ساقط، بينما الأسوار لا تزال شاخصة في علو يثير الانتباه.

والشرقية منهما أكثر ارتفاعا : في علو نحو 12 مترا، ويتوج قوس بابها ـ في اتجاه فاس العتيق ـ كتابة داخل إطار مستطيل، يوازيها ـ من داخل القوس ـ بقايا نقوش على الجبس (كبافي الوشم في ظاهر اليد)، ويتخلل أعالي الجدران بعض النوافذ وآثار للسقوف، ولها بابان متقابلان.

وأمام باب البناية ـ إلى الشمال الشرقي ـ يظهر أثر مدفن مغطى بالأجر، وعلى مقربة منه مقبرية رخامية خالية من الكتابة، كأنها مشهد جدث مرموق.

أما البناية الغربية فهي دون سابقتها في الارتفاع، وبداخل قوسها أثر زخرفة على الجبس.

بينما ينحدر عن هذه وسابقتها : بقايا البناية الثالثة في علو متوسط، وهي تتجه إلى الغرب في مقابلة لمطة، ويغطيها سقف سقط طرف يسير منه.

واستنادا لإشارات ابن السكاك السابقة، قد تكون البنية الشرقية على ضريح أحمد بن أبي سالم، والبناية الغربية على مدفن عبد العزيز الثاني، والثالثة على ملحد أبي عامر.

وأسفل هذه القبة الأخيرة في مواجهة لمطة، توجد أطلال بناية مربعة واطئة، تقوم على أربعة أقواس سقط سقفها، وتحيط بها بقايا سور يمتد إلى مسافة طويلة، وفي شرقيه ـ بعيدا منه ـ سور آخر، وتعرف هذه البناية بـ«حمام الغولة».

وقد ورد عند ابن عيشون(193) ذكر قبرين بهذه الجهة : لأبي علي عمر بن سيد الناس، وولده يوسف المتوفى عام 728/(1328).

---

(193) مخطوط **الروض العطر الأنفاس**... عند ترجمة المذكورين : أبي علي عمر بن سيد الناس وولده يوسف، وقد جاء ذكر الأب عند ابن مرزوق ـ لدا ترجمة أبي سعيد المريني الأول ـ في هذه الفقرة : «وأحاديثه مع الصالح عمر بن سيد الناس شهيرة»، حسب مقدمة **المسند الصحيح الحسن**.

وحدد نفس المصدر موقع المشهدين قائلا : «وهذان القبران بأعلى جبل القلة عن يسار المار في الطريق إلى المصلى القديمة المرينية، بمقابلة ما بين الحارتين، وبهذه الروضة أمارة السكنى، وبها جب الماء، وبها مسجد حسن، وهذان القبران بإزاء المحراب خارج المسجد مما يلي القبلة»[194].

ونضيف لفقرة ابن عيشون إشارة وردت بإحدى حوالات فاس القديمة[195]، فيتكرر بها اسم «زاوية ابن سيد الناس»، مع تعيين موقعها بأنه خارج باب الجيسة.

ومن هذه الإشارة بإضافة الفقرة قبلها، يمكن أن نستنتج أن البناية التي نعلق عليها هي «زاوية ابن سيد الناس»، ولما خربت وخلت من السكان بدأ يتراءى بها خيالات غريبة، فنسبت للجن واشتهرت باسم حمام الغولة.

5 ـ الدار البيضاء :

جاء في «**روض القرطاس**»[196] ذكر بناء الدار البيضاء من البلد الجديد عام 686/ (1287 ـ 88)، وهنا يعلق البعض فيشير إلى أن هذه هي دار الدبيبغ التي يقال لها «الدار البيضاء»[197].

وفي «**العبر**»[198] بعد ذكر السلطان المريني : أبي سعيد الأول : «... وأنزل ابنه أبا الحسن بالدار البيضاء من قصوره».

ثم استمر هذا الاسم معروفا إلى عهد السعديين، فورد ذكره خلال الحديث عن معركة أيام محمد الشيخ الثاني[199].

وفي العصر العلوي يشيد السلطان عبد الله بن أبي الفداء قصرا بدار الدبيبغ عام 1154/(1741ـ42)[200].

(194) نقل هذه الفقرة وعلق عليها في **سلوة الأنفاس** 164/3.

(195) خ.ع. رقم 53 من قسم الحوالات الحبسية، ص. 288 و310.

(196) الطبعة المتكررة الذكر، ص. 297.

(197) التعليق وارد في قطعة مخطوطة من **روض القرطاس** بها زيادات على المطبوع، مع تعليقات هامشية قصيرة، خ.ع.، د 2152، ص. 151 : ضمن مجموع.

(198) 244/7.

(199) **تاريخ الدولة السعدية** لمؤرخ مجهول الاسم، ص. 93.

(200) **إتحاف أعلام الناس** لابن زيدان، المطبعة الوطنية بالرباط، 425/4.

فهل كان بناؤه على أنقاض الدار البيضاء المرينية ؟ وإذا صح هذا الافتراض فهو يحدد موقع هذه الدار على وجه التقريب، حيث أن بقايا القصر العلوي هي التي كانت مقرا لإدارتي المالية والمدفعية بفاس عام 1937/1356 وقت طبع «**الدور الفاخرة**»[201] مصدر هذا التحديد.

6 ـ قصر رأس الماء :

أشار له كل من الجزنائي[202] وابن الأحمر[203]، وكان العاهل المريني أبو سعيد الأول أمر بتشييده غربي فاس ـ على بعد 13 ك.م ـ عند الموضع المعروف «برأس الماء»، ليكون مشرفا على منابع وادي الجواهر، ثم لم يكتمل بناؤه بعد.

والغالب أن هذا القصر هو الذي لا تزال أطلاله قائمة على ربوة بالمكان المشار له، في بناية مربعة لها نوافذ تطل على منابع الوادي، غير أن معظمها صار ـ الآن ـ مغلقا، ومن الجهة الخلفيةيوجد باب كبير كأنه المدخل الرئيسي للقصر.

(201) لابن زيدان أيضا، المطبعة الاقتصادية بالرباط، ص. 53ـ54.
(202) جني زهرة الآس، ص. 34.
(203) روضة النسرين، ص. 20.

الباب الثاني

نظم الدولة المرينية

الفصل الأول

النظام المدني

الفصل الأول
النظام المدني

أولا : الإدارة العامة

حسب أنظمة الحكم التي سادت ــ في هذا العهد ــ أكثر جهات العالم، فقد كانت سلطة الملوك المرينيين تتسم بحكم فردي وراثي، وكان الأولون منهم يتسمون بأمراء المسلمين، حتى إذا جاء أبو عنان جنح إلى التسمية بأمير المومنين، ثم جرى على هذا بعض من جاء بعده[1].

وقد كان عظماء السلاطين المرينيين يباشرون تسيير القضايا المهمة بأنفسهم، ويجلسون ــ لهذه الغاية ــ في مراكز اختلفت أسماؤها باختلاف القضايا التي تباشر بها، ومن هذه المراكز :

أ ــ «مجلس الفصل»[2]، وهو قبة عظمى بمشور القصر الملكي بفاس

(1) في **المقدمة**، المطبعة البهية المصرية، ص 200 لدى الحديث عن زناتة : «ثم نزع المتأخرون منهم إلى اللقب بأمير المؤمنين وانتحلوه لهذا العهد»، وأول من استعمل منهم هذا اللقب أبو عنان كما في **صبح الأعشى**، ج 5، ص. 486ــ487، وكما تدل على هذا النقوش والمكاتب المرينية الباقية لهذا العهد، على أن عددا من متأخري ملوكهم لم يستعملوا هذا واستمروا على التلقيب بأمير المسلمين، أنظر **روضة النسرين** في تراجم أبي سالم وأبي زيان السعيد وأبي العباس أحمد بن أبي سالم والمستنصر بالله محمد بن أبي العباس وعبد العزيز الثاني والمستنصر عبد الله بن أحمد وأبي سعيد الثاني، ص. 30، 33، 34، 37، 38، 39، 40، وينبغي أن يذكر أنهم في المجالس والمحاورات إنما كانوا يخاطبون بالسلاطين فقط. أنظر **المسند الصحيح الحسن** : الباب السابع ــ الفصل الثاني، مع الباب 38، الفصل الخامس : مخطوط الخزانة العامة رقم 111ق.

(2) **العبر**، ج 7، ص. 36، ط. مصر 1284هـ.

الجديد[3]، وكانوا يترأسونه للنظر في القضايا المهمة وسماع الشكايات[4].

ب ـ «مجلس الخاصة وأهل الشورى» بالمشور أيضا، وفيه يجتمع الملك المريني مع كبار الدولة للمشاورة[5]، وتلمع في تراجم عدد من ملوكهم أسماء أصحاب الشورى الذين يكون رئيسهم هو شيخ بني مرين[6].

ج ـ «مجلس العرض»، وهو ببرج الذهب[7] الواقع ببستان المسرة خارج فاس الجديد، وكان يجلس به السلطان يومي الاثنين والخميس لعرض الجيوش والفصل بين الناس[8]، وهنالك تعرض عليه الهدايا ويستقبل أرسال الملوك[9].

د ـ «قبة العدل»، أسسها أبو الحسن بكل من سبتة وتلمسان لسماع الشكايات حينما يكون بإحدى المدينتين، وكان يجلس فيها بنفسه، كما ينيب عنه من يثق به من الوزراء، والفقهاء[10].

---

(3) **فيض العباب**، نسخة المكتبة الملكية بالرباط رقم 3267.

(4) أنظر **المسند الصحيح الحسن** ـ الباب العاشر، نسخة الخزانة العامة بالرباط رقم ق 111.

(5) **العبر**، ج 7، ص. 341، وأنظر **ذكر مشاهير أعيان فاس في القديم**، لدى بيت بني أبي مدين رقم 66: «نسخة خاصة».

(6) مثل الحسن بن علي بن أبي الطلاق من بني عسكر بن محمد في عهد أبي الربيع المريني: **العبر**، ج 7، ص. 241، ويحيى بن سليمان العسكري أيام أبي الحسن : **المصدر**، ج 7، ص. 256، وعيسى بن الحسن بن علي بن أبي الطلاق المار ذكر أبيه : وصاحب شورى أبي عنان **المصدر**، ج 7، ص. 295 ؛ ومنصور بن الحاج خلوف الياباني من أهل شورى بني مرين في دولة أبي عنان، **المصدر**، ج 7، ص. 297 ؛ ويحيى بن رحو أيام تاشفين بن أبي الحسن، **المصدر**، ج 7، ص. 314 ؛ وسليمان بن داود في دولة أبي العباس بن أبي سالم، **المصدر**، ج 7، ص. 340 ؛ ومحمد بن أبي عمر مستشار موسى بن أبي عنان، **المصدر**، ج 7، ص. 360.

وفي **نفاضة الجراب**، ج 2، لوحة 115 بـ ورد ذكر أسماء ثلاثة من أرباب الشورى في عهد تاشفين بن أبي الحسن ـ مصورة معهد مولاي الحسن بتطوان رقم 27.

(7) **العبر**، ج 7، ص: 310 ـ السطر 22.

(8) **ذكر مشاهير أعيان فاس في القديم** لدى ذكر بيت بني الخلوف وهو البيت 56 : مخطوط خاص.

(9) **المسند الصحيح الحسن**، الباب الرابع ـ الفصل الخامس ؛ وأنظر **العبر**، ج 7، ص. 310.

(10) **المسند الصحيح الحسن**، الباب الرابع ـ الفصل الخامس، هذا وقد كان في غرناطة مؤسسة تسمى بدار العدل، وهي قصر مستقل بالحمراء، جدد بناءه أبو الحجاج يوسف بن اسماعيل النصري في سنة 749هـ كما هو مرسوم على نقوش جدرانه، وعلى قوس بابه المسمى Puerta Judi Caaria صورة يد مفتوحة من جهة، ومن جهة أخرى شكل مفتاح : بارزين : **وصف إفريقيا والأندلس**، تعليق رقم 1، ص. 42، نشر وتعليق حسن حسني عبد الوهاب، فهل كان من تشابه في الشعار بين هذا القصر وقبة العدل المرينية؟

هذا : وفي «**مسالك الأبصار**»[11] يذكر عن جلوس أبي الحسن المريني للمظالم : إنه يجلس على فرش مرفوعة، بحضرته الأشياخ متقلدين سيوفهم.

كما يذكر «**المسند الصحيح الحسن**»[12] و«**تحفة النظار**»[13] تفاصيل عن نظام تقديم الشكايات أيام أبي الحسن وأبي عنان.

* * *

وقد كان يساعد الملوك المرينيين سلطة عليا تتألف من الوزير، وصاحب الشرطة العليا، وصاحب الأشغال، وصاحب العلامة[14].

فالوزير : يرجع إلى نظره السلاح ورئاسة الجيش والحروب، ويحافظ على الأمن، ويدافع الخارجين[15]، وينظر في الولاة والجبايات، كما يرفع الشكايات للسلطان ويباشر الحكم في بعضها[16].

وصاحب الشرطة العليا ويسمى «المزوار»، هو رئيس الجند المتصرفين بباب السلطان في تنفيذ أوامره وتصريف عقوباته وحفظ المعتقلين في سجونه، وهو الذي ينظم المقابلات السلطانية، ويأخذ الناس بالوقوف عند الحدود في حضرة السلطان[17].

وصاحب الأشغال ويسمى كاتب الأشغال، يتولى أمر الجباية والخراج، كما يتولى ديوان الجيش، فيشرف على إحصاء العساكر : بأسمائهم وتقدير أرزاقهم وصرف أعطياتهم في إبانها، وهو مسؤول أمام السلطان أو الوزير، وخطه معتبر في صحة الحسابات في الجباية والعطاء[18].

وقد كان ديوان هذه الخطة يشتمل على كتاب للخراج وأهل الحساب

---

(11) «وصف المغرب أيام السلطان أبي الحسن المريني»، وهو الموضوع الأخير من هذا الكتاب.
(12) الباب العاشر.
(13) ج 2، ص. 182.
(14) توجد أسماء هذه الهيئة الرباعية بالنسبة لكل سلطان في عدة مصادر : **روضة النسرين**، مع **الذخيرة السنية**، **وروض القرطاس**، **وجذوة الاقتباس**.
(15) **مقدمة** ابن خلدون، ص. 205 و210، ط. المطبعة البهية المصرية.
(16) أخذا من **المسند الصحيح الحسن**، الباب 34 ــ الفصل الثاني.
(17) **مقدمة** ابن خلدون، ص. 210.
(18) **المصدر**، ص. 213 مع ص. 211.

والمساحة[19]، ومن ملحقاته ـ أيضا ـ شهود بيت المال الذين كانوا يشهدون على الحاصل في بيوت الأموال دخلا وخرجا، وترجع إليهم سائر الأعمال، وترفع لهم جرائد الحسابات، وهي أشرف خطط العدالة[20].

ويفيد ابن خلدون[21] ـ عرضا ـ أن أشكال الأعداد التي كانت مستعملة في هذا الديوان هي رشوم الزمام.

ومن توابع هذه الخطة عمال الزكاة، وهم الذين يخرجون للنواحي لاقتضاء ضرائب سكان البادية[22].

وصاحب العلامة هو الذي يكتب بخطه وبحسب النيابة عن السلطان علامته على المراسيم، بما أن أكثر ملوك بني مرين كانوا لا يتولون ذلك بأنفسهم، وقد باشر بعضهم وضع العلامة بخطه، فإذا كانت علامة الصك المريني : **وكتب في التاريخ المؤرخ به** فهي بخط يد السلطان، وإذا كانت : **وكتب في التاريخ** فهي بخط صاحب العلامة[23]، وكانت توضع أسفل المكتوب[24] وترسم بخط غليظ[25].

وقد ابتدأ تنظيم هذه الخطة أيام يوسف بن يعقوب الذي قصرها على كاتب معين، بعدما كانت لا تختص بكاتب واحد[26].

وفي «**مستودع العلامة**»[27] استوفى ذكر كتاب العلامة في الدولة المرينية إلى ما بعد سنة 800هـ/1398م.

ويؤخذ من «**مسالك الأبصار**»[28] : أن كاتب العلامة كان يكتب أعلى

(19) في **المسند الصحيح الحسن** ترجمة عقدها لكتاب الخراج والديوان وأهل الحساب والمساحة ـ الباب 36 ـ الفصل 3.

(20) **المسند الصحيح الحسن**، الباب 26 ـ الفصل الثاني.

(21) **المقدمة**، ص. 101.

(22) **تحفة النظار**، ج 2، ص. 184، **وجذوة الاقتباس**، ص. 269، ط.ف.

(23) **مستودع العلامة**، ص. 2، «نسخة خاصة».

(24) **العبر**، ج 7، ص. 385.

(25) **الاستقصا**، ج 2، ص. 128، ط. القاهرة 1312هـ.

(26) **العبر**، ج 7، ص. 232.

(27) ص. 9-26.

(28) ورقة 111 ـ أ.

المراسيم بخطه ـ أيضا ـ بعد البسملة والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم : «إسم السلطان المريني ونسبه».

ومن ملحقات هذه الوظيفة كاتب الإنشاء والصكوك، وكاتب التوقيع على القصص المرفوعة للسلطان طبق ما يتلقاه الكاتب منه، وأصناف آخرون من الكتاب[29].

وقد ارتقت صناعة الترسل في هذه الدولة أثناء عهد أبي سعيد بعدما صار في بلاطه عبد المهيمن الحضرمي[30].

* * *

وهناك سلطة عليا ثانوية تتمثل في المناصب التالية :

- **صاحب السقيف**، وهي وظيفة جاء ذكرها ـ بهذا الاسم ـ في «**الجذوة**»[31] و«**الاستقصاء**»[32]، كما جاء في «**ذكر مشاهير أعيان فاس في القديم**»[33] اسم «سقيفة الحضرة»، ولم توضح هذه المصادر الثلاثة اختصاص هذا اللقب، وفي «**معيار الاختبار**»[34] يرد ـ ضمن معالم فاس الجديد ـ اسم «سقائف الترس والنصل»، فعلى هذا تكون هذه المؤسسة مخزنا أو إحدى مخازن أسلحة الدولة وصاحبها رئيس لهذا المخزن، وفي الوقت نفسه كانت مكانا لجلوس حاشيته ومن إليهم.
- **قيادة الأساطيل** : ويسمى صاحبها «الملند» بتفخيم اللام، أخذا من كلمة : Maland الإسبانية، وهو قائد أعلى لجميع قواد المراسي البحرية بالمغرب وبالأندلس المرينية، وصاحب هذه الخطة يشرف على إنشاء الأساطيل والركوب عليها للجهاد أو السفر في البحر، وهو مرؤوس للوزير في كثير من الأحوال[35].

---

(29) أنظر مخطوط **ذكر مشاهير أعيان فاس في القديم** لدى، بيت بني أبي مدين رقم 66.
(30) أنظر **العبر**، ج 7، ص. 248.
(31) ص. 62، ط.ف.
(32) ج 2، ص. 145. ط. مصر.
(33) بيت بني الغذيري ـ رقم 53.
(34) النص المنشور ضمن **مشاهدات لسان الدين ابن الخطيب**...، ص. 112.
(35) أنظر **المقدمة**، ص. 219 و223.

- **رئاسة الجهاد بالأندلس**، وكان يتولاها أيام يوسف بن يعقوب الشيخ المجاهد أبو الحسن علي بن يوسف بن يزجاتن، حيث عقد له على اعنة خيل الأندلس وجندها، وقلده أمر حربها وغزوها، وذلك سنة 685هـ 1286م(36)، وينبغي أن يميز بين هذه وخطة مشيخة الغزاة بالأندلس التي يتولاها رئيس يمت إلى ملك المغرب بنسب، فإن هذه كانت تحت إشراف ملوك غرناطة(37).

- **أمانة دار السكة المركزية** : وهي مصلحة تشرف على سك النقود وتراقب صياغة الحلي، ويوجد بها إلى جانب «الأمين» عدول وكتاب ومعاونون، وكانت هناك ديار سكة في مدن أخرى سوى فاس، وسيرد ذكرها بأوسع من هذا في فصل الاقتصاد.

- **الإشراف على الحسبة** : جاء ذكر هذه الخطة في ترجمة الشاعر الشهير أبي فارس عبد العزيز بن عبد الرحمن بن محمد الملزوزي المكناسي المتوفى وسط سنة 697هـ/1297م، قال في «**مختصر الإحاطة**»(38) : «وقد كان جعل له النظر في أمور الحسبة ببلاد المغرب»، ومن مظاهر ممارسته لهذه الخطة ما ورد في «**روض القرطاس**»(39) : أن تعديل الصيعان المغربية وجمعها على المد النبوي كان على يد هذا الملزوزي.

- **نقابة الأشراف** : وصاحبها ينظر في شؤون هؤلاء، ويصون أنسابهم، ويمنعهم من المكاسب التي لا تناسب مركزهم، ويكفهم عن اقتراف المحارم، ويحملهم على نصرة الدين وحمايته(40).

---

(36) **روض القرطاس**، ص. 276، ط.ف. 1305هـ.
ويلحق بوظيفة الجهاد بالأندلس ما جاء في **العبر** 216/7 : فيذكر وفاة قائد المسالح بالأندلس علي بن يزكاسن عام 692هـ، حيث خلفه ـ في وظيفته ـ الأمير أبو عامر بن السلطان يوسف المريني، وفي **روض القرطاس**، ص. 292 : «وفي سنة أحد عشر وسبعمائة : ولى أمير المسلمين أبو سعيد عثمان : أخاه الأمير أبا البقاء يعيش الجزيرة ورندة وأحوازهما من بلاد الأندلس».

(37) أنظر عن خطة مشيخة الغزاة : **الإحاطة** ج 1، ص. 36، مطبعة الموسوعات بمصر، و**العبر**، ج 7، ص. 366ـ379.

(38) للبقني، ج 2، لوحة 279، مصور الخزانة العامة رقم د 1582.

(39) ص. 282.

(40) اختصاصات النقيب مأخوذة من «**جني زهرة الآس**» مصورة دار الكتب المصرية، لوحة 25ـ26.

وحسب ذكر البعض[41] فقد وجدت هذه الخطة بالمغرب عند المرابطين والموحدين، وفي دولة بني مرين ورد ذكر مزوار الشرفاء أيام أبي عنان دون أن يعين إسمه[42]، كما أن أبا سالم عين للنقابة الشريف المعظم أبا عبد الله محمد بن محمد بن عمران الجوطي[43] الذي تسلسلت هذه الخطة في أسلافه[44] من أول المائة الثامنة هـ فما قبلها[45].

وقد ذكر ابن خلدون[46] بيت بني عمران الجوطيين، وولايتهم النقابة فقال : «وكبراؤهم (الأدارسة) لهذا العهد بنو عمران بفاس... وهم نقباء أهل البيت هناك، والساكنون ببيت جدهم إدريس، ولهم السيادة على أهل المغرب كافة».

هذا كلام ابن خلدون الذي يفيد المركز الذي كان للنقابة في العصر المريني، وقد تضخم شأن هذا المركز بعد هذا، حتى اجمع رأى أهل فاس على مبايعة النقيب محمد بن علي العمراني، وتنصيبه ملكا بدل عبد الحق بن أبي سعيد آخر ملوك بني مرين[47].

- **قاضي القضاة** : جاء ذكر هذه الخطة في «**مسالك الأبصار**»[48]، مع «**نفح الطيب**»[49] الذي يحلي المقري الكبير محمد بن محمد بن أحمد التلمساني بقاضي القضاة بحضرة الخلافة : فاس المحروسة، أما اختصاصات هذا اللقب فلم أقف على توضيح بشأنها.
- **ناظر الأخبار** : وهو مكلف بتعرف أخبار النواحي والأقطار البعيدة وإبلاغها

---

(41) **تحفة الحادي المطرب** للزياني، نسخة خاصة ضمن مجموع.
(42) **نفح الطيب**، ج 3، ص. 148؛ **نيل الابتهاج**، ص. 253.
(43) **جني زهرة الآس** المصورة الآنفة الذكر، لوحة 24–25.
(44) **نصح ملوك الإسلام**، ص. 19.
(45) **الدرر البهية**، ج 2، ص. 38.
(46) **المقدمة**، ص. 22.
(47) أنظر **الاستقصا**، ج 2، ص. 145: ط. مصر، ويلحق بهؤلاء النقباء العمرانيين اسم عبد الله بن عمران الجوطي، معاصر أحمد بن محمد بن مهنا الفاسي، حيث ذكره – عرضا – أواخر شرحه لألفية ابن سينا : مخطوط، خ.ع. ك 1609.
(48) «وصف المغرب أيام السلطان أبي الحسن المريني».
(49) ج 3، ص. 112.

للسلطان، وقد استقل بالنظر فيها لعهد أبي الحسن : أبو حسون علال بن محمد الهسكوري[50].

- **مفتشون منتقلون** : جاء في «**المسند الصحيح الحسن**»[51] أن أبا الحسن كان يعين من يتوجه لجهات المملكة في كل سنة، ليتفقد أحوال الرعية في كل ناحية من البلاد، ثم يتخير من يتفقد أحوال هؤلاء الموجهين، ويوصي بعضهم على البعض.

* * *

وقد قسم يعقوب بن عبد الحق المملكة المرينية إلى تسع عمالات : الأولى مراكش وأعمالها وجميع بلاد سوس، الثانية أغمات وتينميل وجبالها، الثالثة سلا وأحوازها ومراسيها، الرابعة مكناس وأحوازها، الخامسة مدينة فاس، السادسة تازا وجميع أحوازها، السابعة مدينة سجلماسة، الثامنة بلاد درعة وأحوازها، التاسعة بلاد الأندلس المرينية[52] التي صار يطلق عليها ثغور الأندلس[53].

وكان الموظفون الرئيسيون في كل عمالة هم : صاحب القصبة، وصاحب الشرطة، والوالي، والقاضي، والمحتسب[54].

فصاحب القصبة ويسمى المشرف[55] : يشرف على السلطة المحلية، وهو الواسطة بينها وبين السلطة العليا[56]، وهو ـ أيضا ـ صاحب الشرطة بالضواحي[57].

وصاحب الشرطة : ويقال له القائد[58] : وظيفته التهمة على الجرائم وإقامة

---

(50) **المسند الصحيح الحسن** ـ الباب العاشر.

(51) **المصدر**، الباب 10.

(52) يؤخذ هذا التقسيم من **الذخيرة السنية**، ص. 95.

(53) **العبر**، ج 7، ص. 242.

(54) هذا يؤخذ من **المسند الصحيح الحسن** ـ الباب 16 ـ الفصل الثالث.

(55) وردت هذه التسمية في **فيض العباب**، ص. 233.

(56) أخذا من **المسند الصحيح الحسن** ـ الباب العاشر.

(57) **العبر**، ج 7، ص. 279.

(58) جاء هذا الاسم في **فيض العباب**، ص. 233، وفي **المقدمة**، ص. 193 يذكر أن هذا يسمى ـ أيضا ـ باسم الوالي، وهو مخالف لما في **المسند الصحيح الحسن** ـ الباب العاشر ـ من التفرقة بين الوالي وصاحب الشرطة.

حدودها، ومباشرة القطع والقصاص حيث يتعين، وهو يحكم في هذه بموجب السياسة دون مراجعة الأحكام الشرعية[59].

والوالي ويسمى ـ أيضا ـ عاملا[60] : يجبي الضرائب ويشرف على الحرس المحلي بتعاون مع صاحب القصبة[61].

ومن ملحقات هذه الخطة كتاب الأشغال المحليون، ويذكر في «**العبر**»[62] عن أحمد الرعيني أنه من طبقة كتاب الأشغال بسبتة.

أما **القاضي** : فيتولى الفصل بين الخصوم، وينظر في أموال المحجور عليهم على اختلاف أصنافهم، وفي وصايا المسلمين وأوقافهم، ويزوج الأياسي عند فقد الأولياء، ويحكم في مصالح الطرقات والأبنية، ويتصفح الشهود والأمناء والنواب ليحصل له الوثوق بهم، كما يباشر التعازيز، ويقيم الحدود في الجرائم الثابتة شرعا[63].

وكان من تقاليد المرينيين تخصيص الأنكحة بقاض على حدة، نظير ما كان عليه عمل الموحدين في المغرب ثم بتونس، وتقلد هذه الخطة ـ بفاس ـ ابن مهدي الزريهني[63 م].

وكانت أحكام القضاة تصدر وفق المذهب المالكي : مذهب أهل المغرب آنذاك[64].

وقد تعرض عدول القضاة في بعض الجهات للتنقيص من عددهم، ووقع ذلك أيام يوسف بن يعقوب الذي استغنى عن عدد من الموثقين بفاس، ولم يبق منهم سوى خمسة عشر عدلا بعد ما كانوا أربعة وتسعين، وذلك يوم الاثنين حادي عشر شوال من عام 693 هـ 1293 م[65]. وأعيد هذا الإجراء مرة أخرى في مكناس أيام أبي

---

(59) **المقدمة**، ص. 193.
(60) في **العبر**، ج 7، ص. 277 يسمى ولاة الجباية عمالا.
(61) **فيض العباب**، ص. 233.
(62) ج 7، ص. 339.
(63) **المقدمة**، ص. 192 و193.
(63م) مخطوط **ذكر مشاهير أعيان فاس في القديم** : بيت بني الزرهوني رقم 13.
(64) أنظر مخطوط **ذكر مشاهير أعيان فاس في القديم** ـ بيت بني عشرين رقم 11.
(65) **روض القرطاس**، ص. 298.

عنان، الذي أمر بالاقتصار على عشرة من شهودها وآخر الباقين على كثرتهم[66].

والظاهر أن تنظيم الإفتاء وإحداث رتبة المفتي لم يكن وقع في هذا العهد وإنما حدث ذلك بعد : من أيام الوطاسيين.

وبعد هذا يأتي **المحتسب**، ووظيفته : الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهو يتخذ الأعوان على ذلك، ويبحث عن المنكرات، ويعزر ويؤدب على قدرها، ويحمل الناس على المصالح العامة في المدينة، ولا يتوقف حكمه على تنازع أو استعداء، وليس له إمضاء الحكم في الدعاوي مطلقا، بل فيما يتعلق بالغش والتدليس في المعايش وغيرها، وفي المكاييل والموازين[67].

* * *

وإلى جانب الموظفين الرئيسيين في العمالات، كانت هناك وظائف جهوية صغرى، ومنها :

نظارة الأحباس[68] : وهي مرؤوسة للقاضي[69]، وقد تجمع مع الحسبة فيتولاهما شخص واحد[70].

ونظارة المارستان : وممن تقلدها محمد بن قاسم بن أبي بكر القرشي المالقي نزيل غرناطة، ثم فاس، والمتوفى سنة 754هـ/1353م، كان ناظر مارستان فاس[71] والشيخ الحاج أبو الضياء منير بن أحمد بن محمد بن منير الهاشمي الجزيري نزيل آسفي، وبها لقيه ابن الخطيب الذي خططه بصاحب السوق ومقيم المارستان[72]. وذلك سنة 761هـ/1359م.

ونظارة المباني : وصاحبها يتولى الإشراف على مباني الدولة وإخراج الأموال

---

(66) **الروض الهتون**، ص. 35 ؛ ومن ملحقات هذا الموضوع ما جاء عن عبد الرحيم اليزناسني قاضي فاس، حيث يذكر عنه السخاوي : أنه ممن عمل وثائق للشهود، حسب **الضوء اللامع** 167/4.

(67) أنظر **المقدمة**، ص. 196.

(68) يرد اسم ناظر الأوقاف في هذا العهد بكثير من المصادر، ومنها على سبيل المثال : **جني زهرة الآس**، ص. 68، ط. الجزائر.

(69) هذا يؤخذ من اختصاصات القاضي الآنفة الذكر.

(70) هذا يؤخذ من مخطوط بالمكتبة الملكية بالرباط يقع ضمن مجموع رقم 1877.

(71) **الجذوة**: ص. 191، ط. ف.

(72) **نفاضة الجراب**، ج 2، لوحة 16ـأ.

للنفقات عليها، وقد كان أبو سعيد الأول أضاف هذه الخطة ـ في سبتة ـ لوالي جبايتها أبي القاسم بن أبي مدين[73]، وفي عهد السلطان أبي العباس بن أبي سالم أسندها استقلالا ـ في سبتة أيضا ـ للمهندس الطبيب أبي عبد الله الجياني المتوفى سنة 789 أو في السنة بعدها[74]/1387، أو 1388م.

وصاحب الصلاة : وقد كانت هذه الخطة مندرجة ضمن اختصاصات القاضي، وفي أيام ابن عنان أفردها بولاية على حدة، لما رأى من انشغال القضاة بالأحكام وتوابعها، واستغراق ذلك أكثر أوقاتهم، وقد كتب لكل من وقع الاختيار عليه ظهيرا بهذه الولاية، وقرر له مرتبا موسعا، وعين لكل واحد من المتولين أعوانا بقدر ما يحتمل بلده، وأجرى لكل عون مرتبا يقيم به أوده.

أما مهمة هذا المتولي فهي حمل الناس على الصلاة في أوقاتها، وحضور الجماعة بالمساجد، مع الاشتداد في ذلك غاية الاشتداد، وعقاب من تخلف عن شهود الفريضة، وإرهاق تارك الصلاة بالمرة[75].

هذا وفي «**ذكر مشاهير أعيان فاس في القديم**»[76] ذكر عن أبي المكارم منديل بن زنبق الفاسي : «أنه كان يحرض الناس على الصلاة في أوقاتها، ويضربهم عليها بالسياط والمقارع بأمر السلطان أبي عنان»، والظاهر أن هذا من أعوان صاحب الصلاة بفاس حينئذ.

الإشراف على المحارس والمناظر : وهي من منشآت أبي الحسن الذي أقام على الشواطئ البحرية من مدينة آسفي إلى بلاد الجزائر محارس ومناظر، إذا وقعت النيران في أعلا واحدة منها توقد في بقيتها في الليلة الواحدة أو بعض ليلة، وقد وظف في كل منها رجالا مرتبين :

نظارا وطلاعا يستكشفون البحر، فلا تظهر في ناحية قطعة تقصد إحدى

---

(73) **العبر**، ج 7، ص. 247.

(74) **بلغة الأمنية**، الترجمة رقم 44، نسخة خاصة مأخوذة من نسخة الأستاذ الكبير عبد الله كنون، وفي **اختصار الأخبار...**، ط. باريس، ص. 19 : يذكر ـ في سبتة ـ دار الأشراف على البناء والنجارة وما يرجع إليها.

(75) **فيض العباب**، ص. 23 و22.

(76) بيت بني زنبق رقم 59.

السواحل المرينية إلا ويبدو التنبير تباعا في المحارس، فيستعدون لمواجهة الحالة[77].

ومن ملحقات هذه التنظيمات المحلية، أن أبا الحسن أسس مجالس عدلية دائمة في جهات المملكة، وقرر أن يجتمع في كل بلد ـ بعد صلاة الجمعة ـ مجلس يتألف من القائد، ووالي القصبة، ووالي الجباية، والقاضي، والخطيب، والعدول، ثم يستمعوا إلى سائر الشكايات التي تعرض عليهم، ويفصلوا فيما يرجع لنظرهم، أما ما كان من اختصاص الملك فإن صاحب القصبة يقوم برفعه إلى بابه طبق ما يكتب به المجلس[78].

ومن توابع هذه التنظيمات المحلية أيضا السهر على تأمين **طرق المواصلات**، وقد أحدث أبو الحسن ـ في هذا الصدد ـ تنظيمات جديدة على طول الطرق الرابطة بين فاس إلى مراكش، وإلى تلمسان، وإلى سبتة، وغيرها من البلاد، وأمر بأن يضرب على مقدار كل إثنى عشر ميلا خياما يسكنها أهل الناحية المعنية بالأمر، ويكلفون بحراسة المسافرين وحياطة امتعتهم، وبيع ما يحتاجون إليه من التموين لهم ولدوابهم، وفي حال ما إذا ضاع بينهم شيء فإنهم يتضمنونه، ولكي تستدام هذه التنظيمات أقطع السلطان لسكان هذه الخيام بكل ناحية أرضا ينتفعون بها، مكافأة لهم على سكنى المواضع المذكورة.

وقد نجح هذا الإصلاح واستمر أيام أبي الحسن وبعده[79].

والغالب أن هذا التنظيم كانوا يستغلونه لتسيير المواصلات البريدية أيضا.

* * *

وهذه تذييلات لموضوع الإدارة العامة :

أ ـ لا تزال معلوماتنا ضعيفة جدا عن مرتبات موظفي السلك الإداري، وقد ورد في «**مسالك الأبصار**»[80] ذكر مرتبات وانعامات كاتب العلامة وقاضي القضاة أيام أبي الحسن، فقد كان مرتب الأول مثقالين ـ «دينارين» من الذهب ـ في كل

(77) **المسند الصحيح الحسن** ـ الباب 39 ـ الفصل الثاني.

(78) **المسند الصحيح الحسن** ـ الباب 10

(79) **المسند الصحيح الحسن** ـ الباب 47 ـ الفصل الثاني.

(80) «وصف المغرب أيام السلطان أبي الحسن المريني»، وهو الموضوع الأخير من هذا الكتاب.

يوم، مع مجسرين يتحصل منهما متحصل جيد، وله رسوم كثيرة على البلاد، ومنافع وإرفاقات.

أما قاضي القضاة فله ـ يوميا ـ مثقال من الذهب، مع أرض يسيرة يفلح فيها لمؤونته وعلف دوابه.

ولكل منهما إنعام سنوي فيه بغلة مسرجة ملجمة، وبقجة قماش.

وهناك كتابة علف الخيل، وقد كان مرتبها ـ أيام يعقوب بن عبد الحق ـ ثلاثون مثقالا فضة، هكذا ورد في «**ذكر مشاهير أعيان فاس في القديم**»(81). وظاهر أنه يقصد المرتب الشهري.

ب ـ كانت سياسة المرينيين تتسم بطابع شعبي إلى حد ما، فقد كان من تقاليدهم في الميدان الإداري أن لا يتخذوا في تعيين من يتولى المناصب الدينية وما إليها إلا بعد أن يرجعوا فيهم لاختيار من يهمهم الأمر من الشعب، فقد روى ابن مرزوق(82) عن أبي الحسن إنه كان يقول :

«أوصى جدنا عبد الحق بوصية التزمناها، وهي أن ثلاثة من الولاة لا مدخل للرعية فيهم مع السلطنة، وهم : صاحب القصبة، وصاحب الشرطة، والوالي، وثلاثة المرجع فيهم للرعية، وهم : إمام الصلاة والخطبة، والقاضي، والمحتسب».

ومن مظاهر هذا الطابع الشعبي المريني ما جاء في «**العبر**»(83) في صدد الحديث عن محاولة الأمير يحيى بن عبد الحق المريني الدخول إلى فاس :

«... وتلطف في مداخلة أهلها، وضمن لهم جميل النظر، وحميد السيرة، وكف الأذى، والحماية الكفيلة لهم بحسن المغبة، وصالح العائدة، فأجابوا... وحضر أبو محمد الفشتالي(84)، **وأنشده الله على الوفاء بما اشترط على نفسه من النظر لهم، والذب عنهم، وحسن الملك والكفالة، وتقبل مذاهب العدل، فكان حضوره ملاك تلك العقدة، والبركة التي يعرف أثرها خلفهم في تلك البيعة**».

(81) بيت بني أبي مدين رقم 66.

(82) **المسند الصحيح الحسن** ـ الباب 16 ـ الفصل الثالث؛ وأنظر **المدخل** لابن الحاج، المطبعة المصرية بالأزهر ـ 2/200-201، مع **نفح الطيب**، المطبعة الأزهرية ـ 3/138.

(83) ج 7، ص. 173-174.

(84) في **السلوة**، ج 2، ص. 45-47 توجد ترجمته ومصادرها ومراجعها.

ومن مظاهر هذا الطابع ـ أيضا ـ أن عودة المغاربة للقضاء بالمذهب المالكي ـ بدل الظاهري ـ إنما كان استجابة لرغبة المغاربة التي قام يعقوب بن عبد الحق بتنفيذها[85].

ج ـ في هذا العصر ـ في القرن 8هـ/14م ـ تخلص اليهود المغاربة من تطبيق الشريعة الإسلامية عليهم، وأقاموا محاكم يهودية خصوصا في مسائل الأحوال الشخصية والمواريث[86].

د ـ يبدو أن المرينيين لم يهتموا بإنشاء مصالح عليا خاصة لكل من العلاقات الخارجية[87] وركب الحجيج[88] والترجمة[89]، وإنما كان يلحق بالسلطان ـ رأسا ـ القائمون بهذه المصالح من سفراء ورؤساء ركب الحجيج وتراجمة.

ثانيا : الإدارة الخاصة

وهي جهاز الموظفين الذين يسيرون الشؤون الخاصة بالسلطان، وهذا ما وقفت عليه من وظائف هذه الإدارة :

أ ـ **قهرمان القصر السلطاني** : والظاهر أن المراد منه القائم بخصوصيات هذه الدار[90].

ب ـ **رئيس التموين** : وهو ـ حسب «**العبر**»[91] ـ القائم بأمر الطبخ، والمائدة، والضيوف.

---

(85) مخطوط **ذكر مشاهير أعيان فاس في القديم**، بيت بني عشرين ـ رقم 11.

(86) **مركز الأجانب في مراكش**، ص. 12 : الطبعة الأولى.

(87) موضوع هذه العلاقات الخارجية للدولة المرينية يتسع إلى علاقاتها مع دول المغرب والسودان، ودول المماليك بالشرق، وعدد من دول أوربا بإسبانيا وإيطاليا وفرنسا وهناك بحث يتناول «علاقات المغرب المريني بالمشرق»، وهو من موضوعات هذا الباب.

(88) أنظر عن هذا الركب في العصر المريني **ركب الحاج المغربي** من وضع المؤلف ص. 9ـ31.

(89) أنظر عن أسماء بعض هؤلاء التراجمة «ظاهرة تعريبية في المغرب السعدي»، مجلة «**اللسان العربي**، السنة الأولى، العدد الأول، ص. 52.

(90) أنظر **العبر**، ج 7، ص. 234.

(91) ج 7، ص. 357.

ج ـ **ناظر السوائم**: ومهمته الإشراف على سوائم السلطان الراعية بأبي طويل، ويكون لصاحبها النظر على من يجاور المراعي المحدودة للأنعام السلطانية[92].

د ـ **ناظر روض المصارة** : جاء في «**ذكر مشاهير أعيان فاس في القديم**»[93] عن محمد بن الحسين بن الخلوف : «انه كان عاملا على الروض المعروف بالمصارة : «البستان السلطاني» خارج فاس الجديد.

هـ ـ **الأطباء والشعراء** : وهم الذين يلازمون السلاطين المرينيين. وتجرى عليهم مرتباتهم[94].

---

(92) **نفاضة الجراب**، ج 2، لوحة 128ب و129أ.

(93) بيت بني الخلوف رقم 56.

(94) هناك عدد من الأطباء والشعراء كانوا ملازمين لخدمة بعض السلاطين المرينيين وتجري عليهم مرتباتهم، آنظر **العبر**، ج 7، ص. 395، وفي **روض القرطاس**، ص. 276 أورد لائحة بأسماء الشعراء وأهل الطب الملازمين لخدمة يوسف بن يعقوب، كما ذكر في **المسند الصحيح الحسن** أسماء ثلاثة من أطباء أبي الحسن : آخر الباب 36 ـ الفصل الثالث.

الفصل الثاني

النظام العسكري

الفصل الثاني
النظام العسكري

أولا : الجيش البري

يتألف هذا الجيش المريني من جند نظامي وحرس خاص، ويتكون الجند النظامي من الفرق التالية :

أ ـ **بنو مرين** الذين آنضاف لهم بنو عبد الواد أيام السلطان أبي الحسن لما توحد المغرب مع الجزائر(95).

ب ـ **قبائل** كثيرة من **العرب** المستقرين بالمغرب، فيهم بنو حسان، والعاصم، وبنو جابر، والخلط، ورياح، وسويد، والشبانات، وبنو عامر، وبنو سالم، وغيرهم، وهذه الفرقة مع التي قبلها : هما دعامتا الجيش المريني(96)، وجميعهم فرسان.

ج ـ **الغز**، ويقال لهم الأغزاز، وهم ينتمون إلى جماعات الأتراك المصريين الذين دخلوا شمال إفريقيا على عهد الموحدين، وقد استخدموا طائفة منهم في الجيش النظامي ابتداء من أيام يعقوب المنصور، ثم صاروا ـ بعد قيام الدولة المرينية ـ في عداد جندهم النظامي، وتكونت منهم فرقة خاصة، بلغ تعدادها ـ في أيام أبي الحسن ـ مقدار 1500 فارس(97).

د ـ **الأندلسيون** الذين يرمون بقوس الرجل(98)، وقد كان عددهم ـ في

---

(95) «وصف المغرب أيام السلطان أبي الحسن المريني»، وهو الموضوع الأخير من هذا الكتاب.

(96) **المصدر**.

(97) **المصدر**.

(98) آنظر **وصف قوس الرجل** عند ابن هذيل في **حلية الفرسان**...، نشر دار المعارف بالقاهرة: ص. 211–212.

نفس العهد ــ أزيد من ألفي فارس[99]، علاوة على فرقة الأندلسيين المشاة[100].

ويعود وجود هذا العنصر الأندلسي في الجيش المغربي إلى أيام المرابطين، حيث صار يؤلف قسما خاصا من الجيش[101].

* * *

وإلى جانب الجند النظامي يوجد حرس خاص قوامه العناصر التالية :

أ ــ **الوصفان** : وهم مماليك يسكنون حوالي القصر السلطاني، وينزلون ــ في السفر ــ إلى جوانب محلته. دائرين به في جملة نواحيه، ويقال لهم أهل الدوار[102]، ويعرفون ــ أيضا ــ بالخصيان، وقد كان يوسف بن يعقوب يخلطهم بأهله[103].

ب ــ **الأعلاج** : مماليك مسلمون مقدار 500 من الفرسان الرماة[104].

ج ــ **العدويون** : ومقرهم حوالي القصر السلطاني، أما مهمتهم فهي انفاذ الأوامر السلطانية إلى الجهات القريبة والبعيدة، وتأديب من صدرت منه مخالفة في حضرة الملك[105].

د ــ **الروم القشتاليون** : انتظموا في الجندية المغربية منذ أواخر العصر الموحدي أيام ادريس المامون[106]، وكان عددهم أيام أبي الحسن مقدار أربعة آلاف فارس أو أزيد على حد تعبير «**مسالك الأبصار**»، وقد كانت طائفة منهم تقوم بالحراسة الليلية في ظاهر القصر المريني بفاس الجديد[107]، كما كانوا يركبون ــ خاصة ــ خلف ظهر الملك في الحروب.

---

(99) «وصف المغرب أيام السلطان أبي الحسن»، وهو الموضوع الأخير من هذا الكتاب.

(100) سيرد ذكر هذه الفرقة بعد.

(101) أنظر **الحلل الموشية**، ص. 91، ط. مطبعة التقدم الإسلامية بتونس.

(102) «وصف المغرب أيام السلطان أبي الحسن المريني»، وهو الموضوع الأخير من هذا الكتاب.

(103) **العبر**، ج 7، ص. 233.

(104) «وصف المغرب أيام السلطان أبي الحسن المريني»، وهو الموضوع الأخير من هذا الكتاب.

(105) **فيض العباب**، ص. 85، مع «وصف المغرب أيام السلطان أبي الحسن المريني»، وهو الموضوع الأخير من هذا الكتاب.

(106) **الاستقصا**، ج 1، ص. 198–199، ط. مصر.

(107) «وصف المغرب أيام السلطان أبي الحسن المريني»، وهو الموضوع الأخير من هذا الكتاب.

ويبرر ابن خلدون وجود هذه الفرقة في الجيش المريني بأن قتال الفرق الأخرى للجيش كان بالكر والفر، والسلطان يتأكد في حقه ضرب المصاف، فلذلك احتاج الملوك المرينيون أن يتخذوا جيشا من هؤلاء المتعودين للقتال بالمصاف، حيث كانوا يستعملونهم في حروبهم مع غير المسيحيين، أما في الجهاد فلا يستعينون بهم البتة[108].

* * *

هذا هو تكوين الجيش المريني البري بما فيه من الجند النظامي والحرس الخاص، وأتابع ـ بعد هذا ـ تقديم ما عثرت عليه من معلومات أخرى عن هذا الجيش.

وأذكر ـ أولا ـ عدده، وفي هذا الصدد تورد «**مسالك الأبصار**»[109]، رواية عن السلالحي تقول :

«الذي نعرف قبل فتح تلمسان، ما كانت تزيد جريدة جيشه (أبي الحسن) المثبتين في الديوان على أربعين ألف فارس، غير حفظة المدن والسواحل، وكان يمكنه إذا استجاش لحرب أن يخرج في جموع كثيرة جدا لا تنحصر بعدد، ويكون ـ الآن ـ قد زاد على ما أعرفه مثله، لاستجداد تلمسان له».

وهذه الفقرة تفيد ـ أيضا ـ وجود ديوان مكتوب للجيش عند المرينيين، كما تشير لفرق الجيش المنبثة في المدن والسواحل، وتشير ـ أيضا ـ لفرق المتطوعين، وقد بلغ عدد الذين عبروا منهم للأندلس سنة 684 هـ/1285 م إلى 21.000، فيهم 13.000 من المصامدة، والباقي ـ وهو 8.000 ـ من قبائل مغربية أخرى[110].

وبعد هذا فلا تزال معلوماتنا قليلة جدا عن رتب هذا الجيش التي لا يعرف منها إلا درجتان : الأشياخ الكبار، ويقارنهم في «**مسالك الأبصار**» بمقدمي الألوف بمصر[111]، وهم الذين يكون الواحد منهم مقدما على ألف جندي، ويليهم الأشياخ الصغار[112]، وفيما يظهر فإن هؤلاء يكون الواحد منهم أمير مائة جندي.

(108) **المقدمة**، ص. 238ـ239.
(109) ورقة 106ب.
(110) **روض القرطاس**، ص. 254.
(111) «وصف المغرب أيام السلطان أبي الحسن المريني»، وهو الموضوع الأخير من هذا الكتاب.
(112) **نفسه**.

وقد كان للجيش زي خاص يعم سائر طبقاته والسلطان نفسه، وهو عمائم طوال رقاق قليلة العرض من كتان، فوقها أحرامات يلقونها على أكتافهم: من الجباب، ويتقلدون بالسيوف تقليدا بدويا، ويلبسون في أرجلهم الأخفاف : «الأتمقة»، ويشدون المهاميز فوقها، ويزيدون على هذا يوم الحرب أو العرض فيشدون المناطق : «المضمات» في أوساطهم، ويختص السلطان عن الجند بلبس البرنس الأبيض الرفيع، لا يلبسه ذو سيف سواه[113].

هذا وتمدنا «**مسالك الأبصار**» التي استفدنا منها كثيرا في هذا الموضوع، بمعلومات قيمة عن مرتبات الجيش في عهد أبي الحسن، فقد كان الأشياخ الكبار : لكل واحد منهم ـ سنويا ـ عشرون ألف مثقال من الذهب، يأخذها من قبائل وقرى وضياع وقلاع، ويتحصل له ـ في تلك الأراضي ـ نحو عشرين ألف وسق من القمح والشعير والحبوب الأخرى، يضاف لهذا انعامات سنوية فيها حصان بسرجة ولجامه، وسيف ورمح محليان، وبقجة قماش فيها ثياب فاخرة.

والذي للأشياخ الصغار في كل سنة، هو نصف ما للكبار، مع السرج الملنجم، والسيف والرمح والكسوة.

وأما بقية الجند فيتقاضون أجورهم نقودا مشاهرة بانتظام، ولا إقطاع لهم، وأعلى طبقاتهم المقربون إلى السلطان وهم أقلية، ويأخذ كل واحد منهم ستين مثقالا من الذهب في كل شهر، ويلي هذه الطبقة من يكون له في الشهر ثلاثون مثقالا، ثم ما دونها، إلى أن يتناهى إلى أقل الطبقات، وهي ستة مثاقيل في كل شهر[114].

وفي «**المسند الصحيح الحسن**»[115]» : أن فرقة الروم القشتاليين يتقاضى أفرادها من خمسين دينارا ذهبا إلى خمسة في كل شهر.

وحسب «**المسالك**»[116] أيضا، فقد كان أبو الحسن يستعرض الجيش في كل ثلاثة أشهر، ليعرف الحاضر والغائب، والقادر والعاجز، ويجلس على علو، ودونه يجلس الكتاب لمعاونته في شؤون الاستعراض.

---

(113) نفسه.

(114) نفسه، والبقجة الواردة في هذا النص يراد بها الصرة.

(115) الباب 23 ـ الفصل الثاني.

(116) «وصف المغرب أيام السلطان أبي الحسن المريني» : المصدر المتكرر الذكر.

وفوق هذا فقد كان نفس السلطان يشرف على تمرينات عسكرية في أخريات النهار، حيث يذهب إلى مكان فسيح خارج البلد. وتتطارد أمامه الخيل وتتطاعن الفرسان، وتتداعى الأقران، وتمثل الحرب لديه، وتقام صفوفها على سبيل التمرين حتى كأنها حرب بالحقيقة[117].

والغالب أن هذه التمرينات هي التي يقصدها مؤلف «**ذكر مشاهير أعيان فاس في القديم**»[118]، لما يذكر أن السلاطين المرينيين كانوا يجلسون ببرج الذهب خارج فاس لعرض الجيوش يومي الخميس والاثنين.

أما ترتيب الجيش في المعركة : فقد كان على طريق التعبئة المتعارفة، فيقسمون الجيش إلى ميمنة وميسرة وقلب وساقة[119]. وفيها أو في القلب يكون السلطان، وقتالهم كان بالكر والفر، شأن العرب والبربر من أهل المغرب[120].

ومن تقاليد هذا الجيش ـ في الحرب ـ أن يتقدم الشاعر الزناتي أمام صفوف قبيله ويتغنى، فيحرك بغنائه الجبال الرواسي، ويبعث على الاستماتة من لا يظن بها، ويسمى هذا الغناء : «تازصو كايت» بلغة زناتة، وهكذا الشأن في فرق العرب الذين يغنيهم شاعرهم باللسان العربي الدارج[121].

ومن تقاليد هذا الجيش ـ أيضا ـ أن يرافقه إلى ميدان المعركة هوادج فوق الجمال تحمل نساء الجيش : كل فرقة من الرجال تسير خلفها هوادجها، وقد برزت هذه الظاهرة في الجيش المريني ـ لأول مرة ـ في معركة «وادي تلاغ»، بين يعقوب بن عبد الحق ويغمراسن الأول، حيث اصطفت نساء الفريقين خلف الجيوش في الهوادج والمراكب والقباب، مزينات باديات الوجوه، عليهن الحلل وثياب الوشي، يحرضن الأبطال على الأبطال[122].

(117) نفسه.
(118) بيت بني الخلوف رقم 56.
(119) **روض القرطاس**، ص. 223.
(120) **المقدمة**، ص. 236.
(121) **المصدر الأخير**، ص. 225.
(122) **الذخيرة السنية**، ص. 131.

ومن مظاهر تنظيمات هذا الجيش أنه كان له قاض خاص يسمى قاضي العساكر حسب «**العبر**»[123]، أو قاضي المحلة حسب «**النيل**»[124]، ونتوفر لحد الآن على أسماء ستة من القضاة الذين تقلدوا هذا المنصب، واحد : أيام أبي يعقوب يوسف، وهو عبد الملك بن شعيب القشتالي[125]، واثنين في عهد أبي الحسن وهما : أبو سالم إبراهيم بن عبد الرحمن بن أبي بكر التسولي التازي المعروف بابن أبي يحيى. والمتوفى بعد سنة 748هـ/1347م[126]، ثم محمد بن عبد الله بن عبد النور الصنهاجي الندرومي، المتوفى سنة 749هـ/1348م[127].

والرابع : في عهد أبي عنان وهو محمد بن محمد بن أحمد المقري التلمساني، المتوفى سنة 758هـ/1356م[128]، والخامس في عهد أبي سالم وهو محمد بن يحيى البرجي الأندلسي، المتوفى سنة 786هـ/1384م[129]، والسادس أحمد بن العجل الوزروالي المتوفى سنة 856هـ/1452م[130].

وأخيرا فإن الجيش المريني كان على جانب من التربية الإسلامية، ومتشبعا بروح الطاعة، فقد كان أفراده لا يقدر أحد منهم على ارتضاع كأس ولا إهمال صلاة، وقوفا عند تعليمات أبي الحسن في هذا الصدد، حتى إن الجيش إذا كان في السفر وأذن المؤذن نزل السلطان ونزلوا حتى تقام الصلاة ويصلوا جماعة[131].

* * *

وبعد هذا نذيل بوصف لموكبين عسكريين في أيام أبي عنان، ومنهما نستفيد معلومات جديدة في هذا الموضوع، ومنها ترتيب فرق الجيش في هذه المناسبة،

---

(123) ج 7، ص. 392 و401 و403.

(124) ص. 76 و80.

(125) مخطوط **نثير الجمان** لابن الأحمر.

(126) **العبر**، ج 7، ص. 392، مع تكملة اسمه وذكر وفاته من **الإحاطة**، ج 1، ص. 217–218، ط. مطبعة الموسوعات بمصر 1319هـ.

(127) **العبر**، ج 7، ص. 394.

(128) **نفسه**، ج 7، ص. 401.

(129) **نفسه**، ج 7، ص. 403.

(130) **نيل الابتهاج**، ص. 80، ط. مصر.

(131) «وصف المغرب أيام السلطان أبي الحسن المريني» : المصدر المتكرر الذكر.

وسلاحها ولباسها وشاراتها حينئذ، مع وصف هيئة الهوادج، ونذكر أولا موكب الجيش في خروجه للحرب بمناسبة رحلة أبي عنان إلى قسنطينة والزاب :

1 ـ في ضحى يوم الخميس 20 جمادى الأولى سنة 758هـ/1356م، برز لخارج فاس الجديد : الجيش الذاهب للجهة الآنفة الذكر تحت قيادة أبي عنان، وحسب وصف شاهد عيان[132]، فقد كان في مقدمة الموكب **قواد الجيش** من بني مرين والعرب والأندلسيين والأعلاج والأغزاز والوصفان : كل قائد له علمه ونظامه الخاص به.

وتميز قواد الأغزاز بالطبول والمزامير نظير عادة الملوك المصريين، وجعلوا بأعلى أعلامهم شعارهم الذي هو خصلة من الشعر.

وكان سلاح جموع هؤلاء القواد ـ باستثناء الأندلسيين ـ هو القسي العربية المجلوبة من البلاد المشرقية، والمحكم عملها في البلاد المغربية، أما جموع قواد الأندلس فكانوا يستعملون القسي الفرنجية[133].

وقد لبس سائر هؤلاء الأصناف أنواع الأقبية المرقومة بالذهب الإبريز، وفوقها المصفحات : من الحلل والأنزاق[134]، والأثواب البديعة المجلوبة من الشام والعراق، منسوقة بها المسامير المذهبة، وأيضا الدروع الحديدية الجيدة، وعلى رؤوسهم خود مذهبة ومفضضة ذوات أطواق زاهية.

واختصت خيول الأندلسيين بحسن الترتيب، والبراقع البديعة الجمال، والجلاجل المذهبة التي يملأ الجو أصوات أجراسها.

وجاء بعد هذه الجموع : **المشاة الأندلسيون** عليهم الأقبية المختلفة الألوان،

---

(132) مؤلف **فيض العباب** الذي أقتبس منه هذا الوصف، ص. 83-86.

(133) كما تسمى بالقوس الأفرنجية يقال لها القوس الرومية، وقد ورد ذكرها ـ أيضا ـ في **نفاضة الجراب**، ج 2، لوحة 27 أ. كسلاح مستعمل بالمغرب، وهي غير القوس العقارة واللولبية كما يؤخذ من هذا المصدر ـ ويوجد تفسيرها مع باقي أنواع الأقواس في **ملحق المعاجم العربية**، لدوزي، ج 2، ص. 418؛ وأنظر ـ أيضا ـ المصدر المُشار له بالتعليق رقم 98.

(134) المصفحات : جمع مصفح وهو المغشى بالصفائح، والحُلل جمع حُلة بضم الحاء، أما الأنزاق فمفرده نزق ويقال فيه النيزق والنيزك.

وفوق رؤوسهم الرتافيل[135]، قد اعتقلوا بالعصى الطوال، وثنوا بالأمداس[136]، وتقلدوا بالنبابيل[137]، وما منهم إلا من حملت عصاه راية تداعب هبات النسيم.

وإثر هؤلاء جاء **الوصفان المترجلة**، قد لبسوا الأقبية الرائقة، واحتملوا السيوف الفائقة، ثم **العدويون** اللابسون لأحسن الأثواب، والمرتقبون لإمضاء الأوامر المتوكلية، بأيديهم قضبان صلبة معدة لتأديب من صدرت منه مخالفة.

وتقدم بين يدي موكب أبي عنان قبتان مغشيتان من الحرير مذهبتان، الأولى : فيها **مصحف الخليفة الثالث عثمان بن عفان** رضوان الله تعالى عنه، والثانية فيها : **صحيح البخاري وصحيح مسلم**[138]، ثم لاح السلطان في الساقة، وحوله الخواص وأشياخ بني مرين لابسين البياض.

وترتب وراء هؤلاء قواد الروم وهم صهب السبال زرق العيون، يمتطون خيولا مسومة، ويتسلحون بالرماح الثقال.

وخلفهم اصطفت الألوية **المنصورة** والأعلام، وقد اختلفت ألوانها، وعلت عصيها عوامل مذهبة.

وعلى إثرها برزت جموع الطبالين يتقدمهم مزوارهم، وهم يقرعون الطبول على طرائق تتهاداها الأسماع، ثم أخذت الكتائب تمر إثر الكتائب، وأفواج من الخلائق بعد أفواج.

* * *

2 ـ وفي صبيحة يوم رحيل المحلة لوجهتها، ما راق العيون مثل هوادج نساء الجيش التي برزت ساميات فوق الجمال، عليها أغشية من الحلل المنسوجة بالذهب والأنزاق، إلى غيرها من الأثواب العراقية والأندلسية والرومية على اختلاف ألوانها، يزينها التسهيم والتضليع، ولهذه الهوادج ذوائب مرسلة تداعبها الرياح.

---

(135) الرتافيل اسم إسباني يراد به نوع من القلانس المقببة.

(136) مدس الجلادلكه.

(137) كأنه يقصد بها السهام.

(138) عبارة **المسند الصحيح الحسن** في وصف موكب أبي الحسن : **والمصحف الكريم** العثماني وما معه من المسانيد : الباب 52 ـ الفصل الثاني.

وبدا بباب كل حدج جارية رائعة الجمال، متزينة بالحلي والحلل، وكل واحدة منهن تتغنى بذكر أيام الحروب والملاحم، وتثير الحماس في النفوس، يقوم بمجاوبتها أسراب من الجواري قد أحدقن بها، لابسات أفخر الملابس، مكتنفات بالأبطال المسلحين، وهن من زوجات الأعلاج والوصفان والمماليك.

وما من جمل يحمل هودجا إلا وقد حلى بخلاخل الذهب والفضة، وألبس أحسن اللباس، وجعل في عنقه قلائد دوابات شذور.

وقد تقدم الهوادج جمل عليه العياب[139] المحلاة بأبدع السفط والفرش، وعليه جارية متزينة بأفخر الثياب، متنقبة أحسن الانتقاب، وهي رئيسة الجواري.

وخلف كل هودج امتد قطار الجمال البديعة الأزمة المحلاة، عليهن اللحف المنسوجة بالذهب والحرير، والزرابي والذخائر التي عزلها النظير.

وكانت أبدع الهوادج هي التي لأبي عنان، ثم التي لولي عهده أبي زيان، ثم هوادج الوزراء وخواص الخدم، ثم هودج قهرمانة الدار، ولكل واحد من هذه قطار يتلوه، وأما هوادج العرب فلا تحصى كثرة[140].

ثانيا ـ الأسـطـول

يتألف الأسطول المريني من مجموع القطع الموزعة على موانىء المملكة، بما في ذلك سبتة وسلا وطنجة وآنفا وباديس[141]، وسواها من موانئ المغرب الكبير والأندلس.

وكان لكل ميناء قائد يشرف على شؤون أسطولها، وفوق مجموع القواد قائد أعلى يسمى «الملند»[142].

وأول من اهتم من المرينيين بالأسطول يعقوب بن عبد الحق الذي يعـزى إليه بناء «دار الصناعة» بسلا، على يد المهندس الأندلسي محمد بن علي بن عبد الله بن محمد بن الحاج الأشبيلي الأصل، والمتوفى بفاس الجديد سنة 714هـ/ 1314م، وقد

(139) العياب : جمع عيبة، ما يجعل فيه الثياب كالصندوق.
(140) وصف موكب الهوادج مقتبس من **فيض العباب**، ص. 92ـ94.
(141) **روض القرطاس**، ص. 239، 240، 260.
(142) **المقدمة**، ص. 219.

بنيت قبلي مدينة سلا من جهة وادي أبي رقراق، وجعل لها بابين كان الوادي يدخل من أحدهما ويخرج من الآخر بصناعة هندسية، حيث جلب الماء من الوادي إلى الباب المسامت لجامع حسان في ترعة عميقة، فإذا صنعت سفينة جديدة بهذه الدار وأريد إرسالها في الوادي، فتحت الترعة فيدخل الماء وتعوم فيه السفينة، فتخرج من الباب القبلي سابحة على وجه الماء إلى أن تقع في الوادي، ولذلك ارتفع قوس الباب القبلي جدا، ليخرج المركب منشور القلاع[143].

وهذا الباب القبلي لا يزال قائم العين، ويعرف، اليوم ـ بباب الملاح ـ لما صار المكان المجاور لدار الصنعة حارة لسكنى اليهود قديما.

ثم بعد أبي يوسف أنشأ ابنه أبو سعيد الأول زيادات في دار الصنعة، وبنى بها الأجفان الغزوية[144]، ولما جاء أبو الحسن استكثر من إنشاء الأساطيل[145]، حتى كانت عند مرامه الجهاد مثل عدة المسيحيين وعددهم[146]، وفي النفح[147] أن أساطيل هذه السلطان في جوازه لتونس بلغ عددها نحو 600 قطعة.

وأبو الحسن هذا هو باني دار الصنعة بجبل الفتح[148].

ومن المحقق أن أبا عنان عمل على تجديد الأسطول المريني بعد نكبة القيروان التي حطمت أسطول أبي الحسن في أخريات أيامه، وفي «**تحفة النظار**»[149] في سياق تعداد أعمال أبي عنان :

«ومما شاع من أفعال مولانا ـ أيده الله ـ في الجهاد، انشاؤه الأجفان بجميع السواحل، واستكثاره من عدد البحر .. وأكد ذلك بتوجهه بنفسه إلى جبال جاناته[150] في العام الفارط، ليباشر قطع الخشب للإنشاء...».

---

(143) **الإتحاف الوجيز**، نسخة الخزانة العامة بالرباط رقم د 42 ر 1320: تأليف محمد بن علي الدكالي.

(144) **روض القرطاس**، ص. 292.

(145) **نفح الطيب**، ج 2، ص. 539.

(146) **المقدمة**، ص. 223.

(147) نقله في **الاستقصا** ط. مصر، ج 2، ص 84.

(148) **تحفة النظار**، ج 2، ص. 186، ط. مصر 1958م، 1377هـ، وهي الطبعة المعتمدة في هذه الدراسات.

(149) ج 2، ص. 185، والكلام لابن جزي مرتب الرحلة.

(150) غرب مدينة مكناس.

وفي هذا الصدد ــ أيضا ــ يقول ابن أبي حجلة : الشهاب أحمد بن يحيى التلمساني الحنبلي نزيل دمشق ثم القاهرة : في قطعة يخاطب بها أبا عنان :

فلله ما أنشأته من مراكب ترادفها في البحر منه تكاوس
قطائعها مثل النجوم قلوعها وغربانها قطع من الليل دامس
كأن مجاديف الغراب قوادم يطير بها والنسر في الأفق كانس

وهذا الشعر قاله ابن أبي حجلة بمناسبة غراب لأبي عنان قدم في الرسالة إلى الإسكندرية[151]، مما يدل على صدى الأسطول العناني في الشرق، ومن أصدائه في الغرب الأندلسي فقرات من رسالة[152] صادرة عن ابن الأحمر لأبي عنان :

«وقد كان ذاع الخبر، الذي تروق فوق أعطاف الإسلام منه الحبر، بما صرف الله إليه عزمكم من تجديد ما درس، وإحياء ما القح سلفكم واغترس، من الأساطيل السابحة، والتجارة الرابحة، والأعمال الباقية الصالحة، وأن الإنشاء قد استدعي إليه الخلق، والعزم تبلج منه الصباح الطلق، وشيم منه البرق، وذهب الفرق، فلا تسئلوا عن موقع هذه الأنباء من صديق يعدها من الله فضلا ومنا، وعدو يسيء بها ظنا، فلكل منا شرب معلوم، وحظ مقسوم».

هذا وينبغي أن نتنبه إلى أن هذه السفن التي تنشأ لم تكن تضع بسلا خاصة، وإنما كانت تبنى ــ أيضا ــ بسبتة بدار صناعتها، التي تسمى ــ أيضا بدار الإنشاء[153].

وبعد هذا فإن الأسطول المريني رغم ما مني به من نكبات، فقد حقق انتصارات في عدة مواقع ضد الأسطول المسيحي، ومنها موقعتان ببحر الزقاق، الأولى سنة 678هـ/1279م[154]، والثانية سنة 740هـ/1339م[155] قبيل موقعة طريف، كما أن هذا الأسطول شارك في تحرير جبل طارق سنة 733هـ/ 1333م[156]. وفي

(151) **منطق الطير**، نسخة المكتبة الملكية بالرباط رقم 1910.
(152) **ريحانة الكتاب**، ج 2، ورقة 54ـ55، نسخة الخزانة العامة بالرباط رقم د 988.
(153) آنظر **العبر**، ج 7، ص. 261، سطر 15.
(154) **روض القرطاس**، ص. 241.
(155) آنظر **العبر**، ج 7، ص. 261.
(156) **نفسه**، ج 7، ص. 255.

ارتجاع الجزيرة الخضراء سنة 770هـ/1368م[157]، وقد بلغ الأسطول المريني القمة أيام أبي الحسن، ثم أخذ في التراجع لضعف الدولة ونسيان عوائد البحر، حتى صارت الأساطيل إنما تستعمل فيما تدعو إليه الحاجة من الأغراض السلطانية[158].

وحسبما وقفت عليه فهذه أسماء بعض القطع التي يتكون منها الأسطول المريني :

أ ــ **القرقورة** وهي سفينة عظيمة تحمل الزاد والكراع للأسطول، وأصل اسمها بالإسبانية كاراكا، ومنها ما هو بثلاثة ظهور «طبقات»، ولها ثلاثة قلاع تسير بها في الريح العاصف[159]، وقد جاء ذكرها في رسالة من ابن الأحمر إلى أبي الحسن[160].

ب ــ **الشيني** : مركب طويل يجذف بمائة مجذاف، وتقوم فيه أبراج وقلاع للدفاع والهجوم، وكان يستعمل لحمل المقاتلة للجهاد، ويبلغ متوسط ما يحمله 150 رجلا، ويجمع على شواني، وفيه يقول ابن جبير : «لم تكن السفن ذات الدفتين موجودة في غير البحر الأبيض[161]، وفي موشحة لابن الخطيب يذكر وجود الشواني في شاطئ الرباط:

أهلــــة الشوانـــــي فــي افقــه تسيـــر[162]

ج ــ **الغراب** : وهو سفينة سوداء مقدمتها على شكل رأس الغراب، وجناحاها بيضاوان، وهي تسير بالقلع والمجاذيف، منها ما له 180 مجذافا وأقل من ذلك، وتستخدم لحمل الغزاة[163]، وولع ابن أبي حجلة بذكر الغربان المرينية في شعره. فقد قال ــ أيضا ــ في غراب أبي عنان الآنف الذكر :

اتتنــا من جواريــه فتـــاة ومسبــل قلعهـا مثـــل الأزار
غراب طائـــر بجنـــاح قلـــع فمـا أخطـا بانعمـه مطـــارى[164]

(157) **العبر**، ج 7، ص. 327.
(158) **المقدمة**، ص. 223.
(159) **تاريخ الأسطول العربي**، ص. 31 و57.
(160) نص الكتاب وارد في **الاستقصا**، ج 2، ص. 81ـ83 : ط. مصر.
(161) **تاريخ الأسطول العربي**، ص. 32 و56.
(162) **نفاضة الجراب**، ج 2، لوحة 61.
(163) **تاريخ الأسطول العربي**، ص. 39 و57، وفي **روض القرطاس**، ص. 274 ورد ذكر غراب الرجراجي.
(164) **منطق الطير**.

وقال أثناء قصيدة يمدح بها عبد العزيز الأول، ويندبه للجهاد بالأندلس :

وغربانـــه في البحـــر فيها جوارح كأنهم العقبـــان حين تصيـــد[165]

د ـ **الطريدة** : مركب صغير سريع يشبه البرميل الهائل، وهي مفتوحة المواخر بأبواب تفتح وتغلق، وتستعمل غالبا في حمل الخيول للحرب، وأكثر ما يحمل فيها أربعون فرسا[166]، وقد ورد ذكرها ـ أيضا ـ في قصيدة ابن أبي حجلة الآنفة الذكر :

أبـا فارس عمـــر طرائـــدك التـــي يبيت بها الشيطـان وهـــو طريـــد

وقال من قصيدة أخرى في عبد العزيز الأول أيضا :

أبـو فارس أمست طرائـــد سفنـــه لأعدائه في حربها العـكس والطـرد
وغربانـــــــه لو صور الموت بينها لأمسى وفي جوف النسور له لحد[167]

هـ ـ **القارب** : سفينة صغيرة تستعمل لربط الصلة بين الشاطىء والسفن الكبيرة، وقد ورد ذكره في «**فيض العباب**»[168] الذي ذكر بعض القطع السالفة الذكر.

و ـ **الشيطي** : مركب يجذف بثمانين مجذافا، وهو سفينة استطلاعية تكشف الموانىء، وتأتي بالخبر لرؤساء القراقير والغربان وغيرها[169]، وجاء ذكـره في «**تحفـة النظار**»[170] باسم شطى لأهل أصيلا ركبه ابن بطوطـة في رحلتـه من المغـرب للأندلس.

وهذه أسماء ستة من رؤساء الأسطول المريني :

الأول : يحيـى الرنداجـي قائد أسطـول سبتة إلـى نحو سنـة 720هـ/

(165) نفسه.
(166) تاريخ الأسطول العربي، ص. 33ـ34 و57.
(167) منطق الطير.
(168) ص. 133.
(169) تاريخ الأسطول العربي، ص. 57.
(170) ج 2، ص. 186.

1320م[171]، وقد كانت هذه الخطة في آبائه منذ عهد المرتضي الموحدي، وكان جده جحفون الرنداحي على قيادة الأساطيل بالمغرب[172].

الثاني : محمد بن علي بن الفقيه أبي القاسم العزفي، وهو الذي خلف يحيى الرنداحي في قيادة الأساطيل بسبتة[173]، ثم صار هذا العزفي ـ في عهد أبي الحسن ـ قائدا أعلى للأسطول المريني إلى أن قتل بعد واقعة القيروان[174].

الثالث : محمد بن يوسف بن الأحمر، وقد عينه أبو عنان قائدا أعلى للأسطول[175] :

الرابع : أحمد بن الخطيب قائد أسطول طنجة أيام أبي عنان[176].

الخامس : أبو القاسم بن أبي بكر بن بنج قائد أسطول جبل الفتح أيام أبي عنان[177]، ويؤخذ من «**نفاضة الجراب**»[178] أنه صار بعد هذا قائدا أعلى، فقد سماه ابن الخطيب قائد الأسطول، وخططه بالملند آخر تهنئته بطلوع ولد له حيث يقول :

والبحـــر يفخـــر منـــه يوم ولاده   بلمنـــده بن ملنـــده بن ملنـــده

وأخيرا نقدم وصف مناورة بحرية لهذا الأسطول أشرف عليها أبو عنان عند شاطىء بجاية، وننقله عن شاهد عيان[179] :

امتثالا لتعليمات أبي عنان، اصطفت ـ في الموضع الآنف الذكر ـ أساطيل البلاد البحرية المتوكلية، يتقدمهم القائد الأعلى ابن الأحمر في طريدته، ثم أسطول طنجة يتقدمه قائده ابن الخطيب في غرابه، وبعد هذا ترتبت بقية الأساطيل وقوادها

(171) **العبر**، ج 7، ص. 247.
(172) **نفسه**، ج 7، ص. 186.
(173) **نفسه**، ج 7، ص. 247.
(174) **نفسه**، ج 7، ص. 119، مع **بغية الرواد**، ج 1، ص. 157 : الطبعة الأولى.
(175) **فيض العباب**، ص. 19.
(176) **نفسه**، ص. 127 ؛ **العبر**، ج 7، ص. 295.
(177) **فيض العباب**، ص. 127.
(178) لوحة 70 ـ أ.
(179) مقتبس عن مؤلف **فيض العباب**، ص. 127–130.

حسبما اقتضته المدن التي تولوا أمر بحرها، وقد لزم قائد كل أسطول مكانه من مصطف الأجفان التي كان يكسوها طلاء السواد الحالك، وتظهر صواريها شبه المدن، بينما شحن داخلها بالأبطال : بين رام وسائف ورامح، وقد لبسوا الحديد، ورفعوا عقائرهم بالتحميد والتمجيد، فما شوهد أبدع من تلك الأجفان وقد صدحت موسيقاها : فقرعت الطبول، وعلت أصوات البوقات والأنفار، كادوت طلقات الأنقاظ، بكل متاجج الشواظ، والرايات خفقت حول أعالي الرماح، وقد تنوعت ألوانها كأنها قوس قزح، سوى طريدة القائد الأعلى فقد كانت رايتها بيضاء.

ثالثا : آلات الحصار والدفاع

كان الجيش المريني يتوفر على آلات يستعملها في حروبه بالبر والبحر، وهذا ما وقفت عليه من أسمائها :

أ ــ **المدافع الحجارة** : وهي المجانيق التي ترمي بالحجارة على المحصورين[180].

ب ــ **قوس الزيار** : في «**العبر**»[181] لدى حديثه عن حصار يوسف لتلمسان : «ونصب عليها القوس البعيدة النزع، العظيمة الهيكل، المسماة بـ(قوس الزيار)، ازدلف إليه الصناع والمهندسون بعملها، وكانت توقر على أحد عشر بغلا».

والظاهر أنه يقصد به المنجنيق الذي ترمي به السهام، ويوجد وصف مثل هذا النوع في «**تاريخ التمدن الإسلامي**»[182].

ج ــ **العرادات** : هكذا وردت في «**العبر**»[183]، وسماها في «**الذخيرة**»[184] و«**الأنيس**»[185] بالرعادات، وجاء في «**تاريخ التمدن الإسلامي**»[186] : «والحراقة

---

(180) **الذخيرة السنية**، ص. 158 ــ **روض القرطاس**، ص. 225 و277 ــ **العبر**، ج 7، ص. 94 و110 و188 و257.

(181) ج 7، ص. 220.

(182) ج 1، ص. 175.

(183) ج 7، ص. 188.

(184) ص. 158.

(185) ص. 225.

(186) ج 1، ص. 200.

كانوا يحملون فيها منجنيقات يرمي بها النفط المشتعل على الأعداء، ويسمون المنجنيق عرادة».

فيؤخذ منه أنها تسمى عرادة لا رعادة، وإنها نوع من المنجنيق يستعمل لرمي النفط المشتعل، وفي تعبير البعض[187] إنها أصغر من المنجنيق.

د ـ **الأنفاط** : ويراد بها الآلات النارية التي ترمى بها الحصون والأسوار كالمدافع، وقد استخدمت في عدة مواقع.

الأولى : في حصار يعقوب بن عبد الحق لسجلماسة سنة 672هـ/1273م، قال في «**العبر**»[188] لدى حديثه عن هذا الحصار: «ونصب عليها (سجلماسة) آلات الحصار من المجانيق والعرادات وهندام النفط القاذف بحصى الحديد : ينبعث من خزنة أمام النار الموقدة في البارود بطبيعة غريبة ترد الأفعال إلى قدرة باريها».

ونقله في «**الاستقصا**»[189] وعلق عليه بقوله : وفيه فائدة أن البارود كان موجودا في ذلك التاريخ، وأن الناس كانوا يقاتلون به ويستعملونه في محاصراتهم وحروبهم يومئذ.

الثانية : في الدفاع عن الجزيرة الخضراء سنة 743هـ/1342م، ورد في «**حضارة العرب**»[190]، «وتثبت مخطوطات ذلك الزمن أن الأسلحة النارية شاعت بين العرب بسرعة، فاستخدموها على الخصوص للدفاع عن مدينة الجزيرة التي هاجمها الأدفونش الحادي عشر سنة 1342م، وجاء في تاريخ الأدفونش الحادي عشر: أن مغاربة المدينة كانوا يقذفون بكثير من الصواعق على الجيش، فيرمون عليه عدة قنابل كبيرة من الحديد كالتفاح الكبير، وذلك إلى مسافة بعيدة من المدينة، فيمر بعضها من فوق الجيش ويسقط بعضها عليه».

الثالثة : في حرب أبي عنان مع بني زيان ملوك تلمسان، يستفاد هذا من بيتين وردا أثناء قصيدة لابن الخطيب[191] خاطب بها أبا عنان عقب الانصراف من

(187) **تاريخ الأسطول العربي**، ص. 66.
(188) ج 7، ص. 188.
(189) ج 2، ص. 18، ط. مصر.
(190) ص. 579.
(191) في ديوانه : «نسخة مخطوطة».

بابه في غرض السفارة عن سلطانه يوسف بن الأحمر، ونص البيتين في صدد استصراخه على الأندلس :

والـــروم فارم بكـــل رجـــم ثاقب   يذكـــي بأربعهـــا شواظ لهيب
بذوابـل الشهب التـي تركت بنـــي   زيــــان بين مجدل وسلـــــيب

الرابعة : في حصار أبي عنان لبجاية، ذكر هذا في «**فيض العباب**»[192] في صدد الحديث عن مناورة قام بها الأسطول العناني خارج بجاية، وهذه عبارته : «...وأتت (الأساطيل) من أنفاظها بكل متاجج الشواظ، يحول دويه بين الألسنة والألفاظ، مرسل في الجو ذؤابة كعقيقة البرق، منذرة للسامعين بالصدق، ومالئة بألهوبها ما بين الغرب والشرق».

الخامسة : في مدافعة جيش عبد الحليم بن أبي علي المريني، لما حاصر السلطان تاشفين بن أبي الحسن بفاس الجديد، فقد تحدث في «**نفاضة الجراب**»[193] عن الاستعدادات التي قام بها الوزير المستبد عمر بن عبد الله ضد هذا الحصار، وكان من هذا أن حشر العملة والصناع بما فيهم قادحو شعل الأنقاظ ونافضو ذوائب المجانيق.

هذا ويظهر أن أسطول سبتة كان مجهزا بالنفط، فقد وصفها في «**معيار الاختبار**» بأنها ذات «الأسطول المرهوب المحذور الألهوب»، ومما يؤكد هذا ورود كلمة الألهوب في هذا النص، بعدما رأينا «**فيض العباب**» ـ آنفا ـ يصف دخان النفط بالألهوب.

هـ ـ آلات تسوية الطريق، ورد ذكرها في رسالة سلطانية مرينية أثناء وصف معركة، وهذه عبارتها[194] :

«... وقصدوا إلى ما خندقه العدو حفيرا، وقد استصحبوا الفعلة بالآلات المعدة لتسوية الطريق، وإزالة ما اعترض فيها من البناء».

وهذا قد يفيد أن هذه الآلات هي الدبابات.

---

(192) ص. 130.

(193) ج 2، لوحة 127 ـ أ.

(194) الفقرة المشار لها واردة في «نفاضة الجراب»، ج 2، لوحة 133ـ ب.

الفصل الثالث

النظام الاقتصادي

الفصل الثالث
النظام الاقتصادي

أولا : الميزانية

أ ـ الموارد العامة :

كانت مداخيل الخزينة المرينية تتألف من الموارد التالية : الزكاة ـ الخراج ـ المكوس ـ. الجزية ـ الأعشار ـ خمس الغنائم ـ خمس المعادن ـ ضرائب أخرى، وهذه ـ تقريبا ـ هي نفس الموارد التي تتكون منها ميزانيات أكثر الدول الإسلامية المعاصرة آنذاك.

وحتى عهد أبي سعيد الأول كانت الزكاة والخراج والمكوس يضمنها عمال الجهات : فيشترون هذه المجابي من متوليها بمال معين ليستخرجوها لأنفسهم، ويمدنا العمري في «**مسالك الأبصار**»[195] بمبلغ دخل هذا الضمان أيام أبي سعيد الأول في لائحة فريدة ومهمة، وهو يقدمها هكذا :

«فاس	:	مائة وخمسون ألف مثقال[196]
مراكش	:	مائة وخمسون ألف مثقال.
سبتة	:	خمسون ألف مثقال
أسفي	:	أربعون ألف مثقال.
أغمات	:	خمسة وعشرون ألف مثقال.

(195) نسخة خاصة تشتمل على قسم الممالك من الكتاب، وتقع أول مجموع : ورقة 106ب ؛ راجع عن وصف هذه النسخة الباب الأخير من هذا الكتاب.
وقد قابلت اللائحة المعنية بالأمر على الترجمة الفرنسية التي تممت منها بعض النقص الواقع في النص العربي؛ أنظر ابن فضل الله، ترجمة Gaudefroy-Demonbynes، ص. 171.

(196) المثقال يقصد به الدينار المريني الذهبي.

أنفا	: أربعون ألف مثقال.
أزمور	: عشرون ألف مثقال.
سلا	: أربعون ألف مثقال.
العرائش	: عشرة آلاف مثقال
قصر ابن عبد الكريم	: عشرون ألف مثقال.
طنجة	: ثلاثون ألف مثقال.
باديس	: عشرة آلاف مثقال.
مكناسة	: ستون ألف مثقال.
صفروي	: ستة آلاف مثقال.
سجلماسة ودرعة	: مائة وخمسون ألف مثقال.
تازى	: ثلاثون ألف مثقال.
غساسة ومليلية والمزمة	: ثلاثون ألف مثقال.
تيط	: خمسة آلاف مثقال.
تيجساس	: خمسة آلاف مثقال».

وهذه المبالغ لا يدخل فيها ـ حسب «**المسالك**»[197] ـ ما كان يؤخذ عن أعداد المواشي من الابل والبقر والغنم، ولا غلات المجاشر والحصون والقلاع. كما لا يندرج فيها الجزية والأعشار اللذين نجهل مبالغها بالمرة، وإنما يعرف أن هذه الجزية كانت فردية بمبلغ دينارين وثمن دينار لكل شخص.

ولم تكن هذه الجبايات تدفع كلها نقودا، فخراج سبتة ـ مثلا ـ كان أبو القاسم العزفي يقدمه ليعقوب في هدية من الأخبية والسلاح والثياب[198].

وقد تعرض نظام الجباية لتعديلات وإصلاحات من طرف عدد من المرينيين، فإن يوسف أسقط المكوس، وأزال أكثر الرتب : «الألقاب» التي كانت تؤخذ من المسافرين في الطرقات، إلا ما كان منها بالمفازات العافية، ورفع ـ أيضا ـ الإنزال عن ديار الرعية، كما أسقط عن الناس المطالبة بزكاة الفطر ووكلهم فيها إلى أمانتهم[199].

(197) ورقة 106ب.

(198) **الذخيرة السنية**، ص. 157.

(199) **روض القرطاس**، ص. 275 ـ **العبر**، ج 7، ص. 211.

وأبو سعيد الأول رفع عن أهل فاس ما كان يلزم رباعهم ـ كل سنة ـ من المغارم، ثم تتابع رفعها عن سائر بلاد المغرب[200].

ويمتاز عهد أبي الحسن بإصلاحات جبائية هامة، وحسب «مسالك الأبصار»[201]، فإنه لم يدع إلا الخراج والزكاة والعشر وما يقرره التشريع الإسلامي، كما ألغى نظام ضمان العمال لمجابي عمالاتهم[202]، وعين لاستخلاص هذه الجبايات موظفين يعرف منهم أبو العباس أحمد بن الحسن بن سعيد المديوني التلمساني النشأة، الذي استعمله .هذا السلطان في الزكوات وسماع الشكايات[203].

وقد كانت الضرائب التي ألغاها متعددة ومتنوعة، وفي «**المسند الصحيح الحسن**»[204] استعرض ألقابها في فصل عقده لهذه الغاية.

وبخصوص أهل الذمة حدد أبو الحسن الضرائب التي يطالبون بها في ظهير[205] أصدره بتاريخ 16 محرم عام 739 «1339» وقد جاء فيه :

«كما لا سبيل لهم «اليهود» إلى أن يكلفوا مغرما ولا ملزما، ولا يطالبوا بشيء من الوظائف والتكاليف، ما عدا الجزية والأعشار اللازمة شرعا لأهل الذمة، ومن تجر منهم بسوق من أسواق المسلمين، أو تحرف بحرفة من الحرف، فيلزمه ما يلزم المسلمين في ذلك من غير حيف. ولا طلب بزائد.

وليعلم أن الأقطار التي تجب فيها الأعشار[206] عليهم من بلادنا هي خمسة :

---

(200) **روض القرطاس**، ص. 291 ـ **المسند الصحيح الحسن**، الباب الأول.

(201) ورقة 106 ـ أ.

(202) **المسند الصحيح الحسن** ـ الباب 23 ـ الفصل الثاني.

(203) **درة الحجال**، الترجمة رقم 80 : الطبعة الأولى.

(204) الباب 23 ـ الفصل الثاني.

(205) ورد نص الظهير في **الدوحة المشتبكة في ضوابط دار السكة** لابي الحسن علي بن يوسف الحكيم الكمّي المديوني، «نسخة خاصة»، وفي النص المطبوع من الدوحة يوجد هذا الظهير ص. 179ـ180 : «صحيفة معهد الدراسات الإسلامية» في مدريد ـ المجلد السادس، العدد 1ـ2، وقد سقطت منه كلمة مهمة توجد في النسخة الأخرى وهي المعلم تحتها بخط قصير.

(206) يتضح معنى هذا إذا علمنا أن التشريع الإسلامي يقرر أن من اتجر من أهل الذمة من أفق إلى أفق يؤخذ منهم عشر ثمن ما يبيعونه.

حضرة فاس وما والاها من البلاد من سلا إلى تازا : قطر واحد.

وسبتة وما والاها من البلاد إلى الريف والهبط إلى قصر كتامة : قطر ثان.

ومراكش وما والاها من البلاد إلى السوس : قطر ثالث.

ودرعة وسجلماسة وما والاهما من البلاد : قطر رابع.

وتلمسان وما والاها وما وراءها من البلاد إلى الجزائر : قطر خامس.

فمن أدى العشر في قطر منها فلا يؤديه في الآخر».

ومن الضرائب التي ألغاها أبو عنان، أنه أمر برفع التضييف الذي كان عمال الزكاة وولاة البلاد يأخذونه من الرعية[207]، كما ألغى ضريبة الرتب[208]، وفي «**تحفة الناظر**» للعقباني : يسجل أنه وقع من الجانب السلطاني «المريني» رفع المظالم.

والظاهر أن هذه الضرائب الملغاة كانت تعود للظهور كلا أو بعضا بعد فترة من إلغائها، فقد رأينا أبا عنان يعطل ضريبة الرتب بعد ما كان يوسف أسقط أكثرها، ثم عادت نفس الضريبة للظهور أيام عبد العزيز الأول، حيث كانت موضوع حوار مكتوب بين هذا السلطان وخطيب جامع القرويين محمد بن ابراهيم النفزي الرندي الشهير بابن عباد[209].

هذا ولا يفوتنا أن نشير إلى أنه كانت تقع استثناءات جبائية لفائدة بعض المناطق أو الأفراد، فقد ذكر ابن الخطيب[210] عن شالة : أن مغارمها كانت ـ لاحترام الملوك لها ـ أرفق، وكانت ترفع الضرائب ـ رأسا ـ عن هذه المدينة بمناسبة بعض مواسمها[211]، وإن ابن الخطيب نفسه أصدر له السلطان المريني أبو زيان بن أبي عبد الرحمان بن أبي الحسن ظهيرا يعفيه وخدامه وشركاءه من سائر المغارم والوظائف، ويجدد له حكم ما بيده من الأوامر المرينية في هذا الصدد[212].

(207) **تحفة النظار**، ج 2، ص. 184.

(208) **رسائل ابن عباد**، قطعة مخطوطة : خ.م.

(209) **نفسه**.

(210) **معيار الاختبار**، مطبعة أحمد يمني بفاس، ص. 42.

(211) **نفاضة الجراب**، مصورة معهد مولاي الحسن بتطوان، ج 2، رقم 27، ورقة 38 ب.

(212) **الاستقصا**، ط. القاهرة سنة 1312، ج 2، ص. 128.

كما نشير ـ مرة ثانية ـ إلى أن الضرائب بدأت تستفحل في الدور الانحداري للدولة : شأن الدول في مثل هذه المرحلة، ومن أمثلة هذا ما يسجله ابن الخطيب[213] عن عهد أبي سالم : «أن الرعايا استولت عليها المغارم ونزفها الحلب».

ثم آل الحال آخر هذا العهد إلى أن كان قسم هام من البلاد قد فقد عادة دفع الضرائب، نتيجة لما صارت إليه من الاستقلال الفعلي[214].

ب ـ النفقات :

إن أول ظاهرة في هذا الصدد أن بعض أبواب الميزانية كان يستغل لمصاريف على حدة، وهذا يبدو جليا في النفقات التالية :

1 ـ **الأمكاس** التي رصدت لبعض النفقات، فقد كانت أمكاس مدينة فاس ـ قبل عهد أبي الحسن ـ تصرف في مرتبات إحدى فرق الجيش المريني، وهي فرقة الروم القشتاليين[215]، ثم صار أبو عنان يتصدق بمجابي أبواب المملكة يوم سبعة وعشرين من رمضان[216]، وكان ابن الخطيب يتقاضى مرتبا شهريا ـ بمبلغ 500 دينار فضية عشرية ـ من مجبي مدينة سلا[217].

2 ـ **الجزية**، وكان ينفق منها على الطلبة والمقرئين بمدرسة الحلفاويين «الصفارين» بفاس[218]، ومن الجزية ـ أيضا ـ كان مرتب الإمام الخطيب بالجامع الأعظم بفاس[219]، مع نفقات ثريا الجامع الكبير من فاس المرينية[220].

3 ـ **مداخيل أخرى**، ومنها مدخول معصرة مكناس الذي كانت النفقة منه في بناء الجامع الكبير بفاس المرينية[221]، ويذكر ابن خلدون[222] عن أبي الحسن

(213) **نفاضة الجراب**، مصورة معهد مولاي الحسن بتطوان، ج 2، رقم 27، ورقة 111 ب.
(214) **المسألة المغربية**، ص. 21.
(215) **المسند الصحيح الحسن** ـ الباب 23، الفصل الثاني.
(216) **تحفة النظار**، ج 2، ص. 184.
(217) **الاستقصا**، ج 2، ص. 128، ط. مصر.
(218) **الذخيرة السنية**، ص. 188.
(219) **المعيار المعرب**، ج 7، ص. 126 : ط. ف.
(220) **الذخيرة السنية**، ص. 188.
(221) **المصدر الأخير**، ص. 187.
(222) **المقدمة**، ص. 347.

المليلي القاضي لعهد أبي سعيد الأول : أنه عرض عليه أن يختار لمرتبه دخل إحدى الضرائب المحلية، يضاف لهذا أن إحدى الأسر المغربية النبيلة «الأشراف الدباغين» كانت لهم جراية مرينية من مستفاد دار الدباغة بسلا[223].

وسوى هذا : فقد كانت أكثرية المداخيل تقدم للخزينة العامة رأسا، ومنها تؤخذ أكثر المصاريف التي لا تعرف ــ بالضبط ــ مقاديرها ولا مبالغ الميزانية المرينية.

وبدون شك فإن هذه الميزانية ترتفع إلى أرقام عالية جدا، نظرا للمصاريف الضخمة التي كانت تنفقها الدولة في المرافق العامة والخاصة، مع ما قدمته أو طلب منها من بعض القروض الكبيرة[224]، مما يشف عن رصيد مالي كبير مذخر في الخزينة المرينية.

أما أجور الموظفين فلا يعرف منها سوى مرتبات الجيش مع معلومات ضئيلة عن بعض مرتبات الأسلاك المدنية، وقد سبق تفصيل هذا في بحث «النظام الإداري» و«النظام العسكري»[225].

ج ــ الأوقاف :

وهي تكون بابا خاصا في الميزانية دخلا وخرجا، ويعني بها الموقوفات على المصالح العامة من طرف الأفراد والملوك.

ومن المؤكد أن نتذكر أن أوقاف الأفراد قديمة بالمغرب[226]، والجديد في هذا العصر هو أوقاف الملوك الكثيرة، مع اتجاه هذا المشروع وجهة اجتماعية إلى جانب الاتجاه الديني.

وإن فاسا هي البلد المغربي الوحيد الذي لفتت أحباسه نظر ابن الخطيب، فذكر أن «أوقافها جارية»[227]، وهذا يعني أن هذه المدينة تحتل الصدارة في هذا

(223) **الدرر البهية**، ج 2، ص. 147-148، ط.ف.

(224) القرض المعني بالأمر هو الذي قدّمه يعقوب بن عبد الحق للفونسو العاشر ملك قشتالة، وكان مبلغه مائة ألف، **العبر**، ج 7، ص. 205، وفي عهد أبي الحسن تقدم إليه ألفونسو الرابع ــ ملك أراغون ــ فطلب منه قرضا ذهبيا، فاستجاب له السلطان المغربي شريطة أن يقدم له الضمان في الذهب ؛ أنظر **مجموعة مراسلات الملوك المسلمين مع ملوك أراغون وكتلونية**، ط مدريد 1940، ص. 179.

(225) عند الباب الثاني.

(226) أنظر **زهرة الآس**، ص. 42و 55 و57 و61، ط. الجزائر.

(227) **معيار الاختبار**، ص. 48.

الميدان على بقية جهات المغرب الأخرى، بما فيها مدينة مراكش التي يسجل في «**المسند الصحيح الحسن**»[228] وفرة أحباس خارجها.

وقد تنوعت الأوقاف في هذا العصر، وتفرعت إلى عدة شعب في كثير من جهات المغرب، وأبرز هذه الشعب في فاس ــ مثلا ــ تسعة فروع :

الأول : أوقاف جامع القرويين الذي يسجل عنه أبو القاسم محمد التازغدري أن غلة أحباسه متسعة[229]، وقد كان مبلغها ــ في النصف الثاني من القرن الثامن هـ ــ عشرة آلاف دينار فضية في بعض الأعوام[230].

الثاني والثالث : أوقاف المدارس والمستشفيات، وكانت لها مداخيل وافرة، إلى أن فوت أكثر أملاكها أبو سعيد الثاني ليسدد بثمنها نفقات حروبه، فقلت مداخيل هذه المؤسسات بعد[231] :

ــ الرابع : أوقاف جامع الأندلس.
ــ الخامس : أوقاف مكة المكرمة.
ــ السادس : أوقاف الزوايا المرينية.
ــ السابع : أوقاف تازا بها وبمدينة فاس وناحيتها.
ــ الثامن : أوقاف بقية مساجد فاس.
ــ التاسع : أوقاف الوصايا.

وقد كانت الأوقاف تحتفظ بإدارتها الخاصة تحت رقابة القاضي، مع الخطيب في بعض الأحيان[232]، وبين الفترة والفترة كان القاضي يعقد مع النظار محاسبات حدد شكلها المفتي عبد الله العبدوسي في جواب له[233].

وحسب «**رحلة الوزان الفاسي**»[234] فقد كان لنظارة جامع القرويين بفاس،

(228) الباب 26، الفصل الثاني.
(229) **المعيار المعرب**، ج 7، ص. 142 : ط. ف.
(230) **زهرة الآس**، ص. 73.
(231) **حياة الوزان الفاسي وآثاره**، ص. 76 و88ـ89.
(232) أنظر **المعيار المعرب**، ج 7، ص. 116 : ط. ف.
(233) **المصدر الأخير**، ج 7، ص. 204.
(234) **حياة الوزان الفاسي وآثاره**، ص. 73ـ74.

إدارة خاصة تتألف من الناظر الذي يتقاضى ـ يوميا ـ دكة[235] واحدة، وكان معه ثمانية عدول، أجرة كل واحد منهم ست دكات في الشهر، وتحت نظرة ستة قبضة لقبض دخل الدور والحوانيت وغيرها، وهم يتقاضون خمسة في المائة أجرة على ما يقبضون، ومعهم عشرون معينا مواظبين على تفقد الحرائين وخدمة العنب والبساتين والنظر في لوازمهم، ولهم على ذلك ثلاث دكات شهرية لكل واحد.

وكان من المؤكد على المسؤولين عن الأحباس أن يتفقدوها، بأن يطوف الناظر وشهوده وكتابه وقباضه على رباع الأحباس، ليتبين مقدار غلاتها وعامرها من غامرها[236].

هذا ومن التشريعات التي وضعت للأحباس في هذا العصر، ما أفتى به أبو محمد عبد الله العبدوسي في مسألة جمع أحباس فاس في نقطة موحدة، فقد قرر إباحة جمعها كلها في نقطة واحدة وباب واحد لا تعدد فيه، بأن تجمع مستفادات مختلف المساجد كلها، ويقام منها ضروري كل مسجد، ولو كانت أوقاف بعض المساجد قليلة فيوسع عليها من غنيها، ويقدم الجامع الأعظم قبل جميعها، ثم الأعمر فالأعمر[237].

أما الجهات التي تتفق فيها مداخيل الأحباس فقد كانت كثيرة، فإلى جانب لوازم المساجد، صارت الأحباس ـ في هذا العصر ـ تنفق على المدارس والمستشفيات والملاجىء، وعلى كثير من أبواب البر والإحسان، مما سيرد مفصلا في بحث على حدة.

ومن الجدير أن نذكر ـ هنا ـ أن الأحباس في حال عجزها كانت تتلقى ما يسدد عجزها من أبواب أخرى من الميزانية العامة[238]، وإلى هذا العصر يعود نظام الحوالات الحبسية التي يعني بها الدفاتر التي تسجل بها أملاك الأحباس ومستفاداتها ونفقاتها[239].

---

(235) الدكة تزن ثلاثة كَرام ونصف ذهبا، **المصدر الأخير**، ص. 12، فعلى هذا تكون قيمة الدكة بالصرف المغربي الحالي نحو 20 درهما.

(236) **المعيار المعرب**، ج 7، ص. 203–204 : ط. ف.

(237) **المصدر الأخير**، ج 7، ص. 225.

(238) أنظر **روض القرطاس**، ص. 43.

(239) هذا يؤخذ من **المعيار المعرب**، ج 7. ص. 204 : ط. ف.

ثانيا : النقود والأوزان والمكاييل والمقاييس

أ ـ النقود :

كانت النقود بالمغرب عند قيام المرينيين مختلفة السكة والوزن، ومنها المغربية والأجنبية، فنشأ عن هذا فوضى في قيمة النقود وفي المعاملات.

ولما استقرت الدولة المرينية عمل يعقوب بن عبد الحق سنة 674هـ/ 1275-1276م على تنظيم السكة المغربية تنظيما جديدا، واختار من جيد النقود التي كانت جارية آنذاك بالمغرب ـ النقد المحمدي المنسوب لمحمد الناصر رابع الخلفاء الموحدين، وضرب عليه النقد المريني الجديد، وقد أضاف يعقوب لنفوذ هذه السكة التي قلدها ـ درهما صغيرا يزن ثلث الدرهم المحمدي[240]، وهكذا صارت السكة المرينية تتألف من القطع الأساسية التالية : الدينار الذهبي ـ الدينار الفضي ـ الدرهم الكبير ـ الدرهم الصغير، هذا زيادة على أنصاف وأرباع وأثمان الدينار وتجزيئات أخرى للدرهم.

1 ـ فـالدينار **الذهبي** يزن 84 حبا من حبوب الشعير[241]. ومتوسط وزنه بالأجرام 56 و4[242] ويعاد له ـ على وجه التقريب ـ 69 درهما صغيرا.

وهو يتجزأ إلى نصف دينار[243]، وربعه[244] وثمنه[245].

2 ـ وكان **الدينار الفضي** يتركب من عشرة دراهم صغار، وهي التجزئة التي وقفت عليها لهذا النقد[246]، على أنه من المعقول أن يكون في تجزئته مماثلا للدينار الذهبي.

3 و4 ـ أما **الدرهم الفضي الكبير** فيزن 24 حبة من حبوب الشعير، ويتركب من ثلاثة دراهم صغيرة التي يزن الواحد منها ثمانية حبوب[247].

(240) **الدوحة المشتبكة** للمديوني، «مخطوطة خاصة» الباب السادس.
(241) **نفس المصدر** والباب الذي يدقق مقدار حب الشعير الواقع به الوزن.
(242) **النقود والأوسمة المغربية**، تأليف ج. د. بريت، الدار البيضاء، 1939، ص. 180-181.
(243) **تحفة النظار**، ج 1، ص. 77 و ج 2، ص. 5.
(244) **روض القرطاس**، ص. 294.
(245) **الدوحة المشتبكة**، الباب الخامس، الفصل 11 و12.
(246) **المصدر الأخير**، الباب السادس؛ **الاستقصا**، ج (2)، ص. 128 : ط. مصر.
(247) هذا مذكور في تقرير عن تحقيق المدّ النبوي ـ بالمكتبة الملكية بالرباط ـ ضمن مجموع يحمل رقم 1877.

وهناك تجزئات لهذا الدرهم الصغير، فيتجزأ إلى نصف درهم[248] الذي هو نفس القيراط[249] تقريبا ووزنه ثلاث حبات[250]، أما الفلس فهو يزن حبا واحدا فيما يظهر، ويوخذ من الدوحة المتشبكة[251]، أنه كان مربع الشكل معتدل الزوايا والأركان.

5 ـ وبعد هذا نذكر أن هناك دينارا ذهبيا كبيرا يزن مائة دينار ذهبا عاديا، وكان يسكه أبو عنان، ويقدمه لبعض الشخصيات المرموقة ضمن صلة عيد المولد النبوي[252].

كما كان نفس الملك يسك دنانير ذهبية من وزن **دينارين** في الواحد، وقد وردت هذه الدنانير في رسالة شكر[253] بعث بها ابن أبي حجلة لأبي عنان، وفيها يذكر هذه العملة التي (تزيد في السبك للدينار دينارا)، ويصفها باتساع دائرها عن الأدوار، وبأنها صفراء فاقعة اللون.

وقد نستفيد من ذلك أن هذا النقد كان يضرب برسم هدايا أبي عنان. وهكذا نتبين من هذا العرض أن النفوذ المرينية لم تكن تضرب إلا من الذهب أو الفضة، وهذا ما يوخذ من الدوحة المشتبكة[254] أيضا.

ولا يزال المعروف من النقود الفضية المرينية قليلا، والموجود ـ كثيرا ـ هو النقود الذهبية : من الدينار ونصف الدينار وربع الدينار[255].

والنقود المرينية المعروفة كلها مستديرة الشكل، باستثناء الفلوس على ما يوخذ من «**الدوحة المشتبكة**»[256]، وباستثناء نقود فضية مربعة ومستطيلة كانت للسلطان عبد الرحمان بن أبي يفلوسن المريني[257].

---

(248) **روض القرطاس**، ص. 217.

(249) ورد ذكره مجردا عن الوزن في **روض القرطاس**، ص. 217.

(250) هذا ذكره في **الدوحة المشتبكة** : الباب السادس.

(251) الباب الخامس ـ الفصل 11.

(252) **أزهار الرياض**، ج 1، ص. 39، وقد كان هذا الدينار المريني يسكه ـ أيضا ـ أبو الحسن، أخذا من **المسند الصحيح الحسن** ـ الباب 12 ـ الفصل الثاني.

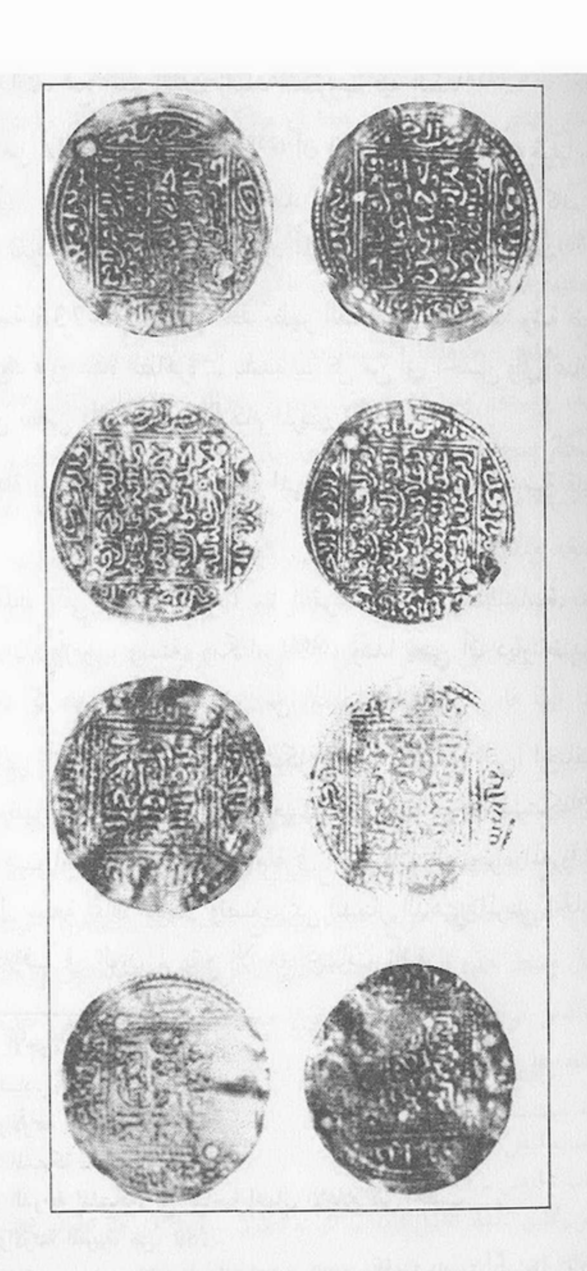
(253) **منطق الطير** نسخة المكتبة الملكية بالرباط رقم 1910.

(254) الباب الخامس ـ الفصل 10.

(255) **النقود والأوسمة المغربية**، ص. 169.

(256) الباب الخامس ـ الفصل 11.

(257) **النقود والأوسمة المغربية**، ص. 170.



نماذج النقود المرينية

وبداخل كل نقد مريني يوجد ـ على الوجهين معا ـ مربع وسط دائرة تحيط بها دائرة أخرى تتكون من نقط، وبداخل المربعات وعلى جوانبها نقشت كتابات فيها تهليلات وتحميدات، مع اسم الملك والبلد المضروب فيه النقد(258).

ويوخذ من «**الدوحة المشتبكة**»(259) أن النقود المرينية امتدت قوتها حتى أيام أبي سعيد الأول، وفي عهد يعقوب بن عبد الحق ـ بالخصوص ـ كانت معامل السكة تضرب نقودا ذهبية أحسن من نقود الموحدين في عهد ازدهارهم(260).

ومنذ سنة 736هـ/1335م أخذ يظهر الفساد في نقود مغشوشة ضربت من طرف اليهود، وقد قاوم هذه الظاهرة ـ بشدة ـ كل من أبي الحسن وأبي عنان، ثم من جاء بعد : من بعض الملوك(261) والحكام المرينيين(262).

وبعد وفاة أبي عنان ضعفت الثروة المرينية فصارت النقود الذهبية قليلة(263).

* * *

ومن المدن التي كانت تضرب بها النقود : فاس، وسجلماسة، ومراكش، ومنصورة تلمسان، وأزمور، وسبتة، ومكناس(264)، وهذا يعني أن ديار ضرب السكة كانت متعددة، كما هو الشأن في كثير من المماليك آنذاك.

وقد ظهر أثر هذا التعدد في شكل النقود المرينية التي اختلفت أنواع صنعتها(265)، وظهر مرة أخرى في الوزن، حيث يذكر في الدوحة المشتبكة(266) : أن المثقال من الذهب الجاري به الوزن والمعاملة في جميع بلاد الصحراء المعروف عندهم بالعدوى، يعدل سبعة أثمان الدينار ونصف ثمن الدينار الذهبي المريني الجاري، وهذا يفيد أن الاختلاف في الوزن لم يقع إلا مع جهات نائية.

---

(258) **المصدر الأخير**، ص. 168.

(259) الباب السادس.

(260) **النقود والأوسمة المغربية**، ص. 168.

(261) **الدوحة المشتبكة** ـ الباب العاشر.

(262) افتتاحية **الدوحة المشتبكة**، مع افتتاحية **إعمال الإعلام** لابن الخطيب.

(263) **النقود والأوسمة المغربية**، ص. 168.

(264) هذا يستفاذ من لوحات النقود المرينية الواردة في **النقود والأوسمة المغربية**، رقم 20-24.

(265) **النقود والأوسمة المغربية**، ص. 171.

(266) الباب السادس.

ثم ظهر ـ مرة ثالثة ـ إثر ذلك التعدد لدور السكة في الاستعمال، قال في «**مسالك الأبصار**»[267] : وحيث يقال درهم ويسكت لا يراد به إلا الدرهم الصغير، إلا بمراكش وما جاورها وقاربها، حيث قيل درهم لا يراد به إلا الدرهم الكبير، حتى ينص على الصغير، هذا في مراكش وعملها وما قاربها خاصة، دون بقية العدوة على الإطلاق.

وعلى الرغم من تعدد دور السكة ووجودها في غير مدينة، فإن معلوماتنا عنها لا تزال ضئيلة جدا، باستثناء دار سكة فاس.

ولا تعدو معلوماتنا القليلة عن دور السكة الأخرى ثلاث مداين : هي سجلماسة، وسبتة، ومراكش، فقد ورد في «**الدوحة المشتبكة**»[268] إشارة عابرة لـدار **سكة سجلماسة** وأمينها وشاهديها، كذلك ورد في (اختصار الأخبار عما كان بثغر سبتة من سنى الآثار[269]) ذكر **دار الأشراف على سكة المسلمين** بقصبة مدينة سبتة، وبمدينة مراكش ـ حسب ازهار الرياض[270] ـ ضرب الدينار الكبير الذي سكه أبو عنان من وزن مائة دينار ذهبا، وهذا قد يعني أن **دار الضرب** بهذه المدينة كانت تتوفر على جهاز سكي خاص، لا تتوفر عليه ديار الضرب بالمدن المرينية الأخرى بما فيها فاس. وقد يكون هذا الجهاز من مخلفات الموحدين بمراكش.

ولاشك أن أكبر ديار السكة المرينية هي التي بفاس الجديد، وقد كان المؤسس لها هو يعقوب بن عبد الحق، الذي نقل مركز ضرب السكة من قصبة فاس القديمة، وأسس له بناية جديدة ضمن مباني فاس المرينية، وقد بناها بمقربة من القصر الملكي على هيئة مكان مربع محاط ببعض الحجرات الصغيرة حيث عمال دار السكة، وفي وسط هذه البناية يوجد مكان ناظر الدار مع العدول والكتاب، وبالقرب من هذه الدار توجد دكاكين الصياغين مع الأمين الذي تعرض عليه المصوغات، ويضع طابعه على المقبول منها[271].

(267) حسب النص الوارد عند الباب الأخير.

(268) الباب الخامس ـ الفصل السابع.

(269) نشر وتحقيق الأستاذ الجليل محمد بن تاويت التطواني ـ فصلة من مجلة **تطوان**، 59ـ1958، العددان 3ـ4، ص. 15.

(270) ج 1، ص. 39.

(271) **جغرافية إفريقيا**، تأليف ليون الإفريقي، ترجمة شيفير، ج 2، ص. 110.

وقد تبسطت «**الدوحة المشتبكة**» في عرض الجهاز التوظيفي لدار السكة المغربية، مع ذكر الشروط المرعية في موظفيها، وشرح اختصاصات كل موظف، وحسبما علم آنفا فإن الجهاز التوظيفي لدار السكة المغربية يتألف من الناظر والشهود، فضلا عن الفتاح والسكاكين، «ويعني بالفتاح الذي يضع الرسم الذي ستمسك عليه العملة ويكتب نصها.

والمعروف لحد الآن من نظار دار السكة بفاس هو الحكيم علي بن محمد المديوني الكمي جد مؤلف الدوحة المشتبكة، وقد كان أول ناظر بهذه الدار، وامتدت ولايته لهذه الخطة نحوا من خمسين عاما، تبتدئ من سنة 674هـ/1275م أيام يعقوب بن عبد الحق مقلده هذه الوظيفة[272].

كما يعرف من شهودها الفقيه العدل الشاعر يوسف بن أحمد بن محمد بن يوسف الشبوكي الحسني الفاسي، وقد قلده أبو عنان هذه الخطة[273].

هذا وقد وضع أبو الحسن علي بن يوسف الحكيم، وهو حفيد علي بن محمد الآنف الذكر ـ رسالة في ضوابط دار السكة سماها : «الدوحة المشتبكة في أحكام دار السكة»، وهي التي يتكرر النقل عنها في هذا البحث، وقد قدم النسخة الأولى منها لخزانة أبي فارس عبد العزيز الأول بن أبي الحسن[274]، ثم قدم نسخة أخرى منها للوزير الوصي على العرش المريني أبي يحيى بن أبي مجاهد غازي[275]، والرسالة مرتبة على عشرة أبواب :

الباب الأول : في إحسان الله تعالى بالذهب والفضة على نوع الإنسان، وجعلهما وسيلة لنفعه ومأربه المباح كيف كان.

الباب الثاني : في أسمائهما بجميع اللغات، ومايختص بجنسيهما من النعوت والصفات.

---

(272) **الدوحة المشتبكة** ـ الباب السادس.

(273) **نثير الجمان في شعر من نظمني وإياه الزمان** لأبي الوليد إسماعيل بن الأحمر، مصورة الفقيه العلامة محمد بن بوبكر التطواني عن نسخة دار الكتب المصرية التي تحمل رقم 1863 أدب، مع **أزهار الرياض**، ج 1، ص. 292.

(274) دولته مذكورة في **العبر**، ج 7، ص. 322ـ336 مع **الاستقصا**، ج 2، ص. 129ـ132، ط. مصر.

(275) أيام هذا الوزير مذكورة في **العبر**، ج 7، ص. 336ـ338، وفي **الاستقصا**، ج 2، ص. 133 : ط. مصر.

الباب الثالث : حيث معادنهما وكيفية توليدهما فيها واستخراجهما وتخليصهما ومنفعة كل منهما.

الباب الرابع : في معرفة مقدار ما ينتظم فيهما من نفيس الأحجار، مع بقاء بهجة الصنعة من غير نقص لذلك ولا نثار.

الباب الخامس : في أول من ضرب الدينار والدرهم وأقام أماكن طبعهما، وضوابط سكتهما وتنمية فائدتهما، وما يحذر من الخلل عند قبضهما ودفعهما :

الباب السادس : في مقدار الدينار والدرهم الخاصين بنا، وسبب ضرب هذه الدراهم اليعقوبية بهذا الوزن في مغربنا.

الباب السابع : في التعامل بهما صرفا أو مراطلة، وتحذير الربا في ذلك ردا كان أو تقاضيا أو مبادلة.

الباب الثامن : فيما يجوز استعماله منهما للحليين والقنية وغير ذلك، وبيع المصحف والسيف والخاتم المحلاة بهما وتسويغهما للمالك.

الباب التاسع : فيما وعد الله سبحانه من الثواب لمنفقهما، وأعد من العقاب لكانزهما، ومقدار ما يجب أخذه من مصوغهما ومعادنهما وركازهما.

الباب العاشر : في تسمية ما أحدثه المفسدون في غش السكة وقرضها، وماذا يجب من العقوبة على مرتكب هذه المحظورات أو بعضها.

والمؤلف المديوني يجعل الباب الخامس معظم الكتاب، ويصنفه في إثنى عشر فصلا هكذا :

الفصل الأول : في أول من ضرب الدينار والدرهم قبل الإسلام وبعده، وأول خليفة كتب عليها اسم الله تبارك وتعالى، وعين الأماكن لضربها وشدد في تخليصها.

الفصل الثاني : في أول من ضرب الدراهم المركنة، وأول من أقام دار الضرب بقصبة فاس.

الفصل الثالث : في الأوصاف المعتبرة في ناظر دار السكة، ويذكر منها أن يكون له بالصياغة علم ومعرفة، كتمييز النقود وأوصاف المعادن وما يصلحها ويفسدها وأسباب غشها وما يزيله، مع دراية بأنواع خطوط الطوابع، ومع النزاهة والديانة.

الفصل الرابع : في أحوال شهودها وربط عقودها، ومما جاء في هذا الفصل :

(... ويتأكد على الشهيدين معاينة ما يقبض وما يطبع، وضبط ذلك كله في زماميهما في كل يوم، وتلخيصه في كل شهر.

ومن الحزم أن يندفع الفائد عند الفراغ من الطابع، ويجعل في جولق معين له شق من أعلاه، ويكون عليه ثلاثة أقفال بثلاثة مفاتيح مختلفة الشكل، يكون الواحد منها بيد الناظر، والآخران بيد الشهيدين، إلى أن يفتح عند إيراده بيت المال.

الفصل الخامس : في وظيف الفتاح، وقد مر أن الفتاح هو الذي يضع الرسم الذي ستسك عليه العملة ويكتب نصها.

الفصل السادس : في الكلام على النيران «المستعملة بدار السكة».

الفصل السابع : في كمية إمام الذهب وما فيه، وعياره من الذهب.

الفصل الثامن : في شكل الميزان وحفظ صنجه وتفقده في كل الأحيان. وقد أورد في هذا الفصل عن صنج الميزان :

(ويكون منها بدار السكة نسختان متفق على تعديلهما، واحدة تسمى إماما لا تخرج من جولق الأزواج إلا للضرورة، والأخرى تستعمل في الأوزان دائما، ولابد من اختبار هذه النسخة، واختبار صنج السكاكين ـ بالإمام الذي أعد بالجولق المذكور ـ في أول كل شهر أو كل جمعة، وتكون لها علامة تميز بها من غيرها، وينبغي أن لا يخرج الناظر من حوزه، ولا يغاب على واحدة منهما ولا على الصنج المستعملة بين يدي الناظر، وإن اتفقت الغيبة فلابد من اختبارها بالإمام، لما يخشى أن يتطرق من الآفات حين الغيبة، فإن الغيبة على ما في دار السكة موجب للتهمة).

وبعد هذا يختم الفصل بأن من الحزم أن يكون بدار السكة سامر بأعلاها يحرسها بالليل من سائر جهاتها، من غير أن يكون له سبب في جولان أسفلها، وكذلك يتخذ لها حارس بالنهار...

الفصل التاسع : في أحوال السكاكين والوصايا لهم وما يحذرون منه، وجعلهم ثلاث مراتب : معلمين وعمالين ومتعلمين.

الفصل العاشر : في المطالب التي بها تتم الأعمال وتحسن الأشغال.

الفصل الحادي عشر : في القاب عمل السكاكين عند تجويل الذهب والفضة بأيديهم.

الفصل الثاني عشر : في تنمية الفائد وتكثير العائد، وقد استهل هذا الفصل بتوضيح مدلول الفائد وقال :

«كان فائد دار السكة في القديم أن يشترى فيها التبر والحلي من الذهب والفضة وغير ذلك من مال السلطان، ويضرب دنانير ودراهم، ويخرج في المصارفة، فما فضل في ذلك يسمى فائدا».

طبع نص هذه الرسالة بتحقيق الدكتور حسين مؤنس، مصدرا بمقدمة، مع تعليقات على النص وفهارس ختامية: ضمن «صحيفة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد» : المجلد السادس ـ العدد: 1ـ2 مزدوج، سنة 1378ـ1958، ص.63ـ204.

ومن هذه الرسالة مخطوطات بمكاتب المغرب : الأولى : نسخة خاصة، وهي التي اعتمدتها كثيرا في هذا البحث بما أنها أكمل من المطبوع، الثانية توجد بالمكتبة الملكية بالرباط ضمن مجموع يحمل رقم 466، الثالثة بالمكتبة الفاسية بفاس، الرابعة بالخزانة العامة بالرباط ضمن مجموع يحمل رقم د 2231، الخامسة ميكروفيلم لنسخة خاصة يحمل رقم 438 خ. ع.

أما مؤلف هذه الرسالة فلا تعرف له ترجمة، وجده علي بن محمد تذكر مخطوطة الدوحة التي نعتمدها أنه مديوني كمي[276]، بينما تذكر المخطوطة المنشورة[277] أنه كومي، بالواو قبل الميم. مديوني، وقد أورد في العبر[278] بني كمي، فذكر أنهم فرقة من بني عبد الواد، من بطون بني علي من شعب آيت القاسم، ويقرب انتساب هذا لبني كمي أن هؤلاء ومديونة جميعهم من صميم زناتة[279]، على خلاف فريق كومية فإنما هم بنو عم زناتة[280].

والمؤلف بعد هذا مغربي، فهو في عنوان الباب السادس من الدوحة ينتسب للمغرب في هذه العبارة : (...وسبب ضرب هذه الدراهم اليعقوبية بمغربنا)، ثم هو فاسي كما تحليه بهذا طالعة النسخة التي نعتمدها، ويؤيد هذا حسب النسخة

(276) **الدوحة المشتبكة** ـ الباب السادس.

(277) صحيفة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد ـ المجلد السادس ـ العدد 1 و2، سنة 1958/1378 ـ ص. 150.

(278) ج 7، ص. 230.

(279) **الذخيرة السنية**، ص. 10ـ11.

(280) **الاستقصا**، ج 1، ص. 139، ط. مصر.

المطبوعة[281]، دعاوه لفاس بقوله : (مهدها الله تعالى) في عنوان الفصل الثاني من الباب الخامس.

وقد كان يفيد الحياة أثناء العشرة الثامنة بعد سبعمائة هـ، فهو يذكر في خطبة إحدى نسخ الدوحة الوزير أبا يحيى بن أبي مجاهد غازي مار الذكر، والذي انتهت وزارته في فاتح سنة 776هـ/1375م[282].

هذا ويذكر المديوني آخر خطبة الدوحة ـ النسخة المخطوطة ـ إنه لخص كتابه من «**الروضة الغضة في معرفة الذهب والفضة**»، فهل هذه من وضع المديوني أيضا ؟ هذا ما لا نستطيع إثباته أو نفيه.

* * *

والآن ـ بعد هذه النظرة على العملة المرينية ـ نسجل أنه كان يروج بالمغرب المريني ـ إلى جانب السكة الوطنية ـ نقود أجنبية أشار إلى أجودها في «**الدوحة**»[283]، وهي الحسونية، والحفصية، والسبتية، والمردنيشية، وفي «**فيض العباب**»[284] وردت إشارة عابرة إلى نقود جنوية : دنانير ودراهم كانت تروج بالمغرب أيام أبي عنان.

وهكذا استفدنا من إشارات المصدرين أنه كان للنقود الأجنبية ـ عربية وغربية ـ رواج بالمغرب في هذا العهد، إلا أن يعقوب بن عبد الحق كان حظر أن لا يروج من النقود الأجنبية إلا ما كان على قدر السكة الوطنية وصفتها وجودتها[285].

ب ـ الأوزان والمكاييل :

إلى جانب السكة اهتم المرينيون بالموازين والمكاييل، فقد حدد يعقوب بن عبد الحق أوقية الرطل المريني بمقدار تسعة وستين درهما من الدراهم الصغيرة[286] المارة الذكر، وبهذا صار في الرطل ـ الذي يتكون من 16 أوقية[287] ـ 1104 دراهم

(281) **صحيفة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد**، المجلد والعدد المذكوران وشيكا : ص. 111.

(282) **العبر**، ج 7، ص. 340؛ **الاستقصا**، ج 2، ص. 133 : ط. مصر.

(283) الباب الخامس ـ الفصل السابع.

(284) نسخة المكتبة الملكية بالرباط رقم 3267، ص. 46.

(285) **الدوحة المشتبكة**، الباب السادس.

(286) **المصدر الأخير**، الباب السادس.

(287) **مسالك الأبصار**، للعمري عند الباب 12.

صغيرة، وهي تعادل 28 و533 جراما من حساب 33،33 جراما في الأوقية المرينية[288].

كما أن يوسف بن يعقوب عمل على تحقيق المكاييل المغربية، وأمر سنة 693 هـ 1293 م بتعديل الصيعان المغربية على المد النبوي[289]، فصار الصاع المريني من أربعة أمداد بمد السيد الرسول صلى الله عليه وسلم، وهو يعادل كيلا سعته 6,924 لتر[290]، وستون من هذا الصاع هي الوسق الذي يسمى في المغرب بالصحفة[291]، وهو يعادل كيلا سعته 365,544 لتر[292]، وقد استمر الصاع المريني هو كيل مدينة فاس أيام هذه الدولة ثم بعدها إلى المائة العاشرة هـ[293].

ومن مظاهر اهتمام المرينيين بتحقيق المكاييل المغربية : أن عدل عدد من ملوكهم أمدادا نبوية نموذجية، حتى تكون مرجعا في تحقيق الصاع والوسق، وهكذا عدل يوسف بن يعقوب مدا نبويا في جمادى الأولى عام 693هـ/1293م[294]، ثم قام أبو سعيد الأول بتعديل مد آخر على مد أخيه يوسف المذكور[295].

ولا يزال يوجد لحد الآن مدان إثنان من الصفر، عدلهما أبو الحسن المريني على مد يوسف بن يعقوب مار الذكر، والمدان معا محفوظان بمتحف البطحاء بفاس، أحدهما : مؤرخ في جمادى الآخرة عام 734هـ/1333م، والثاني : في شهر رجب من نفس السنة، والمد الأول هو الذي كان بالمكتبة الكتانية بفاس، ثم صار إلى المتحف المذكور بعد.

ومن محاسن المدين أن نقش بظاهر كل منهما ـ على الصفر وبخط شرقي ـ اسم أبي الحسن الآمر بالتعديل وسند ذلك وتاريخه.

(288) **الدوحة المشتبكة** : النسخة المنشورة في صحيفة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد ـ المجلد والعدد الآنفي الذكر، ص. 147 : تعليق رقم 1.

(289) **روض القرطاس**، ص. 282.

(290) **الدوحة المشتبكة** ـ النسخة المنشورة الآنفة الذكر، ص. 146 ـ تعليق رقم 1.

(291) في **صبح الأعشى** أثناء حديثه عن المملكة المرينية، ج 5، ص. 177 : «وأما كيلها فأكثره الوسق ويسمى الصحفة، وهي ستون صاعا بالصاع النبوي على السواء».

(292) **الدوحة المشتبكة** ـ النسخة المنشورة السابقة الذكر ص. 146 ـ تعليق رقم 1.

(293) **التراتيب الإدارية**، ج 1، ص. 433 و 436 : الطبعة الأولى.

(294) علمنا بوجود هذا المدّ من الكتابة المنقوشة على مدين لأبي الحسن حسبما يأتي بعده.

(295) علمنا بوجود هذا المدّ من سند ـ لأحد الأمداد ـ وارد في **التراتيب الإدارية**، ج 1، ص. 431.

وقد استمر الاهتمام بتحقيق المكيال المغربي حتى أواخر عهد هذه الدولة، ففي أثناء سنة 839هـ/1435م، أعيد النظر في تحقيق المد النبوي باقتراح من الوزير المريني : يحيى بن زيان بن عمر الوطاسي(296)، وقد انعقد لهذه الغاية اجتماع بفاس حضره ثلاثة من كبار العلماء وهم الشيوخ : عبد الله بن محمد بن موسى العبدوسي(297)، ومحمد بن علي بن آملل المديوني(298)، وأحمد بن عمر المزجلدي(299)، وحضر معهم الناظر في أحباس فاس وحسبتها أبو الحسن علي بن أحمد الحسيني السبتي الشهير بالكغاد، والشيخ الفرضي الحيسوبي أبو عبد الله محمد البياري.

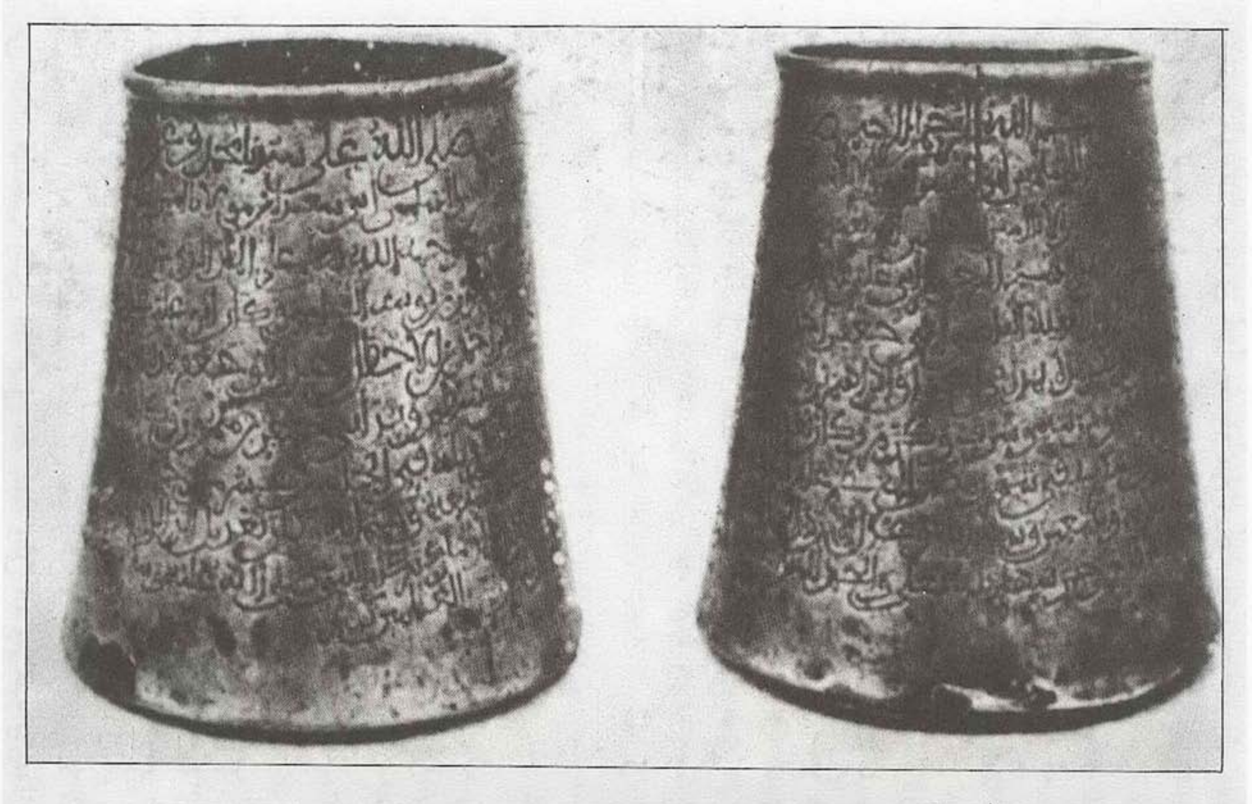
وقد قاموا بهذا العمل في مرحلتين اِثنتين : الأولى : حققوا فيها مقدار المد النبوي بالحساب، والثانية : اختبروا فيها المد الذي بيد أمين القبابين بفاس المسمى بربع الصاع، فوافق وزنه ما أخرجه الحساب في المد النبوي وزنا وعددا وكيلا، وكان المباشر لذلك كله هو أبو الحسن الكغاد، تحت إشراف السادة العلماء وبموافقة أبي عبد الله البياري، وقد حررت عمليات هذا التحقيق في تقرير يتألف من وثيقتين، ذيلت ثانيتهما بإمضاء العلماء الثلاثة، وبتاريخ الاجتماع الذي هو عشية الجمعة 29 رجب عام 839 هـ(300).

وقد استفيد من هذا التقرير، أن عيار المد النبوي النموذجي كان موضوعا ـ في هذا العهد ـ عند أمين القبابين بفاس حتى يكون مرجعا عند الحاجة، وهو مظهر آخر من الاهتمام بتحقيق المكيال المغربي.

وأخيرا نذيل هذا الموضوع بإثبات نص الكتابة المنقوشة بخارج كل من مدى أبي الحسن المريني(301)، فقد كتب على المد الأول :

«بسم الله الرحمن الرحيم، صلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما، أمر بتعديل هذا المد المبارك مولانا أمير المسلمين أبو الحسن بن مولانا أمير المسلمين أبي سعيد بن مولانا أمير المسلمين أبي يوسف بن عبد الحق، أيده الله

(296) من وزراء السلطان عبد الحق الثاني؛ أنظر **الاستقصا**، ج 2، ص. 149، ط. مصر.
(297) توجد ترجمته ومصادرها ومراجعها في **السلوة**، ج 3، ص. 302–303.
(298) توجد ترجمته ومطادرها ومراجعها في **المصدر الأخير**، ج 3، ص. 86–87.
(299) توجد ترجمته ومطادرها ومراجعها في نفس **المصدر**، ج 3، ص. 246.
(300) توجد نسخة من هذا التقرير بالمكتبة الملكية بالرباط، وهي تقع ضمن مجموعة تحمل رقم 1877.
(301) أنظر مجلة **هسبيريس**، سنة 1944 ـ عدد 31.



الوجه 1

الوجه 2

المد الذي أمر بتعديله السلطان أبو الحسن المريني (متحف البطحاء ـ فاس)

ونصره : على المد الذي أمر بتعديله مولانا أبو يعقوب رحمه الله تعالى، على المد الذي عدل الحسين بن يحيى البسكري : بمد إبراهيم بن عبد الرحمن الجايشي، الذي عدل بمد الشيخ أبي علي منصور بن يوسف القوامي، وكان أبو علي عدل مده بمد الفقيه أبي جعفر أحمد بن علي بن غزلون، وعدل أبو جعفر مده بمد الفقيه القاضي أبي جعفر أحمد بن الأخطل، وعدل أبو جعفر مده بمد خالد بن اسماعيل، وعدل خالد مده بمد أبي بكر أحمد بن حمد، وعدل أبو بكر مده بمد أبي إسحاق إبراهيم بن الشنظير، وبمد أبي جعفر بن ميمون، وكانا عدلا مديهما بمد زيد بن ثابت صاحب رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وذريته وشرف وكرم، وكان تعديله في الخامس عشر من رجب الفرد الذي من سنة تسع وخمسمائة، وكان تعديل المد الذي عدله الحسين بن يحيى البسكري في شهر رمضان المعظم عام سبعة وستمائة، وكان تعديل المد الذي أمر بتعديله مولانا أبو يعقوب رحمه الله تعالى في جمادى الأولى عام ثلاثة وتسعين وستمائة، وعدل الآن هذا المد المبارك تبركا بالنبي صلى الله عليه وسلم، واحيا (كذا) لسنته، وذلك في جمادى الأخير عام أربعة وثلاثين وسبع مائة بمدينة فاس، حرسها الله تعالى، والحمد لله رب العالمين كثيرا».

* * *

ونص ما نقش على المد الثاني :

(بسم الله الرحمن الرحيم، صلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما، أمر بتعديل هذا المد المبارك مولانا أمير المسلمين أبو الحسن ابن مولانا أمير المسلمين أبي سعيد ابن مولانا أمير المسلمين أبي يوسف ابن عبد الحق، أيده الله ونصره : على المد الذي أمر بتعديله مولانا أمير المسلمين أبو يعقوب رحمه الله تعالى، على المد الذي عدل الحسين بن يحيى البسكري : بمد ابراهيم بن عبد الرحمن الجايشي، الذي عدله بمد الشيخ المرحوم أبي علي منصور بن يوسف القوامي، وكان أبو علي عدل مده بمد الفقيه أبي جعفر أحمد بن علي بن غزلون، وعدل أبو جعفر مده بمد الفقيه القاضي أبي جعفر أحمد بن الأخطل، وعدل أبو جعفر مده بمد خالد بن اسماعيل، وعدل خالد مده بمد أبي بكر أحمد بن حمد، وعدل أبو بكر مده بمد أبي إسحاق ابراهيم بن الشنظير، وبمد أبي جعفر بن ميمون، وكانا عدلا مديهما بمد زيد بن ثابت صاحب رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وذريته، وشرف وكرم، وكان تعديله في الخامس عشر من رجب الفرد الذي من سنة تسع وخمسمائة، وكان

تعديل المد الذي عدله الحسين بن يحيى البسكري في شهر رمضان المعظم عام سبعة وستمائة، وكان تعديل المد الذي أمر بتعديله مولانا أبو يعقوب رحمه الله تعالى في جمادى الأولى عام ثلاثة وتسعين وستمائة، وعدل الآن هذا المد المبارك تبركا بالنبي صلى الله عليه وسلم، واحيا (كذا) لسنته، في شهر رجب الفرد عام أربعة وثلاثين وسبع مائة بمدينة فاس، حرسها الله تعالى، والحمد لله رب العالمين كثيرا).

ج ـ المقاييس :

تفرد أبو عنان ـ من بين المرينيين ـ بعمل هام في ضبط المقاييس المغربية، فقد وضع على بعض جدران مدينة فاس القديمة، مقياسين إثنين للذراعين المستعملين لذرع مختلف الأثواب، حتى يسهل الرجوع لهما عند الحاجة.

الأول : الصقه داخل المكتب القديم للمحتسب، في حائط علوه 50 س تقريبا فوق الأرض، وهذا المكتب هو الذي كان في الساحة الصغيرة لباعة الحناء يمين مدخل مارستان سيدي فرج «سابقا»، الواقع بسوق العطارين من فاس القديمة، وقد رسم هذا الذراع على رخامة بيضاء كان فيها الكتابة العنانية التالية :

«الحمد لله، أمر بعمل هاذه القالة : مولانا أمير المومنين : أبو عنان أيده الله ونصره، وذلك عام خمسة وخمسين وسبعمائة».

طول هذه القالة 46 س، وهي خاصة بباعة الثياب الصوفية، ولهذا تسمى «بالقالة الدرازية»، أي مقياس منسوجات الأطرزة، كما تسمى : «القالة الإدريسية»، نسبة لمدينة فاس التي هي من بناء الخليفة المولى ادريس الثاني، وهي أقصر من الذراع الآتي.

* * *

الثاني : وضعه بشارع سوق العطارين قرب الأول، يفصل بينهما باب سيدي فرج، حيث ألصق على حائط يفصل بين دكانين، وهذا الذراع ـ أيضا ـ مرسوم على رخامة بيضاء بها هذه الكتابة العنانية.

«الحمد لله، هاذا قياس ذراع قالة القيسارية (....) وذلك عن أمر مولانا أمير المومنين المتوكل (على رب العالمين)، أبو «كذا» عنان، أيده الله ونصره، وذلك عام خمسة و(خمسين وسبعمائة)».



«قالة» السلطان أبي عنان المريني وكانت محفوظة بالمكتب القديم للمحتسب بفاس



«قالة» السلطان أبي عنان المريني وكانت موجودة بسوق العطارين بفاس

طول هذه القالة 55 س، ويستعملها تجار الجوخ ونسيج الحرير والكتان، ولهذا تسمى القالة الكتانية : «مقياس القطنيات»، كما تسمى «القالة السوسية».

ويعتبر الآن ضائعا كل من الرخامتين بما رسم عليهما من الذراع والكتابة، وقد استمر وجودهما حتى العقود الأخيرة، حين عاينهما وكتب عنهما مع قالة ثالثة : البحاثة المستعرب ألفريد بيل Alfred Bel مقالا مهما نشر في «**الجريدة الأسيوية**» (Journal Asiatique) عدد مارس ـ أفريل، سنة 1917، ص 303 ـ 314، ومنه اقتبست ما أثبتته في هذا الصدد، حسب تعريب أحد الأبناء.

ثالثا : التجارة والصناعة والفلاحة

أ ـ التجارة :

إن المصادر التي بين أيدينا لا تلقى كثيرا من الضوء على الأنظمة المرينية في ميادين التجارة والصناعة والفلاحة، ونذكر ـ أولا ـ أن معلوماتنا عن تنظيم التجارة الخارجية لا تتعدى عصر أبي الحسن وأبي عنان، فقد عقد الأول ـ سنة 739هـ/1339 م، معاهدة سياسية تجارية في تلمسان مع وفد مملكة ميورقة، وقد سمح هذا الاتفاق لرعايا ميورقة بالتجارة في المغرب، ولكن منع عليهم أن يصدروا منه القمح والسلاح والخيل والجلود المملحة والمدبوغة[302].

كذلك عقد أبو عنان معاهدات صلحية مع دول البرتغال وقشتالة وأرغون وميورقة وصقلية وجنوة، وقد كان من أثر المعاهدة مع جنوة ـ بالخصوص ـ أن تدفقت تجارتها على المغرب، وامتلأت بتجارهم دواوين أقطاره[303].

وبدون شك فإن اتفاقات تجارية مرينية انعقدت في فترات أخرى من هذا العهد مع دول إسلامية ومسيحية دون أن يتسنى الوقوف عليها، فإن ابن خلدون[304]

---

(302) **مجلة دعوة الحق**، العدد السابع ـ السنة السابعة، ص. 51.

(303) **فيض العباب**، النسخة السابقة الذكر، ص. 43ـ49.

ومن المهم الإشارة هنا إلى وثيقة شروط تجارية بين أبي عنان وجمهورية بيزا عام 1358/759، وهي منشورة ـ في نصها العربي وترجمتها الإيطالية ـ ضمن كتاب **الشروط والمعاهدات بين جمهوريات إيطاليا وسلاطين مصر وغيرهم**، تأليف المستشرق الإيطالي أماري ـ فلورنس، سنة 1863.

(304) **المقدمة**، ص. 319.

يتحدث عن تجار الأمم النصرانية الواردين على المغرب، وغير ابن خلدون[305] يتحدث عن غراب توجه أخريات أيام أبي عنان من المغرب إلى الاسكندرية بتجارة مغربية، ثم عاد ـ بعد ذلك ـ بما جدله شراؤه من متاع الشرق وطيبه وطرفه، وقد كان المغرب يستورد الذهب من السودان[306] والفضة من مدينة سردانية والأندلس[307].

وفي صدد منتوجات أخرى عربية وغربية راجت بالمغرب : توجد إشارات عابرة في هذا الصدد، وبالخصوص أيام أبي الحسن وأبي عنان، فقد كان ضمن إحسانات وعطايا الأول : ثياب من صنع الاسكندرية وتونس[308] وتلمسان والجزيرة الخضراء[309]، مع حنابل ونشريشية[310]، وفي عهد أبي عنان تذكر عدة منتوجات يستخدمها الجيش وأخرى تستعملها النساء، وهي القسى العربية المجلوبة من البلاد المشرقية، والمحكم عملها في البلاد المغربية، والأثواب البديعية المستوردة من الشام والعراق، مع أثواب أخرى : عراقية وأندلسية ورومية[311].

وقد انتظمت في هذا العهد عدة مراسي للإصدار والإيراد، وكان أكبرها ميناء سبتة، محشر أنواع الحيتان، ومحط قوافل العصير والحرير والكتان[312]، قال في «**مسالك الأبصار**»[313] عن سبتة : (وهي من فرض البحر العظيمة، لكثرة ما يرد عليها من مراكب المسلمين والنصارى من كل جهة، وجميع طرف الدنيا أو غالبها موجودة فيها.

وقد كان بهذه المدينة دار الإشراف على عمالة الديوان أمام فنادق تجار النصارى حيث الرحبة العظمى، وفنادقهم سبعة : أربعة على صف واحد، وثلاثة مفترقة[314].

---

(305) **نفاضة الجراب**، ج 2، لوحة 91ب ـ مصورة معهد مولاي الحسن بتطوان، رقم 27.

(306) **مسالك الأبصار** لابن فضل الله العمري ـ قطعة منها تشتمل على قسم الممالك وتقع أول مجموعة : ورقة 110 أ، «نسخة خاصة».

(307) **الدوحة المشتبكة** ـ الباب الثالث.

(308) «وصف المغرب أيام السلطان أبي الحسن المريني» : المصدر المتكرر الذكر.

(309) **المسند الصحيح الحسن** ـ الباب 12 ـ الفصل الثاني.

(310) **مختصر الإحاطة**، للبقني، ج 2، لوحة 384، مصور الخزانة العامة بالرباط، رقم 1582 د.

(311) **فيض العباب**، النسخة السالفة الذكر، ص. 84 و92.

(312) **معيار الاختيار**، مطبعة أحمد يمني بفاس، سنة 1325هـ، ص. 38.

(313) المخطوطة الآنفة الذكر، ورقة 109 ب.

(314) **اختصار الأخبار**، الفصلة السالفة الذكر.

أما باقي المراسي المرينية فهي : مرسى آنفا «الدار البيضاء» التي يقول عنها في «**معيار الاختبار**»[315] : جون الحط والإقلاع، ومجلب السلاع، تهوى إليها السفن شارعة، وتبتدرها مسارعة، تصارف برها الذهبي بالذهب الابريز، وتراوح برها وتغاديه بالتبريز.

ومرسى أصيلا ذات السفن المترددة وفيها الملف والأباريز[316]، ومرسى طنجة محط السفن اللطاف[317]، ومرسى غساسة، وهي ـ حسب «**معيار الاختبار**»[318] ـ مرسى مطروق، بكل ما يروق. ومرفأ جارية تجرية، ومحط جباية مجرية.

ويلحق بهذه المراسي مدينة سجلماسة التي يدخل منها التجار إلى بلاد السودان بالملح والنحاس والودع، ويعودون بالذهب[319].

وهكذا تكشف هذه الفقرة الأخيرة عن أسماء بعض المصدرات المغربية لبلاد السودان، كما تشير لنشاط القوافل التجارية المتنقلة بين البلدين، وقد كان سفر ابن بطوطة للسودان في رفقة تضم تجار سجلماسة وغيرهم[320]، والسودان المعني بالأمر هنا هو مملكة ملك مالي، حسب «**مقدمة ابن خلدون**»، ص. 46.

أما مصدرات المغرب إلى أوربا ـ خلال القرن الثالث عشر، فمنها الصوف والخرفان والخيل والجلود والزرابي والأحزمة المزخرفة والقطن والشمع[321].

* * *

وكان للتجارة الداخلية أنظمة لا نقطع بأنها كلها مرينية، وإنما مزية هذا العصر في المحافظة على القديم منها، مع ما قد يكون استحدث من أنظمة جديدة.

ونجد أول مظهر لهذا في أسعار المواد الأولية التي تقدمها أربعة مصادر عن هذا

---

(315) ص. 43.

(316) **معيار الاختبار**، ص. 41.

(317) **مسالك الأبصار**، المخطوطة السالفة الذكر، ورقة 109ب.

(318) ص. 53، وورد ذكرها ـ أيضا ـ في **روض القرطاس**، ص. 297.

(319) **مسالك الأبصار** ـ النسخة السالفة الذكر، ورقة 110 ـ أ.

(320) **تحفة النظار**، ج 2، ص. 191.

(321) مجلة **دعوة الحق**، العدد السابع، السنة السابعة، ص. 50.

العصر، ويعني بها «**الذخيرة السنية**»[322] و«**روض القرطاس**»[323] عن عهد يعقوب بن عبد الحق، و«**مسالك الأبصار**»[324].. أيام أبي الحسن، ثم «**تحفة النظار**»[325] التي اهتمت بالخصوص بالمقارنة بين أسعار بعض المواد المغربية أيام أبي عنان، ونظيراتها بالشرق في مصر والشام.

وقد كانوا يقاومون ارتفاع سعر القمح بالخصوص، ففي مجاعة 724 و725 هـ أخرج أبو سعيد الأول القمح من مخازن الدولة، حيث صار يباع بأربعة دراهم للمد بدل خمسة عشر درهما التي كانت ثمن المد[326]، ولما كان حصار الجزيرة الخضراء أمر أبو الحسن بأن يباع الزرع الذي اختزنه فيها بنفس سعره قبل مدة الحصار[327].

وكان بفاس العتيق بمقربة من قصبتها، مخزن حكومي للغلال يسمى (المرس)، وهو يشتمل على مطامير، ويستدير به سور منيع به باب وغلق[328].

وفي سبتة كان الفندق الضخم الذي ابتناه أبو القاسم العزفي، وهو معد لاختزان القمح، ويحتوي على إثنين وخمسين مخزنا ما بين هري وبيت، يسع جميعها من قفزان القمح الآلاف العديدة التي لا تبلغ الحصر، وله بابان : باب إلى صحنه، وباب إلى الشوارع المحملة الدائرة بالطبقة الثانية، تدخل على البابين الجمال بأحمالها. مع الارتفاع والاتساع الكبير، فإذا أبصر الرائي ما يدخل منها على الباب الأعلى ودورانها في تلك الشوارع باقتابها وغرائر الزرع المحملة عليها، رأى منظرا هائلا وأمرا عجبا[329].

وكان بسبتة ـ أيضا ـ دار الإشراف على شد الأمتعة وحلها، وهي المعروفة بالقاعة حيث تجارة العطر[330].

---

(322) ص. 104.
(323) ص. 217.
(324) «وصف المغرب أيام السلطان أبي الحسن المريني» : المصدر المتكرر الذكر.
(325) ج 2، ص. 181.
(326) **روض القرطاس**، ص. 294.
(327) **المسند الصحيح الحسن** ـ الباب 38 ـ الفصل الخامس.
(328) «وصف المغرب أيام السلطان أبي الحسن المريني» : المصدر المتكرر الذكر.
(329) **اختصار الأخبار**، الفصلة السالفة الذكر، ص. 13-14.
(330) **نفس المصدر**، ص. 15.

ب ـ الصناعة :

استفادت الصناعة من توجيهات المرينيين التي كان لها أثر في طابع الصناعات المرينية (وهو موضوع بحث على حدة سنعرض له بإعانة الله تعالى).

وفي هذا العصر إستمر شكل البنايات يخضع لتصميم يرسم سلفا[331].

وكان لكل فرقة من الصناع ـ وكذا التجار ـ رؤساء يختارونهم من بينهم ويسمون (الأمناء)، حيث كانت لهم حرية التصرف في مصالح المهنة التي يرأسونها، فقد أسس أمناء التجار والحاكة بمدينة سلا صندوقا احتياطيا كان دخله من درهم واحد يأخذونه عن كل شقة تباع، وقد رصدوا المتجمع في ذلك للاستعانة به فيما يحدث من ضرائب استثنائية أو عادية[332].

وفي هذا العصر كان لا يباح لتجار اللحوم أن يباشروا الذبح بأنفسهم، وإنما كان ذلك مقصورا على شخص معين يقدمه لهذا من يهمه الأمر ويكون من أهل الدين والعلم والصلاح[333]، وهي من العادات التي لا تزال بقاياها جارية بالمغرب.

وقد قاوم المرينيون الغش والتدليس في الصناعات، ولما كان الذميون اشتطوا في هذا الميدان، فقد خصوهم بصناعات معينة، وحظر عليهم الاشتغال بغيرها، كما وقع هذا في عهد أبي الحسن[334].

وكان بسبتة دار الإشراف على البناء والنجارة وما يرجع إليهما[335]، ولا يبعد أنه كان بكبريات المدن المغربية الأخرى أشباه لهذه الدار ثم تناساها التاريخ.

---

(331) أنظر **المسند الصحيح الحسن** ـ الباب 50.

(332) **تحفة الناظر وغنية الذاكر، في حفظ الشعائر وتغيير المناكر** لأبي عبد الله محمد بن أحمد بن قاسم العقباني التلمساني ـ نسخة الخزانة العامة بالرباط ك 691 ـ مع **المعيار**، ج 5، ص. 258 : ط. ف.

(333) **المدخل** لابن الحاج، المطبعة الوطنية بالإسكندرية سنة 1293هـ، ج 3، ص. 215.

(334) **الدوحة المشتبكة**، النسخة السالفة الذكر، الباب العاشر.

(335) **اختصار الأخبار**، الفصلة السالفة الذكر، ص. 15.

ج ـ الفلاحة :

اهتم المرينيون بتنظيم الري بالنواعير التي تكاثرت أيام أبي عنان، وقد وقعت تجربتها في المغترسات المرينية الخاصة[336]. غير أنها لم تتعد هذه التجربة.

كذلك اهتم بعض ملوكهم بإسعاف طبقات من الفلاحين، فقد وزع أبو الحسن على الأيتام في سائر القبائل قطعا أرضية : مقدار حرث زوجين لكل فرد، مع إعفاء الأرض الممنوحة من اللوازم الجبائية[337]، (وحرث زوجين يقدر بنحو 16 هكتارا).

كما وزع أبو عنان أزواج الحرث على الزمني والضعفاء ليقيموا بها أودهم[338].

ومن مظاهر التنظيم الفلاحي في هذا العهد، ما لاحظه ابن خلدون[339] من كثرة الفلح وعمومه بالمغرب المريني، كما لاحظ ابن قنفد القسمطيني[340] عن دكالة بالخصوص : (أن مساحة الأرض المحروثة بها تبلغ عشرة آلاف زوج)، أي معدل نحو 80.000 هكتار.

هذا إلى أن هذا العصر حافظ على امتداد فلاحة عدة مزدرعات اقتصادية هامة، فقد كان يزرع الكتان بأحواز فاس[341] وسلا[342]، وبأحواز سلا ـ أيضا ـ كان يزرع القطن[343] وتمتد فلاحته إلى تادلا والهبط[344].

وكان قصب السكر يزرع في عدة جهات : في ناحية سبتة، وهو بها ثلاثة

---

(336) كانت أول ناعورة مرينية هي التي وضعت على وادي الجواهر في رجب سنة 685هـ، ثم دارت في صفر سنة 686هـ **روض القرطاس**، ص. 297، وفي **فيض العباب** تحدث عن عدة نواعير ركبت على نفس الوادي أيام أبي عنان.

(337) **المسند الصحيح الحسن**، الباب 45، الفصل الثاني.

(338) **تحفة النظار**، ج 2، ص. 184.

(339) **المقدمة**، ص. 318.

(340) **أنس الفقير وعز الحقير**، مخطوطة خاصة.

(341) **حياة الوزان الفاسي وآثاره**، ص. 86.

(342) هذا يؤخذ من ظهير مريني صادر لابن الخطيب، وقد ثبت نصه في **الاستقصا**، ط.ف، ج 2، ص. 127ـ128، وفي **نفح الطيب**، ج 3، ص. 376ـ378.

(343) يؤخذ ـ أيضا ـ من نفس الظهير.

(344) يؤخذ من **المعيار**، ج 8، ص. 93ـ94 : ط. ف.

أنواع[345]، كما يزرع بسوس ونواحي سلا ومراكش بوادي نفيس، وفي مراكش[346] كان يوجد أربعون مصنعا وأكثر ـ زيادة على ما بسوس، وهي تنتج سكرا في غاية البياض والصلابة ولطافة الذوق، يقارب سكر مصر إن لم يكن مثله على حد تعبير «**مسالك الأبصار**»[347].

(345) **اختصار الأخبار** ـ الفصلة السابقة الذكر، ص. 21.

(346) . هكذا في **مسالك الأبصار**، والظاهر أنه يقصد ناحية مراكش.

(347) «وصف المغرب أيام السلطان أبي الحسن المريني» : المصدر المتكرر الذكر.

الفصل الرابع

أنظمة عامّة

الفصل الرابع
أنظمة عامـة

I ـ مبادئ الدولة

أ ـ المذهب :

من المعروف أن المغرب رجع أوائل العصر المريني إلى المذهب المالكي[348]، ولهذا كان هذا المذهب هو المسيطر في ميداني التشريع والعبادات.

ويظهر أن يعقوب بن عبد الحق حاول أن يعمم تطبيق المذهب المالكي على سائر المحاكم المغربية، فقد جاء في ترجمة أبي أمية مفضل بن محمد بن محمد بن ابراهيم العذري المري المالكي المعروف بابن الدلاي : أن هذا الملك ـ لما ولاه قضاء فاس ـ جعل له النظر على صاحبي الشرطة والحسبة، فكانا لا يقطعان أمرا دونه[349].

ويؤيد هذا ـ في الجملة ـ ما في «**روض القرطاس**»[350] : إن يعقوب كان صادرا فى أكثر أموره وأحواله وأحكامه عن رأي العلماء (يعني المالكية).

والظاهر أن هذه التجربة لم تستمر بعد، فإنه لا يوجد فيما وقفت عليه من تراجم باقي قضاة هذا العصر ذكر لهذا الاشراف على صاحبي الشرطة والحسبة.

أما الاعتقادات فكانت على مذهب أبي الحسن الأشعري على طريقة المتقدمين من أتباعه، بما فيهم إمام الحرمين، ومن شواهد هذا ما يرويه ابن

---

(348) أنظر مخطوط «ذكر مشاهير أعيان فاس في القديم»، بيت بني عشرين رقم 11.

(349) **جذوة الاقتباس**، ط. ف.، سنة 1309هـ ص. 220.

(350) ص. 214.

مرزوق[351] : أن أبا الحسن كان يقرأ بين يديه كتاب (الارشاد) للامام الآنف الذكر، وكان يصغى لما يلقى من أدلة أهل السنة وبيان مذاهبهم : (يعني الأشاعرة)، حتى إذا عرضت المذاهب المناهضة لأهل السنة يقول دعوا هذا...

وكانوا يقاومون بقايا الأفكار الموحدية، وأصدر أحد ملوكهم ظهيرا في البحث عن أمر طائفة من أتباع المهدي بن تومرت[352]، ولما استولى أبو الحسن على المملكة الحفصية بتونس قضى على رسوم الموحدين بها[353].

ب ـ اللغة :

وكانت اللغة العربية هي وحدها التي تستعملها الدولة في سائر مرافقها، ومن توابع هذا المبدإ ما قرره أحد مشترعي هذا العصر في شأن الأرقام الحسابية المعروفة بالقلم الفاسي، والتي كانت مستعملة في ديوان الأشغال[354]، فقد سجل قاضي فاس أبو سالم إبراهيم اليزناسني : أن الرشم الرومي قد استفاض بين المسلمين حتى صار كسائر رشوم المسلمين : كأشكال الغبار وغيرها من المصطلحات[355].

ج ـ جنسية الموظفين :

أما جنسية الموظفين فقد كانت مرتكزة على أساس التابعية الاسلامية التي هي حمل الولاء للدولة الاسلامية وللنظام الاسلامي، ولم تكن الجنسية الاقليمية حدثت بعد، ولهذا وجد في الأطر المرينية ـ إلى جانب المغاربة ـ موظفون من بقية أقطار المغرب العربي والأندلس، ومن الشرق العربي : فرقة الغز في الجيش المريني[356]، وينبغي أن يلاحظ أن المرينيين إنما كانوا يستعينون بجنسيات غير مغربية في أطر الكتابة وما إليها.

---

(351) **المسند الصحيح الحسن** ـ الباب الأول.

(352) **المعيار**، ج 2، ص. 358 : ط. ف.

(353) **الأدلة البينة النورانية على مفاخر الدولة الحفصية**، لأحمد الشماع، ص. 117: الطبعة الأولى.

(354) الموضوع يتوسع إلى اللوائح الجندية والمحاسبات السلطانية، ومحاسبات الأحباس والمحاجير، وتقدير الفرض والنفقات، وأعمال الفرائض والتركات.

(355) **المعيار**، ج 10، ص. 142، ط. ف.، وتوجد ترجمة القاضي اليزناسني ومصادرها في **السلوة**، ج 3، ص. 254.

(356) آنظر عن «فرقة الغز»، «وصف المغرب أيام السلطان أبي الحسن المريني» : الموضوع الأخير من هذا الكتاب.

أما الولايات من ولاة وعمال وقواد وقضاة فقد كان أصحابها ــ في الغالب ــ من جنسية مغربية.

كما استعمل أفراد من الملوك : يوسف وسليمان وعبد الحق الثاني اليهود في بعض الخدمات، ثم أقصوا عنها لما بدا منهم من الانحراف الذي يعاكس التابعية الإسلامية[357]. وقد تفاحشت هذه الظاهرة فيهم أوائل أيام أبي الحسن، فأصدر ظهيرا بإبعادهم عن الخدمة وتحديد وضعيتهم في المجتمع المغربي[358]، وقد سجل ابن مرزوق[359] عن أبي الحسن انه لم يستعمل هؤلاء في خطة الكتابة كالواقع عند بعض الدول، ولم يتخذهم أطباء ولا خزنة أموال.

أما المسيحيون فإنما استخدمهم المرينيون في أغراض عسكرية محدودة، نظرا للاعتبار السالف الذكر[360].

د ــ اللون :

امتاز المرينيون باستعمال البياض، فهو كان لون العلم، ولباس الحفلات الرسمية، ولون أخبية الجيش بما فيها الخباء السلطاني العظيم (أفراك)، وهو ــ أيضا ــ اسم ومظهر المدينة المرينية بفاس.

وقد لفتت هذه الظاهرة انتباه أفراد من الشعراء والكتاب، وأولهم صالح بن شريف الرندي صاحب المرثية الشهيرة في الأندلس، فقد خاطب فيها الملك المريني بهذا البيت حسب «**أزهار الرياض**»[361].

يا أيها الملك **البيضاء** رايته ... أدرك بسيفك أهل الكفر لا كانوا

ولما مر خالد البلوي بتلمسان في رحلته للشرق، وجد محلة أبي الحسن بضاحية هذه المدينة سنة 736 هـ/1335م، ومما قال فال في وصفها : (وجلنا في المحلة،

(357) أرجع إلى **العبر**، ج 7، ص. 232–233 و239، مع **الاستقصا**، ج 2، ص. 150–151، ط. مصر.

(358) **الدوحة المشتبكة** ــ الباب العاشر.

(359) **المسند الصحيح الحسن** ــ الباب 36 ــ الفصل الثاني.

(360) أنظر «نظم الدولة المرينية» : الباب الثاني ــ الفصل الثاني من هذا الكتاب.

(361) ج 1، ص. 49.

وهي روض يثمر خيلا وأعنة، وبحر يزخر قنى وأسنة ... والأحوال قد استقامت، والأخبية على القاعدين فيها قد قامت، وهي **مبيضة** كسقيط الثلج ...)[362].

وجاء أثناء قصيدة لابن الخطيب[363] يخاطب فيها أبا سالم، ويذكر أخبية الجيش وآفراك :

مضارب في البطحاء **بيض** قبابها   كما قلبت للعين ازهار سوسان
وما أن رأى الراءون في الدهر قبلها   قرارة عز في مدينة كتان

وقال ابن الخطيب ـ أيضا ـ في «**معيار الاختبار**»[364] عن فاس الجديد :
وأما مدينة الملك فبيضاء كالصباح، أفق للغرر الصباح.

ويبدو أن من بين الأسباب التي حدت بالمرينيين لاختيار البياض، مخالفة جيرانهم المسيحيين الذين كانوا يؤثرون السواد، فقد كان هذا اللون هو لباس القشتاليين وملكهم سانشو، لما قدموا إلى معسكر يعقوب المريني بالأندلس لعقد الصلح، وقد ورد في «**روض القرطاس**»[365] وصف لباس الطرفين في العبارات التالية :

وأمر (يعقوب) جميع جيوشه بلباس الأبيض والعدة الكاملة، فابيضت الأرض ببياض المسلمين، وأقبل شانجة (سانشو) في عدة من المشركين مسودة، فكان ذلك عبرة للمعتبرين.

II ـ الأعلام

أ ـ العلم المنصور :

كان شعار الدولة المرينية لواء أبيض يسمى (العلم المنصور)، وهو قطعة كبيرة منسوجة من الحرير، مكتوب فيها بالذهب آيات قرآنية بدائر طرتها[366].

---

(362) **رحلة البلوي** ـ مخطوطة خاصة.
(363) **نفاضة الجراب**، النسخة السالفة الذكر، ج 2، لوحة 28 ـ أ.
(364) ص. 49.
(365) ص. 263.
(366) «وصف المغرب أيام السلطان أبي الحسن المريني» : المصدر المتكرر الذكر.

وقد اهتم المرينيون ـ مثل الموحدين قبلهم ـ بشأن العلم الرسمي، فجعلوا له موكبا خاصا يتبع أثر السلطان في مسيره يسمى (الساقة)[367]، وفيها يكون العلم المنصور تحيط به أعلام دونه مختلفة الألوان[368]، وفي أول الدولة كان عدد أعلام هذا الموكب بين العشرة والعشرين، ولما تضخم ملك أبي الحسن بلغ عددها مائة بين كبير وصغير : ملونة بالحرير، منسوجة بالذهب[369]، وجاء في «**فيض العباب**»[370] وصف موكب العلم أيام أبي عنان هكذا :

(ومثلت الساقة العظمى كالحدائق الزاهرة، والرياض الناضرة. والأطواد المتلاصقة المتناظرة، وارتفعت الأعلام كالأعلام، نيران قراها الأسنة المشهودة الاضطرام، من كل **أبيض** كالصبح الرافع للبس، تجلو طرر ذهبه كأنها أشعة الشمس، ومن **أحمر** كالخدغب الخجل، تلوح رقومه بالنضار كصفرة الوجل، ومن **أخضر** كالعذار تلوح سماته، أو الزرع الذي يعجب الزراع نباته، ومن **أصفر** كالأصيل، والراح للراح الممزوجة في يد الخليل، إلى غير ذلك من **الألوان المتفرعة**، والأعراض المتنوعة، كل قد استنهيت فيه الصنائع، واستقصيت في وشيه البدائع، وأودع الخطوط المحكمة بخيط الذهب الإبريز، المثبت شرف التطريز، الشارحة نكتة التمييز).

ب ـ أعلام ثانوية :

إلى جانب موكب العلم الرسمي، كانت هناك أعلام أخرى تستعمل أيام الحرب وفي الاستقبالات الملكية وما إلى ذلك، وهذه هي التي نستعرضها فيما يلي :

1 ـ أعلام الجيش، والمعنى بالأمر هو الجيش البري، فقد كان لقائد كل فرقة من فرقه علم خاص به، وامتازت فرقة الغز بخصلة الشعر التي يجعلونها أعلا أعلامهم، ويتخذونها شعارا لهم[371]، ويوخذ من مصدر معاصر[372] ان ألوان هذه الأعلام كانت مختلفة باختلاف الفرق.

(367) **المقدمة**، لابن خلدون، ص. 226.

(368) «وصف المغرب أيام السلطان أبي الحسن المريني» : المصدر المتكرر الذكر.

(369) **المقدمة**، لابن خلدون، ص. 226.

(370) ص. 343–344.

(371) **فيض العباب**، ص. 83.

(372) **نفاضة الجراب**، النسخة السالفة الذكر. ج 2، لوحة 133 ـ أ.

2 ـ **أعلام الأسطول**، وهي متعددة بتعدد رؤساء القطع البحرية، وكانت ألوانها متنوعة كأنها قوس قزح، وتمتاز طريدة القائد الأعلى براياتها البيض[373].

3 ـ **أعلام فرقة الشرطة العليا**، وكان يحملها أعوان صاحب هذه الخطة، يرفع كل واحد منهم راية ضمن المواكب الملكية[374]، ولم يذكر لون هذه الرايات.

4 ـ **أعلام شعبية**، وهي التي يحملها أرباب الصناعات في الاستقبالات الملكية، وكان شعار هذه الأعلام أن ازدانت برسوم فيها صور الآلات التي يستعملها أصحابها[375].

5 ـ **أعلام على الأبراج**، ومنها التي رفعت على أبراج مدينة قسنطينة في دخول أبي عنان لها[376] سنة 758هـ/1356م.

6 ـ **علم ركب الحاج المغربي**، وردت الإشارة له في «**المسند الصحيح الحسن**»[377] لدى باب ضخامة ملك أبي الحسن وعلو همته، وجاء ذكره في الفقرة التالية : «ووقف علمه على جبل عرفة».

ذلك ما وقفت عليه من الأعلام المرينية الثانوية، وننبه إلى أن ابن خلدون[378] يذكر أن اتخاذ الأعلام كان مقصورا على السلطان، محظورا على من سواه، وإنما يؤذن للولاة والعمال والقواد في اتخاذ راية واحدة صغيرة من الكتان بيضاء أيام الحرب، لا يتجاوزون ذلك.

هذا كلام ابن خلدون في هذا الصدد، واستنادا لما ذكر آنفا، يظهر أنه يقصد بالقواد ـ أحد المرخص لهم في استعمال الراية ـ معنى واسعا يشمل قواد الجيوش البرية والبحرية وسواهم ممن ذكر، ومع هذا يوخذ عليه ـ بناء على نفس المستند السابق ـ أن أعلام هؤلاء القواد لم تكن دائما بيضاء وواحدة، وإنما كانت في بعض الحالات متعددة ومتنوعة الألوان، كما أنها لم تقصر دائما على من ذكر من الولاة والعمال والقواد، وإنما كان يتخذها ـ أيضا ـ غير هؤلاء.

(373) **فيض العباب**، ص 130 و133.

(374) **المصدر الأخير**، ص. 344.

(375) **المصدر الأخير**، ص. 345، مع **صبح الأعشى**، ج 5، ص. 207.

(376) **فيض العباب**، ص. 167.

(377) الباب 50.

(378) **المقدمة**، ص. 226.

وبعد هذا نذكر أن من مظاهر إكبار المرينيين للعلم، أن بعث أحد ملوكهم بأعداد من الأعلام والرايات برسم الهدية إلى دولة صديقة، وهذا هو أبو الحسن الذي جعل في هديته الشهيرة للملك الناصر محمد بن قلاوون الصالحي ملك مصر وما والاها، عشرة أعلام مغشاة مذهبة وعشر رايات مذهبة، وذلك سنة 738هـ/1337م[379].

ج ـ الباقي من الأعلام المرينية :

لا يزال بين ذخائر كنيسة طليطلة بإسبانيا علمان مرينيان، مما غنمه الإسبان من موقعة طريف أو «سالادو» عام 1340/741، وقد علق العلمان على جدران قاعة الثياب المقدسة.

وأولهما صنع لأبي الحسن، وهو عبارة عن سجادة كبيرة مذهبة الجوانب، طولها 3,70 مترا، وعرضها 2,20 مترا، ذات لون أصفر، وقد نقشت في شريطيها : الأعلى والأسفل بحروف بيضاء هذه العبارة : النصر والتمكين، والفتح المبين، لمولانا أبو (كذا) الحسن أمير المسلمين.

ونقش في باطنها ـ في عدد من الدوائر بلغت ستة عشر ـ العبارات الآتية بأحرف سوداء : (وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم) (الحمد لله على نعمه) (الملك الدائم) (العز القائم) (اليمن الدائم) (العز القائم).

وفي ذيلها أنها صنعت للسلطان ـ في المدينة البيضاء ـ في شهر جمادى الآخر عام أربعين وسبعمائة.

وثانيهما صنع لأبي سعيد الأول، وهو عبارة عن سجادة أصغر حجما، يبلغ طولها 2,80 مترا، وعرضها 2,20 مترا، وقد علقت إلى جانب الأولى، ثوبها من الحرير المنسوج بالذهب، من العمل المسمى بالزردخان، ذات لون أزرق، ونقوشها من النواحي الأربعة بيضاء، وفي وسطها دوائر هلالية عددها ستة عشر، مع عدة نجوم تبلغ العشرين، وقد طوقت بخط كوفي كتب به آيات قرآنية متتابعة موزعة على جوانبها الأربعة :

ففي شريطها الأفقي الأعلى: (أعوذ بالله من الشيطان الرجيم آمنت بالله وحده)°.

---

(379) للفرق بين العلم والراية نذكر أن البعض يفرق بينهما، فيجعل العلم علامة لمحل الأمير يدور معه حيث دار، والراية، يتولاها صاحب الحرب، أنظر **التراتيب الإدارية**، ج 1، ص. 318: الطبعة الأولى.

وفي الشريط العمودي الأيسر : ﴿يايها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم﴾.

وفي الشريط العمودي الأيمن : ﴿تومنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله﴾.

وفي الشريط الأفقي الأدنى : ﴿بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون﴾.

ويلي هذا الطوق الكوفي طوق بعده، كتب فيه بالخط المغربي آيات قرآنية أخرى غير متتابعة :

﴿آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمومنون﴾، مع قوله تعالى : ﴿عزيز عليه ما عنتم، إلى قوله : وهو رب العرش العظيم﴾.

وبطرة هذا العلم في أسفله بخط مشرقي جميل : أنه صنع لأمير المسلمين أبي سعيد عثمان بن أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق، بقصبة فاس، في محرم سنة إثنى عشر وسبعمائة.

وفيما بين الطرة والأطواق المحيطة، يوجد سطر دقيق الكتابة كتبت فيه خاتمة سورة البقرة : ﴿ربنا لا تواخذنا ان نسينا أو اخطأنا، إلى القوم الكافرين﴾.

أما الأهلة ـ الموجودة داخل مربع وسط أطواق العلم ـ فقد كتبت عبارة : «لا إله إلا الله» في ثمانية منها، و «محمد رسول الله» في الثمانية الأخرى[380].

* * *

III ـ محاولات تنظيمية جديدة

يبدو أن أحد الملوك المرينيين قد شعر ـ والدولة قد دخلت في فترة انحلالها ـ بالحاجة إلى إعادة النظر في الأنظمة المرينية، ولهذا اقترح أبو سالم ابراهيم بن أبي الحسن على كاتبه أبي القاسم ابن رضوان آتي الذكر، أن يكتب موضوعا في السياسة الملوكية، والسير السلطانية، فاستجاب هذا الأخير للاقتراح المريني، ووضع مدونة سماها : (الشهب اللامعة في سماء السياسة الجامعة)، وفي أولها يسجل رغبة أبي سالم في العبارات الآتية :

(380) لم أقف على عين العلمين، ووصفهما مأخوذ من **الآثار الأندلسية الباقية**، ص. 61–62، مع تكميلات في وصف راية أبي سعيد من **الغاية من رفع الراية**، ص. 13–14.

«أما بعد : فإن مقام الإمامة الإبراهيمية التي أوضح العدل آثارها، ورفع الحق في ملوك بني عبد الحق منارها ... اقترحوا على أن أفرد لهم تأليفا كفيلا بالسياسة الملوكية، والسير السلطانية، فبادرت بالامتثال، وسميته بـ«**الشهب اللامعة في سماء السياسة الجامعة**»...» ثم يذكر تصميم الكتاب هكذا :

وقد انقسم الكتاب بحسب الترتيب بالمراد إلى خمسة وعشرين بابا :

الباب الأول : في فصل الخلافة وحكمها وثواب من قام بها، ووجوب طاعة الإمام ونصحه وتعظيم حقه، وما يلزمه من أمور الإمامة.

الباب الثاني : في سير الملوك في سماع المواعظ، وتعظيم أهل الخير، وتسليم أحوال الصالحين.

الباب الثالث : في ذكر العدل وفضله وما جاء في ذلك.

الباب الرابع : في فصل الحلم وكظم الغيظ.

الباب الخامس : في ذكر الملك وصفاته، وذكر الوفود عليه والسلام وتقبيل اليد، وذكر الحُجاب والحجاب وما يلحق بذلك.

الباب السادس : في ذكر الجلساء والأصحاب، وذكر الرجوع إلى الحق عند وضوحه.

الباب السابع : في التدبير والرأي والمشورة والمذاكرة وما يلحق بذلك.

الباب الثامن : في سيرة الملك مع خواصه وبطانته.

الباب التاسع : في تغافل الملك وحيائه ومروءته ووقاره، وتثبته في الأقوال والأفعال، وتأنيه وصبره في الأمور.

الباب العاشر : في ذكر الوزارة والوزراء.

الباب الحادي عشر : في ذكر الكتابة والكتاب.

الباب الثاني عشر : في تجديد المفاخر، وتخليد المآثر، وإحياء سبل الخيرات، وإثبات رسوم القربات، وعمارة الأرض، وإصلاح المملكة، واقتناء الذخائر.

الباب الثالث عشر : في الجود والسخاء ومكارم الأخلاق، والمكافأة على السوابق والوفاء بالعهود، وذكر التهادي وبذل المعروف والمكرمات.

الباب الرابع عشر : في إكرام أهل الوفاء ورعاية العهود، واحتمال قول الحق ولو كان مرا.

الباب الخامس عشر : في تودد الملك إلى الرعية وبسطه وتواضعه في علوه، وذم الكبر.

الباب السادس عشر : في الحزم والدهاء وكتم السر وإظهار القوة وما يلحق بذلك.

الباب السابع عشر : في التيقظ والتلطف في الوصول إلى المقاصد.

الباب الثامن عشر : في الرفق بالرعية وسياستها وتأمين السبل.

الباب التاسع عشر : في تولية الخطط الدينية والعملية وما يلحق بذلك.

الباب العشرون : في مراتب العقوبات، وذرء الحدود بالشبهات، والإقصار عن التسرع إلى العقوبات، وقبول الشفاعات.

الباب الحادي والعشرون : في ذكر السجون وأحوالها وتفقد أهلها.

الباب الثاني والعشرون : في ذكر بيت المال، والعطاء والمنع، وسياسة الجنود.

الباب الثالث والعشرون : في سياسة الحروب وتدبيرها.

الباب الرابع والعشرون : في ذكر الخصال التي فيها فساد الدول ونفور القلوب عن الملوك، وذكر طرف من استدفاع الشدائد.

الباب الخامس والعشرون : في كلمات جامعة في السياسة، وذكر وصايا صادرة عن الخلفاء والملوك.

ذلك هو تصميم الشهب اللامعة كما يقدمه ابن رضوان، والكتاب لا يزال مخطوطا، ومنه نسخ عديدة عامة وخاصة، من بينها إحدى نسخ الخزانة العامة بالرباط، التي تحمل رقم (د 729)، وهي تقع في ورقات 100، مسطرة 21، مقياس 175/220، خط مغربي جميل محلي بالألوان[381].

أما ابن رضوان : فهو أبو القاسم عبد الله بن يوسف بن رضوان النجاري المالقي نزيل فاس، تقلد الكتابة لعدد من ملوك بني مرين، من بينهم أبو سالم الذي

(381) فهرس المخطوطات العربية المحفوظة في الخزانة العامة بالرباط، القسم الثاني، الجزء الثاني، ص. 256.

وضع الكتاب برسمه، قال في «**الاستقصا** »[382] لدى تعداد كتاب هذا السلطان : (... وأبو القاسم عبد الله بن يوسف بن رضوان النجاري من أهل مالقة، صاحب كتاب السياسة وغيره)، توفي بأنفا (الدار البيضاء) ودفن بمقبرة الحاج صالح، وذلك سنة ثلاث وثمانين وسبعمائة (1381 م)، وقد تصحف عقد ثمانين بثلاثين في نسخة «**جذوة الاقتباس**»[383] المطبوعة على الحجر بفاس، وورد في بعض نسخها المخطوطة[384] على الصواب، وهو الذي يوخذ من «**العبر**»[385] أيضا، وعلى الصواب ورد في «**بيوتات فاس الكبرى**».

أنظر عن ترجمته المصادر والمراجع التالية : «**المسند الصحيح الحسن**»[386]، و«**فهرسة**[387] **أبي زكرياء السراج**»، و«**نثير الجمان**»[388] و«**مستودع العلامة**»[389] الاثنان لإسماعيل ابن الأحمر، مع «**العبر**»[390] و«**الاحاطة**»[391] و«**جذوة الاقتباس**»[392] و«**نيل الابتهاج**»[393]. و«**بيوتات فاس الكبرى**» لدى بيت بني رضوان رقم 79، و«**نفح الطيب**» ج 3، ص. 462 ـ 465.

ثم الظاهر أن هذه المحاولة الإصلاحية ـ التي أسهم فيها ابن رضوان ـ لم تتم، ومن أسباب ذلك قصر مدة أبي سالم، وما فاجأه من الانقلاب[394] الذي أودى بحياته في النهاية، ثم إهمال من قاموا بعده لهذا المشروع.

ومن ذيول هذا الاهتمام بالتنظيمات الحكومية الذي لمع في العصر المريني

---

(382) ج 2، ص. 123: ط. مصر.

(383) ص. 147.

(384) هي نسخة جيدة محفوظة بالمكتبة الملكية بالرباط تحت رقم 992.

(385) ج 7، ص. 394.

(386) الباب 36 ـ الفصل الثاني.

(387) نسخة خاصة بمكتبة العلامة الجليل محمد التطواني بسلا.

(388) مصورة الفقيه التطواني السابقة الذكر.

(389) نسخة الخزانة العامة بالرباط، ضمن مجموع يحمل رقم كـ1224.

(390) ج 7، ص. 386 و 392ـ394.

(391) مصورة من النسخة السودية رقم د 1708.

(392) ص. 246ـ247.

(393) **الديباج**، ص 145ـ147.

(394) من المصادر التي تحدثت عن هذا الانقلاب : **نفاضة الجراب**، ج 2، مصورة معهد مولاي الحسن بتطوان رقم 27، مع **العبر**، ج 7، ص. 312ـ314.

الأخير : أن قام أحد كتاب البلاط المريني بوضع موسوعة أثبت فيها الأصول الإسلامية لسائر التنظيمات المعاصرة : إدارية، وعسكرية، واقتصادية، وغيرها، ثم قدمه لمخدومه الملك المريني موسى بن أبي عنان سنة 786هـ/1384م.

والمعني بالأمر هو أبو الحسن علي بن محمد بن أحمد بن موسى بن مسعود الخزاعي الأندلسي ثم التلمساني، نزيل فاس ودفينها، المتوفى سنة 789هـ/ 1387م، ألف كتابه الجليل : «**تخريج الدلالات السمعية، على ما كان في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم من الحرف والصنائع والعمالات الشرعية**»، قال في خطبته :

«وبعد: فإني لما رأيت كثيرا ممن لم ترسخ في المعارف قدمه، وليس لديه من أدوات الطالب إلا مداده وقلمه، يحسبون من دفع إلى النظر في كثير من تلك الأعمال في هذا الأوان مبتدعا لا متبعا، ومتوغلا في خطة دنية، ليس عاملا في عماله سنية، استخرت الله ـ تعالى ـ في أن أجمع ما تأدى إليَّ علمه من تلك العمالات في كتاب يضم نشرها، ويبين لجاهليها أمرها، فيعترف الجاهل، وينصف المتحامل...».

وبعدما صرح بأنه أكمله أول سنة 786هـ/1384م، ذكر أنه قسمه إلى عشرة أجزاء، فيها 178 بابا تشتمل على 156 خطة من الحرف والعمالات والصناعات.

تقع النسخ المعروفة من الكتاب في سفر واحد، غير أنه جاء في إحدى النسخ على هامش آخر الباب الخامس عشر من الجزء الخامس : أن هذا آخر السفر الأول من النسخة التي عليها خط المؤلف، من تجزئة سفرين، وعليها خطه بالحاقات وزيادات ... فعلى هذا يكون أصل وضع الكتاب في سفرين اثنين.

وتعتبر النسخة المشار لها أجود النسخ المعروفة من «**تخريج الدلالات السمعية**»، وهي تقع في مجلد واحد تآكلت أطرافه.

مكتوبة بخط مغربي واضح حسن ملون يميل للخط الأندلسي، مسطرة 32، حجم 200/250، عدد أوراقها 121.

وقع الفراغ من انتساخها أواخر ربيع الثاني من عام 876هـ.

ويوجد على الصفحات الأولى منها ملكيات بخطوط أصحابها :

الأولى : تحمل اسم عبد الله بن أحمد الزياني الثابتي.

الثانية : اسم أحمد بن محمد بن أحمد الحسني.

الثالثة : اسم أحمد بن محمد بن أحمد المقري التلمساني المولد، مؤلف «**نفح الطيب**» وغيره.

الرابعة : اسم عبد الرحمن بن حمدان بن محمد بن علي بن سالم التلمساني.

وتحمل هذه النسخة بالمكتبة الملكية بالرباط رقم 1397.

راجع عن الخزاعي ومؤلّفه مقدمة «**التراتيب الإدارية**»، ج1، ص.28–63.

فليضف هذا الكتاب لسابقه : «**الشهب اللامعة**»، وليضف لهما معا «**الدوحة المشتبكة**» التي سبق الحديث عنها، ومن هذه الموضوعات الثلاثة، نعلم أن الأفكار في العصر المريني الأخير، اتجهت لبحث موضوع تجديد التنظيم الحكومي بالمغرب، فحال دون ذلك الانحدار الذي صارت له الدولة حينئذ، وما التوفيق إلا بيد الله سبحانه.

الفصل الخامس

العلاقات المرينية المشرقية

الفصل الخامس
العلاقات المرينية المشرقية

أولا : العلاقات في العصر المريني الأول

مقدمة

من التقاليد التي انبعثت في العهد المريني، ربط العلاقات ـ على الصعيد الحكومي ـ بين المغرب والمشرق الإسلامي، وفي صدد هذه العلاقات مع مصر بالخصوص، يقول ابن خلدون[395].

«... ولم تزل ملوك المغرب على القدم ولهذا العهد، يعرفون لملوك الترك بمصر حقهم، ويوجبون لهم الفضل والمزية، بما خصهم الله من ضخامة الملك، وشرف الولاية بالمساجد المعظمة، وخدمة الحرمين الشريفين، وكانت المهاداة بينهم تتصل بعض الأحيان، ثم تنقطع بما يعرض في الدولتين من الأحوال».

أ ـ سفارة من مصر إلى المغرب :

والمعروف أن العلاقات المرينية المملوكية إنما ابتدأت في عهد الملك الناصر محمد بن المنصور قلاوون الصالحي، الذي كان يعاصره بالمغرب ـ لأول دولته ـ : أبو يعقوب يوسف بن يعقوب بن عبد الحق المريني كما سيذكر، ولكنا نجد إشارة عابرة

(395) العبر، ج 5، ص. 479.

تفيد قيام هذه العلاقات أيام المنصور قلاوون الصالحي والد لملك الناصر، فقد أورد ابن حجر العسقلاني في «**فتح الباري**»[396] القصة التالية.

«أنبأني غير واحد عن القاضي نور الدين ابن الصائع الدمشقي قال : حدثني سيف الدين فليح المنصوري قال : أرسلني الملك المنصور قلاوون إلى ملك الغرب بهدية، فأرسلني ملك الغرب إلى ملك الفرنج في شفاعة فقبلها...».

فملك الغرب الوارد في هذه القصة، هو اللقب، الذي كان عدد من مؤرخي الشرق الأوسط في هذه الفترة، يستعملونه في حق الملوك المرينيين[397]، وهكذا يكون أحد هؤلاء هو المعني بالأمر هنا، وبالتالي يتضح أن العلاقات المرينية المملوكية ابتدأت من أيام المنصور قلاوون، الذي استقل بالسلطنة على مصر والشام والحجاز من سنة 678هـ/1280م إلى سنة 689هـ/1290م[398].

وحسب هذا التاريخ فقد عاصره اثنان من الملوك المرينيين : الأول : أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق المريني الذي صار ملكا للمغرب من سنة 656هـ/1258م إلى سنة 685هـ/1286م، والثاني ابنه يوسف آتي الذكر وشيكاً.

ولسنا نستطيع أن نعرف ـ بالضبط ـ أحد الملكين المغربيين المعني بالأمر في هذه السفارة، ما دام النص الذي يوردها لا يحدد لها تاريخا، وبهذا سيبقى الأمر مترددا بين الاثنين حتى يتسنى الوقوف على نص توضيحي في الموضوع.

أما هدف السفارة فقد يكون هو توسيط ملك المغرب في حل مشكلة تهم الجانب المصري، وتتصل بعلاقاته مع ملك الفرنج الذي يعني به ملك قشتالة[399]، وقد يدل لهذا قول رواية فتح الباري : «فأرسلني ملك الغرب إلى ملك الفرنج في شفاعة فقبلها».

---

(396) ج 1، ص. 42 ـ ط. مصر سنة 1300هـ، ونقله في **التراتيب الإدارية**، ج 1، ص. 157، وذكر القصة بأبسط مما عند ابن حجر : ابن أبي حجلة في **سكر دان السلطان**، دار الطباعة المصرية بالقاهرة، 1288، ص. 58.

(397) أنظر عن هذا **تتمة المختصر في أخبار البشر** لابن الوردي، ج 2، ص. 253، المطبعة الوهبية بمصر، **والنجوم الزاهرة**، ج 8، ص. 225 وج 9، ص. 290، وج 10، ص. 251 و329، مع **السلوك**، للمقريزي، ج 2، ق 1، ص. 15.

(398) **الأعلام** للزركلي، ج 6، ص. 50 : الطبعة الثانية.

(399) هذا التفسير مأخوذ من **التراتيب الإدارية**، ج 1، ص. 162.

في عهد يوسف بن يعقوب :

ازدهرت العلاقات المغربية المصرية ابتداء من أيام يوسف بن يعقوب، وقد بويع سنة 685هـ/1286م وتوفي سنة 706هـ/1307م، وكان يعاصره في مصر الملك الناصر محمد بن المنصور قلاوون الصالحي، الذي كانت دولته الثانية من سنة 698هـ/1299م إلى سنة 741هـ/1341م.

وكثيرا ما كانت مهمة هذه السفارات حمل الهدايا الملكية إلى سلاطين مصر، مع رسائل مرينية في شأن هدايا البقاع المقدسة وفي التوصية بالحجاج، وفي هذه الحالة كانت تذهب السفارات في رفقة واحدة مع ركاب الحجاج، وهناك بعض سفارات كانت تذهب في أغراض أخرى، ونذكر هنا ثلاث سفارات ذهبت على عهد يوسف، مع سفارة شرقية زارت المغرب في هذا العهد، وسنتحدث ضمن هذه السفارات المغربية عن الركاب الحجية التي رافقت بعضها، بما أن الحديث عنها يتمم خبر السفارة.

ب ـ سفارة سنة 700هـ :

هذه أول سفارة ذهبت من المغرب المريني لمصر المملوكية، وكان الذي قام بها وزير مغربي لم يذكر اسمه ولا موضوع سفارته، والمصدر الوحيد الذي أشار لها هو العبر[400] في الكلمة التالية : (حضر في سنة سبعمائة وزير من المغرب في غرض الرسالة).

ج ـ سفارة سنة 703هـ :

توجهت مع ركب هذه السنة، وكانت غايتها التوصية بحاج المغرب[401]، ولم يرد ذكر اسم السفير القائم بها، أما الركب الذي سار معها فقد كان أول ركب جهزه المرينيون بعدما انقطع ذهابه مدة، بسبب الفتن التي صاحبت نقل الحكم من الموحدين إلى المرينيين، وقد تحدث عن هذا التوقف مصدران معاصران تقريبا : أحدهما شرقي، وهو «**السلوك**»[402] للمقريزي، والثاني مغربي، وهو «**العبر**»[403] لابن

(400) ج 5، ص. 416.
(401) **العبر**، ج 7، ص. 226.
(402) الجزء الثاني ـ القسم الأول ـ ص. 9.
(403) ج 7، ص. 226.

خلدون الذي يسجل هذه الظاهرة هكذا : «... واستجد أهل المغرب عزما في قضاء فرضهم، ورغبوا من السلطان إذنه في السفر إلى مكة، فقد كان عهدهم بعد بمثلها».

وتفيدنا هذه الفقرة أيضا أن إحياء هذا التقليد كان مبعثه الأول رغبة شعبية، وهو أحد مظاهر شعبية السياسة المرينية[404].

وبما أن هذا الركب أول ما بعثه المرينيون، فقد كان يكتسي أهمية خاصة، ولهذا نظمه يوسف تنظيما استمر نموذجا للركاب بعده : فعين له قاضيا هو محمد بن زغبوش أحد أعلام المغرب، وبعث معه فرقة عسكرية لحمايته تناهز 500 من أبطال زناتة[405]، كما بعث معه أموالا كثيرة برسم توزيعها على سكان الحرمين الشريفين : مكة المكرمة والمدينة المنورة[406].

وكان في الركب ـ أيضا ـ جماعة من رجالات الصلاح والعلم، برسم حمل المصحف الشريف الذي أهداه يوسف للحرم المكي، ومن هؤلاء أبو عبد الله القصار كبير علماء المغرب[407]، وأبو عبد الله محمد بن إبراهيم اليقوري دفين مراكش، ويظهر أنه كان المكلف الرئيسي بحمل الربعة القرآنية، فقد ذكر عنه في النفح[408] : أنه قدم إلى مصر ومعه مصحف قرآني حمل بغل، بعثه ملك المغرب ليوقف بمكة، وقد تحدث في «**العبر**»[409] عن هذا المصحف كما يلي :

«...فأمر «يوسف» بانتساخ مصحف رائق الصنعة ؛ كتبه ونمقه أحمد بن الحسن الكاتب المحسن، واستوسع في جرمه، وعمل غشاءه من بديع الصنعة، واستكثر فيه من مغالق الذهب المنظم بخرزات الدرر والياقوت، وجعلت منها حصاة وسط المغلق تفوق الحصيات مقدارا وشكلا وحسنا، واستكثر من الأصونة عليه».

---

(404) أنظر عن هذه الظاهرة الشعبية : آخر الفصل الأول من الباب الثاني.

(405) **العبر**، ج 7، ص. 226.

(406) **روض القرطاس**، ص. 284.

(407) **الترجمان المغرب**، للزياني ـ نسخة خاصة.

(408) ج 1، ص. 353، ط. مصر سنة 1279هـ وأنظر **الديباج المذهب**، ص. 322ـ323 : الطبعة الأولى

(409) ج 7، ص. 226.

وقد وصل هذا المصحف للحرم المكي، وهناك وقف عليه ابن مرزوق حسب «**المسند الصحيح الحسن**»[410] وقال عنه : «وقد رأيت بمكة شرفها الله المصحف الذي بعثه المولى أبو يعقوب بخط ابن حسن، وكان وجهه محلى بالذهب المنظوم بالجواهر النفيسة، فانتزع ما عليه، وبقي في قبة الشراب يقرأ فيه احتسابا، وقد قرأت فيه في أعوام».

أما كاتب هذا المصحف فيظهر أنه أحمد بن حسن البلياني التلمساني، وقد ورد ذكره في «**المسند الصحيح الحسن**»[411].

هذا ومن المفيد أن ننبه إلى وهمين إثنين وقعا في شأن هذا المصحف : الأول ما ذكره المقريزي في السلوك[412] من أن يوسف بعثه مع ركب سنة 704 هـ وهو سبق قلم، فإن ابن الوردي[413] الذي هو أقرب لهذا التاريخ من المقريزي لم يذكر هذا في سنة 704 هـ لما تحدث عن ركب المغرب الوافد في هذه السنة، وابن خلدون[414] إنما ذكر هذا المصحف في سنة 703 هـ، وأقوى من هذا كله وثيقة معاصرة عن المصحف المعني بالأمر، وهي رسالة[415] صادرة عن يوسف المريني إلى كبير أشراف آل أمغار، يلتمس منه فيها أن يعين ثلاثة رجال من بيتهم، ليتوجهوا إلى بلاد الحجاز المشرفة، مع من يتوجه برسم حمل الربعة القرآنية، وكسوة البيت الكريم، وقد أرخت هذه الرسالة في 11 صفر الخير عام 703 هـ.

وتفيد هذه الرسالة ـ أيضا ـ أن يوسف أعلن عن توجيه الكسوة للكعبة المشرفة، وهو شيء انفردت به هذه الوثيقة.

الثاني : جاء في «**الترجمان المعرب**» للزياني : أن يوسف هو الذي تولى بيده كتابة المصحف وتنميقه، وهو سبق قلم أيضا، ومخالف لما ذكره ابن خلدون وابن

---

(410) الباب 55 ـ الفصل السابع.

(411) الباب 26 ـ الفصل الثاني.

(412) الجزء الثاني ـ القسم الأول، ص. 9.

(413) **تتمة المختصر في أخبار البشر**، ج 2، ص. 253، المطبعة الوهبية، القاهرة، 1285هـ.

(414) **العبر**، ج 7، ص. 226.

(415) ورد نص هذه الرسالة في **بهجة الناظر في مناقب أهل عين الفطر : آل أمغار** ـ نسخة خاصة لدى بعض الأشراف الأمغاريين بمكناس.

مرزوق، وقد عاين هذا الأخير مصحف يوسف، وقرأ فيه بنفسه،وأكد أنه بخط ابن حسن.

وبعد هذا نذكر أن من مظاهر علاقات المغرب بشريف مكة في هذا العهد، انه لما عاد هذا الركب في ربيع الأخر سنة 704 هـ، وفد معهم على السلطان المريني، الشريف لبيدة بن صاحب مكة أبي نمي نازعا عن الملك الناصر، لما كان تقبض على أخويه حميصة ورميثة إثر مهلك أبيهم سنة 702 هـ.

وقد استبلغ يوسف في تكريمه، وسرحه إلى المغرب ليجول في أقطاره، ويطوف على معالم الملك وقصوره، وأوعز إلى العمال بتكريمه وإتحافه : كل على شاكلته، ثم رجع إلى حضرة السلطان سنة 705 هـ، وفصل منها إلى المشرق صحبة أحد أعلام المغرب(416).

د ـ سفارة سنة 704 هـ :

لم تعرف بالضبط غاية هذه السفارة، وقد امتازت بالهدية الجليلة التي بعث بها السلطان يوسف للناصر بن قلاوون، وكان السفير الحامل لها هو ايدغدي الشهرزوري علاء الدين، من حاشية يوسف المقربين لديه(417).

أما الهدية فكانت حافلة، فيها عدد من الخيل والبغال والابل، وكثير من ماعون المغرب وسائر طرفه، مع جملة من الذهب العين(418). وقد بلغ عدد الخيل أربعمائة جواد من العتاق بجهازاتها برسم الجهاد(419)، كما أن عدد البغال الفارهة كان أربعمائة أيضا(420)، وممن ذهب مع هذه الهدية أبو الحسن التنسي كبير أهل الفتيا بتلمسان(421).

---

(416) **العبر**، ج 7، ص. 226.

(417) قال المقريزي في **السلوك** الجزء الثاني، القسم الأول، ص. 9 : «وكان إيدغدي هذا لما قبض على يعقوبا في الأيام الظاهرية ـ أيام الظاهر بيبرس ـ فرّ في جماعة من الأكراد إلى برقة، وقدم على أبي يعقوب بهدية، فقرّ به وقدمه حتى صار في منزلة وزير، وحسنت سيرته عندهم، إلى أن بعثه أبو يعقوب بالهدية ليحج».

(418) **العبر**، ج 5، ص. 420.

(419) **روض القرطاس**، ص. 285.

(420) **التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا**، تحقيق الأستاذ محمد بن تاويت الطنجي، ص. 337.

(421) **المصدر الأخير**، ص. 337، هذا وفي **بغية الرواد**، ج 1، ص. 48 توجد ترجمة محمد بن يخلف بن عبد السلام التنسي من أكابر العلماء، وجاء في ترجمته أنه تصرف في الرسالة بين ملوك المغرب والمشرق، وأنه كان محترما لدى أبي يعقوب ملك المغرب، فهل هذا هو الذي عناه ابن خلدون؟

وتوجهت هذه السفارة في رفقة ركب عظيم، عقد السلطان علي دلالتهم لأبي زيد الغفائري، وفصلوا من تلمسان الجديدة ـ مقر الملك إذ ذاك ـ في شهر ربيع الأول سنة 704 هـ[422].

وقد أكرم الملك الناصر السفير المغربي، وأنزل بالميدان، وأجريت عليه الرواتب[423]، كما قابل ركب الحجاج بأبلغ وجوه التكرمة، وبعث معهم أميرا لاكرامهم وقراهم في طريقهم حتى قضوا فرضهم[424]، ومن صدى هذه السفارة والركب في الأوساط المصرية ما كتبه عنها ابن الوردي[425].

«... ثم دخلت سنة أربع وسبعمائة فيها وصل من المغرب كثير، «كذا»، صحبتهم رسول أبي يعقوب يوسف بن يعقوب المريني ملك المغرب، إلى مصر بهدية عظيمة : خيل وبغال نحو خمسمائة، بسروج ولجم ملبسة بالذهب المصري».

ثم في شعبان من سنة 705 هـ عاد الركب ومعه الدليل أبو زيد الغفائري، وتأخر السفير أيدغدي بمصر حتى يأتي مع وفد الهدية الناصرية، ولم تخل هذه العودة من مفاجأة بشأن علاقات المغرب مع مكة المكرمة، فقد كان دليل الركب يحمل معه بيعة أشراف مكة ليوسف المريني، لما اسفهم الملك الناصر بالتقبض على إخوانهم، وأهدوا لسلطان المغرب مع البيعة ثوبا من كسوة الكعبة، شغف به واتخذ منه ثوبا للباسه في الجمع والأعياد، يستبطنه بين ثيابه تبركا به[426]، وإن هذه البيعة مع وفادة لبيدة بن أبي نمى على ملك المغرب قبل هذا، ليدلان على مدى الصيت الذي صار للمغرب المريني في الشرق العربي حينئذ.

هذا ويحسن أن ننبه هنا إلى أن ابن خلدون وهم في تاريخ هذه السفارة في موضعين من العبر، فجعله في ترجمة يوسف سنة 703 هـ، وفي ترجمته التي ذيل بها تاريخه : سنة 700 هـ، وكلا التاريخين سبق قلم، ومخالف لما سجله هو نفسه في ترجمة الملك الناصر من «**العبر**» من أن تاريخ السفارة هو سنة 704 هـ، وهو الذي أثبته كل من ابن الوردي في «**تتمة المختصر**» ثم المقريزي في «**السلوك**».

(422) **العبر**، ج 7، ص. 226.

(423) **السلوك** للمقريزي ـ الجزء الثاني ـ القسم الأول، ص. 9.

(424) **العبر**، ج 5، ص. 420.

(425) **تتمة المختصر في أخبار البشر**، ج 2، ص. 253.

(426) **العبر**، ج 7، ص. 227/226.

هـ ـ السفارة الناصرية سنة 706 هـ :

حسن موقع السفارة والهدية لدى الملك الناصر، فبعث للسلطان يوسف المريني بهدية عين لحملها من عظماء دولته علاء الدين إيدغدي التليلي الشمسي، والأمير علاء الدين إيدغدي الخوارزمي، ومعهما إيدغدي الشهرزوري سفير ملك المغرب[427].

وكانت الهدية حفيلة، فيها من طرف بلاد المشرق ما يستغرب جنسه وشكله من الثياب والحيوان ونحو ذلك : مثل الفيل والزرافة ونحوهما[428]، ولما كان الملك الناصر حديث العهد بالانتصار الذي أحرزه ضد التتر في المصاف الثاني ظاهر دمشق سنة 702 هـ[429]، فقد جعل في الهدية الناصرية أشياء من مغانم هؤلاء، إشهارا لأمر هذا الفتح بالمغرب، وبذلك كان صحبة الهدية عشرون إكديشا من أكاديش التتر، وعشرون أسيرا منهم، وشيء من طبولهم وقسيهم[430].

وقد فصلت السفارة من القاهرة أخريات سنة 705 هـ، ثم وصلت إلى تونس في ربيع الثاني من سنة 706 هـ، وفي جمادى الأخيرة من نفس العام كان وصولها إلى تلمسان الجديدة حيث السلطان المريني[431].

وقد أكبر العاهل المغربي مقدم هذا الوفد، فأركب الناس إلى لقائه، واحتفل للقاء أفراد السفارة، وبرّ وفادتهم، واستبلغ في تكريمهم نزلا وقرى، ثم بعثهم إلى ممالكه بفاس ومراكش ليطوفوا بها ويعاينوا محاسنها.

وفي أثناء هذا مات السلطان أبو يعقوب يوم الأربعاء 7 قعدة سنة 706هـ، وبعد ذلك انطلق السفيران إلى فاس راجعين من رسالتهما، فجهزهما أبو ثابت الملك بعد يوسف، وبالغ في التكرمة والإحسان، وبعث معهما للملك الناصر بهدية

---

(427) **السلوك** للمقريزي ـ الجزء الثاني ـ القسم الأول، ص. 15.

(428) **العبر**، ج 7، ص. 227، **الاستقصا**، ج 2، ص. 41، ط. مصر.

(429) أنظر عن هذه الموقعة **العبر**، ج 5، ص. 417-418.

(430) **السلوك** للمقريزي ـ الجزء الثاني ـ القسم الأول، ص. 15.

(431) إن تحديد تواريخ هذه السفارة مأخوذ من **العبر**، ج 5، ص. 227 ومن رحلة التجاني : نسخة خاصة، وورد في **روض القرطاس**، ص. 298، تحديد تاريخ مقدم السفارة المصرية على يوسف بسنة 705هـ، وهو سبق قلم، لمخالفته لمن ذكر، وبالخصوص التجاني التونسي، الذي مر وفد الهدية على تونس أمام عينه، وسجل ذلك أوائل رحلته محددا التاريخ بالعام والشهر.

أخرى : خيلا وبغالا وإبلا، ثم شيعهما إلى مصر في ركب عظيم من حجاج المغاربة[432].

هكذا سياق «**العبر**» لهذه الهدية ومرسلها، وفي «**الإعلام**»[433] لابن الخطيب تحدث عنها كما يلي :

«وجرت بين الملك المنصور قلاوون «الصواب الناصر محمد بن قلاوون» وبين الملوك الكرام من بني مرين ـ قدسهم الله ـ المهادات، فبعث إليه أمير المسلمين أبو يعقوب هدية مشتملة على خيل عديدة، وبغال رومية، وغير ذلك من الأمتعة، زعموا أن الدواب بين فرس وبغل وجمل بلغت سبعمائة دابة، وكان الذي تولى إيصالها رسول الملك المنصور «الصواب الناصر» عند قفوله بجواب رسالته إليه .. ولما بلغت الهدية إلى المدية من أحواز تلمسان، اتصل بهم خبر مهلك السلطان أبي يعقوب، فسلبتها العرب بذلك الموطن، ولحق الرسول بالمشرق بعد مشقة»[434].

ثانيا : العلاقات أيام السلطان أبي الحسن المريني

يعد عهد السلطان أبي الحسن المريني العصر الذهبي للعلاقات بين المغرب والشرق، وستعتني هذه الدراسة بالبحث في شيء من التبسط عن مظاهر هذه العلاقات، وقد كانت تتمثل في المكاتبات التي لم تنقطع بين أبي الحسن ومعاصريه من ملوك مصر وما والاها : الملك الناصر محمد بن قلاوون، وابنيه الملك الصالح : أبي الفداء إسماعيل، فالملك الناصر حسن، كما كانت تتمثل في الهدايا العظيمة المتبادلة بين الطرفين، وفي السفارات التي كان ملك المغرب يسيرها إلى الشرق منفردة تارة، وبرفقة الركاب الحجازية مرات أخرى، حتى بلغت السفارات التي تحدثت عنها هذه الدراسة تسع سفارات.

ومن خلال هذه السفارات نحاول أن ندرس مظاهر العلاقات الأخوية بين المغرب والشرق لهذا العهد.

---

(432) **العبر**، ج 5، ص. 421 مع ج 7، ص. 227.

(433) نسخة الخزانة العامة بالرباط، رقم 1552 د، ورقة 93.

(434) أنظر ـ أيضا ـ **العبر**، ج 5، ص. 421، و**السلوك** للمقريزي، الجزء الثاني ـ القسم الأول، ص. 49.

و ـ سفارة عام 736 هـ :

هذه أولى سفارات أبي الحسن الشرقية فيما وقفت عليه، ولم يرد حديث مفصل عن هذه السفارة التي باشر أمرها الشيخ أبو عبد الله محمد ابن الجراح، وإنما وقعت الإشارة لرسالتها وجوابها في قطعة صدرت بها الرسالة المغربية لسفارة 737.

وكانت الغاية منها مخاطبة الملك الناصر فيما عزمت عليه والدة أبي الحسن من حج البيت الحرام وزيارة القبر المكرم، والصلاة بالمساجد الثلاثة التي تشد لها الرحال، ثم إعلامه بما كان من أمر تحركاته بالمغربين، وجهاده بالأندلس، وما منحه الله ـ تعالى ـ من نصر لقلوب أهل الإيمان مبهج. ولصدور عبدة الصلبان محرج.

وأجاب الناصر عن المخاطبة المغربية معربا عما حصل له من الابتهاج بما اعتزمته الأميرة المرينية، وأنه متى وقع الشعور بمقدمها على بلاده وقربها من جهاته : يقدم للخروج من يتلقى ركابها، حتى تحمد وجهتها الشريفة بجميل نظره وإيابها.

ذلك ما أشارت له القطعة المذكورة من حديث هذه السفارة التي يترجح إنها وقعت عام 736 هـ، ووالدة أبي الحسن اسمها «العنبر»[435]، ويتحدث في «**المسند الصحيح الحسن**»[436] عن بعض أخلاقها قائلا : فكان فيها من الرأفة والرحمة والشفقة على الخليقة ما قضى منه العجب، فكم جهزت من يتامى، وكم زوجت من أيامي، وكم بذلت من صدقات، وكم أجزلت من صلات، عدا ما كانت تسرده من الصيام، وتهديه من التحف إلى المشاعر الكرام، وبعد ان عزمت على حج بيت الله الحرام، آخترمها دونه الحمام.

ولم يذكر ابن مرزوق تاريخ وفاة هذه الوالدة، الذي لاشك أنه كان بين عامي 736 و737هـ، فإنها في تاريخ هذه السفارة ـ عام 736 ـ كانت لا تزال بقيد الحياة، بينما نجد سفارة عام 737 تنعاها للملك الناصر.

أما القائم بهذه السفارة محمد بن الجراح، فلم أقف له على خبر، وقد يكون شيخ ركب مغربي سار به للحج وقام خلال ذلك بالسفارة بين الملكين.

(435) **روضة النسرين في دولة بني مرين** لابن الأحمر : النص المخطوط.

(436) قطعة منه انتسخها لي مشكورا العالم الأستاذ عبد الوهاب بن منصور من مصورته عن مخطوطة الإسكوريال وذلك من عام 1951.

ز ـ سفارة عام 737 هـ :

يحدد تاريخ هذه السفارة بأنها وقعت إثر توحيد المغربين أيام أبي الحسن[437]، ولاشك أن تاريخ ذلك كان في 27 رمضان من عام 737هـ، فتكون السفارة ذهبت بعيد هذا التاريخ.

وقد كتب أبو الحسن للناصر بن قلاوون يعرفه بفتح تلمسان، وارتفاع العوائق عن ركب الحجاج في طريقهم، وكان سفيره في ذلك فارس ابن ميمون بن وردار، ثم عاد السفير بجواب الكتاب، وتقرير المودة بين الجهتين، هذا ما كتبه ابن خلدون وصاحب «**الاستقصا**»[438] عن هذه السفارة.

ومن حسن الحظ أن يكون كتاب «صبح الأعشى» قد احتفظ بالرسالتين المتبادلتين بين الملكين في هذا الصدد[439]. وها هي خلاصة وجيزة لهما فيما يلي :

تفتتح رسالة أبي الحسن بالإشارة إلى القطعة التي تتحدث عن سفارة عام 736، وبعد ما تنعى للملك مصر والدة أبي الحسن تقول :

«وأما تشوق ذلكم الإخاء، لمواصلة الكتب بسار الأنباء، فإن من أقربها عهدا... ما كان من أمر أبي تاشفين صاحب تلمسان...»، ومن هنا تدخل الرسالة لصميم موضوع السفارة الذي تخلله بالحديث عما قامت به الجيوش المغربية من أعمال بالمغربين والأندلس.

فإن صاحب الأندلس ابن الأحمر لما استصرخ أبا الحسن على أعدائه، بعث معه هذا الأخير ولده في أربعة آلاف من الأبطال الذين نازلوا جبل طارق حتى فتحوه، وأناب طاغية النصارى للسلم وإسقاط ضريبته على مسلمي الأندلس، بعد ما كانوا يعطونه ما ينيف على الأربعين ألفا من الذهب في العام، ضريبة ألزمهم الطاغية أداءها.

وبعد هذا الانتصار اعتنى أبو الحسن بتحصين الجبل، مبتدئا من تحصين أسواره وأبراجه بما يغدو على جبينه تاجا وإكليلا.

---

(437) **تاريخ ابن خلدون** (7) 264، **الاستقصا**، (2) 61، ط. مصر.

(438) في المصدرين والصفحتين الآنفي الذكر.

(439) رسالة أبي الحسن واردة بـ**صبح الأعشى** (8) 87–99، ورسالة الملك الناصر بنفس المصدر (7) 395–407.

وتتوسع الرسالة كثيرا في الحديث عن توحيد المغربين الذي تيسر به القصد إلى البيت الحرام، وجعل صاحب المغرب يفرغ للجهاد بالأندلس الذي هو الفضيلة المذخرة لهذه الدولة...

أما رسالة الملك الناصر، فبعدما افتتحت بتقديم التعزية الحارة في والدة عاهل المغرب، تمنت أن لو قدمت ليتلقاها من ملك الشرق زائد الإكرام، ثم أعلنت أنه من ورد من جهة ملك المغرب فإن ملك مصر يقابله بما به يليق، ويبلغه في حرز السلامة من الركب السلطاني أمله من قضاء المناسك والتطواف بالبيت العتيق.

ثم لخصت بقية فصول الرسالة المرينية، وعلقت على ما أحرزه الجيش المريني من الظفر في الأندلس، بأن ذلك عزة إسلامية جدد الله ـ تعالى ـ على يد المقام بذلك القطر صدورها.

وذكرت أن والد أبي الحسن كان في كل آونة يخبر الملك الناصر بمثل هذا الفتح، ويذكر ما نال من جزيل المنح، وتلك شنشنة يعرفها من أخزم، وسنة سلك فيها الشبل الصائد سنن ذلك الضيغم الأعظم.

ثم قالت الرسالة المصرية : «وحيث سلك المقام سنن والده الشهيد، قضى الود أن نتحفه من أحاديث جيشنا بما يشنف سمعه»، وهنا تقص الرسالة خبر غزو الجيوش الناصرية لملك الأرمن النصارى الذي تسميه بمتملك سيس، بما ظهر في هذا المتملك من المراوغة في أداء الجزية، ومطالبته بتنقيص بعض المقرر، فأنهض إليه الملك الناصر جيوشه الأبطال، والمجاهدين الأبرار، الذين جاسوا خلال تلك الديار، وما برحوا كذلك حتى نازلوا البلد المسمى بآياس، وحاصروه حتى أدعنوا للسلم، وطاع ملكهم بأداء ما عليه من الجزية، وتسليم قلاع معدودة لنواب الملك الناصر، واستقرار ما عليهم من القطيعة، وعقد الهدنة على أمور محببة عند المسلمين، فظيعة لدى أهل الكفر.

هذا بعد أن استولت الجيوش الناصرية على قلاع لهم وحصون، وطلعت الأعلام الإسلامية على قلعة آياس، وأعلن فيها بالأذان، وكان الجيش الناصري أخذ قبل ذلك قلعة تسمى بكاوَرّا.

ولما طولع الملك الناصر بهذا الخبر السار، من على القوم بالأمان، وتقدم إلى

نوابه بالكف عن قتالهم بعد تسليم القلاع، وهدم الأسوار التي كان بها لأهل الكفر الامتناع، وبعد ذلك ورد عليه كتاب بعض نوابه بالأطراف من أولاد قرمان : بأنهم عند عودهم من سيس أخذوا للكفر تسع قلاع، فتكمل المأخوذ في هذه السفرة وما قبلها خمس عشرة قلعة، وأخيرا تختتم الرسالة بالرغبة التالية :

«ونحن نرغب إلى المقام أن يواصل بكتبه المفتتحة بالوداد، المشتملة على النصرة على أهل العناد، المشحونة بمواقع الفتح والظفر التي تتضاعف ـ إن شاء الله تعالى ـ وتزداد. المحتوية على الطارف من الإخلاص والتلاد، المتصل سببها بين الآباء الكرام ونجباء الأولاد».

والآن وقد تمت خلاصة الرسالتين نقفي عليهما بما يلي :

أ) فارس بن ميمون بن وردار القائم بأمر هذه السفارة من عرب الحشم، وصار في أيام أبي عنان وزيرا له، وكلفة بقيادة الجيش الذي ذهب إلى افريقية، ثم لما تآمر ضده في هذه الرحلة قتله عند رجوعه لفاس، في 13 حجة من عام 758هـ(440).

ب) وقع في «**صبح الأعشى**» ج7 لدى تقديم الرسالة الناصرية : أنها جواب عن الرسالة الصادرة من ابن أبي الحسن، ولا شك أن زيادة كلمة «ابن» ـ هنا ـ سبق قلم : إما من المؤلف أو الناشر، فالرسالة الناصرية ـ في أثنائها ـ تسمى المخاطب بها عليا، ثم تكنيه بأبي الحسن وتكنى والده بأبي سعيد، وأيضا فصاحب «**الصبح**» لما ذكر ج 8 هذه الرسالة المغربية نسبها لأبي الحسن نفسه.

ح ـ رسالتان من الناصر يحملهما مبعوثان :

بعثهما لأبي الحسن صحبة الشيخين الأجلين : أبي محمد عبد الله بن صالح، والحاج محمد بن أبي لحان، وذلك أثناء رجوعهما من الحج فيما يظهر.

ولم أقف على تفصيل موضوع الرسالتين، وإنما وقعت الإحالة عليهما في قطعة وردت صدر رسالة الناصر لأبي الحسن الآتي الحديث عنها في سفارة 738، ويؤخذ من تلك القطعة أن موضوع الرسالتين كان في شفاعة أو نحوها، إذ تقول الرسالة الناصرية في هذا الصدد :

---

(440) أنظر تاريخ ابن خلدون (7) 297ـ298، وروضة النسرين خ.

«فأما ما ذكره (أبو الحسن) من ورود الكتابين الواصلين إلى حضرته صحبة الشيخين الأجلين أبي محمد عبد الله بن صالح، والحاج محمد بن أبي لحان، وأنه أمضى حكمهما، وأجرى رسمهما، فقد آثرنا للأجر حوزه، واخترنا بالشكر فوزه، وقصدنا بهما تجديد جلباب الوداد، وتأكيد أسباب الولاء على البعاد، وإلا فمع وجود إنصافه، الحقوق من غاصبها تستعاد، والوثوق بنصره للمظلوم وقهره للظالم لا يختلف فيه اعتقاد، وقد شكرنا لكم ذلك الاحتفال، وآثرنا حمدكم في المحافل والمحال».

ولم يتبين تاريخ الرسالتين بالضبط، إنما يعلم أنهما لم تقع الاشارة لهما في رسالة أبي الحسن الآنفة الذكر، والتي تاريخها بعيد 27 رمضان عام 737، ولا في جوابها، بينما ورد التلويح لهما في رسالة أبي الحسن الآتية، والمؤرخة في 25 من ربيع النبوي عام 738هـ، وفي جوابها، وعلى هذا تكون رسالتا الناصر وردتا على أبي الحسن بين التاريخين المذكورين.

وأول حاملي الرسالتين : أبو محمد عبد الله بن صالح : يمكن أن يكون من بيت أبي محمد صالح، ويكون هو الفقيه الخطيب حاج بيت الله الحرام : أبو محمد عبد الله بن يحيى بن ابراهيم، حفيد الشيخ الإمام أبي محمد صالح، وأخ أبي العباس أحمد العلامة الجليل مؤلف «**المنهاج الواضح**»، وقد بقي أبو محمد هذا على قيد الحياة إلى أيام السلطان موسى بن أبي عنان المريني، الذي نقله من رباط آسفي إلى مراكش، وولاه الخطابة وإمامة الخمس بمسجد باب أغمات، وأنعم عليه بإنعامات واسعة[441]، أما رفيقه الحاج محمد بن أبي لحان فلم أقف له لحد الآن على ترجمة.

ط ـ سفارة عام 738 هـ :

وقعت هذه السفارة ضمن ركب مغربي جليل، ارتبط حديثه بها ارتباطا لا نرى معه بدا من التحدث عن الركب قبل أن نتناول موضوع السفارة.

وقد طارت لهذا الركب شهرة فائقة بالمغرب والشرق، بما كان فيه من الربعة الكريمة التي بعثها ملك المغرب للمسجد النبوي المكرم، ومن حج الأميرة المرينية حظية والد أبي الحسن، ثم ما صحبه ذهابا وإيابا من الهديتين العظيمتين المتبادلتين بين ملكي المغرب ومصر وما والاها، وما كان من احتفال الملكين به الاحتفال الشيق.

(441) استفدت خبر هذا من بعض المقيدات التاريخية.

وكانت قصة تسيير هذا الركب، أن أبا الحسن ـ لما توحد المغربان وارتفعت العوائق عن طريق الحاج ـ أجمع على كتابة نسخة من المصحف الكريم بخط يده، لتكون وقفا خالصا منه على المسجد النبوي المعظم، فانتسخها بخطه لهذه الغاية، وجمع الوراقين لتذهيبها وتنميقها، والقراء لضبطها وتهذيبها، حتى اكتمل شأنها، ثم صنع لها أوعية متعددة، متنوعة فائقة الصنعة(442)، وكانت محل والدة أبي الحسن ومربيته الحرة مريم اقتضت منه الوعد بالحج...(443).

ذلك كان سبب بعث هذا الركب للبقاع المقدسة، على أن معظم القصد كان هو بعث المصحف الشريف(444)، ولذلك كله كان هذا الركب موضوع احتفال كبير بالمغرب والشرق.

فقد كان من اهتمام أبي الحسن به أن بعث فيه وجهاء بني مرين وأعيان العرب، ورجال الدين والصلاح، وكل من له شهرة بمزية، كما بعث في رفقة الأميرة المرينية عددا من نساء الدولة واحظيائها(445)، وانضاف لهؤلاء وأولئك جماعات كثيرة جدا سارت معهم برسم الحج(446). الأمر الذي جعله ركبا عظيما للغاية.

وإلى جانب الربعة الشريفة التي حملها هذا الركب للمسجد النبوي الكريم، بعث أبو الحسن لملك مصر والحرمين الشريفين بهدية عظيمة كانت حديث المجالس في المغرب والشرق، وأفاض عاهل المغرب من كرمه على الركب، فأعطى للأميرة المرينية 3500 دينار ذهبي، كما أعطاها 16.500 دينار ذهبي برسم شراء الرباع بالمدينة المنورة، لتكون وقفا مؤبدا على القراء في الربعة الكريمة، وعلى غيرهم من المالكية، وأعطى لقاضي الركب 300 دينار ذهبا وكسوة رفيعة، ولقائده 400 دينار منه وكساوي متعددة ومراكب (بغلات)، وللرسول الحامل للهدية 1.000 دينار منه، ولشيخ الركب 500 دينار منه، ولجماعة الضعفاء من الحجاج 600 دينار منه، وبرسم العطاء للعرب 3.800 دينار منه و«200» كسوة، هذا إلى العدد الكثير

(442) **تاريخ ابن خلدون** (7)، 264–264، **الاستقصا**، (2)، ص. 62 : الطبعة المصرية.
(443) **تاريخ ابن خلدون** (5) 440–441.
(444) ذلك ما تشير له رسالة أبي الحسن الآتية خلاصتها.
(445) أنظر رسالة أبي الحسن الآتية خلاصتها.
(446) **المسند الصحيح الحسن**.

من الذهب العين برسم الوصفان والخدام[447]، وفوق ذلك بالغ أبو الحسن في رسالته[448] للملك الناصر في التوصية بالحجيج، حتى يسهل طريقه في ذهابه وإيابه، مع الرغبة في إيصال المصحف الكريم للمسجد النبوي المعظم.

ثم فصل الركب من تلمسان بعيد يوم الخميس 25 ربيع النبوي عام 738هـ، إذ ذاك هو تاريخ رسالة أبي الحسن للملك الناصر، ووصل الركب لمصر في 22 رمضان من العام 738[449]، فاستبلغ ملكها في حسن الاستقبال والاحتفال، حسبما تصف ذلك رسالة الناصر لأبي الحسن وتقول :

«... فقد استقبلناهم (أهل ركب المغرب) على بعد بالإكرام، وأحللناهم من القرب في أعلا مقام، وصرفنا إلى تلقائهم وجه الاقبال والاهتمام، وعرفنا حقهم أهل الإسلام، ونشرنا لهم بفنائنا الأعلام، ويسرنا لهم باعتنائنا كل مرام، وأمرنا بتسهيل طريقهم، وتوصيل البر لفريقهم، وأسدلنا الخلع على جميعهم، واحتفلنا بهم في قدومهم ومقامهم وتشييعهم، وأجزلنا لهم أقسام الإنعام في توجيههم، وكذلك يكون في رجوعهم»، ثم تقول الرسالة الناصرية :

«وسطرناها وركبكم المبارك قد رامت السرى نجائبهم، وأمت أم القرى ركائبهم، يسايرهم الأمن ويصاحبهم ... فقد أعدت لهم المير في جميع المنازل، وشدت لهم الهجان البوازل ... ووكلت بهم الحفظة في المخاوف، ونصبت لهم الأدلة في المجاهل ... وشوهد من تعظيمنا لهم ما يحسدهم عليه ملوك الزمان، بكل مكان، وكتبنا ــ على أيديهم ــ إلى أمراء الأشراف بالنهوض في حقهم والوقوف ... وكذلك كتبنا إلى أمراء المدينة المشرفة أن تتلقى بالقبول الحسن مصحفه، وتحله بين الروضة والمنبر وتجله ... وعما قليل يتم حجهم واعتمارهم، ويؤم طيبة الطيبة العاطرة زوارهم ... ثم يعودون إلينا فنعيد لهم الصلات ... ثم يصدرون ــ إن شاء الله تعالى ــ إليكم ركائبهم بالمنح مثقلات، ومطالبهم بالمناجح مكملات».

---

(447) **المصدر الأخير**، مع **مختصر الإحاطة**، مصور المكتبة العامة بالرباط رقم 1707 د، لوحة 197، ثم رسالة أبي الحسن المشار لها وشيكا.

(448) سيأتي هذا البحث على خلاصتها.

(449) هذا التاريخ حدده المقريزي في **السلوك**، الجزء الثاني من القسم الثاني، ص. 447.

وبعد الرسالة الناصرية، ها هو مؤرخ مصر المقريزي في كتابه «**السلوك**»[450] يصف استقبال الملك الناصر لهذا الركب، ويفصل كثيرا من مظاهر احتفاله به ويقول:

«وكان قد خرج المهمندار إلى لقائهم، وأنزلهم بالقرافة قريب مسجد الفتح، وهم جمع كثير جدا ... ثم نقلت الحرة إلى الميدان بمن معها [وفرقهم (الناصر) في منازله، وأنزلهم دار كرامته، وقد هيئت بالفرش والماعون][451]، ورتب لها من الغنم والدجاج والسكر والحلواء والفاكهة في كل يوم ـ بكرة وعشية ـ ما عمهم وفضل عنهم، فكان مرتبهم كل يوم عدة ثلاثين رأسا من الغنم، ونصف أردب أرزا، وقنطار حب رمان، وربع قنطار سكرا، وثمان فانوسيات شمعا، وتوابل الطعام، وحمل إليها برسم النفقة مبلغ خمسة وسبعين ألف درهم، وأجرة حمل أثقالهم مبلغ ستين ألف درهم، ثم خلع على جميع من قدم مع الحرة[452]، فكانت عدة الخلع مائتين وعشرين خلعة: على قدر طبقاتهم، حتى خلع على الرجال الذين قادوا الخيول، وحمل إلى الحرة من الكسوة ما يجل قدره، وقيل لها : أن تملي ما تحتاج إليه ولا يعوزها شيء، وإنما تريد عناية السلطان إكرامها وإكرام من معها حيث كانوا، فتقدم السلطان إلى النشو[453] وإلى الأمير أحمد أن يعثا بتجهيزها اللائق بها، فقاما بذلك واستخدما لها السقائين والضوئية، وهيئا كل ما تحتاج إليه في سفرها من أصناف الحلاوات والسكر والدقيق والبجماط، وطلبا الحمالة لحمل جهازها وازودتها، وندب السلطان للسفر معها جمال الدين متولي الجيزة، وأمره أن يرحل بها في مركب لها بمفردها قدام المحمل، ويمتثل كل ما تأمر به، وكتب لأميري مكة والمدينة بخدمتها أتم خدمة».

هذا وحسبما يستفاد من لائحة منح أبي الحسن لهذا الركب، فقد كانت هيئته العليا تتألف من قاض وقائد وشيخ للركب، ولم يسم «**المسند الصحيح الحسن**» ـ

(450) الجزء الثاني من القسم الثاني، ص. 447ـ448، ونقل كلام **السلوك** هذا في **النفح** (2)، ص. 548، و**الاستقصا**، (2) ص. 63، ط. مصر.

(451) ما بين المنعكفين مدرج من كلام ابن خلدون في **تاريخه** (5) ص. 441.

(452) الظاهر أن المراد جميع من قدم معها من حاشيتها.

(453) هو شرف الدين عبد الوهاب بن التاج فضل الله المعروف بالنشو، ناظر الخاص الشريف، والمقتول عام 740، أنظر **النجوم الزاهرة**، (9)، ص. 139.

المنقول عنه جل تلك اللائحة ـ من أفراد هذه الهيئة سوى شيخ الركب، وأبهم اسم من عداه من القاضي والقائد.

والظاهر أن قاضي هذا الركب هو أبو إسحاق إبراهيم بن عبد الرحمن ابن أبي بكر التسولي التازي ثم الفاسي المعروف بابن أبي يحيى ؛ أحد سفراء هذا الركب للملك الناصر حسبما سيذكر، ومستندي في ذلك أن «**المسند**» يذكر في اللائحة المشار لها أن أبا الحسن أعطى لقاضي الركب 300 دينار وكسوة، بينما يذكر «**مختصر الإحاطة**»(454) في لائحة منح أبي الحسن لهذا الركب : إنه أعطى أبا إسحاق بن أبي يحيى 300 دينار من الذهب وكسوة رفيعة، ومما يؤيد هذا أن أبا إسحاق المذكور كان شخصية لامعة في الفقه المالكي تدريسا وتأليفا كما يعلم مما سيذكر عنه بعد.

أما قائد الركب فالظاهر أنه هو أبو سعيد عثمان بن يحيى بن محمد بن جرار التلمساني. من أعيانها، ذكر عنه ابن خلدون(455) : أنه استأذن السلطان (أبا الحسن) عند تغلبه على تلمسان في الحج بالناس فأذن له، ثم كان قائد الركب من المغرب إلى مكة سائر أيامه حتى استولى أبو الحسن على أعمال الموحدين ... وكانت وفاته في رمضان عام 749هـ، وله ترجمة الدرر الكامنة(456).

والوحيد الذي عينه «**المسند**» من هيئة هذا الركب، هو شيخه وأميره الذي سماه أحمد بن يوسف بن أبي محمد صالح، وهو اسم شهير في مشيخة ركب الحاج المغربي، حسبما ذكره بهذه الخطة ابن الخطيب في «**نفاضة الجراب**»، بل إن عائلته كانت لها عراقة في إمارة هذا الركب(457)، ومع ذلك فلم يكن ابن أبي محمد صالح هذا شيخا لهذا الركب، وإنما كان شيخه وأميره هو الحسن بن عمران كما صرحت بهذا رسالة أبي الحسن للملك الناصر المكتوبة في شأن هذا الركب وسفارته، والآتية خلاصتها وشيكا.

ومن هنا يتبين أن جعل أبي العباس، ابن أبي محمد صالح شيخا لهذا الركب سهو ظاهر من صاحب «**المسند**»، سرى له من كون المذكور موسوما بإمارة ركب المغرب، وتداولها في بيتهم.

---

(454) مصور المكتبة العامة بالرباط رقم 1707. لوحة 197.

(455) **في تاريخه** (7)، ص. 114-115.

(456) (2)، ص. 452.

(457) **آسفي وما إليه**، ص. 100.

وبحكم وظيفة الحسن بن عمر أن شيخ الركب، فقد كان ـ هو وأبو إسحاق بن الشيخ أبي زكرياء يحيى بن عثمان السويدي ممن عينهما أبو الحسن لتقديم محل والدته للملك الناصر[458].

سفارة الركب

وضمن هذا الركب كانت السفارة التي أوفدها أبو الحسن إلى الملك الناصر برسالته التي تشرح مهمتها، وبالهدية المغربية العظيمة. وبالغ أبو الحسن في انتقاء أفراد هذه السفارة من خواص مجلسه، وكبار أهل دولته، وهم : «1» السفير المغربي الشيخ أبو إسحاق إبراهيم بن أبي زيد عبد الرحمان المعروف بابن أبي يحيى[459] من أعيان القضاة، وهو المذكور فيما مر قاضيا للركب، و«2» الحاجب المريني أبو زيان عريف بن أبي زكرياء يحيى السويدي، أمير زغبة من عرب بني هلال[460]، و«3» خاصة مجلس أبي الحسن عطية بن مهلهل بن يحيى : كبير أخواله : من عرب الخلط، و«4» كاتبه أبو الفضل محمد بن أبي عبد الله محمد بن أبي مدين العثماني، و«5» عريف الوزعة ببابه الشيخ أبو محمد عبد الله دعى عبو بن قاسم المزوار[461].

وذهبت السفارة مع الركب حتى وصلت للملك الناصر، وأدت له الرسالة والهدية المغربيتين، وهنا نقف لنتحدث عن محتويات كل من الرسالة والهدية، أما الرسالة فخلاصتها ـ حسب الوارد منها في «**صبح الأعشى**»[462] هو ما يلي :

«... فإنا : (أبا الحسن) نحيط علم الإخاء : (الناصري) ما كان من عزم المولاة الوالدة على أداء فريضة الحج، فاعترض الحمام، دون ذلك المرام، وأن لدينا من نوجب إعظامها، ونقيمها ـ بحكم البر ـ مقامها، وعزمها إلى ما أملته مصروف، وهي محل الوالدة المكرمة، وقد شيعناها إلى حج بيت الله الحرام، والفوز من السلام، على الرسول عليه وآله الصلاة والسلام، بنيل السول والمرام.

---

(458) هذا أفصحت عنه رسالة أبي الحسن الملك الناصر.

(459) أنفردت بذكره الرسالة الناصرية الآتية خلاصتها بعد.

(460) هذا مع الكاتب ابن أبي مدين اتفقت عليهما الرسالة الناصرية مع **تاريخ ابن خلدون** (7) ص. 265، **والاستقصا** (2) ص. 62.

(461) هذا مع عطية بن مهلهل، انفرد بهما **تاريخ ابن حلدون والاستقصا**.

(462) ج 8، ص. 99–103.

وحين شخص لذلكم الغرض موكبها، أصحبناها من حور دولتنا وأحظيائها، ووجوه دعوتنا وأوليائها، من اخترناه لهذه الوجهة الحميدة الأثر، من أعيان بني مرين والعرب، وأولاد المشايخ أولى الديانة والتقوى، وكل من له أثرة مشهورة، وقصدهم من أداء الحج قصدها.

وهكذا سيرنا من تحف هذه البلاد إليكم ما تيسر في الوقت تسييره، وإن تعذر في كثير مما قصدناه ولهذا الغرض أردناه تيسيره، لطول المغيب عن الحضرة، والشغل بتمهيد البلاد التي فتحها الله تعالى علينا في هذه السفرة، وعينا لإيرادها (محل الوالدة) لديكم، وإيفادها عليكم : أبا إسحاق ابن الشيخ أبي زكرياء يحيى بن عثمان السويدي، وأمير الركب الحسن بن عمران وغيرهم.

ومقام ذلك الإخاء الكريم يسنى لهم من اليسري والتسهيل القصد والسول، ويأمر نواب ماله من الممالك لتكمل العناية بهم في الممر والقفول.

ومعظم قصدنا من هذه الوجهة المباركة، إيصال المصحف العزيز ـ الذي خططناه بيدنا، وجعلناه ذخيرة يومنا لغدنا ـ إلى مسجد سيدنا ومولانا، وعصمة ديننا ودنيانا، محمد رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ بطيبة زادها الله تعالى تشريفا، وأبقى على الأيام فخرها منيفا.

وقد عينا بيد محل الوالدة المذكورة من المال ما يشتري به في تلكم البلاد المحوطة من المستغلات ما يكون وقفا على القراءة فيه، مؤبدا ـ عليهم وعلى غيرهم من المالكية ـ فوائده ومجانيه.

والإخاء المذكور يتلقى من الرسل المذكورين ما إليهم في هذه الأغراض ألقيناه، ويأمر بإحضارهم لأدائهم ـ بالمشافهة ـ ما لديهم أوعيناه، ويوعز بإعانتهم على هذا الغرض المطلوب، وييسر لهم أسباب التوصل إلى الأمل والمرغوب».

وبعد خلاصة الرسالة المغربية نذكر أن هدية ملك المغرب للملك الناصر كانت جليلة، فقد قدرت قيمتها بمصر بما يزيد على 100.000 دينار مصري، وبعث ملك مصر من اصطبلاته لحملها ثلاثين قطارا من بغال النقل، سوى ما تبعها من البخاتي والجمال(463).

---

(463) **السلوك**، للمقريزي، الجزء الثاني، القسم الثاني، ص. 44، مع **تاريخ ابن خلدون** (5) ص. 441.

وإني مورد عن هذه الهدية ما ذكره ابن خلدون في «تاريخه» وفي «التعريف بنفسه»، ثم أتبع ذلك ببرنامج لهذه الهدية يفصل ما عند ابن خلدون ويزيد عليه، وقد اعتمدت في سياق هذا البرنامج على ثلاث مصورات من «**اختصار الإحاطة**»[464]، قابلت نصوصها بعضها ببعض، واستخرجت من مجموعها النص الذي أثبته هنا، ثم قابلت هذا المستخرج على نصي «**المسند**»[465] و«**السلوك**»[466] عن هذه الهدية، فما وجدت فيهما من زيادات خللت بها نص «**اختصار الإحاطة**»، واضعا لها بين معقوفين، وما كان فيهما من مخالفات نبهت عليه في التعليق، قال ابن خلدون في تاريخه[467] :

«ووقفت على برنامج الهدية بخط أبي الفضل ابن أبي مدين أحد رسل أبي الحسن للناصر، ووعيته وأنسيته، وذكر لي بعض قهارمة الدار أنه كان فيها خمسمائة من عتاق الخيل المقربات بسروج الذهب والفضة، ولجمها : خالصا ومغشي ومموها، وخمسمائة حمل من متاع المغرب وماعونه وأسلحته، ومن نسيج الصوف المحكم : ثيابا، وأكسية، وبرانس، وعمائم، وأزرا : معلمة وغير معلمة، ومن نسيج الحرير الفائق المعلم بالذهب : ملونا وغير ملون، وساذجا، ومنمقا، ومن الدرق المجلوبة من بلاد الصحراء المحكمة بالدباغ المتعارف وتنسب إلى اللمط[468]، ومن خرثي المغرب وماعونه وما تستظرف صناعته بالمشرق، حتى لقد كان فيها مكيل من حصى الجوهر والياقوت».

---

(464) هذه المصورات الثلاث هي : النصف الثاني الموجود من **اختصار الإحاطة** للبقني، المحفوظ بمكتبة الإسكوريال تحت رقم 1673 من قائمة ليفي بروفنصال، والموجود منه نسخة مصورة بالمكتبة العامة بالرباط رقم 1582؛ مع اختصار آخر للإحاطة مجهول المؤلف. يوجد منه نسختان مصورتان بمكتبة الرباط رقم 1707 ورقم 1578، وكلام الاختصار المذكور عن هذا البرنامج ورد في ترجمة أبي الحجاج يوسف بن اسماعيل ابن نصر أحد سلاطين مملكة غرناطة.

(465) لابن مرزوق، وقد نقل كلامه في الموضوع في **النفح** (2) ص. 547–548، المطبعة الأزهرية المصرية، و**الاستقصا** (2) ص. 62–63 : الطبعة المصرية.

(466) للمقريزي.

(467) (7) ص. 265.

(468) في كتاب **البلدان** لابن الفقيه الهمذاني : «وأهل لمطة أصحاب الدرق ينقعونها في اللبن حولا مجردا فينبو عنها السيف، وإن قطع السيف منها شيئا نشب السيف في الدرقة ولم يمكن أن ينزع من الدرقة، والدرقة اللمطية ليس عليها قياس»، ص. 32 و34، طبع الجزائر، 1949.

وقال في التعريف[469]

«واحتفل فيها (أبو الحسن في الهدية) ما شاء، وانتقى من الخيل العتاق والمطايا الفره وقماش الحرير، والكتان، والصوف، ومدبوغ الجلود الناعمة، والأواني المتخذة من النحاس، والفخار المخصوص كل مصر من المغرب بأصناف من صنائعها : متشابهة الأشكال والأنواع. حتى لقد زعموا أنه كان فيها مكيلة من اللآلئ والفصوص، وكان ذلك وقر خمسمائة بعير، وكانت عتاق الخيل فيها خمسمائة فرس بالسروج الذهبية المرصعة بالجواهر، واللجم المذهبة، والسيوف المحلاة بالذهب واللآلئ، كانت قيمة المركب الأول منها عشرة آلاف دينار، وتدرجت ـ على الولاء ـ إلى آخر الخمسمائة فكانت قيمته مائة دينار».

وبعد كلام ابن خلدون ها هو نص ابن الخطيب عن برنامج الهدية الذي توسع في الموضوع عن سابقه وقال :

نسخة العقد الذي يتضمن هدية السلطان أبي الحسن إلى صاحب الديار المصرية صحبة الربعة الكريمة بخطه، [وهو الذي وقعت الشهادة فيه على متولي قبض الهدية من خدامه][470].

وذلك قبة من مائة بنيقة[471] وفيها أربعة أبواب، وقبة أخرى من ستة وثلاثين بنيقة داخلها حلة[472] مغلوقة[473]، جوفها حرير أبيض، ووجهها حرير أبيض، وركيزها[474] آبنوس وعاج مرصع، واكبار[475] [هامن] فضة مذهبة، والشرائط حرير [ملون]. ضربت القبتان بالصفصيف[476] وحل فيها جميع الهدية، وصففت جميع

---

(469) ص. 338.

(470) هذه الفقرة الأخيرة مزيدة من **أعمال الأعلام**، لابن الخطيب، حيث أثبت فيه هذه الهدية، ورقة 98 من النسخة المحفوظة بالمكتبة العامة بالرباط، رقم 1552 د.

(471) البنيقة في الاصطلاح المغربي تطلق على البيت الصغير المحجر، والقصد هنا إلى الواحد من أشكال البيوت الصغيرة، التي تتألف منها الستائر الحائطية، واحدها حيطي.

(472) يظهر من سياق هذا العقد أن الحلة صنف مخصوص من الثياب وسيذكر من أصناف الهدية فرشة حلة.

(473) بالغين المعجمة في نسخة 1707 من **مختصر الإحاطة**، وفي نسجة 1582 منه : محلوقة بالحاء المهملة، وفي نسخة 1578 منه مخلوقة بالخاء المعجمة، وعبارة (م)* في هذا : مبطنة بغلة مذهبة.
(*) الميم : إشارة للمسند الصحيح الحسن.

(474) في (م) وعمودها.

(475) يمكن أنه يقصد بالإكبار التفاتيح في أعلى القبة.

(476) كذا في نسخة 1707 وفي نسخة 1578 بالصيصف.

الدواب بجهازاتها أمام القبة : من الخيل : ثلاثمائة وخمسة وثلاثون[477]، من البغال بين ذكور وإناث : [مائة وعشرون][478]، ومن الجمال : سبعمائة، إلا أنها لم تصفف بل أعدت لحمل الهدية[479]، ومن البزاة الأحرار : أربعة وثلاثون[480]، ومن أحجار الياقوت : مائتان وخمسة وعشرون[481]، ومن قصب الزمرد : مائة وثمانية وعشرون، ومن حبوب الجوهر الفاخر أكثره : ثلاثة آلاف وأربعة وستون[482]، ومن أحجار الزبرجد : (مائة و) ثمانية وعشرون، ومن (السيوف) المهندات (المحلاة) بحلية الذهب (المنظم بالجوهر) : عشرة، (وفيها سيف قرابه ذهب مرصع، مع حياصة[483] ذهب مرصع[484]، ومن أزواج مهاميز الذهب : عشرة، (والسروج : عشرة)، ومن أزواج الأركب : عشرة : واحد كله ذهب، وثلاثة كلها فضة، وستة مزججة مذهبة على الحديد، وإثنان من المضمات من ذهب (مما يليق بالملوك)، وشاشية (حديد) مذهبة (بذهب مكلل بالجوهر، وسروج مخروزة بالفضة : عشرة)، وحلل (كثيرة منها مذهبة): ثلاثة عشر، وعشر كلل، ومخادي حلة ونسق ذهب : مائتان[485]،

(477) هذا العدد هو الذي في المسند، وتقدم عن ابن خلدون أنها كانت خمسمائة، وسكتت المصادر الثلاثة عن شياة هذه الخيول. وتفيد رسالة الناصر الآتية ألوانها : من شهب، ودهم، وكمت وحمر، وخضر، وشقر.

(478) في **السلوك** للمقريزي لدى حديثه عن هذه الهدية مخالفة لما عند ابن الخطيب وابن مرزوق وابن خلدون في عدد الخيول والبغال. وهذا حديثه عن عددها وجهازاتها :.وكان من جملتها (الهدية) أربعمائة فرس، منها مائة حجرة، ومائة فحل، ومائتا بغل، وجميعها بسروج ولجم مسقطة بالذهب والفضة، وبعضها بسروجها، وركبها ذهب، وكذلك لجمها، وعدتها اثنان وأربعون رأس، منها سرجان من ذهب مرصع بجوهر.

(479) هذا يفيد أن عدد الجمال التي حملت الهدية 700، وتقدم عن ابن خلدون أنها «500».

(480) مثل هذا في (م)، وفي **السلوك** أن عدد البزاة «32».

(481) عبارة (م) : ومن أحجار الياقوت العظيم القدر والثمن ثمانمائة وخمسة وعشرون.

(482) هذا العدد في نسخة 1582، وفي نسخة 1578، أربعة آلاف بدل ثلاثة ءالاف، وعبارة (م) : ومن الجوهر النفيس الملوكي : ثلاثمائة وأربعة وستون.

(483) في القاموس وشرحه : الحياصة سير يسد به حزام السرج، وقد استعمل في كل ما يشد به الإنسان حقوه.

(484) ما بين المنعكفين هنا هو وحده من **السلوك**، وما عداه فهو من **المسند**.

(485) عبارة (م) أوسع مما هنا : «ومن الفضال المنوعة، والفرش والمخاد المنيوق، والحلل : ثمانمائة»، والفضال : الثوب الذي يبتذل في الشغل أو للنوم أو يتوشح به الإنسان في بيته، والمنبوق ـ إن كان بالباء ـ فهو من التنبيق بمعنى الترتيب، ولا يبعد أن يكون مصحفا عن المنسوق. أما الحلل فالظاهر أنها تصحيف الكلل بالكاف.

وانزاق[486] ذهب : عشرون، وقدود : ستة وأربعون[487]، وفرشة حلة[488]، وعشر علامات معششة[489]، وعشر وقايات مذهبة[490]، وستة وعشرون قناعا مذهبة، وثلاثون من وجوه اللحف : حرير وذهب[491]، ومائتان من المحررات الملونة الرفيعة المختمة[492]، وحيطيان أحدهما حلة والآخر نزق ذهب[493]، وثلاثة وعشرون شقة من الرصان[494]، وإثنان من حنابل الحلة، وعشرة براقع (مذهبة) للخيل : منها ثمانية من الحلة، ومن أجلة الخيل ثلاثون[495]، وثلاث طنافس من الحرير، وحنابل حرير إثنان، وعشرة حنابل من الحرير والصوف، وحنابل وانشريشية وزمورية : مائة وسبعة[496]، وأربعة آلاف[497] من الجلد الشركي والأغماتي، ومن درق اللمط المثمنة مائتان[498]، ومن الأكسية المحررة أربعة وعشرون[499]، (ومن المشقفات مائة وخمسون)، ومن البرانس المحررة ثمانية، ومن الأحاريم ـ ما بين محررة وصوف ـ عشرون[500]، ومن أزواج المحفف[501] خمسون، وعشر لزمات من الفضة، وستة عشر شقة من الملف (الرفيع).

---

(486) النزق والنيزق لغة في النيزك : وهو الرمح القصير، وتصحفت الإنزاق في (م) بالإناق.

(487) عبارة **المسند** في هذا وما قبله : ومن الإناق (مصحف الإنزاق) : عشرين مذهبة. ومن الخلادي : ستة وأربعين هـ. وفي التاج ومما يستدرك عليه (صاحب القاموس) الخالدي ضرب من المكاييل.

(488) عبارة (م) وفرش جلد مخروز بالذهب والفضة.

(489) في (م) ـ بنقل **الاستقصا** ـ : وعشر علامات مغشاة مذهبة.

(490) الغالب أن وقايات تصحيف عن رايات التي لم تذكر هنا، وذكرها في **المسند** إثر العلامات بلفظ : وعشر رايات مذهبة، ومما قيل في الفرق بين العلم والراية : أن العلم علامة لمحل الأمير يدور معه حيث دار، والراية يتولاها صاحب الحرب، أنظر **التراتيب الإدارية** «1» 318.

(491) في (م) : ومن أوجه اللحف المذهبة : عشرين.

(492) جعلها في (م) : ثمانمائة.

(493) في (م) جعلهما معا من الحلة.

(494) في (م) : عشرون فقط.

(495) الجُل بالضم والفتح للدابة كالثوب للإنسان يصان به، يجمع على جلال وجمع الجلال أجلة، وعبارة **المسند** في هذا : وعشر أمثلة مرقومة.

(496) في (م) وحنابل مائة واثني عشر كلها حرير.

(497) في (م) وثلاثون جلدا شرك.

(498) في (م) وأربعة آلاف درقة لمط، منها مائتان بنهود الذهب، وثمانمائة بنهود الفضة.

(499) في (م) ثمانية عشر.

(500) عبارة **المسند** : ومن أحارم الصوف المحررة عشرين.

(501) بحاء مهملة وفاءين في نسخة 1582، وبحاء وباءين في نسخة 1707، وبخاء معجمة من أعلى وفاءين في نسخة 1578.

ذلك ما وقفت عليه من محتويات الهدية المغربية جملة وتفصيلا، ولقد تقبلها الملك الناصر قبولا كريما، وحسن لديه موقعها، وكان يوم وفادتها عليه بمصر مشهودا تحدث به الناس دهرا[502].

وقد أفاضت رسالة الناصر لأبي الحسن في التعبير عن مدى إكبار الملك المشرقي لتلك الهدية وحسن موقعها لديه، وقالت[503].

«... وعرضوا بين أيدينا ما أصحبتهم من الطرف والهدايا، التي لا تحملها ظهور البحار فكيف ظهور المطايا، من عقود منظمة، وبرود مسهمة، ومطارف معلمة، ولطائف بالإمكان والإتقان معلمة، وصنائع محكمة، وبدائع للأفهام مفحمة، وذخائر معظمة، وضرائر للشموس في الكون والسمة، وبواتر تفرق بين الهام والأجسام والهام ملحمة، وأخاير بمقدار مهديها في الجلال مفهمة، وخيول مسومة، بالأهلة مسرجة، وبالنجوم ملجمة، معودة نزال الأبطال معلمة... تسحب من الحرير اذيالا، وتصحب من الوشي سربالا، وتميس بحللها وحلاها عجبا واختيالا، ويقيس مشبهها سرعتها بالبرق فلا يتغالى، عاتيات الأجسام، عاليات كالآكام ... وجنيبة[504] تجر من ذيولها كل مضاض، وحسبت لاختلاف شياتها كأنها قطع الرياض : من شهب كأنما ارتدت الأقاح ... ودهم نفضت عليها الليالي صبغها فلا براح ... وكمت كأنها منح صلب البطاح ... وحمر كأنها خلقت للنجاح ... وخضر كأنها البزاة الموشاة الوشاح ... وشقر تكبو في طلبها الرياح .. ووراءها البغال. التي تحمل الأثقال ... وعليها الزناريات الموشعة، وحليها الجلال الململعة، وهي تمشي رويدا، وتبدي قوة وأيدا، كأن قلامتها قناة عيدا ؟ وهي وافرة الأمداد، فاخرة على الجياد، باهرة العُدد متكاثرة الأعداد ... فتلقينا أجناسها وأنواعها ... وقالت الألسنة وطالت في وصف ما عليه به فتح، فاستبان ووضح، وكان لأهل الإيمان بنعته أعظم هناء وأكبر فرح».

ثم بعد تقديم تلك الهدية للملك الناصر ذهبت السفارة المغربية ضمن ركب المغرب حتى قضوا فرضهم.

ولما عاد وفد المغرب لمصر، كان الملك الناصر قد هيأ لملك المغرب مكافأة له

---

(502) تاريخ ابن خلدون (7) 265.

(503) صنح الأعشى، (7) ص. 392–393.

(504) عطف على خيول مسومة.

على هديته، هدية عظيمة بقي حديثها مذكورا بين الناس[505]، ثم بعثها ــ مع السفراء المغاربة ــ لأبي الحسن.

ويعطينا ابن خلدون[506] تفاصيل عن الهدية المشرقية التي عاين أصنافها لما مرت بتونس في طريقها للمغرب، ويبين أنها كان فيها «الحمل المتعارف» الذي يحمل كل سنة إلى دار السلطان، وهو يشتمل على ثياب الحرير والقماش المصنوعة بالإسكندرية[507]، قيمة ذلك الجمل خمسون ألف دينار مصري، كما كان فيها خيمة من خيام السلطان المصنوعة بالشام على مثال القصور، تشتمل على بيوت للمراقد، وأواوين للجلوس والطبخ، وأبراج للإشراف على الطرقات، وأبراج أحدها لجلوس السلطان للعرض، وفيها تمثال مسجد بمحرابه وعمده ومأذنته، حوائطها كلها من خرق الكتان الموصولة بحبك الخياطة، مفصلة على الأشكال التي يقترحها المتخذون لها، (والكفاة[508] مرساة أطرافها في الأرض بأوتاد الحديد والخشب كأنها قباب مائلة)، وكان فيها أيضا خيمة مستديرة الشكل، عالية السمك، مخروطة الرأس، رحبة الفناء، تظل خمسمائة فارس أو أكثر، (وهي مؤزر باطنها من ثياب الحرير العراقية، وظاهرها من ثياب القطن الصرافية، مستجادة الصنعة، بين الحدل والأوتاد أحسن ما يراه من البيوت، كما تشتمل الهدية ــ أيضا ــ على صوان من الحرير مربع الشكل، يقام بالحدل الحافظ ظله من الشمس)، وعلى عشرة من الجياد المقربات الملوكية، (بسروج ولجم ملوكية مصنوعة من الذهب والفضة، مرصعة باللآلئ والفصوص، وبعث مع تلك الجياد[509] خدم يقومون ببنائها المتعارف فيها).

هذا ما ذكره ابن خلدون عن هذه الهدية، والغالب أنه كان فيها ــ أيضا ــ الكسوة العتيقة للكعبة، يفيد هذا ما جاء في «**مسالك الأبصار**»[510] لابن فضل العمري الذي حج في هذا العام 738، وتولى بيده خلع كسوة الكعبة العتيقة، قال : «وحملت الكسوة العتيقة في تلك السنة (738) إلى السلطان بمصر، لتجهز إلى

(505) **تاريخ ابن خلدون** (7)، ص. 265.

(506) **في التاريخ** (5)، ص. 441 مع التعريف بابن خلدون، 338–339.

(507) عبارة **تاريخ ابن خلدون** (7)، ص. 265 : ومن ثياب الإسكندرية البديعة النسج المرقومة بالذهب.

(508) الكفة حاشية الشيء.

(509) كذا في طبعة مصر لـ**تاريخ ابن خلدون**، وظاهر أن الجياد تصحيف عن الخيام.

(510) ج (1)، ص. 100–101.

السلطان أبي الحسن المريني مع ما يجهز، عوض هدية بعثها في هذه السنة، صحبة مريم زوجة أبيه ... وعُوض بنو شيبة والأشراف عنها من بيت المال».

وفي طريق الهدية للمغرب مرت بتونس، ومعها الخدام القائمون بنصب الأبنية فعرضوها على سلطان تونس(511)، ثم وصلت الهدية المشرقية إلى سلطان المغرب حيث وقعت منه أحسن المواقع، وأعاد الكتب والرسل بالشكر(512) للملك الناصر.

وفوق هذه الهدية، فقد كان الملك الناصر بعث إلى ملك المغرب برسالة(513) يجيب فيها عن رسالته المارة خلاصتها.

ويلفت النظر في هذه الرسالة المشرقية بوجه خاص، أنها تفيض ودا وإخاء نحو ملك المغرب، حتى إنها لتستدعيه لحج بيت الله الحرام، وزيارة البقاع المقدسة، وتقول عن ذلك في أواخرها :

والله ــ تعالى ــ يقربه من تلك المواطن، ويدنيه منها بالطاهر وإن كان يسري إليها بالباطن، ويسهل له ذلك الحرم، وإن كان قد أعان القاطن والقادم، حتى تحل ركائبه بين المروتين وتجيز، ويكون له بذلك على ملوك الغرب تمييز، وما ذلك على الله ــ تعالى ــ بعزيز.

وزيادة على هذا الموضوع الختامي من الرسالة، فهي تحوي فصولا أخرى سبقت نصوصها مبسطة في مضامين بحث هذا الركب وقبيله.

وبعد : فهذه ملاحظات ختامية على هذا الركب.

1 ــ من مقابلة هذه الخلاصة الوجيزة للرسالة الشرقية مع الخلاصة المارة الذكر للرسالة المغربية، يظهر أن بالوارد «بالصبح» من هذه الرسالة الأخيرة بتراليس بالقليل، فقد سقط من الرسالة المغربية القطعة التي تتحدث عن الرسالتين الواردتين على ملك المغرب من طرف ملك مصر، بينما يثبت جواب ذلك في الرسالة الشرقية، ملفتا النظر للبتر الواقع في هذا المكان.

---

(511) التعريف بابن خلدون، ص. 339.

(512) **تاريخ ابن خلدون** (5) ص. 441.

(513) الرسالة بتمامها واردة بـ**صبح الأعشى** (7)، ص. 389–395.

كما سقط من الرسالة المغربية النص الذي يسمى طائفة من أعضاء السفارة المغربية المسمين بالرسالة الشرقية.

2 ـ يظهر أن الرسالة الشرقية بادر الملك الناصر بإرسالها قبل سفر الركب والهدية للمغرب، يشير لهذا ما ورد في مواضع من الرسالة الناصرية :

وسطرناها (الرسالة المصرية) وركبكم المبارك قد رامت السري نجائبهم، وأمت أم القرى ركائبهم ... ثم يعودون إلينا فنعيد لهم الصلات ... ثم يصدرون إن شاء الله تعالى إليكم ركابهم بالمنائح مثقلات.

فهذه الرسالة الناصرية حررت حيث كان ركب المغرب لا يزال في طريقه إلى أم القرى، ومما يفيد ذاك أيضا : أن الرسالة الشرقية لم يشر فيها لبعث الهدية الناصرية، وعلى هذا قد تكون هناك رسالة أخرى وصلت لملك المغرب مع الهدية لم نطلع عليها.

3 ـ صريح رسالة هذه السفارة أن أبا الحسن بعث فيها مصحفه للمسجد النبوي المعظم، وذلك أيضا ما يفيده جواب الملك الناصر عنها، وفي ابن خلدون وقلده في «**الاستقصا**» : أن ذلك المصحف الكريم بعثه أبو الحسن لحرم مكة، وهو سهو من ابن خلدون ومقلده، لمخالفته لما في الرسالتين المغربية والشرقية المقدمتين في هذا الباب على غيرهما.

4 ـ الذين وقفت على ترجمتهم من شخصيات هذا الركب، هم السفراء المغاربة الواردة تسميتهم في الرسالة الناصرية وهم :

أ) ابن أبي يحيى

هو ابو إسحاق ابراهيم بن أبي زيد عبد الرحمن بن أبي بكر بن أبي يحيى التسولي التازي ثم الفاسي يكنى أبا سالم، ويعرف بابن أبي يحيى، الشيخ الحافظ، الفقيه القاضي، من صدور المغرب، له مشاركة في العلم، وتبحر في الفقه، ووجاهة عند الملوك، صحبهم وحضر مجالسهم، واستعملوه في السفارة عنهم للأندلس والشرق، وكان حسن العهد، مليح المجالسة، أنيق المحاضرة، كريم الطبع، صحيح المذهب، فارسا شجاعا، جميل الصورة، نبيه الشارة، فاره المركب، هذا إلى قيامه على تدريس،

التهذيب والرسالة القيروانية وتقييده عليهما، فلج في آخر عمره فالتزم منزله بفاس، ثم نقل إلى داره من تازى بلده، فتوفي بها في حدود عام 749 هـ[514].

ب) عريف السويدي

هو أبو زيان عريف بن يحيى بن عثمان السويدي ثم الزغبي، أمير بني زغبة من عرب بني هلال بسجلماسة، قدم على أبي سعيد والد أبي الحسن فأحله أعلى رتبة، ورفع منزلته، وأجزل صلته، واتخذه جليسا وأنيسا، ولما تصير الأمر لأبي الحسن صار في حجابته، ومن خواص مجلسه وأهل سفارته، سفر عنه للشرق في هذا الركب، ثم سفر عنه لتونس عام 746 يخطب بنت الملك الحفصي أبي يحيى للسلطان أبي الحسن، وكان جليل القدر، نبيه الذكر، وافر العقل، مشاركا في العلم والأدب والتاريخ، توفي بسلا، ودفن إلى جانب أبي الحسن بشالة عام 755هـ[515].

ج) أبو الفضل ابن أبي مدين

هو أبو الفضل وأبو المجد محمد بن أبي عبد الله محمد بن أبي مدين العثماني، الفقيه الكاتب الشاعر، خططه ابن خلدون بصاحب ديوان الخراج[516] وكاتب الجباية والعساكر[517]، ووصفه في «**نثير الجمان**»[518] بصاحب القلم الأعلى، قائلا: «أدركته ورأيته، وكتب في الحضرة المرينية، ثم كتب العلامة لأمير المسلمين أبي

---

(514) ترجمة ابن أبي يحيى بعدة مصادر منها: مختصر الإحاطة المطبوع بعنوان **الإحاطة** (1) ص.217-218، والمرقبة العليا، ص 136؛ **والديباج**، ص.89-90؛ **وطبقات المالكية** (مخطوطة): نسخة المكتبة التطوانية بسلا؛ **والجذوة**، ص. 84-85، ط. فاس؛ **والدرة**، **ونفح الطيب** (3) ص. 198-199؛ **والسلوة** (2) ص. 253-254 وفيها ذكر مصادر أخرى لترجمته.

(515) تحدث في **المسند الصحيح الحسن** في ترجمة أبي سعيد عن اتصاله به ومكانته لديه (نسخة الإسكوريال)، وذكر المسند أيضا وفاته ومدفنه في ترجمة أبي الحسن، وهذه القطعة الثانية وردت ضمن نخب من المسند المنشورة بالغة العربية في مجلة «هسبيريس»، المجلد الخامس، الجزء الأول، سنة 1925: ص. 27، وقد علق ليفي بروفنصال، ناشر النخب المذكورة على تاريخ الوفاة الذي هو خمس وخمسون... بقوله: أظنه ثمان، وبعد المسند توجد ترجمة وجيزة لعريف السويدي في **الدرر الكامنة** (2) ص. 454، تحدث فيها عن فضله وأدبه، وأنظر عنه - أيضا - المراجع المذكورة صدر الحديث عن سفارة هذا الركب، مع **تاريخ ابن خلدون** (7) ص. 267.

(516) **العبر**، (7)، ص. 266.

(517) **العبر**، (7)، ص. 267

(518) لابن الأحمر: نسخة مصورة عن نسخة دار الكتاب المصرية محفوظة بالمكتبة التطوانية بسلا.

الحسن علي المريني في حين كان بجبل عامر بن محمد الهنتاني، (حاله) رحمه الله تعالى : كان شاعرا أريبا، وطالبا لبيبا، وكاتبا مصيبا، ذا سمت جسيم، وظرف شكل وسيم»، وذكر له قصيدة من شعره.

وفوق سفارة هذا الركب فقد سفر عن أبي الحسن أيضا لابن الملك الناصر : أبي الفداء إسماعيل عام 745 كما سيذكر، وسفر عنه لتونس عام 746 مع عريف السويدي في شأن خطبة الأميرة الحفصية للسلطان أبي الحسن[519] حسبما مر آنفا.

* * *

5 ـ لما ذكر في «**النجوم الزاهرة**»[520]، مصادرة الملك الناصر لشرف الدين عبد الوهاب بن التاج فضل الله المعروف بالنشو، ناظر الخاص الشريف، والمقتول عام 740 تحت عقوبة الملك الناصر قال : إنه وجد له صناديق كثيرة فيها قماش سكندري، مما عمل برسم الحرة جهة ملك المغرب وقد اختلسه النشو المذكور.

ومن مزايا هذا الاكتشاف أنه يفيد ان تلك الهدية الناصرية التي أثارت إعجاب الناس، كان قد دخلها اختلاس كبير، ولو أرسلت للمغرب على حالتها ومن غير اختلاس لتضاعف الاعجاب بها، وكان شأنها أعظم.

ي ـ سفارة عام 739 هـ.

تقدم أن أبا الحسن لما وردت عليه هدية الملك الناصر أعاد الكتب والرسل بالشكر له على ما أسنى من الهدية، هذا ما جاء عن هذه السفارة من غير أن يرد أي تفصيل آخر عنها.

ويوخذ من سياق حديثها انها وقعت عام 739، لأنها كانت عقب ورود الهدية الشرقية التي لاشك أنها جاءت خلال العام المذكور : 739.

ك ـ سفارة وركب عام 740 هـ.

لم يبق من معالم ذلك سوى العبارات التالية الواردة بـ«**العبر**»[521] :

«ثم انتسخ السلطان (أبو الحسن) نسخة أخرى من المصحف الكريم على

(519) **تاريخ ابن خلدون** (7) ص. 267؛ **تاريخ الدولتين** للزركشي، ص. 64 : الطبعة الأولى.

(520) (9) 139.

(521) (7) ص. 265، ومثله في **الاستقصا** (2) ص. 63-64، ط. مصر.

القانون الأول، ووقفها على القراء بالمدينة المنورة، وبعث بها من تخيره لذلك العهد من أهل دولته سنة أربعين وسبعمائة».

ذلك ما تبقى من خبر هذا الركب الذي بعث فيه ملك المغرب مصحفا ثانيا للبقاع الكريمة، وقول هذا النص «على القانون الأول» يريد : من انتساخها بيده، وجمع الوراقين لتنميقها وتذهيبها، والقراء لضبطها وتهذيبها، وتعديد أوعيتها وتنويعها وتصنيعها، على غرار ما فعل بالمصحف الأول. ومما يدل أيضا لانتساخ هذا السلطان المصحف الثاني بيده قول «**النفح**»[522] : «كان السلطان أبو الحسن المريني قد كتب ثلاثة مصاحف شريفة بخطه، وأرسلها إلى المساجد الثلاثة التي تشد إليها الرحال...»

ثم من المفيد أن نعيد هنا للذاكرة ما مر في هذا البحث : «من أن المصحف الكريم الذي بعثه أبو الحسن مع ركب 738 هو الذي وقفه على القراء بالمدينة المنورة، حسبما تنطق بذلك الرسالتان المتبادلتان في ذلك الركب بين ملكي المغرب والشرق، وعلى هذا يكون المصحف الكريم المبعوث مع هذا الركب 740 وقف على القراء بالمسجد الحرام بمكة المكرمة لا بالمسجد النبوي بالمدينة المنورة.

ومن هذا يعلم أن ابن خلدون اشتبه عليه الأمر في الموضعين، فذكر عن مصحف ركب 38 : أنه بعث لمكة والواقع أنه مبعوث للمدينة، وعن مصحف هذا الركب ـ عام 40 ـ أنه مبعوث للمدينة مع أنه أرسل لمكة، والله ـ تعالى ـ أعلم.

وبعد ذلك كله نبين أن رسالة أبي الحسن الآتية خلاصتها في ركب 745 : تفيد أن هذا المصحف الكريم المبعوث لمكة المكرمة مع المصحف الشريف المبعوث قبله للمدينة المشرفة، قد وصلا لمكانيهما، وأذن الملك الناصر للمتوجهين بهما في شراء رباع توقف عليهما، ورسم المراسم بمسامحتهما، حيث جرت أحوال القراء فيهما بذلك الخراج المستفاد، ريثما يصلهم ما وقف عليهم ببلاد المغرب، كما تفيد تلك الرسالة أن أبا الحسن بعث في ذلك العام : 745 كاتبه أبا المجد ابن أبي مدين ـ مار الترجمة ـ ليتفقد أحوال تلك الأوقاف، ويتعرف تصرف الناظر عليها وما فعله من سداد واسراف، وأن يتخير لها من يرتضي لذلك.

(522) (2) ص. 547.

وإن هذه السفارة لعام 740، هي آخر سفارة مغربية استقبلها الملك الناصر المتوفى عام 741، بعد ملك طويل عاصر فيه خمسة من ملوك بني مرين : من أبي يعقوب إلى أبي الحسن، ثم بعد هذه السفارة وقف بعث الحجيج المغربي والسفارات للبقاع المقدسة بضع سنوات، ومن سبب ذلك ما أعقب موت الملك الناصر من الفتن الداخلية[523] الناشئة بين أبنائه، والتي ضعف بسببها أمن طريق الحاج، فلما أن وصل الخبر لملك المغرب باستقرار الملك الناصري في نصاب ابنه الملك الصالح أبي الفداء اسماعيل عام 743، واستتب الأمن في طريق الحاج، بعث بركب عام 745 الذي نتحدث عنه فيما يلي :

ل ـ ركب عام 745 وسفارته

ذهبت فيه جماعة كثيرة في مقدمتهم الأميرة المرينية الحرة مريم أخت السلطان أبي الحسن، وكانت صحبة الكاتب أبي الفضل بن أبي مدين مار الترجمة في ركب 738.

وقد قام أبو الفضل في هذا الركب ـ أيضا ـ بالسفارة لدى السلطان الجديد بالديار المصرية : الملك الصالح أبي الفداء إسماعيل ابن الملك الناصر، وكانت الغاية من هذه السفارة تعزية الملك الشرقي في والده، وتهنئته بوارثة ملك الديار المصرية، والرغبة في مساعدة السفير المغربي على تفقد أحوال المصحفين اللذين أوقفهما ملك المغرب على الحرمين الشريفين، مع التوصية بركب الحاج المغربي، حسبما تتضمن ذلك رسالة هذه السفارة التي حملها ابن أبي مدين للملك الصالح مع الهدية المغربية التي لم أطلع على تفاصيلها.

ويظهر أن خروج السفير المغربي لوجهته ـ ضمن الركب ـ كان بعيد 26 صفر الخير من العام 745، لأن ذلك هو تاريخ تحرير الرسالة المغربية، ثم وصل لمصر في منتصف شعبان من هذا العام، فأقتبله ومن معه الملك الصالح اقتبالا مشرفا.

ولقد قام هذا السفير بمهمته أحسن قيام، وكان شأنه عظيما في إظهار أبهة سلطانه، والإنفاق على المستضعفين من الحاج في طريقه، واتحاف رجال الملك الصالح بذات يده مع التعفف عما في أيديهم.

---

(523) حديث الفتن الداخلية بالبلاد المصرية وما بعده، مستقى من رسالة أبي الحسن الآتية خلاصتها في الركب التالي : عام 745.

ثم بعدما قضى السفير المغربي فرضه مع الركب، عاد بجواب الملك الصالح المؤرخ بسادس شهر رمضان عامه 745، وهو من إنشاء صلاح الدين خَليل بن أيبك الصفدي الشافعي[524]، وإلى القارئ خلاصة الرسالتين[525] المتبادلتين بين الملكين، حيث تفيضان ودا وإخاء بين المغرب والشرق :

(الرسالة المغربية) : يفتتح المقصود منها بهذه الفقرات الودية :

«فلا خفاء بما كانت عقدته أيدي التقوى، ومهدته الرسائل التي على الصفاء تطوى، بيننا وبين والدكم نعم الله روحه وقدسه، وبقربه مع الأبرار في عليين أنسه، من مؤاخاة أحكمت منها العهود تالية الكتب والفاتحة، وحفظ عليها محكم الإخلاص معوذتاها المحبة والنية الصالحة، فانعقدت على التقوى والرضوان، واعتضدت بتعارف الأرواح عند تنازح الأبدان، حتى استحكمت وصلة الولاء، والتأمت كلحمة النسب لحمة الإخاء».

وبعد هذه الفاتحة الودية تتناول الرسالة وفاة الملك الناصر، فتذكر ـ في تحرق ـ كيف تلقى الملك المغربي نعى الملك الناصر من بعض الواردين، ثم كيف عميت الأخبار، عما أجلى عنه ليل الفتن بتلك الأوطان، إلى أن جاء البشير : بأن الله تعالى أطفا نار تلك الفتن بولاية ابنه «محل ولد أبي الحسن» الملك الصالح أبي الفداء اسماعيل، فتعزيه الرسالة المغربية في موت والده، وتهنيه بما ناله من وراثة مملكة والده، مؤكدة له بقاء الملك المغربي على ما عاهد عليه الملك الناصر، قائلة في هذا الموضوع :

«ونحن على ما عاهدنا عليه الملك الناصر ـ رضوان الله تعالى عليه ـ من عهود موثقة، وموالاة محققة، وثناء كمائمه عن أذكى من الزهر غب القطر مفتقه».

وإثر هذا تقص الرسالة ما كان من بعث أبي الحسن بالمصحفين الأكرمين ـ اللذين خطهما بيمينه ـ إلى الحرمين الشريفين، وما كان من اذن الملك الناصر للمتوجهين بهما في شراء رباع توقف عليهما، ورسمه المراسم بمساحتهما على وجه التأبيد، فجرت أحوال القراء فيهما بذلك الخراج المستفاد ـ ريثما يصلهم من خراج ما

(524) حديث هذا الركب وسفارته مأخوذ من **تاريخ ابن خلدون** (7) ص. 265–266؛ **والنفح** (2) ص. 549؛ **والاستقصا** (2) ص. 68 و71–72، ومن الرسالتين الآتية خلاصتهما.

(525) يحتفظ بنص الرسالتين معا **النفح** (3) ص. 540–547، مع **الاستقصا** (2) ص. 68–74.

وقفه عليهم ملك المغرب ببلاده ـ على ما رسمه الملك الناصر من عناية بهم متصلة، واحترام في تلك الأوقاف فوائدها به متوفرة متحصلة. وفي هذه الوجهة أمر أبو الحسن سفيره وحامل رسالته للملك الصالح ـ وهو كاتبه أبو المجد ابن كاتبه الشيخ الحاج أبي عبد الله ابن أبي مدين ـ بأن يتفقد أحوال تلك الأوقاف، ويتعرف تصرف الناظر عليها وما فعله من سداد وإسراف، وأن يتخير لها من يرتضي لذلك، وبسطت الرسالة المغربية هذه القصة بين يدي الملك الصالح، لما يقتضيه كما له من تخليد ذلك البر الجميل، وتشييد ما اشتمل عليه من الشراء الأصيل، والتقدم بالإذن السلطاني في إعانة السفير المغربي على ما يتوخاه في ذلك الشأن من طرق الصواب.

وبحسب المصافاة، ومقتضى الموالاة بين الملكين، أخذت الرسالة المرينية تشرح للملك الصالح المتزايد من الأخبار بالجهات المغربية، قاصة عليه ما مني به المغرب والأندلس في «وقعة طريف» أو «موقعة سالادو».

وذلك أن ملك المغرب لما اعتزم الجهاد، استجابة لاستصراخ أهل الأندلس وسلطانها، أخبر أن الكفار قد جمعوا أحزابهم، وفرض عليهم البابا التناصر من كل أوب، وأن تقصد طوائفهم البلاد الأندلسية بايجافها. ليمحوا كلمة الإسلام منها، فقدم ملك المغرب من يشتغل بالأساطيل من القواد، وسار على أثرهم إلى سبتة باب الجهاد، فما وصلها إلا وقد سدت أجفان النصارى مجاز العبور بأجفانهم التي لا تحصى عددا، وأرصدوها بمجمع البحرين حيث المجاز إلى الجهاد، هذا في البحر، وفي البر حاصروا الجزيرة الخضراء التي صمموا على أخذها، ومع هذا الحصار المزدوج حاول الملك المغربي إمداد تلك البلاد بحسب الجهد، وأعانهم بما أمكن من الجند، وجهز أجفانا مختلسا فرصة الإجازة على خطر، وأمر لصاحب الأندلس بما يجهز به حركته من المال، وأجرى له ولجيشه العطاء الجزل مشاهرة، وجعلت الأجفان المغربية تتردد في ميناء السواحل، وتلج أبواب الخوف العاجل، لإحزار الأمن الآجل، مشحونة بالعدد الموفورة، والأبطال المشهورة، والخيل المسومة، والأقوات المقومة، فمن ناج حارب دونه الأجل، وشهيد مضى لما عند الله عز وجل، وما زالت الأجفان تتردد على ذلك الخطر، حتى تلف منها سبع وستون قطعة حربية، ثم لم يقنع ملك المغرب بهذا الإمداد، فبعث أحد أولاده مساهمة به لأهل تلك البلاد، فلقي من هول البحر وارتجاجه، والحاح العدو ولجاجه، ما به الأمثال تضرب، ولما خلص لتلك العدوة بمن أبقته الشدائد، نزل بإزاء الجيش النصراني حتى كان منه بفرسخين أو أدنى، يصابح

العدو ويماسيه بالحرب، وقد كان بين الإمدادات المغربية لتلك البلدة جيش عظمت نكايته في الأعداء، على قلته إزاء الجيش النصراني.

ومع ذلك كله فالمطاولة بحصار الجزيرة الخضراء في البحر مدة ثلاثة أعوام ونصف، ومنازلتها في البر نحو عامين معقودا عليها الصف بالصف، أدى إلى فناء الأقوات الذي تحققه النصارى أيضا، حتى لم يبق لأهل البلد المحصور ـ الذين يربوا عددهم على عشرة آلاف دون الحرم والولد ـ قوت شهر مع انقطاع المدد، وذلك ما دعا ملك المغرب لأن يأذن لسلطان الأندلس في عقد الصلح ـ المرير ـ مع النصارى، الذين انعقد معهم لمدة عشر سنين، حيث خرج من بالجزيرة الخضراء من فرسان ورجال وأهل وبنين، بمالهم وعدتهم ما رزئوا منها شيئا، ولما وصلوا إلى ملك المغرب أجزل لهم العطاء : من خيل عتاق تزيد على الألف، وخلع تربوا على عشرة آلاف، وأموال عمت الغنى والفقير، ورعاية شملت الجميع بالعيش النضير.

وقد كان من لطف الله ـ تعالى ـ حين قضى بأخذ هذا الثغر أن فتح على ملك المغرب جبل طارق(526)، وهو المطل على الجزيرة الخضراء، والفرصة منه إن شاء الله تعالى متيسرة.

وهنا تذكر الرسالة الأسباب القاهرة الحافزة لتسليم تلك البلدة، وأنه لولا إجلابهم من كل جانب، وكونهم سدوا مسلك العبور بما لجميعهم من الأجفان والمراكب، لما بالى أبو الحسن بإصفاقهم، ولحل بعون الله ـ تعالى ـ عقد اتفاقهم، ولكن للموانع أحكام، ولا راد لما جرت به الأقلام.

وبعد ما أمر ملك المغرب لجبل طارق بمزيد المدد، وتخبر له ولسائر بلاد الأندلس الإسلامية العدد والعدد، عاد لفاس عاصمة المملكة لاستجمام الجيوش، وإعداد العدة لانتهاز الفرصة عند ظهورها، وعند عودته لعاصمته تيسر الركب الحجازي موجها إلى الجهات المشرقية، فأصدر للملك الصالح هذه الرسالة التي ختم المقصود منها بهذه العبارات الودية الفائقة :

«فأصدرنا إليكم هذا الخطاب، إصدار الود الخالص والحب اللباب، وعندنا لكم ما عند احنى الآباء، واعتقادنا فيكم ـ في ذات الله تعالى ـ لا يخشى جديده

(526) هذا الجبل فتح على أبي الحسن قبل وقعة طريف بنحو ثمان سنين، فإن فتحه كان أواخر عام 733، وقد كان أبو الحسن أخبر الملك الناصر بفتحه في رسالة سفارة عام 737.

من البلاء، وما لكم من غرض بهذه الأنحاء، فموفى قصده على أكمل الأهواء، موالى تتميمه على أجمل الآراء، والبلاد باتحاد الود متحدة، والقلوب والأيدي على ما فيه مرضاة الله ـ عز وجل ـ منعقدة».

وبعد الرسالة المغربية ها هي الرسالة المشرقية تتناول الجواب عن فصول سابقتها فصلا فصلا :

«فتستهل بالجواب عن العزاء بالملك الناصر، مبدية ارتياحها لما ورثه منه الملك الصالح من حسن الإخاء لملك المغرب، والوفاء بعهود مودة تشبه في اللطف شمائله.

وتثني بالشكر الحار على التهنئة بوراثة الملك، تلك التهنئة التي تحقق بها الملك المشرقي حسن الود الجميل من جهة الملك المغربي، وكريم إخائه الذي لا يميد طود رسوخه.

أما ما تذكره رسالة المغرب في أمر المصحفين الكريمين الشريفين، اللذين وقفهما ملك المغرب على الحرمين المنيفين، وأنه جهز كاتبه ابن أبي مدين لتفقد أحوالهما، والنظر في أمر أوقافهما ... فتجيب الرسالة الصالحية عن هذا الفصل : بأن الكاتب المذكور وصل بمن معه في حرز السلامة، وأكرم الملك الصالح نزلهم، وحضر السفير المغربي بين يديه، وأمره في أمر المصحفين الشريفين بما أشار به الملك المغربي، ورسم لنوابه في توخي أوقافهما طبق الملتمس المغربي. وإلى هذا تطمئن الرسالة الشرقية ملك المغرب بأن وقفه المبرور مرعي الجوانب، آمن من إزالة رسمه، أو إذالة حكمه، بل له مزيد الرعاية، وإفادة الحماية، ووفادة العناية.

وأما ما تقصه الرسالة المرينية من نكبة الجزيرة الخضراء، وما ضاع فيها من القطع البحرية، فتقابل الرسالة الصالحية هذا النبأ بتحسر لا مزيد عليه، معلنة عن تفجعها وتفجع أهل الإسلام لذلك، متأسفة على عدم إمكان المساعدة العسكرية، لمكان البعد الكبير بين المملكتين، وذلك كله ما تفصح عنه القطعة التالية من الرسالة :

«وأما ما وصفتموه من أمر الجزيرة الخضراء وما لاقاه أهلها، ومني به من الكفار حزنها وسهلها، فإنه شق علينا سماعه الذي أنكى أهل الإيمان، وعدد به نوب الزمان، كل قلب بأنامل الخفقان، وطالما فزتم بالظفر، ورزقتم النصر على عدوكم فجر ذيل الهزيمة وفر، ولكن الحرب سجال، وكل زمان لدوابره دولة ولرجائه رجال، ولو

أمكنت المساعدة لطارت بنا إليكم عقبان الجياد الموسومة، وسالت على عدوكم أباطحهم بقسينا المعوجة وسهامنا المقومة، وكحلنا عيون النجوم بمراود الرماح، وجعلنا ليل العجاج ممزقا ببروق الصفاح، واتخذنا رؤوسهم لصوالج القوائم كرات، وفرجنا مضايق الحرب بتوالي الكرات، وعطفنا عليهم الأعنة، وخضنا جداول السيوف ودسنا شوك الأسنة، وفلقنا الصخرات بالصرخات، وأسلنا العبرات بالرعبات.

ولكن أين الغاية من هذا المدى المتطاول، وأين الثريا من يد المتناول، وما لنا غير إمدادكم بجنود الدعاء الذي نرفعه نحن ورعايانا، والتوجه الصادق الذي تعرفه ملائكة القبول من شجايانا.

وأما ما فقدتموه من الأجفان التي طرقها طيف الإتلاف، وأم حرم فنائها الفناء، وطاف به بعد الألطاف، فقد روع هذا الخبر قلب الإسلام، ونوع له الحزن على اختلاف الإصباح والإظلام، وهذه الدار ما يخلو صفوها من كدر القدر، وطالما أنامت بالأمن أول الليل وخاطبت بالخطب في السحر، ولكن في بقائكم ما يسلي عن خطب العطب، ومع سلامة نفسكم الكريمة فالأمر هين لأن الدر يفدي بالذهب».

وبعد هذه القطعة الأخوية تعود الرسالة للجواب عن باقي فصول الرسالة المغربية، فتبارك على ما رآه أبو الحسن من الصلح في وقعة طريف كحل لا مناص منه إذ ذاك، آملة أن يرد الله ـ تعالى ـ الردى، ويعيد الظفر بالعدا.

ثم تبرر عودة الملك المغربي لعاصمة فاس بأن ذلك أمر ضروري التدبير، سروري التشمير.

ولما تذكر فتح جبل طارق تظهر ارتياحها لهذا الفتح، مترجية أن يكون سببا إلى ارتجاع ما شرد، وحسما لذلك الطاغية الذي مرد، وتتفاءل لملك المغرب بهذا الجبل، بأنه طارق خير من الرحمن يطرق، وجبل يعصم من سهم يمر من قسي الكفار ويمرق.

وبعد هذا تنوه بعطايا أبي الحسن لمنكوبي الجزيرة،وتشكره على عمله أحر شكر.

وأخيرا تجيب الرسالة الشرقية عن (بعث الركب المغربي لوجهته) بالعبارات الودية التالية، التي هي مسك ختام المقصود من تلك الرسالة :

«وإذا وصل وفدكم الحاج، وأنار له بوجه إقبالنا عليهم ليلهم الداج، كانوا مقيمين تحت ظل إكرامنا، وشمول إسعافنا لهم وإنعامنا. يتخولون تحفا أنتم سببها، ويتناولون طرفا في كؤوس الاعتناء بهم ينضد حببها، وإذا كان أوان الرحيل إلى الحج فسحنا لهم الطريق، وسهلنا لهم الرفيق، وبلغناهم ــ بحول الله تعالى ــ مناهم من منى، وسؤلهم ممن إذا زاروا حجراته الشريفة حازوا الراحة من العناء وفازوا بالغنى، وإذا عادوا عاملناهم بكل جميل ينسيهم مشقة الدرب، ويخيل إليهم أن لا مسافة لمسافر بين الشرق والغرب، وغمرناهم بالإحسان في العود إليكم، وأمرناهم بما ينهونه ــ شفاها ــ لديكم».

وإذا تم المقصود من هذه الرسالة، نتبع ذلك بملاحظات :

الأولى : تفيد تلك القطعة الختامية من الرسالة الشرقية، ان ركب المغرب لم يكن وصل لمصر في تاريخ تلك الرسالة : 6 رمضان 745، لقولها : وإذا وصل وفدكم الحاج ... مع أن المقريزي في «**السلوك**» يذكر أن الحرة مريم قدمت ــ لمصر ــ في منتصف شعبان من العام : 745 في جماعة كثيرة. وإذا أخذنا بالنصين معا، نحمل الجماعة الكثيرة في كلام «**السلوك**» على خصوص حاشية الأميرة المرينية، ونحمل وفد الحاج المنتظر قدومه في الرسالة الصالحية على معظم الركب، فتكون الحرة وحاشيتها وعلى رأسهم ابن أبي مدين سبقوا الركب لمصر التي قدموها في منتصف شعبان، ويكون معظم الركب تأخر إلى ما بعد سادس رمضان : تاريخ تحرير الرسالة الشرقية، ثم التحقوا بالأميرة وحاشيتها بعد.

الملاحظة الثانية : صادفت الرسالتان المرينية والصالحية إقبالا أدبيا طريفا لدى بعض المقامات العلمية بالشرق، فتداولوهما بالقراءة والرواية، ومثال ذلك أن عز الدين ابن شيخ السلامية الحنبلي، رواهما عن منشي الرسالة الثانية : الصلاح الصفدي بقراءة الأل، وكتب الصلاح الصفدي في ذلك ما نصه :

«أما بعد حمد الله ــ تعالى ــ على نعمائه، وصلاته على سيدنا محمد عبده ورسوله خاتم أنبيائه، فقد قرأ الشيخ الإمام العالم العامل، العلامة المفيد القدوة : عز الدين أبو يعلى حمزة، ابن الرئيس الكبير الفاضل القاضي قطب الدين موسى بن أحمد ابن شيخ السلامية الأحمدي، أمتع الله بفوائده: الكتاب الوارد من سلطان المغرب، الملك المجاهد المرابط أبي الحسن المريني صاحب مراكش، تغمده الله ــ تعالى ــ

برحمته، والجواب عنه عن السلطان الشهيد، الملك الصالح، عماد الدين إسماعيل، بن السلطان الشهيد، الملك الناصر محمد، قدس الله ـ تعالى ـ روحهما، من إنشائي وأنا اسمع ذلك جميعا من أولهما إلى آخرهما، قراءة أطربت السمع لفصاحتها، وأمالت العطف لرجاحتها :

واخجـلت ورق الحمـى باللـوا ان صدحت في ذروة الـغصن
تكـاد من لطـف ومـن رقـة تدخـل في الأذن بلا اذن

وذلك في مجلس واحد، في ذي القعدة سنة 756 بالجامع الأموي بدمشق المحروسة، فإن رأى رواية ذلك عني فله علو الرأي في تشريفي بذلك، وكتبه خليل بن أيبك الصفدي الشافعي عفا الله عنه[527].

وأبو يعلى ابن شيخ السلامية ـ قارئ الرسالتين على الصفدي ـ شخصية لامعة في العلم والإمامة والتأليف، ترجمه في الشذرات[528] فيمن توفي عام 769.

الملاحظة الثالثة : كان مع هذه السفارة رسالة ثانية بعثها أبو الحسن على يد أخته مريم السالفة الذكر، وتتضمن ـ حسب موجزها الذي احتفظ به «**السلوك**» ـ رغبة ملك المغرب أن يدعو له الخطباء يوم الجمعة وأهل الصلاح والخير بالنصر على عدوهم، وأن يكتب لأهل الحرمين الشريفين بذلك، والظاهر أن الشرق استجاب لنداء المغرب، والغالب أن من مظاهر هذه الاستجابة ماء في «**المسند الصحيح الحسن**»[529] من قوله : «ووقف علمه (أبي الحسن) على جبل عرفة، وجهر له الخطيب في الموقف بالدعاء، ودعى له على المقام».

م ـ ركب عام 747 وسفارته

هذا الركب بقي من آثاره اسم قاضيه تقي الدين عبد الله بن محمد ابن عبد الله بن ميمون الهَرغي المولود عام 705، والذي حج عام 747 قاضيا للركب المغربي[530].

---

(527) كتابة الصفدي هذه رآها المقري بخط منشيها إثر ذكره الرسالة الصالحية، وأثبتها بـ**النفح** (2) ص. 547.

(528) (6) ص. 214.

(529) عند الباب 50 من المصدر المشار له.

(530) يؤخذ هذا من **الدرر الكامنة** (2) ص. 236.

ومع هذا الركب أو في ركب 746 بعث أبو الحسن بثالث المصاحف الكريمة ـ التي خطها بيده ـ إلى حرم بيت المقدس الشريف حيث وقفه على القراء هناك، ومستندى في التحديد لتاريخ إرسال هذا المصحف بعامي 46 أو 47 إنه لحد عام 745 كان أبو الحسن إنما بعث مصحفي الحرمين الشريفين، حسبما تنطق بذلك الرسالتان المتبادلتان بين أبي الحسن والملك الصالح في هذا الصدد، ثم نجد ابن الوردي، يذكر في تاريخه[531] أثناء حوادث عام 748 : «أن أبا الحسن كتب من مدة قريبة بخطه ثلاثة مصاحف، ووقفها على الحرمين الشريفين وعلى حرم القدس»، وهذا ناطق بأن أبا الحسن في عام 748 كان قد بعث بمصحفه الثالث : لبيت المقدس.

فإذا كان أبو الحسن في عام 745 مازال لم يبعث بمصحف القدس الشريف، وفي عام 748 كان المصحف قد وصل لبيت المقدس، فلا يعدو تاريخ إرساله أن يكون في أحد العامين : عام 46، أو في عام 47 وهو الذي تميل النفس لترجيحه على سابقه، لأن هذا العام وجد فيه آثار ركب ذهب للشرق بخلاف عام 46.

ويفيد ابن الوردي[532] أن أبا الحسن جهز مع المصاحف الثلاثة ـ بما فيها مصحف حرم القدس ـ عشرة آلاف دينار اشترى بها أملاكا بالشام، ووقفت على القراء والخزنة للمصاحف المذكورة[533]، وكتب سلطان مصر وما والاها توقيعا بمسامحة تلك الأوقاف.

كما يفيد المقري[534] بأن هذا المصحف الشامي بقي قائما ببيت المقدس إلى أواسط القرن الحادي عشر[535]، حيث رآه هناك ومدح ربعته بأنها في غاية الصنعة، وبعد هذا نذكر أن ابن خلدون ساق في تاريخه[536] حديث هذا المصحف الشامي

---

(531) المسمى **تتمة المختصر، في أخبار البشر** أختصر فيه : **المختصر في أخبار البشر** للملك المؤيد في نحو ثلثية، وزاد على الأصل بعض الزيادات، والقطعة المنقولة منه واردة بالجزء الثاني، ص. 348.

(532) في **تاريخه** المذكور أخيرا (2) ص. 348.

(533) تقدم ذكر وقف أبي الحسن على مصحفي الحرمين الشريفين وتوقيع الملك الناصر بمسامحة تلك الأوقاف.

(534) في **النفح** (2) ص. 547.

(535) ثم تبين أنه لا يزال موجودا إلى هذا العصر حسبما سيذكر ذلك وشيكا.

(536) (7) ص. 266.

مساقا لم يخل من سهو واضح، فهو يذكر أن أبا الحسن إنما شرع في كتابة ذلك المصحف بعد استلائه على إفريقية.

وهذا أول الغلطين الواقعين لابن خلدون في هذا الموضوع، فإن المصحف الشامي بعد فتح إفريقية ـ الواقع في 8 جمادى الآخرة عام 748 ـ كان قد وصل لبيت المقدس ووُقِف هناك، حسبما ينطق بهذا ما مر آنفا عن ابن الوردي الذي كان وقت هذا الوقف يدون تاريخه، ونحدث فيه أثناء حوادث 748 عن وقف أبي الحسن لمصحف بيت المقدس كشيء وقع من مدة قريبة، وهذا يبين ـ دون شك ـ غلط ابن خلدون واضحا فيما ذكره.

ثم يذكر ابن خلدون أن أبا الحسن هلك قبل إتمام نسخ ذلك المصحف، وهذا أيضا سهو منه، فإن النسخة كملت ووصلت لبيت المقدس قبل وفاة أبي الحسن بنحو أربعة أعوام، حسبما يشهد لهذا كلام ابن الوردي المشار له آنفا، ثم ها هو مؤرخ مغربي يشهد بوصول ذلك المصحف لبيت المقدس وهو المقري، حيث عاينه وقال عن ذلك في «**النفح**»[537] : «... وقد رأيت أحد المصاحف المذكورة وهو الذي ببيت المقدس، وربعته في غاية الصنعة».

وبعد فها هي مقتبسات[538] من توقيع سلطان مصر وما والاها بمسامحة الأوقاف الشامية المارة الذكر، وهو من إنشاء الأديب الشهير الشيخ جمال الدين ابن نباتة المصري أحد الموقعين إذ ذاك بدمشق، وأولها :

«الحمد لله الذي أرهف لعزائم الموحدين غربا، وأطلعهم بهممهم حتى في مطالع الغرب شهبا، وعرف بين قلوب المومنين حتى كان البعد قربا، وكان القلبان قلبا، وأيد بولاء هذا البيت الناصري ملوك الأرض وعبيد الحق سلما وحربا، وعضد ببقائه كل ملك إذا نزل البر أنبته يوم الكفاح أسلا ويوم السماح عشبا. وإذا ركب البحر لنهب الأعداء كان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصبا، وإذا بعث هداياه المتنوعة كانت عرابا تصحب عربا، ورياضا تسحب سحبا، وإذا وقف أوقاف البر سمعت الأفاق من خط يده قراءنا عجبا، واهتزت بذكراه عجبا.

(537) (2) ص. 547.

(538) هذه المقتبسات واردة بتاريخ ابن الوردي (2) ص. 348–349.

ومنها : وذو الولاء قريب وأن نأت داره، ودان بالمحبة وإن شط شط بحره ومزاره، وهو بأخباره النيرة محبوب كالجنة قبل أن ترى، موصوف كوصف المشاهد وإن حالت عن الاكتحال بطلعته أميال السرى. ولما كان السلطان أبو الحسن ـ سر الله ببقائه الإسلام والمسلمين، وسره بما كتب من اسمه في أصحاب اليمين، وما أدراك ما أصحاب اليمين ـ هو الذي مد اليمين بالسيف والقلم فكتب في أصحابها، وسطر الختمات الشريفة فنصر الله حزبه بما سطر من أحزابها، ومد الرماح أرشية فأشقت من قلوب الأعداء قليبا، والأقلام أروية فشفت ضعف البصائر وحسبك بالذكر الحكيم طبيبا.

ومنها : ثم وصلت ختمات شريفة كتبها بقلمه المجيد المجدي، وخط سطورها بالعربي وطالما خط في صفوف الأعداء بالهندي.

ومنها : وأمر بترتيب خزنة وقراء على مطالع أفقها، ووقف أوقافا تجري أقلام الحسنات في إطلاقها وطلقها، وحبس أملاكا شامية تحدث بنعم الأملاك التي سرت من مغرب الشمس إلى مشرقها، ورغب في المسامحة على تلك الأملاك من أحكار ومئونات، وأوضاع ديوانية وضع بها خط المسامحة في دواوين الحسنات المسطرات، فأجيب على البعد داعيه، وقوبل بالإسعاف والإسعاد وقفه ومساعيه.

وختمها بقوله : والله تعالى يمتع من وقف هذه الجهات بما سطر له في أكرم الصحائف، وينفع الجالس من ولاة الأمور في تقريرها ويتقبل من الواقف».

اكتشاف مصحف بيت المقدس

كان المقري هو الوحيد الذي أفاد ببقاء هذا المصحف إلى عصره، ثم من بعده لم يعد أحد من المؤرخين أو الرحالين يجري له ذكرا، أو يحيي له أثرا، حتى بات يظن أنه ضاع فيما ضاع، وفقد من جملة ما فقد.

وكان العلامة الكبير الوزير السيد الحاج المختار السوسي يذكر أنه رأى في مكان مّا ما يدل على أن هذا المصحف لا يزال بقيد الوجود، ومضى زمن على هذا الحديث دون أن يعثر على ذلك المصدر، ثم من مدة قريبة وجدتُ القصة بصحيفة «**الفتح**»[539] : المصرية.

(539) السنة الخامسة، عدد 237 : يوم الخميس 17 رمضان 1349هـ، مع عدد 238 : يوم الخميس 24 رمضان 1349هـ.

فقد نشرت بحثا مهما للأستاذ الجليل الشيخ عبد الله مخلص ــ عضو المجمع العلمي العربي ومكتشف هذه الذخيرة ــ تعريفا به تحت العنوان التالي :

«المصحف الشريف الذي كتبه بيده علي بن عثمان بن يعقوب بن عبد الحق سلطان المغرب : سنة 745هـ في ثلاثين جزءا، ويسمى في بيت المقدس «ربعة سلطان المغرب».

ولأهمية هذا البحث بالنسبة لموضوعنا بصفة خاصة، رأيت أن أذيل حديث هذه السفارة بمقتطفات منه فيما يلي :

«في دار كتب المسجد الأقصى التي أتيح لي شرف الاشتراك في تأسيسها يوم ذكرى مولد سيد الكائنات عليه أفضل الصلوات، وأزكى التحيات، من عام 1341 هجرية : مصحف شريف خطه بيمينه أبو الحسن علي بن عثمان ابن يعقوب بن عبد الحق المريني سلطان المغرب، في ثلاثين جزءا بخط مغربي جميل، كان مداده من فتيت المسك وعطر الورد، وربما أضيف إليهما في بعض الأحيان الزعفران الشعري، لأن الخط يشتد سواده وإشراقه في بعض الصفحات، ويصفر في البعض الآخر، وفي بعضها يكون قليل السواد.

ولم يقتصر ــ رضي الله عنه وأرضاه، وجعل الجنة مثواه ــ على كتب المصحف الشريف بذلك الطراز الجميل، بل إنه نصب على تلاوته القراء من الحفاظ، وأجرى عليهم الأرزاق والوظائف من ريع أعيان وقفها عليهم كما سيأتي بيانه.

وصف الرَّبْعة الشريفة

هي ربعة شريفة في ثلاثين جزءا مكتوبة في ورق، وكل جزء يحويه جلد ناعم الملمس، مخيط بخيط دقيق من الذهب والفضة، كتبها بخط يده سلطان المغرب أبو الحسن علي بن أبي سعيد عثمان بن أبي يوسف يعقوب ابن عبد الحق سلطان المغرب : في سنة 745، ولها صندوق بديع الصنع مزين بالنقوش الفضية والميناء المختلف الألوان، وقد كتب بآخر كل جزء ما يأتي.

«كمل الجزء ... من هذا المصحف الكريم المجزأ ثلاثين جزءا، وكتب جميعها ــ بخطه ــ عبد الله علي أمير المسلمين، ابن أمير المسلمين أبي سعيد عثمان، ابن أمير المسلمين أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق، ملك المغرب نفعه الله، ووقفها

على التلاوة فيها بالمسجد الأقصى شرفه الله، لما رغب فيه من ثواب الله، نفعه الله وغفر له ولوالديه ولمن دعا لهما بالرحمة آمين، وذلك في أواخر ذي حجة سنة خمس وأربعين وسبع مائة، بحضرة فاس حرسها الله، والحمد لله، وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وءاله وصحبه وسلم تسليما».

صفحات المصحف

وكل صفحة من الأجزاء الشريفة تتضمن خمسة سطور، مؤلفة من بضع كلمات بالنظر لضخامة حروفها.

الأجزاء المفقودة وما كتب بدلا عنها

ومما يؤسف له أن خمسة أجزاء من الربعة الشريفة قد فقدت ولم تعرف صورة صياغها، فقام بكتابتها بعض المغاربة على ورق أبيض جيد، وأكملت بها الربعة الشريفة. وهكذا ما كتبه في كل جزء من الأجزاء الخمسة المستحدثة :

«كتبه العبد الفقير إلى ربه، الراجي عفو ربه وسيده القدير: الحاج مبارك بن مبارك بن عبد الرحمن المشونشيء وطنا، المالكي مذهبا، الأشعري اعتقادا، الجنيدي طريقة، كتب هذا الجزء تكملة من خمس «كذا» أجزاء الذاهبات من ختمة مولاي علي الشريف المنسوب إلى مولاي يعقوب بن عبد الحق، كتبه رجاء للثواب من الله الواحد الأحد، الفرد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفؤا أحد، وكان الفراغ منه آخر محرم ـ ذي الحجة الحرام ـ «كذا»، سنة 1221 من هجرته عليه أفضل الصلاة وأتمّ التسليم، غفر الله له ولمن دعا له ولمن قرأ فيه ولكل المسلمين أجمعين، ءامين، والحمد لله رب العالمين» اهـ.

القراء الحفاظ والخادمان والجابي

وقد عين لقراءتها صباح كل يوم ثمانية عشر نفسا، منهم خمسة عشر من حفاظ القرءان العظيم على أن يكونوا من المغاربة المالكيين، وخادمان من المسلمين، وجاب واحد : وأجرى عليهم سبعة عشر سهما لكل واحد من القراء، والجابي سهم واحد، وللخادمين سهم واحد بالسنوية.

أعيان الوقف الموقوفة عليهم :

ووقف على ذلك : الحمام الكامل البناء الكائن بمدينة الرملة، المشتمل ـ

يومئذ ـ على حقوق ومنافع ومرافق ومجاري مياه وغير ذلك من حقوقه الداخلة والخارجة عنه، وجميع عمارة الحانوتين المتلاصقين الملاصقين بحائطه المذكور من الجهة الشرقية، وجميع البناء الإسلامي الكائن بالأرض التي بها بئر الماء المعين الرومية البناء، وجميع البناء المحيط على قطعتي الأرض : البساتين القبلية والشامية الملاصقين للبئر المذكورة، وجميع الأخشاب المفروشة ـ يومئذ ـ بالقطعتين الأرض المشار إليهما من التين والرمان والنارنج وغير ذلك، الكائن جميعه بمدينة الرملة المحروسة، وبذلك جمعت حدود أربعة : الحد الأول وهو القبلي، ينتهي إلى دار سلمان الصباحي، والدار المعروفة بابن الشمامي، وحائط المدرسة المعروفة بإنشاء سيف الدين بكتمر الدوادار، والشرقي : ينتهي إلى الدرب المسلوك، والشمالي : ينتهي ـ أيضا ـ إلى الدرب المسلوك، والغربي : ينتهي إلى الطاحونة المعروفة بالحاج حسن بن علوي.

الولاية على الوقف :

وجعل الواقف ـ بطريق الوكالة ـ الولاية في ذلك لنفسه مدة حياته، ثم من بعده للشيخ الصالح أبي محمد عبد الله بن أبي مدين، ثم لشيخ الجماعة المذكورين

تاريخ إنشاء الوقف :

وذلك بموجب كتاب وقف مؤرخ في العشر الأول من شهر رجب الأصم، من شهور سنة ثلاث وخمسين وسبعمائة.

شهود الوقف :

وعلى كتاب الوقف شهادة الشهود المدونة أدناه :

حسين أبي بكر بن سعد، قاسم بن محمد بن محمد الغرناطي المالكي، محمد بن الحسن بن علي الصفدي الشافعي، عبد المنعم بن أحمد بن محمد.

نقل نسخة عن الأصل :

وتحت ذلك : الحمد لله، قوبلت نسخة هذا الوقف المذكور أعلاه على نسخة الأصل المنقولة منها، فصحت من غير زيادة ولا نقص، في سابع عشرين شعبان المكرم سنة تاريخه، حضرتُ المقابلة المذكورة أعلاه فصحت على نسخة الأصل المنقولة منها. كتبه محمد بن محمد المنبجي ـ حضرت إلى آخر العبارة، علي بن عبد القادر.

الإسجالات :

وقد شهد على ذلك أبو بكر بن عثمان الحنفي في ثامن شهر رمضان المعظم سنة ثلاث وتسعين وسبعمائة بقوله : أشهدني سيدنا ومولانا إلى آخره : أبو المواهب خليل بن شرف الدين أبي الروح عيسى بن جمال الدين أبي البركات عبد الله الحسين الحاكم بالقدس الشريف بشرح طويل ؛ ثم جاء بعده بقية الشهود وهم : إسحاق الحنفي، إسماعيل بن محمد ملطي، أحمد ابن سعود بن علي الأنصاري المالكي، يوسف بن محمد بن أحمد أبو البقاء الأندلسي الحوصي : (أول كلامه كتبه ولده بإذنه وحضوره)، أحمد بن عبد الرحمن بن أبي المعز الحراني، صالح عبد القوي، أحمد بن إبراهيم بن خليل الحنفي، صلاح بن يوسف الحنفي، محمد بن علي بن محمد الشافعي.

وبعده حكم شرعي طويل الذيل مآله : أنه ثبت لأبي الروح عيسى بن جمال الدين أبي الجود غانم الأنصاري الخزرجي الشافعي الحاكم بالقدس الشريف وأعمالها، وناظر الأوقاف وشيخ الشيوخ بها، في مجلس الحكم المنعقد في يوم الاثنين السابع عشر من ربيع الآخر سنة خمس وتسعين وسبعمائة : صحة كتاب الوقف المذكور، وقد جاء ذكر الشاهدين : السيد الشريف شمس الدين محمد بن عبد الحق، وبرهان الدين بن عبد الله الخذافي.

وذكر المشايخ الصلحاء القراء : عبد الله المهروري، وعمر المجاصي، وعبد عبد الله محمد البادسي، وذكر الحاكم الشافعي فيها : شرف الدين تقي المسلمين أبي الثناء محمود بن جمال الدين أبي عبد الله محمد الشريشي البكري.

وذكر الحاكم المالكي قبلها بدمشق : عز الدين تقي المسلمين أبي محمد عبد العزيز بن شرف الدين أبي البركات مسعود بن عبد العزيز التلمساني.

وذكر المشايخ الصلحاء القراء : عبد الله المهروري، وعمر المجاصي، وعبد الرحمن البطوي : ممن ولدوا بديار المغرب، وذكر يحيى بن الفاسي، وعبد الله بن سليمان، وسليمان بن عوجان : من قراء الربعة الشريفة مع أنهم ولدوا في الديار المصرية والديار الشامية، وبعد ذلك شهود كثيرون، وبآخرهم... شهد عندي بذلك.

ثم ذيل آخر من جلال الدين أبي محمد عبد الله بن جلال الدين أبي عالية محمد بن السائح الشافعي الحاكم بالرملة.

وبذيله ما يأتي : «الأمر كما ذكر فيه، والشأن على ما يحويه، نمقة الفقير أبو بكر بن محمد العلمي المالكي، المولى بناحية قدس شريف خلافة، عفا عنهما العافي ءامين» ولقبه تقي الدين، وولده السعدي محمد الشهير بابن العلمي، وعليه شهود : علي العلمي، ومحمد بن إبراهيم العلمي، وعثمان الجوهري، وأحمد بن ناصر العلمي، وتاريخه أوائل شهر جمادى الأولى سنة خمسين وتسعمائة.

وبعده «صح ما نسب إلي فيه، الفقير شرف الدين ابن علي العسيلي السباهي المولى بالقدس الشريف خلافة، عفا عنهما العافي.

الختم : أعدلوا هو أقرب للتقوى.

ويسار ذلك : «ما نسب إلى فيه صحيح، زبره الفقير : عالي بن حسن الحنفي المولى بالقدس الشريف خلافة عفى عنهما، ـ الختم ذاته ـ في سنة 976، ذكر اسم حكام ثلاثة : الحنفي والشافعي والمالكي»، وتاريخ ذلك ختام ذي الحجة سنة ست وسبعين وتسعمائة، وشهوده : مولانا القاضي عماد الدين، ومولانا الشيخ شهاب الدين ناصر، ومحمد بن موسى محضر باسي، وأبو العون الديري.

وبعده : «المنسوب إلي فيه صحيح، حرره إسماعيل بن أبي بكر الشافعي المولى بالقدس الشريف خلافة لطف الله به آمين». الختم : حسبنا الله ونعم الوكيل.

وإلى يساره : «الأمر على ما جرى، كتبه أحقر الورى : عبد القادر بن أبي الخير المولى بالقدس الشريف ـ ختم : الواثق بعناية الملك القادر أبي الخير عبد القادر.

(محي الدين أبو الفضل عبد القادر)، وتاريخ 3 جمادى الأولى سنة ثلاث وثمانين وتسعمائة.

وبجانبه : «جرى ذلك، كتبه الفقير إليه تعالى : علي بن حسين المولى بالقدس الشريف خلافة»، وبعده : «الأمر حسبما فيه، والشأن على ما يحويه، حرره الفقير إليه تعالى مصطفى بن خليل المولى خلافة بمدينة القدس الشريف، عفى عنهما وغفر لهما، وختمه : مهر بنده دل فخر عالم مصطفى.

وبتاريخ ثالث عشر المحرم الحرام من شهور سنة سبع وسبعين وألف، وشهوده : علي النوري، موسى الشافعي، السيد عبد الصمد غضيه، الحاج محمد بن

عبد الرحمان المغربي، بدر الدين الشافعي، زكريا الديري، حسن ابن علي القرقشندي، عبد الرحمن بن سطه الرسول، يوسف بن عبده، ولده عبد الكريم، الحاج ابراهيم بن عبد الكريم، فارس ابن محمد الرسول، أحمد بن مصطفى النجار، إسماعيل بن عجعج الرسول ـ وفيها من التواقيع : «الحكم بموجب ما قامت به النية إن شاء الله» ـ وأشهد بثبوته وتنفيذه، والحمد لله، وأسأله التوفيق» ـ «والحمد لله القاضي بالحق» ـ «والحمد لله حمد الإخلاص» ...

الفتاوى :

وفي ظهرها الفتاوي المتعلقة بهذا الوقف من المحررين أدناه: محمد بن القدسي الحنفي، أحمد بن عمر بن هلال المالكي، عمر الحلحاوي الشافعي، ومن أسماء الشهود الموقعين بظهرها : علي بن أحمد، محمد القدسي بن مصلح بالقدس الشريف، صحيح لله، أحمد بن عبد الله بن أحمد الموصلي، قاسم بن محمد الشافعي، حسن أبي بكر المالكي، محمد بن عثمان صقر، محمد بن اسماعيل البطوي المالكي، عبد السلام أحمد عبيد المالكي، عيسى سعيد المالكي، ومن القضاة علم الدين ابن عبد الله محمد بن ناصر الدين، أبي عبد الله محمد بن شمس الدين، أبي عبد الله محمد القفصي المالكي الحاكم بدمشق.

ممن اشترى الواقف أعيان الوقف :

أما تلك الأعيان من الوقف فقد اشتراها سلطان المغرب المذكور، بواسطة وكيله أبي عبد الله محمد بن الشيخ أبي عبد الله محمد بن فرقاجة المغربي المالكي المقيم بالقدس الشريف، من الحاج برهان الدين ابراهيم ابن الحاج حسين بن محمد التاجر بمدينة الرملة، بموجب صك مبيع مؤرخ في السابع عشر من جمادى الأولى سنة ثلاث وخمسين وسبعمائة.

شهود البيع :

ومن شهوده : حسن بن محمد بن حسن، نصار بن عبد الله عيسى، محمد ابراهيم العمري، محمد بن أبي بكر عفا الله عنه، عثمان بن عيسى، مصطفى الحنفي، محمد بن خليل بن موسى شحمه، محمد يونس بن علي، إسماعيل بن محمد الحسن رعاية العيسفي، خلف بن حشافر ابن شالم، محمد بن أبي بكر بن مرسال، محمد بن عمر النوباني، أحمد بن علي بن محمد ابن دمكل.

وعلى جانب الصك في أعلاه : ليسجل بثبوته والحكم به إن شاء الله تعالى.

توقيع القاضي :

وفي آخره : «اعترف المتعاقدان المذكوران أعلاه عندي بذلك، كتب محمد بن عمر الشافعي خليفة حاكم القدس بالرملة ـ أعلمني بذلك أيده الله». هـ مقال الأستاذ عبد الله مخلص، بحذف ما لم تتعلق به حاجة.

رجـــاء :

إذا كان لي ما أعلق به على هذا المقال القيم، فهو أن أتقدم لوزارة التهذيب الوطني بالرغبة في أن تعمل على أخذ صور لهذا المصحف، حتى تحفظ بأهم مكاتب المغرب، وما ذلك عليها بعزيز، وقد سجلت هذه الرغبة في فترة كتابة هذا الفصل منذ عام 1956/1376.

ن ـ سفارة عام 749

هذه آخر سفارة عثرت عليها لأبي الحسن، وقد تكون آخر ما بعث به لمصر، وقد أشار لها في «**الاستقصا**»[540] على أنها مراسلة صدرت عن أبي الحسن في دخوله لتونس الواقع في ربيع الآخر عام 749.

وكان موضوع تلك المراسلة التماس ملك المغرب من صاحب مصر القبض على ابن تافراجين الفار منه إلى الإسكندرية بعد خروجه عليه، ومظاهرته العرب في واقعتهم بالقيروان ضد ملك المغرب، وقد اضطر ملك مصر لعدم التقبض على المذكور، لما أجاره بعض الأمراء المصريين وانصرف لقضاء فريضة الحج.

ولم يبين في «**الاستقصا**» اسم صاحب مصر، ولا شك أنه السلطان الناصر حسن بن الملك الناصر محمد بن قلاوون، الذي كان ملك مصر في هذا التاريخ.

أما ابن تافراجين فهو الشيخ أبو محمد عبد الله بن الشيخ أبي العباس أحمد بن تافراجين التينملي، من حجاب سلطان تونس أبي بكر بن أبي زكرياء الحفصي[541].

(540) (2) ص. 79، ط. مصر.

(541) التعليق على **تاريخ ابن الشماع**، ص. 110 : الطبعة الأولى.

ثالثا : العلاقات في بقية العصر المريني الثاني مع العصر الثالث

إن أول ميزة لهذه الفترة، ارتفاع عدد الملوك الذين كانت لهم علاقات مع الشرق الإسلامي بالنسبة لعددهم في العصر الأول، وقد بلغ عددهم في هذه الفترة ستة وهم :

1) **أبو عنان فارس بن أبي الحسن 749هـ/1348 م = 759/1358.**

2) **أبو فارس عبد العزيز الأول بن أبي الحسن 767/1366 = 774/ 1372.**

3) **أبو العباس أحمد بن أبي سالم بن أبي الحسن ـ الدولة الأولى : 775/ 1373 = 786/1384 ـ الدولة الثانية : 789/1387 = 796/ 1393.**

4) **أبو عامر عبد الله بن أبي العباس ابن أبي سالم 799/1397 = 800/ 1398.**

5) **أبو سعيد الثاني، عثمان بن أبي العباس بن أبي سالم 800/1398 = 823/ 1420.**

6) **عبد الحق بن أبي سعيد بن أبي العباس بن أبي سالم 823/1420 = 869/ 1465.**

أبو عنان :

ابتداء من أبي عنان نواجه الميزة الثانية لهذه الفترة، والتي تبدو في انعدام تفصيلات وافية عن علاقات المغرب مع الشرق في هذا الدور، وأولى ظاهرة لهذه الميزة بالنسبة لأبي عنان، أنه لا توجد إلا إشارة عابرة ومقتضبة، تفيد وجود سفارة بعثها هذا العاهل إلى مصر، وقد جاءت هذه الإشارة في «**التعريف بابن خلدون**»(542) الذي أوردها هكذا.

---

(542) نشر الأستاذ محمد بن تاويت الطنجي، القاهرة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، 1370/ 1951، ص. 248.

«وحضر صاحبنا قاضي العسكر بفاس، الفقيه الكاتب أبو القاسم البرجي بمجلس السلطان أبي عنان، منصرفه من السفارة عنه إلى ملوك مصر، وتأدية رسالته النبوية إلى الضريح الكريم، سنة ست وخمسين وسبعمائة...».

فهذه الفقرة تكشف عن قيام علاقات بين المغرب ومصر أيام أبي عنان، وعن وجود سفارة توجهت من المغرب المريني إلى مصر المملوكية سنة 756هـ/ 1355م. وقد كان ملك مصر وما والاها في هذا التاريخ، هو السلطان حسن الناصر بن الملك الناصر محمد بن قلاوون الصالحي : في ولايته الثانية التي كان فيها تحت استبداد اثنين من أمراء المماليك، ويظهر أن هذا الوضع هو الذي دفع ابن خلدون أن يجعل السفارة لملوك مصر بدل ملك مصر، وهو يقصد السلطان حسن مع الأميرين المستبدين عليه في دولته الثانية، التي استمرت من سنة 755هـ/1354م ـ إلى سنة 762هـ/1361م[543].

ولاشك أن هذه السفارة هي التي ذكرها ابن الخطيب[544] في ترجمة البرجي لما قال : «واستعمل في السفارة إلى ملك مصر»، كما أنه لا يبعد أن تكون هذه السفارة هي التي أشار لها ابن أبي جحلة لما قال في كتابه «**منطق الطير**»[545] : وقلت في غراب أبي عنان القادم في الرسلية «كذا» إلى إسكندرية :

أتتنـــا من جواريـــه فتـــاة ومسبـــل قلعهـــا مثـــل الإزار
غراب طائـــر بجنـــاح قلـــع فما أخطـا بأنعمـه مطـارى».

وقد يكون هذا الغراب هو الذي تحدث عنه ابن الخطيب في «**نفاضة الجراب**»[546] التي أوردت الفقرة التالية أثناء كلام :

(... واتفق تفئة ذلك أن وصل سبتة الغراب الموجه إلى الاسكندرية أخريات الأمير أبي عنان ... بما جد له شراوه من متاع الشرق وطيبه وطرفه فحط بسبتة)، وهذا يفيد وجود علاقات تجارية بين المغرب ومصر في هذه الفترة.

(543) أنظر عن السلطان حسن في دولته الثانية : **العبر**، ج 5، ص. 450ـ452، ط. مصر، سنة 1284هـ.

(544) مختصر الإحاطة المطبوع باسم **الإحاطة**، ج 2، ص. 221، ط. مطبعة الموسوعات، مصر، 1319هـ.

(545) نسخة المكتبة الملكية بالرباط، رقم 1910.

(546) مصورة معهد مولاي الحسن بتطوان رقم 27، ج 2، لوحة 91ب.

وبعد هذا نذكر أن هناك شيئا آخر ورد في فقرة «**التعريف بابن خلدون**» السالفة الذكر حيث قال : «وتأدية رسالته النبوية إلى الضريح الكريم».

وهذا يفيد أن البرجي كان مكلفا ـ من طرف أبي عنان ـ بمهمة ثانية إلى جانب السفارة إلى مصر، وهي إيصال رسالة نبوية كتبها هذا الملك، إلى المقام النبوي الكريم بالمدينة المنورة.

وقد كانت هذه الرسالة النبوية عبارة عن رسالة من إنشاء أبي عنان متصلة بقصيدة من نظمه، وكلاهما ـ على حد تعبير ابن الخطيب[547] ـ يعلن ـ في الخلفاء ـ ببعد شاوه، ورسوخ قدم علمه، وعراقة البلاغة في نسب خصله، وحسب «**تحفة النظار**»[548] فقد دبجهما أبو عنان بخط يده الذي يخجل الروض حسنا.

واشتهرت هذه الرسالة بالشرق بعد المغرب، حتى أوردها بـ«**كشف الظنون**»[549] في العبارة التالية : «الدرة السنية والرسالة النبوية» : رسالة لأبي عنان ملك المغرب).

هذا، ويظهر أن أبا عنان حبس على خصوص القصيدة ـ المكتوبة مع الرسالة ـ أوقافا لاستمرار قراءتها بالمقام النبوي الكريم، فقد جاء في «**نصح ملوك الإسلام**»[550] التصريح بأن القصيدة العنانية تقرأ بطيبة المشرفة زمن تأليف هذا الكتاب : نحو سنة 1398/800.

ولا يبعد أن يكون هذا الوقف من أغراض سفارة البرجي إلى ملك مصر الذي كان يتولى أمر الحرمين الشريفين أيضا. وهكذا تقدم لنا هذه الرسالة النبوية لونا آخر من علاقات أبي عنان الذي كان صيته قد شاع بالحجاز والعراق[551].

أما السفير البرجي فهو أبو القاسم محمد بن يحيى بن محمد بن يحيى بن علي بن ابراهيم الغساني البرجي الغرناطي نزيل فاس، المتوفى سنة 1384/786[552].

* * *

(547) **مختصر الإحاطة** السابق الذكر، ج 2، ص. 215.

(548) ج 2، ص. 183، ط. المكتبة التجارية الكبرى بمصر، 1377هـ.

(549) ج 1، ص. 484، ط. الاستانة، 1311هـ.

(550) ص. 31، ط. المطبعة الحجرية الجديدة بفاس، 1316هـ.

(551) **نصح ملوك الإسلام**، ص. 31.

(552) من مصادر ومراجع ترجمته مختصر الإحاطة المطبوع باسم **الإحاطة**، ج 2، ص. 215–221؛ **والتعريف بابن خلدون**، ص. 64–65؛ **ونيل الابتهاج**، ص. 266–267؛ **وجذوة الاقتباس**، ص. 197، المطبعة الحجرية الفاسية.

أبو فارس عبد العزيز الأول

يوخذ من «**صبح الأعشى**»[553] وجود علاقات بينه وبين ملك مصر وما إليها لعهده : الأشرف شعبان بن الناصر حسن بن الملك الناصر محمد بن قلاوون الصالحي، فقد نقل عن مؤلف «**التثقيف**» أن مكاتبة هذا إلى أبي فارس عبد العزيز الأول كانت تقع في قطع النصف : «حجم خاص من الورق...».

وقد استمرت دولة الأشرف من سنة 1363/764 إلى سنة 778/ 1377[554].

وكصنيع أبي عنان، فإن عبد العزيز الأول بعث ــ هو الآخر ــ برسالة إلى المقام النبوي الكريم، وقد تحدث عنها ابن أبي ججلة في «**منطق الطير**»، الذي ضمنه تقريظا ضافيا ــ منثورا ومنظوما ــ وصف في ثناياه الرسالة الفارسية، وبين أنها مفتتحة بأبيات دالية، ومكتوبة بخط أبي فارس، ومما جاء في هذا التقريظ :

(... فقد وقف المملوك ... على الرسالة الملكية السلطانية الفارسية العزيزية، المجهزة إلى الحضرة النبوية، المفتتحة بالأبيات الدالية ... وانتهى إلى ما أنجز في ذيلها من الضراعة والظمأ إلى صاحب الحوض والشفاعة .. فقد بلغ برسالته التي قرئت بحضرة السول وهبت عليها نسمة القبول .. ثم وصف خطها في هذه القطعة :

فكم همزة تبدو على «ألف» بها ... كساجعة من فوق غصن تغرد
اغازل منها كل «عين» كأنما ... يلوح بها من أسود النقش إثمد
وانظر من نفثَ القوافي بطرسها ... محارب «دالات» بها السحر يسجد

وهناك ــ في نفس المصدر ــ قصيدة مطولة لابن أبي جحلة مدح بها أبا فارس الأول، وقال عن رسالته النبوية :

له في النبي الهاشمي رسالة ... يكرر فيها شوقه ويعيد
وأنشدها بالحج في كل مشهد ... يطيب بها للسمع منه نشيد
وأم بها من طيبة طيب روضة ... بها يقطف الجاني الرضى ويزيد

* * *

(553) ج 7، ص. 388.

(554) أنظر عن دولة الأشرف : العبر، ج 5، ص. 453–465.

أبو العباس أحمد بن أبي سالم :

أبو عامر بن أبي العباس بن أبي سالم :

وقد كان يعاصرهما في مصر وما إليها الملك الظاهر برقوق فاتح دولة الشراكسة، والذي امتدت ولايته من سنة 1382/784 إلى سنة 1398/801[555].

وفي عهده وقعت مهاداة بينه وبين ملكي المغرب أبي العباس أحمد بن أبي سالم وابنه أبي عامر، وتحدث عن هذه المهاداة ابن خلدون في موضعين من «**العبر**»[556]، ثم فصل حديثها تفصيلا في الخاتمة المعروفة بـ«**التعريف بابن خلدون**»[557]، والتي سنقتطف منها هذه الصفحة المطولة فيما يلي :

(... ثم وصل إلينا «إلى مصر» عام ثلاثة وتسعين وسبعمائة «شيخ الأعراب» : «المعقل» بالمغرب: يوسف بن علي بن غانم، كبير أولاد حسين ناجيا من سخط السلطان أبي العباس أحمد بن أبي سالم : من ملوك بني مرين بفاس، يروم قضاء فرضه، ويتوسل بذلك لرضى سلطانه، فوجد السلطان غائبا ـ بالشام ـ في فتنة منطاش[558] فعرضته لصاحب المحمل، فلما عاد من قضاء فرضه وكان السلطان قد عاد من الشام فوصلته به، وحضر بين يديه وشكا بثه، فكتب الظاهر فيه شفاعة لسلطان وطنه بالمغرب، وحمله مع ذلك هدية إليه من قماش، وطيب، وقسي، وأوصاه بانتقاء الخيل له من قطر المغرب، وانصرف، فقبل سلطانه فيه شفاعة الظاهر، وأعاده إلى منزلته، وانتفى الخيول الرائعة لمهادة الملك الظاهر، وأحسن في انتقاء أصناف الهدية، فعاجلته المنية دون ذلك، وولى ابنه أبو فارس، وبقي أياما ثم هلك وولى أخوه أبو عامر، فاستكمل الهدية، وبعثها صحبة يوسف بن علي الوارد الأول.

وكان السلطان الملك الظاهر، لما أبطأ عليه وصول الخيل من المغرب، أراد أن يبعث من أمرائه من ينتقي له ما يشاء بالشراء، فعين لذلك مملوكا من مماليكه منسوبا إلى تربية الخليلي، اسمه «قُطْلُوبُغا»[559].

---

(555) أنظر عن دولة الظاهر برقوق : **العبر**، ج 5، ص. 473–508، مع **الأعلام** للزركلي، ج 2، ص. 18–19.

(556) ج 7، ص. 148 و363.

(557) ص. 339–346.

(558) أنظر عن هذه الفتنة : **العبر**، ج 5، ص. 487–505.

(559) توجد ترجمته في **الضوء اللامع**، ج 6، ص. 223.

وبعث عني فحضرت بين يديه، وشاورني في ذلك فوافقته، وسألني كيف يكون طريقه فأشرت بالكتاب في ذلك إلى سلطان تونس من الموحدين، وسلطان تلمسان من بني عبد الواد، وسلطان فاس والمغرب من بني مرين، وحمله لكل واحد منهم هدية خفيفة من القماش، والطيب، والقسي، وانصرف عام تسعة وتسعين إلى المغرب، وشيعه كل واحد من ملوكه إلى مأمنه، وبالغ في إكرامه بما يتعين، ووصل إلى فاس فوجد الهدية قد استكملت، ويوسف بن علي على المسير بها عن سلطانه أبي عامر من ولد السلطان أبي العباس المخاطب أولا، واظلهم عيد الأضحى بفاس، وخرجوا متوجهين إلى مصر، وقد أفاض السلطان من إحسانه وعطائه على الرسول قطلوبغا ومن في جملته بما أقر عيونهم، وأطلق بالشكر ألسنتهم، وملأ بالثناء ضمائرهم...

وكانت هدية صاحب المغرب تشتمل على خمسة وثلاثين من عتاق الخيل بالسروج واللجم الذهبية، والسيوف المحلاة، وخمسة وثلاثين حملا من أقمشة الحرير والكتان والصوف والجلد، منتقاة من أحسن هذه الأصناف.

وهدية صاحب تلمسان تشتمل على ثلاثين من الجياد بمراكبها المموهة، وأحمال من الأقمشة.

وهدية صاحب تونس تشتمل على ثلاثين من الجياد مغشاة ببراقع الثياب من غير مراكب، وكلها أنيق في صنعه، مستطرف في نوعه.

وجلس السلطان يوم عرضها جلوسا فخما في إيوانه، وحضر الرسل وأدوا ما يجب عن ملوكهم، وعاملهم السلطان بالبر والقبول، وانصرفوا إلى منازلهم للجرايات الواسعة، والأحوال الضخمة، ثم حضر وقت خروج الحاج، فاستأذنوا في الحج مع محمل السلطان، فأذن لهم، وأرغد أزودتهم، وقضوا حجهم، ورجعوا إلى حضرة السلطان ومعهود مبرته، ثم انصرفوا إلى مواطنهم، وشيعهم من بر السلطان وإحسانه ما ملأ حقائبهم، وأسنى ذخيرتهم، وحصل لي أنا من بين ذلك في الفخر ذكر جميل، بما تناولت بين هؤلا الملوك من السعي في الوصلة الباقية على الأبد، فحمدت الله على ذلك).

هذا حديث «**التعريف بابن خلدون**» عن تلك المهادات، وما كان فيها من تمتين للعلاقات بين المغرب والشرق، وهو يفيد ــ فوق ذلك ــ أن روابط الإخاء بين

المغرب ومصر، بلغت إلى حد التدخل الودي في علاقات ملك المغرب مع موظفيه، حيث رأينا الظاهر برقوق يتقدم بالشفاعة في شيخ عرب المعقل لدى أبي العباس بن أبي سالم، الذي يتقبل الشفاعة الشرقية، ويعيد الشيخ العربي إلى منزلته.

هذا وقد ساق خبر هذه المهادات ابن حجر في «**إنباء الغمر بأنباء العمر**»(560) في شيء من المخالفة لما تقدم، فقد ذكر في حوادث سنة 800 ما يلي :

(وفيها ـ في رمضان ـ وصل قطلوبغا الخليلي من بلاد المغرب وصحبته الخيول التي كان توجه لمشتراها للسلطان، وهي مائة وعشرون رأسا، وحضر صحبته رسول صاحب فاس، ورسول صاحب تلمسان، ورسول صاحب تونس، والأمير يوسف بن علي أمير عرب تلك البلاد، وقدموا هداياهم، فقبلت وخلع عليهم وتوجهوا إلى الحج).

أبو سعيد عثمان الثاني :

وقد ارتبط بعلاقات مع ملك مصر وما إليها الناصر فرج بن الظاهر برقوق، الذي استمرت ولايته من سنة 1399/801 إلى سنة 1412/815(561).

ويحتفظ «**صبح الأعشى**»(562) بنص الرسالتين المتبادلتين في هذا الصدد، ومنهما ـ مع «**الصبح**» ـ نستفيد أن سفارة مغربية توجهت برسالة من فاس للقاهرة سنة 1402/804، لتهنئة الناصر فرج بما تسنى له من إيقاف الزحف التتري ضد الشام بقيادة «تيمورلنك»، ومن الرسالة المغربية ـ بالخصوص ـ نستفيد اسم القائم بهذه السفارة، مع الإشعار بما كان قر عليه العزم المريني من المساهمة في صد العدوان التتري لو استمر في زحفه، وقد قدم «**الصبح**» هذه الرسالة المغربية هكذا :

«نسخة كتاب عن السلطان عثمان بن أبي العباس المريني، في العشر الأوسط من شعبان سنة أربع وثمانمائة». وهذا يفيد أن هذه الرسالة صدرت عن أبي سعيد الثاني أيام حجابة فارح بن مهدي 806/802 هـ(563). وفيما يلي خلاصة الرسالة المغربية :

(560) نسخة المكتبة الملكية بالرباط، رقم 1248 ـ ج 1 : نسخة غير مرقمة.
(561) توجد ترجمته ومصادرها ومراجعها في **الأعلام** للزركلي، ج 5، ص. 340-341.
(562) **الرسالة المغربية**، ج 8، ص. 103-106، و**الرسالة الشرقية**، ج 7، ص. 407-411.
(563) أنظر عن فارح بن مهدي **الجذوة**، ص. 316-317 مع **الاستقصا**، ج 2، ص. 146. ط. مصر.

(... فإنا كتبنا إليكم من حضرتنا العلية بالمدينة البيضاء ... وكتابنا هذا يقرر لكم من ودادنا ما شاع وذاع، ويؤكد من إخلاصنا إليكم ما تتحدث به السمار فتوعيه جميع الأسماع.

وقد كان انتهى الينا حركة عدو الله وعدو الإسلام (تقصد الرسالة تيمورلنك)... وتعرفنا[564] أنه كان يعلق أمله الخائب بالوصول إلى أطراف بلادكم المصرية، وانتهاز الفرصة على حين غفلة من خلافتكم العلية، والحمد لله الذي كفى ـ بفضله ـ شره، ودفع نقمته وضره، وانصرف ناكصا على عقبه، خائبا من نيل أربه، ولقد كنا حين سمعنا بسوء رأيه الذي غلبه الله عليه، وما اضمر لخلق الله من الشر الذي يجده في أخراه ظله يسعى بين يديه : عزمنا على أن نمدكم من عساكرنا المظفرة بما يضيق عنه الفضا، ونجهز لجهتكم من أساطيلنا المنصورة ما يحمد في إمداد المناصرة ويرتضي، فالحمد لله تعالى على أن كفى المومنين القتال، واذهب عنهم الأوجال، ويسر لهم الأعمال، وهيا لخلافتكم السنية وللمسلمين، هناء يتضمن السلامة لكم ولهم على تعاقب الأعوام والسنين.

وبحسب ما لنا فيكم من الود الذي أسست المصافات بنيانه، والحب الذي أوضح الإخلاص برهانه، وقع تخيرنا ـ فيمن يتوجه من بابنا الكريم لتفصيل مجمله، وتقرير ما لدينا فيه على أتم وجه الاعتقاد وأكمله ـ على الشيخ الأجل، الشريف ... أبي عبد الله محمد بن الشيخ الأجل ... المقدس المرحوم أبي عبد الله ابن أبي القاسم بن نفيس الحسني العراقي[565] وصل الله سعادته، وأحمد على حضرتكم السنية وفادته، حسب ما يفي بشرح ما حملناه نقله، ويكمل بإيضاحه لديكم يقظته ونبله...).

وبعد الرسالة المرينية نبين أن جواب الناصر فرج عنها كان من إنشاء القلقشندي[566] مؤلف «**صبح الأعشى**»، الذي أثبت فيه نص هذا الجواب، وفيما يلي خلاصته :

---

(564) في **التعريف بابن خلدون**، ص. 380–383 أورد المؤلف فصلا من رسالة كتبها إلى أبي سعيد الثاني، حيث عرفه بشأن تيمورلنك.

(565) لا شك أن هذا أحد أعيان الشعبة العراقية الشريفة الموجود أكثر فروعها بفاس، وهم حسينيون بالتصغير، وما هنا من «الحسنى» سبق قلم : أنظر ـ مثلا ـ **الدرر البهية** للفضيلي، ج 2، ص. 236—239، ط. فاس.

(566) أبو العباس أحمد بن علي بن أحمد الفزاري القلقشندي ثم القاهري المتوفى سنة 1418/821؛ توجد ترجمته وبعض مصادرها ومراجعها في الأعلام للزركلي. ج 1، ص. 172.

(... فإنه ورد علينا كتاب كريم طاب وروده ... وفهمنا ما أظهره من كوامن المحبة التي بلغت من القلب الشغاف، وبوارح الشوق الذي عندنا من مثله أضعاف أضعاف، وانتهينا إلى ما أشار إليه المقام العالي من التلويح إلى ما طرق أطراف ممالكنا الشريفة من طارق الاعتدا، وما كان من الواقعة التي كاد خبرها ـ لفظاعته ـ يكون كالمبتدا.

ونحن نبدي لعلم المقام العالي ما يوضح له أن ما وقع من هذه القصة لم يكن عن سوء تدبير، ونورد عليه من بيان السبب ما يحقق عنده أن ذلك لم يكن لعجز ولا تقصير... وذلك إنه لما اتصل بمسامعنا الشريفة قصد العدو إلى جهتنا... بادرنا الحركة إليه في عسكر لجب... وتحركنا من الديار المصرية في جيوش لا يأخذها حصر... حتى وافينا دمشق المحروسة فنزلنا بظاهرها... وانضم إلينا من عساكر الشام وعربانها، وتركمانها الزائدة على العد وعشرانها، ما لا ينقطع له مدد... واقبل القوم في لفيف كالجراد المنتشر، وأمواج البحر التي لا تنحصر... وتراءا الجمعان في افسح مكان... ولم يبق إلا المبارزة... إذ ورد وارد من جهتهم يطلب الصلح والموادعة... فأجبناهم بالإجابة... فبينما نحن على ذلك واقفون... إذ بلغنا أن طائفة من الخونة الذين ضل سعيهم... توجهوا إلى الديار المصرية للاستلاء على تخت ملكنا الشريف في الغيبة... فلم يسع إلا الإسراع في طلبهم، للقبض عليهم وإيقاع النكال بهم، وجازيناهم بما يجازي به الملوك من رام مرامهم[567]، وظن العدو أن قصدنا الديار المصرية إنما كان لخوف أو فشل، فأخذ في خداع أهل البلد حتى سلموه إليه وفعل فعلته التي فعل... ثم لم نزل ندأب في تحصين البلاد وترويج أعمالها... فاستقرت بعد الاضطراب، وتوطنت بعد الاغتراب، وفي خلال ذلك ترددت الرسل إلينا في عقد الصلح وإمضائه... فلم يسعنا التلكؤ عن المصالحة بل سعينا سعيها، فعقدنا لهم عقد الصلح وأمضيناه[568]... والله تعالى يجنب إخاءكم الكريم مواقع الغير، ويقرن مودته الصادقة بصفاء لا يشوبه ـ على ممر الزمان ـ كدر...).

عبد الحق بن أبي سعيد الثاني :

ورد في «**دائرة المعارف**» الوجدية[569] انه لما فتحت القسطنطينية العظمى

(567) توجد إشارة لهذه الثورة في **التعريف بابن خلدون**، ص. 367.

(568) في المصدر الأخير، ص. 365–367 و380 : حديث عن هذا الزحف التتري إلى الشام.

(569) ج 2، ص. 567.

عام 1453/857، كان سلطان المغرب من جملة من أرسل بالتهاني إلى السلطان الفاتح محمد الثاني[570].

ولا شك أن سلطان المغرب في هذا التاريخ هو عبد الحق بن أبي سعيد الثاني، آخر ملوك الدولة المرينية، وبهذا يكون عبد الحق المريني هو فاتح علاقات المغرب مع الدولة التركية العثمانية.

(570) أنظر عن ترجمته وعصره **تاريخ ابن خلدون**، ملحق الجزء الأول، ص. 132–158، ط. المطبعة الرحمانية بمصر: 1936/1355.

الباب الثالث

تاريخ الفكر الإسلامي والدخيل في العصر المريني

مدخل تاريخي

يعتبر فاتح عام 1267/667 هو البداية الشمولية للحكم المريني بالمغرب، كما يعتبر التاريخ ذاته مبدأ للعصر المريني الأول، فيتعاقب على الحكم الأسماء التالية :

- أبو يوسف يعقوب المنصور بن عبد الحق
- ابنه يوسف الناصر
- أبو ثابت عامر بن الأمير عبد الله بن يوسف الناصر
- أبو الربيع سليمان بن الأمير عبد الله بن يوسف الناصر
- أبو سعيد الأول : عثمان بن يعقوب المنصور

وقد كانت وفاته آخر عام 1331/731، حيث نهاية العصر المريني الأول، وهي الفترة التي تتناولها – على العموم – هذه الدراسة حسب النقط التالية :

- إلمامة بواقع الفكر الإسلامي حين قيام بني مرين.
- عوامل الازدهار الثقافي في العصر المريني الأول.
- المميزات الثقافية.
- المراكز الثقافية.

* * *

إلمامة بواقع الفكر الإسلامي حين قيام بني مرين

عاصر قيام المرينيين انتكاسا شبه شامل للثقافة الإسلامية في المشرق والمغرب، فإلى صدر النصف الأول من المائة الهجرية السابعة، كانت الدنيا الإسلامية تزدان بعواصم علمية زاهرة، تمثلها – في المشرق – بغداد وبخارى وسمرقند ونيسابور والري،

والقاهرة، وفي المغرب : قرطبة واشبيلية وغيرهما، وتضم جميعها عددا ضخما من المراكز التعليمية والخزائن وما لا يحصى من العلماء.

غير أن هذه العواصم ـ كلها ـ تعرضت ـ وشيكا ـ لنكسة شاملة : ففي المشرق : سقطت القواعد العلمية ضحية الغزو التتري الكاسح حوالي منتصف المائة المشار لها، بينما كانت بقايا الحروب الصليبية لا تزال في مدها، متجهة نحو مصر ثم تونس من بعد، ويصور ابن الأثير ابعاد هذه الكارثة «المزدوجة» في أيامها الأولى، وهو يقول في ذلك :

* * *

«.... ولقد بلي الإسلام والمسلمون في هذه المدة بمصائب لم يبتل بها أحد من الأمم : منها هؤلاء التتر الذين أقبلوا من المشرق، ففعلوا الأفعال التي يستعظمها كل من سمع بها.

ومنها خروج الفرنج من المغرب إلى الشام وقصدهم ديار مصر، وملكهم ثغر دمياط منها، وأشرفت ديار مصر والشام وغيرها على أن يملكوها، لولا لطف الله ـ تعالى ـ ونصره عليهم.

ومنها أن الذي سلم من هاتين الطائفتين فالسيف بينهم مسلول، والفتنة قائمة على ساق[1]....»

وقد ذهب ضحية هذه الهزاهز العلماء والمراكز التعليمية والخزائن : ففي عام 1218/617 أحرق جنكيز خان ما لا يأتي عليه الحصر من خزائن الكتب في بخارى ونيسابور وغيرهما من مدائن العلم في فارس[2].

وفي عام 1258/656 نسف مدينة بغداد هولاكو حفيد جنكيز خان، وكانت نكبة الكتب بها عظيمة، فطرح المغول نفائس المصنفات في دجلة[3]، ومن كثرتها البالغة ملأت النهر حتى صار للرجالة والفرسان معابر وجسورا[4].

(1) **تاريخ الكامل**، مطبعة أحمد الحلبي وشريكه، بالقاهرة، 138/12.
(2) **تاريخ آداب اللغة العربية**، لجرجي زيدان دار الهلال، 123/3.
(3) **تاريخ الموصل**، تأليف القس سليمان صائغ، المطبعة السلفية بمصر 247/1.
(4) **تاريخ الآداب العربية من نشأتها إلى أيامنا**، تأليف لفيف من الأساتذة، مطبعة الفرير الصناعية، باب سدرة بالإسكندرية، الطبعة الثانية، ص. 509ـ510.

وفي عام 1272/671 قام ابن هولاكو بإحراق مدرسة مسعود بك في بخارى، وكانت من أوسع دور العلم في ذلك العصر، فالتهمت النار كتبها الكثيرة(5).

وبالنسبة إلى العلماء : لم يرد إحصاء شامل بمن ضاع منهم في هذه الفتن التترية، وإنما يعرف عددهم بالنسبة لمدينتين، خاصة : بخارى حيث استشهد فيها من أهل العلم ـ فيما يقال ـ أحد عشر ألف مدرس مفت(6).

وفي بغداد : كان ضمن قتلاها من العلماء ـ دون غيرهم ـ ثلاثة عشر ألف فقيه(7).

* * *

أما الأندلس : فقد صار الإسبان كلما استولوا على بلدة أحرقوا كتب العلم بها، على عادة رجال الحرب في تلك الأيام(8)، كما أن علماء الفردوس المفقود شردوا ـ تشريدا على أوسع نطاق ـ إلى مختلف الجهات القريبة والبعيدة.

* * *

وقد تركت هذه الكوارث فراغا كبيرا في صفوف العلماء، وظهر هذا في المشرق أكثر حتى ليقول البعض :

«ولما أباد التتر بقية العلماء والنحاة في الشرق، كاد أفق الشام والمشرق ومصر يصفر من النحاة وأهل اللغة، لولا أن تداركها الله ـ تعالى ـ بدخول التتر في الإسلام، ومعاضدتهم والدول التي خلفتهم : للعلم والعلماء، وبجلاء بعض كبار النحاة واللغويين من الأندلس والغرب قبل حادث التتار وبعده(9).

كذلك كان من أثر هذه الغارات أن قلت الكتب المؤلفة بين القرنين : الثاني والسابع هـ، فضاعت معارف الشرق بإتلاف خزائن كتبه، وضاعت علوم المغرب الكبير والأندلس بإحراق الكتب في الأندلس.

---

(5) **دائرة المعارف**، لمحمد فريد وجدي 75/8.

(6) **الذخيرة السنية**، لمؤلف مجهول الاسم، ط/الجزائر، ص. 55.

(7) **تاريخ الدولتين**... للزركشي، مطبعة الدولة التونسية سنة 1289 هـ، ص. 26.

(8) **تاريخ آداب اللغة العربية** لجرجي زيدان. 124/3.

(9) **الوسيط في تاريخ الأدب العربي**، نشر دار المعارف بمصر، ص. 301.

وقد سجل بعض العلماء جناية التتر على الكتب الإسلامية، فقال السيوطي وهو يتحدث عن وفرة المؤلفات اللغوية : «... وقد ذهب جل الكتب في الفتن الكائنة بين التتر وغيرهم، بحيث إن الكتب الموجودة ـ الآن ـ في اللغة من تصانيف المتقدمين والمتأخرين : لا تجيء حمل جمل واحد[10].

وعن الكتب العربية بالعموم يقول أحد علماء الهند في خاتمة مقالة عن مكتبات المسلمين : «... ولذلك قلت الكتب التي ألفت بين القرن الثاني والسابع للهجرة، وما وجد من الكتب العربية ـ الآن ـ مؤلف أكثره بين أواسط القرن السابع وأواخر القرن الحادي عشر للهجرة»[11].

وهكذا نتبين من هذا العرض محنة الثقافة في العالم الإسلامي حين قيام بني مرين، ومع ذلك فقد استطاع المغرب ـ في ظل الدولة الجديدة ـ الاسهام في المحافظة على ما تبقى من المعارف الإسلامية، ووظيفة هذه الدراسة شرح معالم تلك المساهمة.

عوامل الازدهار الثقافي في العصر المريني الأول

وسيأتي في مقدمة هذه العوامل بناء المدارس، وإلحاق خزائن الكتب بأكثرها، والإنفاق على العلماء والطلبة[12]، وسار إثنان من المرينيين ـ في هذا العصر ـ على إجراء المرتبات على الشعراء والأطباء المختصين بهم، حسب الواقع بالنسبة ليوسف الناصر، ثم أخيه أبي سعيد الأول[13].

هذا إلى أن بعض سلاطين وأمراء هذه الفترة كانوا على جانب من الثقافة، ويعقدون المجالس العلمية للمذاكرة والمناظرة، كما أن جميع هؤلاء يقدرون رجال الفكر ويرفعون مكانتهم.

---

(10) **المزهر**، مطبعة السعادة بمصر 59/1ـ60.

(11) **دائرة المعارف الوجدية** : 76/8.

(12) سيرد بهذه الدراسة الحديث عن بناء المدارس وخزائنها ونفقاتها.

(13) **روض القرطاس**...، لابن أبي زرع، المطبعة الحجرية الفاسية عام 1305 هـ، ص. 276 و290، مع **العبر**...، لابن خلدون، دار الطباعة بالقاهرة عام 1284 هـ، 395/7.

فهذا أبو يوسف ماهد الدولة، كان من عادته بعد صلاة الصبح : أن يقرأ بين يديه ـ إلى وقت الضحى ـ كتب السير والقصص وفتوح الشام، فيستمع إليها، ويناقش الحاضرين في مشكلاتها[14]، وفي ليالي رمضان يسمر مع العلماء ليذاكرهم في فنون العلم إلى ثلث الليل الأخير[15].

وجاء عن ابنه أبي مالك عبد الواحد : أنه كان محبا للأدب والتاريخ، ذاكرا لكثير من ذلك، مقربا للعلماء والفقهاء، عارفا بأنساب بني مرين وسائر قبائل زناتة، ذاكرا لأيامهم وحروبهم، يجالس أهل العلم والفقه والأدب ويناظرهم، يحب الشعر ويروي كثيرا منه ويأخذ نفسه بنظمه، ولحسن الحظ يحافظ التاريخ على خمسة من علية أهل مجلس الأمير المريني حسب الأسماء التالية :

ـ القاضي يوسف بن حكم البلنسي.

ـ القاضي أبي الحسن المغيلي.

ـ الفقيه الكاتب أبي عمران التميمي.

ـ الأديب الشاعر مالك ابن المرحل.

ـ الأديب الشاعر عبد العزيز الملزوزي[16].

غير أن أبا مالك لم يعمر طويلا، وتوفي ـ في حياة والده ـ عام 671/1272[17].

وقد لمع بعد أبي يوسف اسم حفيده العاهل المريني أبي ثابت، حيث صار يجالس مجموعة من الفقهاء كبيرهم أبو يحيى بن أبي الصبر[18].

ثم كان أبو سعيد الأول معدودا من أهل العلم[19]، ومن أساتذته الإمام أبو

(14) **أرجوزة نظم السلوك...**، للملزوزي المطبعة الملكية، ص. 77ـ78.

(15) **روض القرطاس**، ص. 264.

(16) **الذخيرة السنية**، لمؤلف مجهول الاسم. ط الجزائر، ص. 139ـ140

ـ **روض القرطاس**، ص. 221.

(17) **الذخيرة السنية**، ص. 154.

(18) **العبر**: 237/7.

(19) **الدرر الكامنة**، لابن حجر بمطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية بالهند 452/2.

الحسن الصغير[20]، وخرج له أبو القاسم التجيبي السبتي ـ من مروياته ـ أربعين حديثا في فضل الجهاد والحث عليه[21]، ويذكر ابن مرزوق من خواص أهل مجلسه ومسامريه :

ـ القاضي محمد بن علي المليلي.

ـ المحدث الرحالة ابن رشيد السبتي.

ـ المحدث الأديب عبد المهيمن الحضرمي.

ـ الفقيه محمد بن أبي مدين.

ـ الفقيه عيسى بن حرزوز المكناسي.

ـ الخطيب عبد الرحمن ابن مسونة[22].

وقلد أبا سعيد في الاشتغال بالعلم إثنان من أبنائه : أبو الحسن السلطان من بعده، أما ابنه الآخر فهو أبو علي عمر، وكان ـ حسب ابن خلدون ـ محبا للعلم مولعا بأهله منتحلا لفنونه، وله بعض البصر بالبلاغة واللسان العربي[23].

وسيكون أبو عمر خامس المرينيين الذين انحاشوا للعلم في هذا العصر، ويضاف لهذه الظاهرة ما أشير له ـ سلفا ـ من بناء المدارس وإلحاق خزائن الكتب بأكثرها؛ والإنفاق على العلماء والطلبة، وهي ـ جميعها ـ لها أثرها البعيد في رفع مستوى العلم والأدب، كعامل مشجع من الدرجة الأولى.

وعامل آخر يدفع بهذه الحركة الثقافية إلى الأمام، ويبرز في عدم تدخل المرينيين لتوجيه الفكر المغربي توجيها معاكسا، وإنما تزكوا لمن يهمهم الأمر حرية الاختيار، وفي هذا الاتجاه كانت الفيئة إلى المذهب المالكي بعد النزعة الظاهرية في العهد الموحدي، فإن فقهاء المغرب هم الذين اختاروا ـ بمحض ارادتهم ـ العودة إلى هذا المذهب[24]، بينما كان دور الدولة لا يعدو عملية التنفيذ المعزز بالتشجيع، وقد كان لهذا الموقف أثره في نهضة الفقه المالكي خلال هذه الفترة.

---

(20) **العبر** 246/7.

(21) «بلغة الأمنية ومقصد اللبيب...»، **مجلة تطوان** : العدد 9، ص. 177.

(22) **مقدمة المسند الصحيح الحسن**...، مخطوط الأسكوريال رقم 1666 من فهرس بروفنسال.

(23) **العبر**: 248/7.

(24) **بيوتات فاس الكبرى**، ط دار المنصور، عند آخر البيت رقم 11.

أما ثالث العوامل فيبدو في حرص المرينيين ـ أكثر من الموحدين ـ على تمتين الوحدة الإسلامية مع الشرق العربي، حيث تضاعف الاتصال بهذا القطاع عن طريق السفارات وبواسطة ركاب الحجاج، مما كان له دخل في التمهيد للرحلة إلى الحج والزيارة، ثم الاستفادة ـ إلى حد ـ من معارف ومناهج البلاد المشرقية[25].

ولا ننسى ـ بعد ذلك ـ العامل الأندلسي، فقد جاء استقرار الأمر للمرينيين قريبا من سقوط القواعد الأندلسية الكبرى، فانتقلت مجموعات من أعلامها إلى المغرب الأقصى، حيث توزعت بين مدنه وأريافه[26]، واستقر معظمهم في مدينتي فاس وسبتة.

يضاف لهذا أفواج أخرى من شبه الجزيرة نزحوا إلى المغرب رغبة في العمل على مستوى التوظيف، أو في ميادين الأعمال الحرة.

فكان لهؤلاء مع من تقدمهم من الجاليات الأندلسية في عصور سابقة : أثرهم في دعم النشاط الفكري وتطويره، ليأخذ ـ مع مر الزمن ـ الطابع الخاص الذي يميز نشاط الثقافة الإسلامية بالمغرب الأقصى.

وخامسا : يأتي دور العزفيين أمراء سبتة، وقد شهدت هذه المدينة ـ في ظلهم ـ نشاطا مرموقا في الدراسات العربية والأدبية، وصار لها إشعاع انبسط أثره على مجموع شمال المغرب، وساهم في تجميل ثقافة المغرب المريني.

وبعد سبتة نشير إلى الجنوب الغربي لمدينة مراكش عند «إمارة سكسيوة وما إليها»، حيث لا يزال ـ من ملامح هذه المنطقة ـ قبيلة تحمل اسم «سكساوة» بقيادة فم تنوت من عمالة مراكش.

---

(25) انظر «علاقات المغرب بالشرق في العصر المريني الأول» : البحث السابق الذكر عند الباب الثاني من هذا العمل.

(26) يقول ابن غالب : «ولما نفذ قضاء الله ـ تعالى ـ على أهل الأندلس بخروج أكثرهم عنها في هذه الفتنة الأخيرة المبيرة، تفرقوا ببلاد المغرب الأقصى من بر العدوة مع بلاد افريقية :
فأما أهل البادية فمالوا ـ في البوادي ـ إلى ما اعتادوه، وداخلوا أهلها وشاركوهم فيها، فاستنبطوا المياه وغرسوا الأشجار وأحدثوا الأرحي الطاحنة بالماء وغير ذلك، وعلموهم أشياء لم يكونوا يعلمونها ولا رأوها، فشرفت بلادهم، وصلحت أمورهم، وكثرت مستغلاتهم، وعمتهم الخيرات...
وأما أهل الحواضر فمالوا إلى الحواضر واستوطنوها : فأما أهل الأدب فكان منهم الوزراء والكتاب.. وأما أهل الصنائع فإنهم فاقوا أهل البلاد..»، **نفح الطيب**، المطبعة الأزهرية المصرية: 2/123ـ24.

وقد استمرت هذه الإمارة إلى ما بعد العصر المريني الأول، واشتهر من رؤسائها ـ في هذه الفترة ـ إثنان جنحا إلى الاستقلال عن الدولة :

الأول : عبد الواحد السكسيوي، وكان يعاصر أبا يوسف المريني إلى أن توفي عام 680/ـ 81ـ1382.

الثاني : ابنه عبد الله الذي استمرت ولايته طويلا حتى أواخر عام 762/ 60ـ1361.

ولم يتحدث المصدر المعني بالأمر عن دور هذه الإمارة في تنشيط الثقافة بناحيتها، غير أنه يذكر عن الأمير عبد الواحد تضلعه في المعارف المنوعة، يليه في ذلك ابنه عبد الله، وبهذا لا يستبعد أن يكون الأميران ـ معا ـ قاما بإنهاض العلم في سكسيوة وما إليها، تجاوبا مع مستواهما العلمي، وهكذا يقول ابن خلدون عن عبد الواحد السكسيوي.

«... وكان منتحلا للعلم واعية له، جماعة لكتبه وداوينه، حافظا لفروع الفقه، يقال أن الأحاديث المدونة كانت من محفوظاته، محبا في الفلسفة مطالعا لكتبها، حريصا على نتائجها من علم الكيمياء والسيمياء والسحر والشعوذة، مطلعا على الشرائع القديمة والكتب المنزلة، يكتب التوراة، ويجالس أحبار اليهود، حتى لقد اتهم في عقيدته، ورمى بالرغبة عن دينه».

ثم كان ابنه عبد الله مقتفيا سنن أبيه في ذلك، وخصوصا في انتحال السحر والاستشراف إلى صنعة الكيمياء[27].

ومما يشير لوجود حركة ثقافية بهذه الإمارة التجاء أمير موحدي إليها، ليحترف بها مهنة النساخة ويتعيش من دخلها، وكان هذا هو أبا زيد بن الخليفة عمر المرتضي الموحدي، الذي استمر بقيد الحياة إلى عام 712/ 1313[28].

---

(27) **العبر** الطبعة المصرية ج 6 حيث يتحدث عن هذه الإمارة، ص. 262ـ264، مع الرجوع إلى الطبعة اللبنانية 553/6، وإلى **روض القرطاس**، ص. 296.

(28) **البيان المعرب** لابن عذاري : القسم الموحدي ط/تطوان، ص. 454.

المميزات الثقافية

وقد امتاز هذا العصر المريني الأول بجملة من المميزات، ويأتي بعضها من الفراغ الذي خلفه سقوط القواعد العلمية بالأندلس، حيث أصبح المغرب يتجه ـ أكثر من ذي قبل ـ إلى المشرق العربي والقاهرة بالخصوص، فكان من أثر هذا الاتجاه الجديد أن أخذت الثقافة المغربية تضاعف اقتباسها من الطابع الشرقي، وبرزت هذه الظاهرة في نقطتين بالخصوص :

ـ انتشار المدارس،

ـ وبدء نبدل المناهج التعليمية،

ـ وإلى جانب ذلك ظهرت مميزات أخرى، منها التخلي عن المذهبية الموحدية،

ـ ومغربة الجهاز الثقافي في بعض القطاعات.

* * *

وعن النقطة الأولى : يلاحظ أن هذه الفترة تعتبر المرحلة الأولى لبناء المدارس، حيث شيدت تسع مدارس في أربع مدن مغربية، وكانت ستة منها بفاس :

الأولى مدرسة الحلفاويين، وصارت تعرف بمدرسة الصفارين بعد ما نقل إلى مجاورتها سوق هذه المهنة : وهي من آثار أبي يوسف الذي أمر ببنائها في عام 675/1276ـ77[29]، ويقول عنه ابن مرزوق : «... وهو الذي بنى المدرسة بفاس : بعدوة القرويين منها، ولم يكن لأهل المغرب عهد ولا معرفة بوضعها فيما علمت»[30]،

---

(29) **زهرة الآس** للجزنائي، المطبعة الملكية، ص. 81، وفي طبعة الجزائر يوقت تاريخ البناء بعام 670 هـ: ص. 75.

(30) مقدمة **المسند الصحيح الحسن** مخطوط الأسكوريال، وجاء عند البادسي أنه لما بنى أبو يوسف هذه المدرسة، قام بزيارتها بعدها أدى صلاة الجمعة في جامع القرويين، مع الإشارة إلى أن الحي الذي بنيت به كان يحمل اسم «رحبة البقر»، حسب مخطوط «المقصد الشريف في التعريف بصلحاء الريف»، لدى ترجمة أبي إسحاق الأعرج، وعند ابن القاضي أن الذي أشرف على بناء هذه المدرسة هو قاضي فاس : مفضل بن محمد بن الدلاي العذري المري، ويضيف قائلا : وهو أول من سن سنة بناء المدارس بحضرة فاس، **جذوة الاقتباس**، ط/دار المنصور: 239/1، وهذه الإضافة تتلاقى ـ إلى حد ـ مع فقرة ابن مرزوق التي نعلق عليها، حيث تذكر أنه لم يكن لأهل المغرب عهد ولا معرفة بالمدارس قبل بناء مدرسة الحلفاويين.

=

وقد ألحق بها منشئها خزانة علمية أوقف عليها المخطوطات المنوعة التي تسلمها من الملك القشتالي سانشو. بعد معاهدة الصلح التي أنعقدت بين الطرفين عام 684/ 1285-86[31].

الثانية : مدرسة المدينة البيضاء : فاس الجديد، وقد صدر أمر أبي سعيد الأول بالشروع في تشييدها عام 720/ 1320-21[32]، ثم كمل بناؤها وبدئ بالإقراء فيها وسكناها في ذي القعدة عام 721/ 1321[33].

الثالثة : مدرسة الصهريج، وهي الواقعة غربي جامع الأندلس حيث غلب عليها اسم «مدرسة الأندلس».

الرابعة، مدرسة السبعيين المتصلة بشرق التي قبلها، وكانت لسكنى طلبة القراءات السبع، ولذلك تسمى في الوثائق القديمة بمدرسة الأساتيذ، وقد تسمى بالمدرسة الصغرى[34].

والمدرستان ـ معا ـ من تأسيس أبي الحسن المريني أيام ولايته للعهد، ويرجع تاريخ الأمر بإنشائهما إلى عام 720/ 1321-22، فانفق المؤسس في ذلك وفي بناء المرافق أموالا جليلة تزيد على مائة ألف دينار مريني[35]، ثم كمل بناء المدرسة الأولى وابتدئ بالإقراء بها : في شهر ربيع الأول عام 723/ 1323[36]، مع اعتبار أن الأمير

= غير أن ابن مرزوق يعارضه في ذلك ما ثبت من إنشاء يعقوب المنصور الموحدي للمدارس بالمغرب وغيره، وذلك ما تؤكده عدة نصوص واردة عن المزروزي في **نظم السوك**، ص. 58، وابن أبي زرع في **روض القرطاس**، ص. 154، والعمري في **مسالك الأبصار**، حسب الفصل الختامي لهذا العمل، ثم ابن الخطيب في **رقم الحلل**، ط. تونس، ص. 55، هذا فضلا عن وثيقتين قديمتين بصدد المدرسة الموحدية بمدينة مراكش الجديدة حسب الفصل الختامي لهذا العمل.

(31) **روض القرطاس**، ص. 264 مع **العبر**: 210/7.

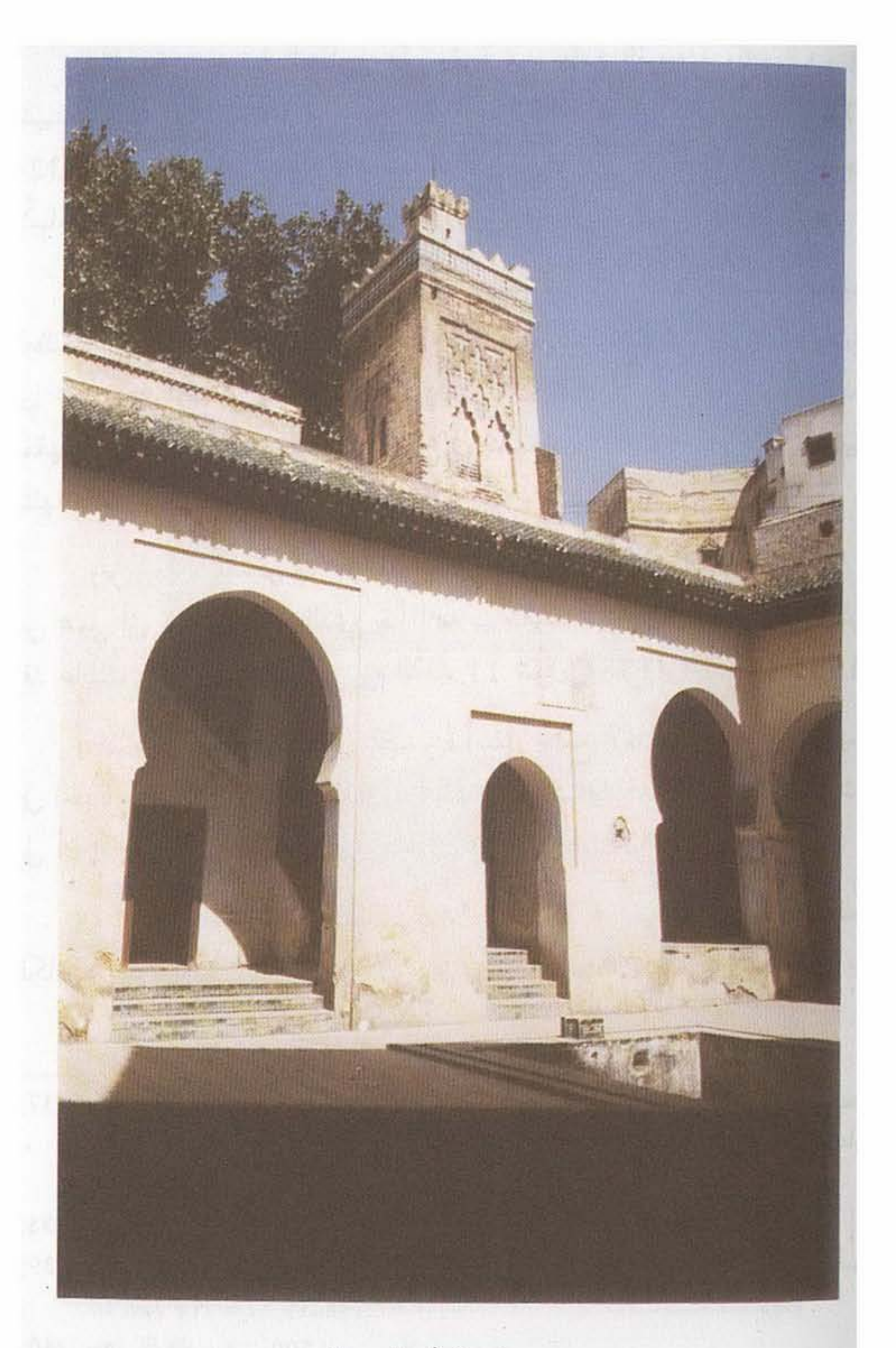
(32) **روض القرطاس**، ص. 299.

(33) حسب رخامة الوقفية على هذه المدرسة، حيث أثبت نصها الفريد بيل في دراسته عن النقوش العربية بمدينة فاس: **الجريدة الأسيوية** بالعدد 10، ص. 158-160 : ضمن سلسلة الدراسة المشار إليها.

(34) المعني بالأمر أوراق ترجع إلى حسابات دخل المدارس العلمية بفاس ونفقاتها المتنوعة، وهي في خزانة القرويين رقم 399.

(35) **روض القرطاس**، ص. 299.

(36) خاتمة رخامة الوقفية على هذه المدرسة، حيث يوجد نصها بالدراسة المنوه بها وشيكا: **الجريدة الأسيوية**، عند العدد 10، ص. 222-224.



بهو مدرسة الصفارين بفاس

الأمير أبا الحسن زودها بخزانة الكتب :[37].

الخامسة : مدرسة العطارين على مقربة من جامع القرويين، وكان البدء في تشييدها عند مهل شعبان من عام 723/ 1323[38]، ثم كملت عام 725/ 1324ـ25[39]، وقد احتفل مؤسسها ـ أبو سعيد الأول ـ بعملية وضع الحجر الأساسي لبنائها، وذلك ما يسجله ابن أبي زرع خلال حوادث عام 723 هـ :

«... وفي مهل شعبان منها أمر أمير المسلمين أبو سعيد... ببناء المدرسة العظيمة بإزاء جامع القرويين شرفه الله ـ تعالى ـ بذكره، فبنيت على يد الشيخ المبارك أبي محمد عبد الله بن قاسم المزوار، ووقف أمير المسلمين على تأسيسها ـ ومعه الفقهاء والصلحاء ـ حتى أسست وشرع في بنائها ... فجاءت آية في الدهر لم يبن مثلها ملك قبله ...»[40].

ومن الجدير بالذكر أن الثريا المعلقة في مصلى هذه المدرسة، هي ـ بدورها ـ من عمل أبي سعيد الأول، الذي يقرأ اسمه ـ منقوشا ـ على النطاق الأسفل منها، وقد عاينت ذلك عند الزوال من يوم الأحد 11 شوال 1384/ 14 فبراير 1965.

السادسة : مدرسة الوادي بمصمودة أسفل جامع الأندلس، وهي من تأسيس أبي الحسن حسب ابن مرزوق الذي لم يحدد تاريخ انشائها[41]، غير أن الجزنائي يشير إلى أن المدرسة كانت موجودة من عام 725/ 1324ـ25[42].

ومن الملاحظ أن هذه المدارس الست وزعت ـ في وضعها ـ توزيعا منتظما، فكانت إثنتان منها بجوار جامع القرويين، وهما مدرستا الصفارين والعطارين، بينما

---

(37) لا يزال بقيد الوجود من ذخائر هذه الخزانة كتاب **البيان والتحصيل** لابن رشد، في مجلد مستطيل عريض، وكتب عليه أن هذه النسخة من وقف أبي الحسن المريني على مدرسته بعدوة الأندلس ـ بتاريخ العشر الوسط من ربيع الأول عام 728 هـ، ويحمل بخزانة القرويين رقم 25.

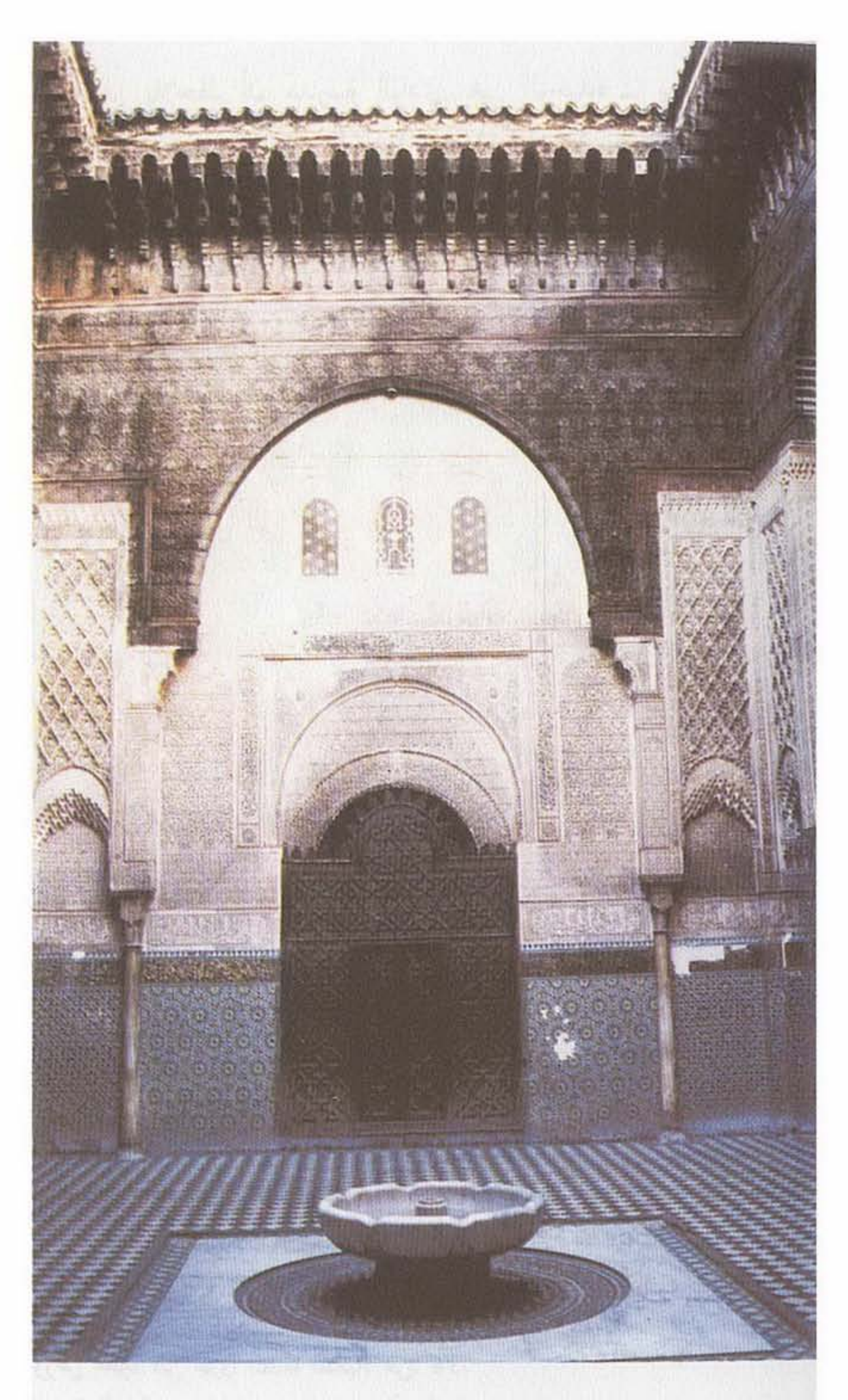
(38) **روض القرطاس**، ص. 300.

(39) رخامة الوقفية على هذه المدرسة، حيث يوجد نصها بدراسة ألفريد بيل المتكررة الذكر : **الجريدة الأسيوية** عند العدد 12، ص. 197ـ198.

(40) **روض القرطاس**، ص. 300.

(41) **المسند الصحيح الحسن**. خ.ع.ق 111 عند الفصل الثاني من الباب 41.

(42) **جني زهرة الآس**، ص. 37ـ38



بهو مدرسة العطارين بفاس

جاءت مدارس الأندلس والسبعيين والوادي على مقربة من جامع الأندلس، ثم كانت مدرسة المدينة البيضاء في مجاورة الجامع الكبير بفاس الجديد.

وبعد هذا يلاحظ أن مدرسة الوادي هي الوحيدة ـ بين مدارس فاس المرينية ـ التي غيرت معالمها، فقد وقع بها حادث قتل على عهد السلطان العلوي محمد الرابع، فأمر بهدم بيوتها، ثم بنيت لها صومعة عام 1295 هـ وتحولت إلى مسجد للجمعة[43].

وننتقل ـ الآن ـ من فاس إلى مكناس، وقد شيد بها أبو يوسف مدرسة القاضي[44]، التي صارت ـ من بعد ـ تحمل اسم المدرسة الفيلالية، ولا تزال قائمة شرقي الجامع الأعظم بهذه المدينة.

وفي مدينة مراكش بنى نفس العاهل مدرسة ابن يوسف[45] التي لا تزال بقيد الوجود.

أما مدرسة الجامع الكبير بتازا فهي من تأسيس أبي الحسن أيام ولايته للعهد، وذلك ما يوخذ من كتابة رخامة الوقفية على مدرسة الأندلس بفاس[46]، وتلمح له ـ أيضا ـ فقرة ابن مرزوق التي تقول عن أبي الحسن : «... فأنشأ بمدينة تازا ـ قديما ـ مدرستها الحسنة[47]»، وهو يشير بكلمة «قديما» إلى أيام ولايته للعهد.

وستكون هذه تاسعة المدارس المشيدة في العصر المريني الأول، وقد كانت ـ جميعها ـ تخضع إلى نظام تعليمي سنشرحه ـ بحول الله سبحانه ـ عند موضوع المراكز الثقافية.

* * *

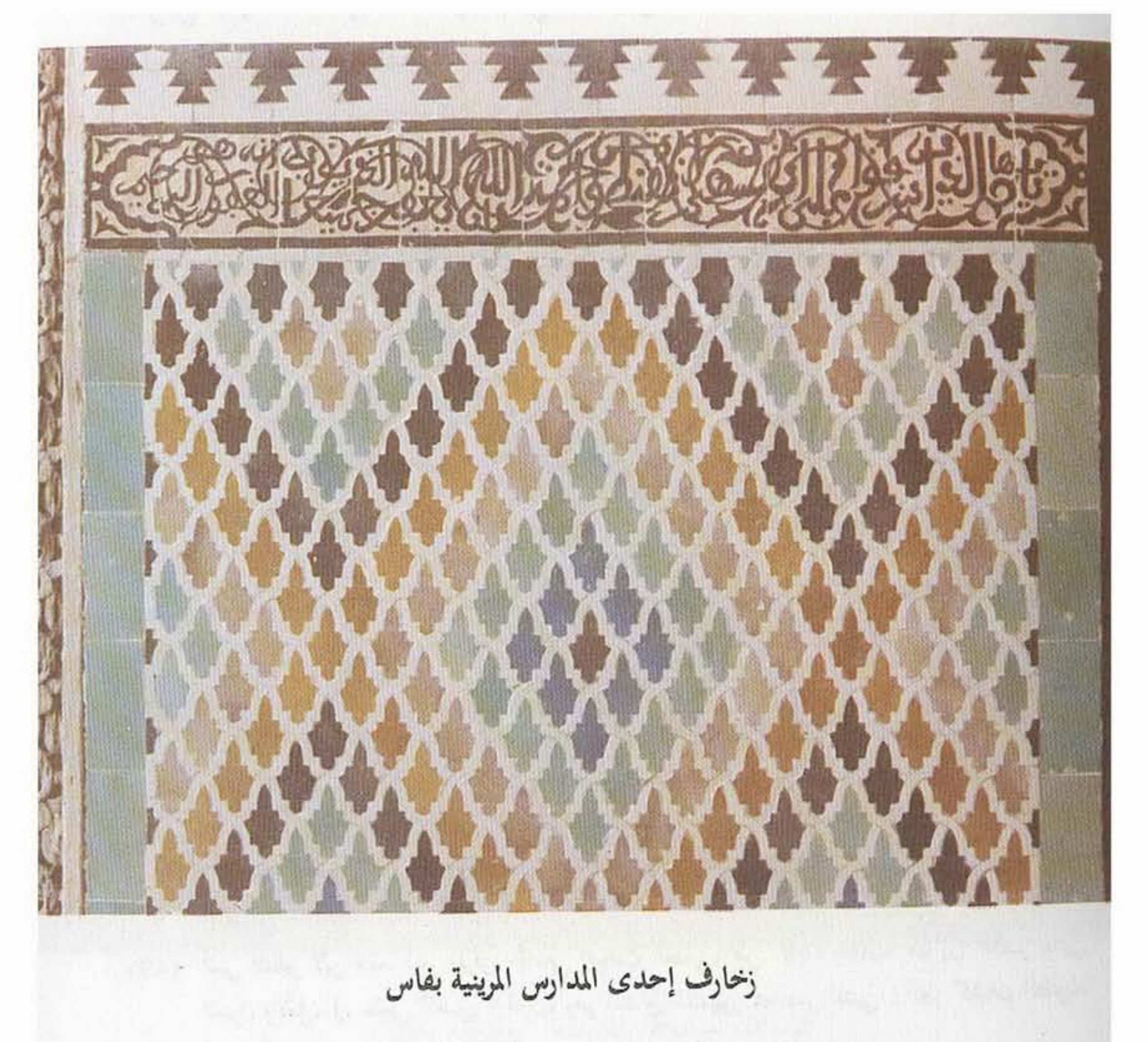
(43) **المفاخر العلية** لعبد السلام اللجائي : م.م. 460، عند ترجمة السلطان محمد 4، مع **فواصل الجمان** لمحمد غريط، المطبعة الجديدة بفاس، ص. 214ـ215، على أنه يؤخذ من أبي علي اليوسي أن مدرسة الوادي دب إليها الخراب من أواخر القرن 11 هـ، حسب رسالته الكبرى لأبي الفداء، بتاريخ أول حجة 1096 هـ، خ.ع.د 3390.

(44) **الروض الهتون** لابن غازي المطبعة الملكية، ص. 34.

(45) **الذخيرة السنية**، ص. 100.

(46) هذه اللوحة الوقفية هي المشار لها عند التعليق رقم 36.

(47) المسند الصحيح الحسن خ.ع.ق. 111 عند الفصل الثاني من الباب 41.



زخارف إحدى المدارس المرينية بفاس

ونتتقل ـ الآن ـ إلى النقطة الثانية من ظاهرة التأثير المشرقي الثقافي في الفترة التي نعرضها، ويظهر ذلك في بدء تبدل المناهج التعليمية، بعد ظهور بعض المؤلفات المختصرة التي بدأت ترد على المغرب من المشرق، وكانت هذه ذات منهاج خاص في تأليفها وتدريسها، حيث تعبيراتها تضرب الرقم القياسي في الإيجاز إلى حد الغموض أحيانا[48]، وهذا صار يفضي بالدارس لها إلى أن يتورط في حل ألغازها، والاشتغال بالمناقشات اللفظية قبل الوصول إلى الموضوع المطروح.

وقد وصل إلى المغرب في هذا العصر : مختصرا ابن الحاجب الاثنان : الفقهي والأصلي : «**أصول الفقه**»، وكان الذي أتى بهذا الأخير إلى فاس هو أبو الربيع سليمان اللجائي، فاضطلع بتدريسه وأخذه الناس عنه، وهو من تلامذة القرافي[49].

ومن أساتذة المختصر الفقهي الحاجبي : أبو الحسن علي الصياد الفاسي، وكان بقيد الحياة بعد عام 720/ 1320ـ21[50].

وهكذا صار للمختصرين الجديدين شبه مدرسة بفاس وغيرها، فتحظى بتأييد بعض الأساتذة والطلاب، وفيهم عدد من فقهاء المصامدة[51].

ومن نصراء الاختصار بمدينة مراكش : عالمها أبو العباس أحمد ابن البنا آتي

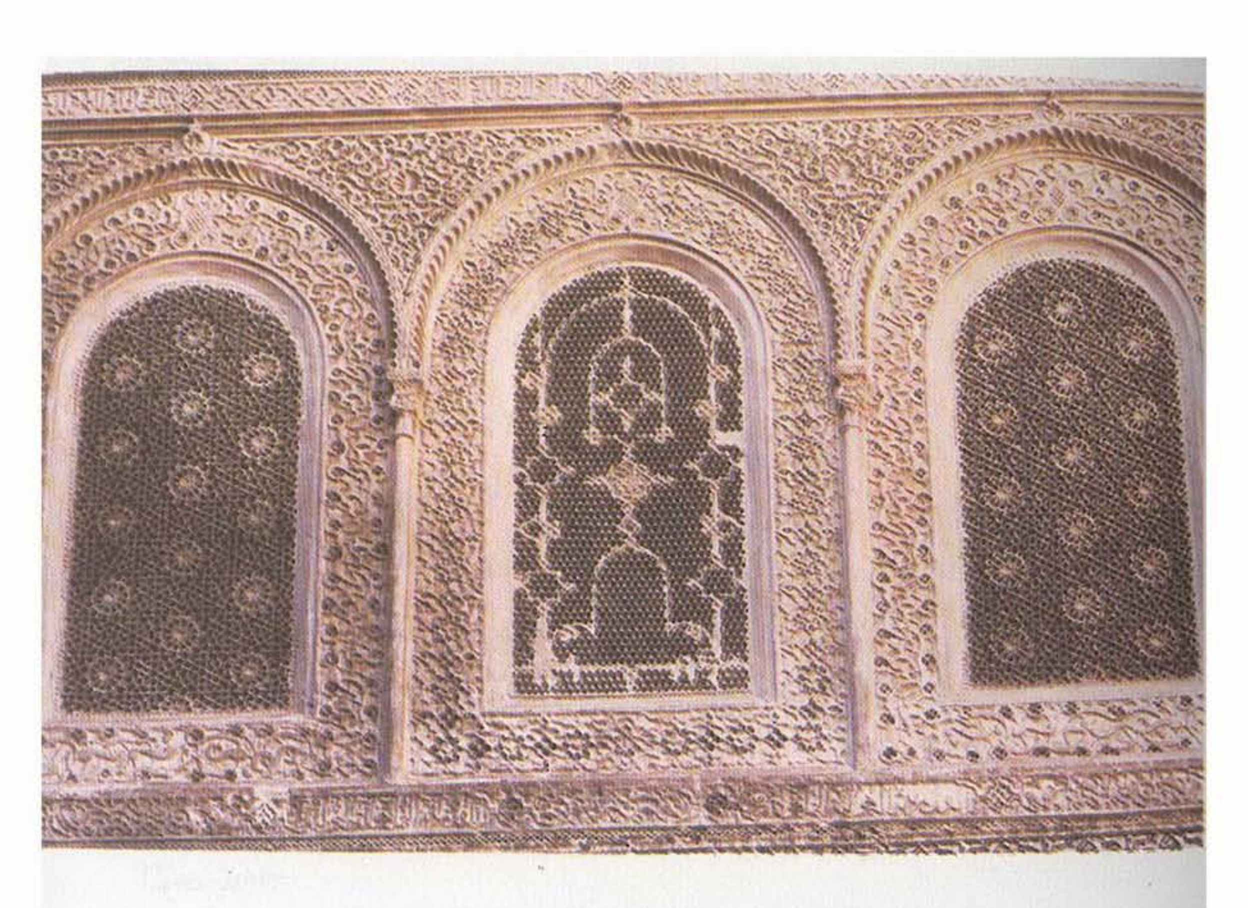
---

(48) قد يصل غموض هذه المختصرات إلى أن يصعب فهم بعض تعابيرها على المؤلف نفسه، ومن هذا ما يرويه ناصر الدين المشذالي عن أستاذه ابن الحاجب في شأن مختصره الفقهي : «لما كنت مشتغلا بوضع كتابي هذا كنت أجمع الأمهات، ثم أجمع ما اشتملت عليه تلك الأمهات في كلام موجز، ثم أضعه في هذا الكتاب حتى كمل، ثم إني بعد : ربما أحتاج في فهم بعض ما وضعته فيه إلى فكر وتأمل»، **جذوة الاقتباس** 297/1.

(49) **أنس الفقير** لابن قنفد نشر المركز الجامعي للبحث العلمي، ص. 68، والقصد هنا إلى مختصر منتهى السول والأمل، في علمي الأصول والجدل، وهو المتداول المشهور بمختصر المنتهى : أنظر **كشف الظنون**، نشر مكتبة المثنى ببغداد ع 1853.

(50) ابن القاضي في كتابيه : **درة الحجال** مطبعة السنة المحمدية بالقاهرة : رقم 1270، مع **جذوة الاقتباس** رقم 522، والغالب أن عليا الصياد هذا هو المترجم عند ابن حجر في الدرر الكامنة 80/3ـ81 باسم علي بن عتيق بن عبد الرحمن بن علي الفاسي المعروف بابن الصياد، كما استطرد ذكره الصفدي ـ بمناسبة درس ألقاه في مدينة صفد سنة 726 هـ ـ في **الغيث المسجم في شرح لامية العجم** المطبعة الأزهرية المصرية 106/1، ومن هنا يمكن أن نستفيد أن المعني بالأمر كان بقيد الحياة حتى عام 726 هـ/1325ـ26.

(51) **جذوة الاقتباس** رقم 406.



شماسات مزخرفة بالمدرسة البوعنانية بفاس

الذكر، وكأنه انتقد عليه مسلكه الإيجازي في أوضاعه، فنظم في ذلك ثلاثة أبيات يقول فيها :

قصدت إلى الوجـــازة في كلامـــي لعلمـــي بالصواب في الاخـــتصار
ولم أحـــذر فهومـــا دون فهمـــي ولكـــــن خفت ازراء الكبـــــار
فشأن فحولــــة العلمـــــاء شأني وشأن البسط تعـــليم الصغـــار[52]

وهذا عالم ثان من مدينة مراكش : عبد الحكيم بن علي بن عبد الملك المتوفى عام 1323/723، وقد جاء في ترجمته أنه كان من أهل المعرفة بالفقه وأصوله على طريقة المتأخرين ...، ومن أساتذته ناصر الدين المشذالي[53]، الذي أتى إلى المغرب بالمختصر الفقهي لابن الحاجب، وصار داعية لدراسته[54].

غير أن أنصار المختصرات المتأخرة، كانوا ـ في هذه الفترة ـ لا يزالون في مجموعة صغيرة، بينما الأغلبية من الدارسين ـ أساتذة وطلابا ـ يتمسكون باستخدام المؤلفات البسيطة والمختصرات الواضحة.

وبذلك فإن هذه الميزة الثانية لا تزال في مرحلة البداية مما يعد من حسنات هذا العصر، وسيتضخم أثرها من بعد.

وهنا نصل إلى الميزة الثالثة، حيث تخلى المغرب المريني عن الأفكار الموحدية التي تتصل بالعقيدة أو المذهب، وهكذا قضى المرينيون الأولون على خرافة المهدوية والعصمة، ونقحت العقيدة الأشعرية مما كان يشوبها من أفكار مقتبسة من المعتزلة وغلاة الشيعة[55].

كما أن المغاربة عادوا ـ تلقائيا ـ إلى المذهب المالكي بعد النزعة الظاهرية الموحدية[56].

---

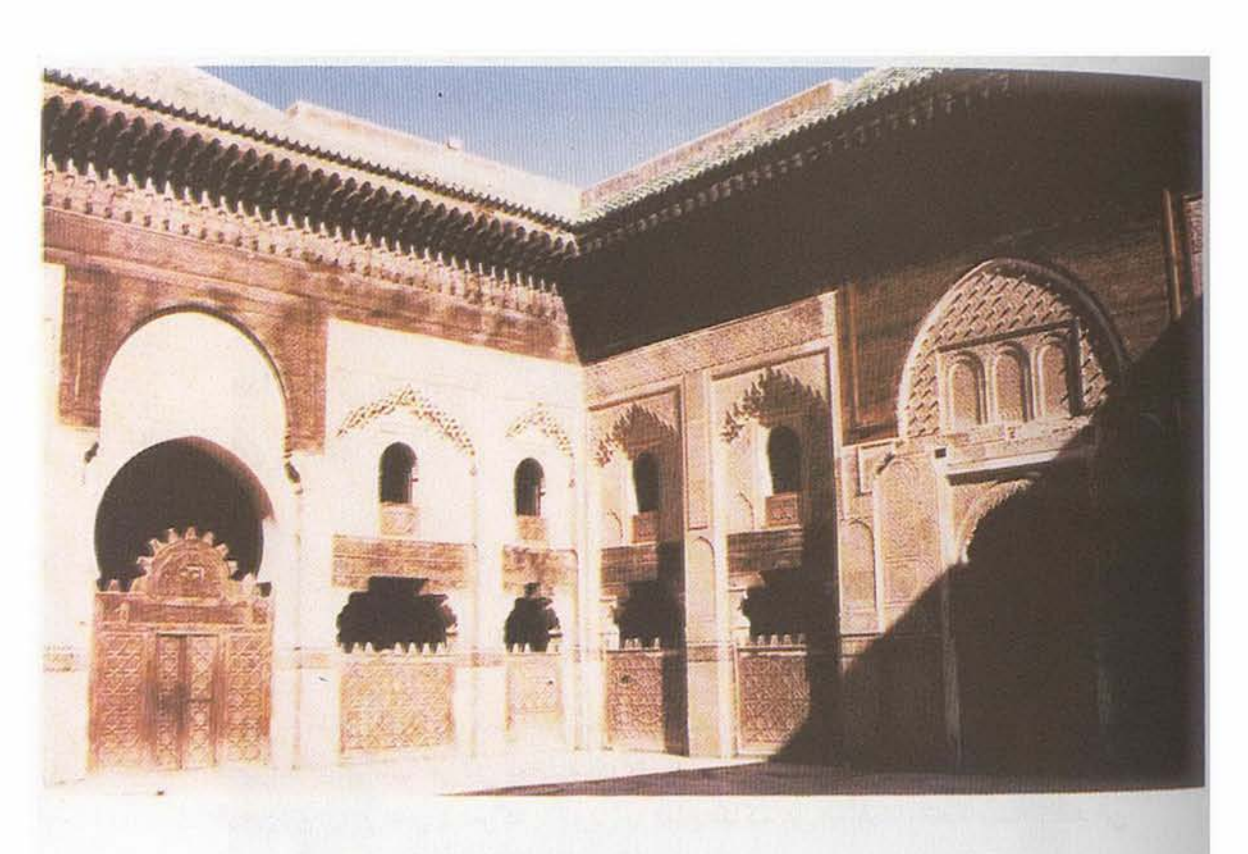
(52) **المصدر** رقم 99، وأصل ذلك في مقدمة **حط النقاب، عن وجوه أعمال الحساب**، وهو اسم شرح تلخيص ابن البنا من تأليف إبن قنفد القسنطيني.

(53) **الديباج** لابن فرحون، مطبعة المعاهد بالقاهرة 1351 هـ، ص. 166–167.

(54) **المقدمة الخلدونية** المطبعة البهية المصرية، ص. 393.

(55) أنظر: «التيارات الفكرية في المغرب المريني»، وهو موضوع الفصل الثاني من الباب الثالث من هذا العمل.

(56) أنظر مصدر التعليق رقم 24، هذا ومن الجدير بالملاحظة أن الطابع الموحدي استمر في هذا العصر الأول واضحا في عدد من المواد التعليمية، ومن سبب ذلك أن الدولة إذا سقطت لا ينمحي أثرها بالمرة، وإنما =



المدرسة البوعنانية بفاس

أما الميزة الرابعة فكانت هي تقدم مغربة الجهاز التعليمي : أساتذة ومؤلفين ومشرفين، حيث يسيطر المغاربة ـ تقريبا ـ على هذه الميادين، بعد ما كانت يتداولها المغاربة والأندلسيون، وفي العروض الآتية ما يجلي هذه الحقيقة.

المراكز الثقافية

استعادت الثقافة المغربية نشاطها في ظل العصر المريني الأول، وبلغت مراكزها ـ في المدن خاصة ـ ثلاثة عشر تستوعب مختلف جهات المغرب.

فكانت في المناطق المرتفعة : مكناس وفاس وتازا، وعلى حوض المتوسط وما إليه : مدن بادس وسبتة وطنجة، وبعد القصر الكبير تأتي المدن المطلة على المحيط : سلا، وأنفا : «الدار البيضاء»، وأزمور، وآسفي، وفي الجنوب مراكش وأغمات[57].

هذا فضلا عن المراكز الريفية، حيث سيذيل هذا العرض بما حافظ عليه التاريخ من ملامحها.

* * *

وبين المدن المنوه بها تأتي ثلاثة في الطليعة : فاس وسنتوسع في الحديث عنها وشيكا، ثم سبتة مركز الدراسات اللسانية، فهي ـ حسب ابن الخطيب ـ بصرة

= يعيش ـ بعدها ـ فترة من الزمن حتى يضمحل بالتدريج، وبهذا بقي الأثر الموحدي ـ خلال هذا العصر ـ حيا في مدينة مراكش العاصمة القديمة، وخصوصا في بعض العلوم، ومما يشهد لهذا رحلة عبد الرحمن اللجائي من فاس إلى مراكش، ليدرس بها العلوم الفلكية على ابن البنا، والقصة مبسوطة عند ابن الخطيب القسمطيني في **أنس الفقير**، ص. 68.

(57) مصدر معرفة هذه المراكز ـ زيادة على ما سبق في عرض المميزات الثقافية ـ أن أبا الحسن أسس في أكثر الجهات المشار لها عددا من المدارس التي يقول عنها ابن مرزوق : «... فأنشأ بمدينة تازا ـ قديما ـ مدرستها الحسنة، وببلد مكناسة وَسَلِي وطنجة وسبتة وأنفى وأزمور وآسفي وأغمات ومراكش والقصر الكبير... مدارس مختلفة الأوضاع...» **المسند الصحيح الحسن** خ.ع.ق. 111 عند الفصل الثاني من الباب 41، فهذه المدارس كان أبو الحسن المريني أسس أكثرها في العصر الثاني، غير أن ذلك يدل على أن المدن المعنية معروفة ـ سلفا ـ كمراكز ثقافية تستحق التشجيع، غير أن مدينة واحدة من هذه ـ وهي بادس ـ كانت لا تتوفر على مدرسة، وقد عرف بمكانتها العلمية في هذا العصر الأول مصدران مخطوطان : كتاب **التعريف بأبي يعقوب البادسي**، لأبي محمد عبد الله بن محمد الأوروبي، خ.م. ضمن مجموع رقم 9447، والثاني **كتاب المقصد الشريف والمنزع اللطيف، في ذكر صلحاء الريف** لعبد الحق ابن اسماعيل البادسي الخزرجي، خ.ع.، د. 1419، ونشرت ترجمة بعضه للفرنسية بمبادرة المستعرب جورج كولان : في باريس سنة 1926.



ثريا مصلى مدرسة العطارين بفاس

علوم اللسان[58]، وثالثا : مراكش : مدينة الرياضيات وما إليها[59]، وكانت ـ في هذا العصر الأول ـ لا تزال تحتفظ بملامح الطابع الموحدي.

ويأتي ـ بعد هذه القواعد ـ مدينة تازا، حيث المواد العربية ناهضة، والمعارف الأخرى متدارسة[60]، ومثلها في ذلك مدينة مكناس[61].

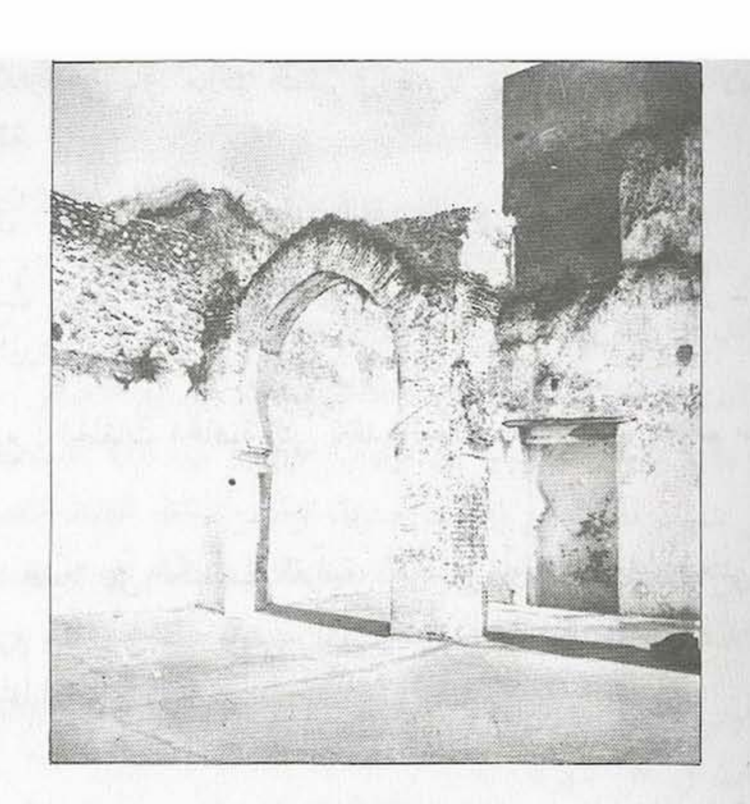
أما فاس فكانت موطنا للعلوم الشرعية واللسانية وبعض فروع الفلسفة، غير أنها يغلب عليها الطابع الفقهي أكثر، فيسجل ابن الدراج ان فقهاءها هم المتميزون بمعرفة الفقه في المغرب[62]، ويصفها أبو القاسم التجيبي بدار فقه المغرب[63]، ويقول عنها ابن أبي زرع : وفقهاؤها الفقهاء الذين يقتدى بهم جميع فقهاء المغرب[64].

وقد اكتملت جامعية مدينة فاس من هذا العهد، ممثلة في جامع القرويين وفروعه المحلية، وفي هذا الصدد يكتب المستشرق الفرنسي ليفي بروفنصال : «وقد وجهت الأنظار إلى فاس بعد أن أصبحت مركزا هاما من مراكز الثقافة منذ بدء القرن الرابع عشر على وجه الخصوص، أي بعد أن هاجر إلى (مراكش) كثير من العلماء الذين يحملون علم الثقافة الإسلامية، بعد أن وقعت شبه جزيرة إيبريا (إسبانيا والبرتغال) في أحضان المسيحية من جديد، وذلك ـ تقريبا ـ في القرن الرابع عشر، فأضفى ذلك على فاس ثوبا علميا يرجع الفضل فيه إلى تلك الجامعة العريقة : جامعة القرويين»[65].

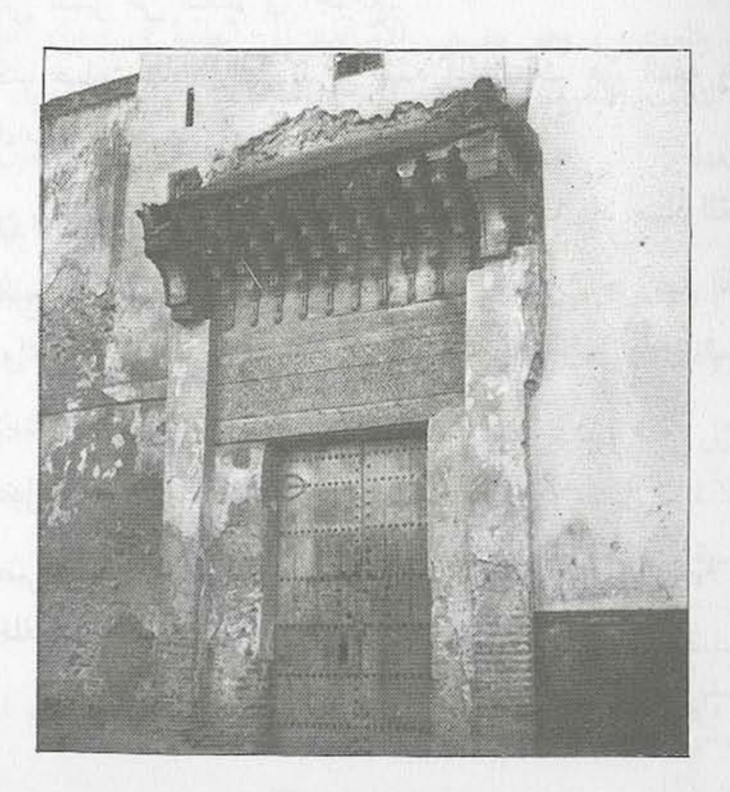
ومن الجدير بالذكر أن جامعة القرويين يعنى بها أربعة مراكز دراسية : جامع القرويين نفسه، وكان ـ في الغالب ـ مكان دروس كبار العلماء، وفي الوقت ذاته

---

(58) **معيار الاختبار** لابن الخطيب مطبعة أحمد يمني بفاس، ص. 38.
(59) من شواهد هذا أن عبد الرحمن اللجائي لما أراد أن يدرس مادة العلوم الفلكية ارتحل من فاس إلى ابن البنا بمراكش، حسب التعليق 56.
(60) **أزهار الرياض** مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة 33/3.
(61) هذا يؤخذ من مواضع من **الروض الهتون** لابن غازي، ومن تجهيز هذه المدينة بثلاث مدارس مرينية.
(62) **الأمتاع والانتفاع. في مسألة سماع السماع**، مصور خ ع د 3663، لوحة 89.
(63) **برنامج التجيبي** مصورة الأستاذ الكبير محمد ابراهيم الكتاني عن مخطوطة الأسكوريال رقم 1756 من قائمة بروفنسال: ورقة 121 ب.
(64) **روض القرطاس**، ص. 20.
(65) **الكتاب الذهبي لجامعة القرويين**... مطبعة فضالة، ص. 85.



بقايا المدرسة المرينية بتازة



منظر من مناظر مسجد الأندلس بتازة

يتمتع بالصدارة على باقي مراكز التعليم في فاس، حيث كانت هذه الأخيرة بمثابة فروع ملحقة.

الثاني : المدارس، وتعتبر معاهد للفقه والنحو والقراءات.

الثالث : بقية جوامع نفس المدينة ومساجدها، وهي ـ في الأكثر ـ كمعاهد للدروس الابتدائية والثانوية.

الرابع : الحلقات الخاصة التي يعقدها بعض الأساتذة في منازلهم مع خواص الطلاب.

هذا فضلا عن الكتاتيب القرآنية، كمدارس أولية للصغار، فتعتني بتحفيظ القرآن الكريم وتلقين الخط، وتهتم ـ إلى جانب ذلك ـ بتحفيظ بعض المصنفات الابتدائية وتحليلها للمتعلمين.

* * *

وقد كان للمدارس العلمية نظام خاص يستوعب المواد المدروسة والأساتذة والطلبة، حتى تتميز عن التعليم في الجوامع.

وهكذا صارت المواد التي تدرس بهذه المؤسسات هي الفقه والنحو، مع إضافة القراءات في بعضها.

ويقوم بإلقاء الدروس أساتذة فيهم فقيه ونحوي، وحينا يزاد أستاذ للقراءات(66).

وتخضع سكنى الطلبة بهذه المدارس إلى قوانين وردت عن عبد الله العبدوسي هكذا : «وإنما يسكن المدرسة من بلغ عشرين سنة فما فوقها، وأخذ في قراءة العلم ودرسه بقدر وسعه.

ويحضر قراءة الحزب صبحا ومغربا.

ويحضر مجلس مقرئها ملازما لذلك إلا لضرورة من مرض وشبهه من الأعذار المبيحة لتخلفه.

فإذا سكن فيها عشرة أعوام ولم تظهر نجابته أخرج منها جبرا، لأنه يعطل الحبس.

(66) المعيار للونشريسي ط.ف 10/7 و245 مع الذخيرة السنية، ص. 100.

ولا يختزن بالمدرسة من سكنها ـ باستحقاق ـ إلا قدر عولته على ما جرت به العادة في الأحباس»[67].

أما السلك التوظيفي لهذه المدارس، فقد تبينا ـ وشيكا ـ الهيئة التعليمية بها، ويمثل الأطر الأخرى : إمام الصلاة والمؤذن والقيم والوقاد والحارس[68]، مع مشرف على خزانة الكتب في بعض المدارس، وقد تتداخل بعض هذه الأطر فيتولاها موظف واحد.

وكانت مصادر النفقات على هذه المؤسسات من ريع الأحباس الموقوفة عليها من جهة بناتها وغيرهم، وبالنسبة إلى مرتبات الموظفين بها، فإنها كانت منتظمة عند رأس كل شهر، فضلا عن إعانات سنوية، ولحسن الحظ تحتفظ المصادر ببضعة نصوص عن نفقات مدارس فاس ومراكش، انطلاقا من أيام أبي يوسف الذي يقول عنه في «**الذخيرة السنية**»[69] :

«وبني المدارس بفاس ومراكش، ورتب فيها الطلبة لقراءة القرآن والعلم، وأجرى لهم المرتبات في كل شهر».

ونحو هذا عند أبي زرع الذي بذكر ـ أيضا ـ بناء مدارس فاس الجديد والأندلس والعطارين، وهو يضيف الأساتذة إلى الطلبة في إجراء النفقات عليهم بالمدارس الثلاث الأخيرة، كما يشير إلى الأوقاف الدارة برسم نفقاتها، وبالنسبة إلى مدرسة العطارين التي شادها أبو سعيد الأول، فإن المصدر ذاته يقول :

«... ورتب فيها الفقهاء لتدريس العلم، وأسكنها بالطلبة، وقدم فيها إماما ومؤذنين، وخدمة يقومون بأمرها، وأجرى على الكل منهم المرتبات والمئون، واشترى الأملاك ووقفها عليها».

وإلى هذا وردت فقرة أخرى عند نفس المؤلف بمناسبة الحديث عن بناء مدرسة الأندلس، لتقدم إضافة جديدة في هذا الصدد، فتذكر التزام المؤسس لهذه المبرة بكسوة الأساتذة والطلاب فوق الإنفاق عليهم[70].

(67) **المصدر الأول** 3/7 و177–178.

(68) **المصدر** 10/7 و245–48 مع **روض القرطاس**، ص. 300.

(69) ص. 100.

(70) **روض القرطاس**، ص. 214 و299–300.

ويوخذ من الوزان الفاسي : «**ليون الإفريقي**» أن هذا الالتزام بالكسوة صار عاما لمدارس فاس بالنسبة لطلابها، حيث يثبت أن هؤلاء قبل عصره، كانوا يمتعون ــ في هذه المؤسسات ــ بالسكنى والتموين والكسوة[71].

* * *

ونعود ــ بعد هذا ــ إلى مواد الدراسة، حيث عرفنا أنها ــ في المدارس ــ تشمل الفقه والنحو والقراءات، وثلاثتها كانت لها الصدارة في الدراسات المغربية، ونذكر ــ الآن ــ أن الجوامع والمساجد وما إليها بفاس والمدن المشار لها سلفا : كانت تضيف إلى هذه المواد : العلوم الشرعية واللسانية الأخرى، وبعض فروع الفلسفة، على تفاوت بين تلك الجهات في استخدام بعض هذه المواد تارة، أو استيعابها جملة كما هو واقع فاس، حيث كان جامع القرويين وفروعه مراكز لنشر العلوم التالية :

تفسير القرآن الكريم ــ التجويد ــ القراءات ــ الرسم ــ الحديث الشريف ــ علوم الحديث ــ الفقه المالكي بسائر فروعه ــ أصول الفقه ــ الكلام ــ التصوف.

وفي مادة اللسانيات : اللغة والنحو والبيان والعروض والقوافي والأدب.

يضاف إلى ذلك مبادىء علوم العدد والفلك والهيئة والطب والهندسة والمنطق...

ومن هنا نتبين الصدارة التي صارت للقرويين مع العصر المريني الأول، غير أن بعض الجهات المغربية الأخرى كانت تقارب فاسا أو تنافسها في بعض المواد الدراسية، وبالخصوص سبتة ومراكش.

وتجاوبا مع هذا وذاك، يرتفع ــ في الفترة ذاتها ــ مستوى الرحلاتِ العلمية من خارج المغرب إلى فاس وإلى بعض المدن الأخرى، وفي هذا الصدد نقدم النماذج التالية وهي تستوعب تسعة أسماء.

1 ــ فمن **الأندلس** : ابن سلمون : عبد الله بن عبد الله بن علي الكناني الغرناطي، المتوفى عام 1340/741، لقي بسبتة أبا الحسن بن عتيق بن الحسن بن رشيق، وبفاس أبا غالب محمد بن محمد بن محمد بن عبد الرحمن المغيلي[72].

---

(71) **حياة الوزان الفاسي وآثاره** لمحمد المهدي الحجوي، المطبعة الاقتصادية بالرباط، ص. 76.

(72) **جذوة الاقتباس** رقم 464.

2 ـ ابن العربي : محمد بن علي بن عمر الغساني الوشقي، المتوفى عام 748/ 1347، أقام مدة بسبتة مكبا على قراءة القرآن والعربية، وأخذ بها عن أبي إسحاق ابراهيم بن أحمد الغافقي المديوني، وبمكناس : عن القاضي محمد بن علي الكلبي الشهير بابن وارياش، وبفاس : عن أبي الحسن علي بن سليمان القرطبي المعروف بابن مصامد، وعن محمد بن محمد ابن آجروم صاحب المقدمة الأجرومية[73].

3 ـ أبو البركات ابن الحاج : محمد بن محمد بن ابراهيم البلفيقي المريء المتوفى عام 771/1369ـ70.

أخذ ـ بالمغرب ـ عن أبي الحسن الصغير وأبي مريم الجزولي وأبي العباس ابن البناء[74].

4 ـ الشديد : محمد بن قاسم بن أحمد الأنصاري الجياني.

رحل إلى سبتة فأخذ بها عن الشريف أبي العباس (الصقلي)، وأدرك أبا القاسم التجيبي، واختص بأبي عبد الله محمد بن هانىء، ودخل مدينة فاس فلقي بها أبا زيد عبد الرحمن الجزولي، وخلف الله المجاصي، وأبا العباس المكناسي، في آخرين من نفس هذه البلدة[75].

5 ـ ومن الراحلين من تلمسان : ابن مرزوق : أحمد بن محمد بن محمد العجيسي التلمساني والد ابن مرزوق الخطيب.

قرأ بفاس على جماعة من أعلامها، منهم أبو الحسن الصغير، وخلف الله المجاصي، وأبو إسحاق ابراهيم الغازي، وأبو عبد الله المليلي[76].

6 ـ أبو عبد الله الباروني : محمد بن الحسن بن محمد اليحصبي نزيل تلمسان، والمتوفى ـ بها ـ عام 734/1334.

دخل مدينة فاس وأخذ بها عن أبي الحسن الصغير، وأبي زيد عبد الرحمن

(73) المصدر رقم 303، مع **بغية الوعاة** للسيوطي مطبعة السعادة بمصر، ص. 79.
(74) **جذوة الاقتباس** رقم 299.
(75) المصدر رقم 313.
(76) **بغية الرود** تأليف أبي زكرياء يحيى ابن خلدون مطبعة بير فونطانا بالجزائر 50/1.

الجزولي، وأبي يوسف الجزولي، وعبد الرحمن الركراكي، وحضر الموطأ على أبي الحسن المزدغي[77].

7 ـ ابن النجار : محمد بن يحيى التلمساني، المتوفى عام 1348/749 ـ 49، ارتحل إلى المغرب فلقي بسبتة أمام التعاليم : محمد بن هلال شارح المجسطي في الهيئة، وأخذ بمراكش عن أبي العباس ابن البنا[78].

8 ـ الأبلي : محمد بن ابراهيم بن أحمد العبدري التلمساني، المتوفى ـ بفاس ـ عام 1356/756.

دخل مدينة فاس ومكث بها عند شيخ التعاليم من اليهود : خلوف المغيلي، فاستوفى عليه فنونها ومهر فيها، ولحق بمراكش أعوام العشر والسبعمائة، ونزل على أبي العباس ابن البنا، فلزمه وأخذ عنه وتضلع من علم المعقول والتعاليم والحكمة[79].

9 ـ ومن أعلام المشرق : جلال الدين الأقشهري : محمد بن أحمد بن أمين التركي القونوي، المتوفى بالمدينة عام 31/1330/731.

يذكر عنه ابن الخطيب أنه قدم المغرب فاستوطن بعض بلاده، ثم أحاز البحر إلى الأندلس عام أربعة وسبعمائة، وقد أخذ بالمغرب عن أبي مروان عبد الملك الشريشي، وعن أبي بكر محمد بن محمد بن معنصر المومناني، واتصل بأبي ابراهيم الماجري[80].

ويقول عنه ابن حجر : «ورحل إلى مصر ثم إلى المغرب، فسمع من أبي جعفر بن الزبير بالأندلس، ومحمد بن محمد بن عيسى بن معنصر بفاس، وغيرهما، وجمع رحلته ـ إلى المشرق والمغرب ـ في عدة أسفار[81].

* * *

(77) جذوة الاقتباس رقم 301، مع الدرر الكامنة 425/3.

(78) المصدر الأول رقم 208، مع التعريف بابن خلدون، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة، ص. 47.

(79) التعريف بابن خلدون، ص. 36، مع جذوة الاقتباس رقم 311.

(80) مختصر الإحاطة للبقني : السفر الثاني مصور خ.ع 1582 د : لوحة 178.

(81) الدرر الكامنة 309/3.

وإلى هنا فقد قدم هذا العرض طائفة من المراكز العلمية الحضرية، ويبقى ـ بعد ذلك ـ تبريز المراكز الدراسية بالأرياف المغربية في الفترة ذاتها، وهو ما لم يرد في المصادر المعنية إلا عرضا.

انطلاقا من «**نهاية الرائض، في خلاصة الفرائض**»، لأبي محمد عبد الله بن أبي بكر بن يحيى الحدميوي الصودي السمكاني، حيث يذكر المؤلف في ملحق ـ بآخر الكتاب ـ قراءته **بنول لمطة** ـ عام 663/1264ـ65 على شيخه أبي سليمان داود بن علي الحيحاي، فأتقن عليه الحساب والكافي في الفرائض[82].

وهناك إشارة من ابن عبد الملك المراكشي، تحدث فيها عن بعض الطلبة بدرعة، كان يمتلك كتاب «**ري الظمآن في تفسير القرآن**» لأبي الحسن ابن النعمة البلنسي في نسخة كاملة من سبعة وخمسين مجلدا[83].

هذا إلى نقل ابن البنا ـ في رسالة له ـ عن شيخيه أبي محمد عبد الجبار بأغمات، وعن أبي الفضل السجلماسي شارح المقامات»[84].

غير أن هناك إشارة أوضح، وردت بمناسبة ذكر شيخ الهساكرة : علي بن محمد بن تروميت المنتبد بحكم جبل هسكورة، وكان طلابا للعلم جماعة لكتبه، وهو الذي استدعى ـ بعد عام 721 هـ ـ الإمام الأبلي فقرأ عليه وأفاد منه، كما أن الشيخ عكف في خزانة تلميذه على النظر إلى أن فاق أهل زمانه في العلوم العقلية بأسرها، حسب تعبير المصدر المعني[85]، ويضيف مصدر آخر قائلا عن الأبلي لما كان بهسكورة : «... واجتمع طلبة العلم هنالك على الشيخ، فكثرت إفادته واستفادته»[86].

---

(82) كتاب **نهاية الرائض** من نوادر المخطوطات بخزانة الزاوية الناصرية في تمكَروت، حيث يقع أول مجموع يحمل رقم 1647، أنظر عن التعريف به : محمد المنوني : **حضارة وادي درعة** .. مجلة دعوة الحق : العدد الثالث من السنة 16، ص. 158ـ59.

(83) **الذيل والتكملة** دار الثقافة في بيروت : السفر الخامس رقم 455.

(84) هذه الرسالة موضوعها إنتنقل الرؤية الهلالية من جهة إلى جهة، وهي مخطوطة في نسخة خاصة، ومنها مخطوطة أخرى ضمن مجموع خ.ع 1588 د، بعنوان **تأليف في انتقال المهل من محل إلى محل**، غير أنها ـ هنا ـ منسوبة إلى أبي عمران الزناتي، وذلك غلط فيما يظهر.

(85) **بغية الرواد** 57/1، مع تكملة للموضوع من **التعريف بابن خلدون**، ص. 22 و36، وأنظر عن تحديد منطقة هسكورة في هذه الفترة : كتاب **العبر** 203/6 و262.

(86) **التعريف بابن خلدون**، ص. 36.

وهكذا نستنتج أن هذه المنطقة تتوفر ـ في العصر المريني الأول ـ على نشاط ثقافي مرموق، ومن هنا يمكن ربط هذه الملاحظة بظهور أفراد من الأعلام الذين ينتسبون إلى هسكورة، وبالخصوص الذي كان يحمل لقب البخاري : موسى بن يمويمن بن باكر الهسكوري الحساني، استمر بقيد الحياة حتى عام 723/ 1323 في ظن ابن القاضي، حيث يصفه بأنه من أحفظ أهل زمانه للفقه والأثر(87)، فضلا عن ادعائه للاجتهاد(88).

يضاف لهذه الجهات : مركز «تيط» بدكالة، حيث يذكر أبو عمران الزناتي أنه قرأ بهذه المدينة المدونة (**يقصد تهذيب البرادعي**) وجملة من فنون العلم : على الإمام أبي الحسن علي بن أبي عبد الخالق ابن أمغار(89) الشريف، وقد كانت وفاة أبي عمران الزناتي عام 702(90).

فإذا انتهينا إلى مؤلف أنس الفقير، نجده يتحدث ـ في رحلته بالمغرب ـ عن حركة علمية منبثة بعدد من المناطق الريفية، وإذا كان ابن القنفد القسنطيني قد زار المغرب بعد هذه الفترة بمدة، فهو يتحدث عن واقع تثقيفي تمتد جذوره إلى العصر المريني الأول على الأقل.

وهكذا يذكر عن إقليم حاحة : أنه موضع خير وعلوم وقراءة وتدريس، وكذلك الموضع القريب منه المعروف بثادقي(91).

ثم يجد في دكالة خمسة وعشرين مدرسا(92).

ويسجل عن شيخ من صنهاجة أزمور : أنه اعرف أهل قبيله بإقراء كتاب التلقين(93).

---

(87) **درة الحجال** رقم 878، مع **جذوة الاقتباس** رقم 365.

(88) أنظر : «التيارات الفكرية في المغرب المريني»، وهو موضوع الفصل الثاني من الباب الثالث من هذا العمل.

(89) كتاب **ذخيرة الأنوار والأسرار...**، مخطوط خاص.

(90) **نيل الابتهاج** المنشور بهامش الديباج، مطبعة المعاهد بالقاهرة 1351 هـ، ص. 342.

(91) **أنس الفقير** لابن القنفد القسمطيني من منشورات المركز الجامعي للبحث العلمي، ص. 64-65.

(92) **المصدر**، ص. 71.

(93) **المصدر**، ص. 72.

ومما يؤكد أقدمية هذا النشاط العلمي : أن مؤلف «**مفاخر البربر**» يذكر ثلاثة أعلام عاشوا ــ بمنطقة حاحة وسواها ــ إلى صدر القرن الهجري الثامن حيث يقدمهم هكذا :

«... ومنهم الفقيه النبيه، الحافظ المدرس المقرئ : أبو يحيى زكرياء، بن الشيخ الجليل، الصدر الكبير، الحاج الأشهر، الصوفي، المحقق، القدوة : أبي زكرياء، بن أبي عمرو بن عبد العزيز بن عبد الرحمن بن حماد، نزيل توغرا من بلاد حاحة، توفي بفاس ــ وقبره بها مشهور ــ في العشر الأول من المائة الثامنة.

ومنهم الشيخ الفقيه الصالح، العالم الورع : أبو العباس حميد بن قاسم الحاحي نزيل قرية كاتي، توفي ــ بها ــ عام إثني عشر وسبعمائة...

ومنهم الشيخ الفقيه الصالح، المعمر، المدرس المقرئ : أبو زيد عبد الرحمن بن الصنهاجي (كذا) نزيل كيمران، توفي ــ في شعبان ــ سنة إثني عشر وسبعمائة»[94].

* * *

وقد كانت الربط الصوفية في عداد المراكز التعليمية، واشتهر منها في هذا العصر :

ــ رباط أبي محمد صالح بآسفي.

ــ ورباط أبي زكرياء الحاحي بسلا.

ــ ورباط أبي زيد الهزميري بأغمات.

وثلاثتها تعتبر معاهد لتلقين التصوف السني، الذي ينتهج تقوية الشعور الديني في المريدين، بواسطة توجيهات هادفة من شيخ الرباط ومن إليه[95].

---

(94) **نبذ تاريخية في أخبار البربر في القرون الوسطى**، منتخبة من المجموع المسمى بكتاب **مفاخر البربر** لمؤلف مجهول، اقتبسها المستشرق الفرنسي ليفي بروفنسال ــ المطبعة الجديدة بالرباط : ص. 68ـ69.

(95) آنظر : «التيارات الفكرية في المغرب المريني»، وهو موضوع الفصل الثاني من الباب الثالث من هذا العمل.

الفصل الأول

العلوم الأصيلة والدخيلة

الفصل الأول :
العلوم الأصيلة والدخيلة

أولا ـ الدراسات القرآنية

أ ـ التفسير

1 ـ حسب التسلسل التاريخي يأتي في البداية «**تفسير القرآن الكريم**»، لابن أبي الربيع الإشبيلي نزيل سبتة : عبيد الله بن أحمد بن عبيد الله الأموي ثم العثماني، ت 688/«1289»، كتب منه إلى أواخر سورة المائدة عند الآية 111، واخترمته المنية دون إتمامه، خ.ع.ق 315 في مخطوطة فريدة، وكان أبو القاسم التجيبي سمع طائفة منه من إملاء مؤلفه وأجازه جميعه(96).

2 ـ ومن سبتة مرة أخرى نشير إلى «**نظم غريب القرآن**» لابن عزيز، عمل ابن المرحل السبتي : مالك بن عبد الرحمن بن علي المصمودي، ت699/«1300»(97).

3 ـ وفي مدينة مراكش يواجهنا ابن البَنّا : أحمد بن محمد بن عثمان الأزدي، ت721/ «1321»، وقد خلف خمسة أوضاع في هذه المادة، في مقدمتها «**تعاليق على الكشاف**» للزمخشري، وقف عليها ابن الخطيب القسمطيني، ولاحظ أن مؤلفها إنما اهتم بمواضع الاعتزال المبثوثة في التفسير، فيبسط الشبهة ويجيب عنها(98)، وقد استمرت هذه التعاليق معروفة بالمغرب حتى المائة الهجرية العاشرة حيث أفاد منها أبو العباس أحمد المنجور، وكانت بين مصادر كتابه : «**مراقي المجد لآيات السعد**» مخطوط خ.س 5302 ـ خ. ع. د 812.

---

(96) **برنامج التجيبي**، الدار العربية للكتاب، ليبيا ـ تونس 1981: ص. 50.

(97) **جذوة الإقتباس** لابن القاضي، دار المنصور ـ الرباط، ص. 328.

(98) **حط النقاب عن وجوه أعمال الحساب** مخطوط خ. ع، د 1/423، والغالب أن هذه التعاليق هي التي يسميها إبن القاضي **إختصاراً لتفسير الزمخشري**، حسب **درة الحجال**، دار التراث بالقاهرة والمكتبة العتيقة بتونس : 15/1.

وإلى هذه التعاليق على الكشاف، كتب إبن البنا تفسيرا وُصف بأنه في منحى «**ملاك التأويل**»، والإشارة بهذا إلى كتاب إبن الزبير : «**ملاك التأويل القاطع لذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من آي التنزيل**»، ومن هذا العنوان تتبين طبيعة كتاب ابن البنا، الذي وضع في هذه المادة ثلاث مؤلفات أخرى :

ــ تفسير سورتي العصر والكوثر.

ــ تفسير الباء من البسملة.

ــ رسالة في تسمية الحروف، وخاصية وجودها في أوائل سور القرآن الكريم[99].

وستكمل هذه الرسالة خمسة أوضاع في علم التفسير من عما ابن البنا.

4 ــ وفي فاس نلتقي مع ابن البقال : محمد بن محمد بن علي التازي الأصل، واستوطن مدينة فاس إلى أن توفي بها عام 725/«1325»، وكانت هذه المادة من بين ما درّس بها، وقد خلف رسالة ضمنها أجوبته عن تسعة وعشرين سؤالا في التفسير وما إليه، قدمها له بلديه عبد الرحمــن إبن العشاب، ولحسن الحظ حافظ الونشريسي على مجموع الأسئلة والأجوبة، وأثبت نصها في «**المعيار**»[100].

ب ــ علوم ملحقة بالتفسير

وهي هنا ثلاثة : **القراءات**، ووظيفتها معرفة طرق أداء القرءان الكريم، حسب القراءات السبع وما إليها، مع اعتبار أن المغرب يأخذ بقراءة نافع من رواية ورش.

ويأتي ــ بعدها ــ علم **التجويد**، للتعريف بتلاوة الكتاب العزيز وفق الأوضاع العربية.

وثالثا : مادة **الرسم**، وتهتم بطرق الكتابة القرآنية طبق رسمها بالمصحف العثماني.

(99) **حط النقاب** «م.س» مع **جذوة الإقتباس**، م. س، ص. 150ــ151، ثم **نيل الإبتهاج** المنشور بهامش **الديباج المذهب**، مطبعة المعاهد بالقاهرة، ص. 66. (ملاحظة : سنرمز مستقبلا بحرفي «م. س.» مهما تكررت الإحالة على المصدر).

(100) دار الغرب الإسلامي، بيروت : 12/263ــ290.

وقد كان تشجيع هذه المواد الثلاث في طليعة اهتمامات المرينيين الأولين، ومن ملامح ذلك أنه صار لطلاب هذه العلوم الحق في السكنى بالمدرسة وفي التمتع بالمنح المدرسية. ووقع التأكيد على هذا في ثلاثة نصوص معاصرة :

وجاء الأول منها في «**الذخيرة السنية**»(101) التي تقول عن أبي يوسف : «وبنى المدارس بفاس ومراكش، ورتب فيها الطلبة لقراءة القرآن والعلم، وأجرى لهم المرتبات في كل شهر».

وبعد هذا ابتنى أبو سعيد الأول مدرسة فاس الجديد فيأتي عنها في «**روض القرطاس**»(102) : «ورتب (أبو سعيد) فيها الطلبة لقراءة القرآن، والفقهاء لتدريس العلم، وأجرى عليهم المرتبات والمئون في كل شهر».

وفي أيام نفس السلطان إبتنى ولي عهده أبو الحسن مدرسة الأندلس بفاس العتيق، وأسكنها ــ حسب المصدر الأخير ــ(103) بطلبة العلم وقراء القرآن، وأجرى عليهم الإنفاق والكسوة.

وقد شيد نفس الأمير شرقي هذه المؤسسة مدرسة صغرى(104)، وصارت خاصة بسكنى أساتيذ القراءات السبع، وهي «مدرسة السبعيين» التي تسميها الوثائق العتيقة بمدرسة الأساتيذ(105).

* * *

وبعد هذا فإن مسار العلوم الثلاثة كان متجاوبا مع التشجيع المريني، وبالنسبة لمادة **القراءات**، يمدنا أبو القاسم التجيبي(106) بأسماء ثلاثة من كتبها الدراسية بسبتة : «**الكافي**» لابن شريح، وكتاب «**المفردات**» لنفس المؤلف، ثم «**قصيدة**» الحصري، وينضاف لهذه الثلاثة : مؤلفات تعليمية أخرى، ومنها كتاب «**التيسير**» للداني، الذي نظمه مالك إبن المرحل في قصيدة مطولة، عارض بها القصيدة

(101) ط الجزائر، ص. 100.

(102) **روض القرطاس** لابن أبي زرع، المطبعة الحجرية الفاسية 1305 هـ، ص. 299.

(103) **نفس الصفحة**.

(104) هي التي بالدريبة الواقعة بين مدرسة الصهريج وجامع الأندلس.

(105) من هذه الوثائق حوالة في أوراق قديمة عن حسابات المدارس العلمية بفاس، وهي في خزانة القرويين تحت رقم 399.

(106) **برنامج التجيبي**، م. س، ص. 33، 35، 36، 42.

الشاطبية : (حرز الأماني) وزنا وقافية، وسماها بـ«**التبيين والتبصير في نظم كتاب التيسير**»[107]، وقد وصلت هذه القصيدة للمشرق، حيث وقف عليها الذهبي وقال عنها : «وقفت له على قصيدة أزيد من ألف بيت لامية، نظم فيها التيسير بلا رموز[108]، وقد كانت هذه القصيدة ومعها كافي إبن شريح، يحفظهما ــ معا ــ أحد المقرئين بسبتة : أبو القاسم الضرير : محمد بن عبد الرحيم القيسي ت 701/«1302»[109].

و«القصيدة الشاطبية» ــ بدورها ــ كانت تتصدر كتب الدراسة، وهي المعروفة باسم «حرز الأماني ووجه التهاني، ويقول عنها إبن خلدون[110] : «وعني الناس بحفظها وتلقينها للولدان المتعلمين، وجرى العمل على ذلك في أمصار المغرب والأندلس».

5 ــ وفي المغرب ــ بالذات ــ لمعت بضعة أسماء، كنماذج لشيوخ القراءات بهذه الجهات، وأولهم إبن القصاب : محمد بن علي بن عبد الحق الفاسي، ت حدود 690/«1291»، كان يقرئ القرآن بقراءات السبعة ويقرى العربية[111].

6 ــ إبن آجروم : محمد بن محمد بن داود الصنهاجي ثم الفاسي، ت 723/«1323»، وله مؤلفان : «**الرجز البارع في قراءة نافع**»، مع شرح بسيط على اللامية الشاطبية باسم «**فرائد المعاني في شرح حرز الأماني**»، يوجد منه سفران في نسختين : خ. ع ق 146، 664.

7 ــ الشيخ إبن حْدَادة : موسى بن محمد بن موسى الصلحي المرسي ثم الفاسي، كان حيا بفاس سنة 723/1323»، وهو أحد رجال السند المغربي في القراءات[112].

(107) **مختصر الإحاطة**، لابن الخطيب، مصور خ. ع. د. 1708، عن مخطوطة الخزانة الأحمدية بفاس، وسقطت هذه الفقرة من طبعة الإحاطة بتحقيق ذ. عبد الله عنان.

(108) **غاية النهاية** لابن الجزري، دار الكتاب اللبناني : 36/2.

(109) **المصدر**، 171/2.

(110) **المقدمة**، المطبعة البهية المصرية، ص. 382.

(111) **غاية النهاية**، م. س. : 204/2.

(112) سنده مبسوط في عدد من الفهارس العلمية من القرن التاسع هـ فما بعده.

8 ـ وشاركه في هذه الميزة معاصره أبو الحسن القرطبي : علي بن سليمان الأنصاري مستوطن فاس ودفينها، ت 730/«1330»، ومن مؤلفاته كتاب **«التجريد الكبير»**، جمع فيه بين القراءات للأيمة الثلاثة : الداني ومكي وابن شريح، ثم اختصره في مؤلف وجيز، كما ألف **«تهذيب المنافع، في قراءة نافع»**[113].

9 ـ أبو الحسن إبن برِّي : علي بن محمد بن علي التازي الدار، التسولي النجار، ت 731/«1331»، وهو واضع أرجوزة **«الدرر اللوامع، في أصل مقرإ الإمام نافع»**، نظمه عام 697هـ في 273 بيتا، ورتبه على مقدمة وأربعة عشر بابا وتذييل، يقول المنتوري أوائل شرحه على هذا الرجز (مخطوط خ.ع، ق519): «...ورويته من طرق ثلاثة، أعلاهن ما حدثني به الشيخ المسن المقريء الصالح أبو الحجاج : يوسف بن علي بن عبد الواحد السدوري المكناسي رحمه الله، قراءة ـ من حفظي ـ عليه في أواخر شعبان سنة أربع وسبعين وسبعمائة، عن ناظمه سماعا عليه بجامع القرويين من مدينة فاس، في أواخر محرم سنة ثلاث وعشرين وسبعمائة».

وعن الأصول الأولى لهذا الرجز، يذكر نفس المصدر أنه وقف عليه بخط ناظمه في ثلاثة أصول: أصل عبد المهيمن الحضرمي، وأصل المكناسي المذكور، وأصل البلفيقي.

ومن هنا نتبين أن هذه الأرجوزة إشتهرت من عصر ناظمها، وممن شرحها في حياته الإمام الخراز آتي الذكر، باسم **«القصد النافع لبغية الناشيء والبارع في شرح الدرر اللوامع. في أصل مقرإ الإمام نافع»**، خ. ح 3719 ـ م.ت 867.

وفي طالعته يقوّم الأرجوزة المشروحة قائلا : «فتداولها الناس في البلدان، وتعاهد درسها الكهول والولدان».

10 ـ وقريبا من هذه الفترة ظهر **«شرح نفس الأرجوزة»** من تأليف المجاصي : محمد بن شعيب بن عبد الواحد اليصليتني، فرغ منه ـ حسب تعبيره ـ في عواشر الحجة 743/«1343»، خ. س 2/5458 و11341.

* * *

ومن محاسن **«الدرر اللوامع»** أن ناظمه ذيله بتكملة في مخارج الحروف وصفاتها، وبذلك جاء هذا الرجز يتناول القراءات وبعض أحكام **التجويد**، وممن ألف

(113) **فهرس المنتوري**، خ. س. 1/1578.

في المادة الأخيرة أبو العباس أحمد بن محمد بن محمد الحسني السبتي، ت 737/«1337»، وسمى تأليفه : «**نظم الفريد في أحكام التجويد**»[114].

* * *

ومن التجويد ننتقل إلى علم **الرسم**، وكانت المؤلفات المعتمدة في دراسته هي «**المقنع**» للداني، و«**عقلية أتراب القصائد في أسمى المقاصد**» لأبي القاسم الشاطبي : القصيدة الرائية التي نظم فيها كتاب «**المقنع**».

2/10 ـ ثم لمع في فاس إسم الإمام الخراز : محمد بن محمد بن إبراهيم الأموي الشريشي مستوطن فاس، ت 718/«1318»، وقد شرح عقيلة أتراب القصائد آنفة الذكر، واشتهر بنظمه الرجزي باسم «**مورد الظمآن في رسم أحرف القرآن**»، فرغ منه عام 711/«1311»، واشتمل على 454 بيتساير فيها طريقة نافع في الرسم، على أن هذا العمل يتميز بإضافات استدركها الخراز على موضوعات «**المقنع**» و«**التنزيل**» و«**العقيلة**» وغيرها[115]، وبذلك صار للأرجوزة مكانتها التي يبرزها إبن خلدون[116] : «... واشتهرت بالمغرب، واقتصر الناس على حفظها، وهجروا بها كتب أبي داود وأبي عمرو والشاطبي في الرسم».

وقد ألحق الخراز بـ«**مورد الظمآن**» تكملة في ضبط كلمات القرآن الكريم، وذيل بها في أرجوزة باسم «**عمدة البيان في رسم ما قد خط في القرآن**»، وهي منشورة مع «**المورد**».

الثاني من المؤلفين في هذه المادة : إبن البنَّا سابق الذكر، وسمى عمله : «**عنوان الدليل على مرسوم خط التنزيل**» في رسالة وجيزة.

11 ـ إبن آجطّا : عبد الله بن عمر الصنهاجي، ت أواسط ق 13/8، ألف «**التبيان في شرح مود الظمآن**»، وهو أول من شرحه[117].

خ. س 4702 مبتور الآخر.

خ. س 5827 « »

(114) المصدر، وترجمة مؤلف **نظم الفريد** في **درة الحجال**، م. س. : 28/1.

(115) **غاية النهاية**، م. س : 237/2، وترجمة الخراز في **سلوة الأنفاس** 114/2ـ115.

(116) **المقدمة**، م. س، ص. 382.

(117) ترجمة إبن آجطا في **سلوة الأنفاس** 105/2ـ106.

م. ت 739

م. ت 855.

تكميلات موضوعية

أ ـ أنظمة الكتاب القرآني

نذيل ـ الآن ـ على مادة القراءات وما معها بثلاث تكميلات، ونبدأ ـ أولا ـ بأنظمة الكتاب القرآني في العصر ذاته، وقد كانت منهجية الكُتَّاب المغربي تختلف ـ جزئيا ـ عن أنظمة الكتّاب بالأندلس وتونس والمشرق، وكان مذهب المغاربة الاهتمام ـ في الدرجة الأولى ـ بتحفيظ القرآن الكريم، وأخذ المتعلمين ـ أثناء مدارسته ـ بتحصيل قواعد الرسم القرآني، ومذاهب القُرّاء في مسائله، لا يخلطون ذلك بتعليم مادة أخرى(118).

* * *

وعن نظام الكتّاب المغربي في هذا العصر المريني الأول، كان من حسن الحظ أن نلتقي بمؤلف مغربي عاصر هذه الفترة بالذات، وخلف أفكارا عن طريقة تعليم الصبيان وتربيتهم.

12 ـ وكان هذا هو محمد ابن الحاج العبدري الفاسي، نزيل مصر إلى أن توفي بها عام 737/«1337»، وهو يخصص في كتابه «**المدخل**» قُراب ثلاثين صفحة موزعة على ستة فصول، ليشرح فيها آراءه عن أنظمة الكتاتيب القرآنية.

وسنحاول تقديم طائفة من أفكار المؤلف المغربي في هذا الصدد، دون أن نلتزم باحتداء ترتيبه أو تطويله، وهكذا سنسير في عرض الموضوع كالتالي :

ـ صفات المعلم.

ـ الموضع المفضل للكُتّاب.

ـ سن ابتداء التعليم.

ـ مواد التعليم.

---

(118) **المقدمة**، لابن خلدون، م. س، ص. 495.

ـ سيرة المعلم في الكتاب.

ـ العقوبات.

ـ العطل.

ـ زخرفة ألواح الأطفال عند المناسبات.

ـ الحفلات القرآنية.

* * *

وعن النقطة الأولى فإن مؤلف «**المدخل**» ينصح أولياء الأطفال أن يتخيروا لصغارهم أفضل ما يمكن في محيطهم من المؤدّبين وإن كان كتابهم بعيدا، وهو يشرح هذا ويقول :

«فيختارون لهم ـ أولا ـ أهل الدين والتقوى، فإن كان ـ مع ذلك ـ عنده علم من العربية فهو أحسن، فإن زاد على ذلك بالفقه فهو أولى، فإن زاد عليه بكبر السن فهو أجدر، فإن زاد عليه بورع وزهد فهو أحْرى، إلى غير ذلك، إذ أنه كيفما زادت الخصال المحمودة في المؤدب زاد الصبي به تجملا ورفعة»[119].

وبالإضافة إلى هذا فإن الكمال في المعلم أن يحصن نفسه بالزواج، حيث يغلب التسرع إلى سوء الظن بمن كان غير متأهل[120]. وعليه أن يوطن نفسه على الإخلاص في مهمته، وأن يقصد نفع العموم بانْتِصابه لنشر القرآن الكريم[121].

ولْيَتَحَلَّ بالوقار أثناء عمله، حتى إنه لا يجمل به الإكثار من الكلام مع من يزوره في الكتاب من أصْدِقائه[122].

ومن آكد واجباته ملازمة الكتاب، وأن يتولى ـ بنفسه ـ تعليم الأطفال، وفي حالة ما إذا شقَّ عليه مقابلة جميعهم فإنه ينتدب كبار الأطفال أن يُقرئوا صغارهم، شريطة أن لا يجعل صبيانا معلومين لشخص واحد، وإنما يبدلهم في كل وقت على العرفاء.

(119) **المدخل** لابن الحاج المطبعة المصرية بالأزهر : 323/2.

(120) المصدر : 319/2.

(121) المصدر : 308/2ـ309.

(122) المصدر : 313/2.

أما إذا كان الأطفال كلهم صغاراً فيتأكد مباشرة تعليمهم بنفسه، فإن عَجَزَ فليستحضر من ينوب عنه من الحفاظ المأمونين(123).

وبحسب الضرورة فإنه يُغْتَفَرُ للمعلم التغيب اليسير لحاجته، وفي هذه الحالة يوكل بالأطفال أكبرهم سنا وأعقلهم، ويأمره أن لا يضرب أحدا منهم في غيبته ولا ينهره، ومن ارتكب منهم مخالفة يسجل اسمه حتى يأتي المؤدب ليرى فيه رأيه(124).

* * *

والموقع المفضل للكتاب أن يبرز في مكان مشتهر في السوق أو على الشوارع العامة، ولا يكون في موضع ليس بمسلوك للناس تفاديا مما يُفضي إليه من الريبة.

ومن الممنوع ـ بتاتا ـ اتخاذ المسجد كتّابا، حيث أن مكانة هذه المؤسسة تصونها عما يكون عليه الصبيان من العبث وعدم الاحتراز(125).

ومن مُتَطلبات الكتاب أن يكوَن الموضع الذي يتصرف فيه الأطفال لضرورة البشرية معينا، ويومن فيه الأطفال، فإن انعدم ذلك فعلى المؤدب أن يسرح من يعنيه الأمر إلى بيته عند الاقتضاء، على أن يكون خروجه منفرداً. ولا يترك غيره يذهب حتى يعود الأول(126).

وعليه أن يمنع التلاميذ ـ إطلاقا ـ من قضاء حاجتهم في الطرقات وخلف جدران البيوت(127).

* * *

أما سن ابتداء التعليم فإن نفس المؤلف يحدده بسبع سنوات، ويخالف ـ في هذا التقدير ـ بعض من سبقه من المربين، وهو يؤيد اتجاهه ويقول في سياق الحديث عن المعلم :

«وينبغي له أن يمتثل السنة في الإقراء، ومن جملة ذلك أن السلف الماضين ـ

(123) المصدر : 315/2.
(124) المصدر : 323/2.
(125) المصدر : 313/2.
(126) المصدر : 314/2.
(127) المصدر : 319/2.

رضي الله عنهم أجمعين ـ إنما كانوا يقرئون أولادهم في سبع سنين، لأنه زمن يؤمر فيه الولي أن يكلف الصبي بالصلاة والآداب الشرعية فيه، فإذا كان الصبي في ذلك السن فهو غيْر محتاج إلى من يأتي به إلى المكتب إن أمن عليه غالبا...».

وبعد هذا يشرح معايب العدول عن هذا السن إلى ما نقص عنه ويقول في ذلك :

«والغالب في هذا الزمان أنهم يدخلون أولادهم المكتب في حال الصغر، بحيث إنهم يحتاجون إلى من يربيهم ويسوقهم إلى المكتب ويردهم إلى بيوتهم، بل بعضهم يكون سنه بحيث لا يقدر أن يمسك ضرورة نفسه... فيلحذر من أن يقرئ مثل هؤلاء، إذ لا فائدة في إقرائه لهم إلا وجود التعب غالبا، وتلويث موضع القرآن، وتنزيهه عن ذلك متعين... ألا ترى أن الغالب منهم، أنهم يرسلون أولادهم إلى المكتب في حال صغرهم لكي يستريحوا من تعبهم لا لأجل القراءة...»(128).

هكذا يوجه مؤلف المدخل تحديد سن ابتداء التعليم بسبع سنوات، ويعلق البعض(129) على هذا الإتجاه قائلا :

«ورأي ابن الحاج هذا رأي وجيه أيدته البحوث التربوية الحديثة، فقد ذهب المربون المحدثون إلى أنه لا يحسن تعليم الصبي قبل اكتمال وعيه، وإن هذا الاكتمال لا يتم ـ في الأغلب ـ إلا بعد السنة السادسة...».

* * *

ونعود إلى مؤلف المدخل، حيث يؤكد أن مهمة المعلم لا تقف عند تحفيظ القرآن الكريم، وعليه ـ مع ذلك ـ أن يلقن الصغار قواعد الخط، ويدربهم على الفهم والإدراك، حيث إنهم ـ بذلك ـ يستطيعون الحفظ والفهم، وهما أكبر الأسباب المعينة على قراءة الكتب والاستفادة منها ـ(130)، كما يربيهم على الآداب الإسلامية، فيحملهم على اتباع السنة، ويغرس في نفوسهم الاهتمام بالشعائر الدينية، ويفرق في هذا بين البنين والبنات.

---

(128) **المصدر** : 315/2ـ316.

(129) د. محمد أسعد أطلس، **التربية والتعليم في الإسلام**، دار القلم للملايين، بيروت، ص. 87.

(130) **المدخل**، م. س : 317/2.

وعليه أن ينظم لأطفاله أوقات تعْليمهم، ويقسمها إلى حصص مضبوطة، ابتداء من وقت كتابة الألواح، إلى زمن تصحيحها، إلى حصة عرضها. إلى موعِد قراءة الأحزاب، حتى ينضبط الحال ولا يختل النظام، ومن تخلف من الأطفال عن الوقت المحدد دون سبب قاهر، يؤاخذه المعلم بما يليق به[131].

* * *

وعن سيرة المعلم داخل الكُتّاب، فإنه مطالب أن يسوي بين الصبيان في المعاملة حتى يكونوا عنده بمنزلة واحدة، فابن الفقير وابن الغني على حد واحد في التربية والتعليم[132].

ولهذا فإنه لا يترك فُرْشا أو نحوه يأتي للكتاب برسم جلوس بعض الأطفال، حيث إن في ذلك ترفيعا لابن الغني، وانكسارا لخاطر الفقير واليتيم، والموضع موضع جبر لا مكان كسر[133].

وعليه أن لا يترك أحدا من الصبيان يأتي بغذاء أو نقود يشتري بها شيئا في الكتاب، فمن هذا الباب تَنْتَكس تربيتهم، وينكسر خاطر الفقير منهم والضعيف لما يرى من جدة غيره.

ولهذا فلا يدع أحدا من الباعة ينتصب على باب الكتاب ليبيع للصبيان[134].

كذلك يربيهم على أن الأكل لا ينبغي أن يكون إلا بين الإخوان وبحضرة من يعرفونه، حتى لا يعتادوا الأكل على قارعة الطريق وفي وسط الأسواق[135].

ولا يستخدم المعلم أحدا من صبيانه فيما يحتاج إليه من شؤونه، إلا أن يستأذن الولي في ذلك ويأذن له عن طيب نفس منه، ولا يستخدم اليتيم في حاجته بكل حال.

---

(131) المصدر : 316/2.
(132) المصدر : 309/2.
(133) المصدر : 314/2.
(134) المصدر : 313/2.
(135) المصدر : 314/2.

وليحذر أن يرسل إلى بيته أحدا من البالغين أو المراهقين، تفاديا مما قد يؤدي إليه ذلك من سوء الظن[136].

ويحافظ المعلم على هيبته في معاملة الصبيان، فلا يباسطهم ولا يضاحكهم، وبالأحرى لا يواكلهم في طعامهم[137].

ولينشئهم على النظافة والاحترام للقرآن الكريم، ولهذا يلزم أن يكون لمحو الألواح في المكتب مكان طاهر مصون نظيف، وكذلك الخرق التي تمسح بها الألواح تكون طاهرة في ذاتها وبالنسبة للماء الذي تبل منه، ويمنع الصبيان أن يمسحوا الألواح أو بعضها بالبصاق[138].

وإلى هذا يتأكد على المعلم أن يعامل أطفاله بالرفق ما أمكن، فلا يسوغ له أن يشتم من استحق الأدب من الصبيان، وبالأحرى أن يتعدّى بذلك إلى أبويه[139]. وليست عقوبة المقصرين واحدة، فرب صبي ينزجر بالعبوس، وآخر لا يرتدع إلا بالتهديد، وثالث لا ينزجر إلا بالضرب والإهانة، ولا يستحسن العبدري التأديب بالضرب في حق من لم يبلغ عشر سنوات، حتى إذا بلغ الطفل هذا السن وتعينت العقوبة الجسدية، ضرب ضربا غير مبرح مِنْ واحدة إلى ثلاث، فإن اضطر المعلم إلى زيادة على ذلك فلا يتعدى العشر، ويكون مسؤولا عما يطرأ على الصبي إن زاد على ذلك.

وعن أداة العقوبة : يتعين أن تكون معتدلة، ويستنكر العبدري ما أحدثه بعض المؤدّبين في عصره حتى تجاوزوا الاعتدال في هذه الأداة[140].

وكما يعاقب الأطفال على إهمال واجباتهم في الكتاب، كذلك يعاقبون على الفرار منه، وعلى الكذب والسب واليمين المحرمة، والمعاملة بالربا[141].

وبعد هذا تأتي عقوبة الطرد في حق من اتصف من الصبيان بواحدة من الخصال الذميمة، وفي هذا يقول العبدري عن المعلم :

(136) المصدر : 2/318-319.
(137) المصدر : 2/319-320.
(138) المصدر : 2/317-318.
(139) المصدر : 2/325.
(140) المصدر : 2/316-317.
(141) مقنع المحتاج في آداب الأزواج، لابن عرضون : أحمد بن الحسن، مخطوطة خاصة، ص. 421.

«... وينبغي له أن لا يدع أحدا عنده من الصبيان مِمَّنْ فيه رائحة مّا من الخصال الذميمة، إذ أن ذلك سبيل للوقيعة في حق بعض من في المكتب عنده، وقد يفضي ذلك إلى أن يشتهر مكتبه بما لا ينبغي، فقد ينسب إلى المؤذب ما لا يليق بمنصبه، وفيه مفسدة أخرى، وهو أنه قد يكون سببا إلى عدم مجيء الصبيان إليه أو قلتهم، فيحصل بذلك تمزيق العرض وقلة الرزق»(142).

* * *

وبالنسبة للاستراحة اليومية للأطفال، فإن المعلم يسرحهم ثلاث مرات في اليوم : بعد محو الألواح للإفطار، وقبل الظهر للغذاء والراحة، ومع العشي بحسب طول النهار وقصره، ولا يبيح لهم الاستمرار في الكتاب لغذائهم وحاجتهم، كما لا يتركهم ينامون فيه خلال فترة الاستراحة(143)، وفي حال تسريحهم لا يغفل أن يقيم السطوة على من يتغيب أكثر من اللازم(144).

أما الاستراحة الدورية فهي يومان في الأسبوع : الخميس والجمعة، وقبل العيد بيومين أو ثلاثة، وكذلك الشأن فيما بعده(145).

وفي حالة ما إذا اشتكى بعض الصبيان بمرض وهو في الكتاب، فعلى المعلم أن يصرفه إلى بيت وليه، ولا يتركه يستمر بين المتعلمين دون قراءة، لأن ذلك سببٌ لبطالة غيره في الغالب(146).

* * *

وعن زخرفة ألواح الأطفال عند المناسبات، فإن العبدري يقول في هذا الصدد : «وأما تزويق الألواح في الاصرافات : (مراحل حفظ القرآن الكريم) والأعياد في بعض البلاد، فهو من باب المباح الجائز، وفيه إدخال السرور على الأولاد ... وفيه التنشيط للصبيان على الاعتناء بالمواظبة على القراءة»(147).

---

(142) المدخل، م. س : 321/2.
(143) المصدر : 322/2.
(144) المدخل : 314/2.
(145) المصدر : 321/2.
(146) المصدر : 322/2.
(147) المصدر : 331/2.

ومن الجدير بالذكر أن هذه العادة استمرت بالكتّاب المغربي حتى السنين الأخيرة، وبواسطتها صار أفراد من التلاميذ يتجهون إلى الاهتمام بالزخرفة في الكتب والألواح الحائطية.

* * *

وقد أشار مؤلف «المدخل» ـ بعد هذا ـ إلى حفلات الأختام القرآنية للأطفال، فاستعرض أنماطا منها ليذكر ما أحدث فيها من المبتدعات[148]، غير أنه لم يعين شكل الاحتفال المغربي عند هذه المناسبة، وذلك ما سنحاول تحديده استناداً إلى الحسن الوزان الفاسي في كتابه «**وصف إفريقيا**»، فقد تحدث عن أنظمة الكتاتيب بفاس في عهده : خلال القرن 16/10، ومن المرجح أن هذه الأنظمة ـ في غالبها ـ إنما هي امتداد لواقع الكُتَّاب المغربي في العصر المريني الأول، ولذلك سيكون من المناسب التعقيب بذكر ما يهمنا من وصف ليون الإفريقي للكُتَّاب الفاسي في عصره حسب الفقرة التالية :

«... توجد بفاس مائتا مدرسة لتعليم الأطفال، وهي عبارة عن قاعات واسعة، داخلها محاط بالدكاكين لجلوس التلاميذ، والمعلم يعلم القراءة والكتابة على ألواح واسعة، يكتب التلاميذ فيها جزءً من القرآن في كل يوم، ويسيرون على ذلك فيختمون القرآن في سنتين أو ثلاثة، ويعيدون ختمه مرات عديدة حتى يحفظوه عن ظهر قلب، وأقصى ما يقضون في ذلك سبع سنين، ويتعلمون ـ مع ذلك ـ مبادئ من قواعد الرسم، وهذا الفن يدرس بسائر المدارس العلمية مع النحو وله نظامه هناك.

وأجرة هؤلاء المعلمين طفيفة، ولكن كُلَّما بلغ التلميذ إلى قسم من القرآن قدم أبوه صلة للمعلم، وإذا ختمه أقام الأب حفلة لسائر رفقاء ابنه، فيأتي ابنه محفوفا بهم في أثواب فاخرة، راكبا على جواد رفيع يعيره ـ عامل المدينة بسلاحه الثمين ـ لكل من ختم القرآن، ويركب حوله سائر رفقائه على الفرسان، ويأخذون في إنشاد أشعار في تمجيد الله ومدح نبيه، ثم يقبلون إلى محل الاحتفال التي يحضره سائر أحباء الأب، بقصد أن يقدموا ـ جميعا ـ هدايا للمعلم، ويظهر سائر الأطفال بهذا الاحتفال في أثوابهم الرفيعة كما تقتضيه العادة...»[149].

* * *

(148) المصدر : 2/331ـ332.

(149) «**حياة الوزان الفاسي وآثاره**»، تأليف محمد المهدي الحجوي، المطبعة الاقتصادية، الرباط، ص. 86ـ87.

ب ـ نماذج من أسماء علمية اضطلعت بالتعليم المكتبي

والقصد إلى أربعة شيوخ، بدءً من الخراز : محمد بن محمد بن إبراهيم الفاسي سابق الذكر، فيقول عنه في «**سلوة الأنفاس**»(150) :

«وكان يعلم الصبيان بمدينة فاس».

ثم إبن آجروم : محمد بن محمد بن داود الصنهاجي الفاسي، مؤلف المقدمة الأجرومية وسابق الذكر، كان من مؤدبي أهل مدينة فاس، حسب تعبير إبن القاضي(151).

وثالثا : إبن آجطا : عبد الله بن عمر الصنهاجي الفاسي سابق الذكر، يحليه السراج بالشيخ المقرئ المكتِّب المنجِّب(152).

13 ـ أبو سالم إبراهيم بن عبد الكريم المكناسي، وصفه ابن غازي(153) بالفقيه الحافظ، وترجمه ابن القاضي(154) قائلا : «الفقيه المدرس بمدينة مكناسة، كان يقرر التهذيب ويذكر كلام الناس عليه والمختصرين وأقوال الأيمة، وكان يدرّس المدونة، ويعلم الصبيان»، وتوفي بعد عام 1317/717.

ج ـ الإجازة بالقرآن الكريم

تتفرع الإجازات العلمية إلى ثلاثة أنماط رئيسية : **إجازة بالتصدير**، وفيها يشهد الشيخ للطالب بتحصيله للعلوم المعنية، واستحقاقه الانتصاب للتدريس وما شاكله، وثانيا : **إجازة الرواية**، حيث يبيح المجيز للمجاز حق الرواية من طريقه بشرط ذلك، وهذه وما قبلها لا يتطلبان امتحانا مسبقا، ويكتفي الشيخ بما يعرفه عن المُجاز.

وثالثا : **الإجازة بالقرآن الكريم**، وإليها يساق هذا العرض، وتتميز بما يتقدمها من امتحان طويل الأمد، صعب التحضير، لينال الطالب ـ بعد ذلك ـ إجازة

---

(150) 114/2.

(151) **جذوة الاقتباس**، م. س، ص. 221.

(152) **سلوة الأنفاس** : 105/2.

(153) **الروض الهتون**، مطبعة الأمنية، ص. 17.

(154) **درة الحجال**، م. س، 199/1.

استاذه، مكتوبة ـ في الغالب ـ على الرق، في مضمون مستوعب، وشكل بديع مذيل بشهادات العدول وغيرهم على الشيخ المجيز، حسبما تأتي تفاصيل ذلك من بعد.

وقد عرفت هذه الإجازة بالأندلس من أواخر العصر المرابطي أو صدر أيام الموحدين، الفترة التي يرجع إليها أول نص مذكور في هذا الصدد، وهو الذي يحتفظ به ابن عبد الملك المراكشي[155] خلال ترجمة أحد الأندلسيين، فيقول عن شيخيْه المجيزيْن له : «وقفت على إجازتيْهما له في رَقين، وقد ذكرا أنه «تلا عليهما بالسبع، وقرأ غير ذلك، وقد شُهد عليهما بذلك حسب جاري العادة في مثله».

ومن الأندلس يترسخ هذا العمل في المغرب المريني، فيذكر أبو القاسم التجيبي[156] عن أستاذه ابن أبي الربيع مستوطن سبتة، أنه قرأ عليه بها الكتاب العزيز بالأربع عشرة رواية المعروفة عند السبعة، وتلاها عليه في ثمان عرضات، في مدة آخرها شهر ربيع الآخر، من سنة 686/«1287»، وبعدها كتب له ـ بخطه ـ صحة ذلك، وأشهد له به ـ في التاريخ ـ فقهاء سبتة وفضلاءها وأمراءها وكبراءها.

وبعد هذا التاريخ تتابع ظهور هذه الإجازات القرءانية[157]، عبر العصر المريني وبعده إلى أواخر ق 18/12. ولحسن الحظ فإن مؤلفا مغربيا كتب وصفا موسعا للامتحان المعمق والمطول الذي يتجسّمه ـ تحت رقابة شيخه ـ طالب هذه الإجازة.

14 ـ وكان هذا المؤلَف هو أبو الحسن علي بن ميمون الإدريسي الغماري، نزيل لبنان ودفينها عام 917/«1511»، وقد أثبت الوصف المنوه به خلال مؤلّفه: «**الرسالة المجازة في أحكام الإجازة**»[158]، فيفيض في التعريف بمراحل هذا الامتحان وما يتخللها من أعمال، ويستوعب ذلك بدءً ونهاية، ولأهميته عدلت عن تلخيصه إلى إثباته بتعبير مؤلفه فيما يلي :

---

(155) **الذيل والتكملة**، دار الثقافة، بيروت : 638/5.

(156) **برنامج التجيبي**، م. س، ص. 22.

(157) قدم منها لجائزة الحسن الثاني... ما يفوق 20 إجازة رقية، ويوجد وصف وجيز لست عشرة منها في **المصادر العربية لتاريخ المغرب**، حسب مسرد الإشارة لها في «الفهرس»، ج 1، ص. 239.

(158) من مصورات الخزانة العامة بالرباط، في شريط يحمل رقم 1343، والقطعة المنقولة منه وردت عند، ص. 288ـ292 من المجموع الذي يشتمل على **الرسالة المجازة**.

«... وذلك أن القارئ يكون ــ أولا ــ قرأ القرآن كله وحفظه كأم القرآن سواء، ويكون حفظ من الكُتُب عليه ما يحتاج إلى ذلك من رسم وضبط وتلاوة، وتكون هذه الكتب كلها محفوظة نصب عينيه لفظا ومعنى، ويكون الطالب قرأ على غير هذا الأستاذ ــ أعني على من دونه في المقام من الأساتذة ــ فلا يأتي إمام الإجازة إلا بالدّرج : من قاريء إلى قاريء فوقه، فإذا أتى إلى الأستاذ المجيز، وهو أعلم أهل وقته في هذا الشأن، وأكملهم وأفضلهم وأورعهم وأصلحهم، أمره بما هو مصطلح عندهم، وذلك أن القرآن لا يقرأ عندهم ــ يعني في المغرب كله ــ إلا في اللوح... فبعد أن يكتب على ما وصف ويجود كذلك، يختلي بنفسه ويتأهب لدرس ذلك بالتلاوة يومه وليلته.، ويعين لنفسه عددا معلوما يقرأه في لوحه.. على قدر الاجتهاد، فلا يمكن محيه للوحه حتى يتم فيه العدة المحدودة عنده، يختم القرآن كله ــ مرارا ــ على هذه الصفة، فإذا حصل له حفظه وقراءته على أستاذه بالكتب المذكورة قبل، المحتاج إليها، وصورها وفهمها وعرف أحكامها، ينتقل إلى من فوق أستاذه، ثم إلى من فوقه كما ذكر قبل.

إلى أن يأتي إلى أستاذه... فيأمره بكتب ربع حزب أو ثمنه كل يوم، ويرسمه على رسم المصحف المعلوم المشهور، ويضبطه على قاعدة الضبط المعلوم، ويأتي إلى الشيخ فيقعد معه بين يديه، يعطف رجلا ويقيم الأخرى، وينصب اللوح مقابلة وجه الأستاذ ويشرع في التلاوة.

فأول ما يطلق به الطالب التعوذ ثم البسملة في محلها في قاعدة القراء في ذلك، حسبما هو مطلوب عند أهله، فأول ما يبدأه الأستاذ بالسؤال على ما يتلفظ عنده وهو التعوذ والبسملة، يقول له : ما تقرأ على هذا التعوذ وعلى هذه البسملة من الكتب المصنفة في ذلك كما تقدم، فيأتي الطالب بالنص على ذلك، وحينئذ يتحول إلى ما بعده والشيخ يجود معه وعينه للرسم والضبط، فما يراه من الحذف والإثبات والضبط يسأله عن النص عن ذلك من كتب أهله فيأتيه به، وما يسمع في التلاوة من تخفيف الهمز أو إبداله أو تسهيله، أو المد المشبع أو المتوسط أو المقصور، أو تغليظ أو تفخيم أو ترقيق، أو غير ذلك من سائر آداب التلاوة : يسأله عن ذلك فيأتيه بالنص والمشهور من ذلك وغيره، هكذا حتى يفرغ ما كتبه في اللوح : إما ربع حزب أو ثمنه على حسب ما يأذن له أستاذه.

فإذا فرغ على هذه الصفة، يأمره بالإعراب بعد تجويده معه ليتعلم صفة تلاوة أستاذه، ثم يأمره بإعادة مرة واحدة على انفراده، لينظر في أحواله في التلاوة في جميع الصفات المتقدمة وغيرها، فما كان على الأصل أقره عليه، وما كان على غير الأصل نبهه عليه وعلّمه كيف يتلفظ به، فإذا فرغ من إعادته وحده أمره الأستاذ بالإعراب، فتارة يعرب سطرا وتارة أكثر وتارة أقل، ومعنى الإعراب أن يقول له مثلا : إذا تعوذ وبسمل ما إعراب التعوذ ؟ وما إعراب البسملة؟ ثم ما إعراب أول ما كتبته في اللوح من الأجزاء؟ هكذا يفعل معه من الفاتحة والبقرة إلى الجنة والناس على نظم المصحف.

فإذا ختم القرآن على هذه الصفة، وظهر للأستاذ أنه ممن ينبغي أن يجاز يجيزه، ويأمر كاتبا يكتب الإجازة على ما هي عندهم معلومة، ويقول : «أذنت لفلان بن فلان الفلاني في قراءة القرآن العزيز وتعليمه لغيره، على نحو ما قرأ عليَّ وسمعته منه، وقرأت أنا على شيخي فلان، وشيخي على شيخه فلان، ثم كذلك إلى المنتهى، إن كان قرأ عليه برواية واحدة يكتب له بها، وإن كان بأكثر أو بالجمع يكتب له كذلك، ويشهد الأستاذ بعد كتب الوثيقة على نفسه شهودا عدولا، ويرفع الشهود الإجازة إلى القاضي وخطوطهم عليها، فيضع القاضي إسمه بعد خطوط الشهود، معلما بثبوت الإجازة على المجيز، فبعد هذا يسلم الأستاذ الإجازة لتلميذه، فيأخذها ويذهب حيث يشاء أو يعقد، هذا هو المصطلح عليه في مدينة فاس المذكورة الآن».

* * *

ثانيا ـ الدراسات الحديثية

مع هذا العصر الأول كان الاهتمام بالحديث الشريف وبعض علومه، أقوى من نشاطه في بقية العهد المريني، ومن سبب ذلك استمرارية ملامح من النهضة الحديثية الموحدية، وسريانها إلى صدر الدولة المرينية، وسبب آخر يأتي من رحلات شخصيات من جهات المغرب إلى المشرق العربي، ولقائهم لأعلام المحدثين المشارقة بمصر والشام والحرمين الشريفين وغيرها، هذا فضلا عن الاعتبار الذي تضفيه الدولة على أفراد من المحدثين المغاربة.

وبذلك ازدهر الاشتغال بالدراسات الحديثية، وامتد على خط يسير مع سبتة وتازا وفاس ومكناس وأزمور ومراكش، وتناول ـ بالخصوص ـ أربعة علوم متفرعة من هذه المادة :

ـ مجموعة الأحاديث النبوية

ـ كتب في فقه الحديث.

ـ علوم الحديث.

ـ السيرة النبوية.

* * *

مجموعات الأحاديث النبوية

وقد برز في هذا الموضوع جماعة من الأعلام الذين اشتغلوا بهذه المجموعات، وعانوا دراستها عن طريق الإقراء والرواية والتأليف حسب النماذج التالية :

15 ـ العمراني : عبد الرحمن بن عبد الله بن محمد الإدريسي المراكشي، كان بقيد الحياة عام 682/«82-1283»، قرأ على ابن عمه القاضي أبي القاسم بن عبد الرحمن «**الأحكام الصغرى**» لعبد الحق، و«**الموطا**»، وسمع على أبي الحسن ابن قطرال «**صحيح مسلم**» بمراكش، وسمع «**صحيح البخاري**» بسبتة على أبي مروان الباجي بقراءة أبي الفتوح بن فاخر، ولزم ـ مدة ـ حضور مجلس أبي العباس أحمد العزفي[159].

16 ـ إبن حكم : يوسف بن أحمد التجيبي الأندلسي، نزيل مكناس، وبها لقيه الرحالة العبدري[160]، فيحليه بالفقيه المحدث ويضيف : «وهو شيخ فاضل راوية، لقي جماعة من كبار العلماء وأخذ عنهم... وأجازني إجازة عامة»، كما ان ابن البنا المراكشي لقيه بفاس وهو قاض بها، وأخذ عنه علم السنن[161].

17 ـ أبو علي بن أبي الشرف : الحسين بن طاهر بن رفيع الحسيني السبتي المشتهر بالصقلي، ت 702/«02-1303»، وكان يتوفر على سند رفيع إلى جامع الصحيح للبخاري، وهو الذي ينوه به أبو القاسم التجيبي[162] قائلا :

---

(159) **درة الحجال**، م. س : 3/74-75، مع الرجوع إلى **الإعلام** للقاضي عباس بن إبراهيم، المطبعة الملكية بالرباط : 8/90..

(160) **الرحلة**، خالية من اسم المطبعة، ص. 279.

(161) **نيل الابتهاج**، م. س، ص. 66.

(162) **برنامج التجيبي**، م. س، ص. 77.

«وإسناد هذا السيد الشريف في هذا الجامع إسناد جليل، رجاله كلهم مشاهير، وقد جمعهم شيخنا الإمام العلامة أبو القاسم بن عبد الله الأنصاري في جزء وسمه : بـ«ـالإشراف على أعلا شرف، في التعريف برجال سند البخاري من طريق الشريف أبي علي بن أبي الشرف»[163].

18 ـ ابن قُطْرال : محمد بن علي بن محمد الأنصاري القرطبي ثم المراكشي، ت 1310/710»، وكان محدثا واسع الرواية[164].

19 ـ أبو القاسم العزفي : عبد الرحمن بن أبي طالب عبد الله بن أبي القاسم محمد اللخمي السبتي نزيل فاس ودفينها، ت 717/«1317»، يصفه ابن القاضي[165] بالفقيه المحدث خاتمة الحفاظ».

20 ـ أبو زكرياء العزفي : يحيى بن أبي طالب أخ الذي قبله، ت 719/«1319»، وكان ـ حسب ابن الخطيب ـ[166] «فيما على طريقة أصحاب الحديث : رواية وضبطا وتقييدا وتخريجا».

* * *

وسيكون هذا آخر نماذج المحدثين في هذا العصر الذين لم يحفظ لهم تأليف في هذه المادة، ويأتي بعدهم نماذج من الأعلام الذين خلفوا مؤلفات موضوعية :

21 ـ ومنهم اليَقُّوري : محمد بن إبراهيم بن محمد الليثي المراكشي ت 707/«1307»، وقد ذيل على شرح القاضي عياض لصحيح مسلم المسمى بـ«ـإكمال المعلم»، وسمى تذييله «إكمال الإكمال»[167].

22 ـ ابن رشيد : محمد بن عمر بن محمد الفهري السبتي، ت 1321/721، وكان قمة في الحديث والرواية، واسع السماع، عالي الإسناد، صحيح النقل، أصيل الضبط، تام العناية، ذاكرا للرجال[168]، ومن مؤلفاته حول صحيح

(163) منشور بتحقيق ذ. إسماعيل الخطيب.
(164) الدرر الكامنة، لابن حجر العسقلاني، ط حيدر آباد الدكن : 4/83ـ84.
(165) جذوة الاقتباس، م. س، ص. 397ـ398، والعزفي هذا هو مؤلف كتاب الإشادة بذكر المشتهرين من المتأخرين بالإجادة، ولا يعرف منه إلا ما اقتبسه المقري في أزهار الرياض : 2/356ـ372.
(166) الإحاطة، م. س : 340/4
(167) الديباج المذهب، لابن فرحون، مطبعة المعاهد بالقاهرة، ص. 322ـ323.
(168) الإحاطة، م. س : 135/3.

الإمام البخاري : «**ترجمان التراجم**»، أطال فيه النفس في إبداء المناسبات بين أبواب الصحيح ومضمونها ولم يكمله[169]، وفي سنده لنفس الكتاب، وضع مؤلَّفين : «**إفادة النصيح في التعريف بسند الجامع الصحيح**»، والكتاب الثاني يحمل عنوان «**السَّنن الأبين والمورد الأمعن في المحاكمة بين الأمامين في السند المعنعن**»[170]، وهو يشير إلى الإمامين البخاري ومسلم، وقد جنح إلى الحكم لصالح الإمام البخاري.

وابن رشيد يثير بهذه المحاكمة مقارنة قديمة بين الكتابين، حيث كان المغاربة يعتنون بصحيح مسلم أكثر من كتاب البخاري، وذلك ما يحلله ابن خلدون[171] قائلا : «وأما صحيح مسلم، فكثرت عناية علماء المغرب به، وأكبواعليه وأجمعوا على تفضيله على كتاب البخاري من غير الصحيح مما لم يكن على شرط، وأكثر ما وقع له في التراجم».

ويبدو من هذه المؤلفات لابن رشيد، ومن تدريسه لصحيح البخاري بغرناطة وفاس[172]، أنه كان يميل لتفضيل «الجامع الصحيح على مسلم، وهو اختيار أخذ يشق طريقه بالمغرب من هذا العصر، حيث اتجه له المغاربة أكثر : دراسة ورواية وتعليقا.

23 ـ أبو القاسم بن يوسف بن محمد التجيبي السبتي، ت 730/«1329»، راوية محدث، ناقد للأسانيد، متقن للضبط، حسب مؤلف «**بلغة الأمنية**»[173] الذي يضيف : «وكان السلطان أبو سعيد يعظمه ويجله، وخرج له ـ من مروياته ـ أربعين حديثا في فضل الجهاد والحث عليه».

---

(169) وقف عليه إبن حجر العسقلاني وقال عنه : «ووقفت على مجلد من كتاب إسمه **ترجمان التراجم** لأبي عبد الله إبن رشيد السبتي يشتمل على هذا المقصد، وصل فيه إلى كتاب **الصيام**، مقدمة **فتح الباري**، المطبعة الميرية، بمصر 1301 هـ، ص. 12.

(170) المؤلفان منشوران بتحقيق ذ. محمد الحبيب إبن الخوجة.

(171) **المقدمة**، م. س، ص. 387.

(172) يقول إبن حجر وهو يذكر رحلة المترجم لغرناطة : «واستمر ابن رشيد في الجامع يشرح من البخاري حديثين يتكلم على سندهما ومتنهما أتفن كلام...»، **الدرر الكامنة**، م. س : 112/4، وفي رحلته لفاس كان يدرّس نفس الكتاب بجامع القرويين بين الظهرين، حسب **جذوة الاقتباس**، م. س، ص. 543، مع **درة الحجال** م. س، سابق : 233/3.

(173) المنشورة في مجلة «**تطوان**»، ع 9، ص. 177.

ومن الجدير بالذكر أن كلا من التجيبي وابن رشيد المذكور قبله قام برحلات واسعة في الغرب الإسلامي والشرق العربي، قصدا إلى لقاء شيوخ العلم وتوسيع آفاق الرواية، وألف كل منهما رحلة مستوعبة متعددة الأسفار، ضمنها مشيخته ومسموعاته ومروياته، وفي هذا الصدد يقارن ابن حجر[174] بين الرحلتين في الفقرات التالية :

«وقفت على رحلته (التجيبي) وهي في ثلاث مجلدات ضخمة، وقد حذا فيها حذو إبن رشيد وكان رحل قبله بنحو عشر سنين، وزاد هو على رحلة إبن رشيد بتضمين الرحلة مشيخة له مستوعبة، يذكر ترجمة الشيخ وما يمكن من مروياته، ويبين ما سمعه منه بأسانيده، ويخرج عنه ـ بعد ذلك ـ شيئا من حديثه وفوائده وانشاداته، ويفعل ذلك في كل بلد دخلها».

ومما انفرد به التجيبي عن ابن رشيد، سماعه ـ في رحلته ـ من تقي الدين إبن تيمية ـ في دمشق ـ ثلاثة من مؤلفاته : «**كتاب بيان الدليل على بطلان التحليل**»، و«**كتاب الصارم المسلول على شاتم الرسول**» صلى الله عليه وآله وسلم، وثالثا : «**رفع الملام عن الأئمة الأعلام**»[175].

كتب في فقه الحديث

وبحسب الاتجاه الفقهي للمغرب المريني، فإن الاشتغال بفقه الأحكام اتسع نطاقه أكثر من الموضوع السابق، وانعكس أثر هذا على كل من التدريس والتأليف، وكان من بين الكتب التي تدرس لهذه الغاية **الموطأ للإمام مالك** رواية **يحيى بن يحيى**، **والأحكام الكبرى والصغرى** لعبد الحق الأزدي، **وعمدة الأحكام** للمقدسي.

وقد اشتهرت مجموعة من الأعلام بدراسة هذه المؤلفات.

24 ـ ويأتي في مقدمتهم محمد بن عبد الواحد التازي المشتهر بالرباطي : رباط تازى، وكانت له رحلة إلى المشرق العربي أخذ فيها عن ابن دقيق العيد ولازمته كثيرا، ولما عاد من وجهته نزل بفاس العتيق، والتزم تدريس «**عمدة الأحكام**» للمقدسي بأحد المساجد الصغرى من نفس المدينة، وقد كان في شرحه لهذا الكتاب

(174) «**الدرر الكامنة**»، م. س : 240/3.

(175) «**برنامج التجيبي**»، م. س، ص. 273.

طبقة عالية، فيذكر عنه ابن القاضي[176] أنه كان يتكلم على العمدة بالعجب العجاب، يشير بهذا إلى توسعه في النقل والاستنباط.

25 ـ وممن اشتغل بتدريس **كتاب الموطأ** بفاس : أبو الحسن علي المزدغي[177].

26 ـ ثم ابن واش : يحيى بن أحمد بن محمد الفناسي، المتوفى عام أربعة وعشرين وسبعمائة[178].

27 ـ أبو عبد الله المليلي : محمد بن علي الفاسي المتوفى عام سبعة وثلاثين وسبعمائة[179]، والغالب أن هذا هو الذي كان يتوفر على أصل صحيح من **الموطإ**، حيث ينسب إليه باسم : **أصل المليلي**[180]، ويعتبر الآن ضائعا.

28 ـ وممن كان يدرس نفس الكتاب في مدينة مكناس ابن وارباش : محمد بن علي الكلبي المكناسي قاضيها ومحدثها، «كان ـ في غالب الظن ابن القاضي[181] ـ حيّاً، عام ثلاثة وعشرين وسبعمائة، وكان ـ حسب ابن غازي[182] ـ يقرئ الموطأ بنفس المدينة ويملي عليه من المنتقي للباجي والاستذكار لابن عبد البر، ويضيف لهما من تعاليق المحدثين.

29 ـ ومن المؤلفين في فقه الحديث والخلاف العالي نذكر خمسة : أبو يعفوب المحساني : يوسف بن موسى بن أبي عيسى الغماري النالي ثم السبتي، كان بقيد الحياة عام ستة وثمانين وستمائة، رحل وقد وأخذ صحيح البخاري عن السراج

(176) «**جذوة الاقتباس**»، م. س، ص. 543، وترجمة التازي الرباطي بنفس المصدر، ص. 295.

(177) أخذ عنه الموطا محمد بن سعيد الرعيني الفاسي، حسب ترجمته من «**فهرس السراج**» : السفر الأول مصور خ. ع. د 2643، مع محمد بن الحسن إبن البارق التلمساني، حسب «**جذوة الاقتباس**»، م. س، ص. 296.

(178) في «**فهرس السراج**»، م. س : يذكر شيوخ القاضي الفشتالي إلى أن يقول : «وعن الأستاذ الناقد المحقق الحافظ أبي زكرياء يحيى بن واش، سمع عليه «**الموطأ**» رواية يحيى بن يحيى الليثي، وغير ذلك»، وترجمة ابن واش في «**درة الحجال**»، م. س : 233/3.

(179) ممن أخذ عنه الموطأ القاضي الفشتالي آنف الذكر، حسب «**فهرس السراج**»، م. س، وترجمة المليلي في «**جذوة الاقتباس**»، م. س، ص. 227.

(180) من مخفوظات الخزانة العامة بالرباط رقم 524ك مخطوط من «**الموطأ**» انتسخ برسم الشيخ المُعطَى بن الصالح الشرقاوي، وقوبل على أصلي إبن رشيد و**المليلي**.

(181) «**درة الحجال**»، م. س عند ترجمته : 107/2، وورد إسمه ـ كاملا ـ في «**جذوة الاقتباس**»، م. س، ص. 298.

(182) «**الروض الهتون**»، م. س، ص. 16.

الزبيدي، عن أبي الوقت بسنده، ولقي ابن الصلاح وأخذ عنه كتابه «**علوم الحديث**»، **وشرح الرسالة القيروانية بشرحين** : كبير وصغير، مال فيهما معا إلى سرد الآثار ليقارنها بالفقه المالكي(183)، وهو من مراجع التتائي في شرحه لنفس الكتاب(183م)، وإلى ما كتبه أبو يعقوب المحساني على الرسالة، يأتي النقل عن **شرحه للأحكام** خلال باب الزكاة من شرح القباب لقواعد القاضي عياض، مخطوط خ. ح. س 585، والغالب أن الإشارة لأحكام عبد الحق الإشبيلي، وهي التي كانت متداولة في عصر المؤلف : تدريسا وتعليقا وتعقيبا.

30 ـ أبو عمران الزناتي : موسى بن علي الأزموري نزيل مراكش، والمتوفى ـ بها ـ عام إثنين وسبعمائة، كتب شرحا على **الموطإ**، وكان من رواته عنه الإمام ابن البنا المراكشي(184).

31 ـ ابن عبد الملك المراكشي : محمد بن محمد الأنصاري الأوسي : المتوفى عام ثلاثة وسبعمائة، ألف كتابا موسعا في أحاديث الأحكام، جمع فيه بين مؤلفي ابن القطان وابن المواق : في التذييل على الأحكام الكبرى لعبد الحق، وأضاف لهما زيادات تكميلية(185)، ولا يزال غير معروف.

32 ـ أبو حفص ابن الزهراء : عمر بن علي بن يوسف العثماني الريفي الورياغلي، كان بقيد الحياة عام عشرة وسبعمائة(186)، وقد خلف شرحا بسيطا على **الموطإ** من أحد وخمسين سفرا، وكل سفر يتألف من عدة أجزاء، حيث صار مجموع أجزاء الكتاب مائتين وستة وتسعين جزءً.

وطريقته في الشرح أن يثبت في البداية نص الحديث، ليتبعه بتقديم تراجم وجيزة لرواته، ثم يذكر طرق الحديث ويسمي الذين رووه من طريق **الموطإ**، وفي المرحلة

(183) «**نيل الابتهاج**»، م. س، ص. 352.

(183م) أنظر **نوازل محمد بن الحسن المجّاصي**، ط.ف. : ص.. 91، 125.

(184) «**نيل الابتهاج**»، م. س، ص. 66، وترجمته في نفس المصدر، ص. 342.

(185) «**الذيل والتكملة**»، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط : 273/8، ويذكر العبدري في «**الرحلة**»، ص. 140: أن ابن عبد الملك هذا، هو الذي عانى إخراج تعقيب إبن المواق على إبن القطان من مسودته، كما يذكر التجيبي في «**برنامجه**»، ص 152 : أن «**كتاب الوهم والإيهام**»، موضوع على النسخة الوسطى من أحكام عبد الحق.

(186) لا تعرف له ترجمة في المصادر المتداولة.

الرابعة يأخذ في شرح الحديث شرحا بسيطا، ويعقب بما جاء في ذلك من الآثار عن الصحابة والتابعين، وبعد هذا يتتبع الكلمات اللغوية الواردة في الحديث ليشرحها، وفي بعض الأحيان يعلق عليها بمقارنات أدبية، وأخيرا يصل إلى فقه الحديث وما يستنبط منه، ويتوسع في عرض الخلاف العالي ومذاهب الفقهاء وأئمة الاجتهاد.

ويريد المؤلف أن تكون خطة الشرح مقروءة من عنوانه، ولهذا يضع له إسما مطولا هكذا : «**الممهد الكبير الجامع لمعاني السنن والأحكام، وما تضمنه موطأ مالك من الفقه والآثار، وذكر الرواة البررة الأخيار، وكل ذلك على سبيل الإيجاز والاختصار**»، وقد ضاع معظم أسفار هذا الشرح، والمعروف منه الآن بضعة أسفار حسب اللائحة التالية : السفر الثالث : الخزانة الناصرية بتمكَروت رقم 2501،

السفر السابع مبتور الأول وهو بالخزانة العامة، السفر العاشر مكتوب من خط المؤلف ومحفوظ بنفس الخزانة، ويحمل مع سابقه رقم 54 ج، السفرة 16 : نفس الخزانة رقم 16 ق، السفر الرابع والعشرون بغير خط المؤلف، وهو بالمكتبة الملكية رقم 6147، السفر السابع والثلاثون ناقص النهاية وهو بمكتبة ابن يوسف بمراكش رقم 473، سفر أوله باب ما جاء في نزع المعاليق ناقص النهاية، وهو بنفس المكتبة رقم 493، السفران الواحد والأربعون والخمسون، وهما ـ معا بخط المؤلف ـ في خزانة القرويين رقم 178، حيث توجد بها قطع غير مرتبة مقدار نحو أربعة أسفار، ووقع الفراغ من انتساخ السفر الخمسين عام عشرة وسبعمائة.

السفر الرابع والأربعون بالخزانة العامة 54ج، ووقع الفراغ من كتابته عام 1018 هـ، قطعة بمكتبة الزاوية الحمزاوية بإقليم الرشيدية، وهي مبتورة من البداية والوسط والنهاية، وتقع ضمن مجموع رقم 507، الورقة الأولى من السفر السادس عشر بمكتبة الجامع الكبير بمكناس، وقد جاء فيها :

«وهذا الديوان هو إحدى وخمسون سفراً، صنفه عمر بن علي في خمس سنين وسبعة أشهر... وفي هذا الديوان من الأجزاء ثلاثمائة جزءً عدا أربعة أجزاء»، ومن الجدير بالذكر أن هذا الشرح كان كاملا بأسفاره الإحدى والخمسين في خزانة القرويين بفاس.

وقد وضع نفس المؤلف على كتاب **الموطإ** مؤلفا آخر يتناول رواته بالخصوص، وسماه، «**ترتيب المسالك لرواه موطإ مالك**»، ويوجد منه ـ بمكتبة إبن يوسف رقم

476 ـ السفر الثاني ناقص البداية ومكتوبا بخط المؤلف، حيث يذكر أنه فرغ من تأليفه يوم الثلاثاء الرابع من ذي القعدة عام ثلاثة وسبعمائة، وبهذا يتبين أن كتابة هذا التأليف سابقة على تدوين الممهد الكبير، وقد أحال المؤلف خلال أحد أسفار الممهد على كتاب ثالث يسميه أنوار الألباب، وهو معروف أيضا، واسمه الكامل «**أنوار أولي الألباب في اختصار كتاب الاستيعاب**»، اختصر فيه كتاب «**الاستيعاب في أسماء الأصحاب**» لابن عبد البر، ورتبه ترتيبا جديدا مخالفا لترتيب الأصل، وأحال في آخره على رسالة له في «**الشهداء من الصحابة الكرام**»، وهذه الرسالة لا تزال غير معروفة، أما «**أنوار أولى الألباب**» فمنه نسختان بالخزانة العامة 24 23د 1447 كـ.

وإلى هنا فقد عرفنا أربع مؤلفات لمحدث مغربي كبير أهملته المعاجم التاريخية، وكان هو الرابع من المؤلفين المغاربة في فقه الحديث والخلاف العالي خلال العصر المريني الأول.

33 ـ ونذكر ـ الآن ـ الخامس والأخير من نفس الفترة، وهو أحمد بن عبد الرحمان التادلي الفاسي، المتوفي بالمدينة المنورة عام واحد وأربعين وسبعمائة. وقد ورد في ترجمته أنه وضع شرحا حديثا على عمدة[187] الأحكام للمقدسي.

علوم الحديث

والآن بعد فقه الحديث تأتي مادة علوم الحديث الذي يعبر عنه بمصطلح الحديث، وهو يهتم بالبحث في حالات الأحاديث ورواتها من جهة قوتها وضعفها وما إلى ذلك، وقد صار الكتاب المتدارس في هذه المادة هو «**علوم الحديث**» لابن الصلاح، وقد كان بعض المغاربة يحمله عن مؤلفه مباشرة، كما هو الواقع بالنسبة لأبي يعقوب المحساني[188]، سابق الذكر، وقد قرأه أبو القاسم التجيبي بسبتة على أستاذه.

34 ـ محمد بن محمد بن عبد الله الكتامي الضرير المعروف بابن الخضار، وكان هذا سمع جميعه على مصنفه الإمام ابن الصلاح، بقراءة فخر الدين أبي حفص عمر بن يحيى بن عمر الكرجي[189].

(187) «**الديباج المذهب**»، م. س، ص. 81.
(188) «**نيل الابتهاج**»، م. س، ص. 352.
(189) «**برنامج التجيبي**»، م. س، ص. 140.

السيرة النبوية

ومن المؤلفات التي كانت تدرس في السيرة النبوية كتاب **الشمائل الترمذية**، وسيرة محمد بن إسحاق وسيرة ابن فارس، ورابعا الشفا للقاضي عياض.

35 ـ أما مؤلفات المغاربة في هذه المادة فنقدم منها أربعة الأول : «**تكملة الدر المنظم. في مولد النبي المعظم**»(190) لأمير سبتة أبي القاسم العزفي : محمد بن أحمد بن محمد اللخمي السبتي، المتوفى بها عام سبعة وسبعين وستمائة.

36 ـ ثم قام بنظم هذا الكتاب أبو إسحاق التلمساني : إبراهيم بن أبي بكر بن عبد الله الأنصاري نزيل سبتة، والمتوفى بها عام سبعة وتسعين وستمائة، وقد نظم خلاصته في قصيدة عينية من بحر البسيط في مائة وخمسة وثمانين بيتا(191)، والثالث : رسالة في المولد النبوي من تأليف أبي عمران الزناتي سابق الذكر(192).

37 ـ تعليق على **الشمائل الترمذية** لأبي زيد عبد الرحمن ابن العشاب التازي المتوفى عام أربعة وعشرين وسبعمائة ومات قبل أن يتمكن من إتمامه(193).

وأخيرا : فإن العزفي أمير سبتة أنشأ بها مجلسا لإسماع السيرة النبوية في شهر رمضان، وأسند ذلك إلى أبي القاسم الضرير : محمد بن عبد الرحيم القيسي سابق الذكر عند مادة العلوم القرآنية، وقد صار هذا يستظهر كل يوم ميعاداً ليلقيه من غده على الجمهور المحتشد بالجامع إلى أن حفظها كلها، وكان طيب الصوت(194).

* * *

ونذيل ـ الآن ـ على مادة الحديث الشريف، بثلاثة من السبتيين كانوا يستظهرون «**الموطأ**» حفظا من صدرهم.

---

(190) سيرد التعريف به عند، ص. من هذا الكتاب.

(191) سترد الإشارة لهذه القصيدة خلال الفصل الأول من الباب الرابع.

(192) «**نيل الابتهاج**»، م. س، ص. 342.

(193) «**المعيار**» للونشريشي، م. س : 290/12.

(194) «**الدرر الكامنة**»، م. س: 10/4 ـ «**غاية النهاية**» م. س : 171/2.

38 ـ وأولهم الحافظ الشداوي : محمد بن إبراهيم بن يوسف الأنصاري المصري مستوطن سبتة، ت 723/«1323» مجاورا بالقدس الشريف[195].

39 ـ ثم إبن القرّاق : أحمد بن محمد بن علي التجيبي السبتي، ت 725/«1325»، قال عنه تلميذه الحضرمي في «**فهرسته**» : «... واستظهر بالقاهرة المعزية موطأ الإمام مالك حفظا من صدره عن ظهر قلب، فاحتفل له شيوخ المالكية، وضربوا الطبول والبوقات على رأسه إشادة وتنويها[196].

40 ـ الحافظ الثالث : قوام الدين السبتي، اجتمع به الرحالة إبن بطوطة في الصين بعدما كان لقيه بالهند في دهلي، وفي هذه المدينة قدمه لأميرها، وعرفه **بحفظه للموطإ**، فأجازه بثلاثة آلاف دينار[197].

ثلاث ملحقات

1 ـ يضاف لمؤلفات ابن رشيد كتاب «**الإعلام بأربعين عن أربعين من الشيوخ الأعلام**» من مخطوطات خزانة الجامع الكبير بمكناس رقم 250، في سفر متلاش مبتور الأول، وبذلك لم يعرف مؤلفه، غير أن المنثوري لما ذكر سنده إليه نسبه لابن رشيد : في فهرسه خ، ع، ق 519.

2 ـ من ذخائر دار الكتب الوطنية بتونس : نسخة **رقية** من «**شمائل**» الترمذي رقم 3463، وقد جاء في ءاخرها : «نسخة لخزانة أمير المسلمين (أبي) سعيد، بن أبي يوسف بن عبد الحق، في 23 ربيع الثاني سنة 732، عن نسخة بخط يحيى بن سليمان الرندي الأندلسي نزيل مالقة، المنسوخة في 15 جمادى الآخرة سنة 616».

وإذِ انتهت هذه الخاتمة، يلاحظ فيها أن توقيت الانتساخ بسنة 732، جاء بعد المعروف من تاريخ وفاة العاهل المنوه به، حيث كان ليلة الجمعة 25 من ذي القعدة سنة 731 هـ.

---

(195) **المصدر الأخير** : 47/2.

(196) نقل ذلك في «**نيل الابتهاج**»، م. س، ص. 68.

(197) «**تحفة النظار**»، المكتبة التجارية الكبرى بمصر : 166/2.

3 ـ يستدرك هنا «**شرح غريب جامع الصحيح**»، للبخاري، تأليف المكناسي : محمد بن أحمد بن عبد الرحمـٰن اليفرني الفاسي، ت818/«15ـ1416».

تعليق وجيز في سفر يشتمل على عشرين جزءاً ـ خ.س. 355]، دار الكتب الناصرية بتمكَروت 3/709، خزانة القرويين 145 : ناقص الأوائل.

* * *

ثالثا ـ الدراسات الفقهية

مقدمة

إنتهى تقليد المذهب الظاهري في المغرب بقيام الدولة المرينية، وعاد المغاربة للمذهب المالكي(198)، وبذلك تجدد لهذا المذهب اعتباره، ولشيوخه خريتهم المذهبية : تدريسا وتأليفا وفتوى وقضاء، وقد تميز عملهم في هذا العصر المريني الأول، بتشبث غالبيتهم بالأصول الفقهية : «**المدونة الكبرى**»، و«**تهذيب البراذعي**»، و«**الرسالة القيروانية**»، ومشتقات ذلك، بينما كان اعتماد المختصرات الجديدة لا يزال محدودا.

ومن ميزات هذه المرحلة، رفض فقهائها للأخذ بالاستحسان الذي لا يستند للأصول المذهبية، وقد طرحت في هذا العصر نازلة العمل بشهادة اللّفيف، واستفتي فيها أبو الحسن الصُّغَيِّر زعيم فقهاء المغرب، في سؤال عن رسم شهد فيه أحد وثلاثون رجلا، هل يُكتفى فيه بمجرد العدد أو لابد من عدلين ؟ فقال لابد من عدلين(199)، وما جرى عمل المغرب بقبول شهادة اللفيف وما إليه إلا بعد هذا العصر.

* * *

وبواقع تدخل الفقه في الشعائر والأحوال الشخصية والمعاملات... صارت

(198) يرجع إلى **بيوتات فاس الكبرى** لإسماعيل إبن الأحمر دار المنصور ـ الرباط، ص. 20ـ21.

(199) جواب أبي حامد محمد العربي الفاسي الفهري عن مسألة شهادة اللفيف وحكمها، وهو جواب حافل أثبته ـ بطوله ـ أبو حفص عمر الفاسي في شرحه للزقاقية ط. ف : من ص. 5 ملزمة 11، إلى ص. 2. م 15.

الحاجة ماسة إليه في المجتمعات أكثر من أية مادة علمية أخرى، وبالتالي كان المشتغلون به أكثرية كبرى، شأن المغرب في ذلك شأن البلاد الإسلامية الأخرى. وللتوضيح نقدم نماذج محدودة من شيوخ هذه الفترة، وأعمالهم في ميادين التدريس والفتوى والتأليف حسب التوجهات التالية :

شيوخ المدونة

41 ـ أبو إبراهيم الأعرج : إسحاق بن يحيى بن مطر الورياغلي ثم الفاسي، (ت 683/«1284»)، فقيه فاس، وشيخ شيوخ «**تهذيب المدونة**» للبراذعي، وصاحب «**الطرر**» عليه(200).

42 ـ أبو الفضل : راشد بن أبي راشد الوليدي ثم الفاسي، إستمر بقيد الحياة إلى عام 689/«1290»(201)، ويعتبر مع سابقه أبي إبراهيم، من الرائدين الأولين لبعث المذهب المالكي في المغرب المريني، وقد كان الإمام راشد إذا عاد من فاس لقبيلة بني وليد يشتغل في الفلاحة بيده، وخلال عمله فيها يراوح بينها وبين مطالعاته الفقهية، فيضع «**جامع ابن يونس**» على المدونة في طرف القطعة التي يفلح فيها، ويضع على الطرف الآخر «**تبصرة اللخمي**» على المدونة، ويقرأ مسألة من كل من الكتابين إذا وصل إليه ليتأملها أثناء الحراثة(202)، فيفيد هذا الصنيع، أن الإمام راشد قد يكون كتابه في تدريسه للفقه هو «**المدونة الكبرى**» لسحنون، وليس «**تهذيب البراذعي**»، ويؤكد هذا وصف إبن الدراج(202م)لأبي الفضل راشد بالمدّرس للـ«**ـمدونة**»، بينما يخطّط أبا إبراهيم الأعرج بالمدرس لكتاب «**التهذيب**».

43 ـ أبو الحسن علي بن أبي عبد الخالق إبن آمغار الشريف، يذكر أبو عمران الزناتي سابق الذكر عند رقم 30 : أنه قرأ عليه «**المدونة**»، «**تهذيب البراذعي**» وجملة من فنون العلم، وكان ذلك ببلد «**تيط**» في دكالة(203).

---

(200) ترجمته عند إبن القاضي في كل من **جذوة الاقتباس**، م. س، ص. 164، **ودرة الحجال**، م. س : 207/1.

(201) يرجع إلى المقدمة التي صدر بها الأستاذ المرحوم عبد الرحمن العمراني تحقيقه لكتاب **الحلال والحرام** من تأليف المترجم، مطبعة فضالة، ص. 47ـ48، مع صفحات أخرى من نفس المقدمة عن حياة المترجم.

(202) **المنح البادية**، لمحمد بن عبد الرحمن بن عبد القادر الفاسي، مخطوط، خ. س 1227 ز.

(202م) **كتاب الإمتاع والانتفاع**، مطبعة الأندلس ـ القنيطرة، ص. 168، 172.

(203) كتاب **ذخيرة الأنوار والأسرار**، مخطوط خاص.

44 و45 ـ إسحاق الزموري (ت بعد نيف وسبعمائة)، من المقرئين بمدينة أزمور، حسب إبن القاضي[204] الذي يُضيف : «وكان هو وأخوه يتكلمان على كتاب البراذعي، وكانا صالحين فقيهين جليلين»، وأخذا ـ معا ـ عن أبي إبراهيم الأعرج.

46 ـ الغازي : إبراهيم بن علي المعافري السريفي ثم الفاسي، (ت 716/ «1316»)، من جلة شيوخ المدونة والفتوى، ويحليه إبن القاضي[205] بالفقيه المدرس المفتي المشاوَر[206].

أبو إسحاق إبراهيم بن عبد الكريم سابق الذكر عند رقم 13.

47 ـ وأبو عبد الله القطراني المكناسيان، نقل ابن غازي[207] أن أحدهما كان يستظهر «**كتاب إبن يونس**» والآخر يستظهر «**تبصرة اللخمي**»، وفي تعبير إبن القاضي عند ترجمة[208] أبي إسحاق : «كان يقرّر «**التهذيب**» ويذكر كلام الناس عليه والمختصرين وأقوال الأئمة، وكان يدرس «**المدونة**».

48 ـ أبوزيد عبد الرحمن الرجراجي ثم الفاسي، (ت 718/«1318»)، الحافظ الفقيه، كان يتكلم على المدونة في مسجد الصاغة بفاس، وأملى عليها إملاء حسنا[209].

49 ـ أبو الحسن الصُّغَيِّر : علي بن محمد بن عبد الحق اليالصوتي الزرويلي ثم الفاسي، (ت 719/«1319»).

---

(204) **جذوة الاقتباس**، م. س، ص. 165، مع **درة الحجال**، م. س : 207/1.

(205) **درة الحجال**، م. س : 177/1.

(206) عن صفة المشاور : أجاب قاضي قرطبة أبو عبد الله بن الحاج قائلا : «الذي ينبغي أن يشاور من أهل العلم : العالم الناقد الخير الورع الواثق بنفسه وعلمه، والعالم بكتاب الله وسنة نبيه محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وما مضى من الحكم، العارف باللغة ومعاني الكلام، الموثوق به في دينة، والذي يومن فيما يشير به ولا يميل إلى هوى ولا طمع، وإذا كان كذلك ورآه الناس أهلا ورآى نفسه أهلا لذلك وجب على القاضي مشاورته، وعليه أن يفتي الناس حينئذ»، نقله الونشريسي في **المعيار**، م. س : 50/10.

(207) **الروض الهتون**، م. س، ص. 17.

(208) **درة الحجال**، م. س : 199/1.

(209) **جذوة الاقتباس**، م. س، ص. 401، و**درة الحجال**، م. س : 78/3.

عقد له إبن الخطيب[210] ترجمة جاء فيها : «كان هذا الرجل قيما على «**التهذيب للبراذعي**» : حفظا وتفقها، يشارك في شيء من أصول الفقه يطرز بذلك مجالسه،... وكان أحد الأقطاب الذين تدور عليهم الفتوى أيام حياته، ترد عليه السؤالات من جميع بلاد المغرب، فيحسن التوقيع على ذلك على طريقة من الاختصار وترك فضول القول».

ويعلق إبن مرزوق الخطيب على هامش هذه الترجمة من «**الإحاطة**»، فيلاحظ على إبن الخطيب تقصيره في حق المترجم ويقول : «قصّر المصنف في التعريف والإعلام بالشيخ أبي الحسن شيخ الإسلام، وهو الذي ما عاصره مثله، بل وما تقدمه فيما قارب من الأعصار، وهو الذي جمع بين العلم والعمل، وبمقامه في الفقه والتحصيل يضرب المثل، رحمه الله تعالى»[211].

وبعد شهادة إبن مرزوق، فإن مؤلف «**المعيار**» يمدد الصِّيت العلمي للمترجم إلى ما وراء المغرب، فيصف أبا الحسن الصغير بحامل راية الفقه ولوائه بالمغرب الأوسط والأقصى في زمانه[212].

ومرة أخرى يصف نفس المؤلف منهجية المترجم في تدريسه «**لتهذيب المدونة**» : «كان في مجلسه ــ رحمه الله ــ أزيد من ثمانين ديوانا تفتح عليه يختبر بها حفظه، فكان يظهر عليه من ذلك العجب، كان إذا قرأ القارئ صدر الدولة قرأها من حفظه ثم يقول : ونصها في الأيام (الأم)، ثم يذكر ضبطه إن احتاج إليه، ثم يذكر سائر المختصرات من إبن يونس واللخمي والباجي، ومن إبن أبي زمنين وغيرهم، ثم يذكر تفاصيل إبن رشد، ونوازل الباب للأقدمين وكلام القرويين»[213].

وعن تقاييد التهذيب المنسوبة لأبي الحسن الصغير يقول إبن مرزوق الحفيد : «ويقال إن الطلبة الذين كانوا يحضرون مجلسه (أبي الحسن)، هم الذين كانوا يقيدون عنه ما يقوله في كل مجلس، فكل له تقييد، وهذا سبب الاختلاف الموجود في نسخ

---

(210) **الإحاطة**، م. س : 4/186ـ187.
(211) **الديباج المذهب**، م. س، ص. 213.
(212) **المعيار**، م. س : 5/280.
(213) **ألف سنة من الوفيات**، م. س، ص. 102ـ103.

التقييد، والشيخ لم يكتب شيئا بيده، وأكثر اعتماد أهل المغرب من تلك التقاييد، على تقييد الفقيه الصالح أبي محمد عبد العزيز القروي...»[214].

وإلى تقييد القروي نشير إلى تقييد إبن أبي يحيى : إبراهيم بن عبد الرحمن بن أبي بكر التسولي التازي نزيل فاس (ت 749/«1348»)، فيذكر عنه إبن الخطيب[215] أنه قيد على «**المدونة**» بمجلس شيخه أبي الحسن كتابا مفيدا.

وهناك تقييد ثالث عن أبي الحسن منسوب لليحمدي[216].

على أن الأثر الثابت لأبي الحسن الصغير، هو «**أجوبته**» التي جمعها ــ في سفر ــ تلميذه إبن أبي يحيى آنف الذكر[217]، ولما جاءت غير مرتبة، تصدى لها الشيخ إبراهيم بن هلال بن علي الصنهاجي السجلماسي (ت 903 هـ)، فرتبها على التبويب المتعارف في تدوين المؤلفات الفقهية، وزاد إليها إضافات موضوعية، ثم عنونها باسم «**الدر النُّثَيِّر على أجوبة أبي الحسن الصُّغَيِّر**»، وقد نشرت بالمطبعة الحجرية الفاسية مرتين.

والآن وقد تكاملت ــ إلى حَدٍّ ــ معلومات هذه الترجمة، نشير إلى أنها توسع الحديث فيها على خلاف الأسماء السابقة واللاحقة، ومرد ذلك إلى وفرة مصادر هذه نسبيا، ونضوبها في البواقي.

50، 51 ــ التّالي : أبو القاسم بن محمد الغماري ثم الفاسي، كان حيا بعد 720 هـ في غالب ظن ابن القاضي[218]، الذي يحليه بالفقيه المحدث، ويذكر عنه : «كان يدرس «**المدونة**» بعد موت شيخه **أبي إسحاق الغماري** بمسجد زنقة حجامة بقرب القرويين، وكان من أحفظ أهل زمانه للـــ«**مدونة**» وتحصيل مسائل المذهب...».

52 ــ أبو محمد عبد الله الفشتالي ثم الفاسي، أخذ عنه إبن عباد حظا وافراً

(214) **المعيار**، م. س : 206/1.
(215) **الإحاطة**، م. س : 373/1.
(216) **أزهار الرياض**، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة : 36/3.
(217) **الإحاطة**، م. س : 373/1.
(218) **جذوة الاقتباس**، م. س، ص. 109، **ودرة الحجال**، م. س : 280/3–281.

من «**تهذيب المدونة**» في مدرسة الحلفاويين (الصفارين) بفاس[219]، وكان يستظهر «**التفريع**» لابن الجلاّب[220].

شيوخ المدونة والرسالة

- أبو عمران موسى الزناتي الأزموري مستوطن مراكش، وسابق الذكر عند رقم 30، ومن بين مؤلفاته شرح كل من «**التهذيب**» و«**الرسالة القيروانية**»[221].
- أبو الحسن الصغير سالف الذكر عند رقم 49، جاء عنه في «**الإحاطة**»[222] عند ترجمة إبن أبي يحيى المتكرر الذكر: «كان هذا الرجل قيما على «**التهذيب**» و«**رسالة إبن أبي زيد**».. وله عليهما تقييدان نبيلان قيدهما أيام قراءته إياهما على أبي الحسن الصغير».

53 ـ الجزولي: عبد الرحمن بن عفان الفاسي، (ت 741/«1341») عن أكثر من 120 سنة، وما قطع التدريس حتى توفي، ويتميز بين جيله بأنه شيخ «**المدونة**» و«**الرسالة**»، وحسب إبن القاضي، كان يحضر مجلسه أكثر من ألف فقيه معظمهم يستظهر «**المدونة**»، قيدت عنه على «**الرسالة**» تقاييد ثلاثة: أحدها بسيط في سبعة أسفار، والآخر وسيط في ثلاثة أسفار، والثالث في سفرين[223].

قال الشيخ زروق[224] أول شرحه للرسالة: «فأما الجزولي وابن عمَر ومن في معناهما فليس ما ينسب إليهم بتأليف، وإنما هو تقييد قيده الطلبة زمن إقرائهم، فهو يهدي ولا يعتمد».

شيخ المدونة والتفريع

54 ـ الونشريسي: أبو الربيع سليمان بن إبراهيم الفاسي، (ت 705/«1305»)، المفتي المشاور، كان يقوم على «**التهذيب**» و«**التفريع**» لابن الجلاب[225].

---

(219) **فهرس السراج**، م. س: عند ترجمة الإمام إبن عبّاد.
(220) **جذوة الاقتباس**، م. س، ص. 401.
(221) **نيل الابتهاج**، م. س، ص. 342.
(222) 372/1.
(223) **جذوة الاقتباس**، م.س، ص.401–402، مع ص. 186، **نيل الابتهاج**، م.س، ص.165–166.
(224) مطبعة الجمالية بمصر: 4/1، ونقله الهلالي فيما له من الشرح على **المختصر الخليلي**.
(225) **جذوة الاقتباس**، م.س، ص. 515، **درة الحجال**، م. س: 309/3.

شيخ المختصر الفقهي لابن الحاجب

. 55 ـ الصياد : علي الفاسي، كان حيا بعد (720/«1320»)، قال ابن القاضي[226] : «كان يتكلم على «**مختصر ابن الحاجب**» في الفقه، وكان أعجوبة الزمان»، وفي مكان ءاخر من نفس المصدر[227] : أن هذا الكتاب صار مفضلا عند البعض من متفقهي المصامدة.

الفرائض

أ ـ شيخ مبرز في تدريس الفرائض

56 ـ **الطنجي** : علي بن عبد الرحمن بن تميم اليفرني المكناسي، (ت 734/«1334»). إمام الفرائض والحساب في عصره، قرأ عليه محمد بن علي السطي كتاب «**الحوفي**» في ثماني ختمات[228]، ووضع تقييدا على «**المدونة**»[229].

ب ـ شيوخ مؤلفون في نفس المادة

57 ـ **جمال الدين الصودي** : عبد الله بن أبي بكر بن يحيى الحد ميوي نزيل الإسكندرية، كان بقيد الحياة ـ بها ـ عام (699/ «99–1300»)، وبهذه المدينة أخذ عنه أبو القاسم التجيبي، وشهد له بأنه انتهى إليه علم الفرائض في عصره[230]، وقد وضع أربع مؤلفات أبدع فيها في تنويع مسائل هذه المادة :

- كتاب «**نهاية الرائض في خلاصة الفرائض**».
- كتاب «**كفاية المرتاض في تعاليل الفراض**».
- كتاب «**مفتاح الغوامض في أصول الفرائض**».

وعلى هذا الترتيب يضم ثلاثتها مجموع في «دار الكتب الناصرية» بتمكَروت رقم 1647.

وثلاثتها قرأها على مؤلفها ـ بالإسكندرية ـ أبو القاسم التجيبي، الذّي قيّم

(226) المصدران، ص. 472، وص. 246/3.

(227) المصدران، ص. 401، وص. 79/3.

(228) المصدران، ص. 228، وص. 245/3 مع 234/2.

(229) **نيل الابتهاج**، م. س، ص. 204.

(230) **نيل الابتهاج**، م.س، ص. 140.

«**نهاية الرائض**» قائلا : «وهو كتاب جليل مفيد في بابه، شكره أهل المعرفة بهذا الشأن»[231].

وللجمال الصودي وضع رابع شرح فيه «**كتاب الحوفي**» في الفرائض، نسبه له إبن القاضي[232].

ـ إبن البنا المراكشي سابق الذكر عند رقم 3، ألّف :

ـ «**الفصول في الفرائض**» : رسالة صغيرة تشتمل على إثني عشر فصلا، من مخطوطات خ. ع. ج 249 في ثمان ورقات.

ـ «**تلخيص في أحوال المدبّر في سائر التركات**».[233].

ـ كتاب «**عمل الفرائض**».

ـ «**شرح على بعض مسائل الحوفي**».

ـ «**مقالة في الإقرار والإنكار**»[234].

58 ـ أبو القاسم إبن الشّاط : القاسم بن عبد الله بن محمد الأنصاري السبتي، (ت 723/«1323»).

صنف «**غنية الرائض في علم الفرائض**» من الكتب المعتمدة في مادتها، وشرحها من الأندلسيين إبن علاق، ثم شرحها علي القلصادي، ومن هذا مخطوطة بخزانة القرويين رقم 1/1198.

ج ـ منظومات في الفرائض

ـ التلمساني : إبراهيم بن أبي بكر بن عبد الله الأنصاري مستوطن سبتة، وسابق الذكر عند رقم 36.

وهو ناظم الأرجوزة التلمسانية المشهورة، والمعروفة باسم «**تبصرة البادي**

---

(231) **برنامج التجيبي، م. س،** ص. 274ـ275، وللمزيد من التفصيل يرجع إلى محمد المنوني : **دليل مخطوطات**، دار الكتب الناصرية بتمكَروت، مطبعة فضالة ـ المحمدية، ص. 38ـ40.

(232) **الرائض لطالبي فهم الناهض بأعباء علم الفرائض**، إسم شرح أبي العباس أحمد إبن القاضي على أرجوزة عمل الكسور الفرضية، من نظم أبي جعفر أحمد بن علي البلوي الشهير بابن داود التلمساني، مخطوط، خ. س 8840.

(233) **حط النقاب...، م.س.**

(234) **جذوة الاقتباس، م.س،** ص. 151.

وتذكرة الشادي»، منشورة بالمطبعة الحجرية الفاسية ضمن مجموع المتون الدراسية.

- مالك إبن المرحل سابق الذكر عند رقم 2.

وهو ناظم القصيدة الفرضية باسم «**الواضحة**»[235].

59 - إبن هانئ : محمد بن علي اللخمي السبتي (ت 733/«1333»).

- أرجوزة في الفرائض[236].

مؤلفان في النوازل

- أبو عمران موسى الزناتي الأزموري مستوطن مراكش، وسابق الذكر عند رقم 30.

ألّف «**اقتضاب السهل في اختصار أحكام ابن سهل**»، قال في أوله : «... فإن غرضي أن أجرد نوازل إبن سهل رحمه الله، مما اختلط بها من المشاهد والسير والسجلات، والشواهد والاستدلالات، والبسْط الممل والتكررات، من غير نقص لشيء من مبانيها، أو إخلال بشيء من معانيها».

يعرف منه ثلاث مخطوطات : خ. ع ق 742 : أول مجموع.

خ. س 1104 : ضمن مجموع

خ حمزاوية 305 : ثاني مجموع.

- إبن أبي يحيى التازي سابق الذكر، وهو جامع «**أجوبة أبي الحسن الصُّغيِّر**»، حسب الإشارة لذلك ءاخر ترجمة الأخير عند رقم 49.

مؤلف في الوثائق العدلية

أبو الحسن إبن برّي، سابق الذكر عند رقم 9 :

- تأليف في الوثائق العدلية.
- شرح وثائق أبي إسحاق الغرناطي

(235) **مختصر الإحاطة**، لابن الخطيب، مصور خ ع، د 1708، م. س.

(236) **الدرر الكامنة**، م. س : 91/4.

مؤلّفان في فقه الحلال والحرام

ـ أبو الفضل راشد الوليدي سابق الذكر عند رقم 42 :
كتاب «**الحلال والحرام**»، منشور بتحقيق الأستاذ المرحوم عبد الرحمن العمراني الإدريسي، مطبعة فضالة ـ المحمدية : 413 ص تقديما ونصا وفهارس، في قطع متوسط.

60 ـ التسولي : موسى بن محمد بن الحسن الفاسي (ت 716/«1316»).
كتاب «**الحلال والحرام**»(238).

نماذج من شيوخ فقه البدع

وقد كان عددهم وافرا بين فقهاء هذا العصر، وكان سلوكهم وتصرفهم بالسنة المطهرة، رادِعاً للكثير من أهل البذع، فقل ظهورها وأهلها(239)، وفي إشارة لابن مرزوق(240) الحفيد، يسجل عن علماء المغرب شدتهم في القيام بتغيير المنكر، وهذه نماذج محدودة، في ثلاثة أسماء تصدت للبدع والمبتدعة.

ـ **أبو الحسن الصغير** سابق الذكر عند رقم 49، ويشتط ابن خلدون(241) في تصوير موقف المترجم من البدع ويقول : «وكان على نهج في تغيير المنكرات والتعسف فيها، حتى لقد كان مطاوعا في ذلك وسواس النسك الأعجمي، ومتجاوزا به الحدود المتعارفة بين أهل الشريعة في سائر الأمصار».
هذه فقرة إبن خلدون التي سنقرأها من بين سطورها، حتى نستشف منها مدى صرامة أبي الحسن الصغير في مقارعة البدع وأهلها.

61 ـ أبو عبد الله الفاسي : محمد بن عيسى بن عثمان الصنهاجي، أستاذ صاحب «**المدخل**» وتلميذ إبن أبي جمرة، يقول عنه إبن حجر(242) : إشتهر بالخير

(238) اعتمدت في إسمه : **ألف سنة من الوفيات**، ص. 174، مع **درة الحجال**، م. س : 8/3، وسماه في **جذوة الاقتباس**، ص. 346 بموسى بن محمد بن محمد بن الحسن، وفي وفيات الونشريسي : موسى بن أبي محمد بن الحسن حسب **ألف سنة من الوفيات**، ص. 102.

(239) **المدخل** لابن الحاج، م. س : 87/2.

(240) **المعيار المعرب**، م.س : 88/1.

(241) **العبر**، دار الطباعة بمصر : 241/7.

(242) **الدرر الكامنة**، م. س : 129/4.

والصلاح والقيام في الحق، وانقطع ـ أخيرا ـ بالإسكندرية، ومات بها في المحرم عام 726/«1325».

ـ **ابن الحاج العبدري** : محمد بن محمد بن محمد الفاسي، نزيل مصر، وكان سبق ذكره عند رقم 12 في مناسبة أخرى، وقد اشتهر بكتابة «**المدخل**»، وهو يهدف به إلى العمل لإصلاح المجتمع الإسلامي، عن طريق مطالبة المومن بالسعي لتحسين مقاصده في سائر تصرفاته الدنيوية فضلا عن الدينية.

أما الموضوع الثاني من الكتاب فهو تعريف المسلم بالبدع التي تعترض سلوكه في العبادات والعادات، وهو يبرز على الخصوص مبتدعات في قضايا معينة، ليقدمها حسب النماذج التالية :

التغني بالقرءان، بدعة الألقاب التشريفية في المشرق، الترف في الفراش، عوائد أخرى مذمومة، بدع الأعياد، المواسم التي تنسب للشرع وليست منه، بعض مواسم أهل الكتاب، جملة من عوائد النساء المحظورة، الرشوة، بدع المساجد، المبتدعات المحدثة في المآتم، بدع النفاس والعقيقة والختان...

فهذه أمثلة من البدع التي يتناولها كتاب «**المدخل**»، ليسير في نقدها على منهاج دقيق، يحلل فيه البدعة تحليلا موسعا، ويتتبع مظاهر المخالفة فيها واحدة واحدة حتى يأتي على ءاخرها، دون أن يغفل الاستدلال لكل جزئية ينتقدها، وينتزع الأدلة من الكتاب والسنة وكلام السلف والخلف، ومن سير المتقدمين والمتأخرين، وأحيانا يأتي بمقارنات بين بدع جهة وأخرى، ومن هنا جاء الكتاب مفيدا جدا في التعرف على أحوال المجتمع المصري والمغربي خلال العقود الأولى من المائة الثامنة للهجرة، علماً بأن المؤلف فاسي انتقل للسكنى بالقاهرة.

ولا ننسى ـ بعد هذا ـ أن نسجل أن صياغة الكتاب برزت في تعبير سهل ومبسط، حتى يكون في متناول الجميع من الذين يتوفرون على درجة من الثقافة.

ويريد المؤلف أن يكون موضوع الكتاب مقروءا من عنوانه، فيضع له إسما مطولا هكذا :

كتاب «**المدخل إلى تنمية الأعمال بتحسين النيات، والتنبيه على بعض البدع والعوائد التي انتحلت وبيان شناعتها وقبحها**».

ويتجاوب مع أهمية الكتاب المعنيون بالأمر، فينتزع التقدير من مثل ابن حجر

العسقلاني[243] الذي يقول فيه عند ترجمة مؤلفه : «وجمع كتابا سماه المدخل كثير الفوائد، كشف فيه عن معايب وبدع يفعلها الناس ويتساهلون فيها، وأكثرها مما ينكر، وبعضها مما يحتمل».

وقال عنه ابن فرحون[244] : «وهو كتاب حفيل، جمع فيه علما غزيرا، والاهتمام بالوقوف عليه متعين».

وأخيرا : فإن كتاب «**المدخل**» صار شبه مدرسة لنقد البدع، يحتذى منهجها كثير من الذين كتبوا ـ بعده ـ في البدع بالمغرب والمشرق.

ملحق

شيخ الرسالة القيروانية بالجنوب المغربي

62 ـ يوسف بن يعقوب الرجراجي الواصلي، كان بقيد الحياة عام (722/«1322»)، وهو التاريخ الوارد خلال شرحه للرسالة القيروانية الذي نقدمه، فيقول المؤلف أثناء كتاب «**الزكاة**» : «وأما الدراهم الجارية ببلاد المغرب في سنة إثنين وعشرين وسبع مائة...»، وحسب الكانوني الأسفي في «**الياقوتة الوهاجة**...»، فإن شرح الرسالة هذا يحمل إسم «**المفيد على الرسالة للطالب المستفيد**».

والشرح مهم من جهة توسعه، ووفرة المصادر التي يستند لها، ومنها في خصوص الأوضاع على الرسالة : مؤلفات نادرة، أمثال شروح القاضي عبد الوهاب، وأبي الحسن المتيوي، وأبي محمد صالح الفاسي، والغماري المحساني، وموسى الزناتي، وابن الفخار، والمصمودي ؟... الموجود منه النصف الأول متلاشي البداية ومبتور الأول، خط مغربي واضح وصحيح في الجملة، ووقع الفراغ من انتساخه مساء يوم الأحد 22 ربيع الآخر عام 996 هـ، عار عن إسم الناسخ.

لا ذكر له في «**كشف الظنون**» ولا عند بروكلمان.

في حوزة الأستاذ أحمد التوفيق، ومنه مخطوطة أخرى، خ.م. 3442.

---

(243) المصدر، 237/4.

(244) الديباج المذهب، م. س، ص. 328.

رابعا ـ الدراسات الأصولية

علم أصول الفقه يهتم بالتعريف بطرق استخراج الأحكام الفقهية من أدلتها الأربعة : القرآن الكريم والسنة النبوية والإجماع والقياس.

وقد توزعت المراكز المهتمة بهذا العلم بين ثلاث مدن كبرى : مراكش وسبتة وفاس، وهي على هذا الترتيب في الأشتغال بالدراسات الأصولية.

وأشهر المؤلفات المستعملة في هذا الصدد ثلاثة : «**المستصفى**» للغزالي[245]، و«**المختصر**» الأصلي لابن الحاجب، وكتاب التنقيح[246]، ومؤلف هذا الأخير شهاب الدين القرافي أحمد بن إدريس بن عبد الرحمن الصنهاجي ثم المصري القاهري، المتوفى بها عام 684/«1285»، والإسم الكامل لكتابه هو «**تنقيح الفصول في علم الأصول**»، وضعه في كتاب صغير ليكون مدخلا إلى مدونته الفقهية التي تحمل إسم : «**الذخيرة**»، ورتبه على عشرين بابا تحتوي على مائة فصل.

وسنرى أن هذا الكتاب صار موضع اهتمام ثلاثة من الشارحين المغاربة، مما يدل على شيوعه في الدراسات الأصلية المغربية أكثر من كل من المستصفى ومختصر ابن الحاجب، ويبدو أن مرد هذا الى بعده عن نزعة الاختصار، مع إضافة علاقة الأستاذية التي ربطت القرافي مع عدد من طلبته بالمغرب في مطلع هذا العصر، ونستعرض منهم ثلاثة :

2/62 ـ في مقدمتهم أبو علي عمر بن سليمان بن داود العثماني المكناسي، حيث التقى بالقرافي في القاهرة، وقرأ عليه كتابه «**التنقيح**» بالمدرسة الصالحية منها[247]، وقد يكون هو الذي أتى به إلى المغرب لأول مرة.

63 ـ ثم قرأه عليه بمدينة طنجة القاضي أبو القاسم أحمد بن عبد الرحمن الأنصاري المعروف بالأقدم[248].

---

(245) أخذه ابن البنا عن أبي الوليد بن حجاج، حسب **نيل الابتهاج**،م.س : ص 66.

(246) الكتابان الأخيران سنشير لتداولهما في دراسة هذه المادة.

(247) **فهرس المنتوزي**، م. س..

(248) المصدر.

ومن الآخذين عن القرافي من الفاسيين : أبو الربيع سليمان اللجائي الفاسي، ومن مراكش محمد بن إبراهيم اليقوري المراكشي، وسيرد ذكرهما من بعد.

وهكذا نتبين توزيع ثلاثة من الآخذين عن الشهاب القرافي بين عدة مدن مغربية، وكتجارب مع هذا يظهر في العصر المريني الأول ثلاثة شروح على تنقيح الفصول من تأليف ثلاثة من المغاربة :

64 ـ الأول : لأبي زكرياء يحيى بن أبي بكر المسطاسي الفاسي(248م)، وشرحه معروف في مخطوط منه بخزانة الجامع الكبير بمكناس رقم 352، ويقع في مجلد متلاش، لخص فيه المؤلف شرح القرافي تلخيصا بليغا وزاد عليه، ثم كمل نسخه عام 743هـ.

الثاني : وضعه ابن البنا المراكشي، الذي كتب ـ بالإضافة إليه ـ مؤلفاً آخر سماه : «**منتهى السول في علم الأصول**»(249)، ولا يزالان غير معروفين.

65ـ الثالث : لأبي العباس أحمد بن عبد الرحمن التادلي ثم الفاسي، جاء في ترجمته من «**الديباج**»(250) : وله على التنقيح للقرافي تقييد مفيد : وهو أيضا غير معروف.

ومن تآليف القرافي التي شاعت بالمغرب في نفس العصر : كتابه الآخر الذي يحمل إسم «**أنوار البروق في أنواء الفروق**»، منشور في أربعة أسفار، وسنرى ـ وشيكا ـ أنه يتناول الفروق التي تميز المسائل بعضها من بعض في الفقه وأصوله وغيرهما، وقد خضع هذا الكتاب لعملية التهذيب والنقد من طرف عالمين مغربيين، وأولهما : محمد بن إبراهيم اليقوري المراكشي سابق الذكر عند رقم 21، وهو الذي قام بتلخيص وترتيب نفس الكتاب في مؤلف لا يزال مخطوطا(251)، وقد أشار في طالعته الى أن أستاذه القرافي لم يتمكن من ترتيب كتابه «الفروق» الترتيب الذي يسهل

(248م) المصدر.

(249) **نيل الابتهاج**، م.س.

(250) م.س. : ص 81، وله ترجمة موسعة عند السخاوي في **التحفة اللطيفة في تاريخ المدينة الشريفة**، مطبعة دار نشر الثقافة، القاهرة : 1/184ـ186.

(251) نشر ـ وشيكا ـ بتحقيق الأستاذ الفاضل عمر ابن عباد، مطبعة فضالة ـ المحمدية 1414/1994 في جزءين.

الاستفادة منه، حيث خرج من يد مؤلفه باثر جمعه، وانتشرت منه نسخ على ما هو عليه، ولهذا فان اليقوري ندب نفسه لإعادة النظر فيه، وهو يوجز منهاجه في هذا، ويقدمه في فقرة صغيرة يقول فيها : «فرأيت أن ألخصه وأن أرتبه، وأن أنبه على ما يظهر لي خلال ذلك في أبحاثه، وأن الحق به ما يناسب مما لم يذكره، فيكون هذا كالعون على فهم الفروق المذكورة وتحصيلها.

وبعد هذا يذكر أنه رتب الكتاب على أربع تراجم :

الأولى : القواعد الكلية بالنسبة إلى ما بعدها في الكتاب، وتشتمل على ثلاث عشرة قاعدة.

الثانية : القواعد النحوية وما يتعلق بها، وفيها خمس عشرة قاعدة.

الثالثة : القواعد الأصولية، وفيها ثمان وعشرون قاعدة وملحقات.

الرابعة : القواعد الفقهية، وتساير أبواب الفقه في العبادات والأحوال الشخصية والمعاملات والحدود والمواريث إلى خاتمة الكتاب التي يعنونها بإسم الجامع.

وإذا كان مؤلّف اليقوري يغلب عليه طابع التلخيص والترتيب، فإن عالما من سبتة تصدى لنقد كتاب «**الفروق**» نقدا لاذعا، وتتبع مسائله بالتنقيح والتصحيح، وكان هذا هو القاسم بن الشاط السبتي سابق الذكر عند رقم 58، وهو يسمي تعاليقه «إدرار الشروق على أنواء الفروق»، وقد عرفنا ـ من قبل أن القرافي يترجم كتابه بـ«**أنوار البروق في أنواء الفروق**»، وابن الشاط يحدد منهجية كتابه في طالعته ويقول :

«أما بعد : فإني لما طالعت كتاب الإمام شهاب الدين أبي العباس أحمد ابن إدريس القرافي المالكي رحمه الله تعالى، المسمى بأنوار البروق. في أنواء الفروق، ألفيته قد حشد فيه وحشر، وطوى ونشر، وسلك السهول والنجود، وورد البحور والثمود، خلا أنه ما استكمل التصويب والتنقيب، ولا استعمل التهذيب والترتيب، فانتسب بسبب ذينك الأمرين، إلى الإخلال بواجبين، واحتجب لامع بروقه منها بحاجبين، ولما كان الأول منهما في مرتبة الضروريات، والثاني في درجة الحاجيات، وضعت كتابي هذا لما اشتمل عليه من الصواب مصححاً، ولما عدل به عن صوبه منقحا، وأضربت عما سوى ذلك موثرا للضروري علي الحاجي ومرجحا...».

ومن حسن الحظ أن تكون تعاليق ابن الشاط طبعت بالقاهرة مع كتاب «**الفروق**»، هذا في أعلى الصفحات، والأول في أسفلها.

وسيبقى ــ بعد هذا ــ أن نسجل أن هذه التعاليق السبتية اعتمدها الأعلام المختصون من بعد، وقد نقل ابن غازي(252)، عن أبي حفص الرجراجي انه كان يقول : «عليك بمطالعة القواعد والفروق للقرافي، ولكن لا تقبل منها الاما قبله ابن الشاط»، وفي الشرق العربي يردد نفس القولة العلامة المصري محمد الأمير في كتابه «**ضوء الشموع**».

وإلى هنا : فقد تبينا ملامح من نشاط الدراسات الأصلية بالمغرب المريني، وانتزعنا ذلك من خلال أصداء مؤلفين اثنين لشهاب الدين القرافي، وكانا ــ معا ــ لا يلتزمان نزعة الاختصار.

وعلى عكس هذه الطريقة المبسطة، كان مختصر ابن الحاجب الأصلي المشتهر بهذا الاسم(253)، ويكشف حاجي خليفة(254) عن مدى إيجازه ويقول : «وهو مختصر غريب في صنعه، بديع في فنه، لغاية إيجازه يضاهي الألغاز، وبحسن إيراده يحاكي الإعجاز».

وكان أول من أتى به للمغرب أبو الربيع سليمان اللجائي الفاسي من تلامذة القرافي، وهو الذي أذاعه وعنه أخذ(255)، غير أن الإقبال على دراسة هذا المختصر كان لا يزال محدودا خلال العصر المريني الأول، تأثرا بموقف أكثرية المغاربة من هذه المختصرات المتأخرة التي يتحامون الاشتغال بها.

ومن الجدير بالملاحظة أن «**مختصر**» ابن الحاجب ومعه «**تنقيح**» القرافي، تأثرا ــ معا ــ بمدرستين متقاربتين للمتكلمين المتأخرين، فالقرافي اقتطف في «**التنقيح**» من كل من سراج الدين الأرموي في كتابه «**التحصيل**»، وتاج الدين

(252) نقله ابن غازي ــ بسنده إلى الإمام عُمر الرجراجي ــ في رسالته التي سماها : **مذاكرة السيد أبي إسحاق بن يحيى في حكم الماء المنسوب للمَحْيا**، مخطوطة خاصة.

(253) ألف ابن الحاجب مختصره الأصلي في نسختين : الأولى تعرف بالمختصر الكبير، وتحمل اسم **منتهى السول والأمل في علمي الأصول والجدل**، ثم اختصره وهو المشتهر باسم **مختصر المنتهى** وبـ**مختصر ابن الحاجب الأصلي** وهو المتداول، وإليه يقصد العرض أعلاه.

(254) **كشف الظنون**، مصور المثنى : ع 1853.

(255) **ألف سنة من الوفيات**، م.س.، ص 85، 126.

الأرموي في كتابه «**الحاصل**»، وهما مختصران من كتاب : «**المحصول**» لفخر الدين ابن الخطيب.

بينما ابن الحاجب في كتابيه : «**منتهى السول**» و«**مختصره**»، لخصهما من «**الأحكام**» لسيف الدين الآمدي الذي كان عديلا للفخر ابن الخطيب، وحسب ابن خلدون[256] الذي نقتبس منه هنا، فقد كان ابن الخطيب أميل إلى الاستكثار من الأدلة والاحتجاج، والآمدى مولع بتحقيق المذاهب وتفريغ المسائل.

وإلى هنا فقد قدم هذا العرض ثمانية من المغاربة المهتمين بأصول الفقه في هذا العصر، وكان بينهم خمسة من المؤلفين، ونختم بذكر فقيه كبير تميز بالمشاركة في هذا العلم دون أن يشتغل بالتأليف فيه، وهو أبو الحسن الصغير الزرويلي ثم الفاسي سابق الذكر عند رقم 49، ويلاحظ لسان الدين ابن الخطيب[257] هذه الظاهرة ليسجلها في ترجمته ويقول : «يشارك في شئ من أصول الفقه يطرز بذلك مجالسه، مغربا به بين أقرانه من المدرسين في ذلك الوقت....».

وسيكون أبو الحسن الصغير تاسع تسعة من المغاربة الذين رددوا أصداء نشاط الدراسات الأصلية في هذه الفترة، وستأتي ـ بعد هذا ـ الدراسات الكلامية.

* * *

خامسا ـ الدراسات الكلامية

كان التوحيد في صدر الإسلام هو العقائد الإيمانية معللة بأدلتها العقلية، ومؤيدة بشواهدها المنتزعة من الكتاب والسنة، ثم عرضت ـ بعد هذا ـ آراء أفضت إلى ظهور علم الكلام، وهو يهتم بالاحتجاج للعقائد بالأدلة العقلية، ويضيف لذلك الرد على المنحرفين عن مذاهب السلف و«أهل السنة من الخلف[258]، وكان من بين المذاهب الكلامية مذهب أبي الحسن الأشعري» إمام المتكلمين، وقد دخل للمغرب مع ظهور الموحدين على يد إمامهم محمد المهدي إبن تومرت، غير أن هذا أضاف له أفكارا مقتبسة من تعاليم المعتزلة وبعض الفرق الشيعية، ومنها القول بالإمامة والعصمة[259].

---

(256) **المقدمة**، م.س : ص 397 ـ 398.

(257) **الإحاطة**، م.س : 186/4.

(258) يرجع إلى **المقدمة** لابن خلدون م.س. : ص. 400.

(259) انظر **المعجب** للمراكشي مطبعة السعادة بمصر، ص. 121.

ولما جاء العصر المريني أقر المغاربة المذهب الأشعري بعدما استبعدوا منه الإضافات الموحدية، وقد كان في مقدمة المؤلفات الكلامية التي استمرت تدرس في هذا العصر، كتاب **الإرشاد** لإمام الحرمين في الصفوف العالية، وبالنسبة لبقية الأقسام : العقيدة الوجيزة المشتهرة بـ«ـالعقيدة السلالجية»[260] المختصرة من كتاب **الإرشاد**، ثم **عقيدة الرسالة القيروانية** وهي موضوعة على منهج طريقة السلف، والغالب أن **المرشدة** لابن تومرت كانت بدورها تستعمل للدراسة في هذه الفترة.

66 ـ ونذكر ـ في طليعة المهتمين بهذا العلم ـ أبا الحسن المغيلي[261]، وهو الذي درس عليه ابن البنا كتاب **الإرشاد** لإمام الحرمين.

67 ـ وبعده يلمع إسم أبي العباس أحمد بن محمد بن راشد الفاسي، وكان إمام عصره في علمي الأصول والاعتقادات[262]، وهو حفيد راشد بن أبي راشد الوليدي، س.د. عند رقم 42.

ومن بين المؤلفين في الاعتقادات نقدم ثلاثة : أولا ابن البنا المراكشي، وهو مؤلف **الاقتضاب والتقريب للطالب اللبيب**، مع رسالة في المعجزات النبوية.

الثاني : أبو زكرياء يحيى بن أبي بكر المسطاسي الفاسي[263] سابق الذكر عند رقم 64، وهو شارح عقيدة الرسالة القيروانية.

الثالث : أبو الحسن المشتهر بالطنجي : علي بن عبد الرحمن اليفرني الفاسي، المتوفى عام أربعة وثلاثين وسبعمائة، وسابق الذكر عند رقم 56.

---

(260) يذكر محمد بن الطيب القادري بعد ما ساق ترجمة السلالجي : «وكان للناس إقبال على تواليفه في العقائد، وعلى تدريس عقيدته أوقاف بفاس لشدة الاعتناء بها، إلى أن ظهرت كتب السنوسي فأقبل الناس عليها»، **الإكليل والتاج في تذييل كفاية المحتاج** مخطوط خ. س 1897.

(261) **نيل الابتهاج** م. س، ص. 66، مع **جذوة الاقتباس**، م. س، ص. 150.

(262) **روض القرطاس**، ط. ف، 1305 هـ، ص. 49.

(263) هو الذي ينقل عنه أبو زيد عبد الرحمن بن مَحمد الفاسي في تعاليقه على شرح السنوسي لعقيدته الصغري، ط.ف.: عند ص. 8 ملزمة 5، وعند ص، 1، ملزمة 13، ثم نقل عنه محمد المهادي الفاسي أوائل رسالته : **النبذة اليسيرة واللمعة الخطيرة في مسألة خلق أفعال العباد الشهيرة** قائلا : «... وقال المسطاسي في شرح عقيدة الرسالة لابن أبي زيد...».
والمسطاسي هذا يبدو أنه ينسب لجبل مسطاسة المتاخم ـ غربا ـ لسهل أدخسان، فيقول الحسن الوزان الفاسي عن سكانه : «وينتمي كثير من أدباء فاس إلى هذه المنطقة، ويحس الكثير من أهل هذا الجبل الكتابة بخط في غاية الإتقان، ولذلك ينسخون عددا كثيرا من الكتب ويبيعون مخطوطاتهم في فاس» : **وصف إفريقيا**، الترجمة العربية 368/1.

كتب شرحا موسعا على المقدمة السلاجية بعنوان : **المباحث العقلية في شرح معاني العقيدة البرهانية**، وفرغ من تأليفه في التاسع من ذي الحجة عام ثمانية وعشرين وسبعمائة بمدينة فاس، من مخطوطات خ. س 11741.

والمؤلف يصدر الشرح بلائحة للمصادر الرئيسية التي اعتمدها، ومنها نستفيد أسماء طائفة من المؤلفات الكلامية التي كانت معروفة بفاس ـ على الأقل ـ خلال هذه الفترة، ويتعلق الأمر بالكتب التالية : تآليف فخر الدين الرازي : **الأربعون**، **والمحصل**، **والمعالم الدينية**، **ونهاية العقول**.

ـ **أبكار الأفكار** للآمدي.

ـ **شرح الإرشاد** للمازري.

ـ **شرح الإرشاد** للشريف زكرياء بن يحيى الإدريسي[264].

ـ **كتاب التذكرة** [لأبي طاهر إسماعيل بن مكي الإسكندري][265].

ـ **الكتاب الأوسط** لأبي المظفر طاهر بن أحمد الإسفرايني الملقب بشاه بور.

ـ **شرح العقيدة البرهانية** للكتاني. وبالنسبة لبعض الكتب الواردة في هذه اللائحة، فإنها تعكس اهتمام بعض المغاربة في هذا العصر بالذات بالموضوعات الكلامية المؤلفة على طريقة المتأخرين، وهي التي تمثلها ـ في الطليعة ـ بعض مؤلفات الفخر الرازي، وتعتمد في مناهجها على سبر البراهين بمعيار المنطق.

ويظهر أن التطلع المغربي للمدرسة الرازية في الكلام والأصول ـ معا ـ بدأ مبكرا من أوائل هذا العصر، ونذكر في هذا الصدد.

68 ـ أبا العباس أحمد بن عيسى بن عبد الرحمن الغماري، المتوفى ـ في تونس ـ عام 1283/682، وقد رحل إلى المشرق واجتمع بجملة من فضلاء

---

(264) من مخطوطات خزانة القرويين رقم 729، في سفر ـ مبتور الأول ـ يشتمل على جزءين، ويحمل إسم **كفاية الطالب في علم الكلام**، والإدريسي هذا هو مؤلف **كفاية طالب البيان في شرح البرهان** لإمام الحرمين، منه بخزانة القرويين السفر الثالث وهو الأخير، مبتور ـ يسيرا ـ من أوله، ويحمل رقم 624، ويوجد منه السفر الثالث بين مخطوطات مكتبة الزاوية الحمزاوية تحت رقم 35، ولنفس المؤلف **أبكار الأفكار العلوية. في شرح الأسرار العقلية، في الكلمات النبوية**، إسم شرحه على عقيدة أستاذه الإمام المقترح، من مخطوطات خزانة ابن يوسف بمراكش، ضمن مجموع رقم 481.

(265) تعيين مؤلف التذكرة من **كشف الظنون** مصور مكتبة المثنى ببغداد، ع 393.

أصحاب الرازي واستفاد منهم، وكان يثني على الفخر الرازي كثيرا ولا يرى له نظيرا، ويؤثر قراءة كتبه على غيرها من كتب المتقدمين والمتأخرين[266].

وإلى هنا نتبين أن دراسة علم الاعتقادات في هذه الفترة كانت تساير مذهبين للمتقدمين والمتأخرين، مع العلم بأن المذهب الأخير كان نشاطه محصورا بين أقلية محدودة.

ونذكر ـ بعد هذا ـ إضافات الموحدين للعقيدة الأشعرية، وقد علمنا ـ سلفا ـ أن من بينها القول بالإمامة والعصمة، وقد استمرت هذه العقيدة الشيعية منتشرة في جهات خاصة من المغرب، غير أن الرأي العام ومعه الدولة ناهضوا هذه الأفكار المنحرفة بكل شدة، ويحتفظ كتاب المعيار[267] للونشريسي بأحد النماذج لمواقف العلماء ضد هذه الفرقة.

69 ـ والآن نسجل ـ أخيراً ـ إسم عالم مبرز في مناقشة أصول الأديان، وكان هذا هو ابن رشيق : الحسين بن عتيق التغلبي، مرسي الأصل سبتي الاستيطان على حد تعبير ابن الخطيب[268]، وقد قام في سن مبكرة بمناظرة في موضوع إعجاز القرءان الكريم، مع بعض القسيسين في مدينة مرسية[269].

وسيكون ابن رشق ثامن أعلام الدراسات الكلامية في العصر المريني الأول، وسيأتي بعد هذا موضوع العلوم اللسانية.

* * *

سادسا ـ الدراسات النحوية

حافظ العصر المريني الأول على ازدهار الدراسات النحوية، وكانت المراكز الرئيسية لهذا النشاط، تتوزع بين مدن سبتة وفاس ومراكش فضلا عن مدينة تازا[270] ومكناس.

---

(266) **عنوان الدراية** للغبريني، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع بالجزائر، ص. 112ـ113.

(267) م. س، 2/453ـ461، ونضيف هنا الإشارة إلى موقف ابن تيمية من سياسة المهدي إبن تومرت وعقيدته «المرشدة»، في فتوى مطولة ضمن **مجموع فتاوي ابن تيمية**، مكتبة المعارف ـ الرباط، 11/476ـ491.

(268) **الإحاطة** م. س، 1/472 عند مفتتح ترجمة إبن رشيق.

(269) إحتفظ الونشريسي بإثبات نص هذه المناقشة في **المعيار**، م. س، 11/155ـ158.

(270) كانت ـ حسب المقري ـ مجمع أهل اللسان وفرسان المعارف : **أزهار الرياض** م. س، 3/33.

وإلى سبتة ـ بالخصوص ـ إنتقلت الطريقة الأندلسية في تعليم العربية، ووصلت إليها بعد سقوط إشبيلية، وجلاء أكثر أعلامها إلى المدينة العزَفية.

وتتميز هذه المنهجية الأندلسية بالالتفات ـ في مجالس التعليم ـ إلى شواهد العرب وأمثالهم، والعناية بالنفقة في كثير من تراكيبها، على خلاف باقي الجهات المغاربية لما لم يأخذوا بهذه الطريقة، وساروا على التفقه في القوانين النحوية مجردة عن الاهتمام بالتراكيب العربية إلا في القليل[271].

* * *

وقد كانت سبتة ومعها فاس ومراكش، تتميز ثلاثتها بالالتفات إلى التفقه في كتاب سيبويه في المستويات العالية، وهو واقع تفرد به الغرب الإسلامي، على حين انقطاع ذلك إلا قليلا من الحلقات المشرقية، وهو ما يسجله أبو حيان خلال قصيدة عن كتاب سيبويه :

لقد كان للناس اعتناء بعلمه   بشرق وغرب تستثار فوائده
وَالآن فلا شحص على الأرض قارئ   كتاب أبي بشر ولا هو رائده
سوى معشر بالغرب فيهم تلفت   إليه وشرق ليس تخبو فواقده[272]

وإلى أن نتبين ملامح من تعاهد نفس الكتاب بسبتة ومراكش، نشير إلى افتخار منديل إبن آجروم وهو من فاس، باستمرار أسرته على اعتمادها لسيبويه دون سواه :

بسيبويه نسبنا كل فائدة
في صنعة النحو لا الكرّاس والجُمل[273]...

وهو يقصد بالكرّاس المقدمة الجزولية، وبالجُمل كتاب الجمل الكبيرة للزجاجي.

وكان هذا الأخير من محفوظات ناشئة سبتة[274]، ومن الكتب الدراسية في المستوى المتوسط : **الإيضاح** لأبي علي الفارسي، ثم كتاب التسهيل لابن مالك.

(271) **المقدمة** لابن خلدون م. س، ص. 515 و531.
(272) أوائل **روضة الأعلام** لابن الأزرق، خ. س 4436.
(273) **نثير الجمان** لابن الأحمر، مؤسسة الرسالة ـ بيروت، ص. 420.
(274) إفتتاحية كتاب **البسيط** آتي الذكر.

ومن المختصرات : **المقدمة الجزولية، والقوانين النحوية** لابن أبي الربيع ءاتي الذكر، وثالثا **المقدمة الأجرومية**، والأخيران من مؤلفات هذا العصر.

* * *

وقد ازدان نفس العصر بظهور مجموعة من اللامعين في هذه المادة : «تدريسا وتأليفا، وهذه نماذج من عيونهم.

70 ـ آنطلاقا من قاضي مراكش، الشريف شهرة لا نسبا : محمد بن علي بن يحيى المراكشي، ت 682/«1283»، وكان أستاذ كتاب سيبويـه بنـفس المدينة[275].

71 ـ وخلفه في إقراء نفس الكتاب، تلميذه أبو إسحاق العطار : إبراهيم بن عبد السلام الصنهاجي المراكشي[276]، استمر بقيد الحياة إلى عام 1316/716،

وكان بين الآخذين عنه إبن البنا المراكشي المتكرر الذكر، قرأ عليه جميع كتاب سيبويه والمقدمة الجزولية[277]، وهو مؤلف كتاب **المشكاة والنبراس، شرح كتاب الكراس**، منه بخزانة القرويين مجلدان رقم 507 : الأول فرغ من تأليفه عام 716 هـ، والثاني متلاش ويتخلله بتر وتخليط، وفي القسم العربي بالإسكوريال يوجد منه المجلد الأول رقم 127 من فهرس ديرمبورك.

ـ إبن أبي الربيع الإشبيلي مستوطن سبتة وسابق الذكر عند رقم 1، ويعتبر آخر أيمة المقرئين لكتاب سيبويه العارفين بغوامضه في هذا الأفق المغربي[278]، وله ـ إلى هذا ـ إهتمام خاص بكتابي الجمل والإيضاح، ووضع على كل من المؤلفات الثلاثة شرحا أو أكثر.

أ ـ وهكذا دون وضعاً على كتاب سيبويه، وكان وقف عليه إبن الطيب الشركي ورجع إليه في **موطئة الفصيح**[2/278].

(275) **بغية الوعاة** للسيوطي، مطبعة السعادة ـ مصر، ص. 82.

(276) لا تعرف له ترجمة، وسماه السيوطي بين الأخذين عن قاضي مراكش المذكور قبله، حسب **بغية الوعاة**، ص. 82، وسنتبين ـ وشيكا ـ أن مؤلف **نيل الابتهاج** ذكر إسمه، كما أن الثعالبي نقل عنه في **أنوار التجلي على ما تضمنته قصيدة الحِلّي**، مخطوط خ. ع. د 1968 : 139/1.

(277) **نيل الابتهاج** م. س، ص. 66.

(278) **برنامج التجيبي**، م. س، ص. 277.

(2/278) د. **عبد العلي الودغيري : قضايا المعجم العربي**، منشورات عكاظ، ص. 38.

ويقول أبو القاسم التجيبي عن إبن أبي الربيع : «وله على كتاب الجمل عدة شرْحات، أعظمها الكتاب :

ب ــ الموسم **بالبسيط** وهو في عدة مجلدات، ظهر فيه حفظه وتبريزه[279]، ولا يعرف منه ــ الآن ــ غير المجلد الأول في نسختين بقي ذكرهما على بروكلمان : إحداهما في مكتبه إبن يوسف بمراكش رقم 100، وقع الفراغ من انتساخها ــ بخط أندلسي ــ عام 724 هــ، وتشتمل على النصف الأول، والثانية : خ. ع. ق 206، بخط أندلسي على ورق سميك عام 735 هـ : 296 ص، وتقف على بابا التعجب.

والغالب أن هذا الشرح البسيط، كان ءاخر ما كتبه المؤلف على كتاب الجمل، حيث يذكر في طالعته أنه وضع على المتن تواليف عدة، منها مختصرة ومنها ممتدة، فرأى أن يتبع ذلك بكتاب مبسوط يضم ما في الشرحات السابقة، ويجمع معانيها ويستوفيها، وهو يذكر منهاجه في شرحه **البسيط** ويقول :

«ولم أمر بلفظ مطلق إلا قيدته، ولا ناقص إلا كملته، ولا مغلق إلا شرحته، ولا اعتراض إلّا أزلته، ولا شاهد إلا أوضّحته، ولا بيت إلا نسبته على حسب علمي، ومنتهى فهمي، وسميته **البسيط**، وتجانيت فيه عن الإفراط والتفريط»[280].

ج ــ وإلى شروح الجمل، كتب إبن أبي الربيع شرحا موسعا على مصنف **الإيضاح** لأبي علي الفارسي، وسماه بــ**الكتاب الكافي في الإفصاح، عن مسائل كتاب الإيضاح**، منه في مكتبه الزاوية الحمزاوية أربعة أسفار متتابعة بخط أندلسي : الأول والثاني رقم 17، والثالث والرابع رقم 41، وبخزانة القرويين، الأول والثالث رقم 513، مع الإشارة إلى أن هذا الأخير بخط إبن آجروم مؤلف المقدمة، وبخزانة الجامع الكبير بمكناس الأول رقم 411 في سفر مبتور الأول، ثم السفر الثاني : خ. س 5298، وأخيرا : السفر الرابع وهو الأخير خ. ع. ك 379، في سفر مكتوب على ورق سميك، نسخه ــ بسبتة في عز حياة المؤلف ــ تلميذه إبراهيم بن أحمد الغافقي السبتي ءاتي الذكر، وفرغ منه في شوال 658 هــ، مقابل ومصدر بإجازة به وبغيره بخط المؤلف، وعليه خطه في مواضع منه.

(279) **برنامج التجيبي**، م. س، ص. 280.

(280) إفتتاحية **البسيط**، ومن حسن الحظ أن الموجود من **البسيط** حققه ودرسه الأستاذ الفاضل د. عياد بن عيد الثبيتي، في رسالة نال بها درجة الدكتوراه من كلية اللغة العربية بجامعة أم القرى بتقدير ممتاز، مع التوصية بطبعها على نفقة الجامعة: عام 1402 هـ.

ـ د ـ **الملخص في ضبط قوانين العربية**، مكتبة الزاوية الحمزاوية رقم 15 : في نسخة أندلسية غير تامة، مع نسخة أخرى من السفر الثاني، مكتوبة ـ بخط أندلسي ـ في حياة المؤلف عام 683 هـ، وتحمل في مكتبه الإسكوريال رقم 110.

هـ ـ **القوانين النحوية** : خزانة القرويين 512، في سفر بآخره بتر، مع خ. ع. د 1267 : في سفر مبتور الطرفين.

ومن الجدير بالملاحظة أن بعض مؤلفات إبن أبي الربيع، كانت تلاقي تشجيعا ودعما من أمراء سبتة أبناء الأمير الكبير أبي القاسم العزفي، فيذكر المؤلف في مقدمة **البسيط**، أن الذي أعانه على إكماله وتتميمه هو أبو الوفا بن الأمير أبي القاسم العزفي، كما ينوه في افتتاحية **الكتاب الكافي**، بمعونة الأمراء أبي حاتم وشقيقه أبي الوفا وصنوه أبي طالب، أبناء الأمير أبي القاسم العزفي.

وإلى هذا الاهتمام الأميري، فإن بعض أوضاع إبن أبي الربيع بدأت تنتشر من حياته، وقد تبنا ـ وشيكا ـ أن أحد أسفار **الكتاب الكافي**، مكتوب في حياة المؤلف من عام 658 هـ، وكذلك واقع ثانية نسختي **الملخص**، المنتسخة عام 683هـ.

كما أن تلميذاً للمؤلف نسخ **الكاتب الكافي** بخطه، واختصره في مجلد، وسافر به إلى «**قوص**» من صعيد مصر حيث أقام بها بقية حياته.

72 ـ وكان المنوه به هو أبو الطيّب : محمد بن إبراهيم بن محمد السبتي، نزيل «قُوص»، والمتوفى بها عام 695/«1296»، قرا على ابن أبي الربيع شرح الإيضاح، وكتاب**سيبويه** وأجازه به[281].

ـ إبن بَرّي : علي بن محمد التازي سابق الذكر عند رقم 9، إختصر شرح إبن أبي الربيع على الجمل[282]، ولعله هو الشرح البسيط، ولا يزال غير معروف.

* * *

وإلى هنا نتبين ألوانا من الاهتمام بأوضاع إبن أبي الربيع، فتتبعها شهرتها داخل المغرب، ويصل صداها إلى صعيد مصر، وفي القاهرة ـ بالذات ـ كان علم إبن أبي

(281) **الطالع السعيد. الجامع لأسماء الفضلاء والرواة بأعلى الصعيد**، تأليف كمال الدين الأدفوي، المطبعة الجمالية ـ مصر، ص. 262ـ263.

(282) مذكور ضمن لائحة مؤلفاته.

الربيع وكتابه **الكافي**، موضع تقدير بالغ من بهاء الدين إبن النحاس شيخ الديار المصرية في علم اللسان، وذلك ما يحتفظ إبن رشيد بتبريره[283].

73 ـ وننتقل الآن إلى أبي إسحاق الإشبيلي : إبراهيم بن أحمد بن عيسى الغافقي، مستوطن سبتة، ت 716/«1317»، وكان شيخ النحاه والقراء بسبتة[284]، وهو الذي خلف أستاذه إبن أبي الربيع في حلقته بعد وفاته[285]، ومن مؤلفاته شرح الجمل للزجاجي، من مخطوطات خ. ع. ق 22 في سفر كبير، ونسخة أخرى في دار الكتب الناصرية بتمكَروت رقم 2662.

ـ إبن آجروم : محمد بن محمد بن داود الصنهاجي الفاسي سابق الذكر عند رقم 6، وهو ـ حسب ابن الأحمر ـ[286] لم يكن في أهل فاس في وقته أعرف منه بالنحو، وكان أستاذ كتاب سيبويه بها، وهو صاحب **المقدمة الآجرومية في مبادئ علم العربية**، أوجز فيها كتاب **الجُمل** للزجاجي، واستمرت أساسا للدراسات النحوية من زمن وضعها حتى قريب من عصرنا، حيث انتشرت دراستها من المحيط الأطلسي إلى نهر الفرات.

ـ إبن هانئ : محمد بن علي اللخمي السبتي، سابق الذكر عند رقم 59، وهو من تلاميذ أبي إسحاق الغافقي[287]، ويعتبر ـ حسب إبن القاضي ـ[288] ءاخر الحفاظ لعلم العربية بالمغرب، ومن مؤلفاته **شرح تسهيل الفوائد** لابن مالك، وهو شرح جليل، ويتردد ذكره عند إبن غازي في تعليقه على **ألفية** ابن مالك.

74 ـ الحضرمي : عبد المهيمن بن محمد بن عبد المهيمن السبتي، توفي ـ بتونس ـ 750/«1349» وقد تجاوز السبعين، ويقيّم إبن الأحمر[289] درجته في مادة العربية : «... وأما كتاب سيبويه فكان بمسائله عارفا، وعلى قراءته ـ بطول عمره ـ مداوما وعاكفا، لم يكن له بالمعرفة به قرين، ولقد تصدر لإقرائه وهو إبن عشرين».

---

(283) **ملء العيبة**... الشركة التونسية للتوزيع، 3/108ـ109.

(284) **بغية الوعاة** م. س، ص. 177.

(285) **المرقبة العليا** للنباهي، دار الكاتب المصري، ص. 133.

(286) **نثير الجمان**، م. س، ص. 417.

(287) **الإحاطة** لابن الخطيب م. س ؛ 3/144.

(288) **درة الحجال** م. س، 2/112.

(289) **نثير الجمان**، م. س، ص. 225.

سابعا ــ الدراسات اللغوية وما إليها

بعد مادة النحو، يأتي دور الدراسات اللغوية وما إليها عبر العصر الذي نتناوله، ويتعلق الأمر بمادتي اللغة والبديع.

وبالنسبة لعلوم اللغة، فقد ازدهرت ــ أكثر ــ في مدينة سبتة، وكانت المؤلفات الدراسية بها، يأتي في طليعتها كتاب **إصلاح المنطق** لابن السكيت، وعليه كان معول إبن أبي الربيع، وقلّ أن كان يغيب عنه منه شيء[290]، وأقرأ نفس الأستاذ كتابي **الكامل** للمبرد، **والفصيح** لثعلب.

وإلى هذا النشاط التعليمي، لمعت أسماء من المؤلفين اللغويين، وكان في مقدمتهم مالك إبن المرحل المتكرر الذكر، فنظم **غريب القرآن الكريم** لابن عزيز السجستاني، ونظم **مختصر إصلاح المنطق** لابن العربي، كما رجز كتاب **الفصيح** لثعلب، في منظومة سماها **بالموطأة**، ومن مؤلفاته اللغوية النثرية **ترتيب كتاب الأمثال السائرة** لأبي عبيد على حروف المعجم، ثم كتابه في **كان ماذا** المسمى **بــالرمي بالحصى والضرب بالعصا**[291]، ألفه في غمرة المناقشة التي شبت بينه وبين أبي الربيع السبتي حول هذا التركيب.

ونذكر ــ الآن ــ إبن هاني المتكرر الذكر، وهو الذي رتب **المدخل إلى تقويم اللسان وتعليم البيان** لابن هشام اللخمي السبتي، في كتابه **إنشاد الضّوال وإرشاد السُّؤّال**، ويعتبر ــ الآن ــ ضائعا، وإنما بقي مختصره لابن خاتمة الأنصاري المري، باسم **إيراد اللأل من إنشاد الضوال** من مخطوطات خ. ع. ج 1248، ونسخة أخرى خ. س 1398، ثم كان موضوع عمل جامعي بإسبانيا.

---

(290) **برنامج التجيبي**، م. س، ص. 281.

(291) لا يعرف من موضوعات إبن المرحل أعلاه سوى مؤلفين : أ ــ أرجوزة **الموطأة**، منشورة بالمطبعة الحجرية الفاسية مرتين، ومخطوطة مفردة، وضمن شرحها لمحمد بن الطيب الشرقي الفاسي باسم **موطِئة الفصيح لموطأ الفصيح**، منه بضعة نسخ بالرباط والقاهرة.
ب ــ **الضرب بالعصا والرمي بالحصا**، وهو ثلاثة أجزاء صغيرة، وجعل لكل واحد عنوانا، والموجود فيه ــ الآن ــ مخطوطة أندلسية رقية عتيقة مبتورة البداية، وتشتمل على آخر الجزء الأول وسائر الجزءين الثاني والثالث، وهناك قطعة من الجزء الأول، ضمن حاشية المغني لأبي حفص الفاسي، وهي التي أثبتها ــ مع اختصار وبصرف ــ الأستاذ المرحوم عبد الله كنون في **النبوغ المغربي**، الطبعة الثانية 2/56ـ71.

وهناك **مقتبسات** من هذا المختصر لمؤلف مجهول، كشف عنها المستعرب الفرنسي جورج كولان، فحققها وصدرها بدراسة عن المؤلفات الأندلسية والمغربية في موضوع لحن **العامة**، ثم نشر ذلك ـ تقديما ومتنافي نصه العربي ـ بمجلة **هسبيرس** 1931، ع 12 ـ الفصلة الأولى : ص 1 ـ 32.

والظاهر أن كتاب **الصحاح** للجوهري، كان له اعتبار خاص بين المصادر اللغوية الرئيسية.

75 ـ فيأتي في ترجمة إبن عبد المنعم الصنهاجي السبتي، أنه كان يقدمه على سواه من كتب اللغة(292).

إضافة إلى أنه تبقى عن هذه الفترة مجلدان من هذا المصدر، انتسخا ـ معا ـ بمدينة سبتة، والقصد إلى الخمس الأخير من **الصحاح** في مجلد يحمل تاريخ 713/«1313»، وهو في القسم العربي بالإسكوريال رقم 584 من فهرس دير مبورغ، بينما يحتفظ المغرب بالربع الأخير من نفس الكتاب، المؤرخ بعام 717/«1317»، خ. س. رقم 11761 ز.

ومن القضايا اللغوية التي أثيرت في هذا العصر، مسألة المفاضلة بين الترتيبين المشرقي والمغربي للألفبائية العربية، وهي معضلة قديمة، أثارها في هذا العصر محمد بن عبد الملك المراكشي عند مدخل **الذيل والتكملة**(293)، وانتصر للطريقة المشرقية ليستخدمها في تبويت كتابه، وهكذا يقول :

«... فآثرت ترتيب كتابي هذا، بأن وضعت أبوابه على ترتيب حروف المعجم المشرقي لصحة اعتباره»..

غير أن المعاصرين للمؤرخ المغربي ومن بعدهم لم يأخذوا باختياره، وآثروا الترتيب المغربي على المشرقي، وكان منهم مالك إبن المرحل في قصيدته المطولة : **الوسيلة الكبرى**...، وابن هانئ في **إنشاد الضوال**...، وابن فرج السبتي في **القطع المخمسة**، وابن الدهان في ترتيب **ديوان ابن سهل**، **ولسان الدين ابن الخطيب في ديوانه الصيب والجهام**...، وملك غرناطة يوسف الثالث في **ديوانه**.

(292) **بلغة الأمنية** م. س، ص. 175ـ176 من **مجلة تطوان**، ع 9.
(293) **السفر الأول مخطوط** خ. س 269.

ومن المغاربة المتأخرين : الماغوسي في **ترتيب ديوان المتنبي**، وابن القاضي في كل من **درة الحجال وجذوة الاقتباس**، ثم اليوسي وابن زاكور في ترتيب **ديوانيهما**، وبعدهم القادري في **الإكليل والتاج**. **في تذييل كفاية المحتاج**، والحضيكي في **طبقاته**، وهكذا حتى نصل إلى المعاجم المعاصرة.

ومما يشير لرسوخ هذا الترتيب في أعمال المؤلفين بالعدوتين، أن كلا من ابني فرتون والأبّار أخذا به في مؤلّفيهما، وقبلهما يقول القاضي عياض عند إفتتاحية **المشارق**[294] : «... رأيت ترتيب تلك الكلمات على حروف المعجم... فبدأت بحرف الألف وختمت بالياء على ترتيب حروف المعجم عندنا.».

* * *

ننتقل ـ الآن ـ إلى مادة البديع، لنقدم أربع مؤلفات لثلاثة مغاربة من العصر ذاته.

76 ـ وسيكون الأول : أبو محمد السجلماسي : القاسم بن محمد بن عبد العزيز الأنصاري، وهو مؤلف كتاب **المنزع البديع في تجنيس أساليب البديع**، وخلافا لعنوانه، يعتبر كتاب بديع وبيان وفلسفة، وفرغ من تأليفه في الحادي والعشرين لصفر، سنة أربع وسبعمائة[295].

ـ أما الثاني فهو إبن رشيد السبتي المتكرر الذكر، وقد خلف الموضوعَين التاليين :

إحكام التأسيس في أحكام التجنيس.

مع إيراد المرتع المريع لرائد التسجيع والترصيع[296].

ـ الثالث : إبن البنّا المراكشي سابق الذكر، وهو مؤلف **الروض المريع في صناعة البديع**، من مخطوطات دار الكتب الناصرية بتمكّروت، ثاني مجموع رقم 2515، ونسخة ثانية مخرومة ويتخللها بتر، وتقع أول مجموع : خ. ع. ك 3172.

(294) المطبعة الحفيظية، فاس، 6/1.

(295) كان موضوع دراسة جامعية : (د. د. ع) قام بها الأستاذ الناقد د. علال الغازي، من منشورات مكتبة المعارف، الرباط.

(296) **درة الحجال**، م. س، 97/2.

جذوة الاقتباس م. س، ص. 290.

ثامنا ـ الدراسات الأدبية

مقدمة :

يحتل أدب العصر المريني الأول درجة مرموقة بين الآداب العربية، ويعتبر فاتح عام 1267/667 تاريخا لبداية هذا العصر، إلى أن ينتهي عند عام 1331/731.

وقد توفرت هذه الفترة على نشاط أدبي نشأ ـ أول الأمر ـ مستقلا عن العلاقة بالحكم، وفي الوقت نفسه استفاد هذا النشاط من المقدرات الأدبية التي نزحت إلى المغرب بعد سقوط القواعد الأندلسية الكبرى، حيث استقر كثير من النازحين في سبتة وفاس بالخصوص.

وإلى جانب هذا اللون من الأدب : نذكر عامل الدفاع عن شبه الجزيرة، وهو الذي حفز الأدباء ـ من مختلف القطاعات ـ ليساهموا في المعركة بالشعر والكتابة والخطابة :، للدعوة إلى إنقاذ الفردوس المفقود.

وسيأتي ـ بعد هذا ـ دور الدولة في تشجيع الحياة الأدبية، إنطلاقا من يعقوب بن عبد الحق ماهد الدولة، ثم كان ابنه يوسف هو الذي نظم علاقاته ـ أكثر ـ مع الشعراء، وصار بلاطه يتوفر على مجموعة تخيرها منهم ليجري لهم المرتبات والإحسانات، ويقدم المصدر[297] المعني بالأمر أربعة أسماء تنتظم من مالك ابن المرحل، وعبد العزيز الملزوزي، وأبي العباس الفشتالي، وأبي العباس الحميشي.

هذا إلى أن أميرين مرينيين كانت لهما ميول أدبية، فكان أبو مالك عبد الواحد بن السلطان أبي يوسف محبا للآداب والتاريخ، ذاكرا للكثير من ذلك، يجالس أهل العلم والأدب ويناظرهم، ويحب الشعر ويروي كثيرا منه، ويأخذ نفسه بنظمه[298].

ثم كان أبو علي عمر بن أبي سعيد الأول : له بعض البصر بالبلاغة واللسان العربي، وينظم القريض[299].

(297) **روض القرطاس**، م. س، ص. 276.
جذوة الاقتباس، م.س، ص. 548.

(298) **الذخيرة السنية** ط. الجزائر، ص. 139–140.

(299) **العبر** لابن خلدون، مطبعة بولاق، القاهرة، 248/7.

ومن الرؤساء الممدحين : نشير إلى الحاجب عبد الله ابن أبي مدين، ويقول عنه ابن الأحمر[300] : «وما زال يهب الخيل عرابا، ويملأ للسؤال ــ بالذهب ــ جرابا، وامتدحته الشعراء بوصف الكرم».

والعزفيون أمراء سبتة ــ هم الآخرون ــ كان لهم دور كبير في تنشيط الآداب في بلدتهم، مع تأثيرات لذلك في سائر المغرب، ومن هذه المدينة إنبعثت الدعوة للاحتفال بالمولد النبوي الشريف، وقد فتحت هذه المناسبة ميادين جديدة في الأدب المغربي، امتدادا من الأيام الأولى للإمارة العزفية، ثم من أيام أبي يوسف المريني، وكان أول من عمَّم الاحتفال بالمولد الشريف من بني مرين، حيث أقام مراسمه بفاس، واستمع إلى قصائد وخطب موضوعية للشعراء والخطباء[301].

* * *

وهكذا يعرف المغرب المريني أدب المولديات.

كما سيعرف ــ لأول مرة ــ أدب الرواد الذي يصوغون به ارتساماتهم، ليدونوها في رحلاتهم.

وفي الوقت نفسه يزدهر أدب النكبات، ويهتم ــ في هذه الفترة ــ بالدعوة لإنقاذ الأندلس.

كذلك تبرز للميدان أشعار نبويات وحجازيات، وأخرى زهديات : كرد فعل ضد واقع شبه الجزيرة.

ومن الطبيعي أن ينضاف لهذه الموضوعات : الاتجاهات التقليدية للأدب العربي، وتتمثل في المديح والافتخار والرثاء والاعتذار والاستعطاف والهجاء والذم والعتب والتأنيب والوصف والغزل.

(300) **مستودع العلامة** لأبي الوليد ابن الأحمر المطبعة المهدية بتطوان، 1964/1384، ص. 42.
وعبد الله الذي نعلق على إسمه هو والد الكاتب الشهير : أبي الفضل، ويتصل بنشاطه الأدبي نسخة عتيقة ــ ناقصة البداية ــ من **ديوان ابن التعاويذي** : الشاعر البغدادي المعروف، وجاء في آخر الديوان توقيت الفراغ من نسخه بيوم الجمعة 23 رمضان 724 هـ، حيث كان تعليقه برسم الكاتب البارع أبي الفضل، بن صاحب القلم الأعلى أبي محمد عبد الله بن الشيخ أبي مدين العثماني، كتبه ــ بخطه ــ محمد بن أحمد بن عبد الله بن مسلم البجلي : خ، س 3878.

(301) التفاصيل في مجلة **دعوة الحق**، ع 1، س 12، ضمن دراسة يستوعبها الفصل الأول من الباب الرابع من هذا العمل.

وبهذا فإن أدب هذا العصر حافظ على مجموع الأغراض الأدبية القديمة، وأضاف لها أبوابا جديدة أو شبه جديدة في الأدب المغربي.

ومن الجدير بالذكر أن بعض هذه الأبواب الأدبية حقق تجاوبا مع الأحداث المعاصرة، كما هو واقع في أدب النكبات الأندلسية، وفي أدب المولديات والحجازيات.

* * *

وإلى هذا : نقدم ثمانية من مميزات الأدب المريني : نثره وشعره.

ونذكر ـ أولا ـ أنه تخلص من أكثر التأثيرات البعيدة عن الحياة المغربية.

ثانيا : تخلص من شعارات المهدوية والعصمة وما إلى ذلك من التقاليد الموحدية.

ثالثا : شيء من الليونة في الشكل والمضمون بالنسبة للعصر قبله.

رابعا : ظهور الزخرفة والصنعة الكلامية، وإن كانت لا تزال قليلة.

خامسا : قلة الأشعار في الهزليات والمجون.

سادسا : استخدام الشعر في نظم الكتب التعليمية[302] والوقائع التاريخية[303]، وأغرب ابن المرحل في هذا الصدد حتى نظم وثيقة صداق، بمناسبة قران أمير عزفي في سبتة[304].

سابعا : ظهور الازدواج اللغوي ولو أنه قليل، ولم يستخدمه سوى أبي فارس

(302) ساهم مالك ابن المرحل في هذا الاتجاه بنظم كتب منوعة، عددها في **جذوة الاقتباس** ص. 328، ط دار المنصور.

(303) **أرجوزة نظم السلوك في الأنبياء والخلفاء والملوك** لعبد العزيز الملزوزي، انظر عنها محمد المنوني، **المصادر العربية لتاريخ المغرب**، 66/1.

(304) احتفظ بنص هذا الصداق في **جذوة الاقتباس**، ص. 330-333، ونهج طريقة ابن المرحل أديب الرباط وعالمه : محمد بن محمد التهامي بن محمد بن عمرو، فنظم وثيقة زواج قاضي المدينة ذاتها : صالح بن قاضيها أحمد الحكموي : في **أرجوزة** وردت كاملة في مقدمة **سوق المهر إلى قافية ابن عمرو**، تأليف القاضي محمد بن عبد السلام السايح : المطبعة الاقتصادية بالرباط، ص. نا ـ ند.
وفي اتجاه آخر نشير إلى أبي حفص عمر بن الوردي، وقد نظم ـ في بحر الرجز ـ وثيقة شراء لقطعة أرض بغوطة دمشق، حيث جاء نصها عند ابن حجة الحموي في **ثمرات الأوراق** : المطبعة الوهبية بالقاهرة عام 1300 هـ، ص. 128.

الملزوزي، فيقول عنه ابن الخطيب[305] بعد ذكر اتصاله بالحكام المرينيين : «ووقف أشعاره عليهم... وخلط المعرب باللسان الزناتي في مخاطباتهم».

ثامنا : ظاهرة الاتجاه الشعبي في الاشتغال بالشعر الملحون، وكان من فحوله ـ في هذه الفترة ـ الزجال ابن شجاع التازي[306].

وسنستشف من بغض هذه المميزات : ما صار إليه الأدب المريني في العصر الأول من انحدار يسير بالنسبة للعصر قبله، ومع هذا فقد كانت هذه الظاهرة دون ما وصلت إليه الحالة في الشرق العربي، وهذا ما يلاحظه محمد رضوان الداية[307]، ويسجل أن المشرق كان أعجز عن اللحاق بأدباء المغرب.

* * *

وقد تنوع النثر الفني إلى أغراضه التقليدية، وظهر في الترسل والنثر التأليفي والخطابة.

وبالنسبة للكتابة الديوانية فإنها كانت غير منتظمة خلال العهود الأولى للدولة، وإنما انتظمت طريقتها من أيام أبي سعيد الأول، بمعرفة عبد المهيمن السبتي إمام هذه الصناعة[308].

وعن الخطابة : فإنها ساهمت مساهمة مذكورة في حملات الدفاع عن الأندلس، وبالخصوص عند موقعة الجزيرة الخضراء، عام 1279/678، حيث أسدى بعض خطباء سبتة خدمات مشكورة في تحريض المومنين، وإلهاب حماسهم[309].

وإذا كنا نجهل ـ الآن ـ أسماء هذه الطبقة من الخطباء، فنستطيع معرفة أسماء بعض الكتاب الديوانيين في شيء من التفصيل، ونحيل ـ في هذا الصدد ـ على تأليف ابن الأحمر الذي يحمل اسم **مستودع العلامة**[310].

(305) **الإحاطة**، م. س، 21/4.

(306) **مستودع العلامة**، م. س، ص. 49، وانظر **المقدمة** لابن خلدون المطبعة البهية المصرية، ص. 555-554.

(307) **مقدمة** نثير فرائد الجمان لابن الأحمر، ص. 57.

(308) **العبر** م. س، 248/7.

(309) القصد إلى بعض الخطباء في موقعة الجزيرة الخضراء، وكانت انتهت بانتصار المسلمين يوم 12 ربيع الأول 678 هـ، حسب **روض القرطاس**، ص. 239-240، وانظر، ص. 228-229 مع ص. 234.

(310) هو المشار له عند التعليق رقم 300.

وسيبقى ــ بعد هذا ــ معرفة الكتاب الديوانيين بالإمارة العزفية بسبتة، وهؤلاء توجد تفاريق من أسمائهم خلال كتب التراجم المعجمية.

* * *

والآن : نذكر أن هذا العصر خلف مؤلفات موضوعية متنوعة إلى مجموعات نثرية أو شعرية، وشروح أدبية، وكتابات في النقد الأدبي، مما يدل ــ بواسطة مجموع هذه الأثار ــ على أن الشعور الأدبي كان منتشرا بالمغرب المريني الأول.

وسيأتي في طليعة هذه المخلفات : المجموعات الأدبية، ومنها :

75 ــ **ديوان أبي فارس الملزوزي**[311].

ــ **وديوان مالك ابن المرحل** الذي جمع فيه عيون شعره وسماها **بالجوالات**، وهي تؤدي معنى المختارات.

ــ ديوان ثان لنفس الشاعر، ضمنه الصدور والمطالع من أشعاره[312].

قصائد نبويات وأخرى **زهديات** للشاعر ذاته[313].

76 ــ منتخب ترسيل أبي القاسم خلف القبتوري ومقطعات من شعره[314].

ــ **بغية المستظرف وغنية المتطرف من كلام إمام الكتابة ابن عميرة أبي المطرف**، لمحمد ابن هانئ السبتي، حيث جمع فيها الآثار النثرية وما يتخللها من الشعر من إنشاء أبي المطرف : أحمد بن عميرة المخزومي، ودونها في سفرين أتقن ترتيبهما[315].

(311) عن واقع ديوان الملزوزي يرجع إلى الأستاذ الجليل، عبد الله كنون، **ذكريات مشاهير رجال المغرب**، ج 9، ص. 35–36.

(312) هذا الديوان وسابقه ورد ذكرهما في ترجمة ابن المرحل، وهما ــ اليوم ــ غير معروفين، بعد أن كان منهما ديوان في خزانة القرويين مخطوط يحمل إسم **ديوان ابن المرحل** ثم ضاع منها، حسب «الخزانة العلمية بالمغرب» تأليف الأستاذ الكبير المرحوم محمد العابد الفاسي، ص. 32، مطبعة الرسالة بالرباط دون تاريخ.

(313) انظر محمد المنوني، **مجموعات مغربية في المدائح النبوية** مجلة **الثقافة المغربية** بالعدد 4 صفر 1391/1 أبريل 1971، ص. 90–93.

(314) منشور انظر **المصادر العربية لتاريخ المغرب** 81/1، تعليق

(315) لا تزال غير معروفة بالضبط، وعن المعروف من رسائل أبي المطرف بن عميرة يرجع إلى **المصادر العربية لتاريخ المغرب** 63/1.

ومن الشروح الأدبية نذكر :

77 ـ **شرح المقامات الحريرية** : لأبي الفضل السجلماسي[2/315].

ـ وشرح **نفس المقامات** لأبي عمران الزناتي المراكشي تلميذ الشارح قبله[3/315].

وعن النقد الأدبي نشير إلى نموذجين في هذا الصدد، ونذكر ـ أولا ـ تعقبات بين ابن عبد الملك المراكشي وابن رشيد السبتي، وقد انتقد أولهما قصيدتين لمالك ابن المرحل، حيث دافع عنه ابن رشيد ضدا على الانتقادات المراكشية، وسنوضح ذلك أكثر عند أوائل الفصل الثاني من الباب الثالث.

كما أن الرحالة العبدري كتب تعقبا على الرحلة المنظومة لابن الفكون القسمطيني، وأثبته ـ بجملته ـ أوائل رحلته، ص. 35ـ37.

ومن المؤلفات النقدية التي كانت متدارسة بالمغرب المريني الأول : كتاب **زهر الآداب وثمر الألباب** للحصري، وقد أثار هذا المؤلف اهتمام أديب مغربي من مدينة تازا : أبي الحسن ابن بري، فقام باختصاره وترتيبه في سفر متوسط، وسماه : **اقتطاف الزهر واجتناء الثمر**، وهو يشرح منهاج هذا المختصر في طالعته ويقول :

«وبعد : فهذا كتاب سميته **إقتطاف الزهر واجتناء الثمر** اختصرته من كتاب **زهر الآداب وثمر الألباب**... على وجه اخترته لنفسي... ضممت فيه الشكل إلى شكله، وأضفت الشيء إلى مثه.. وقد أسقطت كثيرا من الكلام المنثور، والشعر المستعلق غير المأثور، وربما أضفت زيادات يسيرة من غيره.»، فرع من تأليفه عام 679 هـ.

ومن حسن الحظ أن يستمر هذا المختصر المغربي على قيد الوجود، في أربع نسخ مخطوطة يتخللها بياض : إثنان بالمغرب : خ.س 374، 2544، وآثنان بدار الكتب المصرية : 14094ز و14417ز.

(2/315) وردت الإشارة لاسمه عند أبي عمران موسى الزناتي الأزموري في رسالة ألفها في **موضوع انتقال المهل من محل إلى محل**، مخطوطة ضمن مجموع يحمل رقم 1588 د، والغالب أن مؤلف هذا المصدر هو ابن البنا.

(3/315) جاء ذكره عند ترجمة مؤلفه عند ابن إبراهيم في **الإعلام** المطبعة الملكية 7/299ـ300.

تاسعا : الدراسات الريَاضيّة

مقدمة :

تستوعب الرياضيات العلوم العددية والهندسة والموسيقى، ثم تتفرع المادة الأولى إلى الأرتماطيقي، والحساب، والجبر والمقابلة، وحساب الفرائض، وحساب المعاملات : حسب تقسيم ابن خلدون للعلوم[316].

وبين المؤلفات التي كانت تستخدم في دراسة العلوم العددية خلال الفترة التي نعرضها : نشير إلى «**أرجوزة ابن الياسمين**» في الجبر[317]، و«**مختصر الجبر**»، لابن بدر الإشبيلي[318]، و«**تلخيص أعمال الحساب**» لابن البنا، ومن المبسوطات «**كتاب الحصار الصغير**»[319]، و«**رفع الحجاب عن تلخيص أعمال الحساب**» لابن البنا.

وفي حساب الفرائض: «**مختصر الحوفي**»[320]، و«**القصيدة التلمسانية**» [321].

* * *

(316) **المقدمة**، المطبعة البهية المصرية : ص. 418.

(317) مخطوطة ضمن شروحها بالخزائن المغربية.

(318) منشور في مدريد من سنة 1916 مع ترجمته الإسبانية : عن مخطوطة كتبها عبد الصمد بن سعد بن عبد الصمد بسجانة القصر من داخل مدينة فاس، وفرغ منها في 4 شوال 764 هـ، حلله قدري حافظ طوقان في **تراث العرب العلمي**، ص. 367 ـ 372، ثم في **مجلة المجمع العلمي العربي** : بالمجلد 32 ج 2، ص. 282 ـ 288.

(319) منه مخطوط في الظاهرية رقم 9760 ـ عام، منسوب لأبي بكر محمد بن عبد الله بن عياش الحصار، ولنفس المؤلف **البيان والتذكار في علم مسائل الغبار**: من مخطوطات خ، ع، ق 917، ونسخة أخرى في مكتبة ابن يوسف بمراكش 397، وثالثة في مكتبة الزاوية الحمزية 149 : ضمن مجموع.

(320) أضيف عنوانه لمؤلفه الحوفي : أحمد بن محمد بن خلف الكلاعي الإشبيلي ت 588 هـ، قال عنه ابن عبد الملك : «وله في الفرائض تصانيف : كبير ومتوسط ومختصر، وكل ذلك مما بلغ في إجادته الغاية...» : **الذيل والتكملة** : دار الثقافة في بيروت، السفر الأول رقم 608، لا يزال مختصر الحوفي مخطوطا : خ. ع، د 3203.

خ، ع، ك 1252.

خزانة القرويين، 497 : مبتور الأوائل.

(321) اسمها **تبصر البادي وتذكرة الشادي**، نظم أبي إسحاق التلمساني : إبراهيم بن أبي بكر بن عبد الله الأنصاري نزيل سبتة ت 697 هـ، وهي منشورة على حدة، وضمن بعض شروحها المطبوعة.

أما الطريقة التي يسير عليها المدرسون للمواد العددية : فكانت تعتمد الكتابة في اللوح أو الورق لإثبات التمارين الحسابية.

وهناك طريقة لا تستخدم فيها آلات الكتابة، وتعتمد على **الحساب الذهني وهو الحساب الهوائي**، فتعرف به كيفية حساب الأموال العظيمة في الخيال بلا كتابة، وكان هذا الحساب عظيم النفع للتجار في الأسفار، ولأهل الأسواق الذين لا يعرفون الكتابة، وللخواص إذا عجزوا عن إحضار آلات الكتابة[322].

وقد ألف في قوانين هذه الطريقة ابن الهائم : أحمد بن محمد بن عماد الدين بن علي المصري ثم المقدسي، ت 1412/815، وسمى موضوعه بـ «**بالمعونة**»[323]، ثم وضع لها مختصرا أول باسم «**الوسيلة**»[324]، وثانيا باسم «**المبدع**»[325]، وعلى الوسيلة شرح باسم «**إرشاد الطلاب إلى وسيلة الحساب**»، تأليف سبط المارديني : محمد بن محمد بن أحمد الدمشقي، ت 1501/907[326].

ويهمنا من هذه الطريقة أنها كانت معروفة بالمغرب خلال الفترة التي نعرضها، وكان يسير عليها أحد شيوخ الرياضيين بفاس : يعقوب بن موسى السيتاني آتي الذكر، فيرد في ترجمته[327] أنه كان ـ في تدريسه للفرائض والحساب ـ يصور المسائل في الهواء خاصة، ويشتد على من يحاول ـ من طلبته ـ رسم العمليات بالكتابة، إمعانا في تدريب المتعلمين على هذه الطريقة.

وننتقل ـ الآن ـ إلى عرض أصناف الأرقام التي كانت معروفة في هذا العصر، وتأتي في مقدمتها الأرقام الغبارية المغربية، وهي المتداولة في الترقيم المغربي.

---

(322) **مفتاح السعادة**، لطاش كبري زاده، مطبعة الاستقلال الكبرى بالقاهرة 393/1 ـ 394، مع **كشف الظنون**، تصوير مكتبة المثنى في بغداد بالأوفسيت ع 664.

(323) منها مخطوطة في دار الكتب الوطنية بتونس 4081، وفي دار الكتب الظاهرية خمس نسخ منها موصوفة في **فهرس الرياضيات**، ص. 41 ـ 44.

(324) منها مخطوطة بالظاهرية 4280 ـ عام، وأخرى بمكتبة الأوقاف العامة في بغداد 12241.

(325) أشار له السخاوي عند ترجمة ابن الهائم من **الضوء اللامع**، نشر مكتبة القدسي بالقاهرة 1354 هـ ـ 157/2 ـ 158.

(326) من مخطوطات الظاهرية 9218 ـ عام.

(327) **جذوة الإقتباس**، لابن القاضي : دار المنصور للطباعة والوراقة بالرباط 1974 ـ رقم 650، مع **نيل الابتهاج**، ص. 349.

ثم الأرقام الغبارية الهندية المستعملة في الترقيم المشرقي، وهي الغالبة في تعمير جداول الأوفاق[328] بالمغرب.

الثالث : حساب الجُمّل : بالحروف الأبجدية، وبه ترسم الحسابات الفلكية، وأحيانا يستعمل في الرياضيات.

الرابع : الأرقام الرومانية التي تطورت إلى القلم الفاسي أو الزمامي، وتستخدم في حسابات الوثائق العدلية : بالتركات وتقدير النفقات... ومرات في تاريخ المنتسخات وترقيم صفحاتها[329]...

الخامس: «حساب العقود»: (عقود الأصابع)، ويسمى ـ أيضا ـ «حساب اليد»، و«حساب الأصابع»، وكان في الأصل اصطلاحا للعرب تواضعوه بينهم في معاملاتهم، وانتقل استعماله إلى بعض الأحاديث والأشعار، للتعبير عن أعداد تؤدى بهذا الحساب، ومن ذلك حديث «عقد ثلاثة وخمسين» عند مسلم : في كيفية وضع اليد عند التشهد، وفي حديث ياجوج وما جوج عند البخاري : «وعقد سفيان تسعين أو مائة»، وعند مسلم : و«عقد سفيان عشرة»[330]، ومن هنا صار هذا الحساب يتدخل في بعض الدراسات الحديثية والأدبية بالمشرق والمغرب على السواء.

وذلك ما حفز المختصين إلى تدوين قواعده، فوضعوا بإزاء كل من عقود الأصابع عددا مخصوصا، ثم رتبوا ذلك آحادا وعشرات ومئات وألوفا وعشرات

---

(328) لابن الياسمين، «تلقيح الأفكار في العمل برسوم الغبار»، مخطوط خ، ع، ك 222، حلله وترجم لمؤلفه الأستاذ الكبير عبد الله كنون : في مجلة **البحث العلمي** بالعدد الأول، ص. 181 ـ 190 سنة 1383/ 1964، ومنه مخطوطة أخرى خ، ع، د 3193.

(329) من الدراسات في رسوم هذا الحساب وقواعده : «1» رسالة ابن البنا، و«2» رسالة الصباغ : خ، س 12032 : ضمن مجموع، ثم «3» أرجوزة أبي السعود عبد القادر الفاسي، و«4» شرحها باسم **إرشاد المتعلم والناسي، في صفة أشكال القلم الفاسي**، تأليف القاضي أحمد سكيرج، منشور بالمطبعة الحجرية الفاسية دون تاريخ، و«5» له ترجمة فرنسية من عمل المستعرب ڤيالا، نشرت في مطبعة الجزائر سنة 1917، و«6» للمرحوم محمد السراج بحث بعنوان **الطابع العربي في الأرقام الرياضية**، منشور في مجلة **اللسان العربي** بالعدد 3، ص 64 ـ 70 سنة 1385/1965، ولرشوم هذا الحساب إشارة عند الونشريسي في **المعيار** ط، ف 142/10.

(330) **مفتاح السعادة** 394/1 ـ 395، مع **كشف الظنون** ع 664 ـ 665، وانظر ابن حجر في **فتح الباري** : المطبعة الخيرية 88/13، مع البغدادي في **خزانة الأدب** 147/3.

الألوف، حتى يمكن تأدية ذلك كله باليد الواحدة، ومما يشير لنفاق هذا الحساب بالمغرب : وجود أرجوزتين في قواعده ببعض الخزانات المغربية :

ـ «أرجوزة لوح الضبط...» نظم علي بن محمد المغربي :[331] في خزانة القرويين 2/1198 : 53 بيتا.

ـ (نسخة أخرى منها : خ، ع، ك 3/1070.

ـ أرجوز» لمشرف بن قظرف خ، ع، د 1588 ضمن مجموع : 36 بيتا.

ومن الجدير بالملاحظة أن الوضع الأول للحساب الروماني كان على حساب اليد في معظم أعداده، فالواحد يرمز له بأصبع واحد I، والإثنان بأصبعين II، والثلاثة بثلاثة أصابع III، والخمسة بيد واحدة V...

ويذكر الصولي عن الكتاب في عصره أنهم اختاروا حساب العقود، فاستخدموه بدلا عن الحساب الهندي، ورأوا أن ما قلّت آلته، وانفرد فيه الإنسان بآلة من جسمه، كان أذهب في السر، وأليق بشأن الرياسة... «**أدب الكتاب**» : المطبعة السلفية بمصر ص 239، حيث يوجد بهذه الصفحة تعليق موضوعي مهم.

* * *

بعد هذا التقديم ينتهي بنا المطاف إلى عرض ملامح من نشاط الرياضيات في مغرب العصر الوسيط الرابع، ويمتد إلى أيام الدولة المرينية، حيث تنقسم هذه الفترة إلى ثلاثة عصور فرعية :

العصر الأول من بداية الدولة : 1269/668، إلى وفاة أبي سعيد المريني الأول : 1331/731.

ومن هذا التاريخ يبتديء العصر الثاني : لينتهي عند 1358/759.

العصر المريني الثالث من التاريخ الأخير، إلى نهاية الدولة 1465/869، وعلى هذا الترتيب تسير عروض الدراسة.

* * *

(331) تصحف اسمه بابن الحربي في كل من مفتاح السعادة وكشف الظنون.

العصر المريني الأول
668 ـ 731
1269 ـ 1331

أولا : العلوم العددية :

أ ـ الحساب والجبر :

ـ «**تلخيص أعمال الحساب**» لابن البنا : أحمد بن محمد بن عثمان الأزدي المراكشي، المتكرر الذكر.

والكتاب يتناول أكثر المسائل العددية : من أعمال الصحيح، إلى الكسور، إلى الجذور، وفي جزئه الثاني : قوانين استخراج الأعداد المجهولة بواسطة العمل بالنسبة وبالكفات، ثم الجبر والمقابلة، وهو منشور كما سنتبين.

ـ ومن شروحه تعليق المؤلف باسم «**رفع الحجاب عن تلخيص أعمال الحساب**»، ويقول عنه ابن خلدون :[332] «وهو كتاب جليل القدر، أدركنا المشيخة تعظمه، وهو كتاب جدير بذلك»، ثم يقول عنه ابن هيدور : «وهو سفر صغير كثير المنفعة».

ومن نسخه المخطوطة خ، س 2186 : أول مجموع.

وأخرى في خزانة الجامع الكبير بوزان 1188 : أول مجموع.

وعلى تلخيص أعمال الحساب تتركز أكثر : دراسات الحساب والجبر، وقد صار معتمد الدارسين لهذه المادة بالمغرب وخارجه، وسيطر على الحلقات التعليمية، والمؤلفات الشارحة لمسائله في هذا العصر وبعده.

ومن الواضح أن هذه المؤلفات ـ في غالبيتها ـ تنبثق عن مذكرات الشيوخ التي يعدونها لإلقائها على طلابهم، ولذلك فهي تعبر عن منهجية تلخيص ابن البنا في ميداني التعليم والتأليف، ونستعرض ـ الآن ـ 28 من الدراسات حوله :

78 ـ «**اللباب في شرح تلخيص أعمال الحساب**»، تأليف المسراتي : عبد العزيز بن علي بن داود الهواري، ت حدود 745/[333] 44ـ1345، وهو من تلاميذ

(332) **المقدمة**، ص. 422.

(333) **هدية العارفين...**، تأليف إسماعيل باشا البغدادي، تصوير مكتبة المثنى في بغداد بالأوفسيت، ع 582، ونقل عن المسراتي ابن غازي في شرح المنية ـ آتي الذكر ـ ص. 7 من الملزمة 21، ط. ف.

ابن البنا، ويبدو من بعض فقرات الشارح أنه مغربي، وقد يكون منسوبا إلى بني مسرت : فخذ من قبيل مديونة قبلي فاس(334).

منه مخطوطة خ، ع، ق 846.

وأخرى خ، س 2186 ضمن مجموع، وخالية من إسم المؤلف.

وثالثة في مكتبة الزاوية الحمزاوية ثانية مجموع رقم 145.

إلى نسخ أخرى في تونس والظاهرية والإسكوريال وأكسفورد.

79 ـ «**تحصيل المنى في شرح تلخيص ابن البنا**»، تأليف المواحدي: يعقوب بن أيوب بن عبد الواحد الجزولي، كان حيا عام 1382/784.

يشير في افتتاحيته إلى أنه أخذ تلخيص ابن البنا في حاحة سنة 755 هـ، ثم اضطلع بتدريسه سنة 761 هـ، ويذكر في طالعة كتابه الآخر : «**نزهة العقول الذكية**» ـ آتي الذكر ـ أنه جمعه ببلد فشتالة (من تادلا) سنة 784 هـ.

من مخطوطات خ، ع، د 2807.

خ، ع، ق 1081 : أول مجموع.

مكتبة الزاوية الحمزية : أول مجموع رقم 145.

الخزانة الناصرية بتمكروت أول مجموع رقم 3046 : مبتور الأول.

80 ـ «**التمحيص في شرح التلخيص**» لابن هيدور : علي بن عبد الله بن محمد التادلي ثم الفاسي، ت 816/«1413»(335).

خ، ع، ج 112.

خ، ع، ج 862.

خ، س 252 : في سفرين.

خ، س 2425 : مبتور ـ يسيرا ـ من أوله وآخره.

خزانة الجامع الكبير بوزان 1188 : ثاني مجموع.

(334) انظر عبد الله كنون في كراسة ترجمة عثمان السلاجي، رقم 11 من سلسلة **ذكريات مشاهير رجال المغرب**، مطبعة كريماديس بتطوان : ص. 6.

(335) ترجمته عند الكتاني في **سلوة الأنفاس**...، ط، ف ـ 311/3، وسنكتفي بهذا المصدر في هذه الترجمة وأشباهها، حيث يذيل التراجم بتحديد مصادرها.

ـ ولابن هيدور «**تقييد على رفع الحجاب**»لابن البنا باسم «**إيضاح سر الحساب**»، ولا يعرف ـ الآن ـ من خلال إشارة المؤلف له في شرحه «**التمحيص**»، ثم من جهة ذكره عند ابن القاضي[336].

* * *

ـ ومن الشروح على تلخيص ابن البنا خارج المغرب : «**شرح ابن زكرياء**» : محمد بن زكرياء الغرناطي، كان بقيد الحياة بعد 773/ 71ـ1372»[337]، ثم توفي سنة 806/03ـ1404.

مخطوط في اكسفورد، ومنه نسخة عتيقة مبتورة الطرفين : في خزانة خاصة بالرباط.

ـ «**حط النقاب عن وجوه أعمال الحساب**» لابن قنفذ : أحمد بن حسن بن علي ابن الخطيب القسمطيني، ت 810/1407ـ1408، وقد تكرر ذكره[338].

من مخطوطات خ، ع، د أول مجموع رقم 423، ونسب ـ غلطا ـ لابن هيدور في فهرس بروفنسال.

خ، ع، د : أول مجموع رقم 1678.

خ، ع، د : أثناء مجموع رقم 2313.

خ، ع، د : رقم 2429.

خ، ع، د : رقم 2955.

خ، ع، ك : ثاني مجموع رقم 1070.

ـ واختصر ابن قنفذ من حط النقاب شرحا وجيزا باسم «**التخليص في شرح التلخيص**».

خ، ع، ق : خامس مجموع رقم 939.

(336) **درة الحجال...**، نشر دار التراث بالقاهرة رقم 1280، مع **جذوة الاقتباس**، رقم 528.

(337) **ألف سنة من الوفيات**، دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، ص. 92، والقصد إلى شرف الطالب لابن قنفد، حيث أشار إلى مرور ابن زكرياء بفاس بعد سنة 773 هـ، ثم ذكره ابن القاضي في **لفظ الفرائد**، مسميا له بأبي بكر يحيى بن عبد الله بن زكرياء القاضي، وأرخ وفاته بعام 806 هـ، حسب **نفس المصدر**، ص. 233، غير أن تسميته بمحمد هي الواردة في مخطوط عتيق من شرحه للتلخيص.

(338) مصادر ومراجع ترجمته عند عادل نويهض في **معجم أعلام الجزائر**، نشر مؤسسة نويهض الثقافية في بيروت ـ ص. 268 ـ 269.

الخزانة الناصرية بتمكروت : رابع مجموع رقم 1753.

ـ «**شرح تلخيص أعمال الحساب**» تأليف العقباني : سعيد بن محمد بن محمد التلمساني، ت 1408/811.

ولا يعرف ـ الآن ـ إلا من خلال ذكره في ترجمة مؤلفه[339].

ـ «**حاوي اللباب شرح تلخيص ابن البنا في الحساب**» لابن المجدي : أحمد بن رجب بن طيبغا القاهري، ت 1446/850[340]، من مخطوطات مكتبة الأوقاف العامة في بغداد رقم 5505[341].

ـ «**شرح تلخيص أعمال الحساب**» تأليف الحباك : محمد بن أحمد بن أبي يحيى التلمساني، ت 1463/867.

مذكور عند ترجمة مؤلفه[342]، ومنه مخطوطة في خزانة خاصة بفاس.

ـ «**شرح تلخيص أعمال الحساب**» للغربي : محمد بن أحمد بن حسن[343] ؟

خ، ع، د : رابع مجموع رقم 328.

ـ شرحان مطول ومختصر على تلخيص أعمال الحساب : كلاهما من تأليف القلصادي : علي بن محمد بن محمد القرشي، الأندلسي البسطي، ت 891/ 1486[344].

ويجمعهما ـ معا ـ مجلد من مخطوطات المكتبة الوطنية بباريس رقم 2464، ويحمل ثانيهما إسم «**تقريب الأقصا من مسائل ابن البنا**».

ومن الشرح المختصر وحده : مخطوطة خ، ع، ك : أول مجموع رقم 1070.

---

(339) المصدر، ص. 236 ـ 237، على أن البعض يشير إلى نسخة منه بالاسكوريال رقم 935.

(340) ترجمته عند السخاوي في **الضوء اللامع** 300/1 ـ 302.

(341) **الكشاف عن مخطوطات الأوقاف**، ص. 210، مع **فهرس المخطوطات العربية في مكتبة الأوقاف العامة ببغداد** 102/4 ـ 103.

(342) **معجم أعلام الجزائر**، ص. 119 ـ 120.

(343) عند الونشريسي في **المعيار**، ط، ف 31/4 : «وسئل الفقيه الغربي شارح تلخيص ابن البنا...»، ولا تعرف له ترجمة.

(344) له ترجمة موسعة عند التنبكتي في **نيل الابتهاج**، م.س.، ص. 209ـ210.

ـ ونختم هذه اللائحة بالإحالة على شرح لم يذكر مؤلفه، ويحمل إسم : «**تخصيص أولي الألباب في شرح تلخيص أعمال الحساب**».

من مخطوطات المكتبة العامة بتطوان رقم 844.

* * *

تنتقل ـ الآن ـ إلى لون آخر من اهتمامات المختصين بتلخيص ابن البنا، ويأتي ذلك عن طريق نظم مسائله في أرجوزات، قصدا لتسهيل تحصيله بواسطة ترجيزه.

ـ وكان أول ما ظهر من ذلك «**نظم تلخيص أعمال الحساب**» لابن مرزوق الحفيد : محمد بن أحمد بن محمد العجيسي التلمساني، ت 1438/842.

ولا يعرف ـ الآن ـ إلا من خلال ذكره عند ترجمة ناظمه[345].

ـ ثم «**منية الحساب**» لابن غازي : **محمد بن أحمد بن محمد العثماني** المكناسي نزيل فاس، ت 1513/919[346].

ـ «**نظم تلخيص أعمال الحساب**» للونشريسي : عبد الواحد بن أحمد بن يحيى الفاسي، ت 1549/955[347].

أشار له ابن القاضي[348]، وذكره الصباغ واقتبس منه ستة أبيات أثناء باب جمع العدد الصحيح من شرحه لمنية الحساب آتي الذكر.

غير أن الباقي من هذه المنظومات هي أرجوزة «**منية الحساب**» لابن غازي : 439 بيتا، وإلى جانب أصلها : استمرت عمدة الدارسين للرياضيات من عصر ناظمها حتى مطالع القرن العشرين، ويعرف ـ الآن ـ من التعليقات عليها أربعة :

ـ شرح المؤلف باسم «**بغية الطلاب في شرح منية الحساب**»: منشور بالمطبعة الحجرية الفاسية من عام 1317 هـ : 248 ص في قطع متوسط، ومن مخطوطاته واحدة خ، س 9966 بخط محمد العربي بن أحمد بنيس، أخ محمد بنيس مؤلف نزهة ذوي الألباب، آتية الذكر.

---

(345) معجم أعلام الجزائر، ص. 290 ـ 292.
(346) سلوة الأنفاس، 73/2 ـ 74.
(347) المصدر، 146/2 ـ 148.
(348) درة الحجال رقم 1094، مع سلوة الأنفاس 147/2.

ـ «**إدراك البغية لحل ألفاظ المنية**» : إسم شرح منية الطلاب للصباغ : محمد بن أحمد العقيلي، المكناسي ثم الفاسي، ت 1666/1076[349].

من مخطوطات خ، ع، د 114.
خ، ع، د 1/2290.
خ، ع، د 2943
خ، ع، ج 118.
خ، س 3214 : متلاشية.
مكتبة الزاوية الحمزاوية 194 : مبتورة الآخر.

ـ «**نزهة ذوي الألباب، وتحفة نجباء الأنجاب**» : اسم حاشية على بغية الطلاب لابن غازي : تأليف بنيس : محمد بن أحمد بن محمد الفاسي، ت 1314/ 1899[350].

منشورة بالمطبعة الحجرية الفاسية على هامش بغية الطلاب، سابقة الذكر.

ـ «**حاشية على بغية الطلاب**» لابن غازي : تأليف أقصبي : محمد بن الحاج عبد المجيد بن عبد الرحمن الفيلالي ثم الفاسي، ت 1945/1364[351].

من مخطوطات خ، س 7041 : مسودة المؤلف، وغير تامة التأليف.

* * *

ـ وإلى ما تقدم نضيف مختصر تلخيص أعمال الحساب باسم «الحاوي»[352]، تأليف ابن الهائم : أحمد بن محمد بن عماد الدين بن علي المصري ثم المقدسي، سابق الذكر.

ـ نظم الحاوي[353] لابن الصيرفي : أحمد بن صدقة بن أحمد العسقلاني المكي ثم القاهري ت 1500/905.

(349) **سلوة الأنفاس** 239/1.
(350) **المصدر** 204/1 ـ 205.
(351) له ترجمة في جريدة **السعادة** بالعدد 6499 : السنة 42 : بتاريخ الخميس 28 رمضان 6/1364 شتنبر 1945.
(352) جاء ذكره خلال ترجمة مؤلفه من **الضوء اللامع** 157/2، ثم في كشف الظنون ع 629.
(353) في ترجمة مؤلفه من **الضوء اللامع** 316/1 ـ 319، مع **كشف الظنون**، ع 629.

ـ شرح الحاوي[354] لابن الصيرفي.

* *

هذا إلى إشارتين لتلخيص أعمال الحساب ومنية الحساب وهما بين الكتب التعليمية خارج المغرب.

ـ فمن تونس الرصاع : محمد بن قاسم الأنصاري، ت 1489/894.

وكان بين أساتذته عالم مغربي استوطن تونس، حيث سيرد ذكره عند العصر 3.

ـ ويترجم المحبي[355] لأبي بكر بن علي بن أبي بكر الأنصاري الخزرجي المكي، ت 1598/1006.

فيشير إلى محفوظاته التعليمية في طور الطلب، ويذكر بينها منظومة ابن غازي في الحساب.

* * *

ـ وخلال القرن التاسع عشر بدأ في أوروبا الالتفات لتلخيص أعمال الحساب، وكان من أوائل المهتمين به المستشرق الفرنسي أريستيد مار، فنشره ـ في روما ـ نصا عربيا وترجمة فرنسية سنة 1865[356].

ـ غير أن الدكتور التونسي محمد سويسي أبدى حول هذه الترجمة ملاحظات، فكانت المبرر لإعادة ترجمة تلخيص أعمال الحساب إلى الفرنسية، ثم نشر النص والترجمة مع تقديم وتحقيق، وصدر ذلك عن المطبعة الرسمية بتونس 1969 : النص العربي 86 ص، والترجمة 112 ص.

* * *

وقد أكملت هذه الترجمة 28 من المؤلفات حول تلخيص أعمال الحساب، وهذا مع رفع الحجاب : كلاهما من تأليف ابن البنا كما تبينا، ويضاف لهما من مؤلفاته الحسابية :

---

(354) **الضوء اللامع** عند ترجمة مؤلفه المشار لها.

(355) **خلاصة الأثر...**، المطبعة المصرية الوهبية 1284 هـ 88/1.

(356) نجيب العقيقي : **المستشرقون**، نشر دار المعارف بمصر 1964 : 219/1.

ـ «**كتاب الجبر والمقابلة**»، ويعرف بـ «**بالأصول والمقدمات**»، لخصه من كتاب القرشي.

ـ «**المقالات الأربع**» في العدد، من مخطوطات دار الكتب الظاهرية رقم 3077 ـ عام.

ـ «**القوانين**» في العدد.

ـ «**القوانين**» في العدد : في كراس واحد حسب تقدير ابن قنفذ، وفي دار الكتب الوطنية بتونس مخطوط آخر مجموع رقم 345، ويحمل اسم «**مسائل في الأعداد**»، وقد يكون أحد رسالتي القوانين في العدد.

ـ «**رسالة في ذوات الأسماء والمنفصلات**».

ـ «**رسالة في العمل بالعدد الرومي**»(357)، من مخطوطات خ،ع،ك 1061 : أول مجموع، ونسخة أخرى خ، س 12032 : في مجموع.

ب ـ حساب الفرائض :

وقد سار المؤلفون في الفرائض على أن يجعلوا هذه المادة هي القسم الثاني بعد فقه الفرائض، وفي هذا الاتجاه نشير ـ أولا ـ إلى ثلاثة أوضاع من تأليف جمال الدين الصودي : عبد الله بن أبي بكر بن يحيى السوسي الجزولي الجذميوي، سابق الذكر مع أوضاعه الفرضية الأربعة، عند الفصل الأول من الباب الثالث.

ـ وهذه خمس مؤلفات لابن البنا، انطلاقا من «**كتاب عمل الفرائض**».

ـ ثم «**الفصول في الفرائض**» : كراسة من 12 فصلا من مخطوطات خ، ع، ج 249 : في ثمان ورقات أثناء مجموع، مع خ.س 188 رابعة مجموع ص. 197-206.

---

(357) ـ جاء ذكر هذه المؤلفات ـ كلا أو بعضا ـ بالمصادر التالية :
ـ مقدمة **حط النقاب عن وجوه أعمال الحساب**، لابن قنفد : خ، ع، د 423.
ـ مقدمة **التمحيص في شرح التلخيص**، لابن هيدور : خ، ع، ج 862.
ـ **درة الحجال**، لابن القاضي : الترجمة رقم 17.
ـ **جذوة الاقتباس**، لابن القاضي : الترجمة رقم 99.
ـ **نيل الابتهاج**، للتنبكتي، ص. 66.

ومخطوطة ـ أيضا ـ ضمن شرحها آتي الذكر[358] باسم «**نزهة العقول الذكية في شرح الفصول الفرضية**» ليعقوب الجزولي المواحدي.

ـ «**شرح بعض مسائل الحوفي**».

ـ «**مقالة في الإقرار والإنكار**».

ـ «**تلخيص في أحوال المدبر في سائر التركات**»[359].

وإلى ابن البنا نشير إلى :

ـ «**غنية الرائض في علم الفرائض**» تأليف ابن الشاط : القاسم بن عبد الله بن محمد الأنصاري السبتي، سابق الذكر.

ـ مخطوطة ضمن شرحها للقلصادي في خزانة القرويين رقم 1/1198[360].

* * *

ـ **ومن الفرضيين الحسابيين الذين لم يؤلفوا فيها : الطنجي : علي بن عبد** الرحمن بن تميم اليفرني المكناسي اللقب، الفاسي ـ البلد، سابق الذكر، عند رقم **56**.

* * *

ونختم عروض حساب الفرائض بإشارة لأبي القاسم التجيبي[361]، وهو يلاحظ فيها تخصص الجزوليين في الفرائض وتحصيلها وما يتعلق بها.

ج ـ حساب المعاملات :

ـ ألف فيه ابن البنا «**مقالة في مقادير المكاييل الشرعية**»[362].

---

(358) أول موضوع حساب الفرائض في العصر 3.

(359) جاء ذكر هذه المؤلفات في **جذوة الاقتباس** : الترجمة رقم 99، مع **نيل الابتهاج**، ص. 66. وإثنان منها عند ابن قنفد في **حط النقاب**.

(360) **فهرس مخطوطات خزانة القرويين** 3/275 ـ 277، ولابن علاق عالم غرناطة شرح على نهاية الرائض، أشار له المجاري في **برنامجـه**، ص. 122.

(361) نقلها عن **رحلة أبي** القاسم التحيبي في **نيل الابتهاج**، ص. 141.

(362) مقدمة **حط النقاب** لابن قنفد، مع مقدمة **التمحيص**، لابن هيدور، ثم **جذوة الاقتباس**، رقم 99، **ونيل الابتهاج**، ص. 66.

ثانيا : **الهندسة** :

ـ القاضي الشريف شهرة لا نسبا : محمد بن علي بن يحيى المراكشي، المتقدم الذكر.

ذاكره ابن البنا في مسائل من كتاب الأركان لأوقليدس...[363].

ـ ولابن البنا في هذه المادة ثلاث مؤلفات : أولها : رسالة في المساحة مختصرة.

ـ ثم كتاب في المساحة مطول[364].

ـ وثالثا : مقدمة على كتاب أوقليدس[365].

ومن الرسالة المختصرة في المساحة نسختان ضمن مجموعتين خ، س 4748، 5415[366].

ونذيل على مؤلفات ابن البنا في الهندسة بفقرة لابن قنفذ[367] يقول فيها : «سمعت أن الشيخ أبا عبد الله الأبلي ـ رحمه الله ـ قصده (ابن البنا) ليقرأ عليه، فلما اجتمع به قال له يا سيدي : ما جئتك حتى حصلت على المنطق وعلم الهندسة لأفهم بهما ما عندك، قال : ووجدته يقرأ علم المخروطات، كذا حدثني بعض أصحاب الأبلي رحمه الله، وعلم المخروطات أعلى المراتب من علم الهندسة، ولهذا كانت القدماء تسمي أشكاله الأشكال العجيبة».

---

(363) **جذوة الاقتباس** : الترجمة رقم 99، مع **نيل الابتهاج**، ص. 66.

(364) المؤلفان معا أشار لهما في مقدمة **التمحيص**، واقتصر مؤلفا كل من **جذوة الاقتباس ونيل الابتهاج** على ذكر جزء في المساحات.

(365) المصادر الثلاثة، مع **حط النقاب**.

(366) هذه الرسالة هي التي نظمها ابن ليون في **أرجوزته في التكسير**، منها مخطوطة خ، ع، د 1588 ضمن مجموع، وللأرجوزة شرحان مغربيان : تأليف أحمد ابن القاضي، ثم محمد بن أبي القاسم ابن القاضي، انظر التفاصيل عند محمد المنوني : **أساتذة الهندسة ومؤلفوها في المغرب السعدي**، مجلة **دعوة الحق** : العدد الثاني من السنة التاسعة، ص. 102 ـ 104.

(367) مقدمة **حط النقاب**.

81 ـ يضاف لهذه اللائحة اليهودي خلوف المغيلي شيخ التعاليم بفاس، حيث أخذ عنه الأبلي فنونها حتى استوفاها وحذق[368].

* * *

العصر المريني الثاني
731 ـ 759
1331 ـ 1358

تابعت الرياضيات نشاطها في مغرب العصر المريني الثاني، وطغى عليها ـ أكثر ـ مادة حساب الفرائض حسب النموذجين التاليين :

82 ـ المسراتي : محمد بن علي بن داود الهواري، كان حيا عام 1347/748، وهو أخ عبد العزيز سابق الذكر عند رقم 78.

ألف «**نزهة الرائض في علم الفرائض**»، ورتبه على خمسة كتب تساير أبواب الفرائض، وقد درس هذه المادة على شيخه الطنجي : علي بن عبد الرحمن اليفرني، سابق الذكر، فقرأ عليه مختصر الحوفي حتى فهمه بين يديه، ثم فرغ من تأليف **نزهة الرائض** آخر ربيع الثاني 748 هـ[369].

من مخطوطات خ، س 8389.

2/82ـ السطي : محمد بن علي بن سليمان الفاسي، سابق الذكر.

كان ـ حسب الونشريسي[370] ـ «له اليد الطولى في فهم مختصر الحوفي وإقرائه وحل عقده»، وقد أخذه الناس عنه بالمغرب والجزائر وتونس، ويقول المجاري[371] عند ترجمة القاضي سعيد العقباني :

«أخبرني أنه قرأ عليه (السطي) جميع كتاب الحوفي : قراءة تفقه وتحقيق لأحكامه الفقهية، وتصوير لأعماله الجزئية، وذلك في شهر».

---

(368) **التعريف بابن خلدون** ط. لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة، ص. 36.
(369) لا تعرف للمؤلف ترجمة، والمعلومات المذكورة عنه مقتبسة من شرحه الذي نعلق عليه.
(370) **ألف سنة من الوفيات**، ص. 117.
(371) **برنامج المجاري**، نشر دار الغرب الإسلامي في بيروت سنة 1982 : ص. 130.

قال : «وكان رفيقي السيد أبا عبد الله الشريف التلمساني، وكان شيخنا السطي لم يشتغل بالهندسة إلا قليلا، فكان يسألنا عن براهين بعض المسائل، ومن أي شكل تخرج من أوقليدس، فكان رفيقي أبو عبد الله الشريف يسبقني تارة، وأسبقه أخرى، وفي بعض السؤالات أنطق أنا وهو بالجواب في وقت واحد».

وكانت قراءة العقباني ورفيقه على السطي في المنصورة التلمسانية أيام حصار تلمسان[372].

وعن ابن عرفة يقول المجاري[373] وهو يترجم له : «ومن شيوخه الشيخ الفقيه الحافظ أبو عبد الله محمد بن سليمان السطي، قرأ عليه جملة من كتاب التهذيب قراءة بحث ونظر، وجميع كتاب القاضي أبي القاسم الحوفي قراءة بحث وتحقيق لأحكامه الفقهية، وتصوير لأعماله الجزئية، بأنواع أعماله الثلاثة : العدد والكفات والجبر والمقابلة، إلا يسيرا من آخر باب الولاء».

وفي تعبير الرصاع[374] عن ابن عرفة : «ثم لما قدم الشيخ السطي ـ رحمه الله ـ مع السلطان أبي الحسن : اجتمع (ابن عرفة) به، وطلب منه أن يقرأ عليه الحوفي فقال له : إني لا أجد محلا للإقراء إلا في ساعة بين الظهر والعصر في باب جامع القصبة العلية، فكان الشيخ ـ رحمه الله ـ يبكر ويجلس هنالك ينتظره، فإذا قدم فتح عليه الكتاب وقرأ عليه...».

وإلى الرصاع نعقب بفقرة عن ابن عرفة والعقباني وتلميذ ثالث للسطي، فيقول عنهم ابن غازي :[375] «من تلامذة السطي الشيخ ابن عرفة : قرأ عليه الحوفية عند باب دار أبي الحسن المريني من حضرة تونس المحروسة، في خلال ما ينتظر الشيخ خروجه في وقت معلوم من كل يوم كان يلقاه فيه.

ومنهم أبو عثمان العقباني : قرأها عليه بالمنصورة حين كان بها مع أبي الحسن المريني.

---

(372) من «تقييد» كتبه أحمد بن الحسين بن أطاع الله على الصفحة الأولى من شرح مختصر الحوفي للعقباني : مخطوط في خزانة خاصة بفاس.

(373) **برنامج المجاري**، ص. 145.

(374) شرح حدود ابن عرفة : المطبعة التونسية سنة 1350 هـ : ص. 534.

(375) **الجامع المستوفي بجداول الحوفي** : مخطوط خ، س 10136 ورقة 3/ب ـ 4/أ.

ومنهم حمامة النفزي : كان يأتي الشيخ السطي بما يتضمنه مجلسه مما يحتاج إلى تفسير من الحوفية مكتوبا في لوح، فينطلق به حمامة فينقله، حتى كمل منه الشرح الذي بأيدي الناس...».

والشرح المشار له هو الذي علق به السطي على مختصر الحوفي، وهو شرح جليل نوه به ابن خلدون[376] ،ومنه مخطوطة خ، ع، ق 635 : في مجلد ـ من 359 ص، ويشتمل على جزءين : الأول ينتهي آخر باب قسمة التركات عند ص 186، والثاني : يبتدي من باب المدبر إلى آخر الكتاب عند نهاية باب الولاء : عند ص 359.

ومنه مخطوطة أخرى خ، س 12100 : في سفر مبتور الآخر.

ومن الجدير بالذكر أن البعض يضيف لأثار السطي جدولا شاملا للوارثين على اختلاف درجاتهم، وهو منشور، انظر الملحق 2.

* * *

وإلى نشاط حساب الفرائض في هذا العصر : نشير إلى مؤلف في مادتي الحساب والجبر لعبد العزيز المسراتي : «**اللباب في شرح تلخيص أعمال الحساب**»، وهو الذي سلف ذكره في هذا العرض بين شروح تلخيص أعمال الحساب لابن البنا عند رقم 78.

هذا إلى أن كتاب «**الأصول**» لأوقليدس أقرأه بفاس ـ في الفترة ذاتها ـ الشريف التلمساني : محمد بن أحمد بن علي العلواني : برسم ولده عبد الله[377].

* * *

العصر المريني الثالث
759 ــ 869
1358 ــ 1465

لمع في هذا العصر زمرة من أعلام الرياضيين، كمعطيات لنشاط هذه المادة في العصرين قبله.

---

(376) **المقدمة**، ص. 423.

(377) نيل الابتهاج ص 151.

أولا : **العلوم العددية** :

أ ـ **الحساب والجبر** :

83 ـ ابن نبيل السبتي[378].

84 ـ تلميذه ابن الشماع : أحمد بن محمد بن إبراهيم الأوسي المراكشي، ت 1377/779، وصفه السراج بالإمامة في الفرائض والحساب[379].

85 ـ تلميذ ابن الشماع : أبو يحيى أبو بكر الشريف الحسني الإدريسي قاضي سبتة، ت 1407/809.

86 ـ وهو أستاذ مؤلف بلغة الأمنية ومقصد اللبيب.... فيذكر بين ما أقراه بسبتة «الحصار»، والتلخيص لابن البنا، والجبر والمقابلة لابن بدر[380].

87 ـ محمد بن أبي بكر الفاسي، استوطن تونس، وكان من الآخذين عنه بها محمد بن قاسم الرصاع، فيقول عنه في فهرسه :[381] «...وقرأت عليه بلفظي كتاب ابن البنا ـ مرتين ـ بشرحه.. وحضرت عليه الحصار حتى ختم مرارا... وقرأت عليه ابن بدرة والياسمينية في الجبر والمقابلة، ولازمته سنين في هذه العلوم، وكانت بين يديه مشايخ في هذه العلوم».

* * *

وبين الحسابيين المؤلفين في هذا العصر نشير إلى أربعة : ثلاثة منهم سبق ذكرهم عند استعراض الشارحين لتلخيص ابن البنا، وهم :

ـ عبد العزيز بن علي المسراتي، مؤلف «**اللباب في شرح تلخيص أعمال الحساب**».

ـ يعقوب بن أيوب المواحدي، مؤلف «**تحصيل المنى في شرح تلخيص ابن البنا**»، وقد سبق ذكرهما عند رقمي 78 و79.

(378) **بلغة الأمنية ومقصد اللبيب**... لمؤلف غير مذكور، تحقيق الأستاذ محمد بن تاويت التطواني، مجلة **تطوان** : العدد 9 سنة 1964 : ص. 178.

(379) **الإعلام** المراكشي عند ترجمة ابن الشماع : المطبعة الملكية، 218/2 ـ 220.

(380) **بلغة الأمنية ومقصد اللبيب**، مجلة **تطوان** بالعدد 9، ص. 185، 193.

(381) ص. 114، م.س.

ـ علي بن عبد الله : ابن هيدور : مؤلف «**التمحيص في شرح التلخيص**»، والمتكرر الذكر، ورقمه 80.

ألف في الأوفاق العددية «**بهجة الإشراق في صنعة الأوفاق**»[382].

88ـ والرابع هو المكناسي شهرة : محمد بن أحمد بن عبد الرحمن اليفرني الفاسي، ت 817/14ـ1415.

آشتهر بأرجوزته التي ذيل بها على أرجوزة ابن الياسمين في الجبر والمقابلة، غير أنها لا تعرف ـ الآن ـ سوى من خلال إشارات لها عند السيتاني[383]. وابن غازي[384] والمنجور[385].

ب ـ حساب الفرائض :

ـ يعقوب بن أيوب المواحدي، سابق الذكر.

ألف «**نزهة العقول الذكية في شرح الفصول الفرضية**»، شرح بها رسالة الفصول لابن البنا، سالفة الذكر.

من مخطوطات خ، ع، د 493 : ثالثة مجموع.
خ، ع، ق 1081 : قطعة منها ثانية مجموع.

89 ـ الونشريسي : الحسن بن عطية التجاني ثم المكناسي، كان حيا قرب 1388/790[386].

نظم «**أرجوزة**» في المادة ذاتها، حيث لاتزال مخطوطة خ، ع، ق 1081 آخر مجموع، إلى نسخ أخرى بالخزائن المغربية.

---

(382) أشار له ابن هيدور في **التمحيص** قبل قول المتن : **والفرد على نوعين**.

(383) أواخر شرحه للقصيدة التلمسانية آتي الذكر.

(384) **بغية الطلاب في شرح منية الحساب** ط. ف : ص. 1 من الملزمة 24، فيقول عن المترجم : «الشيخ أبو عبد الله المكناسي، المتزيد عام خمسة وثلاثين وسبعمائة، المتوفى عام سبعة عشر وثمانمائة، وهو تلميذ الإمام العقباني، وجد صاحبنا قاضي الجماعة بفاس لوقتنا»، ونحوه ـــ مع بعض مخالفة ـ في **درة الحجال**، رقم 801، ثم في **جذوة الاقتباس**، رقم 219.

(385) **فهرس أحمد المنجور**، نشر دار المغرب 1976/1396 : ص. 43، وهذا المصدر هو الذي يشير إلى أن أرجوزة المكناسي ذيل بها على أرجوزة ابن الياسمين.

(386) له ترجمة في **اتحاف أعلام الناس** 3/3 ـ 4.

90 ـ وهي التي شرحها علي بن الحسن بن علي التازي الدار، الأورائي النسب.

من مخطوطات خ، ع، ق 930 : في مجموع ص 533ـ718، إلى نسخ أخرى بالخزائن المغربية.

91 ـ الرجراجي : عمر بن موسى بن محمد الفاسي، ت 1408/810.

إمام في الفرائض والحساب، وأستاذ مختصر الحوفي، قال ابن القاضي[387] : «وإليه تنسب شجرة دين الأجنبي من كتاب أبي القاسم الحوفي»، ولحسن الحظ فإن السيتاني ـ آتي الذكر ـ احتفظ برسم هذه الشجرة أواخر شرحه للقصيدة التلمسانية[388]، ثم ابن غازي في الجامع المستوفي بجد اول الحوفي[389].

وهؤلاء ثلاثة من شراح القصيدة الفرضية التلمسانية، نظم التلمساني : إبراهيم بن أبي بكر بن عبد الله الأنصاري مستوطن سبتة، وسبقت الإشارة له عند مناسبات أخرى.

92 ـ وأولهم هو السيتاني : يعقوب بن موسى بن يعقوب بن عبد الرحمان الفاسي، كان حيا عام 1413/815[390].

ويحمل شرحه اسم «**منتهى الباني ومرتقى المعاني**...».

مخطوط خ، ع، ك 702.
خ، س 1569.
خ، س 1750.
خ، س 2123.

(387) **جذوة الاقتباس**، عند ترجمة الرجراجي رقم 563، وبشكل أوضح في **درة الحجال**، رقم 1197.

(388) سيرد التعريف بهذا المصدر عند ذكر مؤلفه بالترجمة رقم 92.

(389) مخطوط خ، س 10136 : ورقة 5/أ.

(390) له ترجمة قصيرة في **جذوة الاقتباس**، رقم 650، غير أن ابن القاضي يسمي المترجم بيعقوب بن عبد الله، على حين يسمي المؤلف نفسه بيعقوب بن موسى بن يعقوب بن عبد الرحمن، حسب طالعة وخاتمة شرحه للتلمسانية، حيث فرغ من تأليفه عشية الاثنين 4 ذي القعدة 815 هـ.

93 ـ ثم ابن جابر : محمد بن يحيى بن محمد الغساني المكناسي، ت 827/1424-23[391].

وقف ابن زيدان على الجزء الأول من شرحه للتلمسانية، وأفاد منه في عدة تراجم[392].

94 ـ ثم الفارسي : عبد الرحمن بن محمد بن مسعود بن عمر بن موسى الورتناجي من أخماس تازا، كان بقيد الحياة عام 1462/866[393]، اعتمد في تعليقه على التلمسانية شرح السيتاني آنف الذكر، وفرغ منه غدوة يوم الجمعة 29 من ذي الحجة 866 هـ، منه مخطوطة خ، س 270 : ثانية مجموع.

* *

95 ـ وبين الفرضيين الذين لم يؤلفوا نشير إلى الأسماء التالية : بدءا من الأنفاسي : سليمان بن يوسف بن عمر الانفاسي، ت 1377/779[394].

96 ـ محمد المكناسي، هكذا أورده ابن جابر المكناسي في شرح القصيدة التلمسانية كأحد أشياخه، محليا له بالشيخ الفقيه العدل الفاضل المعلم الفرائضي، وذكر أنه أثنى له على كتاب الإيضاح لابن ثابت في الفرائض[395].

97 ـ التلاجدوتي : علي بن يوسف دعي يشو المكناسي، ترجمة ابن زيدان[396]، وذكره السيتاني[397] حيث كان يجمعهما ـ معا ـ مجلس أستاذهما محمد بن أحمد بن عبد الرحمن اليفرني، سابق الذكر عند رقم 88.

---

(391) إتحاف أعلام الناس : 3/590-594 حيث ترجمته.

(392) 3/588 مع 3/590 عند ترجمة ابن جابر.
4/498.
5/455 : حيث يشير للجزء الأول من شرح ابن جابر.

(393) لا تعرف له ترجمة، وهو ناظم الأرجوزة الطبية المعروفة باسم الفارسية، حيث جاء في طالعة مخطوطة «خاصة» منها إضافة تصف ناظمها بـ«الورتناجي من أخماس تازا».

(394) ترجمته في سلوة الأنفاس، 3/156 ـ 158.

(395) إتحاف أعلام الناس، 3/588.

(396) المصدر، 5/455.

(397) أواخر شرحه للقصيدة التلمسانية سابق الذكر.

وهو من أشياخ كل من ابن جابر[398] وأحمد بن سعيد[399] الحباك والقوري[400] المكناسيين.

98 ـ المكناسي شهرة : عبد الله بن محمد اليفرني الفاسي، ت 856/ 1452.

من شيوخ مختصر الحوفي بفاس[401]، وله عليه تقييد أجاد فيه[402].

* * *

نذيل على هذا العرض بالتعريف بطريقة جديدة ظهرت في حساب الفرائض، وهي تسير على تجزئة فريضة الميراث إلى أقل عدد لا كسر فيه.

وكان مبتكر هذه الطريقة هو أبو القاسم القرشي : عبد الرحمن بن يحيى نزيل بجاية[403]، وله فيها «مقالة» هي التي شرحها ابن صفوان : أحمد بن إبراهيم بن أحمد المالقي، ت 773/1372[404]، وسمى شرحه «**كفاية الفارض المرتاض في التنبيه على ما أغفله جمهور الفراض**»، منه مخطوطة مبتورة الآخر في مكتبة الزاوية الحمزية رقم 376.

وبعد ابن صفوان يأتي العقباني : سعيد بن محمد التلمساني، سابق الذكر بين شراح تلخيص ابن البنا، وهو ـ أيضا ـ شارح مختصر الحوفي[405]، فينوه ـ في شرحه الأخير ـ بالطريقة الفرضية الجديدة ويتفنن في تكميلها، حيث يقدم ذلك في هذه الفقرة[406]:

---

(398) إتحاف أعلام الناس 590/3.

(399) **المصدر**، 314/1.

(400) **المصدر**، 595/3.

(401) **سلوة الأنفاس**، 303/3.

(402) **نيل الابتهاج**، ص. 333.

(403) كان الذي ذكر اسمه ـ كاملا ـ هو أحمد بن القاضي في مطلع كتابه **الرائض لطالبي فهم الناهض بأعباء علم الفرائض** : مخطوط خ، س 8840، حيث سترد الإشارة له خلال هذا العرض.

(404) ترجمته وبعض مصادرها عند ابن فرحون في **الديباج**، نشر دار التراث بالقاهرة 193/1 ـ 195.

(405) من مخطوطات القرويين 311 و1186، مع خ، س 3112، وكان تأليفه أيام قضاء المؤلف بسلا، حسب وفيات الونشريشي : **ألف سنة من الوفيات**، ص. 137، ويقول عنه ابن صعد : «لم يؤلف شرح على الحوفي مثله»، حسب المجاري في برنامجه.

(406) عند ورقة 22/ب من مخطوط خ، س.

«...واستنبط الأستاذ أبو القاسم القرشي طريقة تحذر فيها أن تخرج الفريضة على هذا الوجه، بل لا تخرج في تلك الطريقة إلا من أقل عدد تصح منه بلا كسر، وهي طريقة بديعة، وما أراها إلا من اختراعه لم يسبقه بها غيره، إلا أنه لم يضع منها سوى ما يتعلق بوضع أصل الفريضة أو بعمل المناسخات، فلما وقع بيدي كلامه فيها ـ وهو مما حملني على وضع هذا الكتاب لأخلص تلك الطريقة وألخصها ـ تصفحت ما وضع وتأملته، فتخيل لي منه كيفية عمل جميع أبواب الفرائض بتلك الطريقة... فتممت الطريقة، وأوضحت كيفية جريانها في كل باب من أبواب الفرائض...».

99 ـ وإلى العقباني نشير إلى أربع موضوعات في قواعد هذه الطريقة الجديدة : بدءا من تأليف لمغربي يحمل إسم «**تذكرة الألباب في الجمع بين العدد والفرائض والحساب**»، تأليف الصنهاجي : محمد بن أبي عبد الله بن سعيد الفاسي نزيل غرناطة، قال عنه المجاري :[407] «وهو كتاب غريب النوع، جمع في فرائضه بين طريقة الفراض والقرشي والطنجالي»، وهكذا : فإن هذا المصدر يعرف بكتاب «**تذكرة الألباب**»، ويشير بطريقة أخرى للطنجالي لا نزال لم نعرف تفاصيلها.

ومن تلمسان نذكر «**منتهى التوضيح في عمل الفرائض من الواحد الصحيح**»، تأليف ابن زاغو : أحمد بن محمد بن عبد الرحمن المغراوي التلمساني، ت 1441/845[408].

ومن الجهة ذاتها : أرجوزة ابن داود : أحمد بن علي بن أحمد البلوي الأندلسي نزيل تلمسان، ت 1532/938.

وهي التي علق عليها ابن القاضي : أحمد بن محمد بن محمد بن أحمد ابن العافية المكناسي ت 1616/1025، وجاء شرحه يحمل إسم «**الرائض لطالبي فهم الناهض بأعباء علم الفرائض**»، من مخطوطات خ، س 8840 وقد تكرر ذكره.

ولتركيز طريقة القرشي صارت تستخدم في تدريس مختصر الحوفي مع الطريقة القديمة، وذلك ما يبرزه القلصادي وهو يعرض مقروءاته بتلمسان، ومنها أخذه لنفس المختصر على ثلاثة من أساتذته التلمسانيين : عيسى الرتيمي[409]، ثم يوسف

(407) **برنامج المجاري**، ص. 128 : عند ترجمة الصنهاجي.
(408) **رحلة القلصادي**، نشر الشركة التونسية للتوزيع 1978/1399 : ص. 102 ـ 106 : عند ترجمته.
(409) **نفس المصدر**، ص. 98 ـ 99 : عند ترجمته.

الزيدوري[410]، وثالثا : قاسم العقباني :[411] ثلاثتهم درس عليهم مختصر الحوفي بطريقتي التصحيح والكسور.

* *

ثانيا : **الهندسة** :

ـ ابن هيدور : علي بن عبد الله المتكرر الذكر، ألف رسالة وجيزة جامعة لأصول صناعة المساحة[412].

ـ ومن المهندسين الذين لم يؤلفوا : ابن الشماع : أحمد بن محمد بن إبراهيم الأوسي المراكشي[413]، سابق الذكر.

100 ـ يعقوب المصمودي نزيل تونس، ت حدود **850/46-1447** بعدما انتقل إلى الشام، وهو من أساتذة محمد بن قاسم الرصاع، فيذكر عنه أنه كانت له معرفة بكتاب أوقليدس[414].

ملحق 1

ـ نهاية الرائض في خلاصة الفرائض ـ تأليف عبد الله بن أبي بكر بن يحيى ابن عبد السلام الجدميوي الصودي الطّديثي السمكاني نزيل الاسكندرية، كان بقيد الحياة عام 699 هـ.

بخط أندلسي دقيق مليح عتيق، ويقع عند فاتحة مجموع رقم 1647 في الخزانة الناصرية بتمكروت.

وقع الفراغ في تأليفه في 27 من شهر ربيع الأول سنة 696 هـ بالاسكندرية، ومن انتساخه يوم الأحد 12 ربيع الأول عام 702 هـ.

---

(410) **المصدر**، ص. 100 ـ 101 : عند ترجمته.

(411) **المصدر**، ص. 106 ـ 107.

(412) أشار لها أوائل شرحه لتلخيص ابن البنا.

(413) **الإعلام**، المراكشي 2/219.

(414) **فهرست الرصاع**، ص. 130 و136.

والكتاب ـ كما سنتبين ـ من النوادر التي لا يعرف لها ـ لحد الآن ـ وجود في مكان آخر، وسنتعرف على أهميته البالغة بواسطة إيراد فقرات من افتتاحيته وخاتمته، وهكذا يقول المؤلف عن ظروف تأليف نهاية الرائض :

«أما بعد: فهذا مختصر بعثني على جمعه وتلخيصه من **علم المواريث والفرائض على مذهب حبر الأمة**... مالك بن انس المدني الأصبحي.... من سألني العناية به من أصحابنا من طلبة العلم، وما رأيت من قصور همم أهل زماننا عن هذا العلم.

وقد بدأت جمعه بمجاورة الخليل، على نبينا وعليه أفضل الصلاة والسلام، وكملته بثغر الاسكندرية كلأها الله».

وعن منهجه في تصنيف الكتاب يقول : «وضمنته فوائد ما تفرق وانتشر في المبسوطات من الكتب الطوال، على الاختصار دون الإكثار، مما لابد منه للمبتدي، ولا غنى عنه للمنتهي ـ من الأصول الكلية، والقواعد الجملية، والضوابط المحكمة، والهينمات[415] الجارية من الكتاب مجرى التوطئة والأساس، وملفقات الفرائض ومنسوباتها، وملحها وجواهرها، ونوادرها وشواردها، ومعضلاتها وأغاليطها، وأغربها وأعجبها، ونبذا من نظائرها ومعاياتها، ورياضاتها ونسبياتها، ومتشابهاتها ومحاكاتها، على (وجه) من الضبط دون البسط ـ ما ليس في مجموع ولا مختصر بانفراده...

ورتبت أبوابه وفصوله وتأسيس أصوله أحسن ترتيب، ولخصت معانيه أحسن تلخيص، وحررت حساب مسائله أمكن تحرير، وعريت فصوله من التطويل وكثرة الأقاويل، ومثلت مسائله حسبما يقتضيه العمل من التهذيب والترتيب، ونبهت فيه على كل معنى خفي لطيف، لم يورد له قبل في أكثر التصانيف ذكر، وأضفت إلى ذلك جملة قانونية من المسائل الحسابية والحُكِمية، مما خالف فيه مالك زيد بن ثابت ومعاصره من الأيمة، والشافعي وغيره مالكا...

وجميع ما يأتي فيه ـ من الأصول والأعمال المجردة واللواحق العارضة والمسائل المنسوبات واللغزيات ـ فمن أقاويل العلماء أخذته، ومن كتب القدماء جمعته، ومن مشايخي سمعته وحررته وقيدته بالمغرب والاسكندرية ومصر، وفي زمان إقبالي على الاشتغال والاجتهاد...

---

(415) في القاموس : «الهينمة الصوت الخفي».

وحصرت المقصود منه في ثلاثين فصلا تشتمل عليها خمسة أبواب».

وإلى هنا تنتهي مقتبسات من افتتاحية «**نهاية الرائض**»، وجاء في آخره في خاتمة ملحقة :

«عدة الكتب التي جمع منها هذا التصنيف نيف وثلاثون ديوانا : من كتب المالكية والشافعية من أهل هذا الشأن».

وبعد ما عرض المؤلف أسماء هذه الدواوين قال : «مع أني زدت جملا من القواعد والضوابط والتلخيصات، مما سمعته من مشايخي الثلاثة الفقهاء الفضلاء : أبي سليمان داود بن علي الحيحاي[416] بنول لمطة من أقصى المغرب سنة ثلاث وستين وستمائة، وأبي الطاهر إسماعيل بن يوسف الرعيني الإشبيلي[417]، بثغر الاسكندرية المحروسة سنة ثلاث وسبعين وستمائة، وأبي محمد عبد الله بن عبد الكريم الغماري[418] بمدينة مصر سنة أربع وسبعين وستمائة.

ومعظم الفضل للأول، وعليه أتقنت الحساب، والكافي في الفرائض، وأنا ـ يومئذ ـ ابن عشرين سنة أو أقل منها، رضي الله عنهم».

ـ **مختصر نهاية الرائض** ـ لعبد الله الصودي مؤلف الأصل، ويحمل إسم «**كفاية المرتاض في تعاليل الفراض**».

بنفس الخط وفي نفس المجموع اثر سابقه، وجاء في آخره : «كمل التقييد والمقابلة، والحمد لله حق حمده، وذلك في أواخر شهر محرم، مفتتح خمسة وسبعمائة، قيده ـ بيده ـ لنفسه : العبد الفقير إلى الله تعالى، الغني به : يوسف بن على الطرطوشي[419].

ومن الجدير بالذكر أن هذا الكاتب هو ـ نفسه ـ ناسخ المؤلفين : قبل هذا وبعده، حيث أن الخط يسير على نسق واحد في سائر المجموع الذي يستوعب الموضوعات الثلاثة، غير أن الناسخ اكتفى بتسجيل اسمه مرة واحدة.

---

(416) لم أقف على ترجمته فيما رجعت له من المصادر.

(417) لم أقف على ترجمته فيما رجعت له من المصادر.

(418) لم أجد إلا إسم أبي علي الحسن بن عبد الكريم الغماري، في ترجمة قصيرة عند الذهبي في «**معرفة القراء الكبار...**»، مطبعة دار التأليف بمصر، 585/2، وقد أرخ وفاته بعام 712 هـ.

(419) عالم معروف، وترجمته في «**الإحاطة**» م. س، 422/4ـ425.

ـ **مفتاح الغوامض في أصول الفرائض** : مختصر وجيز للصودي أيضا.

نفس الخط وفي نفس المجموع، وجاء في آخره : «كمل التقييد، والحمد لله، وكان الفراغ منه في الخامس لشهر ذي القعدة، عام أربعة وسبعمائة».

وهذا الكتاب وسابقاه من النوادر، وكانت ثلاثتها لا تعرف إلا بواسطة أبي القاسم التجيبي، وهو يقول عنها في «برامجه»[420] بمناسبة قراءتها على مؤلفها :

«**كتاب نهاية الرائض في خلاصة الفرائض**، تأليف الشيخ الفقيه الفرضي الحسابي، العابد الزاهد الصوام القوام : جمال الدين، أبي محمد عبد الله بن أبي بكر بن يحيى بن عبد السلام، المغربي ثم الجِدميوي الصَّوَّدي نزيل الاسكندرية...

قرأت جميعه عليه بالمسجد المنسوب لأبي الدرداء رضي الله عنه، داخل باب السدرة من ثغر الاسكندرية، وصح ذلك وثبت في عدة مجالس، آخرها في ليلة يسفر صباحها عن يوم السبت، التاسع لشهر ربيع الثاني، من سنة ست وتسعين وستمائة، ثم قرأت عليه جميعه بعد ذلك، وهو كتاب جليل مفيد في بابه، شكره أهل المعرفة بهذا الشأن...

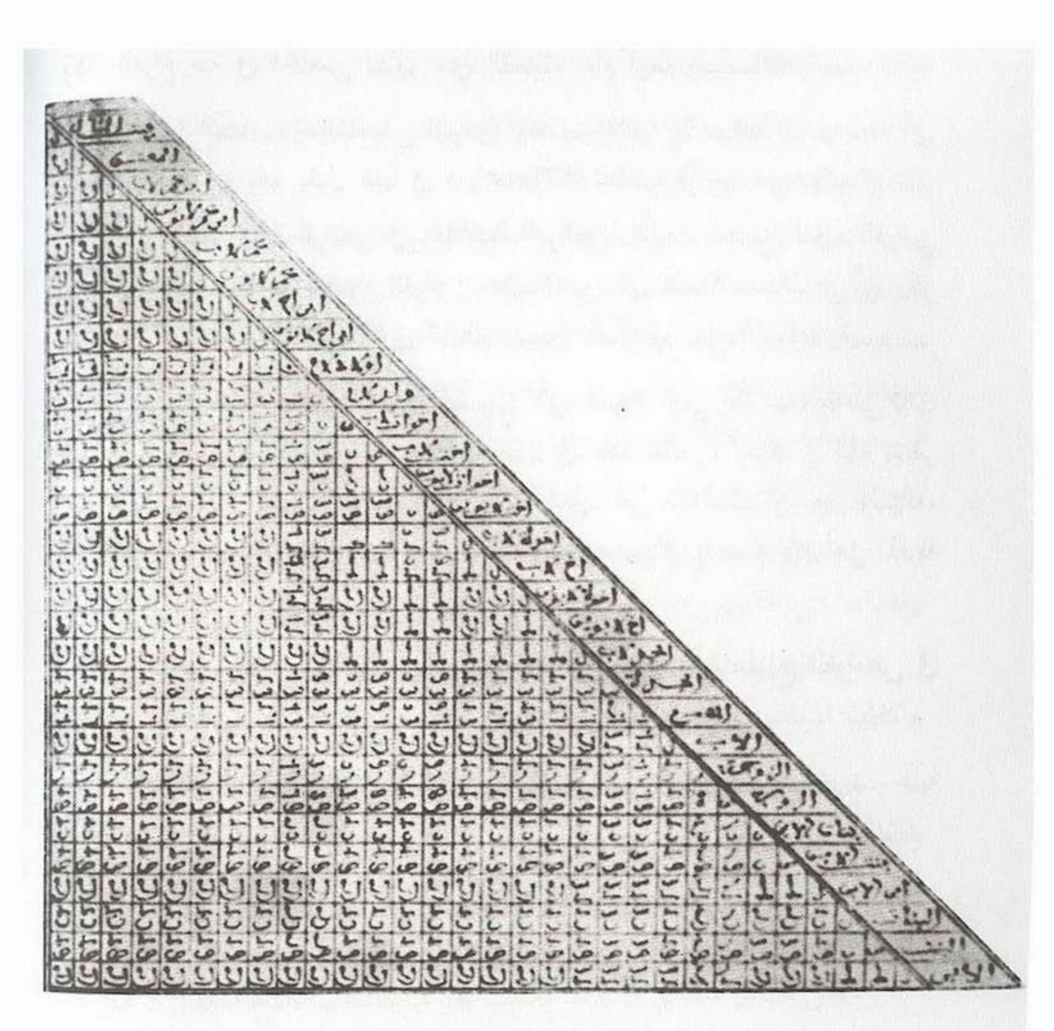
كتاب كفاية المرتاض، في تعاليل الفراض، وجزء فيه **مفتاح الغوامض في أصول الفرائض**، كلاهما من تصنيف جمال الدين المذكور.

سمعت الكفاية عليه، ثم قرأتها أيضا، وقرأت المفتاح عودا بعد بدء عليه أيضا».

ملحق 2
جدول لعلم الفرائض

إن دعوى البراعة العلمية في معهد القرويين تحتاج إلى بعض المستندات، ولذلك رأينا أن نثبت هذا الجدول الجامع الذي هو خلاصة الخلاصة لعلم الفرائض على مذهب الإمام مالك، إن هذا الجدول شاهد ببراعة واضعه وتضلعه في علم الفرائض والعدد، وناقل هذا الجدول المرحوم الحاج محمد راغون التطواني بخطه لم يعرف

(420) م. س، ص. 274–275.



الجدول الجامع في علم الفرائض

واضعه فكتب عليه ما نصه : قيل أنه ينسب لحافظ المذهب المالكي الإمام ابن عرفة، ولكن يغلب على الظن أنه من وضع شيخ ابن عرفة وشيخ ابن خلدون ولسان الدين ابن الخطيب، الذي هو رئيس مشيخة فاس : الحافظ [محمد بن] سليمان السطِّي، وذلك للأسباب الآتية : أولا ذكر تلميذ بن عرفة الرصاع شارح حدود ابن عرفة ان ابن عرفة قرأ على السطي كتاب الحوفية في الفرائض لما وصل إلى تونس مع السلطان أبي الحسن المريني، وأنه بين له المواضع التي توقف فيها ابن عبد السلام المشهور محمد شيخ ابن عرفة، ولو كان لابن عرفة جدول مثل هذا لنوه به شارح حدوده الفقيه الرصاع، الذي لا يترك نكتة من نكث ابن عرفة ولا منقبة إلا ذكرها، ثانيا : إن ابن خلدون[421] مقدمته التاريخية ذكر من علم العدد علم الفرائض وما يقتضيه من صناعة حسابية، ثم قال وقد ألف الناس في هذا الفن قديما وحديثا وأوعبوا، ومن أحسن التآليف فيه على مذهب مالك رحمه الله كتاب ابن ثابت ومختصر القاضي أبي القاسم الحوفي وكتاب ابن المنمر والجعدي والصردي وغيرهم، لكن الفضل للحوفي فكتابه مقدم على جميعها، وقد شرحه من شيوخنا أبو عبد الله [محمد بنَ] سليمان السطي كبير مشيخة فاس فأوضح وأوعب، ثالثا : إن الأستاذ عبد الله كنون حفظه الله ذكر في كتابه النبوغ المغربي[422] أن السطي المذكور له جداول على فرائض الحوفي دلت على طول باعه وتضلعه في علم الحساب.

ونحن نلفت نظر أصحاب المكاتب العلمية إلى هذا الجدول، راجين إفادتنا عن واضعه بالتحقيق لا بغالب الظن فقط إن كان لديهم علم بذلك، ولهم خالص الشكر سلفا.

التعريف بالجدول واصطلاحه : إن هذا الجدول يشتمل على الوارثين الثلاثين وما يجب لكل واحد منهم حالة انفراده وحالة اجتماعه مع غيره، مع ذكر المحجوبين من الإرث والحاجبين لهم.

أما كيفية استخراج حظوظ كل وارث من مراجعة الجدول، فهي أن تدخل في قطر الجدول حيث إسم الوارث الذي تبحث عن إرثه، فما تجده في المحاذي له هو الواجب له حالة الِانفراد. وإذا نزلت منه إلى بيت يلتقي فيه مع غيره وجدت فيه

(421) م. س، ص. 423، وقد تصحف في المطبوع إسم الصودي بالواو بالصردي بالراء.
(422) 1/

علامة حكم اجتماعهما، إلا البيت الذي يلتقي فيه الزوج والزوجة فليس فيه علامة لعدم اجتماعهما في إرث، وكل بيت فيه علامتان فأعلاهما للوارث الأعلى وسفلاهما للوارث الأسفل، وكل من ضلعي الجدول وقطره مشتمل على ثلاثين بيتا.

العلامات : 1) اللام للكل. 2) النون للثلثين. 3) الصاد للنصف. 4) الثاء للثلث. 5) الراء للربع. 6) ثم للثمن. 7) السين للسدس 8) الكاف للشركاء. 9) الميم للمحجوبين[423].

* * *

عاشرا ـ الدراسات الفلكية

تتفرع العلوم الفلكية إلى عدة مواد فرعية يتداخل بعضها مع البعض، ومنها :

علم الرصد، ومن طريقه تدقق تحركات الكواكب، اعتمادا على الآلات الفلكية المتنوعة.

ثم **علم التعديل أو التقويم**، ويعتمد على الأزياج المبنية على الحسابات الفلكية، بواسطة جداول تعرف بها مواقع النجوم في أفلاكها للوقت المفروض.

وثالثا : **علم الميقات**، وبحساباته تستخرج أوقات الصلاة والصوم وما إلى ذلك.

ورابعا : **مادة التنجيم**، ويتصل بعلاقة بعض الكواكب بالأحداث التي تجري على الأرض.

وأخيرا : **فن الرسم**، وموضوعه تخطيط الآلات الفلكية : من صفائح الأرباع والإسطرلابات، والرخامات وغيرها.

هذه هي الفروع الرئيسية لعلوم الفلك المتداولة بالمغرب المريني : إقراء وتأليفا وأعمالا، وفي صدد أهمية عدد من هذه المواد في الحياة الإسلامية، فإن المستشرق الإيطالي السنيور كرلو نلّينو Nallino[424]، يشرح أبعاد ذلك في التعامل مع الشعائر الدينية، فيذكر خلال حديثه عن علم الفلك العلمي ما خلاصته :

(423) هذا الجدول ومقدمته منشوران في مجلة «**دعوة الحق**»، بالعدد 1 من السنة 4.

(424) «علم الفلك» روما. 1911 ص 229–232، واقتبس منه قدري حافظ طوقان: «**تراث العرب العلمي**»، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة 1954/1374، ص 87–88.

«... وكانت بعض مسائله مما يطالب المسلم بمعرفتها، كأوقات الصلاة التي تختلف بحسب الموقع، ومن يوم إلى يوم، ولا يخفى أن حسابها يقتضي معرفة عرض الموقع الجغرافي، وحركة الشمس في البروج، وأحوال الشفق الأساسية، وفوق ذلك فاتجاه المسلمين إلى الكعبة في صلواتهم يستلزم معرفتهم سمت القبلة... وهناك صلاة الكسوف أو الخسوف، التي تقتضي معرفتها معرفة حساب حركات النيرين، واستعمال الأزياج الدقيقة، وهناك ـ أيضا ـ هلال رمضان، وأحكام الشريعة والصوم حملت الفلكيين على البحث عن المسائل العويصة المتصلة بشروط رؤية الهلال وأحوال الشفق...».

وإلى هنا نأخذ في تحليل هذه المواد الفرعية، ونتدرج في تقديمها حسب المحاور الرئيسية التالية :

ـ أعمال فلكية آلية منوعة

ـ المؤلفون الفلكيون ومؤلفاتهم

ـ مناقشات فلكية منوعة

ـ نماذج من المؤلفات والأجهزة التي يستخدمها الفلكيون في أعمالهم : تدريسا وتدوينا وأعمالا.

* * *

I ـ أعمال فلكية آلية منوعة

أولا ـ راصدون

101 ـ فلكي لم يذكر إسمه، رصد الميل الأكبر بمدينة مراكش عام 704/ «1304»[425].

102 ـ إبن هلال راصد الميل الكلي بمدينة سبتة حسب ذكر الماواسي[426]،

(425) «الشرح الكبير للماواسي على روضة الأزهار»، مخطوط خاص.
(426) «المصدر».

ولا شك أن القصد إلى محمد بن هلال مثارح «المجسطي» في الهيئة، ومعاصر إبن البنا المراكشي[427].

ـ أبو القاسم بن عزوز آتي الذكر، كان بفاس عام 745/«1345»، وهو مؤلف «**الزيج الموافق**» مخطوط خ. ع، د 2461، فيشير فيه إلى معاناته للرصد بالآلة المعروفة «بذات الحَلَق».

ثانيا ـ مبتكرون لأجهزة فلكية

103 ـ محمد بن الحباك المعدل[428]، وهو مبتكر «**الساعة المائية**» التي نصبها في الغرفة العليا بمنارة القرويين عام 685/«1286»، حتى تعرف منها ـ أيام الغيم ـ أوقات الصلوات النهارية والليلية.

صنعها من الخزف في شكل يشابه فرن الطبخ آنذاك، وتحتوي على كمية من الماء، وجعل على وجه الماء صفحة من النحاس في شكل طست به أثقاب وخطوط، فيخرج من الأثقاب الماء بقدر معلوم إلى أن يصل للخطوط، فتعرف بذلك أوقات الصلوات أيام الغيم[429]، ويعتبر ـ الآن ـ هذا الجهاز مندثرا.

104 ـ النطاع : محمد بن عبد الله الصنهاجي المعدل، نصب بغريفة منار القرويين الحالية ـ عام 717/«1317» ـ ساعة مائية جديدة تفنن في صناعاتها[430].

105 ـ وكان الذي رسم مقايسها هو المعلم محمد بن الصدينية القرطسوني[431].

106 ـ وفي عام «747/«46 ـ 1347»، أصلح موقت منار القرويين

(427) لا تعرف له ترجمة منتظمة، ويرد ذكره ـ عرضا ـ في عدة مصادر، بينها «**التعريف بابن خلدون**» مطبعة لجنة التأليف والترجمة، والنشر، القاهرة، ص 47، مع «**ألف سنة من الوفيات**»، م.س، ص118.

(428) هو الذي اضطلع بنصب القبلة لمدرسة الحلفاويين (الصفارين) بفاس، حسب الجزنائي في «**جني زهرة الآس**»، المطبعة الملكية ـ الرباط، ص 81.

(429) «**المصدر**»، ص 50ــ51.

(430) «**المصدر**»، ص 51، حيث توسع الجزنائي في تشخيص الساعة التي نعلق عليها.

(431) نفس «**المصدر**» والصفحة.

محمد بن محمد بن العربي هذه الساعة، وأضاف لها شبكة أسطرلاب[432]، ولا تزال منها بقايا دفينة بإحدى الجوانب من غريفة منار القرويين.

107 ــ اللجائي : عبد الرحمن بن سليمان الفاسي، ت 773/«71 ــ 1372»[433]، وهو مخترع الأسطرلاب الباقي بغريفة منار القرويين، حسب ابن قنفد القسنطيني[434] الذي يقول عن اللجائي : «ومن بعض أعماله أنه اخترع أسطرلابا ملصوقا في جدار، والماء يدير شبكته على الصفيحة، فيأتي الناظر فينظر إلى ارتفاع الشمس كم هو وكم مضى من النهار، وكذلك ينظر ارتفاع الكوكب بالليل، وهو من الأعمال الغريبة، وقد وقفت عليه زمان قراءتي بين يديه».

ولحسن الحظ فإن هذا الإبتكار لا يزال محفوظا بالغريفة المتكررة الذكر، غير أنه مُعَطل العمل، وهذا نص ما نقش على جهاز الأسطرلاب على علاته :

«الحمد لله، صنعت هاذه المجَانة مع أسطرلابها الذي هو من تمامها، عن أمر مولانا السلطان أبوسالم إبراهيم، بن مولانا الحسن، بن مولانا سعيد، بن مولانا يوسف، بن مولانا عبد الحق المريني، وكان تمام صنعها وتركبها في أحد وعشرين محرم الحرام، فاتح عام 763/«1362»[435].

وعلى بعد من غريفة القرويين تشير إلى ساعتين دقاقتين مائيتين بنفس المدينة: إحداهما هي المقابلة للباب الشمالي للمدرسة العنانية بالطالعة الكبرى، وكان صانعها ــ بأمر أبي عنان ــ هو.

108 ــ إبن الفحام: المعدل: علي بن أحمد التلمساني، وفرغ من عملها يوم 14 جمادى الأولى عام 758/«1357»، وكانت علامة الوقت بها أن تسقط كل ساعة صنجة في طست وينفتح طاق، فتحدث رنة تعلن ببداية كل ساعة نهارية[436]،

---

(432) «**المصدر**»، ص 51–52، وابن العربي المذكور لم يقف الكتاني على ترجمته، حسب «**سلوة الأنفاس**»، م.س، 151/3.

(433) ترجمته في «**سلوة الأنفاس**» م. س، 296/3.

(434) «**أنس الفقير**» نشر المركز الجامعي للبحث العلمي، الرباط، ص 68.

(435) عاينت هذه الصيغة ونقلتها ــ على ما بها من الأغلاط ــ خلال إحدى زياراتي لغريفة القرويين أثناء شعبان 1384/ديسمبر 1964.

(436) «**جني زهرة الآس**» م. س، 53، وترجمة إبن الفحام صانع الساعة الدقاقة عند يحيى إبن خلدون في «**بغية الرواد**»، نشر المكتبة الوطنية بالجزائر، 119/1.

وقد ضاعت منها الأجهزة الداخلية، ولم يبق سوى واجهتها التي يبرز منها طسوسها الموضوعة في نواقد 13 على عددها.

ومن الجدير بالذكر أن مرتب القيّم على هذه الساعة، استمرت الإشارة له في حسابات المدرسة العنانية إلى صدر ق 12/«18 »، فتتكرر الإشارة إلى «**قيم المنجانة**» في الصفحات الأولى من حوالة القرويين ومضافاتها، وقد كانت في أوراق داخل ملف يحمل ـ بخزانة القرويين ـ رقم 399 من قسم الخروم.

الساعة الدقاقة الثانية : كانت في القصر المريني بفاس الجديد، لتعلن بالمواقيت الليلية، وقد تردد ذكرها في شعر كل من إبن الخطيب[437] وابن عبد المنان[438]، وتميزت قصيدة الأخير التي رفعها لأبي عنان، بوصف كاشف لجهاز الساعة، في نفس طويل استوعب 17 بيتا.

* * *

ثالثا ـ صانعون لأجهزة فلكية

109 ـ طافيره : يعقوب بن موسى من يهود فاس، وهو صانع اسطرلاب صار إلى ملكية فرنسي كان معمرا بالجزائر، وأهم ما فيه، كتابه نقشت على ظهره بالخط الكوفي، وتتضمن الإشارة التالية : «صنعه أذمي (الذمي) يعقوب بن موسى طافيره من مدينة فاس أمنها الله، سنة «ستيو» للهجرة[439]» : أي سنة 716/2«1316».

110 ـ محمد بن إبراهيم بن السيل التعايمي، أهدى إلى العاهل أبي الحسن أسطرلابا كبيرا من عمله[440].

111 ـ أبو قاسم بورضوان ؟ يوجد في متحف الأوداية بالرباط أسطرلاب كبير من صنعه عام 776 «1374».

---

(437) «**ديوان الصيب والجهام والماضي والكهام**»، نشر الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ص 344 و356.

(438) «**نثير الجمان**» لإسماعيل ابن الأحمر، م.س، ص 324ـ325.

(439) التفاصيل عند المستعرب جورج كولان في المقال الذي كتبه عن «**يهودي من القرن 14 صنع أسطرلابا**»، مجلة **هيسبريس** XXII سنة 1922، ص 183ـ185.

(440) «**المسند الصحيح الحسن**» لابن مرزوق الخطيب، نشر الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ـ الجزائر، ص 329.

112 ـ اللخمي : محمد بن محمد بن عبد الرحمان بن عمر الفاسي الموقت بجامع القرويين، ت 794/«1392»، صنع بمدينة فاس ثلاث رخامات شمسية : إحداها مبسوطة بمنار نفس الجامع، ورسم فيها ظل الزوال ووقت العصر وسمت القبلة، والثانية منكوسة صغيرة بجامع الأندلس، فيها ظل الزوال والعصر خاصة، وكانت الثالثة بدار الدباغ[441].

II ـ مؤلفون فلكيون ومؤلفاتهم

أولا ـ مؤلفون في التعديل

113 ـ إبن الرقّام السبتي، ت 705/«1306»[442]، وهو مخطط «جداول أطوال البلدان وعروضها»، خ. س، 10366، آخر مجموع.

ـ إبن البنا : أحمد بن محمد بن عثمان المراكشي المتكرر الذكر : ثلاث مؤلفات.

أ ـ «**منهاج الطالب في تعديل الكواكب**»، مخطوطاته متوافرة في خزانات المغرب وسواها، ثم كان بين أعمال المستشرق الإسباني المعاصر فيرنه خينس، أن حقق وترجم ـ إلى الإسبانية ـ المقدمة والأربعة والعشرين بابا من «**منهاج الطالب**»، دون الأربعة والستين جدولا التي ألحقها المؤلف بالكتاب، وصدر ذلك عن دار الطباعة المغربية بتطوان 1952.

وقد اعتمد معظم مسائل المنهاج المعدلون اللاحقون ـ وخصوصا المغاربة ـ إلى قريب من عصرنا، وكان ممن نوه به إبن خلدون[443]، وابن قنفد[444]، وابن هيدور[445]، والفشتالي [446] ومن المحدثين جماعة بين عرب ومستعربين.

---

(441) أوائل شرح الشريف الجوطي على روضة الأزهار للجادري، وترجمة اللخمي في «**جذوة الاقتباس**» م.س، ص 237-238.

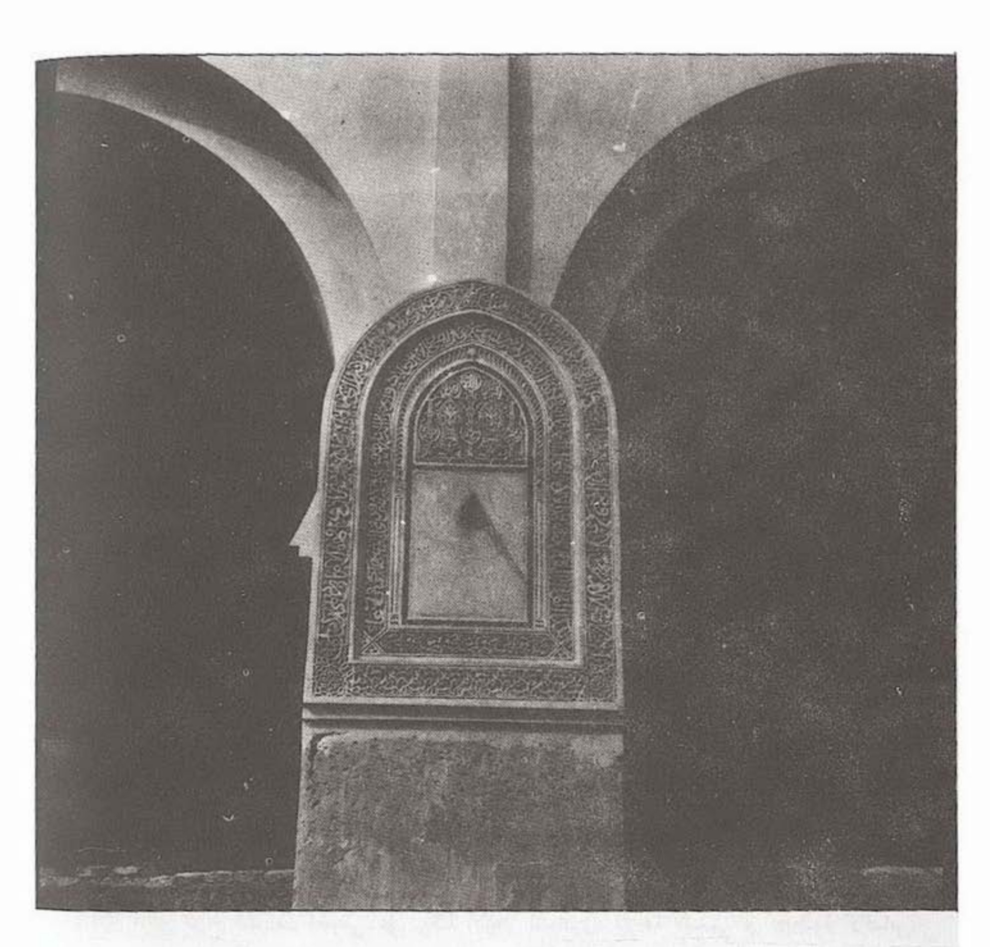
(442) في «**معجم المؤلفين**» لرضا كحالة 100/8، ترجمة للقاسم بن سعد بن محمد بن عبد الرحمن السبتي التونسي المعروف بالرقام، فهل يكون هو المشار إليه أعلاه ؟

(443) «**المقدمة**» م.س، ص 427.

(444) مدخل «**خط النقاب عن وجوه أعمال الحساب**» من مخطوطات خ.س، 53 ضمن مجموع.

(445) «**الاعتبارات النظرية في الأحكام النجومية**» خ.ع، د 2147.

(446) القصد إلى أبي الربيع سليمان الفشتالي الفاسي، شارح «**الرسالة الفتحية في الأعمال الجيبية**» للمارديني.



رخامة شمسية منكوسة بجامع القرويين بفاس

ومن علق عليه محمد الطيب بن مسعود المريني الفاسي، باسم «**النجم الوهاج في حل عُقَد المنهاج**»[447]، ثم أحمد بن علي البلغيثي الحسني[448].

ب ـ ولابن البنا «**اليسَّارة في تقويم الكواكب السيارة**»، خ. س، 9023, 12374، وهي ـ حسب إبن قنفد[449] ـ في غاية التعريف، لكنها تليق بالمبتدي، ومن شرحها المطرفي : أحمد بن حميدة المراكشي، باسم «**باسم المقصد الأسني في حل مقفل يسارة إبن البنا**»، خ، ع، د 1596، ثم الباعقيلي : عبد الرحمن بن عمْرو بن أحمد السوسي الجزولي المعروف بابن المفتي، وسمى شرحه «**سبك العبارة بألفاظ اليسَّارة**»، خ. ص 1/509[450]، إلى تعليقات أخرى يأتي ذكرها في مكانها المناسب.

ج ـ ولابن البنا : «**الزمام الكبير**»، و«**الزمام الصغير**»، في التعديل، نسبهما له ابن قنفد[451].

114 ـ أبو القاسم إبن عزوز نزيل فاس، وأصله من بني علناس بالجزائر، ت755/«1354»[452] بقسنطينة، ويعرف ـ الآن ـ ثلاثة من أوضاعه في التعديل :

أ ـ «**الزيج الموافق والمناخ المطابق**» خ. ع. د 2461 ضمن مجموع ـ خ. س 10270 خال من إسم المؤلف.

وقد كان متداولا بالمغرب، فينقل عنه البلغيثي آنف الذكر في تعاليقه على منهاج الطالب، وبعده يأتي إسم موقت مكناس عبد القادر بن محمد بن عبد الرحمن، الفاسي لقبا الشاوي المعزاوي نسبا، فيذكر من مقروءاته عدة أبواب من «**الزيج الموافق**»، أخذها عن شيخه أبي حامد العربي بن عبد السلام الفاسي نسبا وبلدة[453]، وأخيرا : كان «**الزيج الموافق**» من مصادر أحمد بن المواز في كتابه «**الطليعة الجلية، على نظم الدلالة الكلية**»، خ. س 423.

(447) خ. ع. د 4/1752 و21/2128.

(448) خ. ع. د 2/2948 ـ خ. س، 1009.

(449) مدخل «**حط النقاب**» (م. س).

(450) يلاحظ أن هناك تأليفا يحمل نفس الإسم، غير أنه ينسب لابن الحباك : محمد بن أحمد بن أبي يحيى التلمساني، خ. ع. د 1/2147، ص 1-15.

(451) مدخل «**حط النقاب**»، م. س.

(452) «**ألف سنة من الوفيات**» م. س، ص 82.

(453) «**إتحاف أعلام الناس**»، لابن زيدان، 5/331-332.

ب ـ «**الزيج الكامل**»، وضعه عام 718/«1315»، ولا يعرف عنه إلا ما كتبه بعضهم على الصفحة الأولى من «**الزيج الموافق**» في نسخة خ.ع.د، ونقله عن محمد بن أبي يحيى الحباك.

ج ـ «**رسالة في أدوار النيرين**»، خ. ص. 2/509.

* * *

ثانيا ـ مؤلفون في الميقات

تمهيد : تعددت عند المؤلفين الميقاتيين الأعمال التي يتوصلون بها إلى معرفة أوقات الصلاة والصوم، وساروا في ذلك على ثلاث طرق : الأولى، اعتمد أصحابها على الأخذ بالظل : أقداماً أو غيرها نهارا، وعلى توسط المنازل وطلوعها ليلا، وعليها سار أبو مقرع والمرغيتي وغيرهما، وهي تقريبية كثيرا، والطريقة الثانية تأخذ بحساب الظلال من غير ءالة لتحقيق الشمس نهارا والكوكب ليلا، وقد نهجها غير واحد كالجادري في روضة الأزهار ومن إليه، ولا تخلو من تقريب، الثالثة : الأخذ بالآلات، مثل الربع المجيب والربع المقنطر والكرة والأسطرلاب(454)، والطرق الثلاث متداولة بين المؤلفات التي نعرضها توّا :

ـ إبن البنا آنف الذكر : خمسة أوضاع

أ ـ «**القانون الكبير**»، وموضوعه علم الأوقات، ومعرفة قوس النهار للشمس، والكواكب وقوس ميلها، وكم ساعة معتدلة في الليل والنهار، ولا يعرف «القانون الكبير» إلا من خلال إشارة الماواسي له(455).

ب ـ «**رسالة في علم الأوقات بالحساب**»، خ.س 7817، وقد تكون هي «**القانون الصغير لابن البنا**».

ج ـ «**شرح رجز أبي مقرع**»، ولا يعرف ـ الآن ـ إلا من خلال اختصاره لسعيد بن سليمان الكرامي، خ.ع.د 1532.

د ـ «**رسالة في ذكر الجهات وبيان القبلة**»، خ.ص 2/254.

(454) رسالة في موضوع الاحتياط ـ زمنيا ـ لأوقات الصلاة والصوم، من تأليف الفلكي المعاصر، محمد بن محمد بن إبراهيم العلمي الفاسي، مخطوطة خاصة :

(455) «**شرح روضة الأزهار**»، م. س،

هـ ـ «**رسالة في ترحيل الشمس في المنازل والفصول**»، خ.س 1296 ضمن مجموع.

116 ـ إبن حجاج : صالح بن أحمد بن محمد اللحمي، وهو مرجز «**القانون الكبير**»، لابن البنا[456].

117 ـ أبو مقرع : محمد بن عبد الحق بن علي البطيوي، كان حيا أواسط ق 13/8، وكان ـ حسب الجادري ـ[457] سكناه بالبادية وبها نشأ وقرأ، وكان ينتقل في مداشرها ويجعل على عاتقه مقرعا في سفره، فلقب بأبي مقرع بذلك، وقيل أصله من القلوع من بطويه على مقربة من خصاصة.

وهو صاحب «**رجز أبي مقرع**» في التوقيت، ولطوله اختصره محمد بن سعيد السوسي المِرغيتي بأرجوزة «**المقنع**»، من مخطوطات خ.س، 2148 ضمن مجموع.

118 ـ الجادري : عبد الرحمن بن محمد بن عبد الرحمن المديوني ثم الفاسي، موقت القرويين، ت 839/«35 ـ 1436»[458] : خمس مؤلفات.

أ ـ «**روضة الأزهار في علم وقت الليل والنهار**»، أرجوزة ـ في عمل التوقيت بالحساب ـ تشتمل على 346 بيتا، وقد انتشرت دراستها في الحلقات الميقاتية، وتتابعت شروحها، وبذلك تكاثرت مخطوطاتها، ثم نشرت ضمن شرحها للبعقيلي بالمطبعة الحجرية الفاسية.

ب ـ «**إقتطاف الأنوار من روضة الأزهار**»، صنفه كشرح محاذي للروضة دون أن يذكر المتن، خ.ع.د 1596 ـ خ.س، 4151.

ج ـ «**مختصر اقتطاف الأنوار المشفع به روضة الأزهار**»، نقل عنه الماواسي في **شرح الروضة**.

د ـ «**شرح رجز أبي مقرع**»، خ.ع، ق 1087 ضمن مجموع ـ خ.س، 5/4585، واسمه «**مفتاح الباب المقرع في شرح رجز أبي مقرع**».

---

(456) «المصدر»،

(457) عند افتتاحية شرحه لرجز أبي مقرع، خ. س، 4585 /5.

(458) تعددت مصادر ومراجع ترجمته، ومنها «سلوة الأنفاس»، م. س، 2/157-158.

هـ ـ «**تنبيه الأنام على ما يحدث في أيام العام**»، شرح فيه تقييدا في الشهور العجمية وما يحدث فيها، خ.ع، د 2023.

ـ الفارسي : عبد الرحمن بن محمد بن مسعود الورتناچي من أخماس تازا، وقد سبق ذكره.

«**شرح رجز أبي مقرع**»، أشار له الماواسي في **شرح الروضة**.

119 ـ الكرامي : سعيد بن سليمان السوسي السملالي ت 882/«1477»،

«**اختصر شرح إبن البنا على رجز أبي مقرع**»، خ.ع، د **1532**.

* *

ثالثا : مؤلفون في التنجيم

تمهيد :

نمهد لهذه المادة بعرض وجيز عن موقف النخبة من هذا العلم، وفي هذا الصدد، يشيد إبن مرزوق[459] بعزوف كل من أبي الحسن وابنه أبي عنان عن الالتفات لهذا العلم، وهذا نفس موقت أعلام هذه الفترة.

على حين كان العاهل أبو سالم له ميل إلى علم التنجيم، وكذلك وزير أبي زيان : أبو بكر بن أبي مجاهد غازي إبن الكاس، وهو الذي رفع إليه إبن قنفد القسنطيني «**شرحه على رجز الدلالة الكلية على الحركات الفلكية**» من نظم إبن أبي الرجال[460].

ومن جهة الفلسفة الاجتماعية، فإن إبن خلدون يشتد في إنكار جدوى هذا

(459) «**المسند الصحيح الحسن**» م. س، ص 438-39, 444.

(460) تعددت مخطوطاته، ومنها ثلاثة كالآتي : خ. ع. د**4/2147** ـ خ. ع. د **2/2237** ـ خ.ع.ك **1648**، ونضيف هنا أن أبا سالم كان له اعتناء خاص بالأسطرلاب كأحد أدوات التنجيم، ولابن رضوان بعض نتف شعرية في أسطرلاب من ذهب كان بين ذخائر العاهل المريني، مع نتفة أخرى تصف غشاء أسطرلاب فضة، حسب ابن الخطيب في «**الإحاطة**» : (نصوص جديدة لم تنشر)، ص 150-152.

العلم، ويبرهن على إبطاله بأدلة منوعة بسطها تحت عنوان : «**فصل في إبطال صناعة النجوم وضعف مداركها وفساد غايتها**»[461].

وكمؤرخ يتابع مسار المجتمع المريني، نلم بالمؤلفين والمؤلّفات في هذه المادة.

ـ إبن البنا المتكرر الذكر : ثلاث مؤلفات :

أ ـ «**مقدمة في أصول أحكام النجوم**» خ.ع، د، 3/2000.

ب ـ «**كتاب الأنواء**» منشور بتحقيق المستشرق الفرنسي»، رنو ـ باريس 1948.

ج ـ «**ترحيل المقاتل[462] على البروج**»، ج. س، 9023.

ـ أبو القاسم بن عزوز سابق الذكر :

مؤلفان :

أ ـ «**الحروز في شرح الرموز**»، أحال عليه ـ كمقالة ـ في كتابه الآخر : «**الزيج الموافق**» المتقدم الذكر.

ب ـ «**كتاب الفصول في جمع الأصول**»، توجد منه المقالة الثانية، خ.س، 8691.

120 ـ إبن البقار : محمد الفاسي، كان حيا عام 821/«1418».

ألف «**كتاب الأدوار في تسيير الأنوار**»، خ.س، 5372 ـ خ.ع، د 16/2147.

إبن هيدور : علي بن عبد الله بن محمد التادلي سابق الذكر، مؤلّف واحد : «**الاعتبارات النظرية في الأحكام النجومية**»، خ.ع. د، 3/2147 ضمن مجموع، ص. 333 ـ 339.

* * *

(461) «المقدمة»، م. س، ص 478ـ483.

(462) هو زجل.

رابعا : مؤلفون في التعريف بتركيب واستخدام أجهزة فلكية

إبن البنا : ست مؤلفات

أ ـ «**مقالة في عمل الأسطرلاب**».

ب ـ «**مختصر رسالة إبن لصُّفار في العمل بالأسطرلاب**».

ج ـ «**المنهاج في تركيب الأزياج**»[463].

د ـ «**مقالة في العمل بالشبيكة التي تكون في ظهر الأسطرلاب**» من مخطوطات المكتبة العامة بتطوان رقم 708.

هـ ـ «**الصفيحة الجامعة**»، إسم تلخيص إبن البنا لرسالة إبن الزرقالة، في طريقة العمل بالصفيحة الشكازية في الأوقات الزمانية»، نشرها وقدم لها ـ في مجلة «**دعوة الحق**» ـ الأستاذ محمد العربي الخطابي، : التقديم بالعدد 241، والرسالة بالعدد 242.

و ـ «**رسالة في العمل بالميزان**»[464].

ـ إبن قنفد : أحمد بن حسن بن علي القسنطيني نزيل المغرب، ت 810/ 1407، وقد تكرر ذكره.

نظم ـ بفاس ـ أرجوزة باسم «**السراج**»، وصف فيها تركيب الأسطرلاب وطريقة العمل به، في سياق يصل إلى 247 بيتا، خ.س، 5985.

* * *

III ـ مناقشات فلكية منوعة

أثار عدد من المؤلفين ـ في هذه الفترة ـ مناقشات موضوعية اتسمت بالتنوع، والمعني بالأمر ـ أولا ـ بعض التصحيحات لرصد كل من أبي العباس أحمد بن إسحاق التونسي ثم ابن البنا، وكأن أول من أثار ذلك أبو القاسم إبن عزوز سابق

(463) هذا والمؤلفان قبله، ثلاثتها ذكرها له إبن هيدور في افتتاحية «**التمحيص في شرح التلخيص**»، مخطوط خ.س، 2425.

(464) ذكرها لابن البنا ابن هيدور في افتتاحية «**التمحيص**» آنف الذكر.

الذكر، وتناوله في أحد أوضاعه الذي يحمل إسم «**الزيج الموافق**»، سابق الذكر عند الإسم رقم 114.

فيقول ــ في أوائله ــ عن رصد ابن إسحاق التونسي: «فأما الرصد المشهور في عصرنا، فهو الذي رصده الفقيه أبو العباس أحمد بن إسحاق التونسي... فلما أردنا إصلاح الاختلاف الواقع في الزيج المشهور، اعتمدنا إصلاحا بالرصد بالآلة المعروفة «بذات الحَلَق»، بغاية التدقيق ونهاية التحقيق، ثم بتقسيم الاختلاف الواقع على الأدوار النجومية، من حين رصْد الفقيه أبي العباس أحمد بن إسحاق التونسي إلى أول سنة خمس وأربعين وسبعمائة للهجرة، ببراهين هندسية، ومقاييس عقلية، ونسب عددية».

وإلى التونسي يسجل إبن هيدور[465] عن زيج إبن البنا ظهور الخلل في بعض «تعاديله، ويوصي بالاعتماد على الرصد القريب لوقت التعديل.

وفضلا عن زيج إبن البنا، تعرض أحد مؤلفاته الأخرى لبعض التعاليق، والقصد إلى «**اليسَّارة في تقويم السيارة**» سابقة الذكر، وقد تعرضت لنقد مواضع منها من جهة إثنين من المختصين.

121 ــ أبو علي عمر بن عبد الله إبن جندوز، ألف «**إيضاح العبارة في إصلاح اليسَّارة**»، فيقول عند افتتاحيته والسياق لرسالة «**اليسارة**» لابن البنا: «فوقفت على نسخة بخطه وهي التي حررها من مبيضته، فاختبرت حركاتها فوجدت الوهم في إثنا (كذا) عشر موضعا فأُصلحتها، ونبهت على ثلاثة مواضع منها تخل بالعمل، ... وأصلحت ــ أيضا ــ أربعة وثلاثين موضعا تتركب من تلك الأوهام، وتممت حركات المبسوطة والشهور والأيام والساعات، واستدركت بعض الفصول، وزدت في حركاتها المجموعات الأصول، وأثبتت دقائق المطالع والأوجات والتعاديل، لما في ذلك من التحقيق والتكميل».

وقد وزع المؤلف هذه المناقشات بين عشرة أبواب مذيلة بـ58 جدولا توضيحيا حسب المخطوطة «**الخاصة**» التي اعتمدتها، وهي تشتمل على 65 ص من القطع الكبير : 7 × 58 على بياض يتخلل ورقات قسم الجداول، وقع الفراغ من

---

(465) إفتتاحية «**التمحيص**»: المصدر المتكرر الذكر.

انتساخها يوم 28 من ذي القعدة 1200 هـ على يد الحاج عمْرو بن الشرقي الدكالي الغربي المراكشي[466].

الثاني : إبن قنفد القسنطيني المتكرر الذكر، وهو مؤلف «**تسهيل المطالب في تعديل الكواكب**» من بين مخطوطاته نسخة خ. س، 10995، وقد لاحظ على «**اليسارة**» أنه رأى فيها تقريبا يخل بالعمل في تعديل الكواكب، مع تطويل في الأعمال بالضرب والقسمة، فوضع رسالته هذه ليعلم منها ــ دون خلل ولا كثير عمل ــ مواضع الكواكب ودرجاتها، ورجوعها واستقامتها، ومراكز البيوت الإثني عشر... وبذلك وزع موضوعاته بين 12 فصلا مذيلة بـ11 جدولا توضيحيا، من مخطوطات خ. ع. د 266 ــ خ. س، 5262.

122 ــ وقد حاول مؤلف من العصر العلوي أن يقلل من أهمية مؤاخذات إبن قنفد على «**اليسارة**»، والمعني بالأمر مؤلف مراكشي لم يُذكَر إسمه، في شرحه على رسالة إبن قنفد باسم «**تحصيل المناقب وتكميل المآرب على تسهيل المطالب في تعديل الكواكب**»، من مخطوطات خ. ع، د 3/266، مع خ. س، 7414 ضمن مجموع.

وإلى هذه المناقشات نختتم بالفلكي محمد بن البقار سالف الذكر، وهو ينكر على القدماء والمحدثين إثبات الحركة الذاتية للشمس، وهي التي تعرف باسم حركة الإقبال والإدبار، متفقا في هذا مع ابعض الرصاد المتأخرين، ولم يثبت للشمس سوى حركة واحدة وهي التي تسمى بالحركة الطبيعية، حسبما قرر هذا في الباب الأول من «**كتاب الأدوار في تسيير الأنوار**» : المخطوط السالف الذكر، والذي يحمل رقم 2147 خ.ع، د : ضمن مجموع، ص. 333 ــ 339.

---

(466) لا نعرف ــ الآن ــ ترجمة المؤلف إبن جندوز، وكان ممن أشار له الجادري في شرح رجراجي مقرع خ. س، 5/4585، على أن كتابه استمر حاضرا في الحلقات الفلكية إلى العصر الحديث، فيدرسه أبو زيد بن أبي السعود الفاسي على شيخه موقت القرويين عبد القادر الطليط، حسب أوائل «**الأمليات الفاشية في شرح العمليات الفاسية**» لأبي القاسم العميري، مخطوط خاص، ثم كان من مقروءات موقت مكناس عبد القادر الفاسي لقبا المعزاوي نسبا، وقد درسه على شيخه العربي بن عبد السلام الفاسي الفهري، حسب «**إتحاف أعلام الناس**» 5/331ـ332، وأخيرا كان بين الكتب التي يستعملها طلبة «**مدرسة المهندسين**»، التي أنشأها السلطان العلوي محمد الرابع بفاس الجديد، «**مظاهر يقظة المغرب الحديث**» 144/1.

IV ـ نماذج من المؤلفات والأجهزة التي يستخدمها الفلكيون في أعمالهم : تدريسا وتدوينا

ففي **التقويم** : «**الزيج الكافي**» لأحمد بن إسحاق التونسي، و«**الزيج القويم**» للرقام: محمد بن إبراهيم الأوسي المرسي ثم الغرناطي، و«**منهاج الطالب**» و«**اليسّارة**»: كلاهما لابن البنا، و«**الزيج الموافق**» لابن عزوز، و«**إيضاح العبارة في إصلاح اليسَّارة**» لابن جندوز، و«**تسهيل المطالب في تعديل الكواكب**» لابن قنفد، و«**كتاب العمل في الأسطرلاب**» لابن الصُّفّار : أحمد بن عبد الله بن عمر الأندلسي، و«**تذكرة أولى الألباب في استيفاء العمل بالإسطرلاب**» لأبي القاسم إبن الزبير : أحمد بن إبراهيم الثقفي العاصمي الجياني ثم الغرناطي.

وفي **التوقيت** : «**القانون الكبير**» لابن البنا، و«**نرجيزه**» لصالح بن أحمد بن محمد اللخمي، و«**رجز أبي مقرع**»، وكان معتمد طلبة الأرياف[467] أكثر، وشرحه للجادري، وأرجوزة «**روضة الأزهار**» للجادري وشرحاها للمؤلف، و«**محصلة المطلوب في العمل بربع الجيوب**» للتوزري : عمر بن عبد الرحمن بن أبي القاسم القرشي المخزومي.

وفي **التنجيم** : رجز «**الدلالة الكلية على الحركات الفلكية**» لعلي إبن أبي الرجال، و«**شرحة لابن قنفد القسنطيني**، و«**الاعتبارات النظرية في الأحكام النجومية**»، لابن هيدور، و«**كتاب الأدوار في تسيير الأنوار**» لمحمد إبن البقار.

وفي **الهيئة** «**كتاب الهيئة**» لأبي إسحاق إبراهيم البطروجي، وكتاب «**الهيئة**» لمحمد المكلاتي المكناسي.

* * *

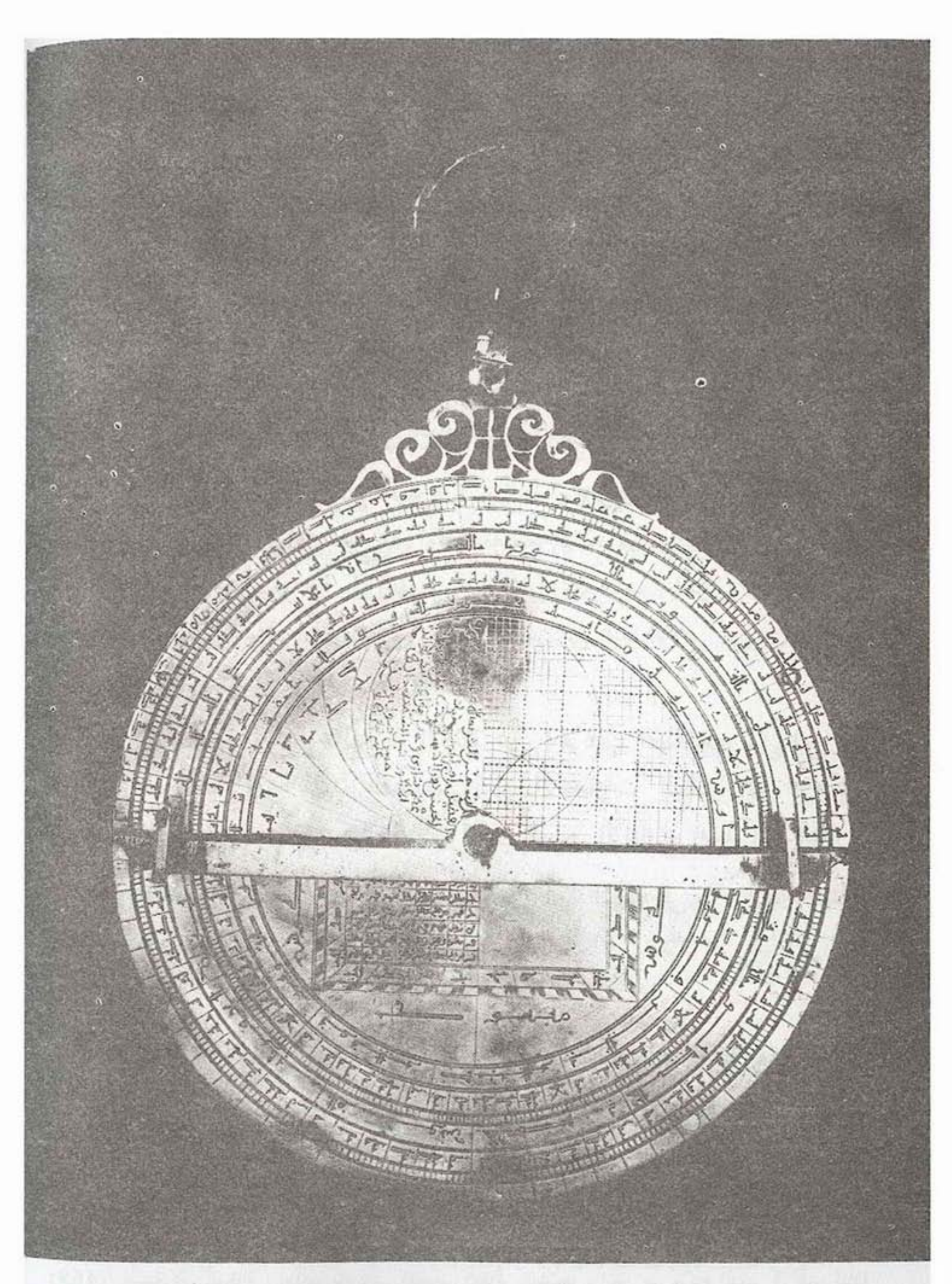
وفي **الآلات الفلكية** : الأسطرلاب المسطح، والأسطرلاب المعروف بـ«ـذات الحَلَق، وهو ـ حسب نلّينو ـ[468] سبع حلق معدنية متحركة مركبة في بعضها»، ومن الآلات الأخرى الصفيحة الشكازية والزرقالية[469]، والربع المجيب، ويسمى أيضا

---

(467) إفتتاحية شرح الجادري على رجز أبي مقرع (م. س).

(468) «علم الفلك» (م. س)، ص 148.

(469) نسبة لابن الزرقالة : إبراهيم بن يحيى التجيبي النقاش الطليطلي، انظر عن مركزه المتميز في هذه المادة محمد المنوني، «دليل مخطوطات دار الكتب الناصرية بتمكّروت»، ص 44.



نموذج من الأسطرلابات في العصر الوسيط

بربع الدستور، والرملية المملوءة بالرمل(470)، والرملية المملوءة بالماء، وكان يقدّر بهما الزمن، ولا تزال بقاياهما في غريفة الموقت بمنار القرويين(471)، حيث كان ذلك يستخدم في معرفة الأوقات قبل ظهور المنجانات وإتقانها.

ونضيف لهذه الأجهزة فقرة وردت عند الونشريسي في «**المعيار**»(472) وهو يعدد البدع المستحسنة فيقول : «ومنها المنجانة، والبدن، والميزان».

فـ«ـالمنجانة» في هذه الفقرة كانت تطلق ـ آنذاك ـ على بعض الساعات المائية، وقد نقش على ساعة اللجائي بغريفة القرويين إسم «**المجانة**» ضمن فقرة لا تزال قائمة(473).

أما «**البدن**» فقد سمى به الجزنائي(474) ساعة إبن الحباك بنفس الغريفة، وقد مر ذكرها وسابقتها بأبسط مما هنا.

ونصل ـ الآن ـ إلى لقب «الميزان» في فقرة الونشريسي، غير أنه لا يعرف عنه ـ الآن ـ إلا القليل، وقد تبينا ـ سلفا(475) أن إبن البنا كتب رسالة في طريقة استخدام هذا الجهاز، وإلى ذلك نحيل على إشارة وردت عند ابن تيجلات في كتابه «**إثمد العينين**»(476)، فيذكر عن الشيخ محمد بن عبد الكريم الهزميري، أنه كان بين مخلفاته بعد وفاته، «ميزان الشمس لأوقات الصلاة»، فيكشف هذا عن بعض الغموض في مدلول الميزان، الذي قد يكون أحد أنواع الإسطرلابات.

---

(470) هي ءالة مركبة من وعاءين يلتقيان على جزء رقيق، بينهما ثقب نافذ من أحدهما للآخر، يملأ أحدهما رملا دقيقا يجعل في أعلاهما ويقلب الآخر إلى الأسفل، فينحدر الرمل من الأعلا إلى الأسفل حتى يفرغ الأعلى، ثم يقلب ويصير الأسفل أعلا وهلم جرا، وتكون العملية لدرجة أو درجتين، أو ساعة أو ساعتين، أو أقل من ذلك أو أكثر، إنتهى من حاشية الفلكي اللامع مَحمد بن مُحمد بن إبراهيم العلمي الفاسي، على شرح الفشتالي للرسالة الفتحية، للماريني، المطبعة الحجرية الفاسية، ص 6.

(471) التفاصيل عن ساعات الرملية المائية، مبسوطة في هذه الدراسة عند بحث «**مبتكرون لأجهزة فلكية**».

(472) 463/2، وقد تصحفت الفقرة في المطبوع، والتصحيح من نسخة مخطوطة.

(473) نص الفقرة كاملة وارد بهذه الدراسة عند المحور الأول.

(474) «**جني زهرة الآس**»، م.س، ص 50.

(475) عند آخر المحور الثاني.

(476) مخطوط خ. ع. د 1767.

الفصل الثاني

التيارات الفكرية في المغرب المريني

الفصل الثاني

التيارات الفكرية في المغرب المريني

كانت المذاهب الغالبة على المغرب في الفترة المرينية هي :

ـ المذهب الأشعري في المعتقدات.

ـ المذهب المالكي في الفقهيات.

ـ الصوفية السنية حسب طريقتي أبي مدين ثم أبي الحسن الشاذلي

وفي مقابلة هذه ظهرت ـ ولو في نطاق محدود ـ أفكار مضادة انبثق عنها شبه جمعيات يطبع بعضها تطرف واضح.

ومن جهة أخرى قام ـ في نفس الفترة ـ حركات اصطبغت بأغراض متنوعة : من الرد على اليهودية والمسيحية، إلى مقاومة البدع ومعارضة الانحراف الحكومي، إلى اقامة السنة وتغيير المنكر، إلى الدعوة لمقاومة المدّ المسيحي بالأندلس والمغرب، إلى ظهور أفكار جديدة في الاجتماع والتعليم.

وهكذا وجد في هذا العصر ـ ولو إلى حد ـ تيارات فكرية متنوعة ومتباينة أحيانا، ووظيفة هذا البحث شرح مظاهر هذه التيارات حسب العناوين التالية :

أفكار جديدة في الاجتماع والتعليم ـ الرد على اليهودية والمسيحية ـ مناظرات ومراجعات ـ مقاومة البدع ـ مجتهدون وظاهرية ـ جماعات واتجاهات صوفية ـ جماعات السنة ـ جماعات للدفاع عن الأندلس والمغرب ـ جماعات متطرفة.

1 ـ أفكار جديدة في الاجتماع والتعلم

من المؤكد أن المدة الطويلة التي قضاها ابن خلدون[477] بالمغرب، كان لها أثر في إثارة مسائل اجتماعية بين عدد من المغاربة، وهو نفسه يسجل في **المقدمة**[478]: ـ

(477) ترجمته ومصادرها ومراجعها في **معجم المؤلفين**، ج 5 ص 188 ـ 191 مع ج 13 ص 396.

(478) ط المطبعة البهية المصرية ـ ص 157 ـ 158.

في صدد حديثه عن الرحالة المغربي ابن بطوطة ـ ظاهرة اجتماعية لفت نظره لها فارس بن وردار وزير السلطان أبي عنان المريني.

ومن المغاربة الذين تأثروا بأفكار **المقدمة**، يوجد ابن السكاك : محمد بن أبي غالب بن أحمد المكناسي القبيل ـ ثم العياضي، أبو يحيى الفاسي، المتوفى عام 818هـ/ 1415 ـ 1416م، وقد كان له اتصال بآبن خلدون[479]، ثم ظهر تأثره بـ**المقدمة** في ثلاثة من مؤلفاته.

الأول : كتاب **نصح ملوك الإسلام**[480]، الذي نثر فيه الفقرة التالية[481] :

«... غير أن العقلاء وأهل التجربة الصحيحة والفراسة الصادقة، قالوا : إن الدول إذا تهممت بالطرف والذخائر، وقصرت همها على الحلي والحلل، وثياب الديباج المذهبة، وستور الحرير، والفرش الهائلة، والمباني المشيدة، دل ذلك على تحلل تركيبها، واضحملال ضخامتها، وفناء رونقها وحسنها، ونقصان كمالها، وآل أمرها للدثور والدمار، وإذا صحب دولة الاقتصاد في الإنفاق، والتقلل من المؤن، والعدل في الرعية، واختيار الجند وإنتقاؤهم، والاستغناء فيهم بقليل نفاع، عن كثير عظيم المؤونة، قليل المنفعة، ورأس الأمر حسن العقد مع الله تعالى، وصفاء السريرة، وخلوص النية والقصد، ومراعاة وجه الكريم في إحياء سنن حبيبه وإماتة البدع، كان لها من الظهور والشماخة وبعد الصيت ما لا يفي بوصفه الدواوين، واعتبر ذلك بأوائل ملوك لمتون والموحدين، كانوا على سبيل من الاقتصاد غريب، فتوفرت الجباية، ودخلت الأقطار في ملكهم، فجاهدوا، وخلدوا المآثر والمفاخر، بخلاف أواخرهم : اشتغلوا باقتناء الذخائر، وأهملوا ما تقدم، حتى قيض لهم من أزالها من بين أيديهم، فليعتبر العاقل في ذلك وليستبصر في المبادئ والخواتم، فخذ تجربة صحيحة فيما ذكرناه لا تكاد أن تتخلف، ومن كان طلعة لكتب التواريخ وجد مصداق ما ذكرناه في طيها» .

---

(479) **نيل الابتهاج**، المطبوع بهامش الديباج، مطبعة المعاهد بمصر عام 1351 ـ عند ترجمة ابن السكاك، ص.284 مع ص 170.

(480) اسمه الكامل، **نصح ملوك الاسلام بالتعريف بما يجب عليهم من حقوق آل البيت الكرام**، عليهم أفضل الصلاة وأزكى السلام، طبع أول مجموعة بالمطبعة الحجرية الفاسية عام 1316 هـ ، في 33 ص.

(481) ص.11–12.

هذه فقرة ابن السكاك، وقد تأثر في القسم الأول منها بـ**المقدمة**، حسب الفصل الذي يقرر : «أنه اذا استحكمت طبيعة الملك في الانفراد بالمجد وحصول الترف والدعة : أقبلت الدولة على الهرم»[482]، كما تأثر ـ بصفة عامة ـ بأسلوب ابن خلدون ومنهجه في تقرير هذا الموضوع الذي تناوله .

الثاني : كتاب **الأساليب**[483]، حيث ورد فيه أثناء الأسلوب الثالث قول ابن السكاك[484] :

«... إن سنة الله جرت باحتياج هذا الأدمي إلى ضروريات لا يقوم وجوده إلا بها، وناط بها مؤلمات، وأفقره إلى أسباب، اقتضت حكمته خلق السلامة من تلك الآلام عند تلك الأسباب لا بها...».

ومن الواضح أن هذه الفقرة ملخصة عن المقدمة، عند الفصل الأول من الكتاب الأول : المقدمة الأولى[485]، ونفس هذا الاقتباس وقع ـ مرة أخرى ـ لابن السكاك، في خطبة مؤلفه الاخر الذي يحمل عنوان : «**استخراج كنز الملوك والوزراء والحجاب**»، بالتعريف بأذكار يتوصل بها ـ إلى فوز الدارين ـ أرباب الألباب[486]، وقد قال في طالعته :

«وبعد : فلما كان الإنسان في هذه الدار الدنيوية في غاية الاضطرار إلى ضروريات لا يتم وجوده إلا بها، وفي نهاية الاحتياج إلى استدفاع أضداد وأغيار لا يستمر كونه إلا بفقدها...»

وهكذا يتكرر تأثر هذه الموضوعات الثلاثة بالمقدمة الخلدونية في فقرات تأتي عرضا اِثناء موضوعات لا مسيس لها بعلم الاجتماع، ومن هنا يتبين أن إبن السكاك كان يخالط هذا العلم، وأنه لو تصدى للكتابة فيه لا خرج كتابا إجتماعيا متشرفا.

وسوى إبن السكاك يوجد عالم مغربي اخر، اطلع على المقدمة، ونقد بعض

---

(482) ص.145ـ146.

(483) مصورة خاصة منه عن مجموعة بمكتبة الإسكوريال باسبانيا تحمل رقم 384.

(484) ورقة 67 ـ أ.

(485) ص.35ـ36.

(486) مخطوط تتوفر الخزانة العامة بالرباط على نسختين منه : الأولى تحمل رقم 90 ك. والثانية تحمل رقم 952 د.

أفكارها، والمعنى هنا هو أبو يوسف يعقوب بن موسى السيتاني الذي كان يعيش في النصف الأول من القرن التاسع هـ[487] ، فقد انتقد في أوائل شرحه على القصيدة التلمسانية[488]، تفسير ابن خلدون للفرائض الواردة في الحديث الشريف : «إن الفرائض ثلث العلم أو نصفه»، حيث أن الكافة فسروها بعلم الفرائض، بينما تفسرها المقدمة بالفرائض التكليفية[489]، ولكن السيتاني يصحح تفسير الكافة ويلغي تفسير ابن خلدون الذي أبهم اسمه وعبر عنه ببعض المتأخرين.

* * *

وقد أثير في هذه الفترة عدة أفكار تتصل بالتعليم، أثارها غير واحد من الأعلام الذين كانوا ينزلون المغرب، فكان الأبلي : محمد بن ابراهيم العبدري التلمساني نزيل فاس ودفينها[490]، ينتقد كثرة التآليف وبنيان المدارس، ويشرح هذا تلميذه المقري : محمد بن محمد بن أحمد القرشي التلمساني قاضي الجماعة بفاس[491] ويقول : «سمعت الشيخ الأبلي يقول : إنما أفسد العلم كثرة التواليف، وإنما أذهبه بنيان المدارس، وكان ينتصف من المؤلفين والبانين، وإنه لكما قال، بيد أن في شرح ذلك طولا، وذلك أن التأليف نسخ الرحلة التي هي أصل جمع العلم، فكان الرجل ينفق فيها المال الكثير، وقد لا يحصل له من العلم إلا النزر اليسير، لأن عنايته على قدر

---

(487) لا تعرف له إلّا ترجمة وجيزة وخالية من تاريخ وفاته، وقد وردت في **جذوة الاقتباس**، ط. ف.، ص.350-351، و**نيل الابتهاج**، ص.349، وفي شرحه على القصيدة التلمسانية ـ وسيرد في التعليق التالي ـ، توجد بعض معلومات أخرى عن حياته، وهو منسوب إلى بني سيتان، **قبيلة أمازيغية حوز فاس**، أنظر **روض القرطاس**، ط.ف.، 1305هـ، ص.277.

(488) اسمه ـ **منتهى الباني ومرتقى المعاني في شرح فرائض أبي اسحاق التلمساني**، وورد به اسم المؤلف هكذا : يعقوب بن موسى بن يعقوب ابن عبد الرحمن، وهذا خلاف الوارد في المصدرين اللذين ترجماه، يوجد من هذا الشرح ثلاث نسخ بالمكتبة الملكية بالرباط أرقام 1569 و1750 و2123، ونسخة أخرى : خ. ع. 702ك، مع نسخة خاصة، وفي **التراتيب الإدارية** ـ الطبعة الأولى ـ ج.2، ص.307 ـ 309 نقل كلام السيتاني في هذا الصدد وذيل عليه بتعليقات.

(489) ص.394- 395.

(490) ترجمته ومصادرها ومراجعها في **سلوة الأنفاس**، ج 3، ص.273- 274، وبالنسبة لموقفه من بنيان المدارس نسجل هنا رأيا معارضا لابن أبي حاج : محمد بن علي الجزولي ثم الفاسي، المتوفى عام 755 هـ ، حيث يثبت له ابن القاضي شعرا من بيتين في مدح سكنى المدارس، حسب **جذوة الاقتباس**، ط. ف.، ص.144.

(491) ترجمته ومصادرها ومراجعها في **سلوة الأنفاس**، ج 3، ص.271 ـ 273.

مشقته في طلبه، ثم يشتري أكبر ديوان بأبخس الأثمان، فلا يقع منه أكثر من موقع ما عوض عنه، فلم يزل الأمر كذلك حتى نسي الأول بالآخر، وأفضى الأمر إلى ما يسخر منه الساخر.

وأما البناء فإنه يجذب الطلبة إلى ما يترتب فيه من الجرايات، فيقبل بهم على من يعينه أهل الرياسة للإجراء والإقراء : منهم أو من يرضى لنفسه الدخول في حكمهم، ويصرفهم عن أهل العلم حقيقة، الذين لا يدعون إلى ذلك، وإن دعوا لم يجيبوا، وإن أجابوا لم يوفوا لهم بما يطلبون من غيرهم[492]، ويذيل المقري هذا الشرح بأفكاره الشخصية حول مسائل تعليمية أخرى ويقول :

«ولقد استباح الناس النقل من المختصرات الغريبة أربابها، ونسبوا ظواهر ما فيها إلى أمهاتها، وقد نبه عبد الحق في تعقيب التهذيب على ما يمنع من ذلك لو كان من يسمع، وذيلت كتابه بمثل عدد مسائله أجمع، ثم تركوا الرواية فكثر التصحيف، وانقطعت سلسلة الإتصال، فصارت الفتاوي تنقل من كتب لا يدري ما زيد فيها مما نقص منها، لعدم تصحيحها، وقلة الكشف عنها... ثم انضاف إلى ذلك عدم الاعتبار بالناقلين، فصار يؤخذ من كتب المسخوطين، كما يؤخذ من كتب المرضيين، بل لا تكاد تجد من يفرق بين الفريقين... ثم كلّ أهل هذه المائة عن حال من قبلهم : من حفظ المختصرات، وشق الشروح والأصول الكبار، فاقتصروا على حفظ ما قل لفظه، ونزر حظه، وأفنوا أعمارهم في حل لغوزه، وفهم رموزه، ولم يصلوا إلى رد ما فيه إلى أصوله بالتصحيح، فضلا عن معرفة الضعيف من ذلك والصحيح، بل هو حل مقفل، وفهم أمر مجمل، ومطالعة تقييدات زعموا أنها تستنهض النفوس، فبينما نحن نستكثر العدول عن كتب الأيمة إلى كتب الشيوخ، أتيحت لنا تقييدات الجهلة، بل مسودات المسوخ[493]...»

وبعد المقري والأبلي، يأتي إبن خلدون، ويتناول أكثر الموضوعات السابقة، ويعرضها في «**المقدمة**» حسب هذه الفصول :

ـ فصل في أن كثرة التآليف في العلوم عائقة عن التحصيل[494].

(492) **المعيار المعرب**، للونشريسي ط. ف. ـ ج 2، ص.374 ـ 375، **نيل الابتهاج** ص.246 ؛ **نفح الطيب**، المطبعة الأزهرية المصرية، 143/3.

(493) **نفس المصادر الثلاثة أعلاه**.

(494) ص.489ـ490.

ـ فصل في أن كثرة الاختصارات المؤلفة في العلوم مخلة بالتعليم[495].

ـ فصل في أن الرحلة في طلب العلوم ولقاء المشيخة مزيد كمال في التعلم[496].

ومما ينتقده إبن خلدون[497] على المغاربة، ضعف تدربهم على المحاورة والمناظرة عند التدريس والمذاكرات، ويبدو أن السلطان المريني أبا عنان : حاول أن يتلافى هذه الظاهرة، يدل لهذا قصته مع فقيه فاس على الصرصري، وقد ساقها في «**أزهار الرياض**»[498] هكذا :

«ولما كمل غرض أبي عنان كبير ملوك بني مرين، من بناء مدرسته المتوكلية بفاس، وكان بعيد الصيت في علو الهمة، قال : أنظروا من يقرئ بها الفقه، فوقع الاختيار على الشيخ الصرصري[499] الحافظ، ولما جلس بها واتسع صيته، وجه إليه أبو عنان من يسأله في مسائل التهذيب التي انفرد باتقانها وحفظها، وطالبه بتحقيق ذلك واتقانه وحسن تلقيه، ولا أدري المنتخب له، هل هو أبو عيسى موسى ابن الإمام[500]، أم السيد الشريف أبو عبد الله[501] شارح الجمل، أو هما معا، فطالباه بتحقيق ما أورده من المسائل عن ظهر قلب على المشهور من حفظه، فانقطع انقطاعا فاحشا، ولما أضجره ذلك نزل عن كرسيه وانصرف كئيبا في غاية القبض، ولما اشتهر ذلك عنه وجه اليه أبو عنان، فلما مثل بين يديه آنسه وسكنة، ثم قال له : أنا أمرت بذلك، كي تعلم ما عندك من العلم وما عند الناس، وتعلم أن دار الغرب هي كعبة كل قاصد، فلا يجب أن تتكل على حفظك وتقتصر على ما حصل عندك، ولا يمنعك ما أنت فيه من التصدي عن ملاقاة من يرد من العلماء والتنزل للأخذ عنهم، ولا يقدح ذلك في رتبتك عندنا إن شاء الله».

(495) ص.490.
(496) ص.497ـ498.
(497) **المقدمة**، ص.376ـ377.
(498) ط «مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر» بمصر ـ ج 3، ص.27ـ28.
(499) اسمه علي حسب فهرس **السراج**، عند ترجمة ابن عباد.
(500) لم أقف على ترجمته، غير أن ابن خلدون يعقب بعد ذكر ابني الامام ويقول :
«وبقي أعقابهما بتلمسان دارجين في مسالك الكرامة موقرين فيها طبقا عن طبق الى هذا العهد»، **العبر**، ج 7، ص.389.
(501) وردت بعض مراجع ترجمته في **سلوة الأنفاس**، ج 1، ص.86.

هذه هي القصة، وفيها نرى أبا عنان يهتم بتوجيه عالمين لمناظرة الفقيه الصرصري، ثم يستدعيه بعد ذلك، ويشير عليه بملاقاة من يرد على فاس من الأعلام والأخذ عنهم، وما ذلك إلا ليكتسب هذا ملكة في المناظرة التي تنقص طبقته، وهكذا يلاحظ أن أبا عنان قد شعر بضعف الدروس المغربية في هذه النقطة، وأخذ في محاولة تلاقي هذا النقص، الذي انتقده ـ أيضا ـ أبو العباس القباب اتي الذكر، حيث اعترف بتقدم المغاربة في الحفظ، وتفوق التونسيين والمشارقة عليهم في ملكة التحصيل[2/501].

وأخيرا : لا غنى لنا في هذا المقام عن أن نستثني المناظرات الكتابية، حيث كان للمغاربة مساهمة فيها، كما سنرى هذا من بعد.

* * *

ومن المسائل التعليمية التي كانت موضوع مناقشة في هذه الفترة دراسة مختصرات المتأخرين، وقد سبقت الإشارة لنقدها من طرف بعض العلماء الذين نزلوا المغرب وهما المقري ثم ابن خلدون، ونذكر هنا المغاربة أنفسهم الذين كان لهم موقف معارض في هذا الصدد، فبينما أقبل عدد من العلماء على دراسة بعض المختصرات في أواخر هذا العصر بالخصوص، كان في مقابلتهم فريق ثان يعارض ـ بشدة ـ إستعمال هذه الكتب، ويوجد من بين هؤلاء الفقيه القباب : أحمد بن قاسم بن عبد الرحمن الجذامي، الفاسي[502] : المتوفى عام 778 هـ/1377 م، فقد كان يقول : أن ابن بشير وابن الحاجب وابن شاس أفسدوا الفقه، وكان يقول ـ أيضا ـ شأني أن لا أعتمد على هذه التقييدات المتأخرة البتة، تارة للجهل بمؤلفها، وتارة لتأخر زمان أهلها جدا، أو للأمرين معا، فلذلك لا أعرف كثيرا منها ولا أقتنيه، وإنما المعتمد عندي كتب الأقدمين المشاهير.

وقد أشار أبو إسحاق الشاطبي[503] لمذهب القباب هذا وقال : ـ في مراجعة مع بعض أصحابه ـ وأما ما ذكرت لكم من عدم إعتمادي على التآليف المتأخرة، فلم يكن ذلك مني ـ بحمد الله ـ محض رأيي، ولكن اعتمدته بحسب

(2/501) **أزهار الرياض**، ج 3، ص.32.

(502) ترجمته ومصادرها ومراجعها في **سلوة الأنفاس**، ج 3، ص.244ـ245.

(503) ترجمته ومصادرها ومراجعها في **معجم المؤلفين**، ج 1 118ـ119.

الخبرة عند النظر في كتب المتقدمين مع كتب المتأخرين، وأعني بالمتأخرين : كابن بشير وابن شاس وابن الحاجب ومن بعدهم، ولأن بعض من لقيته من العلماء بالفقه أوصاني بالتحامي عن كتب المتأخرين، وأتى بعبارة خشنة، ولكنها محض النصيحة.

هذا كلام الشاطبي الذي يقصد ببعض من لقيه الإمام القباب، وبالعبارة الخشنة قولته الآنفة الذكر(504).

وعلى ذكر ابن شاس نسجل أن الفقيه الكبير محمد بن سليمان السطي الفاسي المتوفى عام 750 هـ/1349 ـ 1350 م : وضع تعليقا على ابن شاس لبيان ما خالف فيه المذهب المالكي(505).

وبعد هذا فإن موقف بعض المغاربة ضد هذه الكتب المتأخرة وصل حتى البلاد الشرقية، فهناك عبد الرحمن بن محمد بن عبد الرحمن السجلماسي المعروف بابن الحفيد، نزل جهات عديدة بالشرق العربي آخرها القاهرة، وتوفي عام 789هـ/1387ـ 1388م، وقد قال عنه ابن حجر(506)، «كان يزعم أن ابن الحاجب لا يعرف مذهب مالك، فأما من تأخر من أهل العلم فإنه كان لا يرفع لهم رأسا، الا ابن عبد السلام وابن دقيق العيد»، وهناك مغاربة مصامدة كانوا مرتبين في «المدرسة الشيخونية» بالقاهرة، وكان شيخ هذه المدرسة هو بهرام بن عبد الله بن عبد العزيز الدميري، وقد طلب هذا من المغاربة أن يصحح شرحه الصغير على المختصر الخليلي بين يديهم على عادة المشايخ، فأبوا عليه وقالوا : لا نقرأ كتبك ولا كتب شيخك ولا كتب ابن عرفة بين أيدينا، ولا نسمع إلا كتاب ابن عبد السلام فما فوقه(507).

هكذا كان موقف بعض المغاربة من دراسة المختصرات، ثم تطورت الحالة بعد هذا، حتى آل الأمر إلى أن طغت المختصرات على كثير من المواد الدراسية.

---

(504) **المعيار المعرب**، ط.ف.،ج 11، ص.109ـ110، وقد أشار الشاطبي لهذا في مقدمات كتابه **الموافقات**، «مطبعة المكتبة التجارية» بمصر، ج 1، ص.97ـ99.

(505) **نيل الابتهاج**، ص.244 عند ترجمة السطي، وأصله في **المعيار المعرب**، ج 4، ص.119، ط.ف.

(506) **إنباء الغمر بأنباء العمر**، مخطوطة المكتبة الملكية بالرباط رقم 3824 ج 1 في حوادث سنة 789 هـ، عند ترجمته، وقريب من هذا في **الدرر الكامنة**، ج 2، ص 343، وانظر عن ترجمته، ـ أيضا ـ **فهرس السراج**، خ، ونثير **الجمان** خ، و**نيل الابتهاج**، ص.168.

(507) شرح خطبة المختصر الخليلي لأبي الحسن الشاذلي المالكي، وقد صدر به شرح هذا المختصر لبهرام، حسب مخطوطة المكتبة الملكية رقم 8270، ثم **نيل الابتهاج**، في ترجمة بهرام، ص.101.

2 ـ الرد على اليهودية والمسيحية

كان من مظاهر التفكير الديني في هذه الفترة وجود حركة للرد على اليهودية والمسيحية.

وفي صدد اليهودية هناك كاتب من سبتة انتقل للإسلام وتسمى بعبد الحق الإسلامي، ثم وضع رسالة تحمل اسم «**السيف الممدود في الرد على أجبار اليهود**»، وحسب بعض نسخها المخطوطة، فقد كتبها بإشارة من أبي زيد عبد الرحمن بن الحاجب المريني أبي العباس أحمد القبائلي، المتوفى هو ووالده ـ ذ بيحين ـ يوم الخميس 30 شوال عام 882 هـ/1400 م[508]، وقد طرز باسم هذا خطبة الكتاب وخاتمته التي ذكر فيها ـ أيضا ـ اسم السلطان المريني عبد العزيز الثاني[509]، وهو يذكر في افتتاحية الرسالة السبب الحامل على وضعها، ويشرح منهجه في تأليفها وأقسامها ويقول :

«ولما منَّ الله ـ جل جلاله وتقدست أسماؤه ـ بما منَّ علي، وأحسن بإحسانه إلي، أشار علي السيد الماجد الفقيه.. أبو زيد عبد الرحمن بن السيد الفقيه.. حاجب الخلافة العلية، السنية العزيزية[510]، المعظم.. أبي العباس القبائلي.. أن أؤلف جزءاً في بيان ما هم عليه اليهود ـ لعنهم الله ـ من الضلالة والكفر الشنيع والشرك بالله تعالى، وما هم يعتقدونه من الباطل المحض في إنكار نبوة المصطفى، ليكون ـ إن شاء الله تعالى ـ ماحيا لاعتقادهم، ومذهبا لأثارهم، فاستعنت بالله ـ الذي لا إلاه غيره ـ على تأليف ما أشار به هذا السيد الفاضل... مستدلا عليهم بالأدلة الساطعة، والبراهين القاطعة، مما يدل على فساد عقلهم، ويوذن بجرمهم وعدم أدبهم، واقتصرت على ما في كتبهم مما لا يسعهم إنكاره بوجه ولا بحال، ليكون أنكى لهم، وأبلغ في الحجة، وأجدى في الاستدلالات، وجعلت ما هو في التوراة ـ بزعمهم ـ أو في

---

(508) ترجمته في **جذوة الاقتباس**، ط. ف.،ص.258ـ259.

(509) ترجمة في **جذوة الاقتباس**، ط.ف.، ص.268ـ269.

(510) يقصد ولاية السلطان المريني عبد العزيز الثاني آنف الذكر، وحجابة المذكور له : فائدة جديدة أستفيدت من هذا النص.

غيرها من تواليفهم من النصوص العبرانية مكتوبا بالأحمر، وتفسيرها ــ بالعربي ــ بالمداد الأكحل على حسب تفسير قدمائهم وشرائع علمائهم... وبنيت على الإيجاز والاختصار، دون بسط ولا إكثار..

ثم يقول عن أبواب الكتاب : إعلم أن الكلام ينحصر في هذا المطلب في خمسة أبواب : الباب الأول : في تقرير المواضع التي في كتبهم ناصة على صحة نبوة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وأنه مرسل لكافة الخلق؛ الباب الثاني : في نسخ شريعته لجميع الشرائع؛ الباب الثالث : في وقوعهم في الأنبياء عليهم السلام؛ الباب الرابع : فيما توارثهم من الشرك والتجسيم والتغيير والتبديل...؛ الباب الخامس : فيما في كتبهم من تعظيم النبي محمد صلى الله عليه وسلم، وما فيها من معجزاته وصفته وآياته.

فرغ من تأليفه في العشر الآخر من ذي القعدة، عام 796 هـ/1394 م حسب نسخته المخطوطة الآنفة الذكر، وهي محفوظة بالخزانة العامة بالرباط ضمن مجموع يحمل رقم 3395 د، من ص 360 إلى ص 381، مسطرة 22، مقياس 150/200، خط مغربي لا بأس به ملون خال من اسم الناسخ، ووقع الفراغ من انتساخه عشية الاثنين أواسط ربيع الثاني، عام 1075 هـ.

ثم طبع على الحجر بفاس طبعة متأخرة خالية من التاريخ، في 24 ص، من حجم متوسط، ويلاحظ أن النص المطبوع يختلف ــ يسيرا ــ عن المخطوط، حيث لم يرد في أوائله ولا أواخره ذكر القبائلي، كما لم يذكر السلطان المريني، وإنما جاء في أوله أنه وضعه بإشارة من بعض طلبة سبتة، مما يدل على أن الرغبة في تأليفه جاءت من أكثر من جهة، وقد ورد اسم الرسالة في النص المطبوع هكذا : **الحسام الممدود، في الرد على اليهود.**

وإلى جانب الحسام الممدود، نجد مؤلفا أندلسيا مجهول الإسم الكامل، وإنما يتسمى محمدا وينتسب للأنصار، حسب الباب الأول من الرسالة التالية، وقد وضع رسالة سماها : «**رسالة السائل والمجيب، وروضة نزهة الأديب**» من 35 بابا، ثم خصص الباب الأخير الذي هو الخامس والثلاثون، لذكر مجادلاته الدينية مع مسيحيي قشتالة، وهو يذكر أن هذا الموضوع كان هو الحافز له على كتابة **رسالة السائل والمجيب**، التي ألفها برسم الوزير المريني : الحاجب أبي زكرياء يحيى بن زيان،

والظاهر أنه يقصد به أبا زكرياء يحيى بن عمر بن زيان الوطاسي، وزير السلطان عبد الحق المريني، وقد كانت وفاة هذا الوزير عام 852 هـ/1448 ـ 1449 م[511]، وكان هذا يعرف بيحيى بن زيان نسبة إلى جده، وبهذا الاسم ورد في **الاستقصا**[512]، وهكذا يتبين أن هذا المؤلف نزل المغرب.

وهو يتحدث في الباب 35 عن ست مجالس عقدها لمحاورة المسيحيين القشتاليين بإسبانية، ويقدم الحديث عن هذه المجالس هكذا :

«يقول المؤلف ـ لطف الله به ـ إنما دعاني لتأليف هذه الرسالة ما يأتي من الفصول الجدلية إن شاء الله تعالى، وذلك : إني لما رميت بسهم الاضطرار، عن قوس الأقدار، إلى بلاد النصارى ـ أبادهم الله ـ وطال المقام بين أظهرهم، اطلعت على عنادهم، وفهمت لغتهم وكتابتهم، واجتهدت في البحث عن أصول ديانتهم، والقواعد التي هي أس شريعتهم : رأيت من ركاكة نصوصهم، وتضاد منصوصهم، ما تمجه العقول، و... المعقول، فلما رأت أساقفتهم : إني قد رأيت أحكامهم، وفهمت أقلامهم، حشروا إلي خفافا وثقالا، وسارعوا إلى مناظرتي ركبانا ورجالا، فدارت بيني وبينهم مجادلات ومحاورات، في مجالس عدة، جلها بقصر ملكهم، وهو الفنش المعروف بابن الأصفر، ومنها بمنزلي، ومنها بدار رئيس كتبة الملك وصاحب سره، وهو أعلم من بوطنه، وكان هذا اللعين يهوديا فتنصر، وبلغ من الملك مبلغا عظيما، حتى استبد بتدبير ملكه.

وها أنا ذاكر ـ إن شاء الله ـ بعضا من تلك المجالس على جهة الاختصار والتقريب، لأن ذكرها ـ بأسرها ـ يستدعي طولا، والقصد بذكر ما أذكر : إعلام من لم يمتحن من المسلمين بأباطيلهم وتساويلهم، فإنه إن اضطر أحد إلى مناظرتهم يوما وهو غير عارف بأصولهم، ربما أفحموه وألبسوا له الحق بالباطل، فإن من شأنهم مكابرة العقول، وخلط المنقول بالمعقول.

ولتعلم ـ عافاك الله ـ أن ما في الملل، ولا في جميع الآراء والنحل، أسخف عقولا ولا أجهل من الروم، ولا ينبغي لمن اضطر إلى مباحثتهم يوما أن يناظرهم إلا بنصوص إنجيلهم، وما بين أيديهم من صحف الأنبياء، لأنهم لا يقبلون غير ذلك،

---

(511) ترجمته في **جذوة الاقتباس**، ط.ف.، ص.336-337.

(512) ط. دار الكتاب، الدار البيضاء، ج 4، ص 96.

ولا يحتاج الماهر فيما ذكر أكثر من تكذيبهم والرد عليهم، ويصون دينه ونبيه، لأنهم ـ أبادهم الله ـ مهما ذكرت لهم النبي صلى الله عليه وسلم نفروا وزادوا طغيانا ومعاندة، وسددوا ضروبا من الأهاويس والفرية، لا يقولها إلا أمثالهم من متنقصي الأنبياء عليهم السلام، إذ لا ينكر عليهم ولا على اليهود ذلك، إذ قد صدر منهم من الشتائم في الأنبياء ـ أعني في بعضهم ـ ما يكون كافيا في خلودهم في النار..».

هذه هي الافتتاحية التي مهد بها المؤلف للموضوع، ومن بعض فقراتها مع تتبع فصول هذا الباب : 35 نستطيع أن نعرف منهاج المؤلف في هذه المجادلات، فهو يعتمد فيها على نصوص التوراة والإنجيل والزبور، مع ما عند مجادليه من صحف الأنبياء، ويعتمد في الإنجيل : رواية يحيى أو رواية لوقش، والمؤلف يستخرج من هذه النصوص ما فيها من تخليط وتناقض ليرد على محاوريه بذلك، كما يقارن بينها وبين سلوك المسيحيين الذي يكذب اتباعهم للتوراة والإنجيل، وهو ـ في بعض المرات ـ يورد قليلا من كلام مجادليه : باللغة القشتالية ثم يعربها، حسب الواقع في صدر المجلس الأول.

وقد تعددت مواضيع هذه المجادلات، وتناولت : مكانة الدين المسيحي، ومسألة الحلول والاتحاد والتجسيم، والسيد المسيح عيسى نفسه، والشعائر الإسلامية، والدين الإسلامي، وبعض شؤون الآخرة، والفرق بين الروح والنفس.

وباستثناء المجلس الأول، فإن المؤلف يحدد البلدان التي عقدت بها المجالس التالية، فيذكر أن المجلس الثاني كان بمدينة سلمنقة[513]، والثالث والسادس : بمدينة «مجريط» والرابع : ببلد «وليدا [514]»، والخامس بمدينة : «شقوبية».

وقد كان المجادلون له فيهم : أساقفة، ورهبان، ووعاظ، وشمامشة.

يعرف من هذه الرسالة ثلاث نسخ : الأولى : خاصة، مبتورة الأول بورقة : في 150 ص، ويقع الباب «35» المعني بالأمر من ص 117، إلى ص 150، مسطرة 20، مقياس 150/205، خط مغربي مليح مكتوب بمحلول السواك، مع تلوين في الكتابات الرئيسية، ويتخلله محو في بعض الورقات وشيء من التصحيف، خال من تاريخ التأليف، ووقع الفراغ من انتساخه قبل طلوع شمس يوم السبت فاتح

(513) ذكر في أوائل هذا المجلس الثاني وصف مدرسة سلمنقة الشهيرة.

(514) VALLADOLIR، وقد كانت هي العاصمة قبل مدريد.

المحرم، عام 1112 هـ، على يد ناسخ مكناسي وضع إسمه داخل شكل عدلي، لم يتبين منه إلا كلمتا عبد... ابن شمسي.

النسخة الثانية في نفس الخزانة العامة بالرباط، رقم 178 ج، وهي تقع بذيل الجزء الثاني من زهر الأكم لليوسي : من ص 227 إلى ص 321، ويأتي الباب 35 من ص 301 إلى ص 321، مسطرة 25، مقياس 165/210، خط مغربي لا بأس به يميل للإدماج ملون به تصحيف، وخال من تاريخ التأليف والنسخ وإسم الناسخ.

النسخة الثالثة في نفس الخزانة رقم 1138 د، وهي خالية من الباب 35 المعني بالأمر، حيث أن الموجود منها يقف أثناء الباب 26، وقد تحدث عن هذه النسخة بالذات الأستاذ الجليل، الدكتور إحسان عباس، في مقاله : «**رسالتان على غرار الغفران والتوابع والزوابع**»[515].

3 ـ مناظرات ومراجعات :

والمعني بالأمر هنا محاورات علمية مكتوبة، وهي تتناول الفقه المالكي بالدرجة الأولى، كما تتناول التفسير والتصوف والكلام واللغة والنقد الأدبي وغير ذلك، وقد جاءت الأطراف المتحاورة فيها مغربية تارة، ومختلطة من مغاربة وغيرهم آونة أخرى، وهذه مواضيع المناظرات والمراجعات وأسماء أصحابها :

أ ـ مباحثات في مسألة مراعاة الخلاف في المذهب المالكي : بين أبي العباس القباب والقاضي أبي عبد الله محمد بن أحمد بن عبد المالك الفشتالي الفاسي[516] وأبي إسحاق الشاطبي، وقد ورد بعضها عند الونشريسي في المعيار[517]، وقال عنها في **نيل الإبتهاج**[518] لدى ترجمة القباب : «وله مباحث مشهورة مع الإمام الشاطبي في مسألة مراعاة الخلاف في المذهب أحسن فيها غاية».

---

(515) مجلة **اللسان العربي**، العدد الرابع، ص.116-127.

(516) ترجمة في **نثير الجمان**، في شعر «من نظمني وإياه الزمان» لأبي الوليد اسماعيل ابن الأحمر، مصور المكتبة التطوانية بسلا، عن نسخة دار الكتب المصرية التي تحمل رقم 1863، أدب، وفي **نيل الإبتهاج**، ص.265 ـ 266، **والدرر الكامنة**، ج 3، ص.330، وانظر عن مصادر ومراجع ترجمتي القباب والشاطبي التعليقين رقم 502 ورقم 503.

(517) ورد فيه جواب القباب والفشتالي والشاطبي، ج 6، ص.271-278، ط.ف.

(518) ص.73.

وقد كان القاضي الفشتالي ـ أيضا ـ أحد الأطراف المتباحثة في مسألة تعليمية، وتدور حول ترتيب مادتي التفسير والفقه في التدريس، جاء في ترجمته[519] عند النباهي : «وكان من عادته تقديم دول الفقه على التفسير، وذهب إلى عكس هذا الترتيب الشيخ الرحال أبو إسحاق الحسناوي، أحد جلساء القاضي عند أقرانه في اخرين، فجرت بين الطلبة ـ إذ ذاك ـ بفاس في المسألة مراجعات ومخاطبات وقفت على بعضها، فرأيت من تخلق القاضي يعني القشتالي وتجمله ما ليس بنكير على رجاحة عقله وسعة صدره».

ب ـ مناظرة في مسألة درهم الإعانة : بين القباب أيضا وأبي عثمان سعيد بن محمد العقباني التلمساني، حين كان هذا الأخير قاضيا بسلا أيام السلطان المريني عبد العزيز الأول، وكانت وفاته عام 811 هـ ـ 1408 م، وقد جمعها أبو العباس أحمد الخطيب ابن قنفد القسمطيني[520]، وسماها : «**لب اللباب في مناظرة العقباني والقباب**»[521] قال أبو العباس الونشريسي : وهي متداولة في تلمسان، ولم أرها بفاس إلا ما في خزانة البركة المفتى أبي مهدي الماواسي[522].

والمعروف ـ الآن ـ من هذه المناظرة : هو ما أورده الونشريسي في المعيار[523]، حيث أثبت مراجعة العقباني للقباب ورده لجوابه، ولم يذكر كلام القباب مستقلا.

ج ـ مناظرة في مسألة من الإيلاء : بين سعيد العقباني والقباب أيضا[524].

د ـ مناظرة في مسألة من الجزاء : بين فقيهي مدينة فاس : أبي القاسم

---

(519) **المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا**، نشر دار الكاتب المصري بالقاهرة، ص.170.

(520) مصادر ومراجع ترجمته في مقدمة كتابه **أنس الفقير وعز الحقير**، تحقيق وتقديم الأستاذين: محمد الفاسي رئيس الجامعة، وادولف فور أستاذ بكلية الآداب سابقا، نشر المركز الجامعي للبحث العلمي، ص.«ل».

(521) لم يرد اسمه في لائحة مؤلفات ابن قنفد التي ذيل بها كتابه : **شرف الطالب في أسنى المطالب**، وفي **نيل الابتهاج**، ص 73 : ينسب هذا «الكتاب» لسعيد العقباني نفسه، ويسميه : **لب اللباب في مناظرة القباب**.

(522) ورد هذا في تعليق بهامش مخطوطة مبتورة من «صرف الهمة إلى تحقيق معنى الذمة» للمسناوي، ضمن مجموع بالخزانة العامة بالرباط، رقم د 2981 ـ ص.261.

(523) ج 5، ص.258 ـ 285.

(524) عند الونشريسي في **المعيار** ج 5، ص.285-290، ط.ف.

محمد بن عبد العزيز التازغدري[525] وأبي محمد عبد الله بن محمد بن موسى العبدوسي.[526]

هـ ـ مباحثات في مسائل من التفسير وأصول الفقه : وهي سؤالات 29 أجاب عنها محمد بن محمد بن علي الشهير بابن البقال التازي، المتوفى بفاس عام 725 هـ [527] 1324 ـ 1325 م : بلديه كاتب الأسئلة أبا زيد عبد الرحمن ابن العشاب التازي [528] المتوفى عام 724 هـ 1323 ـ 1324 م.

و ـ هل يصح سلوك طريق الصوفية دون شيخ ؟ وإنما يكتفي فيه بالكتب الموضوعة لأهله.

وهي مسألة ثارت بالأندلس في النصف الثاني من القرن الثامن هـ، وكانت موضوع مناظرات شارك فيها الفقهاء والصوفية بالأندلس، ثم رفع أبو إسحاق الشاطبي سؤالا يستطلع فيه رأي بعض أعلام مدينة فاس في موضوع هذه المناظرات، وكان السؤال موجها ـ بالخصوص ـ إلى عالمين، وهما : ابن عباد : محمد بن ابراهيم النفزي الرندي نزيل فاس، والمتوفى بها عام 792[529]هـ ـ 1390 م، مع أبي العباس القباب المتكرر الذكر، وقد أجاب كل من المسؤولين المغربيين بجواب على حدة، احتفظ بهما ـ معا ـ الونشريسي في المعيار[530]، ثم كانت هذه المسألة موضوع تأليف خاص لأبي زيد ابن خلدون، في رسالة تحمل إسم «**شفاء السائل لتهذيب المسائل**[531]».

ز ـ مناظرة حول عموم الرسالة النبوية : وهي مناظرة قصيرة وقعت بمدينة مراكش بين أبي عثمان سعيد العقباني ويهودي يشتغل في العلوم لم يذكر إسمه[532].

(525) ترجمته ومصادرها ومراجعها في **سلوة الأنفاس** ج 2، ص.123–124.

(526) ترجمته في نفس المصدر الأخير ج 3، ص.302–303، وقد وردت المناظرة عند الونشريسي في **المعيار**، ط.ف.، ج 6، ص.142–153.

(527) ترجمته في **نيل الابتهاج**، ص.232.

(528) ترجمته في نفس المصدر، ص.165، وقد جاءت هذه المباحثات عند الونشريسي في **المعيار**، ج 12، ص.182–200، ثم عقب عليها بترجمتي المتباحثين، ص.200–201.

(529) ترجمته ومصادرها ومراجعها في **سلوة الأنفاس**، ج 2، ص.133–143.

(530) جواب ابن عباد، ج 12، ص.201–211، وجواب القباب ج 11، ص.91–96، ط.ف.

(531) نشرت بتصحيح الأستاذ المقتدر محمد بن تاويت الطنجي في مطبعة عصمان ياسين بالأستانة سنة 1958م.

(532) **نيل الابتهاج**، ص.306.

ح ـ **مناظرة حول كلمة : «كان ماذا»**، جرت بسبتة بين ابن المرحل : أبي الحكم مالك بن عبد الرحمن السبتي وابن أبي الربيع : عبيد الله بن أحمد القرشي الأموي العثماني الإشبيلي نزيل سبتة، وقد سبق ذكرهما، وقد أنكر الثاني ورود كلمة : «كان ماذا» في كلام العرب، وقال الصواب ماذا كان، بينما أصر ابن المرحل على صحة هذا التعبير، وقد ألف كل من المتناظرين في شرح وجهة نظره، ولا يزال موضوع ابن أبي الربيع غير معروف، أما رسالة ابن المرحل فقد سماها : «**الرمي بالحصا والضرب بالعصى**»، وهو يقسمها إلى ثلاثة أجزاء صغيرة، يخص كل واحد منها بعنوان، فالأول : «جزء يا مال» ؟ والثاني : «جزء الواعظ»، والثالث : «جزء الرميلة»، ولا تعرف منها نسخة تامة، وإنما وردت قطعة من الجزء الأول وردت في حاشية أبي حفص الفاسي على المغني لابن هشام[533]، وهناك قطعة أخرى منها تشمل على آخر الجزء الأول مع الجزءين : الثاني والثالث، مخطوطة خاصة تقع ضمن محفظة صغيرة من ص 1 إلى 29، بخط أندلسي مليح مدموج عتيق، خال من تاريخ النسخ وإسم الناسخ، ويتخللها بتر.

وقد علق ابن غازي على هذه المناظرة بأن ابن أبي الربيع تطفل على مالك ابن المرحل في الشعر، كما تطفل مالك عليه في النحو[534]، ويلاحظ عبد الواحد بن محمد الطواح[535] أن كتاب **الرمي بالحصا** فيه هنات لا ينبغي لعاقل أن يذكرها، ولا لذى طي في البيان أن ينشرها.

ط ـ **تعقبات في النقد الأدبي** : بين ابن عبد المالك المراكشي : محمد بن محمد بن عبد الملك الأنصاري الأوسي المراكشي، المتوفى عام 703هـ ـ 1303م[536] وابن رشيد : محمد بن عمر بن محمد الفهري السبتي، المتكرر الذكر،

---

(533) هي الواردة في النبوغ المغربي، الطبعة الثانية ـ ج 2، ص.56ـ 71، مع اختصار وتصرف في بعض الألفاظ لمزيد الإيضاح، على حد تعبير مؤلف النبوغ.

(534) **نفح الطيب**، ج 2، ص.416.

(535) في كتابه **سبك المقال لفك العقال**، نسخة المكتبة الملكية بالرباط، رقم 2/105، آخر ترجمة أبي محمد عبد الله المرجاني، وقد وردت نفس فقرة سبك المقال غير معزوة في نفح الطيب ج 2، ص.416.

(536) ترجمته ومصادرها ومراجعها ضمن مقدمة بقية السفر الرابع من كتاب **الذيل والتكملة**، تحقيق وتقديم الدكتور إحسان عباس.

وقد انتقد فيها ابن عبد الملك قصيدتين : طائية وميمية في مثال النعل النبوي الكريم لمالك ابن المرحل آنف الذكر، ثم رد هذا الانتقاد ابن رشيد،[537].

4ـ مقاومة البدع :

امتازت هذه الفترة بوفرة الموضوعات التي كتبت ضد البدع : أصالة أو استطرادا، وقد بلغ عددها ثمانية، وهي :

أ ـ **كتاب البدع**، وينسبه المصدر الآتي : وشيكا ـ لأبي الحسن الصغير : علي بن محمد بن عبد الحق اليالصوتي الزرويلي ثم الفاسي سابق الذكر، وهذا الكتاب لا يزال غير موجود، والذي أجرى ذكره هو مؤلف «**أنوار التجلي على ما تضمنته قصيدة الحلي**»[538]، **بمناسبة بيتين من الشعر اقتبسهما من كتاب البدع** المتحدث عنه، وموضوعهما في الحض على الاستمساك بالسنة، وقد صدرهما هكذا : «ولله در الفقيه الصالح، أبي الحسن علي المعروف بالصغير الفاسي، حيث قال في كتاب **البدع** له»[539].

ومن المناسب أن يعاد إلى الأذهان أن مؤلف هذا المصدر المنقول عنه كانت وفاته عام 787 هـ/1385 ـ 1386 م[540]، وهكذا يتبين أن صاحب كتاب **البدع** هذا ليس هو الذي رد عليه أبو عبد الله محمد بن يوسف السنوسي بكتابه : **نصرة الفقير في الرد على أبي الحسن الصغير**[541]، حيث أن هذا الأخير ـ حسب تصريح **نصرة الفقير** ـ كان معاصرا للسنوسي المتوفى عام 895 هـ ـ 1490 م[542].

(537) ورد نص التعقبات بين الطرفين في موضعين من فتح المتعال للمقري، نسخة خاصة ـ الباب الثالث، عند حرفي الطاء والميم، وأصل تعقيبات إبن عبد المالك في **الذيل والتكملة**، مخطوط المكتبة الملكية بالرباط، رقم 269، ج 1، ص.97.

(538) مؤلفه هو عبيد الله بن أبي القاسم بن محمد الثعالبي الفاسي المولد والدراسة، الجزائري المنزل، المترجم في كل من **جذوة الاقتباس**، ط.ف.، ص.239، **ودرة الحجال**، رقم 967 ط. الرباط، أما مؤلفه أنوار التجلي فيوجد منه بضع نسخ : واحدة في المكتبة الملكية رقم 394 واثنان بالخزانة العامة ق 608 ورقم د1968، وهذه الأخيرة لا تتوفر إلا على النصف الأول، وهناك نسخة رابعة خاصة تحتفظ بها المكتبة الأحمدية بفاس.

(539) ورقة 123 أ. حسب نسخة خ. ع رقم د 1968.

(540) **جذوة الاقتباس**، ص.239، وقد تصحف في نسختها المطبوعة بفاس سبعمائة بتسعمائة.

(541) منها نسخة تقع أول مجموع بالخزانة العامة بالرباط رقم ك 1024، وأخرى خاصة.

(542) **نيل الابتهاج**، ص.328.

ب ـ «كتاب **المدخل** إلى تنمية الأعمال : بتحسين النيات، والتنبيه على بعض البدع والعوائد التي انتحلت، وبيان شناعتها وقبحها» لأبي عبد الله محمد بن محمد بن محمد «ثلاثا» ابن الحاج، العبدري الفاسي، نزيل مصر القاهرة، والمتوفى بها عام 737 هـ/1336 ـ 1337 م[543].

بناه على حديث : «إنما الأعمال بالنيات»، وذكر فيه كثيرا مما أغفله الناس من مهمات الدين، وكشف عن معايب وبدع يتساهل فيها بالمشرق والمغرب معا، وكان يهدف فيه إلى وضع تصوف للفقهاء[544]، وقد نوه به ابن فرحون[545] وقال : «هو كتاب حفيل، جمع فيه علما غزيرا، والاهتمام بالوقوف عليه متعين».

وفي صدد البدع التي استنكرها يلاحظ ابن حجر العسقلاني[546] أن بعضها مما يحتمل، كما أن محمد بن حسن بن علي النواجي يأخذ عليه أنه تفرد بغرائب لا توجد عند غيره[547].

وقد قصد مؤلف كتاب **سنن المهتدين في مقامات الدين**»[548] أن يلطف بهذا الكتاب كثيرا من تشديدات صاحب المدخل في تصنيف جزئيات البدع[549].

تكرر طبع **المدخل** بمصر، وأورده سركيس في معجمه عمود 71.

ج ـ **فتوى ضد بعض الفرق الصوفية**، لأبي فارس عبد العزيز بن محمد القروي الفاسي المتوفى عام 750 هـ/1349 ـ 1350 م[550]، وهي فتوى مطولة ثبت نصها عند الونشريسي في **المعيار**[551].

---

(543) ترجمته وبعض مصادرها ومراجعها في **معجم المؤلفين**، ج 11، ص.284، حيث وقعت أغلاط في نسبة مؤلفات الغير له.

(544) **القواعد**، لزروق، ط. المطبعة العلمية بمصر عام 1318 هـ ـ القاعدة رقم 59، ص.21.

(545) **الديباج المذهب**، الطبعة المذكورة عند التعليق رقم 479 : ص.328.

(546) **الدرر الكامنة**، ج 4، ص.237.

(547) طبقات المالكية لمؤلف مجهول الاسم، مخطوطة خاصة، بالمكتبة التطوانية بسلا.

(548) مؤلفه هو المواق :محمد بن يوسف العبدري الغرناطي المتوفى عام 897 هـ ، وقد طبع سنن المهتدين بالمطبعة الحجرية الفاسية عام 1314 هـ .

(549) رسالة «الحكم بالعدل والإنصاف»، لأبي سالم العياشي، مخطوطة خ ع. ك 39، ص.274ـ 275: ضمن مجموع.

(550) ترجمته ومصادرها ومراجعها في **سلوة الأنفاس**، ج 3، ص.159ـ160.

(551) ج 11، ص.23ـ27، ط.ف.

د ـ «**هداية من تولى غير الرب المولى**» لأبي حفص عمر بن موسى بن محمد الرجراجي نزيل فاس ثم تونس عام 819 هـ/1416 ـ 1417 م، وهو غير أبي حفص عمر الرجراجي إمام فاس الشهير(552)، وإنما اتفقا في الاسم ثم اختلفا في اسم الأب، حيث إن المترجم يسمي نفسه طالعة كتابه الذي نتحدث عنه : عمر بن موسى بن محمد، بينما سمي الثاني عمر بن محمد(553)، وأيضا : فإن هذا الأخير يتفق مترجموه على أن وفاته وقعت عام 810 هـ(554)، على حين يتحدث الأول في كتابه المذكور عن عام 819 هـ، حيث كان لا يزال بقيد الحياة في تونس(555)، والدليل الحاسم في هذا الصدد، هو أن مؤلف **هداية من تولى** ينقل في هذا الكتاب عن أبي حفص عمر الرجراجي الفاسي كلمات من خطبة سمعها منه بفاس : أثناء الباب الرابع(556).

وهكذا تتميز شخصية المترجم الذي يقدم في كتابه المذكور معلومات مقتضبة عن أسماء بعض أساتذته ورحلته للحج وإقامته بتونس، وقد ورد ذكره ـ أيضا ـ عند البرزلي في كتاب الجامع من نوازله(557)، وليس هذا هو المترجم في **السلسل العذب**(558) باسم «الرجراجي أبو حفص عمر»، وقد استقر ـ أخيرا ـ بحامة قابس وبها توفي، قال في **شجرة النور الزكية**(559) : «وقبره لهذا الوقت يزار، متبرك به»، وهناك معلومات أخرى عنه وردت في «**فهرسة الرصاع**» أثناء ترجمة شيخه أبي الحسن علي الجبالي.

---

(552) هذا هو الذي وردت ترجمته ومراجعها في **سلوة الأنفاس**، ج 3، ص.62ـ65 ، وهناك معلومات أخرى عنه أواخر شرح السيتاني على التلمسانية، الوارد اسمه في التعليق رقم 488.

(553) كفاية المحتاج مخطوطة خاصة، مع **نيل الابتهاج**، ص.195.

(554) أنظر **سلوة الأنفاس**، ج 3، ص.64 مع أواخر شرح التلمسانية للسيتاني.

(555) أنظر ص.115 من مخطوطة الخزانة العامة الآتية الذكر.

(556) ص 117 من المخطوطة أعلاه.

(557) أنظر المنجور أواخر **شرح المنهج المنتخب إلى قواعد المذهب**، ط. ف ، ج 2 ، م 27، ص.4.

(558) اسمه الكامل : **السلسل العذب والمنهل الأحلى**، المرفوع للخلافة العزيزية التي لا تزال مناقبها على مر الزمان تتلى، في سلك من تحلى سلكهم في الأربعين في الجيل : **جيل فاس ومكناسة وسلا**، تأليف محمد بن أبي بكر الحضرمي، مخطوطة خاصة.

(559) ص.250 : تعليق.

وبعد هذا فإن «**هداية من تولى**» ليس مصنفا في البدع بالذات، وإنما موضوعه هو السياسة التي يمزجها المؤلف بالتصوف، وقد رتبه على مقدمة وأربعة أبواب : الباب الأول : فيما للسلاطين؛ الباب الثاني : فيما عليهم؛ الباب الثالث : فيما ينبغي لهم؛ الباب الرابع فيما ليس لهم، وهو في البابين الثالث والرابع : ينتقد كثيرا من البدع التي عايشها بمدينة تونس.

لا يزال الكتاب مخطوطا، ومنه نسخة بالخزانة العامة بالرباط ضمن مجموع يحمل رقم ك 383، من ص 85 إلى ص 214، كما توجد منه نسختان بالمكتبة الملكية بالرباط تحت رقم 3912 ورقم 6733، ثم طبع وشيكاً.

ورد ذكره في «**تحلية الأذان والمسامع بنصرة الشيخ ابن زكري العلامة الجامع**» لأحمد بن عبد السلام بن محمد بن أحمد البناني الفاسي[560].

وكما قلت آنفا فإن «**هداية من تولى غير الرب المولى**» ليس كتابا موضوعيا للبدع، وإنَّما تناول مجموعة منها بالاستطراد، وهذا ـ أيضا ـ شأن الكتابين التاليين، غير أن هذين الأخيرين لا يستعرضان مثل مجموعة سابقهما، ومع هذا سنذكرهما تتبعا لمظاهر مقاومة البدع في هذه الفترة.

هـ ـ **شرح القواعد للقاضي عياض**، الشارح : أبو العباس أحمد القباب المتكرر الذكر، وقد استنكر في هذا الشرح بعض البدع التي تقع بفاس. عند صلاة التراويح في رمضان[561].

و ـ **شرح رجزابي مقرع في الفلك**، لأبي زيد عبد الرحمان بن محمد ابن عبد الرحمان المديوني ثم الجادري به عرف، الفاسي، المتوفى بها عام 839هـ[562]، اعترض فيه ما يقع بالمغرب من تعظيم اليوم الأول من يناير ويوم العنصرة[563].

* * *

(560) يوجد السفر الأول منه بالخزانة العامة بالرباط رقم ك 650، والثاني بالمكتبة الملكية رقم 345، وجاء النقل المعني بالأمر ج 1، ص.284–285.

(561) نسخة المكتبة الملكية، رقم 2250 ـ ج 1 عدد ذكر مسنونات إمام الصلاة.

(562) ترجمته وبعض مصادرها ومراجعها في **سلوة الأنفاس**، ج 2، ص.157– 158، وتوجد معلومات أخرى عنه في الطبعة الأولى من **فهرس الفهارس**، ج 1، ص.216 ، وفي **شرحه على قصيدة البردة البوصيرية** بمكتبة القرويين رقم 643.

(563) يقع هذا المصدر ضمن مجموع بالمكتبة الملكية بالرباط، رقم 5/4585.

ولم تخل هذه الفترة من معارضة مكتوبة، صدرت عن بعض العلماء الذين تفاوتت لهجتهم في نقد سياسة الحكام المعنيين بالأمر، وترددت بين اللين والشدة، حسب النموذجين اللذين نقدمهما في هذا الصدد، ويتضمن النموذج الأول فقرات من رسالة نصحية رفعها الإمام ابن عباد السالف الذكر إلى السلطان المريني عبد العزيز الأول[564]، وهي مكتوبة بأسلوب ازدوجت فيه اللياقة بالحزم، وقد جاء فيها.

«وقد كنت طلبت منكم ـ في آخر كتاب كتبته لكم ـ أن تزيلوا مظالم الرتب[565] التي أحدثت بطرق المسافرين، وأخبرناكم بما شاهدنا فيها من المفاسد المشينة لحسن دولتكم، والمكدرة صفاء حالكم، فلم تسعفوا طلبتنا بذلك، وشاء الله بقاءها.

وأنا ـ الآن ـ أجدد الرغبة إليكم في ذلك والإخبار بحالها، فاعلم ـ ياأمير المؤمنين ـ أن من تولى ذلك من أهل الفساد والشرقد انتشروا في بسيط الأرض، وقطعوا طرقاتها على المساكين والمستضعفين، وحازوا منهم من الأموال الحرام : بالنهب والغضب ما استعانوا به على ارتكاب الكبائر والفواحش، حيث لا تنالهم أحكامكم، وهم أراذل الناس وسفهاؤهم، لم يدينوا الله بدين، ولا دخلوا في غمار المسلمين، ولو رأيتم ـ يا أمير المؤمنين ـ حالي معهم عند قدومي من فاس، وما كنت فيه من الذلة والمسكنة بين أيديهم، وكنت أعدى عدو لكم ـ والعياذ بالله ـ لأدركتكم شفقة الايمان على كل من يبتلي بها، حيث لا ناصر له ولا معين.

وما كنت ذكرته لكم في ذلك الكتاب : من أن السلطان أبا الحسن والدكم ـ رحمه الله ـ كان قد قطعها فهو شيء سمعته من بعض الناس صدقته فيه، لما اشتهر في زمانه من العدل والقيام بالحق وإزالة السنن القبيحة، وأردنا منكم الاقتداء به في ذلك، فلما بان خلاف ذلك. وصح أن السلطان أبا عنان ـ رحمه الله ـ فعل ذلك أنفنا لكم أن ينفرد (أخو)[566] كم بمثل هذه المنقبة دونكم، وأن يحظى بفعل حسن يدفع به عن أبيكم سوء عاقبة هذه السنة السيئة في دنياه وآخرته، بل اردت منكم أن تكونوا من أعظم حسناته التي يلجأ إليها يوم القيامة عند شدة فقره وفاقته، وما أعظم

(564) جاءت هذه الرسالة ضمن مجموعة رسائل نادرة لابن عباد في مجموع يحمل ـ بالمكتبة الملكية بالرباط ـ رقم 255، وهي مجموعة ثالثة بعد الرسائل الكبرى والصغرى المنشورتين.

(565) أنظر عن تفسير الرتب : **نظم الدولة المرينية**، عند الباب الثاني من هذا العمل.

(566) وقع بياض في الأصل بعدُ كلمة أخو.

هذا شرفا لكم في دنياكم وأخراكم، حقق الله آمالنا في ذلك بمنه وكرمه، فإن أردتم كمال الشرف والفخر، والفوز بأعالي درجات البر بوالدكم، وأن تدخلوا عليه في قبره من المسرات ما تقر به أعينكم، فاعرضوا سيره مدة خلافته على مقتضى الدين والشرع، فما رأيتم من ذلك موافقا فأقروه، واحمدوا الله على توفيقه له ولكم، وما رأيتموه مخالفا فأزيلوه واستغفروا له ربكم، واحمدوا الله على ما ألهمكم، ولا تحملوا حاله كله على الاصابة والموافقة فتتبعوه من غير نظر فيما ذكرناه، فإن العصمة من الخطأ مستحيلة على غير الأنبياء عليهم السلام...

(و) عليكم أن تتفقدوا عمالكم، وتعتقدوا ذلك من صالحات أعمالكم ومما يجب لرعيتكم عليكم، فإنه قد ظهر منهم الغش وعدم النصيحة لكم ولرعيتكم، وحاصل أمرهم أنهم تمكنوا من الرعية كل التمكن، وأحدثوا سننا غير مشروعة، (وفعلوا عليه مما يوافق أغراضهم)[567] مما يكسبهم المال والجاه، وتوصلوا بذلك إلى جباية أموالهم والاستيلاء على رقابهم بالجبر والقهر، واشتروا رضى أنفسهم بسخط الله تعالى، ولم يراقبوا فيكم ولا فيهم الا ولاذمة، واصطلحوا على أن لا يصل إليكم مما يجبون إلا التافه اليسير، وصار في ذلك لهم ولأتباعهم وأشياعهم مأكل وتوسعات لم ينالوها بكد ولا تعب، وتوسلوا بها إلى معاصي الله تعالى وارتكاب مساخطه، غير مكترثين بكم، ولا حامدين ولا شاكرين لكم، وأعظم المصائب سؤال الله لكم عن ذلك، ودعاء المظلومين عليكم، وقد ورد في الحديث : أن دعوة المظلوم مجابة وإن كانت من كافر.

واعلم يا أمير المؤمنين : إن العدالة مشروطة في كل ولاية ـ كائنة ما كانت ـ لابد للمستولى من الاتصاف بها : وهي أن يكون صادق اللسان، ظاهر الأمانة، عفيفا عن المحارم، متوقيا للمئاثم، بعيدا من التهم والريب، ما مونا في الرضى والغضب، مستعملا لخصال المروءة الدينية والدنياوية، فهذه الخصال هي التي ذكر العلماء أن باجتماعها تكون العدالة في الولاة، فإذا تكاملت فيهم صحت ولايتهم، ونفذت أحكامهم، وإن انخرم منها وصف لم تمض له ولاية، ولا ينفذ له حكم، فعليكم أن تولوا أعمالكم من اجتمعت فيه هذه الخصال، وملاك ذلك أن لا يتولى طالب لها، ولا راغب فيها، وهذا هو شأن أكثر عمال هذا الزمان، إلا ما عساكم تتداركونه فحسن.

فعليكم ـ يا أمير المؤمنين ـ أن تتصفحوا أحوالكم، وتتفقدوا عمالكم،

(567) هكذا ورد بالأصل الكلام الواقع بين قوسين.

وتكفوا أيديهم، وتستخرجوا منها ما خانوكم فيه : أنتم ومن تقدمكم، وذلك بأن تتعرفوا مقدار ما كان يملك أحدهم من المال قبل الولاية، وتأخذوا ما زاد عليه وتجعلوه في بيت مال المسلمين، كما كان يفعله الخلفاء الراشدون...

ولا شك أنكم تملؤون بذلك بيوت الأموال، وتستغنون بذلك الاستغناء التام، عما أحدث من المظالم والمراسم والمغارم الضارة برعيتكم، والعائد ضررها عليكم في الدنيا والآخرة، أعاذكم الله من ذلك».

وإلى هنا نكتفي بهذه الفقرات من كلام ابن عباد، لنقفى عليها بنموذج ثان في معارضة سياسة أحد سلاطين بني مرين، وسنقدم هذه المرة فتوى[568] صارخة للإمام عبد الله العبدوسي المتقدم الذكر، فقد سئل ـ ضمن شيوخ فاس ـ عما حبسه السلطان المريني أبو عامر بن أبي العباس أحمد بن أبي سالم، على ضريح جده بشالة هل يمضي أم لا فأجاب :

«إن الملوك فقراء مدينون بسبب ما احتجروه على المسلمين بتصرفاتهم في أموال بيت المال بالهوى : في أبنية الدور العالية المزخرفة، والمراكب النفيسة، والأطعمة الطيبة اللذيذة، وإعطاء الأصدقاء والمداح بالباطل من الأموال، إلى غير ذلك من التصرفات المنهى عنها، فهذه كلها ديون عليهم تكثر مع تطاول الأيام، فلا تصح تبرعاتهم وتحبيساتهم وهباتهم وصدقاتهم إلى غير ذلك : لا على أولادهم، ولا على غيرهم من قرابتهم، أو غيرهم من أصدقائهم : فإن وقفوا على أحد ممن ذكرنا لم ينفذ وقفهم، وحرم على من وقف عليه تناوله لهذا الوقف، ولهذا السلطان أو غيره ممن ولى بعده انتزاعه واسترجاعه لبيت المال، ثم بيعه إن كان ممن يصح بيعه، أو صرفه في مصلحة من مصالح المسلمين، على ما أداه إليه آجتهاده من المنهج الأرجح، والوجه الأصلح، بل لو حبسوا حبسا على جهة من جهات البر والمصالح العامة ونسبوه لأنفسهم ـ بناء على أن المال الذي في بيت المال لهم كما يعتقده بعضهم ـ لبطل الحبس، ولا يصح إلا ما حبسوه معتقدين أن المال للمسلمين والوقف للمسلمين، أما أن المال لهم والوقف لهم فلا، كمن وقف مال غيره على أنه له فلا يصح وقفه، فكذلك هنا لا يصح التحبيس في الموضع المذكور بوجه ولا حال، وتحبيسه وعدم تحبيسه سواء، إذ

(568) عند الونشريسي في المعيار، ج 7، ص. 208ـ209، ط.ف.، ونقلها ـ بتصرف ـ أحمد التنبكتي آخر مؤلفه : **جلب النعمة ودفع النقمة لمجانبة الولاة الظلمة**، «مخطوطة خاصة»، ثم نقلها علي بن عيسى العلمي في **نوازله**، ط ف، 1292هـ، النصف الثاني، ص. 76ـ77.

المعدوم شرعا كالمعدوم حسا، وإسترجاع من استرجعه صحيح ماض ناقذ، والحكم بيعه للحبس، وإمضاء الحبس فيه واجب لازم، ويكفي شهرة الاستغراق عن ثبوته، إذ علم ذلك ثابت متقرر عند الجماهير من الخاصة والعامة، وذلك يغني عن إقامة البينة على ذلك، لا يقال : لا بد من البينة عليه وتعينها ليعذر للمحبس عليهم فيها، لأن هذا من المواضع التي يسقط الإعذار فيها، وبالله ـ سبحانه ـ التوفيق، وهو المرشد إلى سواء الطريق بمنه.

وانظر **أحكام** ابن سهل، **وأكراه النوادر**، **والواضحة**، **وأموال**الداودي، **والحلال والحرام**، لراشد، **وقواعد القرافي** : يلح ما قررته، والمسألة أشهر من أن تحتاج إلى جلب نصوص العلماء عليها...».

ومن مظاهر المعارضة الشفاهية موقف كل من الشيخ يوسف بن عمر الأنفاسي وأبي العباس القباب المتكرر الذكر مع أحد وزراء بني مرين، وقد كان هذا الأخير اعتزم تغريم ديار فاس ورباعها، فزاره شيخا فاس وكلماه في المسألة، وواجهه الأنفاسي بإنتقاد شديد اللهجة[569].

* * *

ومن ملحقات هذا الموضوع ما قام به عدد من المغاربة خارج المغرب من مقاومة البدع والدعوة إلى الإسلام، ونقدم ـ في هذا الصدد ـ خمسة أمثلة :

الأول : في رجب عام 700هـ/1301م، استنكر وزير مغربي زار القاهرة الامتيازات التي كان المسيحيون واليهود يتمتعون بها في مصر، وقد أثر كلامه عند المستنيرين من أهل الدولة، فاستجابوا له، وبادروا بإبعاد النصارى واليهود من الجهات السلطانية والأمراء، ثم أصدروا أوامر بتنظيم وضعية هؤلاء وسلوكهم في سائر جهات المملكة المصرية : من دنقلة في السودان إلى الفرات في العراق، وقد أسلم في هذه المناسبة جماعة كثيرة من النصارى[570].

---

(569) **نيل الابتهاج**، ص.353 عند ترجمة الأنفاسي.

(570) أنظر التفاصيل في **العبر**، لابن خلدون، ط. دار الكتاب اللبناني، ج 5، 894-895 مع **النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة**، لابن تغري بردي، ط مطبعة دار الكتب المصرية، ج 8، عام 1358هـ / 1939م، ص.132-135؛ وقد ذكر المصدر الأول الوزير المعني بالأمر هنا بوصف «وزير من المغرب»، بينما ذكر في المصدر الثاني بوصف وزير ملك الغرب «دون ميم»، ولا شك أنه يقصد به وزير سلطان المغرب الأقصى، حيث تحلي «النجوم الزاهرة » الواحد من سلاطين بني مرين

الثاني : كان أبو البركان البربري المغربي هو الذي أسلم على يده سكان جزيرة ذِيبة المُهَل[571]... وقد عرض على ملك هذه الجزيرة ـ وكان يدعى «شَنُورازة» ـ الإسلام في قصة طويلة، فأسلم وأسلم أهله وأولاده وأهل دولته، وتمذهبوا بالمذهب المالكي الذي يقلده داعيتهم للإسلام، وقد قرأ إبن بطوطة على مقصورة جامع هذه الجزيرة منقوشا في الخشب : «أسلم السلطان أحمد سنورازة على يد أبي البركات البربري المغربي[572]».

الثالث : جاء في بعض النشرات[573]عن إسلام أهل جزيرة جاوة ما يلي :

«دينهم الإسلام، آعتنقوه في أواخر المائة الثامنة من الهجرة وأوائل القرن التاسع، على يد طائفة من رجالات المغاربة من أسرة الكتاني الموجودة إلى اليوم في مراكش، حسبما هو مكتوب ومنقوش على المشاهد وألواح المرمر التي فوق قبور أولائك الدعاة، والتي لا تزال ماثلة واضحة القراءة بخطوط بديعة، وهذه القبور تعرف حتى الآنَ بين عامة الجاويين بقبور المغاربة في مدينة بنتام في أقصى الجزيرة الغربي» : «على بعد 100 ك. م . من جاكرتا بأندونسيا».

وهكذا يؤكد هذا المصدر أن المغاربة هم الذين نشروا الإسلام بجاوة، ولكن «دائرة المعارف الإسلامية» في مادة «جزائر الهند»[574] : لا تحدد جنسية هؤلاء الدعاة، وإنما تذكر أن رواية أهل هذه البلاد تنسب الفضل في إدخال الإسلام للجزيرة إلى دعاة ثمانية أو تسعة: بينما يذكر مصدر آخر[575]أن الإسلام انتشر في

بملك الغرب، كما هو الواقع في مواضع منها : ج 8 ص 225 ـ ج 9 ص 290 ـ ج 10 ص 251 ـ ج 10 ص 329، ووردت القصة ـ أيضا ـ في **الخطط المقريزية**، مطبعة النيل بمصر، ج 4، ص.404 : مع «سكردان السلطان لابن أبي حجلة ، دار الطباعة المصرية ص 131.

(571) جزائر ملديف من **سيلان** Maldives؛ آنظر **المنجد في الأدب والعلوم**، ص 208، ، مع **الموسوعة العربية الميسرة**، ص 1741.

(572) آنظر **تحفة النظار**، لابن بطوطة، نشر المكتبة التجارية الكبرى بمصر عام 1377هـ / 1958م، ج 2، ص.125ـ126.

(573) **الدهناء**، مجلة نصف شهرية تصدر بمدينة سربايا من أندونيسيا، عددي 19 و 20 ، منتصف شتنبر 1929 ـ ربيع الآخر 1348، ص.41ـ42، نقلا عن جريدة **المقطم** المصرية بعدديها الصادرين في 13 و14 شتنبر 1929م، من حديث أدلى به لهذه الجريدة بمصر العالم الجليل محمد الهاشمي التونسي، وقد اطلعت على هذا العدد من مجلة **الدهناء** عند الأستاذ الجليل محمد إبراهيم الكتاني.

(574) **المجلد السادس**، ص.432 ـ 433 و 437 و 438.

(575) **المنجد في الأدب والعلوم**، ص 130.

هذه الجزيرة على يد مالك ابراهيم الملقب ـ على حد تعبيره ـ بمولانا المغربي، المتوفى عام 822هـ/1419م.

الرابع : مغربي زار تونس في عشرة التسعين وسبعمائة للهجرة، ثم استقر بالإسكندرية، وبها اجتمع معه أبو القاسم البرزلي الذي يسميه بالشيخ الدكالي، وقد أنكر هذا على أهل تونس أشياء عدها بدعا، وأجاب البرزلي عن ذلك بما هو مذكور في نوازله[576].

ولا شك أن الدكالي هذا هو الوارد في أنباء الغمر بأنباء العمر[577]، في ترجمة قصيرة ضمن حوادث عام 797هـ حيث كانت وفاته، وقد سماه إبن حجر بأبي عبد الله محمد الدكالي.

الخامس : أبو حفص عمر الرجراجي، وقد تقدم ذكره[578]، مع الإشارة إلى أنه انتقد كثيرا من البدع التي عاش معها بمدينة تونس، ونذكر هنا أن البرزلي أجاب عنها مسألة مسألة في نوازله أيضا، ثم لخص بعض ذلك تلميذه أبو عبد الله البوسعيدي في آختصاره للنوازل المذكورة[579].

هل تأثر المغرب المريني بأفكار ابن تيمية ؟

الآن ـ وقد درسنا جملة من مظاهر مقاومة البدع ـ نتساءل هل كان للمغاربة في هذه الفترة صلة بأفكار تقي الدين ابن تيمية، التي ظهرت في سورية بالخصوص عند الربع الأول من القرن الثامن للهجرة.

ولهذا سيكون من المفيد استعراض المغاربة المعروفين بروايتهم عن إبن تيمية[580]، ليلاحظ هل تأثروا بأفكار أستاذهم، وسنجد عدد هؤلاء لا يتعدى خمسة : أربعة منهم سبتيون، وواحد من مدينة أزمور، وقد اتصل اثنان من الخمسة بإبن تيمية مباشرة، بينما روى عنه ثلاثة بالمكاتبة فقط، وهذه أسماؤهم :

---

(576) المنجور أواخر، **شرح المنهج المنتخب الى قواعد المذهب** ط ف، ج 2، م27 ـ ص 4 .

(577) المخطوطة السابقة الذكر عند التعليق رقم 506 : ج 1.

(578) عند مبحث «مقاومة البدع».

(579) شجرة النور الزكية ص 250 : تعليق.

(580) آنظر عن ترجمة التقي ابن تيمية ومصادرها ومراجعها : **معجم المؤلفين**، ج 1، ص. 261 ـ 262، مع ج 13، ص. 361.

1 ــ أبو القاسم التجيبي : القاسم بن يوسف بن محمد السبتي المتوفى عام 730هـ/1329-1330م، وهو يذكر في برنامجه [581] : أنه اتصل بابن تيمية في دمشق، وسمع من فلق فيه ــ على حد تعبيره ــ جميع جزء فيه حديث أبي علي الحسن بن عرفة بن يزيد العبدي، وذلك بمدرسة القصاعين داخل هذه المدينة، كما سمع عليه ــ بنفس المدرسة من فلق فيه أيضا ــ ثلاثة من مؤلفاته، وهي **بيان الدليل على بطلان التحليل، وكتاب الصارم المسلول على شاتم الرسول صلى الله عليه وسلم، ورفع الملام عن الأيمة الأعلام**[582].

والظاهر أن التجيبي هذا هو الذي كتب إبن تيمية برسمه الرسالة المعنونة «بوصية لأبي القاسم السبتي»، وقد ورد اسمها ضمن مجموعة مخطوطة بالخزانة التيمورية رقم 314[582م].

2 ــ وبعد التجيبي يروى سبتي آخر عنه مكاتبه، وهذا لا يوضح المصدر المعني بالأمر اسمه، وإنما يخططه بصاحب سبتة الذي التمس من ابن تيمية ــ لما كان معتقلا بالإسكندرية ــ أن يجيز له مروياته، وينص على أسماء جملة منها، فكتب في عشر ورقات جملة من ذلك بأسانيدها من حفظة، هكذا ورد في « **الكواكب الدرية**[583]، وقد كان اعتقال ابن تيمية بالإسكندرية مدة من ثمانية أشهر أخرها اليوم الثامن من شوال عام[584] 709هـ/1311م ، وفي هذا التاريخ كانت سبتة تابعة لغرناطة بعد التغلب عليها من طرف محمد بن الأحمر المعروف بالمخلوع[585]، فعلى هذا قد يكون المراد بصاحب سبتة هو أبو طالب العزفي[586] الذي كان واليا على هذه المدينة قبل الاعتداء الأندلسي عليها.

---

(581) مصور الأستاذ الجليل محمد ابراهيم الكتاني عن مخطوطة الإسكوريال، لوحة 87 و124ب؛ وأنظر عن ترجمة التجيبي **الدرر الكامنة**، ج 3، ص 240، **وفهرس الفهارس**، ج 1، ص 191، **ونيل الإبتهاج**، ص 222.

(582) أورد المؤلفات الثلاثة سركيس في **معجمه**. عمود 55 و57 و58.

(582م) **فهرس الخزانة التيمورية**، ج 4، ص 117، وقد تصحف فيها السبتي بالبستي.

(583) ص.144 و181، واسمها الكامل : **الكواكب الدرية في مناقب الإمام المجتهد شيخ الإسلام ابن تيمية**، تأليف الشيخ مرعي بن يوسف الكرمي الحنبلي، ط، مطبعة كردستان العلمية بمصر عام 1329: ضمن مجموعة.

(584) **المصدر الأخير**، ص 181.

(585) أنظر **العبر**، لابن خلدون، ط. دار الكتاب اللبناني، ج 7، ص. 471-475.

(586) ترجمته في **جذوة الاقتباس**، ص 243 ــ 244، ط.ف.

3 ـ عبد المهيمن بن محمد بن عبد المهيمن الحضرمي السبتي، سابق الذكر، روى عن ابن تيمية مكاتبه[587].

4 ـ عبد الله بن ابراهيم الزموري من أشياخ الأبلى، الذي روى عنه أنه سمع ابن تيمية ينشد لنفسه بيتين في ذم «محصل أفكار المتقدمين والمتأخرين» للفخر الرازي [588].

5 ـ محمد بن أحمد بن ابراهيم الأنصاري التلمساني الأصل السبتي الدار، المتوفى عام 764هـ /1362م، روي عن ابن تيمية مكاتبة، [589].

فهؤلاء خمسة مغاربة كلهم رووا عن الإمام ابن تيمية، ولا نزال لم نقف ـ بعد ـ على مدى تأثرهم بأفكاره، وهناك مغربيان ـ سوى الخمسة ـ لازما ابن تيمية كثيرا، وقد ساق خبرهما ابن كثير في «البداية والنهاية» في حوادث عام 749هـ دون أن يحدد نوع مغربيتهما، وهو يسمى الأول : « **الشيخ عليا المغربي** » ويقول عنه :

«وفي يوم السبت ثالث رجب» عام 749هـ، صلى على الشيخ على المغربي... ـ أحد أصحاب الشيخ تقي الدين ابن تيمية ـ بالجامع الأفرمي بسفح قاسيون، ودفن بالسفح، رحمه الله»[590].

أما المغربي الثاني فيسميه : بالشيخ عبد الله بن رشيق ويقول عنه :

«وفي هذا اليوم: (يوم عرفة 749هـ) توفي الشيخ عبد الله بن رشيق المغربي كاتب مصنفات شيخنا العلامة ابن تيمية، كان أبصر بخط الشيخ منه، إذا عزب شيء منه على الشيخ استخرجه أبو عبد الله هذا، وكان سريع الكتابة، لا بأس به[591]».

---

(587) **مختصر الإحاطة** للبقتي، مصور الخزانة العامة بالرباط رقم 1582 د ـ ج 2، لوحة 275 أواخر ترجمته.

(588) **نيل الأبتهاج**، ص 246، **نفح الطيب**، ج 3 ص، 116 ـ 117، وأنظر عن المحصل كشف الظنون، ط وكالة المعارف باستانبول، ع.1614.

(589) هذا يؤخذ من **مختصر الإحاطة**، المصورة الآنفة الذكر، ج 2، لوحة 154ـ155 .

(590) **البداية والنهاية**، لابن كثير، ط. مطبعة السعادة بمصر، ج 14، ص 227.

(591) **نفس المصدر**، ج 14، ص 229.

5 ـ مجتهدون وظاهرية :

عاد المذهب المالكي للظهور بالمغرب من أوائل هذه الفترة، وطبيعي أن يصادف هذا الحادث ارتياحا في أوساط الفقهاء المالكية بالخصوص، ولقد ظهر هذا الارتياح على لسان بعض الشعراء أيضا، وهو مالك ابن المرحل السابق الذكر، والذي قال في هذا الصدد في بيتين على سبيل التورية :

مذهبي تقبيل خد مذهب   سيدي ماذا ترى في مذهبي؟

لا تخالف مالكا في رأيه   فبه يأخذ أهل المغرب[592]

ومرة أخرى يعود نفس الشاعر ليعلن احترامه للإمام مالك ويقول :

وما أنا إلا عالم كل عالم

ففي الشعر حسان وفي الفقه مالك[593]

وبعد هذا يلاحظ أنه في العصر المريني الأول ـ أكثر من غيره ـ ظهرت ـ ولو بقلة ـ بعض التيارات المخالفة للمذهب المالكي، حيث يعثر بأسماء توصف بالاجتهاد أو تنتسب للمذهب الظاهري، ولا يتعدى عدد المعروف من هؤلاء، تسعة :

1 ـ أبو عبد الله محمد بن علي بن يحيى، قاضي الجماعة بمراكش، المعروف بالشريف شهرة لا نسبا، والمتكرر الذكر، حلاه في **الذخيرة السنية**[594]، بالمجتهد، وقال عنه أبو حيان[595]: إنه يميل إلى الاجتهاد.

2 ـ عبد المهيمن بن محمد الأشجعي البلذودي نزيل مراكش، توفي ـ قتيلا بسعاية أبي فارس عبد العزيز الملزوزي لما هجاه، وذلك عام 697هـ/ 1297ـ1298، وقد كان يعتنق المذهب الظاهري ويتعصب له ويناضل عنه بجهده[596].

---

(592) **سحر الشعر**، لابن الخطيب ، خ.ع د 1295 ، ورقة 67.أ، مع **بغية الوعاة**، للسيوطي، ص.348.

(593) المحاضرات والمحاورات للسيوطي، مخطوطة المكتبة الملكية بالرباط رقم 3755.

(594) ص.94.

(595) نقله عنه في **بغية الوعاة**، أثناء ترجمة المذكور، ص 82، وهو من شيوخ الرحالة العبدري، وقد نوه به كثيرا في **رحلته**، ص 78.

(596) **مركز الإحاطة** ، للبشتكي مصورة خاصة للبعض، مع مختصر الإحاطة للبقني : المصورة الآنفة الذكر، ج 2 لوحة 277.

3 ـ محمد بن عمر «ابن رشيد الفهري» السالف الذكر، جاء في ترجمته من الدرر الكامنة[597] نقلا عن تلميذه ابن المرابط :

«كان شيخنا ابن رشيد على مذهب أهل الحديث في الصفات : يمرها ولا يتأول، وكان ويسكت لدعاء الاستفتاح، ويسر البسملة، فانكروا عليه وكتبوا عليه محضرا بأنه ليس مالكيا...».

4 و5 ـ جاء في «روض القرطاس[598]» عند ذكر قضاة أبي سعيد المريني الأول «.. ثم الفقيه الأجل، العالم الأوحد، المشاور **المجتهد**، قاضي الجماعة، أبو عبد الله محمد، بن الشيخ الفقيه، العالم، المحدث، **المجتهد**، الصالح الورع المبارك، قاضي الجماعة أبي الحسن بن أبي بكر المليلي.

هكذا يصف هذا المصدر كلا من الابن ووالده بالمجتهد من غير تقييد، مما يتبادر منه ان الاثنين كانا يميلان للاجتهاد، وقد ترجمهما ـ معا ـ في «جدوة الاِقتباس»[599] دون أن يذكر تاريخ وفاة الثاني، وإنما ذكر أن وفاة الأول كانت عام 737هـ/ 1336ـ1337م ، ويلاحظ أنه لم يصف واحدا منهما بالاجتهاد.

6 ـ موسى بن يمويمن بن باكر بن ياسين الحساني الهسكوري ثم الفاسي، المعروف بالبخاري، كان بقيد الحياة عام 723هـ/1323م في غالب ظن مؤلف «درة الحجال»[600].

وقد كان ـ حسب الرسالة الآتية ـ يدعي الاجتهاد، فأنكر عليه هذه الدعوى زعيما فقهاء فاس : أبو الحسن الصغير سالف الذكر، وأبو إسحاق ابراهيم بن علي المعافري السريفي ثم الفاسي[601]، وقد كتب هذا الأخير ـ في شأنه ـ

---

(597) ج 4 ص 112، وآنظر **فهرس الفهارس**، ج 1، ص 333، ط.ف.

(598) ص.290 .

(599) الأول : ص.142، والثاني : ص.299، وقد ذكر في ترجمة هذا الثاني أنه كان يكتب في حضرة أبي عنان، وهو سهو.

(600) عند ترجمته رقم 860، ط. الرباط، وقد ترجمه ـ أيضا ـ نفس المؤلف في **جذوة الاقتباس**، ص.231، ط.ف.

(601) لم أقف على ترجمته، وإنما ورد في بعض نسخ **روض القرطاس**، ذكر وفاته عام 716 هـ، وله ذكر في **درة الحجال**، الطبعة الثانية : 177/1.

رسالة مطولة[602] إلى السلطان أبي سعيد المريني الأول، بمناسبة نازلة راجع فيها موسى المذكور مفارقته بعد ثلاث تطليقات، مضافا إلى ذلك دعواه الاجتهاد، وفي صدد هذا جاء في الرسالة :

«... مسألة البخاري المضل، قد ظهر فيها من عظيم المنكر المستبيح لوجه ما ظهر من عقوبته بين أيديكم، ما نفذ على ما هو به مما كان مستحقا له قبل ظهور تلك الكبيرة عليه، لجرءته على العلم والعلماء، وعلى حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، ودعواه **الاجتهاد** في دين الله، وربما نسب التقصير لغيره ممن تقدم من الأكابر المقتدى بهم، وصدقه الأغمار والأوغاد في ذلك، بل أعطوه فوق ما ادعى، فصار يعبث في دين الله كيف شاء لا يبالي ما صنع، وأكد هذا كله بمخالطة أولى الأمر من القضاة والحكام وذوي الجاه والسلطان، تلبيسا منه على العامة أيضا، فزاد عليها صولة، فصارت العامة تهابه لذلك، وعرف ذلك منهم فصار يضرّ بهم في المعاملات، وهذه قاصمة الظهر في الدين والدنيا، ومفسدة عظمى لا يحل لمن بسطت يده في الأرض الا بقاء عليها البتة، بعد البحث عليها حتى يصل إلى العلم..».

ثم قالت الرسالة : «وليت الأمر إذ أفضى فيه إلى ما أفضى، اقتصر عليه على أنه شر حيث كان، فإنه صار في سجنه يتأسى لِإتّباعه الأخيار من الماضين، مثل إمام دار الهجرة مالك بن أنس رضي الله عنه، وسعيد ابن المسيب سيد التابعين، ولبس الشقي فشبه الملائكة بالحدادين، واعتبر الغبي بمجرد الضرب دون سببه، وهو من تهاونه بالدين ولعبه، فصار الأتباع وغيرهم من الأغبياء ــ لأجل هذا ــ يستصغرون ما ظهر عليه، بل كلهم ــ في ظني ــ يرونه مشروعا، ويجل الشيخ عندهم أن يعمل بغير الشرع...».

وإلى هنا تنتهي الفقرات المقتبسة من هذه الرسالة، وهي تفيد أن المجتهد المعني بالأمر صار له أتباع يقتدون به، كما كانت له مخالطة لأولى الأمر من القضاة والحكام وذوي الجاه والسلطان، وإلى هذا تقدم الرسالة نموذجا من موقف الفقهاء المالكية إزاء دعوى الاجتهاد في هذه الفترة، وأيضا نتبين أن البخاري هذا التفت عليه شبه جمعية تقلده، وقد كان مآل أمر أنه ارتحل من فاس إلى الأندلس، ثم إلى تونس[603].

(602) الرسالة واردة عند الونشريسي في **المعيار**، ج 4، ابتداء من ص.344، ط.ف.

(603) **جذوة الاقتباس**، ص.231، ، ط.ف.

7 و8 ـ ويلحق بهؤلاء الستة : أبو عبد الله الدكالي ثم أبو حفص الرجراجي، وقد تقدم ذكرهما، ويصف البرزلي الأول بأنه من أهل الحديث، كما يقول عن الثاني : ولا أدري مذهبه : محدث، أو مالكي، أو ظاهري؟[604].

9 ـ أبو زيد عبد الرحمن بن علي بن عمر بن عبد السلام المعافري المعروف بالوقاد.

قال ابن غازي عنه : «فقيه، حافظ محدث، قيل أنه بلغ درجة الاجتهاد، أخذ عن أبي عبد الله ابن جابر، وكان بفاس، وانتقل لمراكش وتوفي بها»[605].

ولم يذكر ابن غازي تاريخ وفاته، وإنما المعروف ان أستاذه ابن جابر توفي بمكناس عام 827هـ/1423ـ1424م[606]

ونذكر في ذيل هذا الموضوع أن عالما مغربيا اضطلع ـ أثناء هذه الفترة ـ بإسناد مؤلفات ابن حزم الظاهري، وكان هذا هو ابن عمر اللخمي : محمد بن محمد بن عبد الرحمان الفاسي، المتوفى عام 794هـ/1391م، ومن طريقه يسندها المنثوري حسب الفقرة التالية :

«تآليف الحافظ أبي محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم ـ وهي نحو من ستين تآليفا، ومنظوماته ـ حدثني بها الأستاذ أبو عبد الله ابن عمر، عن الأستاذ أبي الحسن علي بن سليمان، عن الخطيب أبي الحجاج بن أبي ريحانة..»[607].

6 ـ جماعات واتجاهات صوفية

ظهر ـ بالمغرب ـ في هذا العصر : جماعات صوفية التزمت العمل بالكتاب والسنة، وابتعدت ـ الاقليلا ـ عن تيار التصوف الفلسفي، مع عناية زائدة بالجانب التربوي العملي من التصوف[608].

---

(604) نقل هذا عن **نوازل البرزلي** المنجور أواخر **شرح المنهج المنتخب**، إلى قواعد المذهب ط.ف، ج.2، م27، ص.5.

(605) نقل هذا في **سلوة الأنفاس**، ج 3، ص.159 .

(606) **جذوة الاقتباس**، ص.203، ط.ف.

(607) فهرسة المنتوري مخطوطة المكتبة الملكية أول مجموع يحمل رقم 1578 ، وأنظر عن ترجمة ابن عمر اللخمي : **سلوة الأنفاس**، ج 2، ص 3 .

(608) أنظر صحيفة معهد الدراسات الاسلامية في مدريد، مجلد 6 ص 228.

وكان أشهر هذه الجماعات طريقتان : أولاهما : طريقة **أبي مدين** : شعيب بن حسين الأنصاري الأندلسي الأصل[609]، دفين «العباد» من ضاحية **تلمسان**، والمتوفى عام 594هـ/1198م، أما الثانية فكانت هي طريقة **أبي الحسن الشاذلي** علي بن عبد الله بن عبد الجبار الحسني الادريسي، الغماري الزرويلي ثم الشاذلي[610]، المتوفى عام 656هـ/1258م.

وقد كان أبو مدين يعتمد الغزالي في كتابه «أحياء علوم الدين..» الذي جعله نصب عينيه، وهو يقول في هذا الصدد : «طالعت أخبار الصالحين من زمن أويس القرني إلى زماننا فما رأيت أعجب من أبي يعزى، وطالعت كتب التذكير فما رأيت كالأحياء للغزالي[611].

ثم تفرع عن مدرسة أبي مدين طريقتان مغربيتان :

أ ــ طريقة أبي محمد صالح بن ينصارن بن غفييان الدكالي ثم الماجري،[612]، دفين اسفي، والمتوفى عام 631هـ/1234م، ويعرف أصحابه بالماجريين، ومنهم الدكاليون[613].

وقد كان من آكد أركان هذه الطريقة : دعوة الأتباع إلى حج بيت الله الحرام، وزيارة السيد الرسول عليه وآله الصلاة والسلام، ومن كلام المنهج الواضح[614] في هذا الصدد :

«وقد أجمعت فضلاء المغرب ــ خصوصا وعموما ــ على أن الشيخ ــ رحمه الله ــ هو الذي فتح الله تعالى طريق الحج من المغرب على يديه، حتى حجه كل عاجز وقادر عليه[615]».

(609) ترجمته وبعض مراجعها ومصادرها في **الأعلام**، للزركلي ج 3 ص 244، وفي التشوف **للتادلي**، نشر معهد الأبحاث العليا المغربية، بتصحيح أدولف فور ــ رقم 162.

(610) ترجمته وبعض مراجعها ومصادرها في **الأعلام**، للزركلي ج 5 ص 120.

(611) **التشوف**، للتادلي، ص.195 مع **أنس الفقير**، لابن قنفد ــ ص 21، وآنظر عن تعاليم أبي مدين **دائرة المعارف الإسلامية**، المجلد الأول، ص.400-401.

(612) هناك تأليف في ترجمته بعنوان : **المنهج الواضح في تحقيق كرامات أبي محمد صالح من وضع حفيده أحمد ابن ابراهيم بن أحمد بن أبي محمد صالح**، المطبعة المصرية عام 1352هـ / 1933م.

(613) **أنس الفقير**، ص.64.

(614) ص.351.

(615) لمعرفة بقية تعاليم هذه الطريقة يراجع **المنهج الواضح**، ص.158-224.

ب ـ طريقة أبي زكرياء الحاحي : يحيى بن أبي عمرو عبد العزيز بن عبد الله بن يحيى، ظهر اخر المائة السابعة هـ، وتاريخ وفاته مجهول، وهو مدفون بتيغزا من بلاد حاحة، ويعرف أصحابه بالحاحيين[616]، ولا تزال تعاليمه غير مضبوطة، والمعروف عنه هو الذي سيقدمه النصان التاليان، فقد تحدث عنه في أنس الفقير[617]، وقال:

«...وأحفاده وأصحابه يقولون : شيخه أبو القاسم البكري، وشيخ البكري أبو سعيد، وشيخ أبي سعيد الشيخ أبو مدين... وكان لأبي زكرياء هذا ـ عند الجمهور ـ قبول تام، وله في الفقر كلام حسن، وتحقيق وتدقيق، ووصايا حسنة : بكلام لا يصدر إلا عن عالم أو ولي، وكذب أكثر الناس ـ خصوصا العلماء ـ انفراده بالأحوال في طريقته، وتغالى الجهلة من تلامذته في تعظيمه وتحقيقه، وشدة اقتدائهم بجزئياته وتغليظه وترقيقه، وقوة إنقباضهم عمن خرج عنه في تغريبه وتشريقه، أو ركن إلى غيره في المعيته وجمعه وتفريقه، وهذا هو موجب ضلال جهلتهم، وهو السبب فيما صدر عن العلماء في مشيختهم، وفي طائفته أخيار صلحاء، فلا تظن الناس كلهم سواء».

هذا كلام إبن قنفد، وفيه يحلل سلوك أتباع أبي زكرياء الحاحي، ويصنفهم في نوعين، ليصدر حكمه إزاء كل فريق على حدة، ونفس الملاحظة قام بها إبن مرزوق في المسند الصحيح الحسن[618]، وقال في هذا الصدد :

«وله أتباع على طريقته، وأتباع جهلة رعاع لا يفقهون ولا يفهمون، نقلت عنهم أمور لا ينكر صدورها منهم، أوجبت طعن جماعة من العلماء في الطائفة كلها وإطلاق القول فيهم، وهذه مصيبة عظيمة من الفريقين، وقد رأيت جماعة من الأعلام وكبار الأولياء ينتمون له ويسلكون طريقته، وينشرون مناقبه، منهم الولي العارف، المتفق على ولايته في عصرنا، أبو العباس أحمد بن عاشر الأندلسي الشميني... الخضراوي السلوى الاستقرار أخيرا».

وهكذا يتضح أن هذه الطريقة مع طريقة أبي محمد صالح كان لهما ظهور متميز بالمغرب، ومما يؤكد هذا قول إبن مرزوق في المسند الصحيح الحسن[619] أيضا.

(616) **أنس الفقير**، ص.64.

(617) ص.65.

(618) الباب 19 : الفصل الثاني، مخطوطة خ. ع ق 111.

(619) الباب 42 : الفصل الرابع، نفس النسخة، ووردت هذه الفقرة أيضا في النخب المنشورة من المسند الصحيح الحسن في مجلة : **Hespéris,** Année 1925, Tome v.p. 36.

«وأما الربط على ما هو المصطلح عليه في المشرق، فلم أر في المغرب ما على سبيلها ونمطها إلا رباط سيدي أبي محمد صالح، والزاوية المنسوبة لسيدنا أبي زكرياء يحيى بن عمر ـ نفع الله به ـ بسلا غربي الجامع الأعظم منها، ولم أر لهما ثالثا على نحوهما في ملازمة السكان وصفاتهم وشبههم بمن ذكر».

ج ـ ثم زاحم هذه المدرسة المدينية ـ بشعبتيها ـ طريقة أبي الحسن الشاذلي(620) المار الذكر، وقد كان لابن عباد السالف الذكر أيضا : يد بيضاء في نشرها بالمغرب والتعريف بها، وفي هذا يقول إبن السكاك عند حديثه عن الطريقة الشاذلية(621) :

«وهي أحمد طرق السالكين رضي الله عنهم، لتأسيسها على أقوى الأركان، وتزيين سمائها بدراري الأتباع الكامل وشموس الحقيقة والعرفان، وبحق ما : اختارها لنفسه ـ نحلة ونسبة ـ شيخنا أكمل مشايخ زمانه يالمغرب، أبو عبد الله محمد بن عباد، اختيارا صادرا عن استبحار في إستقراء جميع طرق السلوك، فكانت نتيجة غوصه في تلك البحار أن عقد جملة الكمال، فاستخرج منها هذه الطريقة وهي فريدة اللآل، وما زال يطنب في وصفها، ويشوق إليها، ويتفنن في أساليبها، ويكثر من التفاريع على أصولها، ويدعو أرباب السلوك إليها، على طريق من النصح والاستبصار بديع».

ويعود نفس المؤلف ليؤكد هذا في موضوع آخر له(622)، ويذكر عن أستاذه إبن عباد :

«.. وجمعت من إنشائه رسائل، مدارها على الإرشاد إلى البراءة من الحول والقوة، وقد احتوت على نبذ تشبه أنفاس الأكابر، وما أشبهه ـ في حسن تصرفه في الطريق الشاذلي، وجودة تنزيله له على الصور الجزئية، وبسط التعبير، وإنهاء البيان فيه إلى أقصى غاياته، والتفنن في تقريب ما غمض إلى الأذهان بالأمثلة الوضعية،

---

(620) أنظر عن أصول الشاذلية «دائرة المعارف الاسلامية» المجلد 13، ص.58 ـ 59.

(621) **استنزال اللطائف الرضوانية، بشرح القصيدة المحمدية العرفانية**، وهو اسم شرح لابن السكاك المتقدم الذكر، على قصيدة في المديح النبوي للسيد علي بن وفا : مخطوطة مكتبة الاسكوريال أول مجموع يحمل رقم 384.

(622) **كتاب الأساليب**، مخطوط بمكتبة الاسكوريال، آخر المجموع الآنف الذكر، وقد ورد نفس النص ـ مع بعض تغيير ـ في **نفح الطيب**، ج 3، ص.177.

والتراكيب المألوفة عند العامة ـ إلا بالفقيه الحافظ المحصل الإمام إبن رشد، فإنه قرب المذهب المالكي تقريبا لم يسبق إليه، رحمة الله عليه، وكذلك سيدنا الخطيب العارف، قرب حقائق الشاذلية تقريبا لم يسبق إليه».

وقد جاءت هذه الطريقة الشاذلية ثالثة الطرق الشهيرة بالمغرب، وحسب «أنس الفقير»(623): فقد وجد ـ أيضا ـ في نفس الفترة ـ مدارس صوفية أخرى، وهي ترجع إلى الطوائف التالية :

د ـ **الشعيبيون** : أصحاب أبي شعيب أيوب بن سعيد الصنهاجي، المعروف بأبي شعيب أزمور دفينها، والمتوفى عام 561هـ/1165ـ1166م(624).

هـ ـ **الصنهاجيون** : أتباع الأشراف بني آمغار أهل رباط تيط، ورئيس هذه الطائفة أبو عبد الله محمد آمغار دفين تبط قرب أزمور، ويعرف بآمغار الكبير، وهو إبن الشيخ أبي جعفر إسحاق بن اسماعيل(625)، وترجع هذه الطائفة والتي قبلها إلى الطريقة الجنيدية، نسبة إلى الإمام أبي القاسم الجنيد(626).

و ـ **الحجاج**: وهم طائفة لا يدخل في جماعتهم إلا من حج بيت الله الحرام.

ز ـ**الغمانيون** : أصحاب أبي زيد عبد الرحمن بن عبد الكريم الهزميري، دفين داخل باب الفتوح من فاس، والمتوفى عام 707هـ/1307ـ1308م، وطريقته مبنية على العزلة والاعتكاف، وقد كان لها إخوة محدثة بطائفة أبي زكرياء الحاحي، وسائر الطوائف ـ عدى الشاذلية ـ لهم إخوة بطائفة أبي محمد صالح(627).

وممن صحب شيخ هذه الطريقة الهزميرية أبو عبد الله محمد بن تيجلات، وأبو العباس ابن البنا المراكشي الإمام الشهير، ومحمد بن أحمد ابن شاطر الجمحي المراكشي، وجاء في ترجمة(628) هذا الأخير :

---

(623) ص.63ـ66.

(624) ترجمته وبعض مصادرها في التشوف للتادلي : الطبعة السالفة الذكر، رقم 62.

(625) أنظر عن نسب بني أمغار : **سلوة الأنفاس**، ج 2، ص.218 ـ 219، وعن تيط TIT دائرة المعارف الإسلامية : المجلد 6، ص.125ـ126، وعن ترجمة مؤسس الطائفة : **التشوف**، للتادلي : الطبعة الأولى، رقم 75.

(626) **الروضة المقصودة والحلل الممدودة في مآثر بني سودة**، لأبي الربيع سليمان الحوات، مخطوطة خاصة ـ عند الباب السادس.

(627) أنس الفقير ص.66، وأنظر عن ترجمة الهزميري مجلة **هيسبريس**، مجلد 22، ص.223.

(628) **مختصر الاجاطة** : المصورة المتكررة الذكر ـ ج 2، لوحة (178) مع **نفح الطيب**، ج 3، ص.131.

«صحب أبا زيد الهزميري كثيرا، وأبا عبد الله بن تيجلات، وأبا العباس إبن البنا، وإخوانهم من المراكشيين ومن جاورهم».

وهكذا سنعرف من هذه الفقرة مدى انتشار هذه الطائفة الأغماتية بمدينة مراكش وناحيتها.

* * *

وظهر في هذه الفترة صوفية أفراد نستعرض منهم أربعة :

1 ـ أبو العباس أحمد بن المطارحي دفين سلا والمتوفى عام 726هـ/1325ـ1326م، قال عنه إبن القاضي[629] :

«وكان حسن الفقه، مليح المنزع، مسمتا وقورا، يورد حكايات الصالحين، مليح المجلس، تحس الرحمة عند لقائه، من المتعبدين الزهاد، لازم سكنى سلا آخر عمره.

وكان كثير الإيثار : يحب المساكين، ويحسن إليهم، لم تختلف له حال، ولا تبدلت له سيرة، ولا اكتسب قط شيئا من عرض الدنيا، مقتنعا باليسير، راضيا بالدون من العيش، مع الهمة العالية، والنفس الأبية، ولم يزل طول عمره على هذه الحال إلى أن فارق الدنيا.

وكان كثير المطالعة للكتب وخصوصا كتب التصوف والحديث، وكان يحفظ حلية الأولياء لأبي نعيم الحافظ».

2 ـ أبو يعقوب البادسي المتوفى عام 734هـ/1333ـ1334م، ويصفه إبن خلدون[630] بكبير الأولياء بالمغرب، وهو ينتسب إلى مدرسة أبي مدين[631].

3 ـ محمد بن موسى الحلفاوي الإشبيلي المدجن، نزيل فاس، والمتوفى بها عام 758هـ[632]/1356ـ1357م.

---

(629) **درة الحجال**، رقم 19.

(630) المقدمة، ط المطبعة البهية المصرية، ص.285، وانظر عن ترجمة أبي يعقوب البادسي : **المقصد الشريف في التعريف بصلحاء الريف**، مخطوطة خاصة.

(631) **الروضة المقصودة**، المخطوطة السالفة الذكر ـ عند الباب السادس.

(632) ترجمته في **السلسل العذب** : خ، **وجذوة الاقتباس**، ص.192، ط.ف.

غلب على تصوفه الاتجاه الاجتماعي، فكان ـ إلى جانب قيامه بالأمر المعروف والنهي عن المنكر ـ يسلك طريقة الإيثار على المحتاجين، وقد شرح مذهبه في السلسل العذب «حيث قدم أمثلة في هذا الصدد» هكذا :

«وربما تكفلت صدقته بجميع مئون المحتاج : من قوت ومن لباس مستوف الجزئيات في الدفعة الواحدة، فيكفيه السؤال طويل مدة، ليمتعه بالانتفاع بنفسه، من توجه الى الله، أو إستنهاض لتكسب.

ويصل تحنث عبادته بالطواف على الفقراء والمحتاجين في الحضرة :«فاس»، ويتفقد بالفواكه الرطبة واليابسة ـ في أوانها ـ من تميل إليها نفسه فلا توصله المتربة إليها، فيبتاع منها الكثير مهما أظل زمانها، وتمكن إبانها، ويضعها في حانوته بالحلفاويين من فاس، ويحتمل نهاية ما يقدر على رفعه على رأسه، فيقصد به المظان إلى أن يفرغ الوعاء فيعيد امتلاءه، فيلحق تلطفه الضعفاء بالأغنياء، في إستطعام شهوات ما أنعم الله به على خلقه، ورزقهم من طيباتها.

ويبعث العيون للبوادي فيعانى بها المرضى، ويلين لهم خشن العيش، ويرفق بالمتخذ من الحيوان والمألوف، وأعد لذلك دارا يجمعهم فيها ويناولهم بيده».

وتربى على يد الحلفاوي هذا بعض التلاميذ الذين وردت تراجمهم في «السلسل العذب»، ومنهم علي اللجائي، وقد قال عنه هذا المصدر :

.. وسلك نوعا من طريقته : «أستاذه الحلفاوي» في القيام على مصالح المسلمين، والنظر في أحوال المساكين، والوساطة في الصدقات عليهم، والمبالات بأمرهم، وله في حسن المحاولة في صلاح ذات البين بين الناس قدم، وفي زوال الشحناء والتباغض بينهم».

وعبارة «أنس الفقير»[633] في ذكر بعض أخلاق اللجائي في هذا الميدان :

«وله سعي في حوائج المسلمين، وتفريق الصدقات على الفقراء والمساكين، وكان يأخذ في إيصال الحقوق، ونصر المظلوم، ويدعى إليه الغريم كما يدعى إلى الحاكم ولا يتخلف بوجه، والعلماء ينتابونه، وكان يجري على المحتاجين منهم بالنفقة المرتبة اليومية، قلت لبعض الصالحين «من أين عيشك» ؟ فقال لي : «من نفقة أجراها

(633) ص.77.

على اللجائي، يأتي بها في عشية كل يوم، وكذلك كان مع غيره، ويوفى بما يلتزم في ذلك، وييسر الله له في قصده، ومازال يعين من احتاج منهم إلى التزويج».

4 ـ أبو العباس أحمد بن عمر بن محمد بن عاشر الأندلسي المتقدم الذكر، نزيل سلا ودفينها، المتوفى عام 764هـ[634]/1363م، ويحتفظ كتاب السلسل العذب بشرح مذهبه الذي يقدمه في الفقرة التالية :

«وكان أعلم زمانه بالحلال والحرام، وبه نجح ـ في المغرب ـ الفقه في هذا الباب من العلم، وحيى رسمه، وقد كانت اندرست أكثر طرقه ومعالمه، وانطمست أغلب سبله ومسالكه، فكان يأتي من علمه بالعجائب، ويظهر على مجلسه من تدقيق الأنظار فيه فنون الغرائب، ويأمر بإستنساخ كتبه وقراءتها وتصحيحها، حتى فشت في الناس، وتعيش من نسخها جماعة ممن انضاف إليه، لم يكن كسبهم إلا من نسخها ونسخ أمثالها من كتب العلم، وخصوصا كتب الفقه والتصوف : مثل كتاب النصائح للمحاسبي[635].

وكان كثير المطالعة لهذا الكتاب الأخير، حتى كان يجري منه مجرى الدم، وعلى قراءته كان يخص من يستنصحه... وكان ـ أيضا ـ ينظر كثيرا في رعاية المحاسبي، وفي قوت القلوب لأبي طالب المكي، والإحياء للغزالي : وحده، ومعه أصحابه أحيانا، على حذر منه وتوق وشدة خوف واحتياط، أعني في وقت قراءتها مع الأصحاب، وخروج منه عن عهدة الالتزام».

وهكذا يتبين أن إبن عاشر أحدث ـ بالمغرب ـ مدرسة صوفية ذات طابع خاص، وقد تخرج على يده تلاميذ صلحاء أخيار، أحتفظ «السلسل العذب» بتراجم عدد منهم.

* * *

(634) ترجمة في **نيل الأبتهاج**، ص.70-71 و **اتحاف اعلام الناس**، ج 1، ص.304-311، وفي المصدرين إشارة إلى المصادر الأخرى لترجمته.

(635) ترجم في **السلسل العذب**، لأبي عبد الله محمد بن الشيخ الفقيه الصالح القاضي في الأحكام الشرعية بسلا أحمد الزهري، من تلاميذ الشيخ أبي العباس بن عاشر، وقد جاء في ترجمته : وكان من أعظم شغله وكسبه انتساخ الكتب التي كان الشيخ ـ رضوان الله عليه ـ يوثر قراءتها ويأمر بنسخها وتصحيحها وضبطها، فاستغرق فيها أكثر أوقاته ليلا ونهارا.

وهؤلاء ثلاثة صوفية سايروا ـ قليلا ـ التصوف الفلسفي، وظهر هذا ـ بصفة خاصة ـ في تهممهم بشعر إبن الفارض ومن شاكله : فقد كان يحيى بن ابراهيم بن يحيى البرغواطي من بني الترجمان يستظهر تائية إبن الفارض، ويحفظ كل غريبة من غرائب الصوفية، ويتكلم في مشكلاتهم[636]، وكتب إبن السكاك ـ المتقدم الذكر ـ شرحا على القصيدة المحمدية العرفانية للسيد علي بن وفا[637] التي مطلعها :

سكن الفؤاد فعش هنيئاً يا جسد...

وهي قصيدة صغيرة تقع في 14 بيتا.

وكان محمد بن ابراهيم بن محمد الأنصاري السهلي البلنسي مقيم مدينة أزمور : نظم قصيدة الهية وأخرى محمدية[638].

* * *

وهذه بعض آراء ومؤلفات أخرى تتصل بتصوف هذه الفترة : فقد ألف الفقيه الفاسي : أبو الفضل راشد بن أبي راشد الوليدي[639] كتاب **الحلال والحرام**[640] برسم بعض الشيوخ الصالحين، وذكر فيه أنه سمع من أبي محمد عبد الله بن موسى الفشتالي[641] : أن التائب إذا اقتصرا على ما عند علماء الظاهر أولى وأسلم له، بل لا يجوز اليوم إتخاذ شيخ لسلوك طريق المتصوفة أصلا، لأنهم يخوضون في فروعها ويهملون شروط صحتها وهو باب التوبة، إذ لا يصح بناء فرع قبل تأسيس أصله.

قال وسمعته يقول : لو وجدت تآليف القشيري لجمعتها وألقيتها في البحر، قال : وكذلك كتب الغزالي، قال : وسمعته يقول : إني لأتمنى على الله أن أكون يوم

(636) ورد هذا في ترجمته من **الدرر الكامنة**، ج 4، ص.409-410، مع : **نفح الطيب**، ج4، ص.17-19.

(637) أنظر عن كتاب ابن السكاك هذا التعليق رقم 621، وعن ترجمة السيد علي بن وفا ومصادرها ومراجعها : **معجم المؤلفين**، ج 7، ص.231-232.

(638) فهرسة السراج، مخطوطة المكتبة التطوانية بسلا ـ أثناء ترجمة عبد المهيمن الحضرمي.

(639) ترجمته ومصادرها ومراجعها في **سلوة الأنفاس**، ج 3، ص.262-263.

(640) منه بعض نسخ مخطوطة، أجودها بالمكتبة الملكية بالرباط ثانية مجموع يحمل رقم 424.

(641) ترجمته ومصادرها ومراجعها في **سلوة الأنفاس**، ج 2، ص.45-47، على أنه يلاحظ أن الفقرة المنقولة عن الفشتالي في هذا الكتاب، لا توجد في نسخه القليلة المعروفة منه الآن.

الحشر مع أبي محمد بن أبي زيد، لا مع الغزالي، بل مع أبي محمد يشكر، فذلك أكثر أمنا لي على نفسي[642].

واحتد النقاش ـ في هذه الفترة ـ في أحد كتب الغزالي، وهو «إحياء علوم الدين» بالخصوص، فقد جاء عند الونشريسي في المعيار[643] : «وسئل القباب عن جماعة من الطلبة يطعنون في كتاب الشيخ الإمام أبي حامد الغزالي ـ رضي الله عنه ـ المشهور بالإحياء، ويشددون في الإنكار على من أراد قراءته، وبالغ بعضهم في ذلك إلى أن قال : ليس ذلك بإحياء علوم الدين، وإنما هو إماتة علوم الدين... فأجاب : إنكار المنكر لقراءة الإحياء، وقوله : إنه إماتة علوم الدين لا إحياؤه، فهذا قول منكر، وكلام مبتدع وغبي جاهل بحق الرجل وبحق كتابه، وأبو حامد إمام من أيمة المسلمين.. وإنما انتقد عليه بعض الفقهاء مسائل مما يتعلق بشرح عجائب القلب وما أشبه ذلك، وأجاب عنه آخرون، ولا شك أن ترك النظر في تلك المسائل لمن لا رسوخ له في العلم واجب...».

ومن كلام القباب[644] ـ أيضا ـ في هذا المعنى :

«وما زلت أتمنى أن لو قيض الله تعالى رجالا ـ لهم حظ من العلوم، وعناية بهذا الطريق ـ إلى تلخيص كتاب الإحياء، فإنه كتاب جمع من العلوم المحتاج إليها ما لا يوجد في غيره، لا سيما الدواخل والشواغل المفسدة للمعاملات، ومعرفة عيوب النفس وكيفية مدواتها، فهو فيها غاية المطلوب..».

ومن الطريف أن يلتقي مع الإمام القباب ـ في الدعوة إلى إختصار الإحياء ـ الشيخان : محمد عبده وجمال الدين القاسمي، كما نقرأ هذا في طالعة «موعظة المؤمنين من إحياء علوم الدين»[645].

وأخيرا نذكر أبا العباس أحمد بن محمد بن يوسف إبن البنا التجيبي السرقسطي نزيل فاس في هذه الفترة[646]، وقد نظم أرجوزة ـ في التصوف ـ سماها :

---

(642) نقله ملخصا في **نيل الأبتهاج**، ص.117، **وجذوة الاقتباس**، ص.123، ط.ف، ونحوه عند الونشريسي في **المعيار**، أثناء جواب للقباب ج 11، ص.94-95، ط.ف.

(643) ج 12، ص.132، ط.ف.

(644) عند الونشريسي في **المعيار**، ج 11، ص.95، ط.ف

(645) دار العصور بمصر، الطبعة الثالثة ـ ص.4.

(646) ترجمته في أوائل شرح المباحث الأصلية لزروق، خ.

«المباحث الأصلية، عن جملة الطريقة الصوفية»، وهو يصنفها في خمسة فصول، ويجعل موضوع الفصل الخامس في فقراء العصر ومتشبهة الوقت، وقد نشرت ضمن شرحها لأبي العباس إبن عجيبة بمصر : «المطبعة الجمالية» عام 1331 هـ/ 1913م.

* * *

وكان لجماعات الصوفية مؤتمر سنوي وصفه في «**أنس الفقير**»[647]، بعدما ذكر جملة من الطوائف المغربية :

«ولقد حضرت مع جملة من هذه الطوائف مواطن عدة : منها زمان إجتماع فقراء المغرب الأقصى على ساحل البحر المحيط، جوف إقليم دكالة بين بلد آسفي وبلد تيطنفطر[648].. وكان الاجتماع في شهر ربيع الأول، المبارك الأسعد الأنور، سنة تسع وستين وسبعمائة، وحضر من لا يحصى عدده من الفضلاء، ولقيت هناك من أخيارهم وعلمائهم وصلحائهم ما شردت به عيني بسبب كثرتهم.. ورأيت في ذلك المجمع العظيم والمشهد الجسيم غرائب وعجائب لا يرى مثلها أبدا، لتغير الأحوال بعد ذلك».

7 ـ جماعات السنة :

وهي ـ حسب **المقدمة** لابن خلدون[649] ـ جماعات ظهرت في أثناء هذه الفترة، وتبنت الدعوة إلى إقامة السنة وتغيير المنكر، فكان ينزع في بعض الأحيان الواحد فالواحد إلى هذه الدعوة، ويعتني بذلك ويكثر تابعه، ويلاحظ إبن خلدون : إن هؤلاء أكثر ما يعنون بإصلاح السابلة، لما أن أكثر فساد أعراب البادية كان هو النهب والبغي في طرق المسافرين، كما يلاحظ أن الصبغة الدينية لم تستحكم في المنتحلين لهذه الدعوة، حيث إن توبة العرب ورجوعهم إلى الدين إنما يقصدون بها الإقصار عن الغارة والنهب، ولهذا كان القائمون بهذه الدعوة غير متعمقين في فروع الاقتداء والاتباع، إنما يهمهم الإعراض عن إفساد السابلة، ثم يقبلون على طلب الدنيا بأقصى جهدهم.

---

(647) ص.71-72.

(648) هي تيط الواردة في التعليق رقم 625.

(649) ص.287.

والغالب أن قيام هذه الجماعات استمر بعد إبن خلدون، فقد ترجم في «الضوء اللامع»[650]، ليعقوب بن عبد الله الخاقاني الفاسي، فذكر عنه أنه كان من أبناء البربر، وتعلق بالأشغال، فلما رأى الفساد الحادث بفاس في سنة 817هـ، صار يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ويكف أيدي المفسدين، فتبعه جماعة وقويت شوكته.

وهناك من مارس هذه الخطة على وجهها الشرعي الكامل، فقد قام أبو حفص عمر الرجراجي نزيل فاس ودفينها : بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإصلاح طرق المسلمين وإماطة الأذى عنها، وتجديد كل ما للمسلمين فيه منفعة تدوم من بير أو سقاية أو غير ذلك[651].

وقد استعرض في «أنس الفقير»[652]جزئيات أخرى من عمل أبي حفص الرجراجي في هذا الصدد وقال :

«وسعى في هذا الزمان في تغيير المنكر بنفسه، وأقام الحد على من يرى أنه لا يجسر عليه بذلك، وظهر في ذلك ظهورا تاما، ويسر الله له في هذه المطالب، وأعانه العامة والخاصة، بحيث لو قال : هذا اقتلوه لقتل قبل تمام الكلام، وتقفد أمر القضاة وأصحاب الأحباس، وغير على من لم يصلح، وصارت الخاصة والعامة تحت طاعته».

وبعد الرجراجي كان عبد الله العبدوسي سابق الذكر إماما في نصح الأمة، أمات كثيرا من البدع بالمغرب، وأقام الحدود والحقوق[653].

8 ـ جماعات للدفاع عن الأندلس والمغرب

لما ضعف ملوك بني مرين عن الجواز إلى الأندلس، صار يقوم بهذه المهمة ـ بين الآونة والأخرى ـ جماعات مغربية شعبية، ومن ذلك أنه في عامي 786

(650) ج 10، ص.115.
(651) شرح القصيدة التلمسانية للسيتاني، مخطوط المكتبة الملكية رقم 1750.
(652) ص.79، مع تصحيح كلمة من هذا النص عن مخطوط المكتبة الملكية رقم 2990.
(653) نيل الابتهاج، ص.158.

و787هـ، اجتاز للأندلس فرق من المتطوعين منهم ـ من قبيل بي محمد صالح ـ 800 فارس في العام الأول، ومثل ذلك في العام التالي(654).

ثم في أواخر هذه الفترة ظهرت بعض جماعات أخرى للدفاع عن الأندلس، والمعني بالأمر هنا اسمان اثنان، التف حول كل منهما شبه جمعية تعمل لهذه الغاية.

أ ـ أبو عثمان سعيد الرندي الأندلسي الأصل، مستوطن فاس، وحسب بعض الرسائل المرفوعة إلى أبي الحسن علي الشريف الحسني السجلمساي ورفيقه آتى الذكر : فإن سعيدا الرندي كان مفوضا إليه من جهة سلطان الأندلس ورؤسائها للدعوة إلى إنقاذ الأندلس، وقد كان يمارس هذه المهمة بتعاون مع علماء فاس وصلحائها وطلبتها، وهو الذي ندب علماء فاس للكتابة إلى أبي الحسن علي الشريف ورفيقه محمد بن ابراهيم العمري في صدد الحض على الجواز للأندلس، وذلك أثناء عام 841هـ/1438م، وقد انتدب للكتابة لهما من علماء فاس :

محمد بن عمْرو العكرومي القرشي ـ علي بن محمد بن مرشيش ـ محمد ابن أملال ـ عبيد الله بن يحيى السراج ـ أحمد بن أحمد الماواسي ـ عبد الرحمن بن محمد الصغير بن الشيخ الحسن بن عبيد الله من زاوية الرقعة(655).

ب ـ **أبو الحسن علي الشريف الحسني السجلماسي** المتوفى عام 842هـ/1438ـ1439(656)، وهو المخاطب مع رفيقه العمري بالرسائل المغربية والأندلسية، وقد كانت له جولات في الدفاع عن الأندلس، وكان يستنجد أهل المغرب للجواز

---

(654) هذا وقفت عليه بخط مؤرخ أسفي محمد بن أحمد العبدري الكانوني، نقلا عن خط الفقيه الخطيب عبد الله بن يحيى بن ابراهيم حفيد أبي محمد صالح: في كناشة الأول بالمكتبة الأحمدية.

(655) أنظر تفاصيل هذا في **الأنوار الحسنية**، في ثنايا بعض الرسائل الواردة في مخاطبة أبي الحسن الشريف ورفيقه : ص.41ـ50 نشر وزارة الأنباء المغربية، وراجع عن ترجمة العكرومي : **سلوة الأنفاس**، ج2، ص.122ـ123 وابن مرشيش : نفس المصدر ج 3، ص.86، وابن أملال نفس المصدر ج 3، ص.86ـ87، وفي نفس المصدر : ترجمة لأحمد بن محمد الماواسي ج 3، ص.245ـ246 بدل أحمد بن أحمد الماواسي الوارد في الأنوار الحسنية، وبالاسم الأول ورد عند الناصري في **الاستقصا**، ط. دار الكتاب بالدار البيضاء ـ ج 7، ص.8، وارجع إلى ترجمة عبد الرحمان الرقعي في طبقات المالكية : المخطوطة السالفة الذكر عند التعليق رقم 547: ص.448، أما عبيد الله بن يحيى السراج : فيمكن أنه ابن الإمام يحيى السراج الأكبر، ولم أقف على ترجمته.

(656) لفظ الفرايد من لفاظه حقق الفوائد لأحمد ابن القاضي : مخطوطة خاصة، ومصادر أخرى.

إليها، وتفد عليه الوفود من سوس وغيرها فيبعث بهم من طنجة ويعبر منها إلى شبه الجزيرة الأندلسية[657].

وقد كان يدعى شيخ الغزاة، وبهذا وقع تخطيطه في ديوان الأديب الأندلسي عبد الكريم بن محمد بن عبد الكريم القيسي الذي كان بقيد الحياة عام 836هـ/1432–1433م[658]، ويحتفظ هذا الديوان بقصيدتين في مخاطبة أبي الحسن الشريف الذي يسميه شيخ الغزاة ببسطة[659]، وقصيدة أخرى في مخاطبة شيخ الغزاة بنفس المدينة : محمد بن عثمان[660]، وأخرى في مخاطبة شيخ الغزاة ببسطة أيضا : عبد الله بن عمران[661]، والغالب أنهما ـ معا ـ مغربيان، حيث إن وصف شيخ الغزاة كان من اختصاص المغاربة.

وبعد هذا فإن أبا الحسن الشريف كان له في داخل المغرب جولة للدفاع عن مدينة طنجة ضد الغارات الأجنبية، تنطق بهذا بعض أبيات من قصيدة أندلسية[662] خوطب بها أبو الحسن المذكور من طرف أبي فارس بن أبي الربيع، وتتحدث هذه الأبيات عن موقعة قام بها بطنجة مع أهل سوس ضدا على المسيحيين، حيث انتصر في هذه المعركة التي انجلت عن قتلى وأسرى للأعداء.

وفي أبيات أخرى من نفس القصيدة يرد الحديث عن تلبية محمد بن ابراهيم العمري لاستصراخ أهل طنجة التي دافع عنها بجيش ساهم فيه المغاربة من سائر الجهات، وأوقع بالكفار وقيعة خالدة.

وهكذا يتبين قيام شبه جمعيات للدفاع عن الأندلس والمغرب أواخر هذه الفترة.

---

(657) أنظر الدرر البهية، ج 1، ص.84–85.

(658) من هذا الديوان نسخة فريدة في الخزانة العامة بالرباط، ضمن مجموع يحمل رقم ق 198.

(659) ص.207–210 من ترقيم المجموع الذي يشتمل على الديوان.

(660) ص.205–207.

(661) ص.242–243.

(662) القصيدة الأندلسية المشار لها أعلاه واردة في الأنوار الحسنية، حيث تقع الأبيات المعنية بالأمر، ص.52–53.

9 ـ جماعات متطرفة :

سجل إمامان من أعلام هذه الفترة قلة وجود مثل هذه الجماعات بالمغرب، والمعني بالأمر هنا : أبو يعقوب المحساني[663]، ثم أبو عبد الله محمد ابن الحاج مؤلف المدخل، الذي يقرر في أحد فصوله فضل علماء المغرب، ثم يقول في خاتمة هذا الفصل[664] :

«وبسبب وجودهم «العلماء»، وتصرفهم بالسنة المطهرة على ما تقدم ذكره، ارتدع كثير من أهل البدع، وقل ظهورها وأهلها، ونزلت البركات، وجاءت الخيرات، وبقي الناس في خفارتهم محمولين في أرغد عيش، عكس ما عليه الحال اليوم في الغالب في الوقت».

أما هذه الجماعات المتطرفة فكانت لا تعدو :

أ ـ الفاطمية ومن إليها.

كان المنتحلون لهذه النحلة بالمغرب يتفرعون إلى أكثر من فرقة: الأولى فريق المتصوفة الذين يشرح إبن خلدون في المقدمة[665]، نزعتهم ويقول :

«وأما المتصوفة الذين عاصرناهم، فأكثرهم يشيرون إلى ظهور رجل مجدد لأحكام الملة ومراسم الحق، ويتحينون ظهوره لما قرب من عصرنا، فبعضهم يقول من ولد فاطمة، وبعضهم يطلق القول فيه، سمعناه من جماعة أكبرهم أبو يعقوب البادسي كبير الأولياء بالمغرب، كان في أول هذه المائة الثامنة».

وبعد هذا تذكر المقدمة[666] الفرقة الثانية من أصحاب هذه النحلة وتقول :

«وأما ما تدعيه العامة والأغمار من الدهماء، ممن لا يرجع في ذلك إلى عقل يهديه ولا علم يفيده، فيتحينون ذلك على غير نسبة، وفي غير مكان، تقليدا لما اشتهر

---

(663) نوازل محمد بن الحسن المجاضي، ط.ف، ص.111، وقد تكرر فيها النقل عن المحاسبي تصحيفا عن المحساني، ليكون المعني بالأمر هو أبو يعقوب المحساني، وهذا له ترجمة في **نيل الابتهاج**، ص.352 **وجذوة الاقتباس**، ص.347ـ348، وفي هذا المصدر الأخير تصحف المحساني بالغساني.

(664) المطبعة الوطنية بالأسكندرية عام 1293 : ج 1، ص.332.

(665) ص.285، أواخر الفصل الذي ينفي فيه أمر الفاطمي، وأنظر أيضا ص.139ـ140.

(666) ص.286، من المطبعة المتكررة الذكر، مع الرجوع الى نسخة مخطوطة من المقدمة.

من ظهور فاطمي، ولا يعلمون حقيقة الأمر... وتجد الكثير من ضعفاء البصائر يقصدون رباطا بماسة من أرض السوس، يتحينون هناك لقاءه».

وهناك فرقة ثالثة تنظر إلى المسألة نظرة أخرى، ولما تحدث إبن خلدون في **العبر**[667] عن قبيل تينملل قال :

«وقبر الإمام «المهدي بن تومرت» بينهم لهذا العهد على حالة من التجلة والتعظيم، وقراءة القرآن عليه أحزابا بالغدو والعشى، وتعاهده بالزيارة وقيام الحجاب دون الزائرين من الغرباء، لتسهيل الأذن، واستشعار الأبهة، وتقديم الصدقات بين يدي زيارته على الرسم المعروف في إحتفال الدولة، وهم مصممون مع كافة المصامدة أن الأمر سيعود، وان الدولة ستظهر على أهل المشرق والمغرب، وتملأ الأرض كما وعدهم المهدي، لا يشكون في ذلك ولا يستريبون فيه».

ب ـ العكازون

وقد كانوا موجودين في هذه الفترة، وجاء تفسيرهم عن أبي يعقوب المحساني بأنهم يكفرون من لا يومن بالمهدي ابن تومرت[668].

وفي آخر نوازل التعزيزات من **المعيار المعرب**[669]، يوجد سؤال يفسر نحلة هؤلاء، وكان المخاطب به هو فقيه تازي ومفتيها محمد بن عبد المومن، من أهل القرن الثامن للهجرة، وجاء في هذا السؤال :

جوابكم في قوم فارقوا الجماعة.

ويكفرون المسلمين.

ولا يأكلون ذبائحهم

ولا يصلون خلفهم.

ويقولون من لم يومن بالمهدي بن تومرت فهو كافر.

ويفضلونه على أبي بكر وعمر رضي الله عنهما.

---

(667) ج 6، ص.562.

(668) أنظر **نوازل المجاصي**، ص.91 و95 و111 و125، مع **المعيار** للونشريسي، ج 2، ص.423، ط.ف.

(669) ج 2، ص.352.

ويقولون من لم يعلم اثنى عشر بابا من التوحيد فهو كافر.

وينقضون الوضوء بلمس ذوات المحارم.

ويقولون من حلق ما تحت اللحية فهو مجوسي.

فهي تسع مسائل ينبني عليها مذهبهم.

ثم جاء في أواخر جواب المفتي في شأنهم[670] :

«وقد كان ورد فيهم ظهير من السلطان ــ رحمه الله ــ في مدة الترجالي أن يبحث عن أمرهم، فاجتمع الناس عليهم في مسجد السيتاني وبحثوا فلم يوجد عندهم شيء من العلم، واتفق الناس حينئذ على أنهم قوم جهلة، وأنهم يستتابون فإن تابوا وإلا قتلوا، وكنت أنا حاضرا لذلك فتابوا وانصرفوا، وما أفلتهم من القتل حينئذ إلا توبتهم على يد سيدي أبي عبد الله إبن عطية رحمه الله تعالى، فإذا ظهر عليهم بعد ذلك إنهم لم يزالوا على بدعتهم، يخاف عليهم ألا تقبل لهم توبة ويقتلون من غير إستتابة، لأنهم يصيرون حينئذ بمنزلة الزنديق الذي لا تقبل له توبة، لكونه يخفي حاله، فكذلك هؤلاء».

ومما يؤكد أن هؤلاء هم العكازون : أن المجاصي لما نقل في نوازله بعض هذا الجواب عقب عليه بقوله[671] :

«وأصحاب إبن تومرت المذكورون هم المسمون بالعكازين، حسبما نقله التتائي في شرحه على الرسالة عن المحساني..».

ج ــ السليمانيون:

وقد كانوا موجودين ــ أيضا ــ في هذه الفترة حسب أبي يعقوب المحساني، الذي يفسر نحلتهم بأنهم الذين يبيحون الجمع بين النساء والرجال[672].

(670) عند الونشريسي في **المعيار** أيضا ج 2، ص.358، ط.ف.

(671) ص.95 و111.

(672) أنظر **نوازل المجاصي**، ص.91 و112 و125، والمحساني المذكور يضبطه ابن عبد الملك هكذا : «بميم وحاء غفل مفتوحتين، وسين غفل مشددة، وألف ونون وياء النسب، التالي بالنون، وبنو محسان بطن من غمارة، وبنو نال فخذ من بني محسان»، الذيل والتكملة، م.م، 269، ص.19، عند ترجمة أحمد بن ابراهيم ابن الزبير الأخذ عن المحساني.

10 ـ جماعات القوانين العرفية :

وهي القبائل التي كانت تخضع ـ في ميدان الجريمة بالخصوص ـ لقانون جنائي وضعي تتفق عليه القبيلة، ويطلقون عليه إسم «عرف»، وقد وردت الإشارة لوجود هذه الجماعة في هذه الفترة عند أبي زيد عبد الرحمن الجزولي المتوفى عام 741هـ/1340م، فقد أورد في تقييده على الرسالة القيروانية قولة لعمر بن عبد العزيز الخليفة الأموي، ثم علق عليها وقال :

وبقول عمر هذا، يستدل أشياخ السوء من القبائل فيما أحدثوا : إن من سل سيفه فضرب به يلزمه كذا، ومن وضع يده عليه ولم يسله يلزمه كذا، ومن لطم يلزمه كذا، ومن شتم يلزمه كذا، ويحلفون في البرانس والمناجل، وكل ذلك بدعة أماتوا بها السنة[673].

والغالب إن بعض هذه القبائل قد عادت لتطبيق التشريع الإسلامي في هذا الصدد، فقد نشرت مجلة «هسبريس» ج 18 سنة 1934م ص 46 :

وثيقتين ذكرت إنهما أقدم ما يوجد في القانون الجنائي العرفي بالمغرب، ويرجع تاريخهما لعام 1512م/917ـ918هـ، وقد ورد في مقدمتهما : أنه بعد التعرف إلى الضلال الذي تنطوي عليه الأعراف العتيقة، أصبح رئيس القبيلة يطبق ما ورد في القرآن الكريم، وسنة الرسول صلى الله عليه وسلم : في خصوص الجرائم، تبعا لآية القصاص[674].

(673) محمد ميارة في شرح لامية الزقاق، ط.ف، م 44، ص.1.

(674) **معطيات الحضارة المغربية**، ج 2، ص.42.

الفصل الثالث

استقرار كثير من أصول الهوية المغربية في الفترة المرينية

الفصل الثالث
استقرار كثير من أصول الهوية المغربية في الفترة المرينية

مقدمة

شهد النصف الأول من القرن الثالث عشر م تقسيما جديدا للغرب الإسلامي، حيث قام ـ على أنقاض الأمبراطورية الموحدية ـ أربع دول إسلامية جديدة، تقاسمت النفوذ في الرقعة الموحدية بشمال إفريقية والأندلس، وقد صارت تونس وما إليها من نصيب الحفصيين، واستولى بنو عبد الواد على الجزائر، وانتصب المرينيون بالمغرب الأقصى، بينما استقر الأمر فيما تبقى من الأندلس المسلمة لبني الأحمر، بعدما استولى على معظم هذه الأخيرة القشتاليون والقطلانيون[675].

وقد استمر هذا التقسيم الجديد للغرب الإسلامي زهاء ثلاثة قرون، انتهت بآستيلاء العثمانيين على مملكتي الجزائر وتونس، وقيام السعديين بالمغرب الأقصى.

وكان أعظم هذه الدول الإسلامية الجديدة هي الدولة المرينية التي كانت تطمح إلى آستعادة الأمبراطوية الموحدية بشمال إفريقية، ثم استعادتها ـ بالفعل في فترتين قصيرتين ـ على عهد كل من أبي الحسن المريني وابنه أبي عنان، غير أنه في معظم هذا العصر كان المرينيون يقتصرون على حكم المغرب الأقصى.

* * *

ويهمنا ـ بعد هذا المدخل ـ أن هذه الفترة الطويلة كانت ميدانا لِاستقرار كثير من أسس الهوية المغربية، والمعني بالأمر هنا هي الوحدات التالية : الوحدة اللغوية ـ وحدة التشريع ـ وحدة العقيدة ـ وحدة دفاعية ـ ميزات وعوامل أخرى.

1 ـ نحو لغة موحدة

من أبرز ميزات هذه الفترة التقدم الذي أحرز عليه توحيد اللغة القومية في نطاق تعميم اللغة العربية إلى أقصى حد ممكن، فعلى خلاف الحال في دولة الموحدين،

(675) مجلة **دعوة الحق**، السنة الثامنة، العدد 2، 3 سنة 1384 /1965.

يلاحظ أنه انعدم ـ في هذه الفترة ـ آستخدام اللهجة الأمازيغية في خطبة الجمعة[676] وفي الأذان للصلاة، بعدما كان يعقب بها بعد كل من الشعيرتين، وقد استنكر الونشريسي في المعيار[677] النداء للصلاة بالبربرية عند كمال الأذان بالعربية، وعد ذلك من البدع، ومن الواضح أن اللغة العربية هي التي حلت محل اللهجة الأخرى في هذه الأغراض.

ومن مظاهر التزام اللغة العربية في التأليف، ما يسجله مؤلف «**المنهاج الواضح في مآثر أبي محمد صالح**»، حيث يذكر في طالعة هذا التأليف[678] أنه تلقى جل فضائل جده بلسان الرطانة : « البربرية »، ثم دونها باللسان العربي.

وهكذا نتبين أن وحدة اللغة العربية تتحرك من هذه الحقبة نحو هدفها ولو في نطاق محدود.

ومما يسجل لهذه الفترة أن الأدب المغربي كان ـ في لغته العربية الفصحى ـ لا يزال يحتفظ بأصالة لفتت إليه أنظار الأندلسيين بالخصوص، قال أبو إسحاق الشاطبي في الإفادات والإنشادات[679] :

«أفادني صاحبنا الكاتب أبو عبد الله ابن زمرك إثر إيابه إلى وطنه من رحلة العدوة ـ في علم البيان ـ فوائد، وذكر منها ثلاثا : إحداها : الفقه في اللغة، وهو النظر في مواقع الألفاظ وأين استعملتها العرب ... والثاني : تحرير الألفاظ البعيدة عن طرفي الغرابة والأبتذال، قد فلا يستعمل الحوشي من اللغات، ولا المبتذل في ألسُن العامة، والثالث : اجتناب كل صيغة تخرج الذهن عن أصل المعنى أو تشوش عليه ... قال : وأخبرني أن «**كتاب المغرب يحافظون في شعرهم وكتابتهم على طريقة العرب، ويذمون ما عداها من طرق المولدين، وأنها خارجة عن الفصاحة**، وهذه المعاني الثلاثة لا توجد إلا فيها».

---

(676) في **روض القرطاس**، ط.ف 1305 : ص. 45-46 : «إن الموحدين كانوا لا يقدمون للخطابة والإمامة إلا من يحفظ التوحيد باللسان البربري».

(677) ج 2، ص.361 ـ 362: ط. ف.

(678) ط. للطبعة المصرية، عام 1352هـ، 1933 م، ص 16.

(679) نقل هذا ابن الأزرق في «**روضة الأعلام**»، مخطوط الخزانة الملكية رقم 4436.

وقد استمرت هذه الظاهرة في أدباء المغرب حتى قال الشيخ محمد بيرم التونسي[680] أواخر القرن التاسع عشر م :

«ولعمري إن صناعة الإنشاء في الدول باللغة العربية كادت الآن أن تكون مقصورة على دولة مراكش، وأما غيرها من الدول العربية فقد تذبذبوا، وكادت كتابتهم أن تخرج عن الأسلوب العربي، بل صاروا لا يتحاشون عن اللحن والكلمات البربرية، بخلاف كتاب المغرب، وهذا ديدنهم من قديم».

ونحو من هذا يسجله ـ عن المغرب ـ أبو العباس الناصري في رسالته : «الفوائد المحققة في أبطال دعوى أن التاء طاء مرققة»،[681].

ومن جهة أخرى فإن ظهور الدولة المرينية صار عاملا جديدا في انتشار العربية في لغة التخاطب «العامية» ، حيث أن معظم العناصر العربية التفت حول يعقوب بن عبد الحق ماهد هذه الدولة، وبذلك أصبح للعرب ضلع في تركيز الحياة السياسية والاجتماعية، ثم التسرب إلى جهاز الدولة، يضاف لهذا أنه في أثناء هذه الفترة كان العرب ـ على حد تعبير ابن خلدون[682] ـ قد كثروا البربر وغلبوهم، وانتزعوا منهم عامة الأوطان، وشاركوهم فيما بقي من البلدان، وقد تمخض عن هذا وذاك ـ في غير الأطلس ـ أن توطدت اللغة العربية في أصقاع متنائية، وبذلك تعززت الوحدة السياسية في البلاد عن طريق التعريب في لغة المحادثة في هذه البوادي، كما هو الحال في الحواضر[683].

ومن مظاهر انتشار التعريب آنذاك شيوع قصائد هؤلاء العرب بالمغرب، قال ابن خلدون في المقدمة[684] :

« ... فأما العرب أهل هذا الجيل المستعجمون عن لغة سلفهم من مضر، فيقرضون الشعر لهذا العهد في سائر الأعاريض، على ما كان عليه سلفهم المستعربون، ويأتون منه بالمطولات، مشتملة على مذاهب الشعر وأغراضه من النسيب والمدح والرثاء

(680) ج 1، ص 61 من **صفوة الاعتبار**: المطبعة الإعلامية بمصر، 1302.
(681) خ. ع د 1724 ضمن مجموع ص 51.
(682) **المقدمة**، ص 27، وآنظر **تاريخ المغرب**،للأستاذ عبد العزيز بنعبد الله، ج 1، ص.136 ـ 137.
(683) آنظر **تاريخ المغرب**، لهنري طيراس ج 2 ص 28.
(684) ص.533.

والهجاء، ويستطردون في الخروج من فن إلى فن في الكلام، وربما هجموا على المقصود لأول كلامهم، وأكثر ابتدائهم في قصائدهم باسم الشاعر ثم بعد ذلك ينسبون، فأهل أمصار المغرب من العرب يسمون هذه القصائد بالأصمعيات[685]، نسبة إلى الأصمعي راوية العرب في أشعارهم ...».

وإذا كان هذا اللون من الشعر قد غلب بالمغرب على البوادي العربية، فإن الأمصار شاعت فيها الأزجال التي أورد ابن خلدون بعضا منها أواخر المقدمة[686] :

وأخيرا : فقد كان من عوامل تعزيز التعريب في هذه الفترة، أن الحكام المرينيين أنفسهم كان البعض[687] يرفع نسبهم إلى أصول عربية، ولسنا نحاول هنا تصديق هذه الدعوى أو تكذيبها، بقدر ما يهمنا أثرها في تعزيز جانب التعريب.

وإلى هنا نتبين من هذا العرض مدى الخطوات التي سار فيها التعريب، مما عزز الوحدة في هذه الفترة، ثم مهد لاكتمالها بعد، حتى قال الفريد بيل في الكتاب الذي صنفه حول البربر وديانتهم[688] :

«إن رجال البربر أصبحوا ـ اليوم ـ كلهم يتقنون اللغة العربية في الجبال الأطلسية، لا سيما منها الناحية الشرقية».

2 ـ وحدة التشريع

وهي وحدة واضحة تحققت في نطاق المذهب المالكي الذي عاد للظهور مرة أخرى بعد الفترة الموحدية، ليوحد المغرب في ميدان التشريع خلال هذه الفترة وبعدها.

ومما يدل على قوة هذا العامل في الوحدة القومية، إن بعض الجهات المغربية التي كانت تخضع للقانون الجنائي العرفي، رجعت ـ بدورها ـ لتطبيق التشريع الإسلامي في هذا الصدد، فقد نشرت مجلة «**هسبريس**»، ج 18، سنة 1934،

---

(685) هو العروبي حسب تفسير البعض.

(686) ص.553-556.

(687) ورد هذا في أرجوزة أبي فارس الملزوزي نشر المطبعة الملكية بالرباط، وفي شعر لابن المرحل حسب الذخيرة السنية ص 10. من مطبعة الجزائر.

(688) معطيات الحضارة المغربية، ج 1، ص.61.

ص.46، وثيقتين ذكرت إنهما أقدم ما يوجد في القانون الجنائي العرفي بالمغرب، ويرجع تاريخهما لعام 1512م (917–918هـ)، وقد ورد في مقدمتهما : أنه «بعد التعرف إلى الضلال الذي تنطوي عليه الأعراف العتيقة، أصبح رئيس القبيلة يطبق ما ورد في القرآن الكريم وسنة الرسول صلى الله عليه وسلم، في خصوص الجرائم، تبعا لآية القصاص[689]».

ولا شك أن هذه الظاهرة في القانون الجنائي العرفي جاءت نتيجة لمواقف العلماء من وحدة التشريع المغربي، ومن هؤلاء الإمام أبو زيد عبد الرحمن الجزولي، المتوفى عام 741هـ – 1340م، فقد أورد في تقييده على الرسالة القيروانية قولة لعمر بن عبد العزيز الخليفة الأموي، ثم علق عليها وقال : «وبقول عمر هذا يستدل أشياخ السوء من القبائل فيما أحدثوا : أن من سل سيفه فضرب به يلزمه كذا، ومن وضع يده عليه ولم يسله يلزمه كذا، ومن لطم يلزمه كذا، ومن شتم يلزمه كذا، ويحلفون في البرانس والمناجل، وكل ذلك بدعة أماتوا بها السنة[690].

وممن حمل على هذه الأعراف المحلية الشيخ عبد الله الهبطي، المتوفى عام 963هـ، فقد تناولها في أرجوزته – في البدع – التي تحمل اسم «**الألفية السنية في تنبيه العامة والخاصة على ما غيروا في الملة الإسلامية**»، وخصص للتنديد بها بابا خاصا يشتمل على ستين بيتا[691].

3 – وحدة العقيدة

ومما عزز الوحدة القومية في هذه الفترة اجتماع المغاربة على العقيدة الأشعرية، بعد الغاء ما كان يشوبها من أفكار أخرى في المرحلة الموحدية، وبهذا استطاع المغاربة أن يبتعدوا عن الفرق والخلافات العقدية، وقد كان موقف الدولة قويا في مقاومة الذين يحاولون الخروج عن هذه الوحدة، وهناك قصة من هذا القبيل وردت الإشارة لها قبيل فصل البدع من المعيار[692] للونشريسي.

(689) المصدر الأخير، ج، 2، ص.42.
(690) نقله محمد ميارة في شرح لامية الزقاق ط، ف م 44، ص.1.
(691) يلاحظ أن الهبطي عاصر وضع وثيقتي القانون الجنائي العرفي بالمغرب، وقد طبقتا – كما رأينا قريبا – التشريع الإسلامي في الميدان الجنائي، فعلى هذا يكون هذا العالم يحمل على أعراف ناحية معينة.
(692) ج 2، ص.358.

4 ـ وحدة دفاعية

أن أروع مثال لهذه الوحدة يوجد في رد الفعل المغربي ضد حملات البرتغال على السواحل المغربية، وقد صور هذه الظاهرة الناصري في الاستقصا[693]، وعقب على ذكر أخبار البرتغال في هذا الصدد وقال في أسلوب يغلب عليه السجع :

«ولما نزل بأهل المغرب الأقصى ما نزل من غلبة عدو الدين، واستيلائه على ثغور المسلمين، تباروا في جهاده وقتاله، وأعملوا الخيل والرجل في مقارعته ونزاله، وتوفرت دواعي الخاصة منهم والعامة على ذلك، وصرفوا وجوه العزم لتحصيل الثواب فيما هنالك، فكم من رئيس قوم قام لنصرة الدين غيرة واحتسابا، وكم من ولي عصر أو عالم مصر باع نفسه من الله ورأى ذلك صوابا، حتى لقد استشهد منهم عدد وأسر آخرون، وبلغ الله ـ تعالى ـ جميعهم من الثواب ما يرجون».

وبعدما استعرض الناصري أسماء جماعة ممن استشهوا أو أسروا، قال :

«ولقد ألف الناس في ذلك العصر التآليف في الحض على الجهاد والترغيب فيه، وقال الخطباء والوعاظ في ذلك فأكثروا، ونظم الشعراء والأدباء فيه ونثروا، فممن الف في ذلك الباب فأفاد : الشيخ المتفنن البارع الصوفي، أبو عبد الله محمد بن عبد الرحيم بن يجبش التازي، قال في الدوحة : وقفت له على تأليف ألفه في الحض على الجهاد في سبيل الله، فكان مما ينبغي أن يتناول باليدين، ويكتب دون المداد باللجين، أودعه نظما ونثرا، وممن نظم في ذلك فأجاد : الشيخ الصالح، المتصوف، المجاهد، أبو عبد الله محمد بن يحيى البهلولي، قال في الدوحة : كان هذا الشيخ ممن لازم باب الجهاد وفتح له فيه، وله في ذلك أشغار وقصائد : زجليات وغيرها...»

وقد أورد في الاستقصا نتفا يسيرة من هذه الأشعار نقلا عن دوحة الناشر، ولا يزال لم يقع العثور على مجموعها، أما تأليف ابن يجبش في الجهاد فالغالب أن المقصود به الرسالة التي تحمل اسم «تنبيه الهمم العالية، على الصدقة والانتصار للملة الزاكية، وقمع الشرذمة الطاغية»، ويعرف منه لحد الآن نسختان : احداهما تامة، وهي تقع ضمن مجموع يحمل رقم ق 336 بالخزانة العامة بالرباط، والثانية نسخة خاصة يتخللها بتر، وقد نشرت وشيكا بهمة الأستاذ الغيور المرحوم.

---

(693) ط دار الكتاب، ج 4، ص. 111–112.

5 ـ ميزات وعوامل أخرى للوحدة القومية

وهي مجموعة أنظمة وتقاليد تنتسب إلى هذه الفترة، وقد صارت من ميزات القومية المغربية ومن عوامل وحدتها.

وأول ما يلاحظ في هذا الصدد، أنه إلى هذه الفترة يرجع تنقيح وتنظيم كثير من قضايا التشريع المغربي الإسلامي، بما في ذلك أساليب التوثيق التي كانت موضوع مؤلفات وشروح.

وفي هذا العصر وضع أو قرر عدد من المؤلفات التي صارت كتبا دراسية بالمغرب في هذا العهد وبعده، ومن ذلك المقدمة الاجرومية، وشرحها لأبي عبد الله الشريف، ومنظومة الجمل للمجراد السلوى، وشرح عبد الرحمن المكودي على الألفية لابن مالك، والدرر اللوامع في مقرإ الإمام نافع لابن بري، ومورد الظمئان في رسم القرآن للخراز، وعمدة البيان في الضبط لنفس المؤلف، والقصيدة التلمسانية في الفرائض، والمباحث الأصلية لابن البنا الصوفي، وشرح ابن عباد على الحكم العطائية، وشرح الأزموري على القصيدة الخزرجية، والتلخيص، ورفع الحجاب في الحساب، ومنهاج الطالب في تعديل الكواكب : الثلاثة لأبي العباس أحمد ابن البنا المراكشي، وروضة الأزهار في علم وقت الليل والنهار لعبد الرحمن الجادري.

كذلك قرر في هذا العصر دراسة المختصر الخليلي، ومختصرا ابن الحاجب الأصلي والفرعي، وألفية ابن مالك، والشفا للقاضي عياض، وقصيدة البردة للبوصيري، وسوى هذا وذاك، وهو كثير.

ومن الواضح أن دخول هذه الكتب للدراسة، كان له أثر في توحيد أو تقريب المناهج الدراسية في هذه الفترة وبعدها.

ومن هذا العصر يبتدىء المغاربة بكتابة تاريخ عام لبلادهم، وكان ممن دشن هذه الظاهرة ابن أبي زرع بكتابه : «**روض القرطاس**»، كما اشتغلوا بكتابة الرحلات، وظهر ـ على التوالي ـ رحلات العبدري، فابن رشيد، فالتجيبي، فابن بطوطة.

ومن هذا العصر تبتدئ الجامعية الحقيقية للقرويين، التي تعززت بما أحاط بها

من مدارس، وما ألحق بها من خزائن، ثم ما أحدث فيها ــ تباعا ــ من كراسي[694].

وإلى هذا العصر أيضا يرجع تنظيم الدروس الوعظية في فاس بالخصوص[695] ثم بغيرها.

أما فكرة التحبيس على المشاريع العامة، فإنما شاعت أكثر بالمغرب في هذه الفترة، أما قبلها فقد كانت غير كثيرة، يدل لهذا قول ابن سعيد[696] لدى حديثه عن بعض أخلاق أهل المغرب الأقصى :

«ولكن الأوقاف عندهم على عظمة سلطنة بني عبد المومن والمرابطين قبلهم قليلة، لا يقولون بها».

وفي هذه الفترة وضعت تنظيمات جديدة لعلاقات المغرب بعدد من الدول الشرقية والغربية.

كذلك تدين العصور التالية لهذه الفترة بما حدث في هذه من تنظيم لركب الحجيج المغربي، وتعميم عيد المولد النبوي في سائر المغرب.

ومما يزيد في أهمية هذه الظاهرات أن عددا منها جاء تجاوبا مع إرادة شعبية، فقد كان رجوع المغاربة عن الظاهرية إلى المذهب المالكي برغبة أتت من جهة الفقهاء[697]، وكان تنظيم ركب الحجيج المغربي امتدادا لعمل جماعة أبي محمد صالح الماجري، حيث كان من مبادئها الدعوة الى حج بيت الله الحرام، وزيارة السيد الرسول عليه وآله الصلاة والسلام، وتسهيل الطريق للحاج[698]، كما أن العزفيين هم الذين ندبوا يوسف المريني إلى تعميم الاحتفال بالمولد النبوي، واتخاذ يوم ثاني عشر ربيع الأول عيدا مغربيا[699]، بعدما كان هؤلاء ابتدأوا من ذي قبل الاحتفال بهذا المولد في سبتة.

---

(694) انظر عن هذه الكراسي بالخصوص مجلة **دعوة الحق**، السنة 9، الأعداد : 4، 5، 6،

(695) انظر **زهرة الآس**، وبالخصوص مخطوطتا المكتبة الملكية بالرباط ودار الكتب المصرية.

(696) قسم الممالك من **مسالك الأبصار**، للعمري، مخطوط خاص.

(697) ذكر مشاهير أعيان فاس في القديم عند بيت بني عشرين رقم 11.

(698) انظر **المنهاج الواضح**، ص.351.

(699) **روض القرطاس**، على ما في بعض نسخة المخطوطة.

يضاف لهذا أن الأنظمة والأوضاع التشريعية والدراسية التي سبقت الإشارة لها، قد كانت هي الأخرى منبعثة من طرف العلماء المغاربة، وكان دور الدولة في هذا كله لا يعدوا التقرير والتنفيذ، مجاراة للطابع الشعبي الذي كان يطبع السياسة المرينيَة في هذه المواضيع وأشباهها(700).

وهكذا يتبين من هذا العرض مدى اسهام الفترة المرينية والوطاسية في بناء القومية المغربية المعاصرة.

---

(700) انظر الباب الثاني من هذا العمل.

الفصل الرابع

الصلات الثقافية
بين المغرب المريني وتونس الحفصية

الفصل الرابع

الصلات الثقافية بين المغرب المريني وتونس الحفصية

تربط أجزاء المغرب العربي روابط ثقافية يتجلى فيها مدى الصلات الوثيقة التي كانت ــ ولا تزال ــ عاملا قويا في تمكين وحدة الغرب الإسلامي.

والموضوع الذي يقدمه هذا البحث برسم الذكرى الزيتونية، محاولة لتحليل هذه الظاهرة في نطاق العلاقات المغربية الحفصية، مع الأمل في إتاحة فرص مواتية لعمل مماثل في قطاع الصلات الثقافية بين المغرب والجزائر، وبين المغرب وليبيا.

* * *

وحسب المعطيات المصدرية للموضوع يأتي التحليل حسب الأبواب التالية :

مدخل قصير

العصر الأول

مساهمة الرحلات المغربية المكتوبة في تمتين الصلات الثقافية بين تونس والمغرب ــ ألوان من التجاوب الأدبي بين مدينة العزفيين والعاصمة الحفصية ــ تبادل الإجازات بين تونس والمغرب ــ رحلات طلابية متبادلة بين الجهتين ــ أعلام مغاربة مقيمون بتونس ــ أعلام مغاربة زائرون للحاضرة الإفريقية.

العصر الثاني

أعلام تونسيون يرحلون إلى المغرب ـ نخبة مغربية مقيمة بتونس ـ رحلات مغربية عابرة ـ راحلون مغاربة يثيرون مناقشات منوعة.

ملاحق

1 ـ تبادل الكتب الدراسية بين المنطقتين.

2 ـ تبادل في الثقافة الصوفية.

3 ـ نص من رحلة آبن رشيد يحتفظ بمجموعة من الإجازات الموضوعية.

4 ـ المخطوطات التونسية بالمغرب.

* * *

مدخل البحث

يبتدئ العصر الحفصي بإسناد إمارة البلاد التونسية إلى الشيخ أبي محمد عبد الواحد بن أبي حفص الهنتاتي عام 603هـ /1207م.

ولما خلفه آبنه الأمير أبو زكرياء استهل ولايته بإعلان استقلال تونس، ثم استمر حكم الحفصيين إلى عام 981هـ/1573م، حيث آمتد نطاق الدولة ـ أيام قوتها ـ إلى ليبيا شرقا، وإلى بجاية وقسنطينة وما إليهما غربا[701]، وهي المنطقة التي ستكون مجالا لتحليل الصلات الثقافية بين الزيتونة والقرويين، في حقبة تزيد على ثلاثمائة وخمسين عاما.

على أن يعني بكل من الجامعتين جامعتا الزيتونة والقرويين وفروعهما بسائر جهات منطقتي تونس والمغرب خلال فترة الحكم الحفصي.

---

(701) آنظر **وصف افريقية والأندلس أواسط القرن الثامن للهجرة**، مقتطف من **مسالك الأبصار**، للعمري، نشر وتعليق المؤرخ التونسي حسن حسني عبد الوهاب :ـــ ص.2.

العصر الأول

مساهمة الرحلات المغربية المكتوبة

في تمتين الصلات الثقافية بين تونس والمغرب

يمتد العصر الحفصي الأول من عام 603هـ/1207م، حتى نهاية عام 750هـ/ 1350م، وفي أواسط هذه الفترة كان الرحالون المغاربة في مقدمة العاملين لتمتين الروابط العلمية بين الجهتين، والمعني بالأمر ثلاثة أعلام مغاربة : اِثنان من سبتة، وواحد من منطقة حاحة : الواقعة بالجنوب الغربي من مدينة مراكش.

وثلاثتهم زاروا تونس أواخر المائة الهجرية السابعة، واتصلوا بالنخبة العلمية بها، وتبادلوا الإفادات المنوعة، ثم دونوا ذلك في رحلاتهم.

وكان سابقهم هو ابن رشيد السبتي : محمد بن عمر بن محمد الفهري، فتبتدئ رحلته من أوائل عام 683هـ/1284م انطلاقا من مرسى المرية، وهو مؤلف **ملء العيبة، بما جمع في طول الغيبة، في الوجهة الوجيهة إلى الحرمين الشريفين : مكة وطيبة**، تقع ــ أصالة ــ في سبعة أجزاء، يعرف منها خمسة مخطوطة بالأسكوريال[702]، تتناول ثلاثة منها ارتسامات المؤلف عن تونس في الذهاب والإياب.

ثم كان الرحالة الثاني هو العبدري : محمد بن محمد بن علي الحيحي، وقد خرج من بلدته حاحة أواخر عام 688هـ/1289م، ورحلتـه منشورة ــ في جزء ــ بتحقيق الأستاذ الكبير محمد الفاسي عام 1968م.

الثالث : أبو القاسم التجيبي : القاسم بن يوسف بن محمد السبتي : ابتداء من عام 696هـ/1296م، وتحمل رحلته اسم «مستفاد الرحلة والاغتراب»، والمعروف منها مجلد واحد يتناول سفر المؤلف للديار المصرية وجدة ومكة المكرمة عام 696هـ/1296م، وهو منشور ــ بتونس ــ عام 1395هـ/1975م بتحقيق الأستاذ الجليل عبد الحفيظ منصور.

* * *

(702) هي الثاني والثالث والخامس والسادس والسابع، أنظر عن وصفها **فهرس الأسكوريال** بالمجلد الذي وضعه ليفي بروفنصال أرقام : 1735 و1736 و1737 و1739.

غير أنه يلاحظ أن القسم التونسي من رحلة التجيبي لا يزال غير معروف، فلذلك سنستقي معلوماتنا عن اتصالاته الزيتونية من برنامجه[703]، مع بعض الإشارات بالنص المنشور من الرحلة، حيث لا يعدو جميع ذلك ستة أسماء من الذين التقى بهم المنوه به في مدن تونس وبجاية والقيروان، وهم :

1 ـ أبو العباس البطرني : أحمد بن موسى بن عيسى الأنصاري التونسي[704].

2 ـ أبو عبد الله الذكرية : محمد بن ابراهيم بن أحمد التجيبي، المراكشي المولد، التونسي الاستيطان والوفاة[705].

3 ـ أبو عبد الله الكناني : محمد بن صالح بن أحمد الشاطبي نزيل بجاية[706].

4 ـ أبو اسحاق السلوى : ابراهيم بن يحيى بن يوسف القرشي الحسني التونسي[707].

5 ـ الناصر المشدالي : منصور بن أحمد بن عبد الحق الزواوي ثم البجائي[708].

6 ـ ابن الدباغ : عبد الرحمن بن محمد بن علي الأنصاري الأسيدي القيرواني، مؤلف «معالم الإيمان»، حيث ينفرد بالإشارة له القسم المنشور من رحلة التجيبي[709].

* * *

وقد أثارت النهضة العلمية بتونس إعجاب الرحالة العبدري، وكان مما قال عنها :«... ولولا أني دخلتها لحكمت بأن العلم في أفق الغرب قد محى رسمه، وضاع

(703) مخطوط .بالأسكوريال وموصوف بالفهرس الآنف الذكر: رقم 1756.
(704) **برنامج التجيبي**، بواسطة مصور الأستاذ العالم محمد إبراهيم الكتاني : لوحة 8 ب.
(705) **نفس المصدر**: لوحة 24. ب و 127 أ، وورد ذكره ـ أيضا ـ في **برنامج الوادي آشي**، آتي الذكر.
(706) **برنامج التجيبي**: لوحة 62. ب و 115. أ و 117. ب، وأشار له ـ أيضا ـ في **مستفاد الرحلة والاغتراب**، ص.235.
(707) **برنامج التجيبي**: لوحة 76 ب.
(708) **المصدر**: لوحة 124. أ.
(709) ص.319، مع إشارة عابرة ص.239.

حظه وقسمه، ولكن قضى الله بأن الأرض لا تخلو من قائم له بحجة، يرى سبيل الحق ويوضح المحجة.

وما من فن من فنون العلم إلا وجدت بتونس به قائما، ولا مورد من موارد المعارف إلا رأيت بها حوله واردا وحائما، وبها من أهل الرواية والدراية عدد وافر، يجلو الفخار بهم عن محيا سافر[710]...».

وقد اتصل العبدري ــ في هذه المدينة وبالقيروان ــ بنخبة كريمة بلغ تعدادها أربعة عشر كالتالي :

1 ــ ابن هارون : عبد الله بن محمد الطائي القرطبي نزيل تونس[711]

2 ــ أبو جعفر اللبلي : أحمد بن يوسف بن علي الفهري نزيل تونس[712].

3 ــ ابن الغماز : أحمد بن محمد بن حسن الخزرجي البلنسي، قاضي القضاة بتونس[713].

4 ــ أبو القاسم اللّبيدي بن حماد بن أبي بكر الحضرمي التونسي[714].

5 ــ ابن رزين : علي بن محمد بن أبي القاسم التجيبي المرسي نزيل تونس[715].

6 ــ ابن زيتون : أبو القاسم بن أبي بكر بن مسافر اليمني التونسي قاضيها[716].

7 ــ أبو الحسن التجاني : علي بن ابراهيم التونسي[717].

8 ــ ابن عقاب : يوسف بن ابراهيم بن أحمد الجذامي الأندلسي نزيل تونس[718].

---

(710) رحلة العبدري: ص.42.

(711) رحلة العبدري: ص 42 و271 ؛ رحلة ابن رشيد، جزء 1737: لوحة 84 ب، وقد أفدت منها بواسطة مصورة المكتبة العامة بتطوان.

(712) رحلة العبدري، ص.43 ؛ رحلة ابن رشيد 1737 : لوحة 63 ب.

(713) رحلة العبدري، ص.240 ؛ رحلة ابن رشيد، 1737 : لوحة 16 أ.

(714) رحلة العبدري، ص.243 ؛ رحلة ابن رشيد، 1737 : 26 ب.

(715) رحلة العبدري، ص.252 ؛ رحلة ابن رشيد، 1737 : 64 ب.

(716) رحلة العبدري، ص.256 ؛ رحلة ابن رشيد 1737 : 9ب.

(717) رحلة العبدري، ص 257 ؛ رحلة ابن رشيد، 1735 : 13. ب.

(718) رحلة العبدري، ص 271 ؛ رحلة بن رشيد، 1737 : 25. ب.

فهؤلاء ثمانية يشترك العبدري في لقياهم مع ابن رشيد، ومن الأعلام الذين ينفرد العبدري بلقياهم في مدينة تونس :

9 ـ ابن هريرة : محمد بن عبد المعطي بن محمد النفزي التونسي[719].

10 ـ الخلاسي : عبد الله بن يوسف بن موسى البلنسي نزيل تونس[720].

11 ـ الوادي آشي : جابر بن محمد بن القاسم القيسي، نزيل تونس[721]، وهو والد الرحالة محمد.

12 ـ ابن السكان : أحمد بن محمد بن ميمون الأشعري المالقي نزيل تونس[722].

13 ـ أبو العباس البطرني سالف الذكر عند لائحة أبي القاسم التجيبي[723].

14 ـ وقد اتصل العبدري ـ في القيروان ـ بعالمها ومؤرخها أبي زيد بن الدباغ، سابق الذكر بنفس اللائحة[724]، ويقول عنه الرحالة المغربي : «ومن عجيب أخلاقه أني قلما طلبت منه جزءا لا نقل منه إلا وهبه لي، وقد أعطاني أكثر من عشرة أجزاء من فوائده وفوائد شيوخه وفهارسهم، وقال لي : أنت أولى بها مني، فإني شيخ على الوداع، وأنت في عنفوان عمرك، ومن حين رأيتك انغرز حبك في قلبي»[725].

* * *

وبعد هذا : فإن ابن رشيد ينفرد عن العبدري بلقاء طائفة من أعلام البلاد التونسية، ومنهم :

1 ـ ابن عبد القادر : عبد الوهاب بن يوسف البجائي، مستوطن تونس[726].

---

(719) رحلة العبدري، ص 44.
(720) نفس المصدر : ص 244.
(721) المصدر، ص 265.
(722) المصدر، ص 267.
(723) المصدر، ص 275.
(724) المصدر، ص 66.
(725) المصدر، ص 67.
(726) رحلة ابن رشيد، 1737 : 28. ب.

2 ـ أبوبكر بن حبيش : محمد بن حسن بن يوسف اللخمي التونسي[727].

3 ـ ابن معطى : أحمد بن عبد الله بن عمر الجزائري نزيل تونس[728]، وصاحب الألفية النحوية.

4 ـ أبو عبد الله السلوى : محمد بن ابراهيم القيسي نزيلها[729].

5 ـ ابن رأس الحجلة : عبد العزيز بن عبد الرحمن الجعدي نزيلها[730].

6 ـ أبو العباس الكتاني : أحمد بن يوسف بن يعقوب السلمي[731].

7 ـ ابن القصير : أحمد الأشبيلي، نزيل تونس[732].

8 ـ ابن حبي : ابراهيم بن اسماعيل بن يحيى الأيادي القرموني ثم المالقي نزيل تونس[733].

9 ـ أبو الفضل التجاني : محمد بن علي بن ابراهيم التونسي، وقد أطال ابن رشيد في ترجمة هذا الأخير، مبرزا ملامح من التلاقح الثقافي المغربي التونسي، وكان مما قال عنه :

«صحبته ـ جزاه الله خيرا ـ أيام مقامي بتونس بعد رجوعي من الحجاز، وذلك الزمان من أشرف ما آعتدت من أيامي، وكان يتردد إلي وأتردد إليه، وبايته كثيرا، وذاكرته وشاعرته، واستفدت منه، وأخذ عني وأخذت عنه، وسمع بقراءتي وسمعت بقراءته، وأولاني من بره المبر ما يعجز عنه شكر الشاكر، ويعد مختصرا وإن أطال ذكره الذاكر، وكان لي صفيا، وبجانبي حفيا...»[734].

وبإثر هذا تأخذ الرحلة المغربية في التعريف بالأديب التونسي، اقتباسا من الترجمة الذاتية التي كتبها بقلمه، فيعرض الرحالة قطعا من حر نثر المترجم وبديع

(727) المصدر، 1737 : 34. أ.

(728) المصدر، 1737 : 55. أ.

(729) المصدر، 1737 : 85. ب.

(730) المصدر، 1737 : 88. ب.

(731) المصدر، 1737 : 89. ب.

(732) المصدر، 1737 : 96. ب، وقد بيض المؤلف لاسم أبيه.

(733) المصدر، 1737 : 104. أ.

(734) المصدر، 1735 : 4. ب.

نظامه، ويدون كثيرا مما جرى بينهما من المخاطبات النثرية، والمناشدات الشعرية، كما يذكر أن أبا الفضل ألف كتابه : **الحلي التجانية** باسمه واسم رفيقه ابن الحكيم الرندي[735].

ألوان من التجاوب الأدبي
بين مدينة العزفيين والحاضرة الحفصية

بالإضافة إلى معطيات رحلة «ملء العيبة»، فإن ابن رشيد نشر بسبتة بعض الآثار الأدبية التونسية، فكان بين مؤلفاته شرح رسالة عروضية لأحد أساتذة تونس، وذلك هو الذي يسميه **وصل القوادم بالخوافي. في ذكر أمثلة القوافي**، حيث شرح فيه كتاب **القوافي** لأبي الحسن حازم القرطاجني[736].

وقد تبع هذا أن وصل لبلدة ابن رشيد ديوان شاعر الخضراء المنوه به وضمنه مقصورته المعروفة، فانتزعت المجموعة القرطاجنية اعجاب ثلاثة من أعلام سبتة : مالك بن المرحل. وأبي القاسم ابن الشاط، وثالثا : أبو القاسم الشريف السبتي[737]، الذي وضع شرحا موسعا على المقصورة الحازمية[738]، وقال في تقريظها :

«... فإني لما تأملت مقصورة الإمام الأوحد : أبي الحسن حازم بن محمد بن حسن بن حازم الأنصاري القرطاجني، ألفيتها تجمع ضروبا من الإحسان، وتشتمل على أفانين من البيان، وتتضمن فوائد جمة من علم اللسان، وتشهد لمنشئها ــ بما انتظمته من غرائب الأنواع واتسمت به من عجائب الإبداع ــ بأنه سابق الميدان، وحائز خصل الرهان...»[739].

* * *

ونذكر ــ الآن ــ وجهة أبي بكر بن شبرين السبتي إلى تونس، حيث لقي بها

(735) **المصدر**، 1735 : 4. ب ــ 45. ب، وتسمية الكتاب وردت في **شجرة النور الزكية**، ص 206.

(736) منه مخطوطة آخر مجموع خ. ع. د. 3507.

(737) طالعة **شرح مقصورة حازم**، آتي الذكر وشيكا : ص 2.

(738) باسم **رفع الحجب المستورة. في محاسن المقصورة**، وهو منشور في مطبعة السعادة بمصر سنة 1344 هـ في جزءين يجمعهما سفر.

(739) طالعة شرح مقصورة حازم ص 2.

قاضي الجماعة أبا إسحاق إبراهيم بن عبد الرفيع وغيره، فاتسع ـ بذلك ـ نطاق روايته[740]، كما اتصل بالأديب اللامع عبد الله التجاني مؤلف **الرحلة التجانية**، فيقول فيها عن الزائر المغربي :

«... وهذا الرجل من أعظم من رأيت تحقيقا، وأحسنه ـ في النظم والنثر ـ طريقا، وقد كنت اجتمعت به بتونس، ووصل إلينا في الخامس لذي القعدة من عام ثلاثة وسبعمائة، وكان في نيته التوجه إلى الحج فلم يقض له ذلك، فأقام بتونس مدة ثم ارتحل عنها عائدا إلى وطنه سبتة...»[741].

وبعد هذا يذكر التجاني أنه بعد فصول ابن شبرين من تونس، استمرت المكاتبات بينهما شعرا ونثرا، وتكاثرت حتى ملأت سفرا، حيث جمعه المؤلف التونسي في كتاب باسم **نفحات النسرين في مخاطبة ابن شبرين**[742]، ومن نماذج هذه المخاطبات، قصيدة سبتية يقول فيها الأديب المغربي عن ذكرياته بمدينة الخضراء: ص1

ولئــن نسيت فلست أنسى جيرة   راضعتهم در المنـى في تونس
هيهات ما أن شاقني بعد النوى   ـ زمن تصرم ـ للظباء الكنس
لكــن تذكــر سادة قد أنطقــوا   ـ بصفات مجدهم ـ لسان الأخرس
يا نسمة سحبت فضول ذيــولها   ما بين ورد بالعــذيب ونــرجس
والــورق قد صدحت على أفنــانها   والأرض قد لبست ثياب السندس
حطي رحال تحيتــي في معهــد   بين الجوانح منــه عهــد ما نسي
والحي من تيجان فاشرح عندهم   فرط استيــاقي نحو ذاك المجلس[743]

ومن قصيدة تجانية في مخاطبة ابن شبرين :

هاك سلامــي على البعــاد أبــا   بكــر فقلبــي إلــيك قد نزعــا
وثـــق بود أديــــن فيك به   ملتزمــا منــه كل ما شرعــا
ان حال خل عن المودة أو   أجاب داعي السلو حين دعــا

(740) **المرقبة العليا**، للنباهي، نشر دار الكاتب المصري بالقاهرة : ص 153، مع **الإحاطة** نشر مكتبة الخانجي بالقاهرة، 2 / 240.

(741) **رحلة التجاني**، المطبعة الرسمية بتونس : ص. 164.

(742) **المصدر**، ص 164.

(743) **المصدر**، ص 165.

فاعلم بأني ـ والصدق من شيمي ـ ممن رأى حفظ عهده ورعا
وأنني ما قطعت ذكرك بل مازلت للشكر فيك منقطعا
أقسمت بالركن والمقام ومن قد طاف بالبيت نحوها وسعى
ما طاب لي بعدك البقاء ولا وجدت لي في الحياة منتفعا[744]

تبادل الإجازات بين تونس والمغرب

وهو لون آخر من الاِتصال بين الجهتين بواسطة السند العلمي، فكان المغاربة يستجيزون التونسيين، كما أن هؤلاء يستجيزون المغاربة.

وتمدنا سبتة بثلاثة أسماء يروى أصحابها ـ بطريق الإجازة ـ عن أعلام من الخضراء، انطلاقا من ابن الشاط : القاسم بن عبد الله بن محمد الأنصاري[745]، فعبد المهيمن الحضرمي[746]، فمحمد بن أحمد بن إبراهيم الأنصاري الشهير بالتلمساني[747].

وعن التونسيين نشير إلى قاضي فاس : محمد بن محمد بن عيسى بن معنصر المومناني، قال ابن حجر في ترجمته : «وآخر من حدث عنه ـ بالإجازة ـ مسند تونس أبو الحسن البطرني»[748].

ومن تونس ـ أيضا ـ أبو الفضل التجاني سابق الذكر، وهو الذي استجاز أعلاما من سبتة، وكان ذلك بواسطة ابن رشيد لما أزمع الرحيل إلى وطنه، فأصحبه أبو الفضل التجاني استدعاء بخطه، يلتمس فيه من شيوخ سبتة أن يكتبوا له الإجازة بالرواية عنهم، وهو يصدر رسالته بقطعة سباعية الأبيات يقول فيها :

أيها السادة الأباعد عنا أقبسونا من نوركم بالإجازة
صلتي عائد السؤال مجابا فأجيزوا لكي تحوزوا مجازة
لم يحصل لنا حقيقة علم قربكم فابعثوا إلينا مجازه

(744) المصدر، ص 170-171.
(745) الإحاطة نشر مكتبة الخانجي بالقاهرة ـ 4 /259 ـ 260 ؛ الديباج المذهب لابن فرحون : مطبعة المعاهد بمصر : ص 226.
(746) الإحاطة، 4 /13 ؛ فهرس يحيى السراج : المجلد الأول : مخطوط خ.ع.ك 1242.
(747) الإحاطة، 3 /202.
(748) الدرر الكامنة، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية في حيدر آباد الدكن : 4 / 206.

وعدتنـــــا آمالنـــــا بلقاكـــــم ولعـــل الأيـــام تدني نجـــــازه
وعلى الفكـــر أن يقـــوم بمـــدح فيـــه أرضي تقصيـــده وارتجـــازه
مع أني حرمت مدح بني الدهـــ ـرفشعـــري قد جازه ما أجـــازه
وعلاكم تقضي امتـــداد امتداحـــي واعتلال الأفكار يقضي الوجـــازة

وقد حرك هذا الاستدعاء قرائح العلماء والأدباء بسبتة، فانتهزوها فرصة سانحة لتحقيق تجاوب علمي أدبي مع الاستجازة التونسية، وهكذا تنافس السبتيون المعنون بالأمر في صوغ الإجازة شعرا على روى الاستدعاء، وبلغ ـ حسب ابن رشيد ـ عدد المجيزين المغاربة ثمانية :

ـ أبو القاسم خلف بن عبد العزيز الغافقي القبتوري.
ـ ابن الشاط : القاسم بن عبد الله الأنصاري سابق الذكر.
ـ يوسف بن علي بن محمد الأنصاري الطرطوشي.
ـ أبو بكر محمد بن عبيدة الأنصاري.
ـ ابن أبي الربيع : عبيد الله بن أحمد الأموي العثماني.
ـ ابن المرحل : مالك بن عبد الرحمن.
ـ ابراهيم بن أبي بكر التلمساني.
ـ ابن الدراج : محمد بن عمر.

وتحتفظ رحلة ابن رشيد بنصوص هذه الإجازات[749]، حيث سيذيل بها في ملحق لهذه الدراسة.

رحلات طلابية متبادلة

ونشير ـ في هذا الصدد ـ إلى اِثنين من التونسيين الراحلين إلى لقاء شيوخ المغرب، بدءا من الرصافي : أحمد بن عبد الله الأنصاري المرسي نزيل تونس، حيث لقيه ـ بها ـ خالد البلوي عام 736 هـ .

(749) رحلة ابن رشيد، 1735 : لوحات 45. ب ـ 50. أ.

وقد قال عنه في رحلته : «... رحل إلى المغرب زمان شبابه ... فلقي جماعة من جلة العلماء وعلية الفضلاء : منهم ـ بسبتة ـ الشيخ العالم العلم : أبو القاسم، بن الشيخ الفقيه المحدث أبي العباس العزفي اللخمي، سمع عليه طائفة من كتاب الدر المنظم تأليف أبيه، وكتب له بالسماع والإجازة العامة.

والشيخ العالم الصالح، الإمام في علم العربية : أبو الحسين بن أبي الربيع القرشي، سمع عليه كثيرا من كتاب سيبويه ومن الإيضاح ومن الجمل، ومن شرحيه عليهما، وأجازه وكتب له بخطه.

والشيخ العالم الناثر الناظم : أبو الحكم مالك بن المرحل، سمع عليه كثيرا من تآليفه، ومن أمداحه في النبي صلى الله عليه وسلم، ومن نظمه ونثره، وأجازه إجازة تامة مطلقة...

والشيخ الفقيه الفرضي : أبو اسحاق ابراهيم بن أبي بكر الأنصاري التلمساني، قرأ عليه قصيدته اللامية الشهيرة، المتضمنة النسب النبوي الكريم، والمعشرات التي له على أعاريض الشعر، والرجز الذي نظمه في الفرائض»(750).

ومن الرصافي ننتقل إلى ثاني الراحلين إلى المغرب من تونس، وهو الوادي آشي : محمد بن جابر بن محمد القيسي، التونسي المولد والاستيطان، المتوفى ـ بها ـ عام 749 هـ.

رحل إلى المغرب مرتين ثانيتهما عام 734 هـ، وأخذ ـ بسبتة ـ عن جماعة من أعلامها وأدبائها : ما بين رواية ودراية :

فيهم إبراهيم التلمساني(751) آنف الذكر.

---

(750) **تاج المفرق للبلوي**، مطبعة فضالة بالمغرب : 2 / 95 ـ 96.

(751) **برنامج الوادي آشي**، وهو من مخطوطات الإسكوريال رقم 1726، والنقل هنا عن نسخة منه مرقونة : ص 31، وبالمناسبة نشير الى فقرة وردت عند العالم المغربي المرحوم محمد المختار السوسي، في رحلته ببعض جهات سوس، المدونة باسم **خلال جزولة**، فقد وصف بها بعض الذخائر التي وقف عليها بخزانة الشيخ عبد العزيز الأدوزي بسوس، وجاء ضمن ذلك ـ 4 /10 ـ ذكر فهرست ابن جابر القيسي، أجاز بها أبا البركات : محمد بن الشيخ محمد بن عبد الله اللمتوني ـ بمراكش ـ عام 727 هـ، على ما في ظهر هذه النسخة المنقولة عن الأصل مباشرة، بخط الحسن بن عيسى الكرامي السملالي عام 981 هـ، فهل هذه نسخة أخرى من برنامج الوادي آشي؟

والحسين بن طاهر بن رفيع الشريف الحسيني[752].
ومحمد بن عبد الله بن عبيدة الأنصاري التلمساني الأصل[753] سابق الذكر.
ومحمد بن عبد الله بن أحمد العنسي[754].
ومحمد بن ابراهيم بن يربوع الكلبي[755].
وابن الحاج : محمد بن ابراهيم بن محمد السلمي البلفيقي[756].
وابن الخضار : محمد بن محمد بن عبد الله الكتامي التلمساني الأصل[757].
وابن خليل : محمد بن محمد بن أبي عمرو محمد السكوني[758].
وابن الدراج : محمد بن عمر بن محمد الأنصاري التلمساني الأصل[759].
ومحمد بن مالك بن عبد الرحمن بن المرحل[760].
ومالك أبوه[761].
وابن حكم : عبد الله بن أبي القاسم الأنصاري[762].
وعلي بن محمد بن علي بن حسن الأنصاري[763].
وأبو القاسم ابن الشاط[764] سابق الذكر.

وإلى هذا : لقي الوادي آشي أفرادا من المغاربة خارج المغرب : ففي تونس أخذ عن أبي القاسم القبتوري : خلف بن عبد العزيز بن محمد ابن خلف الغافقي : سمع منه وأجازه في خطرتيه على تونس[765].

---

(752) برنامج الوادي ءاشي، ص 35.
(753) المصدر، ص 36.
(754) المصدر، ص 36.
(755) المصدر، ص 81.
(756) المصدر، ص 81.
(757) المصدر، ص 84.
(758) المصدر، ص 85.
(759) المصدر، ص 85.
(760) المصدر، ص 87.
(761) المصدر، ص 91.
(762) المصدر، ص 92 ـ 93.
(763) المصدر، ص 109.
(764) المصدر، ص 116.
(765) المصدر، ص 44.

ثم الحاج أبو محمد عبد المهيمن بن عبد الله بن محمد الأنصاري السبتي : أخذ عنه ـ يسيرا ـ بتونس مرجعه من الحج وأجازه(766).

وفي بيت المقدس : أخذ عن نزيله محمد بن إبراهيم بن يوسف الأنصاري القصري السبتي وأجازه(767).

وبالإسكندرية : عن إمام الفرضيين بها : عبد الله بن أبي بكر بن يحيى بن عبد السلام الصودي(768).

* * *

ونشير ـ الآن ـ إلى جماعة من المغاربة الراحلين إلى تونس، انطلاقا من الإمام أبي الحسن الصغير : علي بن محمد بن عبد الحق الزرويلي ثم الفاسي(769).

وبعده رحل أحمد بن محمد بن شعيب الجزنائي التازي نزيل فاس، أخذ بمدينة الخضراء الطب والهيئة عن الشيخ يعقوب بن الدراس(770).

ثم كان ممن توجه لنفس المدينة ابن أبي حاج : محمد بن علي بن عبد الرزاق الجزولي ثم الفاسي قاضيها : ويقول عنه ابن خلدون : «وارتحل إلى تونس فلقي القاضي أبا اسحاق بن عبد الرفيع، والقاضي أبا عبد الله النفزاوي، وأهل طبقتهما، وأخذ عنهم وتفقه عليهم ورجع إلى المغرب»(771).

وفي تعبير ابن مرزوق : «ثم رحل إلى تونس، فأخذ بها عن جماعة من علمائها : كاليفرني، والبودري، وابن جماعة، وابن سرور، وغيرهم»(772).

* *

(766) **المصدر**، ص 45.
(767) **المصدر**، ص 74.
(768) **المصدر**، ص 93، وللتأكد من مغربية الصودي، يرجع الى محمد المنوني : **حضارة وادي درعة من خلال النصوص والآثار**، القسم الثاني، مجلة **دعوة الحق**، العدد 3 من السنة 16 ص 158ـ159.
(769) **المعيار**، للونشريسي، ط. ف. 11 / 61 ـ 62 في اشارة عابرة.
(770) **الإحاطة**، 1 / 272 ـ 273 ؛ **جذوة الإقتباس** ط. دار المنصور بالرباط : ع. 51.
(771) **التعريف بابن خلدون**، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة، ص 65 ـ 66، وفي المرقبة العليا أن ابن عبد الرزاق رحل الى المشرق ص 35.
(772) **المسند الصحيح الحسن**، لابن مرزوق خ. ع. ق. 111 عند الفصل 3 من الباب 20.

والظاهر أن هؤلاء الراحلين لم يتجاوزوا القاعدة الحفصية إلى المشرق، وهناك أفراد وفدوا عليها في طريقهم للحج.

ومن نماذجهم من مدينة القصر الكبير : ابن مسلم : عبد الله بن أحمد بن أبي بكر نزيل سبتة، فيأخذ بتونس عن جماعة من شيوخها، وفيهم أبو علي ابن قداح، وابن البرا، وابن التمار، وابن برال، وابن جابر الوادي آشي، وابن سلامة الأنصاري[773].

ومن فاس نشير إلى ثلاثة : ابن أجروم : محمد منديل بن محمد صاحب المقدمة الأجرومية، حيث لقي أبا العباس الرصافي، وابن برال، وابن معاوية، وابن عبد السلام الهواري، وابن جابر الوادي آشي[774].

ثم محمد بن سعيد بن محمد الرعيني : عن أبي اسحاق بن عبد الرفيع، وابن قداح، وابن عبد السلام[775].

وثالثا : محمد بن أبي الفضل بن عبد الله بن أبي مدين العثماني، فيسمع علي ابن جابر الوادي آشي قصيدة البردة البوصيرية ـ بتونس ـ عام 741 هـ، مع قصيدة للصفي الحلي[776].

وفي ناحية فاس نلتقي بأبي الحجاج يوسف بن الحسن بن أبي بكر التسولي الورتناجي، وقد اعتمد ابن جابر الوادي آشي، فأكثر من السماع عليه وأجازه عامة[777].

ومن الجنوب المغربي : أبو محمد الزكندري : عبد الله بن محمد بن عبد الله الهرغي المراكشي قاضيها، لقي من التونسيين أبا عبد الله بن دمعون، وابن هارون، وابن عبد السلام، وابن جابر الوادي آشي[778].

---

(773) فهرس يحيى السراج، ج 1.

(774) المصدر.

(775) المصدر.

(776) مقدمة شرح البردة البوصيرية للجادري، مخطوط القرويين 643.

(777) فهرس السراج، ج 1.

(778) نفاضة الجراب لابن الخطيب، دار الكاتب العربي بالقاهرة : ص 64.

أعلام مغاربة مقيمون بتونس

إلى جانب الرحلات العلمية العابرة إلى تونس ومنها : نلتقي ـ الآن ـ مع راحلين مغاربة مقيمين، يضطلعون بتدريس أنواع من العلوم في جهات من إفريقية الحفصية : في بجاية، وتونس العاصمة، والقيروان.

غير أن المدينة الأولى تمتاز بوفرة ـ نسبية ـ لأعداد النازلين بها من أعلام المغاربة : بدءا من الإمام الحرالي : علي بن أحمد بن الحسن التجيبي المراكشي، المتوفى ـ بحماة ـ عام 638هـ/1241م.

وقد درّس في بجاية عدة مواد تعليمية من الطراز العالي، بينها كتاب النجاة لابن سينا، وكان من الذين حضروا هذه الحلقة عبد الحق بن ربيع بن أحمد الأنصاري البجائي، فيصف منهجية أستاذه قائلا : «كنا نقرأ عليه النجاة لابن سينا، فكان ينقض عراه نقضا، وذلك بعد أن يوضح منه ما يليق، ويقرره بأحسن طريق، ثم ينقضه ويوهنه»(779).

ومن طلاب الحرالي بنفس المدينة : عبد العزيز بن عمر بن مخلوف، وهو يشخص طريقة أستاذه في تدريس الفقه المالكي : «فكان إذا أقرأ التهذيب يبين في كثير من مواضعه أنه مخالف لأصل المدونة ومغاير لها، ويأمر بالأصل فيقاس فيبين المخالفة بينهما، وبين ما وقع لمالك وأصحابه في الكتب التي وقع فيها النقل حتى يقررهم في طريقهم»(780).

أما المغربي الثاني النازل في بجاية : فهو أبو سعيد بن تونارت الدكالي، ويقول عنه الغبريني : «كان من المدرسين ببجاية، وحافظا للفقه، محصلا للمدونة، جيد الإلقاء، مليح التفهيم، حسن الابتداء والتتميم»(781).

الثالث : عبد الرحيم بن عمر اليزناسني الفاسي، ويقول عنه نفس المصدر :

---

(779) **عنوان الدراية**، للغبريني، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع بالجزائر : ص 146 ـ 47.

(780) **المصدر**، ص 147.

(781) **المصدر**، ص 222.

«ووصل إلى بجاية واشتهر بها وعكف على التدريس، وكان محصلا لمذهب مالك ولأصول الفقه على طريقة الأقدمين، ومن أهل الاجتهاد»[782].

الرابع : أبو محمد عبد الله بن محمد بن يحيى الأغماتي، درس في بجاية كتاب سيبويه فما دونه، مع المنطق، وقليلا من مادة الفقه، وكان بارعا في هذه العلوم[783].

الخامس : أبو العباس الغماري : أحمد بن عيسى بن عبد الرحمن، المتوفى ـ بتونس ـ عام 682هـ رحل الى المشرق واتصل بجملة من عيون الآخذين عن الفخر الرازي واستفاد منهم، وكان يوثر قراءة مؤلفاته على غيرها من كتب المتقدمين والمتأخرين[784]، وقد أخذ عنه ـ بمدينة بجاية ـ أبو العباس الغبريني، فيذكر عن دروسه أنها كانت منقحة الإيراد، عذبة الموارد بقريب ما يستفاد...[785].

وللغماري أثر في الرحلة الشرقية التي قام بها أبو القاسم بن زيتون أحد مؤسسي المدرسة التعليمية الجديدة بتونس، وهذا ما يشهد به المقري قائلا عن المنوه به : « وبسبب ما قفل به من الفوائد رحل أبو القاسم بن زيتون»[786].

وقد شارك ابن زيتون في تأسيس المدرسة المشار لها : عالم مغربي استوطن تونس العاصمة، وكان هو محمد بن شعيب الهسكوري المشتهر بالدكالي، وكان درس بالمغرب حتى بلغ درجة الاستاذية : بما يتبعها من الحفظ الكثير[787]، ثم ارتحل إلى المشرق. وعاد منه للسكنى بالقاعدة الحفصية، قال في عنوان الدراية : «وبها ظهر حاله، وعرف علمه وجلاله، وتبسط للأقراء، ودرس عليه الناس وانتفعوا به، وكان أصحابه أفضل الطلبة وأنجبهم، وولى المدارس فزانها بنظره، وجملها بحميد أثره»[788].

وفي المقدمة توضيح أكثر لمعطيات المدرسة التي خلفها ابن شعيب بهذه المدينة ثم بتلمسان، فبعد ما يذكر ابن خلدون رحلة أبي القاسم بن زيتون إلى الشرق

---

(782) **المصدر**، ص 223، وتصحف فيه اليزناسني باليزناتي، وورد على الصواب عند ابن القاضي مسميا لأبيه بمحمد بدل عمر، حسب جذوة الإقتباس رقم 431.

(783) **عنوان الدراية**، ص 196 ـ 197.

(784) **المصدر**، ص 113.

(785) **المصدر**، ص 112.

(786) **نفح الطيب**، المطبعة الأزهرية المصرية : 118/3.

(787) **عنوان الدراية**، ص 173.

(788) **المصدر**، ص 173.

ورجوعه إلى تونس، يعقب هكذا : «وجاء على أثره ـ من المشرق ـ أبو عبد الله بن شعيب الدكالي... ورجع إلى تونس واستقر بها، وكان تعليمه مفيدا، فأخذ عنهما أهل تونس، واتصل سند تعليمهما في تلاميذهما جيلا بعد جيل، حتى انتهى إلى القاضي محمد بن عبد السلام ـ شارح ابن الحاجب ـ وتلميذه، وانتقل من تونس إلى تلمسان في ابن الإمام وتلميذه...»[789].

وننتقل من تونس إلى القيروان : مع محمد بن سحنون الدكالي مستوطن مدينة عقبة، وكان من الآخذين عنه مؤرخها أبو اسحاق العواني، فيقول عن شيخه من فقرة مطولة : «وكان عالما بأصول الدين والعلوم الظاهرة والباطنة...» ثم ارتحل إلى مدينة سوسة، وبها كانت وفاته عام 696هـ[790].

أعلام مغاربة زائرون للحاضرة الإفريقية

من المعروف أن أبا الحسن المريني قام بحملة وحدوية قصدا لتوحيد تونس مع المغربين الأوسط والأقصى، وكان وصول هذه الحملة للعاصمة الحفصية يوم السبت 11 جمادى الأخيرة 748 هـ / 1347 م[791]، ثم امتدت أيامها عامين اِثنين وستة أشهر وخمسة عشر يوما، اعتبارا من التاريخ المشار له حتى آخر يوم من ذي الحجة عام عام 750هـ / 1350م[792].

وقد اصطحب العاهل المريني بهذه المناسبة مجموعة ضخمة من أعلام المغربين والأندلس، يرتقي البعض بتعدادهم إلى أرقام عالية، غير أن ابن خلدون لم يحدد عددهم، ويذكر أنه كان في معية أبي الحسن ـ مقدمه لتونس ـ جماعة كبيرة من أهل العلم يلزمهم شهود مجلسه، ويتجمل بمكانهم فيه[793].

وفي هذا الصدد يعلق مؤرخ تونسي معاصر بالملاحظة التالية :

(789) **المقدمة**، المطبعة البهية المصرية : ص 376.
(790) **معالم الإيمان** للدباغ، المطبعة الرسمية العربية بتونس : 4 / 39 ـ 43.
(791) **العبر**، لابن خلدون، دار الطباعة بالقاهرة : 7 / 269.
(792) **الأدلة البينة النورانية**، للشماع، لجنة الطلبة للنشر والتعريب، ص 122.
(793) **التعريف بابن خلدون**، ص 19 و 44.

«من غريب ما أتفق للسلطان أبي الحسن : أنه اصطحب إلى إفريقية أكابر العلماء، مثل ما فعل نابليون في زحفته إلى مصر»[794].

ولم يعتن المؤرخون باستيعاب أسماء هذه الهيئة العلمية، وإنما حافظوا على ذكر أعيانهم بالمغربين والأندلس، ونعرض ـ هنا ـ أسماء المعروفين من أهل المغرب الأقصى، حيث لا يتجاوز عددهم خمسة أعلام موزعين بين أربع جهات مغربية :

فمن مدينة سبتة : عبد المهيمن الحضرمي.

ومن مكناس : محمد ابن الصباغ الخزرجي.

ومن فاس : محمد بن علي بن سليمان السطي، وأحمد بن محمد بن علي الزواوي الأصل.

ومن تازا : أحمد بن شعيب الجزنائي[795].

ويهمنا ـ الآن ـ ما كان لهؤلاء ومن إليهم من لقاءات علمية مدة إقامتهم بتونس في فترة الزحفة المرينية، وقد تجلى هذا النشاط في أكثر من مناسبة.

ويأتي ـ في الطليعة ـ المجالس العلمية التي دأب أبو الحسن على عقدها بالمدينة الخضراء، فيحلق ـ بها ـ أعلام الأقطار الثلاثة : المغرب والجزائر وتونس، وتجرى محاورات علمية يتداول المجتمعون فيها الأنظار، ويتبادلون الإفادات، ويتجاوب طابع ثقافة كل من الجهتين : المغاربة بأنقالهم وحفظهم الغزير، والتونسيين بأبحاثهم ومناقشاتهم الرصينة، مما خلف أصداء في المؤلفات التالية لهذه الفترة.

ومن مجالات التبادل الثقافي بهذه المناسبة : ما قام به بعض المغاربة من إلقاء دروس بمدينة تونس : فكان عبد المهيمن الحضرمي قد انتصب للتدريس بها، حيث كان عبد الرحمن ابن خلدون ممن أفاد منه، وهو يقول عن مقرؤاته على العالم السبتي : «لازمته وأخذت عنه ـ سماعا وإجازة ـ الأمهات الست، وكتاب الموطأ، والسير لابن اسحاق، وكتاب ابن الصلاح في الحديث، وكتبا كثيرة شذت عن حفظي»[796].

(794) عثمان الكعاك في أحد تعاليقه على **الأدلة البينة،...** للشماع، ص 122.

(795) **التعريف بابن خلدون**، حيث ترد تراجم أعيان الأعلام الذين أصطحبهم أبو الحسن في وجهته : مغاربة وسواهم ـ ص 19 ـ 55.

(796) **المصدر**، ص 20.

كما أن ابن خلدون أخذ عن المقرئ المغربي أبي العباس أحمد الزواوي، وقرأ عليه القرآن الكريم بالجمع الكبير بين القراءات السبع : من طريق الداني وابن شريح : في ختمة لم يكملها، وسمع عليه عدة كتب، وأجازه بالإجازة العامة(797).

وقد كان المؤرخ الإفريقي ينتاب مجلس الإمام السطي ويستفيد منه(798) كما يذكر عن أخيه محمد ابن خلدون أنه كان يقرأ على الفقيه المغربي من كتاب **التبصرة** لأبي الحسن اللخمي، ويصححه عليه ـ من إملائه وحفظه ـ في مجالس عديدة(799).

ومن الآخذين عن السطي الإمام ابن عرفة التونسي، وفي هذا يقول الرصاع عنه: «...ثم لما قدم الشيخ السطي ـ رحمه الله ـ مع السلطان أبي الحسن اجتمع به وطلب منه أن يقرأ عليه الحوفي، فقال له : إني لا أجد محلا للإقراء إلا في ساعة بين الظهر والعصر في باب جامع القصبة العلية، فكان الشيخ (ابن عرفة) ـ رحمه الله ـ يبكر ويجلس هنالك ينتظره، فإذا قدم فتح عليه الكتاب وقرأ عليه...»(800).

وإلى جانب الفرائض قرأ على السطي الفقه المالكي، وفي تعبير المجاري خلال عرضه لأشياخ ابن عرفة : «ومن شيوخه الشيخ الفقيه الحافظ : أبو عبد الله محمد بن سليمان السطي، قرأ عليه جملة من كتاب التهذيب : قراءة بحث ونظر. وجميع كتاب القاضي أبي القاسم الحوفي : قراءة بحث وتحقيق لأحكامه الفقهية، وتصوير لأعماله الجزئية، بأنواع أعماله الثلاثة : العدد، والكفات، والجبر والمقابلة، إلا يسيرا من آخر باب الولاء»(801).

هذا مع العلم بأن ابن عرفة درس هذه المادة الفقهية في تونس على الأشياخ ابن عبد السلام. وابن القداح. وابن هارون(802).

---

(797) **المصدر**،ص. 20 ـ 21.
(798) **المصدر**، ص 19 ـ 20.
(799) **المصدر**، ص 32.
(800) **شرح حدود ابن عرفة**، للرصاع، ط. تونس : ص 534.
(801) **فهرس المجاري**، محمد بن محمد بن علي الغرناطي، مخطوطة خ. م. 1578. ضمن مجموع ص.269، مع الرجوع إلى نسخة دار الكتب الوطنية بتونس.
(802) **شرح حدود ابن عرفة**، للرصاع، ص.5.

وابن عبد السلام المذكور هو شارح المختصر الفقهي لابن الحاجب، وشيخ أعلام تونس في هذه الفترة، وقد جاء ذكره ـ أيضا ـ في مجال لقاء ثنائي بينه وبين ابن الصباغ المكناسي، وقد أطلع هذا الأخير على شرح العلامة التونسي للمختصر الحاجبي، فناقشه في أربعة عشر مسألة لم ينفصل ابن عبد السلام عن واحدة منها، وأقر بوجاهة الاعتراضات جميعها[803].

* * *

ومن الجدير بالذكر أن الأدب التونسي تجاوب ـ بدوره ـ مع هذه اللقاءات، وساهم في التعريف بالهيئة العلمية التي واكبت الحملة المرينية، وكان الذي ترجم هذا إلى لغة الشعر، هو أديب الخضراء أبو القاسم الرحوي، فيقول عن العلماء القادمين من قصيدة مطولة :

هم القوم كل القوم أما حلومهم ... فأرسخ من طودي ثبير وثهلان
فلا طيش يعروهم. وأما علومهم ... فأعلامها تهديك من غير نيران
بفقه يشيم الأصبحي صباحه ... وأشهب منه يستدل بشهبان
وحسن جدال للخصوم ومنطق ... يجيئان في الأخفى بأوضح برهان
سقت روضة الآداب منه سحائب ... سحبن على سبحان أذيال نسيان
فلم يبق نأي ابن الإمام شماخة ... على مدن الدنيا لأنف تلمسان
وبعد نوى السطي لم تسط فاسه ... بفخر على بغدان في عصر بغدان
وبالأبلي استسقت الأرض وبلها ... ومستوبل ما مال عنه لاظعان
وهامت على عبد المهيمن تونس ... وقد ظفرت منه بوصل وقربان
وما علقت منى الضمائر غيره ... وان هويت كلا بحب ابن رضوان[804].

ويمدح نفس الشاعر عبد المهيمن بقصيدة يقول فيها :

... وأرى الفضل قد تجمع كلا ... في ابن عبد المهيمن الحضرمي

إلى أن يقول في ذكر معارفه :

سالك في النظام درا وطورا ... ناثر دره بنشر وطي

(803) **نيل الابتهاج**، المنشور بهامش الديباج، مطبعة المعاهد بمصر، ص.245؛ وأصل ذلك عند الونشريسي في المعيار 3 /285، ط.ف.

(804) **التعريف بابن خلدون**، ص.24ـ25.

بدع للبديـــع ترمـــي بحصر | ولصابي بنـــي بويـــه بعـــي
ويـرى أخـرس العـراق لديـه | أنـه بالشئـام كالأعجمـي
وعلـوم هي البحـور ولكـن | ينثنـي الـواردون منها بري
تصدر الأمـة العظيمـة عنـه | بحديـث مجـود مـروي
وبفقـه فيـه وحسن مقـال | يضع النـور في لحاظ العمـي
وبنحـو ينحـو على سيبويـه | ببيـان في المبهمـات جلي...(805)

* * *

وإلى هنا رأينا أصداء النشاط المغربي في هذه اللقاءات، وإلى ذلك وجد المغاربة في التونسيين أعلاما في القمة، يضيفون إلى معارفهم الواسعة تضلعا في ميادين البحث والحجاج، وذلك ما يلاحظه أحد المعلقين وهو يصف مجالس أبي الحسن بتونس : «... فظهر فقهاء المغرب ممن صحبه، (أبا الحسن) على فقهاء تونس، لحفظهم كتاب التهذيب عن ظهر قلب، وزعيم فقهاء المغرب ـ حينئذ ـ الرجل الصالح أبو عبد الله السطي رحمه الله ونفع به، إلى أن جاءت نوبة الشيخ ابن عبد السلام، وعقد مجلسه بمحضر السلطان المذكور ومن معه من الفقهاء والنحاة والكتاب والرؤساء، وتوجهت مطالبة فقهاء المغرب له، فكان ـ رحمه الله ـ على ما وصفه به من أرخ الواقع : كأنه بحر تلاطمت أمواجه، فكان يقطعهم واحدا بعد آخر، وتلميذه ابن عرفة كذلك، إلى أن قال ولي الله المنصف : أبو عبد الله السطي للسلطان : يا علي، كذا يكون التحصيل، وكذا يقرأ الفقه، ولو لم يكن بتونس إلا هذا الإمام لكان بها كل خير، فلا بد من ملازمة هذا لهذا المجلس، حتى ينتفع به أصحابنا وننتفع بطريقة...»(806).

وإذا كان السطي ينوه بابن عبد السلام في هذا الإتجاه، فهو يشيد ـ مرة أخرى ـ بالفقيه الرماح : محمد بن عبد الرحمن القيسي القيرواني، من جهة تضلعه ـ أكثر ـ في المسائل الفقهية، قال ابن ناجي : «قيل للشيخ أبي عبد الله السطي : من رأيت بأفريقيا ؟ قال : ما رأيت فيها أفقه من الرماح بالقيروان، فقيل له : فابن عبد السلام؟ فقال : لا ابن عبد السلام ولا غيره»(807).

(805) **المصدر**، ص.25ـ26.
(806) **أزهار الرياض**، للمقري، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة : 3 / 28.
(807) **معالم الإيمان**، 4 /114.

ومن مبادرات أبي الحسن لإثراء التلاقح الثقافي بهذه المناسبة، أنه أمر بعقد دروس بتونس يحضرها جميع الفقهاء وغيرهم، ووقعت البداءة بابن عبد السلام، فعقد درسه وحضره سائر الفقهاء وسواهم، ومرض بإثر ذلك مرض موته، ثم انتكس السلطان بالقيروان، فوقفت المبادرة عند الدرس الأول(808).

* * *

وقد تبينا من هذا العرض اثنين من شيوخ تونس الذين يحضرون هذه المجالس العلمية، وهما ابن عبد السلام وتلميذه ابن عرفة، وربما كان منهم ـ أيضا ـ الفقيه الرماح، ويمدنا ابن بطوطة باسمين لعالمين وجدهما في مجلس أبي الحسن بقصبة تونس، وهما قاضي الجماعة بالخضراء : أبو علي عمر بن عبد الرفيع، وعالمها أبو عبد الله (محمد) ابن هارون (الكناني)(809).

ولما توفي هذا الأخير حضر لدفنه السلطان أبو الحسن ومعه الفقيه السطي(810).

وفي صدد الكتاب الذي كان يتداول في المجالس المنوه بها، نشير إلى مناقشة جرت مع ابن عرفة في أحد هذه التجمعات، وورد فيها أن العالم التونسي كان يقرأ على الحاضرين صحيح الإمام مسلم(811).

وإلى هنا : تبينا بعضا من معطيات هذه اللقاءات المغربية التونسية، ومن المتوقع أن ما أهمله التاريخ عن هذه المناسبة أكثر مما دونه، غير أن المعروف يلوح للمجهول، والمذكور يشف عن المهمل.

العصر الثاني

يبتدى العصر الحفصي الثاني بعد نهاية الحملة المرينية عام 751 هـ ـ 1350 م، ثم يمتد إلى انقراض الدولة الحفصية عام 981 هـ ـ 1573 م .

(808) **المصدر**، ص.4 /113.

(809) **تحفة النظار**، نشر المكتبة التجارية الكبرى بمصر : 2 /179.

(810) **تاريخ الدولتين**، للزركشي، مطبعة الدولة التونسية : ص.74.

(811) **المصدر**، ص.72.

وعرفت هذه الفترة ـ بدورها ـ نشاط الصلات الثقافية بين المغرب وتونس، غير أن معطياتها جاءت دون واقع العصر الأول، تأثرا ـ بصفة عامة ـ بالتراجع الذي أصاب الثقافة الإسلامية بعد الوباء العام سنة 749هـ/(812) 1348م، وهذه هي الأبواب التي يسير عليها عرض آفاق الصلات الثقافية بين الجهتين في هذا العصر الثاني :

ـ أعلام تونسيون يرحلون إلى المغرب ـ نخبة مغربية مقيمة بتونس ـ رحلات مغربية عابرة ـ راحلون مغاربة يثيرون مناقشات منوعة.

أعلام تونسيون يرحلون إلى المغرب

1 ـ أبو إسحاق الحسناوي : ابراهيم بن عبد الحق التونسي، المتوفى عام 795هـ. اشتغل بالتدريس في فاس(813)، وقال الشعر في إحدى المناسبات أيام أبي عنان(814)، وكان من الآخذين عنه أبو الوليد ابن الأحمر، حيث عقد له ترجمة وجيزة حدد فيها تاريخ وفاته، وذكر من مشايخه أبا العباس أحمد بن موسى البطرني(815)، كما أجرى ذكره ابن خلدون بإسم أبي اسحاق الحسناوي(816).

2 ـ أبو زيد عبد الرحمن ابن خلدون، لقي ـ بفاس ـ جملة من مشايخ المغرب ومن الواردين في غرض السفارة، وحصل ـ حسب تعبيره ـ من الإفادة منهم على البغية(817)، وكان فيهم محمد بن الصفار المراكشي(818)، وأبو القاسم الشريف السبتي(819)، وقاضي فاس محمد بن عبد الرزاق(820)، وأبو البركات البلفيقي(821).

ومن أغرب من روى عنهم : السلطان أبو عنان، فيذكر أنه أخذ عنه معظم

(812) شرح ابن خلدون عواقب هذا الملم الفادح بالنسبة إلى الغرب الإسلامي، حسب مقدمة **المقدمة**، ص.27.

(813) حسب اشارة عند النباهي في **المرقبة العليا**، ص.170.

(814) **فيض العباب**، لابن الحاج النميري، مخطوط خ. م. 3267 : ص.77.

(815) **نيل الابتهاج**، ص.46.

(816) **التعريف بابن خلدون**، ص.337.

(817) **المصدر**، ص.59.

(818) **المصدر**، ص.310.

(819) **المصدر**، ص.61.

(820) **المصدر**، ص.65.

(821) **المصدر**، ص.61.

الجامع الصحيح للبخاري : في مجالس متعددة بين يديه في دار ملكه من فاس، وأجاز له سائره : عن أشياخه الذين كتبوا له بالإجازة العامة من الديار المصرية وغيرها[822].

ومن هنا نتبين أن ابن خلدون كان يحضر المجلس العلمي الذي دأب أبو عنان على عقده، وهو ما يؤكده ـ بنفسه ـ مرة أخرى[823]، كما يسجله أبو الوليد ابن الأحمر[824].

وإلى جانب هذا كان المنوه به مدة إقامته بالمغرب : له اتصالات ثقافية أفاد بها ومنها[825].

ومن أصدقائه بفاس أحد أعلامها اللامعين : أبو يحيى ابن السكاك :

محمد بن أبي غالب بن أحمد العياضي، وقد تأثر هذا ـ إلى حد ـ بالفلسفة الخلدونية، وبدا ذلك، واضحا ـ في ثلاثة من مؤلفاته[826].

ومن الجدير بالذكر أن هذه العلاقة الثقافية حافظ عليها ابن خلدون بعدما ارتحل عن المغرب واستوطن القاهرة، ومنها أهدى للمغرب تاريخه الكبير : في نسخة من سبعة أجزاء[827].

3 ـ البحيري : عبد الله بن سليمان بن قاسم التونسي، أخذ بفاس عن الشيخين : محمد السماتي شهر بالفخار، ومحمد بن عمر[828].

---

(822) **فهرس المجاري**، المخطوطة المغربية ضمن مجموع، ص.272-273، مع الرجوع إلى المخطوطة التونسية.

(823) **التعريف بابن خلدون**، ص.58-59.

(824) نقل ذلك عنه الجادري آخر **شرح البردة البوصيرية**، مخطوط خزانة القرويين رقم 643.

(825) انظر في هذا الاتجاه **التعريف بابن خلدون**، ص 66 س 9 ـ 10، مع **المقدمة**، ص 157-158.

(826) انظر توضيح ذلك عند فصل : «التيارات الفكرية في المغرب المريني» من هذا العمل.

(827) بقي منها في خزانة القرويين ثلاثة تحمل رقم 362، وهي الثالث والخامس على بتر يتخللهما، مع قطع من الجزء السابع، وثلاثتها تبتدي بصيغة وقف المؤلف لها على خزانة القرويين مذيلة بتوقيعه بخطه، والغالب أن ضياع بقية أجزاء هذه النسخة انما وقع بعد صدر المائة الهجرية الحادية عشرة تقريبا، حيث يذكر المقري أنه عاين نسخة هذا التاريخ ـ كاملة ـ بفاس وعليها خط المؤلف، حسب **نفح الطيب**: 4 /17.

(828) **فهرس ابن هلال**، خ. ع. ك 271 ضمن مجموع، ص.470.
«ثبت أحمد بن علي البلوي» الوادي آشي، نسخة مصورة عن مخطوطة الاسكوريال رقم 1725 : لوحة 26.أ ؛ وانظر عن ترجمة البحيري **فهرس الرصاع**، ط. تونس ص 178 ـ 180.

نخبة مغربية مقيمة بتونس

وقد وازى الاعلام الزائرين لفاس، وجود نخبة مغربية مقيمة بتونس مدة طويلة أو قصيرة، حتى تتجسم ظاهرة التبادل التلقائي بين الجهتين، فينثر آبن خلدون أفكاراً جديدة بين المغاربة، بينما ينقل بعض هؤلاء ثقافة متنوعة إلى تونس، وفي هذا الصدد يؤكد أحد أعلام الديار التونسية :

أن المغرب المريني كان يتوفر على فحول مبرزين في المعارف، وبالأخص في مادتي الهيئة والمنطق، على حين أن هذه الثقافة المتنوعة كانت قليلة بتونس الحفصية[829]، وهذه لائحة بستة أسماء للأساتذة المغاربة الزائرين :

1 ــ انطلاقا من أبي القاسم عبد العزيز بن موسى العبدوسي الفاسي، وكانت دروسه التي أملاها بهذه الحاضرة قد أثارت الإعجاب، وذلك ما يشهد به الشيخ محمد الزنديوي، في فقرة مطولة جاء فيها :

«... فلما اجتمعنا وأقام عندنا أزيد من عام رأينا منه العجب العجاب... فما رأينا ولا سمعنا من يشبه العبدوسي في حفظه»، إلى أن يقول : «تركت مجلس تدريسي وحضرت عنده لآخذ شيئا من طريقه، وأقتطف من يانع تحقيقه، فلما حضرت رأيت شيئا لا يدرك إلا بعناية ربانية...»[830].

2 ــ وبعد العبدوسي نشير إلى أبي يوسف يعقوب المصمودي، وقد أقام بالقاعدة الإفريقية مدة طويلة أقرأ فيها بضع مؤلفات في المنطق وأصول الفقه، وكانت له معرفة بالهندسة، ومشاركة تامة في سائر العلوم المتداولة في عصره وبالخصوص مادة المنطق[831].

3 ــ وهو من أساتذه العلامة التونسي محمد الرصاع، وقد درس هذا الأخير على مغربي عاصر سابقه، واستوطن حاضرة تونس حتى توفي بها، ويسميه الرصاع بمحمد بن أبي بكر ويقول عنه :

---

(829) مقدمة **الفارسية**، لابن القنفذ القسنطيني، تقديم وتحقيق الشيخ محمد الشاذلي النيفر والدكتور عبد المجيد التركي، الدار التونسية للنشر : ص 35.

(830) انظر التفاصيل في **نيل الابتهاج**، ص 180.

(831) **فهرس الرصاع**، ص 126 و130 و136.

«... وكان عالما بالعربية وبعروض الشعر والحساب وبالفرائض، وقد أخذنا عنه وحضرنا مجلسه، وقرأت عليه ـ بلفظي **كتاب ابن البنا** مرتين بشرحه، وحضرت عليه الحوفي في الفرائض ـ سماعا مرارا، وحضرت عليه الحصار حتى ختم مرارا، فقرأت عليه الاطرابلسي في الفرائض، وقرأت عليه ابن بدر والياسمينية في الجبر والمقابلة، ولازمته سنين في هذه العلوم، وكانت بين يديه مشايخ في هذه العلوم... وأجازني في ذلك ـ كله ـ بلفظه وخطه...»[832].

4 ـ وهذا مغربي من مدينة سلا يعرف بأبي العباس أحمد السلاوي، وقد قرأ عليه مشايخ تونس، منهم الأشياخ عمر القلشاني. ومحمد الواصلي. والرصاع[833]، ويعرض هذا الأخير درجة أستاذه في مادة العربية هكذا :

«ولما حصل لي بعض المشاركة في علم العربية وجلست مع جماعة من الأقران وتذاكرنا، وجدت عندهم زوائد بحث وغرائب نكث، فسألت عن ذلك أشدهم مشاركة، فدلني على الحضور عند الشيخ... أبي العباس أحمد السلاوي، فحضرت عنده ورأيت مجلسه في علم العربية...

وله في هذا العلم قدم عظيم، بقي يقرئه بتونس المحروسة ـ بعد قدومه من المغرب ـ أزيد من خمسين عاما... وهو من أفضل الشيوخ وأكثرهم تواضعا، قرأ عليه كبار العلماء...»[834].

ومن الجدير بالذكر أن هذا غير السلاوي تلميذ ابن عرفة، وأحد الثلاثة الذين قيدوا عنه تفسير القرآن الكريم، كما ألف ـ أيضا ـ إكمال الأكمال على صحيح مسلم، واسمه ـ كاملا ـ أبو القاسم الشريف الإدريسي السلاوي[835].

---

(832) **المصدر**، ص 114–115.

(833) **المصدر**، ص 126 ؛ **الضوء اللامع**، للسخاوي نشر مكتبة القدسي بالقاهرة : 2 / 263.

(834) **فهرس الرصاع**، ص 122 و 126.

(835) ترجمته في **نيل الابتهاج**، ص 225، وينبغي أن يفرق بين هذا وسابقه، وبين أبي عبد الله محمد السلاوي نزيل تلمسان وشيخ مدرستها، وترجمته أدمجها ابن خلدون خلال ترجمة المقري الكبير، حسب التعريف بابن خلدون ص 59–60.
وهناك محمد بن ابراهيم السلاوي تلميذ الحرالي، حيث تكرر ذكره في **عنوان الدراية**.
ونضيف هنا أن السلاوي الذي نعلق على اسمه : قد يكون من أسلاف الأشراف الدباغيين المعروفين بالمغرب، وقد تحدث عبد السلام القادري عن أسرتهم، فيذكر أن الواحد منهم كان يعرف «بالشريف السلوي»، حسب **الدرّ السني**، ط. ف. : ص 36.

5 ـ ونختم هذه اللائحة بالطبيب الفاسي : محمد الشريف الزكراوي الحسني، ويقول عنه السخاوي : «وكان أديبا طبيبا لبيبا، ولي البيمارستان بتونس، وأقرأ العقليات، مع مشاركة في الفقه واعتناء بالتاريخ»[836].

رحلات مغربية عابرة

1 ـ محمد بن علي العكرمي القرشي : من الآخذين عن الإمام آبن عرفة[837].

2 ـ عبد الرحمن الجدولي الشهير بالتونسي، لرحلته إلى تونس وقراءته على أبي عبد الله الأبي، قال ابن غازي : كان قد برز في علم المعقول، وعنه يوخذ بفاس[838].

3 ـ محمد بن سليمان بن داود الجزولي نزيل مكة المكرمة، بعدما دخل إلى تونس وأخذ بها عن أبي القاسم البرزلي وغيره[839].

ويذكر الرصاع عن البرزلي : أن الواردين على تونس من الأندلس والمغربين كلهم يأخذون عنه[840].

4 ـ أحمد زروق بن أحمد بن محمد البرنسي الفاسي، روى بتونس عن محمد بن قاسم الرصاع، وأبي العباس حلولو : أحمد بن عبد الرحمن اليزليتني القروي[841].

5 ـ محمد بن أحمد بن عبد الرحمن اليسيتني الفاسي، أخذ ـ بها ـ عن بقية مشايخ العلوم البيانية والعقلية[842].

---

(836) **الضوء اللامع**: 10 / 122 ـ 123.

(837) **فهرس ابن غازي**، تحقيق الأستاذ التونسي محمد الزاهي، نشر دار المغرب : ص 66، مع **نيل الابتهاج**، ص.300، **ودرة الحجال**، مطبعة السنة المحمدية بالقاهرة : رقم 809.

(838) **فهرس ابن غازي**، ص 83.

(839) **الضوء اللامع** : 7 / 258ـ259.

(840) **فهرس الرصاع**، ص.60.

(841) **فهرس الفهارس**، للشيخ الكتاني 342/1، ط.ف.، ونضيف هنا أن الشيخ زروق أكمل بتونس شرحه الثاني على **الحكم العطائية**، ثم ألف بها كلا من الشرح الثالث والثامن، وفي بجاية كتب الشرح التاسع والخامس عشر، حسبما أشار لهذا نفس المؤلف طالعة شرحه ـ السابع عشر ـ على **الحكم**، المنشور بعناية مكتبة النجاح في طرابلس الغرب : ص 26.

(842) **فهرس المنجور**، نشر دار المغرب : ص 32.

6 – أبو علي بن حرزوز المكناسي، روى عن بعض الأعلام النازلين بالقاعدة الإفريقية[843].

راحلون مغاربة يثيرون مناقشات منوعة

نذيل – الآن – بذكر ثلاثة راحلين مغاربة أثاروا مناقشات علمية مع بعض أعلام تونس، بدءا من أبي العباس القباب أحمد بن قاسم الفاسي، فيذكر أنه ناقش ابن عرفة في منهجية تأليفه للمختصر الفقهي، على أن أبا العباس الونشريسي يقطع بتكذيب الواقعة[844]، بينما يعرضها السوداني في شيء من التحفظ[845]، غير أنه من الثابت أن القباب أعجب بملكة التونسيين في التحصيل والتصرف[846].

ومن عالم المغرب ننتقل الى عالم تونس أبي القاسم البرزلي، وقد تناقش – بالإسكندرية – مع العالم أبي عبد الله الدكالي في مسألة أخذ المرتب – من الأوقاف – على الإمامة[847].

والبرزلي – مرة أخرى – يناقش – بتونس – الشيخ أبا حفص عمر الركراكي في مسائل منوعة، وقد أثبت هذا الأخير اعتراضاته خلال رسالته : «هداية من تولى...»، عند البابين 3 و4، ثم عارض ذلك الشيخ التونسي وأجاب عنه مسألة مسألة، في رسالة أثبتها – بنصها – في نوازله[848]، ولخص ذلك تلميذه البوسعيدي في اختصار النوازل البرزلية[849].

* * *

(843) **فهرس الفهارس**: 1 / 266، ط.ف.

(844) **أزهار الرياض**: 3 /35.

(845) **نيل الابتهاج**، ص 73.

(846) **أزهار الرياض**: 3 /32.

(847) **نوازل البرزلي**، مخطوط خ. م. 8441 : عند أوائل الجزء الأول.

(848) **نفس المصدر والمخطوط والجزء** : آخر كتاب الصلاة قبل كتاب الجنائز؛ أما رسالة «هداية من تولى» فلا تزال مخطوطة: خ.ع.ك 383 ضمن مجموع. ثم نشرت من بعد.

(849) **شجرة النور الزكية**، ص 250 : تعليق.

الملحق الأول

تبادل الكتب الدراسية بين تونس والمغرب

ويأتي عرضها على امتداد أيام الحفصيين : خلال العصرين الأول والثاني، بدءا من الكتب الدراسية التونسية، ومنها : الرسالة القيروانية[850]، وكان ابن عباد يقول عنها : «طلبوا الفقه في غير الرسالة فاضلوه»[851]، وقد شرحها ــ في هذه الفترة ــ من المغاربة: كل من أبي عمران الزناتي[852]. وابن أبي يحيى التازي[853]. وزروق[854]. وأبي حفص عمر التمزي[855]. وغيرهم[856]، زيادة على تقاييد عن كل من أبي زيد

---

(850) من مظاهر تقدير المغرب للرسالة القيروانية في شخص حفدة مؤلفها : ما يسجله ابن ناجي في **تكملة معالم الايمان**: 4 /225، فيرد بها ــ عرضا ــ اسم أبي الحسن علي المعروف بالجهام من ذرية الشيخ ابن أبي زيد، وهنا يذكر المؤلف أن هذا الحفيد اعتاد زيارة فاس بقصد الاحسان اليه، فكان يذهب اليها سنة ويأتي بكساوي ودراهم كثيرة، ويقيم بالقيروان ــ بلدته ــ سنة، إلى أن حضره أجله بالمغرب.

(851) نقله الشيخ أحمد زروق في شرح الرسالة القيروانية عاني الذكر : 2 /423.

(852) ورد ذكره في ترجمة مؤلفه من **نيل الابتهاج**، ص.342، وأشار له بلوشه E. Blochet في **فهرس مخطوطات المكتبة الوطنية** بباريس رقم 5336.

(853) ورد النقل ــ مباشرة ــ عن السفر العاشر منه عند أبي القاسم بن خجو في جواب له نقله الشيخ محمد كنون في كتابه **الزجر والاقماع**، ط. ف : عند الملزمة 29 ص 8، ونقل عنه ــ دون تحديد السفر ــ الشيخ الكتاني في كتاب **تبليغ الأمانة**، مطبعة فاس بالمدينة الجدية ص 108.

(854) شرحه منشور في المطبعة الجمالية بمصر عام 1332 هـ/1914م في جزءين يجمعهما مجلد، ومعه شرح الرسالة لابن ناجي.

(855) أشار لشرحه في **سلوة الأنفاس**: 2 /125.

(856) منهم أبو محمد صالح الهسكوري ثم الفاسي، المتوفي ــ بها ــ عام 653هـ، حسب **سلوة الأنفاس**: 2 /42ــ43، ثم التادلي: أحمد بن عبد الرحمن الفاسي، المتوفي ــ بالمدينة المنورة ــ عام 741هـ، فيذكر البعض أنه علق على الرسالة شرحا موسعا، بيض منه نصفه في ثلاثة أسفار، وتوفي، والنصف الثاني في مسودته، **طبقات المالكية**، لمؤلف مجهول الاسم مخطوطة خ. ع. د 3928، ص.387.
وممن شرح الرسالة يوسف بن يعقوب بن محمد الرجراجي، باسم **المفيد. على الرسالة للطالب المستفيد. والراغب المستزيد**، وهو خال من تاريخ التأليف، ووقع الفراغ من نسخة بتاريخ 7 صفر عام 924هـ، ولا يزال مخطوطا في مجلد يحمل رقم 3442 خ.م.
ثم سعيد بن سليمان السوسي الكرامي: باسم **مرشد المبتدئين إلى معرفة ألفاظ الرسالة**، فرغ منه عام 864 هـ، مخطوط خ.ع.ك 724؛ ولمحمد بن منصور بن حمامة المغراوي السجلماسي **شرح غريب الرسالة**، خ.ع.ك 815 : أول مجموع.

الجزولي وسيدي يوسف بن عمر[857]، كما نظمها ميمون الفخار[858]، ورجز ابن غازي مشكلاتها[859].

وقد صار تهذيب المدونة للبرادعي في طليعة الكتب الدراسية العالية، وكان موضوع تعاليق مغربية عديدة من جهة طلبة أبي الحسن الصغير فمن بعدهم[860].

وهذه مقدمة ابن جماعة التونسي في أحكام البيوع، وهي التي هذبها أبو العباس القباب وشرح تهذيبها[861]، ثم نظمه جماعة من المغاربة وسواهم.

وينتهي المطاف إلى المختصر الفقهي للإمام ابن عرفة، فيعلق عليه شيخ الجماعة بفاس : عيسى بن علال المصمودي[862]، ثم يقول أبو العباس زروق ختام شرح الرسالة القيروانية : «... قد كتبت هذا الكتاب وجمعته من أصول معتمدة جلها كتب المتأخرين، والعمدة مختصر الشيخ الفقيه الصالح سيدي أبي عبد الله بن عرفة التونسي...»[863].

ولابن غازي : «تكميل التقييد وتحليل التعقيد»، كمل به تقييد أبي الحسن الصغير على المدونة، وحل مشكل كلام ابن عرفة في مختصره الفقهي[864].

---

(857) التقييدان ــ معا ــ مخطوطان في الخزائن الوقفية وسواها بالمغرب.

(858) **الضوء اللامع**: 99/7.

(859) شرح هذا الترجيز محمد بن عبد الرحمن الحطاب، باسم **شرح نظائر الرسالة وتحرير المقالة**، ولا يزال مخطوطا في عدة نسخ بالخزانات المغربية.

(860) في جواب لابن مرزوق الحفيد عند ذكر **تقاييد التهذيب**، المنسوبة لأبي الحسن الصغير: «.... ويقال أن الطلبة الذين كانوا يحضرون مجلسه هم الذين كانوا يقيدون عنه ما يقوله في كل مجلس، فكل له تقييد، وهذا سبب الاختلاف الموجود في نسخ التقييد، والشيخ (أبو الحسن) لم يكتب شيئا بيده، وأكثر اعتماد أهل المغرب ــ من تلك التقاييد ــ على تقييد الفقيه الصالح أبي محمد عبد العزيز القروي، فإنه خيار طلبته علما ودينا، ومن خيارهم»، نقله الونشريسي في المعيار : 173/1، ط.ف.
وعن المغاربة الآخرين الذين شرحوا التهذيب : ينقل الونشريسي هذه الإشارة أثناء كلام «... ولهذا قال شراح الكتاب (التهذيب) : كأبي محمد صالح والصرصري واليزاسني والشوشاوي والطنجي...»، **المعيار**192/2، ط.ف. كما أن للسطي تعليقا على التهذيب يستوعب سفرا : خ.ع.ج 136.

(861) مخطوط بالخزانات المغربية.

(862) **نيل الابتهاج**، ص 193.

(863) **شرح الرسالة القيروانية** : الطبعة المشار لها سلفا : 2 /423.

(864) **نيل الابتهاج**، ص 333، ولا يزال مخطوطا باسم **اتحاف ذوي الذكاء والمعرفة بتكميل تقييد أبي الحسن وتحليل تعقيد ابن عرفة**.

هذا الى أن أبا العباس الونشريسي يؤكد أن ملوك المغرب أوقفوا ــ من هذا الكتاب ــ نسخا عديدة بخزانتي القرويين والأندلس[865].

والمختصر الأصلي لابن عرفة أيضا : يذكر ابن هارون أنه درسه على أستاذه ابن غازي[866].

وفي القراءات نشير إلى القصيدة الرائية في قراءة نافع من نظم أبي الحسن الحصري، وقد اشتهرت ــ بالمغرب ــ في هذه الفترة، وتداولها الناشئون بحفظها في الكتاتيب[867]، وشرحها أبو عبد الله الأموي المعروف بالخراز[868].

وفي مادة الأدب : كتاب «زهر الآداب» لابراهيم الحصري، حيث قام باختصاره أبو الحسن بن بري التازي في سفر متوسط[869].

*

ومن جهة أخرى فإن الرصاع يستعرض ــ في فهرسه ــ جملة من المؤلفات المغربية التي كانت تستخدم في الدراسات التونسية.

ومنها الشفا للقاضي عياض، وأرجوزة الدرر اللوامع لابن بري التازي في القراءات، ومنظومة الخراز في الرسم القرآني[870].

وشرح الخلاصة للمكودي[871]، وشرح القصيدة الخزرجية لأبي القاسم

---

(865) **أزهار الرياض**: 3 /36، هذا ومن أغرب ما تحتفظ به خزانة القرويين من هذا المختصر الفقهي: نسخة أكثر أجزائها من تحبيس القائد المريني عبد الله الطريفي، على الجامع الأعظم بمدينة سبتة عام 812 هـ، أي بعد ثمانية أعوام من وفاة ابن عرفة، ورقمها في هذه الخزانة، 376.

(866) **فهرس المنجور**،ص. 42.

(867) طالعة شرحها للخراز.

(868) **سلوة الأنفاس**: 2 /114.

(869) يقول في أوله: «... وبعد فهذا كتاب سميته **اقتطاف الزهر واجتناء الثمر** اختصرته من كتاب **زهر الآداب**... على وجه اخترته لنفسي... وقد ضممت فيه الشكل الى شكله، وأضفت الشيء الى مثله.. وربما أضفت زيادات يسيرة من غيره».
يعرف منه ــ الآن ــ أربع مخطوطات: اثنتان خ.م. 374 و2544، واثنتان بدار الكتب المصرية: 14094ز و14417ز.

(870) **فهرس الرصاع**، ص.56.

(871) **المصدر**، ص 181.

الشريف السبتي[872]، وأرجوزة ابن الياسمين في الجبر والمقابلة، والتلخيص لابن البنا في المادة ذاتها[873].

* * *

هذا الى بعض مؤلفات يتسلسل تأليفها بين المغرب وتونس، فيعلق المازري على صحيح مسلم بكتاب «**المعلم**»، ثم يكمله عياض باسم «**أكمال المعلم**»، ثم يتمم هذا التكميل :

محمد بن ابراهيم اليقوري المراكشي دفينها.

وأبو القاسم السلوى نزيل تونس.

ومحمد بن خلفة الأبي التونسي.

ولشرح هذا الأخير مختصر من تأليف ابن الشاط البجائي[874].

ومن ناحية أخرى فإن عبد الله التجاني صاحب الرحلة : ابتدأ شرح الشفا لعياض باسم «كتاب الوفا. ببيان فوائد الشفا»، غير أنه لم يتمه، وذلك ما يؤكده السخاوي وهو يذكر كتاب الشفا : «... وقد كتب عليه بعض المغاربة ـ أيضا ـ وهو أبو محمد عبد الله بن محمد بن أحمد بن محمد بن أبي القاسم التجاني شرحا حافلا لكنه لم يكمله، والموجود منه ـ في أوقاف المؤيدية ـ من أوله إلى بعد قوله : فصل في حسن خلقه صلى الله عليه وسلم : في نحو خمسة عشر كراسا»[875].

كذلك قام أبو العباس أحمد بن يحيى الونشريشي نزيل فاس ودفينها : باختصار نوازل البرزلي مع زيادة من بعض المؤلفات، ولا يزال مخطوطا.

وفي اتجاه آخر نشير إلى تخميس القصيدة الشقراطسية : لمحمد بن حسن بن عطية بن غاز الأنصاري السبتي.[876].

(872) **المصدر**، ص 119.

(873) **المصدر**، ص 114.

(874) شرح الأبي منشور، واليقوري والسلوي غير معروفين الآن، والباقي مخطوط.

(875) **الجواهر والدرر. في ترجمة شيخ الإسلام ابن حجر**، مخطوط خ. م. 1500: 2 /121–122، أما شرح التجاني على الشفا فيوجد السفر الأول منه ضمن مخطوطات خ. م. 4016، مع قطعة منه في دار الكتب الوطنية بتونس.

(876) مقدمة شرح القصيدة الشقراطسية لمؤلف غير مذكور، مخطوط خ.ع.ق. 1050.

كما نشير الى «اختصار برنامج الوادي آشي» من جهة تلميذه أبي الحسن علي بن موسى بن اسماعيل المطماطي السلوى، حسب ابراهيم ابن الحاج النميري في «مذكراته» التي دونها عن رحلته المغربية مع أبي الحسن المريني، مخطوطة الأسكوريال رقم 1734.

وقد سمع مؤلف المذكرات على أبي الحسن المطماطي مختصره المنوه به : (لوحة 7. أ)، ثم أثبت جملة مقتبسات منه ومن برنامج الوادي آشي : (لوحة 6، أ) مع لوحات 7ـ13.

ونختم ـ هذه اللائحة بمختصر المدارك لعياض : تأليف أحمد بن علوان التونسي الشهير بالمصري، منه مخطوطة خ. م. ز 2175، كتبها أحمد بابا التنبكتي من خط المؤلف ـ مبتور الأول يسيرا، متلاش.

*

الملحق الثاني
تبادل في الثقافة الصوفية

وقد كان في طليعة من يمثل ذلك الإمام أبو الحسن الشاذلي : محمد بن عبد الله بن عبد الجبار الحسني، قال في «سبك المقال»[877] : «وهو من غمارة، وكان يقرأ كتاب سيبويه وابن عطية في التفسير».

وصحب بالمغرب الإمام الأكبر المولى عبد السلام بن مشيش الحسني وعليه تخرج، ثم لقى ـ في تونس ـ الشيخ العارف أبا سعيد خلفا الباجي التميمي[878]، فتحقق بهذا اللقاء تبادل الثقافة الصوفية بين المنطقتين.

وقد بدأ أبو الحسن الشاذلي دعوته في تونس، وكان يربي أتباعه فيها وبمصر بعدة كتب موضوعية، ومنها:

الرسالة القشيرية.

---

(877) مخطوط خ. م. 105.

(878) **درة الأسرار**، آتي الذكر عند التعليق رقم 884، ص 6.

وقوت القلوب لأبي طالب.
والإحياء للغزالي.
والشفا لعياض.
والمحرر الوجيز لابن عطية(879).

قال في **شجرة النور الزكية** عن الشاذلي : «... وقدم تونس وأقام بها سنين، وبها اشتهر أمره وعلا ذكره، وله بها أتباع كثيرون، واعتقده الخاص والعام، ثم انتقل لمصر وبعد صيته بها، وكان يحضر مجلسه ـ بتونس ومصر ـ أكابر العلماء...

وكان جامعا لجميع علوم الظاهر، لا سيما علم التفسير له فيه نفس عال، والحديث، أما علوم الأسرار فقطب رحاها وشمس ضحاها...»(880).

وفي درة الأسرار وردت أسماء كثيرة من الآخذين عنه بتونس، وفي مقدمتهم خديم الشيخ وتلميذه ماضي بن سلطان المسروقي(881)، وعن هذا يتفرع السند المغربي الشاذلي : من طريق جماعة من أئمة تونس :

بدءا من تلميذ الشيخ ماضي : أبي العباس البطرني : أحمد بن موسى الأنصاري، فابنه أبي الحسن البطرني محمد الآخذ عن والده، ويروى عن الابن تونسيان : أبو الطيب بن علوان : محمد بن أحمد الشهير بالمصري، ثم أبو القاسم البرزلي، وعنه تلميذه محمد بن قاسم الرصاع(882).

وقد ساق الشهاب النخلي السند الشاذلي مسلسلا بالمغاربة من الأقطار الثلاثة :

فهو يرويه عن أبي مهدي عيسى بن محمد الثعالبي الجزائري.

---

(879) **المفاخر العالية في المآثر الشاذلية**، لابن عياد، المطبعة الشرفية بمصر عام 1323 هـ: ص 33 و66، ثم **أبو الحسن الشاذلي**، تأليف الدكتور عبد الحليم محمود، رقم 72 من سلسلة أعلام العرب: ص 52–54.

(880) **شجرة النور الزكية**، ص 187

(881) انظر الأسماء الواردة في **درة الأسرار**، ص 8 و9 و21 و24 و25 و26 و29 و35 و37 و38 و158 و169 و170 و171 و172، وفي هذه الصفحة الأخيرة جاء تاريخ وفاة الشيخ ماضي بن سلطان، وفي ص.3 يسجل المؤلف أنه من تلاميذ خديم الشيخ أبي الحسن الشاذلي.

(882) **فهرس الرصاع**، ص 90، مع السند الشاذلي عاتي الذكر وشيكا.

عن أبي الحسن علي بن عبد الواحد الأنصاري السجلماسي.

عن أبي العباس المقري : أحمد بن محمد التلمساني.

عن عمه سعيد بن أحمد المقري التلمساني.

عن محمد بن محمد بن عبد الجليل التنسي ثم التلمساني.

عن أبيه محمد بن عبد الجليل...

عن ابن مرزوق الحفيد : محمد بن أحمد العجيسي التلمساني.

عن أبي الطيب بن علوان : محمد بن أحمد التونسي الشهير بالمصري.

عن أبي الحسن البطرني : محمد بن أحمد بن موسى التونسي.

عن والده أحمد بن موسى...

عن أبي العزائم ماضي بن سلطان التونسي تلميذ أبي الحسن الشاذلي[883].

ومن الجدير بالذكر أن المعطيات الشاذلية استمرت ملامحها حية بتونس عبر الأجيال، متمثلا ذلك في تدوين أخبار امامها، ونشرها بالتأليف[884] والمقالة[885].

وفي احترام مقامه ومغارته في جبانة الزلاج بالعاصمة.

وفي الأسطوانة التي كان يدرس عندها في جامع الزيتونة[886].

---

(883) **بغية الطالبين**، للنخلي، مطبعة مجلس دائرة المعارف النظامية في مدينة حيدر أباد الدكن بالهند: ص 65–66، ونقله ابن عياد في **الأذكار العلية والأسرار الشاذلية**، المطبعة السعدية (الحجرية) بالإسكندرية عام 1288هـ: ص 122–123.

(884) من ذلك **درة الأسرار وتحفة الأبرار...** ، لابن الصباغ: محمد بن أبي القاسم الحميري، وهو منشور بالمطبعة التونسية الرسمية عام 1304 هـ في 173 ص سوى الفهرس.

ومن المخطوط: رسالة بعنوان **أصحاب أبي الحسن علي الشاذلي الأربعون**، لمؤلف مجهول الاسم.

ورسالة بعنوان **أصحاب أبي الحسن الشاذلي الأربعين، وفضائل جبل الزلاج والمغارة الشاذلية بتونس**، مؤلفها غير مذكور.

وقد وردت هي وسابقتها ضمن **رصيد مكتبة حسن حسني عبد الوهاب** اعداد الأستاذ عبد الحفيظ منصور: ص 371.

(885) من ذلك بحث للمؤرخ التونسي محمد ابن الخوجة بعنوان «الرجال الأربعون أصحاب الإمام الشاذلي، نشره في **المجلة الزيتونية**، ج 9 من المجلد 4، ص.283–286، مع نشرة تكميلية ج 10 من المجلد 4، ص.312–313.

(886) **أصفى الموارد في تهذيب نظم الرحلة الحجازية للشيخ الوالد**، عمل محمد المختار السوسي، مطبعة النجاح بالدار البيضاء : ص 46 و52.

هذا فضلا عن انتشار دعوته بالحاضرة وسواها.

إلى وفرة المرموقين من التونسيين الذين يحملون أسماء تلمح إلى التيمن بلقب أو كنية قطب رحى الثقافة الصوفية بالمغرب الكبير.

ومن أبي الحسن الشاذلي ننتقل إلى مدرسة أبي محمد صالح دفين أسفي، وكان من المنتسبين لها الشيخ أبو عبد الله محمد بن أبي القاسم السجلماسي نزيل بجاية خلال المائة الهجرية السابعة، ويقول عنه الغبريني : «صحبته كثيرا، وأخذت عنه واستفدت منه، وهو أحد من أخذت طريق التصوف عنه، عن الشيخ أبي محمد صالح، عن الشيخ أبي مدين، عن الشيخ أبي يعزى، عن مشايخهم، رضي الله عنهم»[887].

وفي أوائل المائة الهجرية العاشرة يزور تونس أبو الحسن علي بن ميمون الغماري الحسني، فيلقى ــ بنفزاوة ــ شيخ التربية الصوفية في عصره : أبا العباس أحمد بن محمد الدباسي، فكان هو أستاذه في الاتجاه الصوفي، وكان اجتماعه به أول جمادى الأخرة سنة 902 هـ[888].

الملحق الثالث

نص من رحلة ابن رشد

وهو يحتفظ بمجموعة من إجازات علماء سبتة وأدبائها لأبي الفضل التجاني من علماء تونس وأدبائها، حيث يفتتح النص باستدعائه لهذه الإجازات.

وقد أشاد به ابن رشد طويلا جزء 1735 من رحلته، ثم ختم حديثه عنه هكذا :

«(45 ب) وأصحبني ــ عند ارادة الانصراف ــ استدعاء بخطه، لآخذ به خطوط الشيوخ والأصحاب، (46. أ)، ونص الاستدعاء المذكور :

---

(887) **عنوان الدراية**، آخر ترجمة المذكور: ص.132ـ133.

(888) مخطوطة «رسالة الإخوان من أهل الفقه وحملة القرآن» لأبي الحسن علي بن ميمون الغماري الحسني، المترجم عند أبي عسكر في **دوحة الناشر**، ط. دار المغرب ص 28ـ30، ثم عند الغزي في **الكواكب السائرة**: 1 /271ـ228، من مخطوطاتها نسخة خ.ع.ك 1780 ضمن مجموع.

بسم الله الرحمن الرحيم، اللهم صل على نبيك محمد وآل محمد.

أيها السادة الأباعـــد عنـــا أقبسونـــا من نوركم بالإجـــازة
صلتـي عائـد السؤال مُجابـا فأجيـــزوا لكـــي تحوزوا مجازة
لم يحصل لنـا حقيقـة علـم قربكـم فابعثـوا إلينـا مجازه
وعدتنـا آمالنـا بلقـاكم ولعـل الأيـام تدني نجازه
وعلى الفكـر أن يقـوم بمدح فيـه أرضي تقصيـده وارتجازه
مع أني حرِّمت مدح بني الدهـ ـر فشعـري قد جازه ما أجـازه
وعـلاكم تقضي امتـداد امتداحـي واعتـلال الأفكـار يقضي الوجـازة

أنتم ــ أعزكم الله ــ العلماء بأن هذه الصناعة عند القوم من أصلح مفاخر الفاخر وأعظم مطالب الطالب، وأن هذه البضاعة في العلم من أربح متاجر التاجر وأسلم مكاسب الكاسب، ولما كانت بهذه الرتبة، وفي هذه النسبة، تشرف بالتخلق بخلائق أهلها، وتشوف للتعلق بعلائق حبلها :

مخاطبكم وخاطبكم : محمد بن علي بن ابراهيم بن محمد بن أبي القاسم بن محمد بن أبي القاسم التجاني، التونسي، وفقه الله، وإليكم طمحت هماته، وفي الأخذ عنكم والاقتباس منكم قد انحصرت مهماته، وها هو سدد سهمه للإصابة، فوفروا أسهمه من الإجابة، مرغوبين غير مأمورين، مثابين خير الثواب جزاء على اجازاتهم مأجورين، والله ــ تعالى ــ يجعل مطالبنا له خالصة، وأفعالنا ــ كلها ــ تامة لا ناقصة، بمنه.

خط هذه العجالة بتونس ــ حرسها الله ــ محمد بن علي المذكور، ليلة يوم الاثنين الحادي عشر لشهر ربيع الثاني، من عام ستة وثمانين وستمائة، حامدا لله، ومصليا على رسوله، ومسلما وراضيا وداعيا.

فلما وافيت سبتة ــ وطني ــ حامدا لله وشاكرا، عرضت هذا الاِستدعاء على جماعة أشياخنا وأصحابنا، فكتب فيه ــ نظما ــ جميع أدبائهم، ولم يحضرني الآن جملة الأجوبة، ووجهتها إليها (كذا) بجملتها، فشكر وأثنى.

فمن أجل من كتب فيها من الشيوخ : شيخنا الكاتب البليغ الفاضل، أبو القاسم القبتوري(889)، وهو من له في هذه الصناعة القدم والقدم والتقدم والرسوخ

(889) ترجمته في **بغية الوعاة**، للسيوطي مطبعة السعادة بمصر ص 242–243.

فقال : وعدل عن عروض أبياته وان التزم القافية، موصولة بغير ما وصل به السائل رويه :

(46 ب) ألبى من أهاب لان يجازى ... أبـا الـفضل المعجـز أن يجازى
أمـام معـارف وكفـى امامـا ... بحلبـة أهلهـا الغايـات جازا
ولم أر مستجـازا قبـل مثلي ... يرى هذا لديـه مستجـازا
وكيـف أجيـز واصل غايـة لم ... أجـز لمبـادىء منها مجازا
وعـدو من معيـدي بهير ... تعاطـى أن يجيـز بل أن يجازا
ولـولا حق اجـلال المجلى ... على السكـين حقـا لا مجازا
وأن لمجده باجـازة ابنـ ... ـي بعـدي منـة ما أن تجازا
لما رمت احتجابـا عن بروز ... الى ابـراز نقصي واحتجـازا
فيـا علمـا تجافي عن تعاطـي ... مجاراة له اعتمـد النجـازا
وما أن غاب عن ناديه جسمي ... فقلبـي فيـه لم يرم النجـازا
ومـن قد طبـق الآفاق صيتـا : ... مغـاربها، مشارقهـا، الحجـازا
أجازك سيدي : خلف بن عبد الـ ... ـعزيـز الغافقـي بما أجـازا
على ما سن أهـل الشأن قدمـا ... فمـا عن نهجـم أبغـى نجازا
بعـقب الست تاليـة الثمانـ ... ـين والست الميـات عدت مجازا
وعـل الله يجعلنـي مجيـزا ... برحمي منـه شاملـة، مجازا
وعـل الله يمنـح منـه رحمي ... يعـم بها المجيـز ومـن أجـازا
وبالتحميـد تتلـوه صلاة ... وتسليم حوى قولي انتجـازا

أنشدها لي قائلها، وكتبها بخطه البارع، الذي برز فيه من هذه الطائفة على العلية، واستحق ـ كما قيل ـ أن يقوم لصاحبه مقام النسبة والحلية.

وأجابه ـ أيضا ـ شيخنا أبو القاسم بنظم ثان، وأتبعه بنثر كل كاتب عنانه عنه، والتزم عروضه وقافيته لما رأى الأصحاب التزموا ذلك :

أيها السيـد الـذي طال طولا ... فأرانـا صدوره أعجـازه
وجـلا من بنـات أفكـاره ور ... دا حباهـا كمالـه أعجـازه
لم نرد بعدهـا احتجاجـا على با ... هر فضل أرت اليـه احتجـازه
وردت تستجيـز من لا أراني ... لتعاطـي مداهـم ذا استجـازه
لأبي الـفضل وأصل الغايـة المؤ ... تى وابنـي منـه أسنـى اجـازه

غير أني وان غدوت معيـــــد   يا، مقـــالا نفـــي اليـــقين مجازه
رمت تعريــف جانبــي بانتظـــام   مع من أعلامنـــا قد أجـــازه
ومكافـأة بعض إفضالـه المعـــ   جز تقصيـــد مقـــولي وارتجازه
فلـــه حمل ما يشا من انشائي   ان زيفـــه ارتضى واستجـــازه
ولــو أني لم أعص فيــه الحجـــا   كنت له عن خطابه ذا حجـــازه
(47. أ) ولقد هاج ذكره البعدلي شو   قا بقلبـــي له أجـــد نجازه
فهـــو أن غاب عن ندي علاه   الجسم ثاويـــه مديم نجازه
خلـف ثم نجل عبـد العزيـز الغـا   فقـــي المختـــط هدى الإجـــازه
بالشروط التـي متـى ما خلت منـ   ـهـا الإجـازات لم تكـن مستجـازه
صدر شعبـــان ستـــة وثمانيـــ   ـن وست من المئـــات مجازه
حامـــدا للإلاه حمد مرج   به منـــه على الصراط مجازه
وعلى مصطفـــاه أحفـــى صلاة   وسلام يباينـــان الوجـــازه
والـرضى عن كرام أهليـه والصحــ   ـب به قصدي استتم نجازه

أيها السيد العلم، والإمام الذي منه الأعلام تتعلم، والأوحد الذي بوجوده ولإجادته فخرت الصفيحة الصحيفة والرمح القلم، أبقاكم الله بسماء العلاء بدرا تحسد كماله البدور، وينادى ملا الإملاء صدرا تنشرح من الصدور بأخذهم عنه : الصدور.

ورد استدعاؤكم الذي بهر، وأبدى نظما ونثر أسر الإبداع وأظهر، فتلمح كل من مسطوره، المزري بمجود الروض وممطوره : العجب العجيب، ووالى لجلالتكم التعظيم والترحيب، وأشادوا بشكر الزمن الذي ولد منكم لطبقاتهم الأب الحاني والشقيق الشفيق والولد النجيب، وسألوا الله تعالى لكمالكم الذي هو لهذا الزمن غاية الزين : كلاءة تقيه ما يحذر على مثله من العين، وقد استمدوا الخواطر مواطر، وأمطوا بنانهم الأنابيب يعابيب، وهدوا إليكم من أبكار الأفكار وأهدوا من الأزاهر الزواهر ما تحسد العيون الآذان على اجتلائه، وترتاح الأرواح لاستجلائه، لتسقوها بجيد مجدكم الباهر على، حلي يا لها من حلي، تروق الحور، وتشوق النحور، وتود الدراري والدرر أن تحور مثلها ولن تحور، وما ألو بما منها على الأسماع تلوا، وللأبصار والبصائر جلوا، قضاء لحق مراجعة ابتدائكم، وتلبية مهيب مهيب ندائكم، وارضاء بالارتسام في أشياعكم وأودائكم.

وعرض على مكبركم الإجراء في هذا الميدان، والانبراء لمباراة سوابقه التي ما لي بها يدان، فأحجمت ـ لعلمي بفشلي ونضوب وشلي كل الأحجام، وخفت إن زحمت نهضتهم ـ على ضعفي ـ أن أكون قتيل ذلك الزحام، وتغافلت لو غفل عني متقاض (47. ب) حملني مما كلفني ما يعني، ولما لم يبلعني ريقا، ولا أوجدني للتواري وستر عواري طريقا، وأرتج أبواب الاعتذار، عما لدى من مقبولات الأعذار، وذكر بما لكم قبلي من سابق حق ما زال مني على ذكر، ولا أغفلت ولا أغفل عن الله القيام بما يجب له من شكر : أهبت من خاطري بهبيت، واستعرضت منه معسرا لا يبيت على بيت، فناجاني : أساه أنت أم حالم؟ أما أنت بشاني عالم، متى أغاث كهام، أو غاث جهام، أيعرض لمجاراة الجياد طليح حسير، وظالع كسير، ويهدى للخاطر الوقاد، زيف لا يخفى عوار عياره لدى الإنتقاد، فما برحت أسكن شماسه، وأمكن إيناسه، بما لديكم من فضل يقبل العفو، ويقيل الهفو، ويورد معتهد ارضائه من مورد اغضائه الصفو، فسمح على علاته، واستيلاء خلاته، بما فضلكم يتلقاه عند لمحه، بأتم صفحه وسمحه، منعما متطولا إن شاء الله تعالى، وهو ـ سبحانه ـ يزيد قدركم علوا، ويبقي شكركم متلوا، والسلام الكريم، المبارك العميم : عليكم ورحمة الله ـ تعالى ـ وبركاته.

* * *

وكتب فيها صاحبنا الفقيه الجليل، المتفنن، صدر الأصحاب، وقدوة أهل الآداب، الآخذ من كل فن من العلوم باللباب، أبو القاسم : القاسم بن عبد الله بن محمد الانصاري، شهر بابن الشاط[890]، حرس الله رتبته العالية، ووقى ذاته التي هي بالمحاسن حالية، وكتبه لي بخطه وأنشده لي، إلا بيتين ألحقهما فأملاهما على فزدتهما في الحاشية بخطى.

أيها المستجيـــز هاك الإجـــازة فاقتــبس نورهــا وراع الإجـــازة
أنت عمـــا حدثت عنـــه مجازى فارو مما حكـــى الـــرواة مجازة
واذا صرت من طريقــــي مجازا فاحـــو من عائـــد الصلات مجازه
واحملنها عنـــي حقيقـــة علـــم أوجب البعـــــد قربها لا مجازه
هي مثـــل السمـــاع مهمـــا توفى لازمـــــات الشروط جازت مجازه
فارو ما قد رويتـــــه ونثـــاري ونظامـــي : تقصيـــده وارتجازه

(890) ترجمته في الإحاطة: 4 /259–262.

وقليلا ما خضت في النظم ولكن — رب يوم قد ارتجزت ارتجازه
أنا لا أقرض المديح ولا أعـ — ـرف من رد مادحا أو أجازه
واذا ما حرمت مدح بني الدهـ — ـر فشعري ما جازه مذ أجازه
أنتم منهم فلم لا أوفي — مدحهم في إطالة أو وجازه
(48. أ) أي عذر لناظم حاد عن منـ — ـهج تقريظه علاكم وجازه
ذكركم في العراق أعرق لما — سار عن مصره وجاز حجازه
فحقيق وقف المديح عليكم — فقد ألقى الحجا لديكم حجازه
تاج «تجان» واصل الغاية القصـ — ـوى وقد خامت الجياد المجازه
أقض بالعذر في قضية نظم — لا أراها من القضايا المجازة
يأبا الفضل: أنت للفضل أهل — فأجيزوا لخلكم ما استجازه
واقبلوها اجازة من حقير — لو درى قدره امرؤ ما استجازه
واسمحوا لي فيما ارتكبت فإني — لست ممن تنهى إليه استجازه
وأنا استقيلكم فأقيلوا — لائذا في جوابكم بالوجازة
خطه قاسم بن عبد الإلا — ه بن محمد مستجيزا مجازه
وجرت عام ستة وثمانيـ — ـن وست من المئين الإجازه
وعلى المصطفى صلاة وتسليـ — ـم يكونان للنظام نجازه

* *

ومما نظمه ـ في ذلك ـ صاحبنا الأديب البليغ، الناظم الناثر، ذو الفضائل والمئاثر، أبو الحجاج يوسف بن أبي الحسن علي بن محمد الأنصاري، الطرطوشي[891]، وأنشده لي وكتبه لي بخطه، إلا بيتا واحدا الحقه فأملاه علي وكتبته بخطي:

يا وحيدا ءاياته في المعالي — لمجاريه أظهرت إعجازه
لك منا ركائب الشوق تحدو — حين أصبحت للعلاء حجازه
وردت منكم حقيقة نظم الـ — ـدر في الشعر لم تنظم مجازه
فرأينا صدوره في صدور — ورأينا اعجازه أعجازه
كان عندي سحر الكلام حراما — فأتاني نظامكم فأجازه

(891) ترجمته في الإحاطة: 4 /422ـ423.

أغـربت حين أعـربت عن معـــال   في اتصال الكمـــال أضحت مجازه
حسنها يقـــتضي لها طول مدحـــي   وقصوري قد اقــــــــتضى ايجازه
أخجلتنـا ـ جميعنـا ـ حين جاءت   منكـــم تستجيـــز منـــا الاجـــازة
فأجبنــــا لما أردت وللمقــــــــ   ـول في القول ـ من حيـاء ـ لجازه
يأبـــا الــفضل ثم يا واصل الغـــا   ية بل حاز خصلها ثم جازه :
إننـــي قد أنجزت وعــدك فيمـــا   شئت لما كلفتنــــــــــــي إنجازه
فارو عنـــي ما صح عنـــدكم أنـــ   ـه لي فيـــه روايـــة مستجـــازة
وبـــأي الأنـــواع أحملـــه : مقـــ   ـروه، أو مسموعـــــــه، أو مجازه
(48. ب) ثم ما قال أو يقول لساني   حين ينحـــو تقصيـــــده وارتجازه
ولتقـــل ما تشاء في ذاك لكـــن   حسب الشرط في كتـاب الوجـــازه
كاتب الطــــرس يوسف بن علي   وفي الانصار بيتـــه ذا احتجـــازه
قالها عام ستـــــة وثمانيـــــــــ   ـن وست من المئين مجازه
وبشعبـــان منـــه كان كتـــابي   قائـلا : قد أجـزت فيمـن أجـــازه
طالبــــا حين مال بي حمل جهلي   أن تمنـوا ـ من سمحكـم ـ برجـازه
ونطيـل الصلاة ـ دأبـا ـ على خيـ   ـرالبرايـــا ولا نجيـــز الوجـــازه
وعلى ءالـــه، رجــــاء بها من   كل وعـــد من النجـــاح نجازه

☼

وكتب ـ في ذلك ـ الأستاذ المقرئ، الأديب، النحوي البارع، أبوبكر محمد بن عبيدة الأنصاري، الاشبيلي، نزيل سبتة[892]، ونقلتها من خطه رحمه الله :

أيها المبتغــــى الإجـــازة حدث   عن أخيكـم محمـد بالإجـــازة
بأبي بكـــر الكنايـــــة إذ قد   يبتـــغيها المجاز ممن أجـــازه
ولــــه في عبيـــــدة نسب إن   ذكـــر ابـــن، وان عراه وجـــازه
ملجئـي الأنصار يعـزى انتسابـــا   والـــذي قالـــه بحكـــم الوجـــازه
شيخه في القرآن شيـــخ جليـــل   هو أسنـــى شيوخـــه المستجـــازه
عن علي بن جابـر وهـــو الديـــ   ـبـــاج فاسمع من مؤثـــر ايجازه
ولـــه في أيمة النجـــو شيـــخ   لم يفارقــــه منـــــذ جاز مجازه

(892) ترجمته في بغية الوعاة، ص 72.

فخر حمص، أبو الربيع أبوه   منتهى الحبر أن يكون مجازه
فليحدث محمد بن علي   عن مجل مبادر إنجازه
أي نوع من الإجازة يبغي   بعد شرط المعروف فيما استجازه
يأبا الفضل : شكركم لي قرين   مدة العمر لا أغب نجازه
خط هذا المكتوب في رجب في   عشره اللائي أبرزت أعجازه
ذاك من عام ستة وثمانيـ   ـن توالت فليس فيها حجازه
وميات ست بها أبرز اللـ   ـه تعالى لخلقه اعجازه

وقد كتب في هذا الاستدعاء غير هؤلاء من أصحابنا ممن لم أجده مقيدا عندي، فمن وقعت إليه فليلحقها إن خطر له.

* *

(49. أ) قلت : ثم وقع إلي بعد : ما كتب به ـ في ذلك ـ شيخنا الأديب الشهير، شيخ الأدباء، وإمام الشعراء، البارع الفارع، أبو الحكم ملك بن عبد الرحمن بن المرحل[893]، قال على لسان شيخنا إمام النحاة، وصدر العلماء السراة، أبي الحسين بن أبي الربيع[894] رحمهما الله، وهو لي منه مناولة وإجازة، إن لم يكن سماعا :

أكرم الله مستجيزا أتانا   منه شعر سامي السماك وجازه
صدرت عنه قطعة سحرتنا   أي سحر أحله واستجازه
أطلعت سبعة كمثل الدراري   حقرت عند رؤية أرجازه
يا أبا الفضل يا فتى ءال تجا   ن عنينا بما طلبت نجازه
إن تكن توثر الإجازة فاقبل   عن عبيد الإلاه هذي الإجازة
هو ينمي إلى قريش ويكنى   جده بالربيع، فاغد مجازه
وارو عنه ما قاله ورواه   فالكلام المنظوم فيه وجازه
وعلى الشرط في حقيقة نقل   إننا لا نجيز فيه مجازه
قاله عام ستة وثمانيـ   ـن وست من المئات مجازه
أحمد الله ثم أهدى سلامي   لرسول به أعز حجازه

* * *

(893) ترجمته في الإحاطة 3 /302ـ324.
(894) ترجمته في بغية الوعاة، ص. 319.

وقال ـ أيضا ـ مجيزا ودخل في المناولة :

ما رأينـــا كطـــالب للإجـــازه يروى أرى الـــورى إعجـــازه
واصل غايـــــة المدى بجواد أحــرز الخصل في الجيـــاد المجازه
هو يدعـى محمــدا وأبــا الــفضـ ـل لفضل لا يرتضي ايجازه
وإذا ما انتمـــــى إلى ءال تجا ن، فنجم سامي السهي ثم جازه
جاءنــــا شعــــره محلي بحلي بالـــغ من صدوره أعجـــازه
سبعـة كالنجـوم تهدى إلى النظـــ ـم ابتـداء من قائـل أو اجـازه
قل له : أيها البليـــغ سمعنـــا فاسمع الوعـــــد ثم خذ انجازه
فأخــوكم يجيــزكم عن شيـــوخ حاسنوا الشرق : شامه وحجـــازه
مثـل قاضي الجماعـة ابـن بقــي عن أبيـــه وجـــده بإجـــازه
(49ب) وعن ابن الدباج وابن الشلوبيـ ـن، أجـازاه قبـل خطب الإجـــازه
وعـن ابـن الفحـام شيـخ جليـــل علـم النـاس نسكــه وانحجـــازه
فارو عنــه، عنهم وإن شئت أيضا فارو أشعـــاره وزد أرجـــازه
إنــه ناظـــم أسن وقـــد ســ ـن من النظـــــم كنهه ومجازه
مالك ابـن المرحــل اختـــط هذا وهـــو أولى أن يستجيـــز مجازه
قالــه عام ستـــة وثمانيــــ ـن وست من المئــــات مجازه
وبحمـــــد الإلاه في كل حال وبمدح الـرسول نرجــو الإجـــازه

* * *

وما كتب به شيخنا الأديب، الفرضي، البليغ، المتقن، المحقق، الفاضل، أبو اسحاق ابراهيم بن أبي بكر التلمساني[895]، وقد تناولته منه إن لم أكن سمعته :

أنـا سكـيـت حلبـةٍ قد أجابــوا فأجـازوا ما استوهبــوا من اجــازه
لسري دعـــا لذلك نظمــــا فأجابـــوا جوابـــه بوجـــازه
ان تنـوسيت أو نسيت فأهـــل لقصوري عمـــا انتحـــوا انجازه
مظهـر العجـــز عن اجــازة ندب هو في النظـــم مظهـــر اعجـــازه
واصل في العلــوم غايـــة فخـــر حاز فيـه مدى السمـــاك وجـــازه

(895) ترجمته في الإحاطة: 1 /326ـ329.

أطلعت منه «تونس» بدر علم حاجزا عن مناظر احجازه
وعلى ذاك قد أجزت أبا الفضـ ـل أخا «تجين» الرضا ما استجازه
فتوليت منه ما كنت أولى أتولى احتجانه واحتجازه
فليحدث محمد بن علي بعد، عني على الشروط المجازه
بالذي قد رويت أو فيه روا ة قريض النظام أو ارجازه
قائلا : كيف شاء عني فأهل للذي اختار قائلا وإجازه
قاله ابراهيم بن أبي بكـ ـر بن عبد الله المرى ايجازه
بتلمسان مولد وبالأنصا ر انتساب له فحقق مجازه
وبشعبان ستة وثمانيـ ـن وست من المئين مجازه
بعد حمد الإلاه ثم على الها دي صلاة بها أو في مجازه

* * *

وما كتب به صاحبنا الأديب، الكاتب البارع، ذو الخط الرائع، والفضل الذائع، المتقن، المتفنن، أبو عبد الله محمد بن عمر بن الدراج[896]، وناولنيه إن لم يكن أنشدنيه :

حسن در نظمتموه استجازه قد أحل استرقاقنا واستجازه
(50. أ) وبه عدتم ـ امتنانا ـ علينا بصلات وعائد وإجازه
وسالتم ـ بفضلكم ـ أن تجازوا فلتجازوا بمثلها من إجازه
ان ترووا لنا أرض جدب من سما علمكم ترجت اجازه
وعلينا جواب ذاك وجوبا اذ حكمتم له بحكم الإجازه
وابتدأتم به، سراوة نفسي فليكن منكم السماح اجازة
واعرفوني : أخا اعتراف بضعف يعترى شعره ويغشى ارتجازه
وقوافي اجازتي بالتزام هي ـ فيما أرى ـ كذات الإجازه
فلك الفضل يأبا الفضل حقا حزت فيه حقيقة لا مجازه
تاج «تجان» واصل الأمد الأقـ ـصى الذي لم يصل مجار مجازه
ابن نور الدين العلي على من علا مرقب العلا وأجازه

(896) ترجمته عند الصفدي في **الوافي بالوفيات**، الطبعة الثانية : 2 /141، باسم محمد بن أحمد بن عمر، مع برنامج الوادي ءاشي ص 85 من نسخة منه مرقونة.

قد أجزنا ـ رعيا لكم ـ ما روينا   وأخذنا عن الشيوخ مجازه
واختصصنا فيه بنظم ونثر   مطلقا : ذا إطالة أو وجازه
وعلى شرط من أباح ـ الآنا ـ الإطـ   ـلاق فيها ـ ترخصا ـ وإجازه
قال هذا وخطه بيمين   لأمين يومي لقصدي انتجازه
راجيا فضل ربه فيه جازا   ه عليه بفضله واجازه :
مغربي بسبتة قصده المشـ   ـرق ينتاب شاما وحجازه
كلما شد للترحل عزما   منه حلت يد الخطوب حجازه
المسمى محمدا، وأبوه   عمر بن الدراج نال احتجازه
في قريب من الزمان ويسر   لا بعسر يحتاج فيه احتجازه
وبتاريخ ستة وثمانيـ   ـن وست من المئين مجازه
بعد عشرين ليلة قد خلت من   رجب فيه كان كتب الإجازه
ولمولاي حمد عبد لمولى   نال منه على الصراط الإجازه
وصلاة على رسول أتانا   بكتاب منه أرى اعجازه
وسلام عليكم من محب   حل نهج الوداد فيكم وحازه
صحت من خطه».

الملحق الرابع :
المخطوطات التونسيَّة بالمغرب

حرصت المكتبة المغربية ــ ككل المكاتب الهامة ــ على أن تجمع على مر العصور، عيون الكتب في كل فن، ومن كل جهة، ولهذا يوجد بها ــ إلى جانب المؤلفات المغربية ــ ذخائر ونوادر ترجع إلى مختلف العلوم، وتنتمي إلى مختلف البلدان والجهات.

وهذه لائحة للمخطوطات التونسية بالمغرب، تهتم ــ بالخصوص ــ ببعض نفائس هذه الكتب ونوادر هذه المصنفات، المحفوظة بكبريات الخزائن المغربية(*) :

1 ــ م، ح «432» : «كتاب مشكل إعراب القرآن العظيم» لأبي محمد مكي ابن أبي طالب (ابن محمد بن مختار) القيسي المقري القيرواني، نزيل قرطبة، المتوفى سنة 437 هـ (1045) م، نسخة تامة في مجلد، بخط شرقي جميل ملون.

كتبت برسم عفيف الدين عبد الله بن عمر بن عبد الله المسن، على يد ناسخها سعيد بن أحمد بن سعيد بن أبي بكر بن أسعد المعمار، وقوبلت سنة 700هـ.

عليها ملكية محمد بن أبي بكر العياشي وحفيده حمزة ابن أبي سالم، منه نسخة أخرى تحمل رقم «220» : خ.ع.، ق.

(*) سيأتي عرض هذه المخطوطات حسب الترتيب المكتبي للعلوم بالخزانة العامة بالمغرب، كما أنه سيشار للخزانات المعنية كالآتي :

خ.ع.د : قسم حرف الدال من مخطوطات الخزانة العامة بالرباط.
خ.ع.ق : قسم حرف القاف من مخطوطات الخزانة العامة بالرباط.
خ.ع.ك : قسم حرف الكاف من مخطوطات الخزانة العامة بالرباط.
خ.ع.ج : قسم حرف الجيم من مخطوطات الخزانة العامة بالرباط.
خ.ع.ح : قسم حرف الحاء من مخطوطات الخزانة العامة بالرباط.
م.م : الخزانة الحسنية بالرباط.
خ.ي : خزانة ابن يوسف بمراكش.
م.ح : مكتبة الزاوية الحمزوية بإقليم الرشيدية.
خ.ت : خزانة تمكروت بإقليم ورزازات.
خ.ق. : خزانة القرويين بفاس.

2 ـ خ، ع «ك 337» : «**الهداية إلى بلوغ النهاية**» في علم معاني القرآن، لأبي محمد مكي ابن أبي طالب الآنف الذكر.

الموجود منها الجزء الثالث الذي يبتدئ أول سورة «مريم» إلى آخر سورة «غافر».

مكتوبة على الرق بخط إفريقي مقابل من الأم الصحيحة، في 398 ص.

وقع الفراغ من الكتابة والمقابلة، لعشر بقين لربيع الأول عام خمس وثمانين وأربعمائة.

بآخرها سماع للكتاب، مكتوب بخط حازم بن محمد لعبد العزيز بن الحسن الحضرمي الميورقي، في منسلخ شهر رجب سنة خمس وتسعين وأربعمائة.

منه نسخة أخرى تحمل رقم : «خ.ع. ق.217» وتشتمل على الجزء الأول.

3 ـ م، ح = «199» : «كتاب التحصيل، لفوائد كتاب التفصيل، الجامع لعلوم التنزيل».

تأليف أبي العباس أحمد بن عمار ابن أبي العباس التميمي المهدوي نزيل الأندلس، المتوفى سنة 440هـ (1048م).

ألفه لخزانة الأمير مجاهد العامري صاحب دانية بالأندلس، ولخصه بأمره من كتابه الكبير «**التفصيل، الجامع لعلوم التنزيل**»

الموجود منه الجزء الأول، وهو مبتور الآخر، ومكتوب بخط شرقي.

يوجد الجزء الثاني والأخير منه بالخزانة العامة بالرباط رقم : 89 خ.ع.، ق.

ترجمة المؤلف في «**الصلة**» لابن بشكوال رقم : 188.

4 ـ م، ح = «93» : «**تفسير القرآن الكريم**» لأحمد بن محمد بن أحمد البسيلي التونسي، المتوفى سنة 830هـ (1426م).

جمع فيه أملاءات شيخه محمد بن عرفة التونسي في دروسه، وأضاف له زيادات من غيره.

نسخة تامة في مجلد ضخم بخط مغربي.

ورد ذكر هذا التفسير أواخر ترجمة مؤلفه في «**نيل الإبتهاج**»، ص. 77–78.

5 ــ م، ح = «89» : «كتاب الجمع الغريب، في ترتيب آي مغنى اللبيب» لمحمد بن قاسم الأنصاري التونسي الشهير بالرصاع، المتوفى سنة 894هـ (1479م)، تكلم فيه على الآيات الواقعة في شواهد المغنى لابن هشام.

السفر الأول منه، بخط مغربي.

6 ــ م، ع = «ك 95» : الجامع الصحيح لابي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري الجعفي المتوفى سنة 256هـ (879م).

نسخة تامة في مجلد واحد من 677 ص، خط مغربي مدموج مليح ملون مجدول، وقع الفراغ من انتساخه في أواسط ذي الحجة سنة 1127هـ.

وجاء في آخره بخط مغاير :

«الحمد لله، قوبل هذا الأصل المبارك، من أصل صحيح مقروء مختوم مرارا بالجامع الأعظم من محروسة تونس عمره الله بدوام ذكره، مكتوب في آخره : إنه منتسخ من الأصل الذي بمدرسة المعرض من تونس، وذكر ناسخه أنه قابله وصححه بأصل الشيخ الفقيه الأستاذ أبي محمد عبد الله بن الحسن الأنصاري القرطبي، وذكر أبو محمد هذا أنه عارض كتابه مرة وثانية بالأصل العتيق المسموع على أبي ذر الهروي فصح والحمد لله، انتهى».

7 ــ خ، ع = «ك 100» : «شرح الجامع الصحيح للبخاري»، تأليف أبي عبد الله محمد بن قاسم الأنصاري التونسي المعروف بالرصاع السالف الذكر.

اختصره من **«فتح الباري»** لابن حجر العسقلاني.

الموجود جزء منه، من أثناء كتاب اللباس إلى أول كتاب الإيمان والنذور ــ نادر ــ.

8 ــ م، ح = «192» : «ملخص الموطأ»، لأبي الحسن علي بن محمد بن خلف المعافري القابسي المالكي، المتوفى سنة 403هـ (1013م).

جمع فيه ما اتصل به إسناده من حديث مالك في الموطأ من رواية ابن القاسم.

منه نسة أخرى تحمل رقم : «1391» : خ.ق.

9 ـ م، م = «4016» : «كتاب الوفا ببيان فوائد الشفا»، لأبي محمد عبد الله بن محمد بن أحمد ابن أبي القاسم التجاني التونسي، صاحب الرحلة.

الموجود منه السفر الأول الذي جاء في آخره :

كمل السفر الأول يتلوه أول السفر الثاني : الفصل الرابع في نظافة جسمه وطيب ريحه وعرقه صلى الله تعالى عليه وآله وسلم.

وتوجد قطعة منه في مكتبة جامع الزيتونة بتونس.

انظر عن ترجمة المؤلف مقدمة **رحلة التجاني**، ص. 19ـ30.

المطبعة الرسمية بتونس 1378ـ1958.

10 ـ خ، ع = «ق 110» : «صلة السمط وسمة المرط، في شرح سمط الندي، في الفخر المحمدي»، لأبي عبد الله محمد بن علي المعروف بابن الشباط التوزري المتوفى سنة 681هـ (1282م).

الموجود منه المجلدان الثاني والثالث وهو الأخير.

خط تونسي متوسط على يد أبي القاسم بن محمد بن محمد الرعيني ثم اليكراني، فرغ من انتساخه في 12 ربيع الآخر سنة 715هـ بمدينة توزر.

11 ـ خ، ع = «د 3233» : «تحفة اللبيب في الرد على أهل الصليب»، لأبي محمد عبد الله بن عبد الله الترجمان الميورقي، نزيل تونس، كان بقيد الحياة سنة 823هـ.

ذكر في افتتاحيته أنه لما اعتنق الإسلام اشتد حرصه على أن يكتب ردا على المسيحيين واليهود يجمع بين النقل والقياس، حتى ألهمه الله تعالى لوضع هذا المختصر.

وقد استهله بذكر بلاده التي نشأ فيها، ثم رحلته إلى تونس ودخوله في دين الإسلام، وما غمره من إحسان الملك الحفصي أبي العباس أحمد صاحب تونس، وذكر بعض ما اتفق له في أيامه وأيام ولده السلطان أبي فارس عبد العزيز، الذي تحدث عن طرف من سيرته الحميدة وآثاره، وبعد هذا تخلص لموضوع الرسالة التي تناول فيها الرد على المسيحيين.

وقد صنفها في ثلاثة فصول، الأول : في ابتداء إسلامه وما غمره من إحسان

السلطان أبي العباس وما اتفق في أيامه، الثاني : فيما اتفق له في أيام ابنه أبي فارس وذِكْرِ طرف من سيرته وآثاره وقت تصنيف الكتاب عام 823هـ.

الثالث : في مقصد الكتاب من الرد على المسيحيين، ويشتمل هذا الفصل على تسعة أبواب.

في مجموع من ص. 184 إلى ص. 275، خط مغربي واضح ملون مجدول، خال من تاريخ النسخ واسم الناسخ، في حجم صغير.

أورده حاجي خليفة في **كشف الظنون**، ج 1، ص. 259، وسركيس في معجمه، ص. 630، وسماه «**تحفة الأريب في الرد على أهل الصليب**».

12 ـ خ، ع = «د2545» : «نسخة أخرى منه» تسمية **تحفة الأديب** بالدال المهملة ـ **في الرد على أهل الصليب**، ينقصها نحو الورقة في آخر الأصل المنتسخ منه.

في مجموع من ص. 105 إلى ص. 156.

خط مغربي لا بأس به سريع، على يد محمد الطيب بن عبد السلام بن الخياط بن محمد بن علال القادري الحسني، كتبه لنفسه.

13 ـ خ، ع = «ق 211» : عيون الأخبار.

مؤلفه غير مذكور، كتب عليه : «الجزء الأول والثاني من «**عيون الأخبار**»، مما ألف لبعض ملوك الموحدين، وهو السيد أبو محمد ابن السيد أبي حفص، رحمهم الله أجمعين» : يقصد الشيخ أبا محمد عبد الواحد جد الحفصيين.

يتبدئ هكذا : «**باب في صفات المجتهدين**».

ومن أبوابه : باب في الخلوة والعزلة ـ باب في الغرباء ـ باب في الفكرة ـ باب في جهد النفس ـ باب في البغي والحسد ـ باب في الجور والظلم ـ باب في التحذير من إعانة المبطل ومساعدته والشفاعة في حد من حدود الله وغير ذلك ـ باب في إقامة الحدود وترك المداهنة ـ باب في فضل ليلة القدر ووداع شهر رمضان، وهو الباب الأخير من الكتاب.

وهو يتناول أبواب الكتاب بأسلوب الوعظ، يورد الأحاديث والآثار والحكايات وبعض الأشعار.

مكتوب بخط مغربي لا بأس به على يد محمد بن سعيد الصنهاجي، كتبه للفارس المكرم الشيخ عبد المومن بن محمد الماسي، وكان الفراغ من نسخه يوم الأحد 16 ربيع الثاني سنة 1002هـ.

14 ـ م، ح = «258» : «**رسائل صوفية**» لأبي فارس عبد العزيز بن خليفة القسمطيني نشأة، التونسي دارا، المتوفى صدر العشرة الرابعة من القرن العاشر هـ.

مكتوبة بخط مغربي ضمن مجموع في حجم صغير، عدد أوراقها 56.

ترجم ابن عسكر في «**دوحة الناشر**» لصاحب هذه الرسائل، ص. 97 : ط.ف.

منها نسخة أخرى في خزانة الجامع الكبير بمدينة وزّان رقم 527.

15 ـ م، ح = «154» : «**المذهب، في ضبط مسائل المذهب**» لمحمد بن عبد الله بن راشد البكري القفصي نزيل تونس، المتوفى سنة 736هـ (1336م).

الجزء الأول منه.

16 ـ خ، ع = «ك 799» : «**شرح المختصر الخليلي**»، لأبي عبد الله محمد بن الحاج علي بن يحيى التونسي، بلغ فيه إلى «**الآذان**» وصدره بذكر أشياخه وباي تونس في عهده.

17 ـ م، ح = «132» : «**مجموعة**» تشتمل على :

أ ـ «**شرح أبيات الجمل**» لأبي القاسم الزجاجي، الشارح : علي بن محمد بن أحمد ابن حريق الأندلسي البلنسي، المتوفى سنة 622هـ (1225م).

والشرح عبارة عن رسالة بديعة مشتملة على أبيات الجمل وما يتبعها من التعاليق اللغوية والأدبية، تبتدئ الرسالة في المجموعة من ص. 3 إلى ص. 82، وهي مكتوبة بخط مغربي من أصل صعب على ناسخه قراءة بعض كلماته فترك مواضعها بياضا، وأشار لذلك في الهامش.

ذكرها «بروكلمان» في تاريخه وبين أن نسخة منها بمكتبة الأسكوريال.

ب ـ «**شرح رسالة ابن حريق**»، لأبي الحجاج يوسف بن محمد بن إبراهيم الأنصاري الأندلسي البياسي، المتوفى سنة 653هـ (1256م).

شرح فيه الرسالة الآنفة الذكر ـ وهي شرح أبيات الجمل ـ وبين غريبها وأمثالها ومشكلها، واستشهد على كل ذلك بأشعار العرب.

يبتدئ الشرح من ص. 84، إلى ص. 315.

مكتوب بخط أندلسي مليح واضح، بتاريخ أواخر رجب سنة 692هـ ـ نادر ـ.

توجد ترجمة ابن حريق في صلة الصلة رقم 263، وترجمة البياسي في بغية الوعاة، ص. 423.

18 ـ م، ح = «131» : «تحفة المجد الصريح، في شرح كتاب الفصيح»، لأبي جعفر أحمد بن يوسف الفهري اللبلي، المتوفى بتونس سنة 691هـ (1292م)، شرح فيه كتاب «**الفصيح**»، لأبي العباس أحمد بن يحيى ثعلب مولى بني شيبان، المتوفى سنة 291هـ (904م).

الموجود منه السفر الأول، وهو مكتوب بخط أندلسي ومبتور الآخر.

ألفه باقتراح من الوزير أبي بكر ابن الوزير أبي الحسن بن غالب، وقدمه لخزانة الوزير أبي القاسم ابن الوزير أبي علي.

ويزيد في أهمية هذا المؤلف أنه يوجد ـ بين مصادره التي سماها في خطبته ـ كتب يعتبر الآن بعضها صائعا، وهي :

1) **موعب اللغة** لأبي غالب تمام بن غالب المعروف بابن التياني (القرطبي، المتوفى سنة 426هـ).

2) **جامع اللغة** لمحمد بن جعفر التميمي المعروف بابن القزاز (القيرواني، المتوفى سنة 412هـ).

3) **واعي اللغة** لأبي محمد عبد الحق بن عبد الرحمن الأزدي الإشبيلي، المتوفى سنة 581هـ (1185م).

4) **كتاب السماء والعالم** لمحمد بن أبان بن سيد اللخمي القرطبي، المتوفى سنة 354هـ (965م).

وهذا الكتاب الأخير يوجد السفر الثالث منه بخزانة القرويين رقم 2646 ـ نادر.

19 ـ خ، ع = «ج 100» : «لباب تحفة المجد الصريح، في شرح كتاب الفصيح» للبلي الآنف الذكر.

اختصره من شرحه المطول «**تحفة المجد الصريح**»، يقع ثاني مجموع ـ نادر.

20 ـ خ، ع = «ك 235» : **بغية الآمال، بمعرفة النطق بجميع مستقبلات الأفعال،** لأبي جعفر اللبلي المتقدم.

تقع ضمن مجموعة، كاتبها ـ بخطة الشرقي ـ أحمد ابن علي بن إسماعيل بن هشام اللخمي ـ من ص. 47 إلى ص. 122 ـ مبتورة الأول بنحو ورقة.

21 ـ م. م «2486» : بغية الآمل، في ترتيب الكامل»، لم يسم مؤلفه، وفي «**كشف الظنون**»، ج 1، ص. 199 ينسبه لعبد الواحد الطواح آتي الذكر رقم 41، وهو غلط.

ذكر في خطبته : أن الأمير أبا زكرياء (ابن الشيخ أبي محمد ابن الشيخ أبي حفص) لما رسخت قدمه في العلوم، وكان نظر في تصانيف من العلوم : دينية وأدبية، وكان من جملة ذلك كتابا «**نوادر أبي علي القالي**» و«**كامل أبي العباس الثمالي**»، ثم قال :

وكانوا ـ رضي الله عنهم ـ لما رأوا كتاب النوادر إملاء على غير ترتيب، وأن الحرف إن طلب فيه لا يوجد عن قريب، ورسموا أن يضم شمل أشلائه، وأن يجعل كل فن منه في وعائه، فامتثل ما رسموه، وضمت الأنواع بعضها إلى بعض : من تفسير، وحديث، وموعظة، ووصية، وأدب، ولغة، وملحة، ونادرة، ومثل، وشعر على اختلاف أنواعه، وغير ذلك مما هو محصل في الكتاب... إلا ما وقع تفسيرا أو شاهدا فإنه في موضعه على ما هو عليه.

ولما تم رسمه ... وكانت تسميته : «**نزهة النواظر، في ترتيب النوادر**» : أمروا ـ رضي الله عنهم ـ أن ينحى بالكامل ذلك النحو ... وأن يجعل كل فصل من فصوله في نصابه ... من تفسير، وحديث، وغير ذلك، على نحو ما تقدم في النوادر ... إلا ما وقع شرحا للكلام، أو متدرجا تحت نظام، فإنه محرز بالباقي في محله، وإن كان من غير ضروبه وشكله، وربما حذفت الكلمة والحرف ليحسن النظم، ويتسق الرصف، لما اقتضاه التقديم والتأخير ... من غير إخلال بالمعنى ... ولما تم تحصيلا ... وكانت سمته «**بغية الآمل، في ترتيب الكامل**»، محتويا على أربعين بابا...

مجلد ضخم مكتوب بخط مغربي واضح ملون مجدول.

وقع الفراغ من انتساخه في ثاني قعدة سنة 1283 هـ، ومن مقابلته

وتصحيحه في 27 ربيع الثاني سنة 1284هـ، مكتوب من أصل تم نسخه وتهميشه في أواخر محرم سنة 646هـ ـ نادر ـ.

جاء النقل عن بغية الآمل في «**الأنيس المطرب**»، للعلمي، ص. 172، طبعة فاس 1315.

22 ـ خ. ع = «ق 156» : «**قطب السرور**»، لإبراهيم بن القاسم الكاتب المعروف بالرقيق القيرواني المتوفى بعد سنة 417 هـ (1026 م).

ذكر فيه من هجا الخمر ومن مدحها من الكتاب والشعراء، وضمنه كثيرا من الشواهد النثرية والشعرية.

خط تونسي جيد، ص. 205.

يوجد منه الجزء الأول الذي يقع في أوله بتر، وينتهي عند موسى الهادي.

توجد منه نسخ أربع في مكاتب برلين وغوطا وفيينه والإسكوريال.

تحدثت عنه مجلة «**الثريا**»، السنة الأولى العدد 12.

23 ـ م. ح = «64» : «**زهر الآداب، وثمر الألباب**»، لأبي إسحاق إبراهيم بن علي بن تميم الحصري القيرواني، المتوفى سنة 453هـ (1061م).

يوجد منه الأسفار الثاني والثالث والرابع، بخط أحمد المعافري سنة 519هـ، خط أندلسي.

كتب على هذه الأجزاء ملكيات :

على السفر الثاني ملكية محمد بن عبد الرحمن بن إبراهيم اللخمي ابن الحكيم الرندي. واسم محمد بن عبد الله بن أحمد بن إبراهيم بن عبد الملك اللخمي، واسم محمد بن عبد الملك بن أبي زكرياء من **أهل خمسين**، وعن يمين هذه الكتابات توجد ملكية رابعة هكذا : «من كتب خليل بن أيبك بن عبد الله الصفدي».

وعلى السفر الثالث إسم إبراهيم بن جماعة، وعن يمينه ملكية للصفدي كالسابقة.

وعلى السفر الرابع ملكية ابن الحكيم الآنف الذكر، وشعر للصفدي بخطه، وملكية عبد الرحمن بن عبد الجبار، وملكية حمزة بن عبد الله.

24 ـ = «خ.ي. 702» : «أبكار الأفكار»، لمحمد بن سعيد بن أحمد بن شرف القيرواني، المتوفى سنة 460هـ (1068م).

الموجود : قطعة منه بها قصيدة لأمية تزيد على مائة بيت، عارض بها خمسين بيتا لشعراء جاهليين ومخضرمين، وخمسون بيتا لأبي الطيب المتنبي، مع وصية يقدمها لابنه، تقع ضمن مجموع.

25 ـ خ، ع = «ك 1533» : «نزهة الألباب، فيما لا يوجد في كتاب»، لأبي العباس أحمد بن يوسف بن أحمد القفصي التيفاشي، المتوفى بالقاهرة سنة 651هـ (1253م).

«في الهزل والمجون»، جمع فيه نوادر وأخبارا وملحا وأشعارا ووقائع موضوعية معظمها وقع في زمان المؤلف وشاهده بالغرب والشرق، أو شاهده من أخبره به من ظرفاء الإخوان.

يشتمل على مقدمة وإثني عشر بابا، على بتر وقع بالباب الأخير.

عدد صفحاته 177، خط شرقي حسن ملون.

أورده في «**كشف الظنون**»، ج 2، ص. 592 دون أن يذكر إسم المؤلف، الذي يسمى نفسه داخل الكتاب بأحمد (ص. 5 وغيرها)، وسمي في الصفحة الأولى بأحمد التيفاشي، وفي «**إيضاح المكنون**»، ذيل كشف الظنون، ج 1، ص. 549 : إن للتيفاشي كتاب رجوع الشيخ إلى صباه في مجلدين.

توجد ترجمة المؤلف في «**الأعلام**»، للزركلي ج 1، ص. 259 وج 10، ص. 35.

26 ـ خ، ع = «ك 233» : «قطعة من كلام أبي المطرف ابن عميرة»، واسمه الكامل : أبو المطرف أحمد بن عبد الله بن محمد بن الحسن بن عميرة المخزومي المبلنسي الشقري، وأخيرا نزيل تونس ودفينها، المتوفى سنة 656هـ (1259م).

مبتورة الطرفين، ويتخللها بتر مع خرق مستطيل في بعض أوراقها. مكتوبة بالسواك بخط أندلسي عتيق جيد يميل للإدماج، عدد صفحاتها 258.

والظاهر أن هذه القطعة هي قسم مما جمعه أبو عبد الله محمد بن علي بن

هانئ اللخمي السبتي من كلام أبي المطرف، وقد تحدث عنه معجم ابن الخطيب المطبوع باسم «**الإحاطة**»، الطبعة الأولى، ج 1، ص. 64 هكذا :

«ودون الأستاذ أبو عبد الله ابن هانئ السبتي كتابته (أبي المطرف) وما يتخللها من الشعر في سفرين بديعين أتقن ترتيبهما، وسمى ذلك «**بغية المستطرف، وغنية المتطرف من كلام إمام الكتابة أبي عميرة أبي المطرف**» ـ نادر ـ.

27 ـ خ. ع = «**ك 232**» : «قطعة ثانية من كلام أبي المطرف بن عميرة».

تقع في سفر واحد مبتور الطرفين ومكتوب بخط أندلسي يميل للتونسي، وهي تتأخر قليلا عن الأولى في البداية، وتنتهي عند ص. 70 منها حين يقع بالأولى بتر، ص. 184 ـ نادر ـ.

28 ـ م. م = «**4602**» : «**ديوان**» لأبي عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي الأندلسي البلنسي، نزيل تونس ودفينها : ابن الأبار، المتوفى سنة 658هـ (1260م).

سفر متوسط بأوله بتر يسير، وهو مرتب على الحروف الهجائية حسب الترتيب المغربي، ويبتدئ أثناء الهمزة حتى حرف الياء، حيث ألحق به قصيدة على روى الباء الموحدة.

خط أندلسي حسن، به تصحيف، خال من تاريخ النسخ الذي يبدو أنه وقع حوالي عصر سقوط الأندلس.

به 224 ص، مسطرة 21، مقياس 210/270، ذكره ابن الطواح في «**سبك المقال**»، ووصفه بأنه ديوان شعر ضخم، قال : وقد طالعته وهو قليل بأيدي الناس ـ نادر ـ.

29 ـ م. م = «**2417**» : «**محاورة العرب**»، لم يذكر إسم مؤلفها الذي طرز الخطبة باسم الخليفة الحفصي عثمان بن محمد بن أبي فارس بن أحمد. ثم قال :

ولما كان ذلك كذلك فلنذكر من عجائب السفر، ما حدثني من ذكر، قال : خرجت مع رفيق لي مؤنس، أتفيأ ظلال بساتين مدينة تونس، فلما حللنا بحومة جنان النصر ... لقينا ثمانية وعشرين شبابا «كذا» ... قالوا : نحن قوم منسوبون للعرب

... ولقد جئنا الخليفة قاصدين، لائذين بحضرة أمير المومنين، ووقفت لخطابهم، متشوفا لجوابهم، فتقدم صاحب حرف الألف للمقال، ثم أخذ المؤلف يذكر الحروف إلى حرف الميم حيث وقف الكتاب، الذي يحيل ص. 187 منه على تأليف له يسمى : «**تأسي العاشقين بأنباء السابقين**»، وجاء في ص. 176 :

قال المؤلف سامحه الله : حضرت بتونس ... لبعض أعياد الخلافة الفارسية ... فشاهدت خيل المقاد، مسرجة في الأعياد، بسروج الذهب والفضة المزجين، وأجلة الخز والحرير المدبجين، وكانوا عشرة من العتاق الجياد. المربوطة للجهاد، فوصفتهم على ترتيبهم في المقاد، وضمنت الوصف عشر مقطوعات، كل مقطوعة عشرة أبيات، ثم ذكر هذه المقطوعات ...

30 ـ خ. ع = «ك 1763» : «**ديوان**»، لأبي إسحاق إبراهيم بن عبد القادر بن أحمد الرياحي التونسي، المتوفى بها سنة 1266هـ (1850م).

لم يذكر إسم جامعه، وهو مرتب على حروف المعجم حسب الهجاء المغربي.

يقع في 106 ص. خط تونسي لا بأس به، ملون مجدول.

له ترجمة موسعة في **تعطير النواحي بترجمة سيدي إبراهيم الرياحي**»، جمع حفيده الشيخ عمر الرياحي في جزأين. طبعة تونس 1320 هـ.

31 ـ خ. ع = «ك 193» : «**كناش**» لأبي عبد الله محمد بن الحاج عثمان بن محمد بن محمد السنوسي بن عثمان بن الحاج محمد بن أحمد المعروف بابن مهنية التونسي الكافي.

ابتدأه سنة 1285هـ، وهو يحتوي على جملة وافرة من الأشعار التونسية، بخط جامعه، ويقع في 343 ص.

32 ـ «تاريخ إفريقية والمغرب»، لإبراهيم الرقيق القيرواني سابق الذكر.

الموجود قطعة يترجح أنها منه، وهي مبثورة الطرفين، ويتخللها بتر.

تبتدئ من الولاية الثانية لعقبة بن نافع، وتنتهي عند ولاية أبي العباس عبد الله بن إبراهيم بن الأغلب ـ في 150 ص.، خط إفريقي.

توجد هذه القطعة بمكتبة كاتب السطور، وتحمل رقم 380 مخطوطات، ومنها نسخة مصورة على الشريط بالخزانة العامة بالرباط ـ نادر ـ

33 ـ خ. ع = «ك 2266» : «الحلل السندسية، في الأخبار التونسية»، لأبي عبد الله محمد بن محمد السراج الأندلسي المالكي الشهير بالوزير، التونسي، المتوفّى سنة 1149هـ (1736م).

رتبة على مقدمة وثمانية أبواب وخاتمة، وخصص المقدمة للفتح الإسلامي في إفريقية، ثم ذكر ملوك تونس قبل العهد العثماني، فالحكام العثمانيين، ثم فصل حوادث البلاد التونسية ابتداء من سنة 1092هـ، وقد وضعه في أربعة أجزاء وبلغ إلى سنة 1144هـ، غير أن الجزء الرابع أحرقه علي باشا، فلا يوجد منه الآن عين ولا أثر على حد تعبير مقدمة «**الكتاب الباشي**»، وبهذا صار ختام الحلل عند سنة 1137هـ.

نسخة تامة في ثلاث مجلدات ـ خط تونسي متوسط.

أورده سركيس في معجمعه، ص. 1018، وذكر أن بعضه طبع في تونس سنة 1287هـ في 368 ص.

توجد ترجمة المؤلف في «**شجرة النور الزكية**»، ص. 326.

34 ـ خ، ع = «ك 2265» : «الكتاب الباشي» في الدولة الحسينية وأخبارها البهية، تأليف الوزير أبي محمد الحاج حمودة بن عبد العزيز التونسي، المتوفى سنة 1202هـ (1788م)، نسخة تامة في مجلدين، خط تونسي متوسط.

للمؤلف ترجمة في شجرة النور الزكية، ص. 364.

35 ـ خ. ع = «د 1962» : «المشرع الملكي. في دولة أولاد علي تركي»، لمحمد الصغير بن يوسف الباجي، الموجود منه : الجزء الأول الذي يليه في أول الثاني : «**ذكر قدوم سلطان وأخيه محمد الصغير أولاد عمار**».

36 ـ خ. ع = «ك 1238» : «الأنوار السنية، في آباء خير البرية»، تأليف محمد بن عبد الرفيع بن محمد الشريف الجعفري الأندلسي المرسي المالكي، نزيل تونس، المتوفى يوم الإثنين لثلاثة مضين من رجب سنة 1052 هـ.

حصر الكلام فيه في ثمانية فصول وتتميم وخاتمة، الفصل الأول : في ذكر فضل العرب. خصوصا قريش ومضر وكنانة.

الفصل الثاني : في طهارة النسب النبوي الشريف.

الفصل الثالث : في ذكر هذا النسب الكريم من مبدئه إلى منتهاه.

الفصل الرابع : في ذكر شيء من تعريف رجال النسب النبوي الشريف، وضبط بعض ما استعجم من أسمائهم.

الفصل الخامس : في ذكر نسب أصحابه العشرة رضوان الله عليهم، وأين يلتقي كل واحد منهم مع السيد الرسول في نسبه الشريف صلى الله تعالى عليه وآله وسلم.

الفصل السادس : في ذكر شيء مما قيل في إيمان آبائه الكرام عليهم الصلاة والسلام.

الفصل السابع : في ذكر العقب من بعض أولاد مولانا الإمام أبي محمد الحسن رضي الله عنه.

الفصل الثامن : في ذكر العقب من بعض أولاد مولانا الإمام أبي عبد الله الحسين رضي الله عنه.

تتميم : ذكر فيه من جاء إلى المغرب من الأشراف الحسنيين والحسينيين والعباسيين على ما ذكره الشريف النسابة الجواني.

خاتمة : ألم فيها بحياته وحياة المدجنين بالأندلس قبل الجلاء عنها، وتحدث عن تعلمه للعربية وتلقينه الإسلام سرا على والده، ثم ذكر جلاء الأندلسيين عن فرنسا وإسبانيا إلى بلاد الإسلام، ومنهم المؤلف الذي نزل بتونس، وختم بذكر الداخلين إلى الأندلس منذ فتحها أشرافا وغيرهم، وفي هذه الخاتمة معلومات أخرى عن تونس وحياة المؤلف بها.

قال في آخره : «وقع الفراغ من جمعه وتحرير فصوله وكتبه، عشية يوم الجمعة الزهرا، بحضرة تونس العلية الخضرا، سادس شعبان المعظم الكريم، من عام أربعة وأربعين وألف ... وجاء هذا داخل إطار مذهب :

ثم يقول جامعه وكاتبه عفا الله عنه، نسخت هذه النسخة الشريفة من نسختي الأصلية. برسم الأخ في الله المحب الأود الشريف أبي الحسن علي النوالي المدعو بالسراج الأندلسي، نائب نقيب الأشراف حين التاريخ بتونس.

عدد صفحاته 363، خط أندلسي حسن ملون مقابل على يد المؤلف، فقد كتب بالصفحة الختامية :

«بلغت المقابلة جهد الطاقة بالأصل المنتسخ منه، وذلك على يد جامعة»، وأسفل هذا يوجد ما نصه :

«الحمد لله تعالى، وكان الفراغ من هذه النسخة الشريفة المباركة أواخر شعبان المكرم المؤرخ به في الأصل، والله ولي التوفيق، مصليا ومسلما ومحوقلا وحامدا، آخرا ووسطا وأولا، كتبه جامعه عفى عنه آمين».

وإثر هذا : «عدد أوراقه ــ والله أعلم ــ 182».

وبعده : توفي مؤلفه يوم الإثنين لثلاثة مضين من شهر الله رجب الحرام عام إثنين وخمسين وألف.

توجد مقتبسات من النسخة ذاتها في «**مقدمة الفتح من تاريخ رباط الفتح**» لمحمد بوجندار، حيث نقل عنه وصف حالة المسلمين المدجنين بالأندلس، وعن مقدمة الفتح أورد الأمير شكيب نفس المقتبسات في «**حاضر العالم الإسلامي**» ج 2، وفي «**الحلل السندسية**»، ج 1، ص. 380–382 ــ نادر ــ.

37 ــ خ، ع = «ق 215» : «معالم الإيمان، وروضات الرضوان، في مناقب المشهورين من صلحاء القيروان»، لأبي زيد عبد الرحمن ابن أبي عبد الله محمد الأنصاري الأسيدي، المعروف بالدباغ، القيرواني، المتوفى سنة 699هـ (1300م)، يشتمل على 429 ترجمة، ويقع في مجلد مكتوب بخط مغربي متوسط واضح سنة 1079 في 221 ص.

38 ــ م، م = «1411» : «كتاب التكملة لكتاب الصلة»، لابن الأبار المتقدم الذكر.

نسخة جيدة تامة بخط أندلسي متقن جميل، معارضة بأصل المؤلف على يد كل من محمد بن أبي بكر الأنصاري التلمساني وسعيد بن حكم بن عمر بن حكم القرشي.

كاتبها بخطه من أصل المؤلف هو محمد بن أحمد الفهري ابن الجلاب الـمري الأصل، التونسي النشأة والسكنى، المتوفى ــ شهيدا ــ سنة 664هـ (1266م)، تقع في مجلد ضخم في 427 ص.

وقد كتب على الصفحة الأولى بخط أول المصححين وهو التلمساني ما يلي :

«عارضت جميع كتاب التكملة هذا من أوله إلى آخره بالمجلس المكرم العالي، الرياسي، العلمي، العملي، الحكمي، القرشي، أبقاه الله للعلم يظهره وينشره، وكانت هذه النسخة بخط الفقيه الكاتب، البارغ، المحدث، الضابط، أبي عبد الله محمد بن أحمد الفهري ابن الجلاب، أكرمه الله وحفظه، يمسك على ما أخرجه المؤلف من مبيضته، وذلك من أول الديوان إلى اسم أبي عبد الله بن حميد من حرف الميم، وأمسك علي في باقي الديوان المبيضة المذكورة، قال هذا وكتبه محمد بن أبي بكر الأنصاري التلمساني وفقه الله لما يرضاه، ضحاء يوم الجمعة العاشر من جمادى الآخرة، سنة إحدى وستين وستمائة، بثغر منورقة، حاطه الله وعصمه، وقصف عدوه وقصمه، والحمد لله كثيرا، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وسلم تسليما».

ثم جاء آخر الصفحة الأخيرة بخط ثاني المصححين وهو ابن حكم ما يلي :

«تصفحت هذه النسخة، وبلغت في تتبعها وتقصيها الغاية، وكل ما استريب به منها نظر في المبيضة وأصلح، فهي الآن ـ والحمد لله ـ في غاية الصحة، نفع الله بها بمنه، قاله وكتبه عبد الله: سعيد بن حكم بن عمر بن حكم القرشي، في الخامس عشر جمادى الأولى (سنة اثنين وستين وستمائة، بقصبة ثغر منورقة)...»

وأسفل هذا : «كمل الكتاب ـ والحمد لله ـ بخط مخرجه من الأصل نفعه الله به هـ»، وعلى الصفحة الأولى ثلاث ملكيات كالتالي :

...سعيد بن سيد الناس الربعي ثم اليعمري هداه الله بالهدى ووفقه للتقوي»...

«ثم لابنه حكم بن سعيد أسعده الله وحكم له برضاه».

«... لله في يد عبده الفقير الحقير الحسن بن ... كان الله له بمنه و... غربته بجاه ...»

39 ـ خ، ع = «ك **358**» : «نسخة أخرى منها»، يوجد منها المجلد الأول بخط أندلسي جيد عتيق مصحح.

مبتورة الأول بنحو ورقة، وتنتهي أثناء تراجم المحمدين : ص. 352.

وتفيد كتابة في آخرها أنها فرع ـ بواسطة ـ لنسخة المكتبة الملكية الآنفة الذكر.

40 ـ خ. ع = «ك 214» : «نسخة أخرى منها»، تشتمل على السفر الأول بخط أندلسي جيد مقابل، وعليها ملكية يحيى بن محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد اللخمي العزفي.

تتناول حرف الألف، وتقع في 296 ص.

41 ـ م، م = «105» : «سبك المقال، لفك العقال»، لأبي محمد عبد الواحد ابن محمد بن الطواح التونسي الذي كان بقيد الحياة سنة 718 هـ.

يحتوي على 26 ترجمة بعد فصل تصديري في معرفة العلم وشرفه، وهو يترجم فيه لطائفة من مشاهير الصوفية ممن عاصره أو قارب عصره، ويطرز تراجمهم بذكر سيرهم ونبذ من كلامهم، كما ترجم لزمرة من العلماء والأدباء وفيهم من لقيهم وأخذ عنهم، أو وفدوا على بلدته، وهذه أسماء المترجمين بالكتاب :

أبو محمد عبد العزيز بن أبي بكر القرشي المهدوي ـ أبو مدين شعيب بن الحسين الأنصاري الأشبيلي دفين العباد ـ أبو الحسن علي بن محمد بن عبد الجبار الحسني «الشاذلي» ـ أبو الحسن علي بن أحمد التجيبي المعروف بالحرالي ـ محمد بن علي الحاتمي : محيي الدين ابن العربي ـ أبو الحسن علي بن عبد الله التميري ـ أبو الطاهر إسماعيل بن يلارزك الركراكي ـ أبو محمد عبد الله بن محمد المرجاني الصقلي الأصل، القرشي النسب ـ محمد بن عبد الله بن خلف القيسي الشهير بابن العطار ـ أحمد بن يوسف السلمي الكناني ـ عمر بن محمد بن علوان الهذلي ـ علي ابن محمد الرماني ـ علي بن إبراهيم بن محمد التجاني ـ محمد بن أحمد التجاني ـ علي ابن محمد البودري الهواري ـ محمد بن يعقوب المستاري، التلمساني الدار، التونسي القرار ـ أبو الطاهر بن يحيى بن سرور القرشي ـ محمد بن عمر بن رشيد السبتي ـ أبو القاسم بن أحمد بن عميرة المخزومي ابن أبي المطرف ـ أبو عبد الله بن شلبون ـ عبد الله بن محمد بن هارون القرطبي الولادة، التونسي الوفاة ـ أبو الحسن حازم بن محمد بن حازم القرطاجني الأنصاري ـ أبو عبد الله بن الصالح أبي تميم ـ أحمد بن محمد بن القصيرة الإشبيلي ـ محمد بن عمر بن غرداء التوزري ـ يحيى بن أبي أهيم المعافري الشهير بابن الحاج الطبيب المزاول، الشاطبي النجار.

يقع في حجم صغير، خط مغربي مليح يميل للأندلسي، به ورقات 113، ووقع الفراغ من انتساخه سنة 1018 هـ.

ورد النقل عن هذا الكتاب من طرف أحمد زروق أوائل شرح نونيه الششتري، ثم في «**نفح الطيب**» عند ترجمة الأخير.

42 ـ خ. ع = «ك 1376» : «سمط اللآل، في بيان ما اشتمل عليه كتاب الشفا من الرجال»، للشيخ قويسم بن علي التونسي المتوفى سنة **1114** هـ.

يقع ـ أصالة ـ في **11** مجلدا، يوجد منها المجلدات الأربعة الأولى، يقف الرابع عند ترجمة عامر بن شراحيل الشعبي من حرف العين، «خطوط تونسية مختلفة».

منه نسخة تامة في المكتبة الأحمدية بجامع الزيتونة.

43 ـ خ. ع. ك = «1102» : «شرح قصيدة في المفتين الحنفية بتونس»، النظم والشرح لمحمد بيرم الثاني التونسي المتوفى سنة **1247**هـ (**1831**م).

يقع ضمن مجموع يشتمل ـ أيضا ـ على قصيدة لنفس المؤلف في سلاطين آل عثمان.

44 ـ م. م = «260» : «كتاب السياسة»، لأبي بكر محمد بن الحسن الحضرمي القروي المعروف بالمرادي. قاضي مدينة أزكد بصحراء المغرب، وتوفي على قضائها سنة 489 هـ (1096 م).

يشتمل على ثلاثين بابا، ويقع أول مجموع.

توجد ترجمة المؤلف في الصلة لابن بشكوال رقم **1326**.

45 ـ م، م «1678» : «زهرة الأفكار، في جواهر الأحجار» لأبي العباس أحمد التيفاشي المتقدم الذكر، ضمنه دراسات مركزة لطائفة من الأحجار الكريمة التي تبلغ **25** حجرا موزعة على **25** بابا، أورده سركيس في معجمه.

46 ـ م، ح = «80» : «رسالة في العمل بالإسطرلاب»، لأبي الصلت أمية بن عبد العزيز بن أبي الصلت الأندلسي الداني، المتوفى سنة **529** هـ (**1135** م).

ألفها برسم خزانة أبي الطاهر يحيى بن تميم بن المعز بن باديس (من ملوك الدولة الصنهاجية بتونس)، تقع أول مجموع.

47 ـ خ. ع = «ح 31» : «غنية الطالب في تقويم الكواكب»، لأبي

علي حسين قصعة بن محمد بن الحسين الحنفي التونسي، تقع أول مجموع، وفرغ من تأليفها سنة 1091 هـ.

بها ورقات 153، خط تونسي متوسط.

48 ـ م. م = «1044» : «**تدبير الأطفال**»، لأبي جعفر أحمد بن إبراهيم ابن أبي خالد القيرواني المعروف بابن الجزار، المتوفى سنة 395هـ (1004م).

قال في خطبته : «إن معرفة سياسة الصبيان وتدبيرهم باب عظيم الخطر، جليل القدر، ولم أر لأحد من الأوائل المتقدمين المرضيين في ذلك كتابا كاملا شافيا، بل رأيت ما يحتاج علمه ومعرفته من ذلك متفرقا في كتب شتى، وأماكن مختلفة، مما لعل بعض الناس عرف بعضه وجهل بعضه، ولعل بعضهم قد عرف ذلك كله، ولم يعرفه من أسهل طرقه، وأقصر سبله، وأقرب مآخذه، فلما كان الأمر في ذلك على ما وصفنا : رأيت أن أجمع المفرق من ذلك في الكتب الكثيرة، وألفت بعضه إلى بعض في هذا الكتاب، كالذي يؤلف من الجوهر إكليلا بهيا، وينظم منه عقدا حسنا، وضمنه جميع ما علمت أن جالينوس قاله في ذلك، فأضيفه إلى ما أجمعه من الكتب مبوبا، وجملة أبوابه إثنان وعشرون بابا».

وبعد هذا ذكر منهج الكتاب في هذه العبارات :

«وذلك أنا ذكرنا ما نحفظ به الصبيان على صحتهم الطبيعية وحسن العناية بهم، وجودة التدبير لجسم المرضعة ليصلح اللبن ويجود هضمه في أبدانهم، ثم قفوت ذلك بذكر الأعراض التي تعرض للصبيان من وقت ولادتهم إلى أن يحتملوا، وطريق المداواة لهم على سبيل الحيلة للبن».

وهذه أبواب الكتاب : «الباب الأول : في تدبير الأطفال عند خروجهم من الرحم.

الثاني : في صفة الظئر الذي يحتاج لرضاع الصبيان.

الثالث : في صفة لبن الظئر.

الرابع : في الأطعمة والأشربة التي يدبر بها المرضعة.

الخامس : في سبب قلة اللبن وتغير لونه.

السادس : في تدبير المرضعة القليلة اللبن وإصلاحه.

السابع : في الأعراض التي تعرض للصبيان في كل درجة من أسنانهم.

الثامن : في السعفة والرية المتولدة في رؤوس الصبيان.
التاسع : في الداء المسمى الداوس العارض للصبيان وعلاجه.
العاشر : في الصرع العارض للصبيان.
الحادي عشر : في السهر العارض للصبيان.
الثاني عشر : في الرطوبة السائلة من آذان الصبيان.
الثالث عشر : في زوال الحدقة، وهو الحول العارض للصبيان.
الرابع عشر : في الوجع العارض للصبيان.
الخامس عشر : في القروح العارضة في أفواه الصبيان.
السادس عشر : في السعال العارض للصبيان.
السابع عشر : في القيء والإختلاف العارض للصبيان.
الثامن عشر : في الحصيات والدود التي تتولد في أمعاء الصبيان.
التاسع عشر : في نتوء السرة العارض للصبيان.
العشرون : في الحصا المتولد في متانات الصبيان.
الحادي والعشرون : في البثر والقروح والحكة العارضة للصبيان.
الثاني والعشرون : في الأمر بتأديب الصبيان الآداب الجميلة في الصغر.

وعند هذا الباب الأخير يقف الموجود من الكتاب الذي يقع ثالثا ضمن مجموع، في 43 ص، وهو من النوادر.

49 ـ خ. ع = «ك 938» : «كتاب طب الفقراء والمساكين»، تأليف أبي جعفر ابن الجزار الآنف الذكر، اختصره من كتابه **زاد المسافر**.

يشتمل على 80 بابا، ويقع خامس مجموع مكتوب أغلبه بخط محمد بن عبد العزيز الدادسي، من ص. 83 إلى ص. 134 ـ نادر ـ.

50 ـ م، ح = «9» : «كتاب المنافع البينة، وما يصلح للأربعة الأزمنة»، لمحمد بن علي بن عبد الرحمن بن أحمد بن عبد الله بن محمد المكنى بنميس ابن عبد الله بن بلقين بن باديس بن حبوس الصنهاجي، ألفه لعمه الأمير الحسن بن يحيى الصنهاجي ورتبه على ثمانية أبواب :

يقف الموجود منه أثناء الباب الرابع، ويقع في 12 ورقة ضمن مجموع بخط مغربي ـ نادر ـ.

51 ــ خ، ع = «ك 1568» : «شرح ألفية ابن سينا» في الطب، لأبي العباس أحمد بن عبد السلام الصقلي الشريف الحسيني التونسي، المتوفى سنة 822 هـ ــ قيده عنه بعض تلاميذه.

يقع في جزأين، يشرح الأول القسم العلمي في 201 ص، ويشرح الثاني القسم العملي في 186 ص، مع تصدير كل جزء بفهرس.

خط تونسي لا بأس به.

أورده أحمد بن محمد بن مهنا صدر شرح ألفية ابن سينا، وقال إنه المرجوع إليه في هذا العلم بحضرة تونس ــ نادر ــ.

52 ــ خ، ع = «ج 87» : «العز والمنافع للمجاهدين بالمدافع»، وضعه بالإسبانية إبراهيم غانم الشهير بالإسبانية بالرباش ابن أحمد غانم الأندلسي، نزيل تونس، وترجمه للعربية أحمد بن قاسم بن أحمد بن الفقيه قاسم بن الشيخ الحجري الأندلسي، نزيل المغرب، ثم تونس سنة 1048هـ (1638م).

انظر عن وصف الكتاب «**ظاهرة تعريبية في المغرب السعدي**»، مجلة اللسان العربي ــ العدد الأول ــ السنة الأولى ــ.

53 ــ م. م = 9575 : ملخصات من مطالع السعود. وفتح الودود. على تفسير الإمام أبي السعود»، تأليف الشيخ محمد بن عبد الله زيتونة الشريف المنستيري ثم التونسي، المتوفى عام 1138.

الموجود سفر من أواخرها : يبتدئ من أوائل سورة ق، إلى أن ينتهي آخر سورة التغابن، على بتر يتخلله.

خط مغربي جميل ملون، كتبه ــ برسم الباي التونسي علي باشا : عبد القادر بن عبد الرحمن السلوي اللقب، الأندلسي الأصل، الفاسي البلدة، نزيل تونس، وفرغ من كتابة هذا السفر عشية الثلاثاء 29 ربيع النبوي، عام 1165.

54 ــ خ. ع. ك 2338 : الاكتفاء في أخبار الخلفاء»، لأبي مروان عبد الملك ابن الكردبوس التوزري، كان بقيد الحياة أواخر المائة الهجرية السادسة ــ منه نسخ أخرى بالمكتبة الملكية وتطوان.

خ. م. ز 1169 : «الجوهر الثمين في نخب سيرة الأمين» مؤلفه عبد النبي بن جماعة المفتي بالقدس الشريف.

نسخة خزائنية بخط شرقي رقعي مليح، ملون بمحلول الذهب، مجدول مزخرف الطالع، خال من تاريخ التأليف، وقع الفراغ من انتساخه أواخر ربيع الأول سنة 976 هـ.

مسفر في تجليد تونسي جميل، ثم وضع داخل غشاء لطيف، كتب بداخله ـ على لوحة مزخرفة زخرفة تونسية ـ إهداء الكتاب إلى حضرة باي تونس محمد الهادي باشا، في شعر من أربعة أبيات، بتوقيع المسفر : محمد بن عمر المورالي، عام 1322 هـ.

55 ـ م. م = 114: «شرح قصيدة البردة البوصيرية» لأبي العباس أحمد بن محمد بن عبد الرحمن الأزدي (التونسي) شهر بالقصار، كان بقيد الحياة بعد عام 790هـ. خط مغربي مستحسن خال من تاريخ التأليف والنسخ واسم الناسخ، ببعض أوراقه تلاش وتقطيع.

ورد ذكره في ترجمة مؤلفه من «**نيل الإبتهاج**»، ص. 74.

56 خ.ت. 1861 : «شرح فرائض الحرفي»، تأليف أبي عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله بن عرفة الورغمي التونسي المتوفى عام 1400/803.

بخط تونسي مبتور الآخر، وبأوله سماع لمحمد بن أحمد بن بلال اللواتي ـ تلميذ المؤلف ـ بتاريخ 5 شوال عام 756هـ.

57 ـ خ. ع، ك 826 : «اختصار نوازل البرزلي» لأبي العباس حلولو: أحمد بن عبد الرحمن اليزليتني القروي ـ بخط مشرقي.

58 ـ «غنية ذوي الحاجات، في معرفة تقدير النفقات»، تأليف أبي عبد الله محمد بن منصور قشور الجبالي التونسي المتوفى عام 1024، أو بعيدها.

ذكر في خطبته أنه لم يقف لأحد من المشايخ القدماء والمتأخرين على تأليف في معرفة تقدير النفقات، على ما استمر عليه العمل في ذلك بتونس وسائر عملها من البلاد الإفريقية، وإنما يتلقونه تلقيا وإملاء، وأن شيخه العالم، الورع، النحرير، الشهاب، أبا العباس أحمد ابن الشيخ، الصالح، العلامة، أبي محمد عبد الكريم المرساوي (التونسي) لما أصابه المرض الذي توفي فيه، أوائل صفر الخير من عام إثني عشر وألف، عزم عليه ورغب منه قبول وظيفة تقدير النفقات، وذكر له أنه تعين قبوله

عليه، وأنه يخشى ضياعه بهجوم الموت عليه، إذ لم يكن فيه تأليف يرجع إليه، فأسعفه لمطلوبه، فأملى ـ حينئذ ـ الشيخ الشهاب أبو العباس المذكور على المؤلف جميع ما يتعلق به أملاء نحوا من ستة أشهر، مدة مرضه الذي توفي فيه، ولما وقع الطاعون بتونس خشي المؤلف مما خشي منه شيخه أبو العباس المذكور، فوضع هذا التقييد المذكور، الذي يدوم نفعه على مر الأعوام والشهور، ورتبه على مقدمة وستة أبواب وخاتمة.

ـ المقدمة في معرفة قدر الطعام المفروض، وقدر النفقة للكبير والصغير، والغني والفقير، وتغليب القمح على الشعير، وكيفية استخراج الواحد من الأسعار المتعددة إذا عرض ذلك في أعوام أو شهور، لمن وجبت عليه نفقة على ممر الليالي والأيام والدهور.

ـ الباب الأول في نفقة أهل الحواضر.

ـ الباب الثاني في نفقة أهل القرى التي بها الأسواق.

ـ الباب الثالث : في نفقة القرى التي ليس بها أسواق.

ـ الباب الرابع : في نفقة البوادي وأهل العمود.

ـ الباب الخامس في كسوة جميع من ذكر من أهل البدو والحضر.

ـ الباب السادس في نفقة الختان والأعراس لجميع الناس.

ـ والخاتمة في معرفة قدر أجر المعلمين للولدان، لقراءة القرآن، في السور المعلومة للحداق، وفي مهبة الأعياد والميلاد، وتسمية الماعون الواجب في القوام، مما لا غناء عنه على مر الليالي والأيام، ومعرفة تدوين الأسعار في أي مصر أردت من الأمصار.

أوله : الحمد لله العليم الخبير، الواحد في الملك والتقدير ...

يقع آخر مجلد صغير يشتمل عليه وعلى التصديرات الآتية : من ص. 110، إلى ص. 133، مسطرته 15، مقياسه 160/210، مكتوب ومقابل من خط مؤلفه.

وهو مصدر بإيضاحات مطولة تبلغ نحو أربعة أضعافه في موضوع تدوين الأسعار، وهي مدونة كما يلي :

1 ـ جداول تقدير النفقات لأولاد الضعفاء، وقريبي الحال، والمتوسطين، والأغنياء، من ص. 2 إلى 5.

2 ـ دفتر لأسعار الطعام الشهرية بتونس ـ أي القمح والشعير ـ ابتداء من رجب عام 981 إلى محرم فاتح عام 1053: من ص. 6 إلى ص. 81.

واضعه الأول هو الشهاب أبو العباس بن عبد الكريم المذكور : من رجب 981 حتى محرم فاتح عام 1011، من ص. 9، إلى ص. 37، منتسخ من خط واضعه، ثم زاد عليه قشور مؤلف الغنية حتى صفر الخير عام 1024، من ص. 37 إلى ص. 59، مكتوب من خطه.

وأخيرا تممه محمد عنان ابتداء من ربيع النبوي عام 1024 حتى محرم فاتح عام 1053، من ص. 59 إلى ص. 81.

ويستفاد من ص. 59 أن محمد عنان الآنف الذكر هو الذي أخرج هذا الدفتر، وقد صدره بمقدمة ـ من ص. 6، إلى ص. 9 ـ ذكر فيها أنه لما تولى وظيفة تقدير النفقات، نزولا عند رغبة شيخه قشور الآنف الذكر الذي أراد الكرة إلى مكة المشرفة، أخرج له هذا الأخير من ذخائره مكتوبا يحتوي على مقيدات الشهاب ابن عبد الكريم الآنفة الذكر، ويشتمل آخره على تآليفه الغنية...

ومن حسنات هذا الدفتر أنه مطرز في كثير من هوامشه بعدد مهم من الأحداث التونسية.

3 ـ دفتر لأسعار الطعام السنوية بتونس ـ أي القمح والشعير ـ ابتداء من النصف الأخير لعام 981، إلى متم عام 1052، من ص. 86 إلى ص. 95، وهو منتسخ من خط قشور المذكور.

المجلد كله مكتوب بخط تونسي مليح ملون، كاتبه فيما يظهر هو محمد عنان المذكور.

ورد ذكر المؤلف قشور بإيجاز في شجرة النور الزكية ص. 292.

تحتفظ بهذا المخطوط خزانة جامع هذه الشذرات.

59 ـ م، م = 2091 : «**المختصر الأصلي**» لابن عرفة المتقدم الذكر، مجلد ضخم بخط مغربي لا بأس به ملون يميل للمجوهر، خال من تاريخ التأليف والنسخ واسم الناسخ.

60 ـ م، م = 374 : «**اقتطاف الزهر واجتناء الثمر**»، لأبي الحسن علي بن محمد بن علي بن بري التازي، المتوفى عام 1330/730، بخط مغربي حسن

منوع : عام 1121 هـ، وهو مختصر من كتاب **زهر الأداب** للحصري القيرواني.
منه مخطوطة أخرى بنفس المكتبة رقم 2544.

61 ـ م = «م 9153» : «بشائر أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان»، لحسين خوجة بن علي بن سليمان الحنفي، المتوفى عام 1169 هـ.

مجلد مبتور الأول، بخط مغربي جميل ملون، مذيل بقصيدة في مدح الباي صالح والي قسنطينة.

62 ـ م. م = 6451 : «مجموعة» بها : أ ـ أوجز السير... لابن فارس ؛ ب ـ **شرح مشكلات من صحيح البخاري** للسنوسي ؛ ج ـ **التثبيت...** للسيوطي. ؛ د ـ **تقاييد.** كتب الجميع ـ بخطه في مدينة فاس ـ محمد بن أبي الفضل خروف التونسي، وفرغ منه فجر يوم السبت 19 ربيع الثاني عام 949 هـ، وخطه مغربي فاسي مدموج.

البَابُ الرّابعُ

مُنوّعاتٌ موضوعيّة

الفصل الأول

المولدُ النّبويّ الشّريف
في المغرب المريني

الفصل الأول

المولد النبوي الشريف في المغرب المريني

تصميم البحث

مدخل ـ الاحتفالات المرينية بالمولد النبوي ـ الاحتفالات الشعبية بالمولد النبوي ـ أصداء الحفلات المولدية في أدب الفترة المرينية ـ تجاوب جهات من الغرب الإسلامي مع الحفلات المولدية المرينية ـ موقف علماء المغرب من عمل المولد النبوي.

مدخل

أولا : وجد الاحتفال بالمولد النبوي منذ عهد الفاطميين بمصر، حيث كانوا يحتفلون به ضمن ستة مواليد، وهي مولد الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، ومواليد آل البيت عليهم السلام : علي بن أبي طالب، والحسن، والحسين، وفاطمة الزهراء، والسادس : مولد الخليفة الحاضر[1].

ويقص رحالة أندلسي[2] ـ عام 579 هـ 1183 م ـ أن مقام مولد السيد الرسول ـ صلوات الله عليه وآله ـ بمكة المكرمة يفتح في شهر ربيع الأول، ويوم الاثنين منه بالخصوص فيدخله الناس كافة، حيث ان الولادة الكريمة وقعت في يوم الاثنين من هذا الشهر، ويضيف البعض[3] لهذا ـ ممن كان يعيش أوائل القرن السابع

(1) «**المواعظ والاعتبار، بذكر الخطط والآثار**» للتقي المقريزي، مطبعة الساحل الجنوبي الشياح، لبنان مج 2، ص. 389.

(2) ابن جبير في «**رحلته**» ـ مطبعة السعادة، مصر، عام 1326هـ/1908م ـ ص.87ـ88.

(3) أبو العباس العزفي في «**مولده**»آتي الذكر، خ، ع، ك، 1469 ـ ص. 23

للهجرة ـ أن يوم المولد النبوي يتخذ عطلة عامة بهذه المدينة، وتفتح فيه الكعبة المشرفة ليؤمها الزوار.

وكان أمير «اربل» الملك المعظم : مظفر الدين كوكبري صهر صلاح الدين، مولعا بعمل المولد النبوي، عظيم الاحتفال به، وقد توفي عام 630هـ/1232م[4].

ثانيا : ثم كان أول من ندب لهذا الاحتفال بالمغرب، هو قاضي سبتة أبو العباس أحمد بن القاضي محمد بن أحمد اللخمي ثم العزفي السبتي، المتوفى عام 633 هـ/1236 م[5]، وهو يذكر في مقدمات كتاب «**الدر المنظم**»[6] ـ الذي ابتدأ تأليفه ـ الحافز له على الدعوة لهذا الاحتفال، فيستعرض المواسم التي دأب المسلمون ـ بالأندلس وسبتة ـ على الاحتفال بها، ويتابعون فيها المسيحيين في اقامة «النيروز»[7] و«المهرجان»[8] و«وميلاد السيد المسيح عيسى»[9] عليه السلام، فدفعه هذا أن يفكر فيما يشغل عن هذه البدع، ويقضي على هذه المناكر ولو بأمر مباح، فوقع في نفسه ان ينبه أهل زمنه على الاعتناء بمولد الرسول سيدنا محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم، ثم رأى أن تلقين ذلك للنشء الصغير أنجح وأنفع، فأخذ يطوف على الكتاتيب القرآنية بسبتة، ويشرح لصغارها مغزى هذا الاحتفال، حتى يسري ذلك لأبائهم وأمهاتهم بواسطتهم، ثم دعا الى تعطيل قراءة الصبيان يوم هذا المولد العظيم،

---

(4) «**وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**» لابن خلكان، «مطبعة بولاق»، 1299هـ، أثناء ترجمة الملك المعظم، ج 1، ص. 550ـ554، أما مدينة أربل فتقع في العراق جنوبي شرقي الموصل، انظر عن التعريف بها دائرة المعارف الإسلامية «الطبعة العربية» : المجلد الأول ـ ص. 570ـ577، وقد زار مدينة أربل عالم مغربي عام 604هـ/1207م، وحين رأى احتفال صاحبها بالمولد النبوي، ألف له أول كتاب مذكور في هذا الصدد، وسماه : «**كتاب التنوير في مولد السراج المنير**» الذي لا يزال غير معروف، أما مؤلفه فهو أبو الخطاب عمر بن الحسن بن علي بن محمد ابن دحية الكلبي السبتي الأصل، المتوفي بمصر عام 633هـ/1235م، انظر عن ترجمته ومصادرها ومراجعها : **معجم المؤلفين** لرضا كحالة ج 7، ص. 280ـ281 مع ج 13، ص. 408.

(5) ترجمته في «**برنامج ابن أبي الربيع**» الذي جمعه أبو القاسم ابن الشاط، نشر وتحقيق الدكتور عبد العزيز الأهواني ـ ص. 41ـ42.

(6) المخطوط المذكور عند التعليق رقم 3، ص. 1ـ24 : حيث طول الموضوع بما يستدل به من الأحاديث والآثار ونصوص العلماء، وضمن هذا يستطرد وصف احتفالات أهل الأندلس وسبتة بالأعياد المسيحية.

(7) أول يناير حسب التقويم الجريجوري، حيث يوافق سابع ميلاد السيد المسيح عيسى عليه السلام.

(8) هو العنصرة، حيث ذكرى ميلاد النبي يحيى عليه السلام : يوم 24 ينيه.

(9) يوم 25 ديسمبر حسب التقويم الغربي.

وهكذا نشأ هذا الاحتفال لمقاومة التقليد الديني للمسيحيين، وهو الذي كان أحد عوامل ضعف الشخصية الأندلسية.

وقد حدث ـ بعد هذا ـ أن انتصب أبو القاسم محمد العزفي أميرا على سبتة[10]، فكان من أعماله تحقيق دعوة والده، واحتفل ـ في هذه المدينة ـ بالمولد النبوي من أول «ربيع» بعد إمارته : «عام 648هـ/1250م»، حتى عام وفاته : 677هـ/1279م، وهذا كتاب «**البيان المغرب**»[11] يصف احتفال أبي القاسم العزفي بالمولد النبوي من أول عام امارته ويقول :

«من مآثره العظام، قيامه بمولد النبي ـ عليه السلام ـ من هذا العام، فيطعم فيه أهل بلده ألوان الطعام، ويؤثر على أولادهم ـ ليلة يوم المولد السعيد ـ بالصرف الجديد[12] من جملة الإحسان عليهم والإنعام، وذلك لأجل ما يطلقون المحاضر، والصنائع والحوانيت[13] يمشون في الأزقة يصلون على النبي عليه السلام، وفي طول اليوم المذكور يسمع المسمعون لجميع أهل البلد مدح النبي عليه السلام، بالفرح والسرور والإطعام للخاص والعام، جار ذلك على الدوام، في كل عام من الأعوام».

ومن تأليف أبي القاسم العزفي في هذا الصدد، قيامه بتكميل كتاب والده : «**الدر المنظم في مولد النبي المعظم**»، وقد أخرجه في نسختين : صغرى، وكبرى، وهو يميز في هذه الأخيرة كلام والده فيترجم عليه بـ «**قال المؤلف**»، ثم يعنون زياداته بكلمة «قلت»[14]، والمعروف ـ لحد الآن ـ من هذا الكتاب هو نسخته الكبرى التي لا تزال مخطوطة، وتحتفظ الخزانة العامة بالرباط بواحدة منها تحمل رقم ك 1469 : 401 ص في مجلد ضخم، مكتوبة بخط مغربي قديم ومكمل بخط حديث، خال من تاريخ التأليف والنسخ واسم الناسخ، وهي تشتمل على مقدمات يتلوها 41 فصلا[15]، وتوجد نسخ أخرى منها : بمكتبة القرويين بفاس، وبالمكتبة،

---

(10) انظر عن هذا الانقلاب : «**البيان المغرب**» لابن عذاري ط. تطوان ـ ص. 440-401.

(11) ط. تطوان، ص. 401-402.

(12) كأنه يقصد عملة جديدة تسك خصيصا لهذه الليلة، أخذا مما كان يقوم به أبو عنان المريني في مثل هذه المناسبة، حيث سيذكر عند موضوع «الاحتفالات المرينية بالمولد النبوي».

(13) يقصد تسريح أطفال الكتاتيب والمصانع والمتاجر.

(14) آخر «**الدر المنظم**» حسب المخطوط المتكرر الذكر ـ ص. 400.

(15) ورد وصف هذه النسخة بالذات بـ«**المجلة الزيتونية**» في العدد الخاص بالمولد النبوي الشريف لعام 1356هـ، خلال بحث للشيخ محمد عبد الحي الكتاني.

الملكية التي تحتفظ بثلاث منها تحمل أرقام : 816 و1274 و1431، على بتر في أوائل الثانية التي تقع أول مجموع، والسادسة حديثة النسخ، وتحمل بنفس المكتبة رقم 1721ز، والسابعة بالخزانة العامة أيضا تحت رقم د 2748، الثامنة بمكتبة ابن يوسف بمراكش رقم 388، مبتورة الآخر، ويلاحظ أنه في آخر بعض هذه النسخ توجد الإحالة على الأصل الأول لها، المكتوب برسم خزانة مكمل تأليفه أبي القاسم العزفي، على يد كاتبه خديم ناديه، وصنيعة أياديه : خلف بن عبد العزيز القبتوري[16]، في غرة شهر جمادى الأولى، سنة 653 هـ/1255 م.

* *

ورغب أبو القاسم العزفي في تفسيح مجال هذا الاحتفال بالمغرب، فأهدى للخليفة الموحدي عمر المرتضي نسخة من كتاب «**الدر المنظم**»، ورغب منه أن يساهم ــ بدوره ــ في هذه المأثرة، فصار هذا يقوم بليلة المولد النبوي بمراكش، ويحتفل لذلك احتفالا لم يقدم وصفه المصدر المعني بالأمر، واقتصر على القول بأن الخليفة الموحدي كان يفيض فيه الخير والإنعام[17].

ويلاحظ أن أثر احتفال مراكش انعكس ــ أكثر ــ على الناحية الأدبية، وظهر هذا ــ أولا ــ في نتفة شعرية لعمر المرتضي نفسه، وفيها يمجد شهر ربيع الأول بمناسبة الولادة النبوية الواقعة فيه[18]، كما أن مؤرخا مختصا بالمرتضي كتب عن المولد النبوي في مؤلفين، وعن السيرة النبوية عموما، والقصد إلى أبي علي الحسن بن علي بن محمد بن عبد الملك الكتامي الرهوني المعروف بابن القطان، نزيل مراكش الى عام 661هـ/1263م[19]، وهذه بعض آثاره :

1 ــ «**المرشد لآثار المولد**» وهذا لا يعرف الا من خلال اشارته له في مؤلفه الآخر : «**شفاء الغلل، في أخبار الأنبياء والرسل**»[20]، عند بداية الترجمة النبوية

(16) من أعلام سبتة في هذه الفترة، انظر عن ترجمته : «**بغية الوعاة**» للسيوطي، «مطبعة السعادة» ــ مصر، ص. 242ـ243.

(17) «**البيان المغرب**»، ص. 452.

(18) المصدر الأخير، ص. 452، حيث أثبت نص النتفة من سبعة أبيات على قافية الميم.

(19) لا تعرف ترجمته التي توجد ــ دون شك ــ في الضائع من قسم الغرباء من «**الذيل والتكملة**» لتلميذه محمد بن عبد الملك المراكشي، وهناك شذرات عن حياته تستنتج مما سيذكر من مؤلفاته والمصادر عنها.

(20) انظر عن وصفه : محمد المنوني : «**ملاحم ودواوين. في السيرة والمديح النبوي**»، مجلة «**دعوة الحق**» العدد التاسع والعاشر «مزدوج»، السنة التاسعة ــ، ص. 100.

من هذا الكتاب، وقد صنفه برسم المرتضي الموحدي الذي وضع له ـ أيضا ـ المؤلفات التالية :

2 ـ «**كتاب المسموعات**»، ضمنه قصائد مختارات فيما يختص بالمولد الكريم، وشهور رجب وشعبان ورمضان وغير ذلك، ولا يزال غير معروف.

3 ـ «**كتاب الأحكام من آي خيرة الأنام**»، مخطوط بمكتبة القرويين بفاس، تحت رقم 292.

4 ـ «**نظم الدرر بآي أحمد أجل البشر**»، أرجوزة مطولة تبلغ ـ تقريبا ـ 6300 بيت، نظم فيها كتابه «**الأحكام من آي خيرة الأنام**» الآنف الذكر، منه نسخة بمكتبة القرويين في مجلد ضخم يحمل رقم 291، وهي مكتوبة لخزانة المرتضي الذي كان النظم برسمه، ورفعه له مؤلفه ليوم المولد النبوي عام 661هـ/1263م[21].

الاحتفالات المرينية بالمولد النبوي

كان أول من احتفل بالمولد النبوي من بني مرين هو ماهد هذه الدولة يعقوب بن عبد الحق، فأقام ليلة المولد بفاس، واستمع الى قصائد الشعراء وكلمات الخطباء[22]، ثم أحدث ابنه يوسف تعميم هذا الاحتفال في جميع جهات المغرب المريني، صدر هذا عنه ـ لما كان في قلعة صبرة من اقليم الريف ـ آخر صفر عام 691 هـ/1292 م، حسب روض القرطاس[23]، الذي تضيف أوراق مخطوطة منه[24] أن هذا كان بإشارة من الفقيه العزفي دون أن تعلن عن إسمه، وهو ـ دون شك ـ أبو طالب عبد الله بن أبي القاسم العزفي، الذي كان أمير سبتة في هذا التاريخ[25]، وقد كان الذي أنابه يوسف في الاشراف على اقامة رسم الاحتفال بفاس،

---

(21) المصدر الأخير، ص. 100 و102، مع «**الخزانة العلمية بالمغرب**»، للأستاذ الكبير محمد العابد الفاسي الفهري ـ، ص. 13 ـ 14.

(22) «**نصح ملوك الإسلام**»، لمحمد ابن السكاك، ط. فاس ـ ص. 29.

(23) ط. فاس، 1305، هـ، ص. 281.

(24) هي عبارة عن قطعة منه بها زيادات على المطبوع، وتقع ضمن مجموع : خ. ع، د. 2152 ـ ص. 151.

(25) انظر «**جذوة الاقتباس**» ط. فاس ـ ص. 243 ـ 244، مع **أزهار الرياض** ط، لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة، ج 2، ص. 377.

هو خطيب القرويين أبو يحيى محمد بن أبي الصبر أيوب بن يكنول الجاناتي[26]، وبهذا صار يوم التاني عشر من ربيع الأول عيدا مولديا عاما بالمغرب.

ثم من أيام أبي سعيد الأول أضيف الى ليلة المولد الاحتفال بسابعه، حيث كان يشرف عليه ابنه وولي عهده أبو الحسن[27]، وقد استمر هذا الاحتفال الجديد بعد، وجاء التلميح له في قصيدة مولدية رفعت لأبي عنان[28]، وورد فيها البيت التالي :

ومـــوسم جل قدرا باعتنــــاك به راقت لياليـــه وازدانت **سوابعـــه**

وفي أيام هذا السلطان تبنت الدولة القيام بنفقات الاحتفالات بليلة المولد في سائر جهات المملكة[29].

وقد أخذت هذه الحفلات طابعها الكامل على عهد أبي الحسن وأبنائه الذين سترد تسميتهم بعد، ويمدنا «**المسند الصحيح الحسن**»[30] بوصف مقتضب لحفلات أبي الحسن بهذه المناسبة.

وهو يذكر أن هذا السلطان دأب على أن يقيم ليلة المولد حضرا وسفرا، ويستعد لها بألوان المطاعم والحلويات، وأنواع الطيب والبخور، مع إظهار الزينة والتأنق في إعداد المجالس، حتى إذا حلت الليلة، وأدى السلطان صلاة المغرب ونافلتها، قصد الى مجلسه في مكان الاحتفال، حيث يستدعي الناس للجلوس حسب مراتبهم، ويأخذون المجالس على طبقاتهم، فينتظمون في أحسن زي وأجمل شارة، ثم يقدم الطعام على ترتيب مخصوص، يتلوه من الفواكه الطرية ما يوجد في إبانه، وبعدها يؤتى بالفواكه اليابسة، ثم الكعك[31] والحلويات، وأخيرا الطاف السكر، وجميع ذلك على

(26) «**روض القرطاس**»، ص. 281، مع تكميل اسم ابن أبي الصبر من «**جني زهرة الأس**»، المطبعة الملكية بالرباط : ص.60.

(27) هذا يؤخذ من قصيدة مولدية لأبي العباس ابن القراق، وسترد الإشارة لها ولمصدرها عند موضوع «قصائد التهاني المولدية».

(28) القصيدة للشاعر أحمد بن عبد المنان، وسترد الإشارة لها ولمصدرها : عند موضوع : «قصائد التهاني المولدية».

(29) «**تحفة النظار**» لابن بطوطة، نشر المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة 1377 هـ، ج 2، ص. 184.

(30) خ. ع. ق 111 : عند الباب السادس الفصل 6.

(31) الكعك خبز داخله حشو من تمر أو عسل أو ابزار ونحو ذلك، حسب شرح بيوع ابن جماعة للقباب، حيث يذكر أنه يطلق ــ أيضا ــ على المشماط «بالميم أوله»، الذي يسمى بالقراجل بالجيم، ولعلها مشوبة بشين معجمة، لتقارب النطق الحالي لهذا الإسم.

أعجب ما يتحدث به : كثرة وحسنا، وربما اختلفت العادة في التوالي مرة، وفي الفترة أخرى، وقد يقع الإطعام بعد العشاء الاخرة.

فإذا استوت المجالس وساد الصمت، قام قارئ العشر فرتل حصة من القرآن الكريم، ويتلوه عميد المنشدين فيؤدي بعض نوبته، ثم يأتي دور قصائد المديح والتهاني بليلة المولد الكريم : من نظم شعراء المملكة والزائرين، فتلقى على نظام محفوظ وترتيب محكم على قدر المنازل، والرتب والمناصب(32)، وبعد هذا تسرد المعجزات النبوية، وتكثر الصلاة على الرسول سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وهي ــ حسب تعبير ابن مرزوق ــ من أعاجيب ما يرى في بلاد المغرب، فإذا قضيت صلاة الصبح تقدم ألوان الطعام المختصة بهذا الوقت، وجميع ما يفضل من بخور وشموع يقتسمه الفقراء المسافرون على قدر استحقاقهم، فيجتمع لهم من ذلك العدد الكثير.

وفي صباح يوم سابع المولد يجلس الكتاب لتوزيع العطاء على الأشراف وأعيان الفقهاء والأيمة والخطباء والقضاة الواردين، فيعطي كل على قدره : كسوة تخصه، وإحسانا للبعض(33).

هكذا يصف ابن مرزوق هذه الحفلات المولدية، التي يذكر انه لازم حضورها والاختصاص بالإطلاع عليها، من عام 738 هـ الى منصرفه من تونس «عام 750 هـ»، كما يذكر أن أبناء أبي الحسن ساروا بسيرة أبيهم في هذا الصدد، وقد أدخلوا على ليالي المولد تحسينات زادتها رونقا وجلالا، والمعني بالأمر : أبو عنان ثم أبو سالم وأبو فارس الأول، ومن هذا أن أبا عنان كان يسك ــ بمراكش ــ دينارا ذهبيا كبيرا من وزن مائة دينار، ليقدمه الى إحدى الشخصيات الزائرة ضمن صلة عيد المولد النبوي(34).

---

(32) يظهر أن المسمع هو الذي كان يتولى انشاد هذه القصائد.

(33) هكذا يذكر ابن مرزوق في «**المسند الصحيح الحسن**»، وينقل أبو القاسم الزياني عنه في كتاب يسميه «**السمط الحسن في محاسن أبي الحسن**» ؟ حيث يذكر عن هذا السلطان ما يلي :
«وفي ليلة المولد النبوي يفرق مائة ألف دينار على الفقهاء والأشراف والطلبة وأهل الذكر، ومن يأتي لحضور المولد من علماء المدن وقضاتها وطلبتها، وكل من له وظيف يقوم به ليلة المولد : من المائة الى العشرة، هذا دأبه في كل عام»، «**مخطوطة الترجمان**» نسخة خاصة، آخر موضوع دولة بني مرين : أثناء الباب 18.

(34) **أزهار الرياض** ج 1، ص. 39.

ومن التحسينات التي جمل بها أبو عنان هذه الليلة، أن قاعة الاحتفال صارت تزين بالساعة الميكانيكية التي اخترعت وشيكا لتخبر بالمواقيت، وهي جهاز لمعرفة الأوقات الليلية، يحف به اثنا عشر طاقا يعلوها شكل هلال يدور عليها، وفي داخل كل طاق صورة جارية، فإذا حلت الساعة المعنية أعلن عنها الطائر الجاثم أعلى الساعة، بواسطة صنجة يلقيها إلى طست، فتبرز جارية في يمينها رقعة بالساعة المعينة، لتضعها بين يدي أبي عنان، بينما تجعل يسراها على فيها كالمبايعة ...

وقد جاء الإعلان عن وجود هذه الساعة ضمن شارات الحفل، في قصيدة مولدية رفعت لأبي عنان عام 757هـ/1356م، نظمها الشاعر أحمد ابن عبد المنان آتي الذكر، وتناول فيها وصف هذا الجهاز الجديد في 17 بيتا[35]، ثم ذكرها ابن الخطيب في أحد دواوينه[36]، بمناسبة تقديم نموذجين من المقطوعات التي نظمها على لسان هذه الساعة، وقد ورد في احدهما ذكر «المستعين» وفي الثاني «أبو سالم» و«ليلة المولد الكريم»، ليتبين أنهما نظما برسم هذه الساعة المرينية، التي ستكون موضوع بحث على حدة بإعانة الله سبحانه[37].

الاحتفالات الشعبية بالمولد النبوي

أصبح يوم الثاني عشر من ربيع الأول عيدا مولديا عاما، يحتفل فيه المغرب على مختلف المستويات، فتقام الأفراح، وتتضاعف الأضواء، ويتجمل المحتفلون بما حسن من الثياب، وفي فاس صار هذا اليوم موعد الدخول الصبيان للكتاتيب القرآنية، وكان البعض يأتي بهم في موكب صاخب بالبوق والطبل وأنواع الطرب، وسوى هذا فقد

(35) سترد الإشارة لهذه القصيدة ومصدرها عند موضوع : «قصائد التهاني المولدية».

(36) «مخطوطة خاصة» تشتمل على قطعة من «**الصيب والجهام**»، بها أشعار مرتبة على حروف المعجم : قصائد مطولات ومقطوعات في مختلف الأغراض، وتبتدئ آخر حرف الهمزة ثم الباء فالتاء فالثاء فالجيم، ثم يقع بها بتر يأتي بعده حرف الدال فالذال فالراء، حيث ينتهي الموجود من الديوان الذي يقع في 108 ورقة من حجم 150/195، أما النموذجان المشار لهما فقد وردا في هذه القطعة عند ورقة 41. أ، مع ورقة 46. أ.

(37) من الجدير بالذكر أن هذه الساعة يسبق الإعلان عنها ساعة السلطان أبي حمو موسى الثاني بتلمسان، وقد ظهرت أوائل عام 760 هـ/1359 م، وهي مذكورة وموصوفة في **بغية الرواد** ج 2 ص. 40 – 41 مع، ص. 218 – 222، ثم بعدها ظهرت ساعة الغني بالله محمد الخامس بغرناطة : في أوائل عام 1362/764، وهي موصوفة عند ابن الخطيب في «**نفاضة الجراب**» : السفر الثالث : خ، ع، ك 256 : ص. 218–227.

جعل المغاربة هذا اليوم ميعادا لمهمات أشغالهم، ومناسبة لختان أطفالهم[38]، وهذه ثلاثة نماذج من احتفالات بعض المؤسسات الشعبية بهذه المناسبة :

1 ـ الكتاتيب القرآنية :

كانت الكتاتيب القرآنية تزين لهذه المناسبة، وتضاء بالشموع، ويجتمع أطفالها لترديد الصلوات النبوية، كما يتقدم أحدهم ـ ممن هو حسن الصوت ـ لترتيل عشر من القرآن الكريم، ثم ينشد قصيدة في مديح السيد الرسول صلوات الله عليه وآله وسلم.

هذا ما يوخذ من سؤال رفع للفقيه أحمد القباب الفاسي في هذا الصدد[39]، وهناك توضيحات لبعض نقط هذا الوصف، وردت عند الحسن بن محمد الوزان الفاسي : «**ليو الافريقي**»[40]، حيث يذكر أن المعلم يأتي بمنشدين يترنمون بالأمداح النبوية طول الليل، ويعطي كل أب لولده شمعة كبيرة تساوي ثلاثين إبرة، ومنها ما يساوي أكثر أو أقل على حسب ثروة الأب، وعلى الشمعة نقوش وزخرفة بالألوان والخطوط الهندسية، وصور أزهار بارزة من الشمع، وهي توقد من أول الليل الى الشروق، وما بقي من الشمع يأخذه المعلم ويبيعه، وربما اجتمع لديه من ذلك 200 دكة[41] فأكثر، على حسب كثرة تلاميذه.

والغالب ان هذا الشمع صارت له أهمية خاصة مع مر الزمن في المغرب الأقصى والأوسط، قال الونشريسي[42] معقبا على أحد النصوص : «يظهر من هذا الكلام القضاء بالشمع للمعلمين على آباء الصبيان في ميلاد النبي صلى الله عليه وسلم، لأنه معتاد ببلاد المغرب الأوسط والأقصى، ولا نزاع في انتصاب المعلمين لأجله».

2 ـ الجماعات الصوفية :

دأب الصوفية ـ بدورهم ـ على المساهمة في هذا الموسم، فقد كان أبو مروان

(38) «**الرسائل الكبرى**» لابن عباد، ط. فاس ـ ص. 37ـ38 مع ص. 66.

(39) «**المعيار**» للونشريسي، ج. 12، ص. 33 : ط.ف.

(40) «**حياة الوزان الفاسي وآثاره**»، المطبعة الإقتصادية بالرباط ـ ص. 87ـ88.

(41) الدكة تزن ثلاثة أجرام ونصف ذهبا، حسب تعليق بالمصدر الأخير، ص. 12.

(42) «**المعيار**»، ج 8، ص. 160: ط.ف.

عبد الملك الريفي يقيم ـ بمنزله بسبتة ـ المولد النبوي، بحضور المريدين ومن إليهم، ويحتفل لذلك بالإطعام وإنارة المكان بقناديل الزجاج والشموع، ويستعمل السماع، وهو من تلامذة أبي محمد صالح الماجري دفين أسفي[43].

وورد في المعيار[44] سؤال عن جماعة منقطعين ـ بمكان ـ الى العبادة، ويجتمعون في المولد وشبهه للوعظ والتذكير، وربما أنشد لهم منشد أشعارا في المديح النبوي وما يناسب ذلك مما يحث على الطاعة، وكان السائل : القاضي أحمد بن العجل الوزروالي، والمجيب هو الإمام عبد الله بن محمد بن موسى العبدوسي، وكلاهما كانا يعيشان بفاس أواسط القرن التاسع للهجرة.

وعن جنوب المغرب يذكر القسمطيني[45] أن شهر ربيع النبوي لعام 769هـ/ 1367 م : كان هو الميعاد الذي صادفه لعقد مؤتمر صوفية المغرب الأقصى، وكان ذلك بدكالة على ساحل المحيط.

3 ـ شعراء الملحون :

وكان يجتمعون ليلة المولد النبوي بقاعة سيدي فرج بالعطارين من فاس، ليتناشدوا اشعارهم في المديح النبوي بمكان مخصوص هناك، حسب ذكر الحسن بن محمد الوزان الفاسي[46] عن عادة شعراء الملحون في وقته أيام الحكم الوطاسي، والغالب أن هذه العادة ما هي إلا امتداد لتقليد نشأ في هذه الفترة المرينية.

أصداء الحفلات المولدية في أدب الفترة المرينية

قصائد التهاني المولدية :

وقد ظهرت ـ بالمغرب ـ في هذه الفترة، لتلقى أثناء الحفلات المرينية ليلة المولد النبوي، وكانت تفتتح بالحنين الى البقاع المقدسة، وتتناول مدح الجناب النبوي وذكر معجزاته، ثم تتخلص الى مدح السلطان المريني مقيم الاحتفال وتهنئته، مع التعرض لبعض الأحداث السلطانية القريبة العهد.

(43) «**المقصد الشريف في التعريف بصلحاء الريف**» لعبد الحق بن اسماعيل البادسي، مخطوطة خاصة.

(44) ج 11 ص. 37.

(45) «**أنس الفقير وعز الحقير**»، نشر المركز الجامعي للبحث العلمي ص 71.

(46) «**حياة الوزان الفاسي وآثاره**»، ص. 80.

ويلاحظ أن هذه القصائد سيكون عددها بالغ الغاية في الكثرة، بالنظر الى أنها امتد تقديمها ــ دوريا ــ كل سنة، من أيام يعقوب بن عبد الحق، حتى آخر الدولة : نحو قرنين من الزمن، والمعروف منها ــ لحد الآن ــ لا يعدو أربع عشرة قصيدة، وهو ــ طبعا ــ قل من كثر، غير أن أصحابها فيهم ــ لحسن الحظ ــ فحول الشعراء بالغرب الاسلامي، وسيرد ذكرهم حسب عصور الملوك الممدحين.

الأول : أبو العباس أحمد بن سعيد بن أحمد التجيبي المعروف بابن القراق، لم تذكر بلدته ولا سنة وفاته :

قصيدة دالية من بحر البسيط : 43 بيتا، رفعها لأبي سعيد الأول وقد كان كاتب علامته، ومطلعها :

بشرى الهدى بطلوع اليمن حين بدا   في ليلة خير مبعوث بها ولـــدا[47].

الثاني : القاضي أبو الحجاج يوسف بن علي الطرطوشي نزيل المغرب، كان بقيد الحياة أواسط عام 741 هـ/1340 م :

قصيدة نونية من بحر البسيط، رفعها لأبي الحسن عام 740 هـ/1339 م، واقتبس منها ابن مرزوق[48] بيتين اثنين.

الثالث : أبو العباس أحمد بن يحيى بن أحمد ابن عبد المنان الخزرجي المكناسي نزيل فاس، المتوفى عام 792 هـ/89 ــ 1390 م : قصيدة عينية من بحر البسيط في أبيات 102، رفعها لأبي عنان عام 757 هـ/1356 م، ومطلعها :

---

(47) القصيدة واردة بطولها في مذكرات ابراهيم ابن الحاج آتي الذكر وشيكا، حسب مخطوط الإسكوريال رقم 1734، مصورة الأستاذ الفاضل الفريد دي بريمار ــ لوحة 44 أ. ب ــ 45 أ، وقد ورد ذكر ابن القراق عند ابن الأحمر باسم احمد بن سعد باسكان العين، حسب «**مستودع العلامة**»، ط. تطوان ــ ص. 50، مع «**روضة النسرين**»، المطبعة الملكية ــ ص. 24.

(48) «**المسند الصحيح الحسن**» : الباب 55، الفصل 7، وانظر عن ترجمة الطرطوشي «**مختصر الإحاطة**» للبقني السفر الثاني، مصور خ. ع. د 1582 : لوحة 422، وقد ورد ذكره ــ أيضا ــ في «**نفاضة الجراب**» لابن الخطيب : السفر الثاني، ضمن أساتذة محمد بن القاسم الصيرفي آتي الذكر، حسب «**مشاهدات لسان الدين ابن الخطيب في بلاد المغرب والأندلس**»، تحقيق الدكتور أحمد مختار العبادي ــ ص. 143، وترجمه ــ أيضا ــ في «**نفح الطيب**» المطبعة الأزهرية المصرية، سنة 1302هـ ج 4 ص. 56-57.

هل العقيـق ومـا ضمت أجارعـــه كما عهدنـاه أم أقـــوت مرابعـــه[49]

الرابع : أبو اسحاق ابراهيم بن عبد الله بن ابراهيم التميري الغرناطي نزيل فاس، والمعروف بابن الحاج، كان بقيد الحياة عام 774 هـ/1372 م .

قصيدة رائية من بحر المتقارب، ورد منها 79 بيتا ولا تزال طويلة : رفعها لأبي بكر السعيد بن أبي عنان، ومطلعها :

سقـــى الله بالاجـــرع الفـــرد دارا لأمـــــــر بها الشوق والبرق ثارا[50]

الخامس : الأمير محمد بن الأمير يحيى بن الأمير أبي طالب اللخمي ثم العزفي السبتي نزيل فاس، والمتوفى بها عام 768 هـ/66 ـ 1367م :

قصيدة على قافية لام الألف من بحر المتقارب :

77 بيتا رفعها لأبي سالم، ومطلعها :

إذا لم أطـــــــق نحو نجد وصولا بعـــــثت الفـــــؤاد اليها رسولا[51]

السادس : لسان الدين محمد بن عبد الله بن سعيد إبن الخطيب السلماني الغرناطي، المتوفى ـ بفاس ـ عام776هـ/1374م :

قصيدة دالية من بحر الطويل : 82 بيتا، رفعها لأبي سالم عام 762هـ/1361م، وتولى ولده النيابة عنه في عرضها، ومطلعها :

تألـــق نجديـــا فأذكــــرني نجدا وهـاج بي الشوق المبرح والوجـدا[52]

---

(49) «**نثير الجمان**» لابن الأحمر، في الباب العاشر عند ترجمته : مصورة المكتبة التطوانية بسلا، وانظر عن تاريخ وفاته : ابن القاضي في «**جذوة الإقتباس**»، ط.ف، ص. 61.

(50) «**جذوة الإقتباس**» عند ترجمته ص. 87ـ92، ط.ف.، وقد أورده ابن الخطيب في «**الكتيبة الكامنة**» ـ نشر دار الثقافة ـ بيروت : ضمن المترجمين الأحياء، الذين يؤكد أنهم استمروا على قيد الحياة تمام جمادى الآخرة، عام 774هـ.

(51) «**مختصر الاحاطة**» السفر الثاني المصورة السابقة الذكر، عند ترجمته : لوحة 85ـ87، حيث يسمي والده باسم محمد، والصواب : يحيى كما في نثير الجمان عند الباب 6، و«**الدرر الكامنة**»، ج 4، ص. 281، و«**جذوة الاقتباس**»، ص. 189 : ط.ف.

(52) «**نفح الطيب**»، ج 4، ص. 159ـ161، وقد حدد تاريخ عرض القصيدة بعام 763هـ، وهو سبق قلم عن عام 762هـ، حيث أن أبا سالم الوارد ذكره في هذه القصيدة توفي منذ 21 قعدة عام 762هـ.

السابع : القاضي أبو القاسم محمد بن يحيى بن محمد الغساني البرجي نزيل فاس، المتوفى عام 786 هـ/84 ـ 1385 م :

قصيدة بائية من بحر البسيط : 82 بيتا، رفعها لأبي سالم عام 761هـ/1360م، ومطلعها :

أصغي الى الوجد لما جد عاتبه صب له شغل عمن يعاتبه[53]

الثامن : أبو زيد عبد الرحمن بن أبي بكر محمد بن محمد ابن خلدون الحضرمي التونسي نزيل فاس، المتوفى ـ بالقاهرة ـ عام 808هـ/1406م :

قصيدة بائية من بحر الكامل، أثبت منها في العبر[54] 46 بيتا، ولا تزال طويلة، ورفعها لأبي سالم عام 762 هـ/1361، ومطلعها :

أسرفن في هجري وفي تعذيبي وأطلن موقف عبرتي ونحيبي

التاسع : أبو القاسم عبد الله بن يوسف بن رضوان الخزرجي النجاري المالقي نزيل فاس، والمتوفى ـ بها ـ عام 783 هـ/81 ـ 1382 م :

قصيدة ميمية من بحر الكامل في أبيات 102، رفعها لأبي فارس عبد العزيز الأول عام 773 هـ/1371 م، ومطلعها :

قف بالديار فهذه أعلامها بهُدي إليك مع النسيم سلامها[55]

العاشر : أبو يحيى محمد بن الأمير محمد بن الأمير يحيى بن الأمير أبي طالب اللخمي ثم العزفي، السبتي نزيل فاس، لم أقف على تاريخ وفاته :

قصيدة تائية من بحر الكامل في 40 بيتا، رفعها لأبي فارس عبد العزيز الأول، ومطلعها :

---

(53) الإحاطة المطبوعة بمصر عام 1319هـ، عند ترجمته ج 2 ص. 215ـ221، ونفح الطيب، ج 3، ص. 441ـ445، ورد قسم منها في الكتيبة الكامنة عند ترجمته ص. 250ـ254، مع الرجوع الى مخطوطة المصدر الأخير بالمكتبة الملكية رقم 599 لتصحيح تاريخ عرض القصيدة.

(54) مطبعة بولاق بالقاهرة، 1284هـ، ج 7 ص. 405ـ406، مع «**نفح الطيب**»، ج 4 ص 11ـ12.

(55) نثير الجمان في الباب العاشر عند ترجمته.

حن المشوق الى ديـــار أحبتـــــه   فسقى الثرى شوقا لذاك بدمعتـه[56]

الحادي عشر : أبو زكرياء يحيى بن الحسين ابن أبي دلامة التسولي نزيل فاس، لم يذكر تاريخ وفاته .

قصيدة رفعها لأبي العباس أحمد بن أبي سالم في دولته الثانية، وكتب نسخة منها للكاتب أبي عبد الله محمد بن يوسف بن محمد الصريحي الغرناطي المعروف بابن زمرك[57]، ولم أقف على نصها .

الثاني عشر : أمير المسلمين المستنصر بالله أحمد بن أبي سالم بن أبي الحسن المريني، المتوفى عام 796 هـ/1393 م .

قصيدة من نظمه كتب منها نسخة لابن زمرك الذي أنشأ قصيدة ضمنها التنويه بها[58]، ولم أقف على نص القصيدة المرينية.

الثالث عشر : أبو الوليد اسماعيل بن الأمير يوسف بن السلطان محمد بن فرج، المعروف بابن الأحمر، الخزرجي ثم النصري، الغرناطي نزيل فاس، والمتوفى ـ بها ـ عام 807 هـ/04ـ1405م :

أ ـ قصيدة رائية من بحر الطويل في 79 بيتا، رفعها لأبي عامر عبد الله بن أحمد بن أبي سالم عام 799 هـ/1396 م، ومطلعها :

تراءت بباب السرحـــتين ديارهـــا   فروض روض الـور حيث ازديارهـــا

ب ـ قصيدة بائية من بحر الطويل أيضا : في 66 بيتا، رفعها للقائم بدولة أبي عامر: الحاجب أبي العباس أحمد بن علي القبائلي في نفس العام : 799هـ/1396م، ومطلعها :

تراءى بجنب الحلـــــــتين نجيبها   فجـــد بتسيـــار الغـــرام نحيبها[59]

* * *

(56) المصدر الأخير عند ترجمته في الباب 6، مع «**جذوة الإقتباس**»، ص. 193ـ194، حيث اختصرت أبياتا من القصيدة.

(57) «**أزهار الرياض**»، ج 2، ص. 175، مع إضافة بعض المعلومات عن حياة ابن أبي دلامة عند ابن الأحمر : آخر مستودع العلامة، ص. 75ـ83، وفي «**روضة النسرين**»، ص. 38.

(58) «**أزهار الرياض**»، ج 2، ص. 173ـ175، حيث ورد نص قصيدة ابن زمرك.

(59) «**نثير فرائد الجمان في نظم فحول الزمان**»، لاسماعيل ابن الأحمر، «دار الثقافة»، بيروت : ص.377ـ386، وانظر عن ترجمة ابن الأحمر وبعض مصادرها ومراجعها : «**سلوة الأنفاس**»، ج 3، ص.256ـ257.

هذا : ومن المتوقع أن يكتشف ـ استقبالا ـ بعض مجموعات جديدة من «قصائد التهاني المولدية»، مثل التي أشار لها ابن الخطيب في «**الإحاطة المطبوعة**»[60] عند تقديم قصيدة البرجي سابع شعراء هذه الحلبة، حيث ذكر أنها، ثبتت في «**نفاضة الجراب**» ضمن ذكر من أنشد في تلك الليلة المولدية من الشعراء. وهو بهذا يحيل على السفر الأول من هذا الكتاب الخاص بشمال المغرب، والذي لا يزال في حكم المفقود، كما أن ما اقتبسه المقري[61] من مجموع «**البقية والمدرك من كلام ابن زمرك**»، وردت فيه الإشارة الى قصائد نظمها كتاب الإنشاء بالبلاط المريني، برسم تهنئة السلطان أحمد بن أبي سالم «في دولته الثانية» بليلة المولد النبوي الكريم، وقد حضرها ابن زمرك وطلب من هؤلاء الشعراء نسخا من قصائدهم.

مؤلفات مولدية

إلى جانب «قصائد التهاني»، ظهر في هذه الفترة موضوعات مولدية : منظومة ومنثورة يصل المعروف منها ـ الآن ـ الى سبعة :

1 ـ «**نظم الدر المنظم في مولد النبي المعظم**» للعزفي ـ قام بتقصيده أبو اسحاق ابراهيم بن أبي بكر بن عبد الله بن موسى الأنصاري، التلمساني الوقشي الأصل، نزيل سبتة، والمتوفى ـ بها ـ عام 697 هـ/97 ـ 1298 م[62]، نظم فيه مضمن هذا المولد في قصيدة عينية من بحر البسيط في 185 بيتا، ولا يعرف ـ الآن ـ من هذه القصيدة سوى سبعة عشر بيتا من أوائلها، وقد وردت موزعة بين عشرة أبيات في طالعة شرح القصيدة التلمسانية الفرضية للسيتاني[63]، مع سبعة أبيات عند الجادري في شرح رجز أبي مقرع[64]، ثم عند المرغيتي في شرح المقنع.

---

(60) عام 1319هـ ـ ج 2، ص. 216.

(61) «**أزهار الرياض**»، ج 2، ص. 173.

(62) ترجمته وبعض مصادرها ومراجعها في «**معجم المؤلفين**»، ج 1، ص. 16، مع تصحيح تاريخ الوفاة من مخطوطة الديباج بالمكتبة الملكية رقم 1895، ويلاحظ أن الفقرة الواردة في ترجمته عن ابن عبد الملك : منقولة عن القطعة الضائعة في قسم الغرباء من «**الذيل والتكملة**».

(63) هذا الشرح هو الذي أفادنا ـ أيضا ـ تحديد عدد أبيات القصيدة، واسمه : «منتهى الباني ومرتقى المعاني في شرح فرائض أبي اسحاق التلمساني» : مخطوط في بضعة نسخ : واحدة منها بالمكتبة الملكية رقم 1569.

(64) حسب مخطوطته بالمكتبة الملكية بالرباط، خامسة مجموع يحمل رقم 4585، واسم هذا الشرح : «مفتاح الباب المقرع في شرح رجز أبي مقرع».

2 ـ «**مولد نبوي**» من تأليف أبي عمران موسى بن أبي علي الزناتي الزموري المولد والمنشأ، نزيل مراكش، والمتوفى ـ بها ـ عام 714هـ/14ـ1315م[65]، وهذا لا يعرف إلا من خلال ذكره في ترجمته.

3 ـ «**أشعار في النبويات**» لأبي العباس أحمد بن محمد بن علي التجيبي السبتي، المعروف بابن القراق، والمتوفى ـ بفاس ـ عام 725 هـ/24 ـ 1325 م، وقد كان ـ حسب «**نيل الابتهاج**»[66] ـ كثير النظم في النبويات وغيرها.

4 ـ «**قصائد مولديات**» لأبي عبد الله محمد بن القاسم بن عمر بن عبد الله الصيرفي، اتصل به ابن الخطيب أثناء سياحته بالمغرب الجنوبي بين 761 إلى أواسط 763 هـ، ولاحظ أنه اختص بنظم المولديات بمدينة مراكش[67].

5 ـ «**كراسة في المولد النبوي**» لأبي عبد الله محمد بن ابراهيم بن أبي بكر عبد الله ابن عباد النفزي الرندي نزيل فاس، والمتوفى ـ بها ـ عام 792هـ/1390م[68]، وهي عبارة عن خطبة جمعية مطولة في موضوع المولد الشريف، وتقع ضمن مجموعة خطبه في المواسم، حيث وقف عليها عبد المجيد الزبادي مجموعة في جزء وقال عنها : «وهي نحو الخمسة عشر خطبة، وكل واحدة منها تأليف في موضوعه لا مزيد عليه»[69]، والغالب أن هذه غير خطب ابن عباد في نفس الغرض، وهي محفوظة بمكتبة الزاوية الحمزية ضمن مجموع يحمل رقم 269، حيث إنها لا تتجاوز سبع خطب في المواضيع التالية : خطبة عاشوراء ـ المولد النبوي ـ رجب ـ شعبان ـ رمضان ـ ليلة القدر وتفسير سورتها ـ وداع رمضان[70]. ومنها نسخة أخرى بالمكتبة الملكية بالرباط رقم 2688.

وقد صارت هذه الكراسة تقرؤ أثناء حفلات ليالي المولد النبوي أيام المنصور

---

(65) «**نيل الإبتهاج**»، المطبوع بهامش الديباج مطبعة المعاهد بالقاهرة عام 1351 هـ: عند ترجمته ص. 342، وتوجد ترجمة أخرى له ضمن المجموع الذي يشتمل على «**شرح البردة**»، للجادري.

(66) ص. 68 عند ترجمته.

(67) «**نفاضة الجراب**»، السفر الثاني : مصورة معهد مولاي الحسن بتطوان رقم 27 : لوحة 12 ب.

(68) ترجمته ومصادرها ومراجعها في «**سلوة الانفاس**»، ج 2، ص. 133ـ143.

(69) سجل عبد المجيد الزبادي هذا في الترجمة التي كتبها لابن عباد في رسالة على حدة، «**باسم افادة المرتاد بالتعريف بالشيخ ابن عباد**»، خ. ع. د 471، ضمن مجموع : ورقة 204 ب.

(70) محمد المنوني : «مكتبة الزاوية الحمزية»، مجلة «**تطوان**»، ع 8 ـ ص. 167.

السعدي، حسب «المنتقي المقصور»[71] و«نفح الطيب»[72]، وعبارة هذا المصدر الأخير أثناء ترجمة ابن عباد : «وقد حضرت بمراكش المحروسة ـ سنة عشر وألف ـ قراءة كراسة الشيخ في المولد النبوي ـ على صاحبه الصلاة والسلام ـ بين يدي مولاي السلطان المرحوم، أحمد المنصور بالله، الشريف الحسني».

6 ـ «**قصيدة مولدية**» لأبي زيد عبد الرحمن ابن ثابت المكناسي، كان حيا «أواسط القرن التاسع هـ»، له قصيدة لامية نبوية نظمها أيام المولد. قال ابن غازي : وهي قصيدة كبيرة عجيبة مشهورة، وذكر منها البيتين التاليين في مطلعها :

ألا حي الديـــــار ديـــــار ليلى   ومـــــر بها إذا أدلجت ليـــــلا
ومهمـــا جئت مغناهـــا سحيرا   فجـــرر للتحيـــة فيها ذيـــلا[73]

7 ـ «**قصائد مولديات**» ـ لأبي سالم ابراهيم بن محمد بن علي اللنتي التازي نزيل وهران، والمتوفى ـ بها ـ عام 866 هـ/1462 م، وقد ذكرها بعضهم لمحمد بن ابراهيم الملالي، وهذا الأخير لم يقف عليها[74].

أوضاع على قصيدة البردة البوصيرية

والمعني بالأمر هنا ما قام به بعض الأدباء المغاربة ـ بين أصليين ومستوطنين ـ من تذييل أو شرح على هذه القصيدة، مما بلغ مجموعه اثنى عشر موضوعا، ويبدو أن مرد العناية بهذه المنظومة، الى ما صار لها آنذاك من مكانة بين منشدات الحفلات المولدية، وقد سجل أبو القاسم الزموري[75] ـ آتي الذكر ـ شهرة هذه القصيدة عندهم بين الخاصة والعامة، وظهور تخميسها وتسديسها، كما يقدم البعض[76] نماذج

---

(71) آخر الباب الرابع، واسمه الكامل «**المنتقي المقصور على مئاثر خلافة أبي العباس المنصور**» تأليف أحمد ابن القاضي، المكتبة الملكية رقم 1153.

(72) ج 3، ص. 179.

(73) «**الروض الهتون**»، لابن غازي، المطبعة الملكية بالرباط : ص. 65 ـ 66.

(74) «**البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان**» لابن مريم، المطبعة الثعالبية بالجزائر: أواخر ترجمته ص. 58ـ63، وانظر عن ترجمته ـ أيضا ـ «**نيل الإبتهاج**»، ص. 54ـ57.

(75) في طالعة «**شرحه على البردة**»، حيث سيرد ذكره ثالث لائحة شروح هذه القصيدة.

(76) عبد الحميد حميدو : «**بردة الإمام البوصيري رضي الله عنه بتلمسان**»، المطبعة الجديدة بالطالعة بفاس : ص. 4 ـ ويلاحظ أنه يجمل مصدرها هنا، ويجتزي بقوله : «وذكر غير واحد من أهل التاريخ».

من اهتمامات بعض سلاطين بني مرين بالبردة، وفيهم أبو عنان الذي كان يرغب في قراءتها بالمواسم والمحافل.

وابتداء من عهد هذا السلطان أو بعده بقريب، أخذت هذه الأوضاع على قصيدة البردة في الظهور، وستقدم لائحتها حسب عصور مؤلفيها الذين وقفت على وفياتهم :

1 ـ «**شرح**» محمد بن أحمد بن محمد العجيسي الشهير بابن مرزوق الجد وبالخطيب، التلمساني نزيل فاس وغيرها، والمتوفى ـ بالقاهرة ـ عام 781هـ/1379م[77].

2 ـ «**شرح**» أبي القاسم البرجي، سابق الذكر عند موضوع «**قصائد التهاني المولدية**» رقم 7، وتوفي ولم يستكمله[78].

3 ـ «**شرح**» أبي القاسم بن ابراهيم بن حسين بن علي بن عبد الله الماجري الزموري، كان حيا «بين أواخر القرن الثامن هـ وأوائل التاسع»[79]، وقد سماه : «**أنس الوحدة في شرح البردة**» مخطوط بالمكتبة الملكية بالرباط أول مجموع يحمل رقم 321.

4 ـ «**شرح**» عبد الرحمن ابن خلدون، سابق الذكر عند موضوع «**قصائد التهاني المولدية**» رقم 8، وهو ـ حسب ابن الخطيب ـ[80] شرح بديع، دل فيه على انفساح درعه، وتفنن ادراكه، وغزارة حفظه..

5 ـ «**شرح**» اسماعيل بن الأمير يوسف بن السلطان محمد بن فرج المعروف

---

(77) طالعة «**شرح البردة**» للجادري آتي الذكر، وانظر عن ترجمة ابن مرزوق وبعض مضادرها ومراجعها : «**معجم المؤلفين**»، ج 9، ص. 16-17.

(78) طالعة «**شرح البردة**» للجادري.

(79) أورده في نيل الإبتهاج ص. 226 حيث اقتصر على ذكر اسمه ونسبه وحليته، وجاء في «**الضوء اللامع**»، للسخاوي ترجمة لمحمد ابن سعيد الزموري المولود في حدود عام 777 هـ، وفيها يذكر أنه تفقه بعالم بلاده : القاسم بن ابراهيم : ج 7، ص. 252، وورد النقل عن هذا الشرح أوائل شرح الهمزية البوصيرية لعبد القادر العلوي السجلماسي : مخطوط الخزانة الملكية رقم 2711.

(80) «**مختصر الإحاطة**»، للبقني، خ. ع، د 1582، لوحة 252، وقد جاء ذكر هذا الشرح ـ أيضا ـ في طالعة «**شرح البردة**»، للجادري.

بابن الأحمر[81]، سابق الذكر عند موضوع «**قصائد التهاني المولدية**» رقم 13، منه نسخة ـ مبتورة الآخر ـ بمكتبة الزاوية الحمزية ثانية مجموع يحمل رقم (546)[82].

6 ـ «**شرح**» سعيد بن محمد بن محمد بن محمد العقباني التلمساني قاضي سلا ومراكش وغيرهما، والمتوفى عام 811 هـ/08 ـ 1409م[83].

7 ـ «**شرح**» عبد الرحمن بن أبي غالب محمد بن عبد الرحمن المديوني الشهير بالجادري الفاسي، المتوفى ـ بها ـ عام 839هـ/35ـ 1436م[84]، اختصره من شرح شيخه اسماعيل ابن الأحمر، الآنف الذكر عند رقم 5 وأضاف له زيادات، وفرغ من تأليفه ليلة الخميس منتصف جمادى الثانية، عام 797هـ، منه نسخة بمكتبة القرويين ثالثة مجموع يحمل رقم 643.

8 ـ «**شرح**» محمد بن عبد الحق بن اسماعيل بن أحمد الأنصاري السبتي، المتوفى عام 836 هـ/1432 م، وقد أوقف عليه شيخه ابن حجر العسقلاني بالقاهرة[85].

9 ـ «**شرح**» محمد ابن الأحمر أخ اسماعيل المذكور عند رقم 5[86].

هذا ويؤخذ من طالعة شرح البردة للجادري : أن الشروح التي تحمل أرقام : 1، 2، 4، 9. كلها كتبت بفاس، كما أن شرح شيخه أبي الوليد اسماعيل ابن الأحمر كان أول هذه الموضوعات، وعبارته في هذا الصدد : «وقد شرح هذا القصيد ـ لما أخذ شيخنا أبو الوليد في شرحه ـ أناس من أهل بلدنا»، وذكر الشروح الأربعة التي تحمل الأرقام الآنفة الذكر، كما يؤخذ من خطبة شرح أبي القاسم الزموري أنه لم يطلع على شرح سابق لها، فيكون هذا أول شرح بجهته[87].

(81) طالعة «**شرح البردة**»، للجادري، وورد ذكره في ترجمته من «**جذوة الاقتباس**»، ط.ف.، ص. 99 ـ 100، وفي «**نيل الابتهاج**»، ص. 98ـ99.

(82) محمد المنوني : مكتبة الزاوية الحمزية، «**مجلة تطوان**»، ع 8 ـ ص. 176.

(83) «**نيل الابتهاج**» في ترجمته ص 125ـ126، مع «**البستان**»، لابن مريم ص. 106ـ107.

(84) ترجمته وبعض مصادرها ومراجعها في «**سلوة الأنفاس**»، ج 2، ص. 157ـ158.

(85) «**الضوء اللامع**»، ج 7، ص. 279ـ280.

(86) طالعة «**شرح البردة**»، للجادري.

(87) في «**حوالة أحباس كبرى مكناس**»، خ.ع، رقم 5 «فيلم» لوحة 230 : جاء ذكر لائحة كتب أوقفها السلطان العلوي محمد الثالث على جامع تطوان، وجاء فيها ضمن نوادرها : «**شرح البردة**»، لابن ابي

10 ـ «**التصدير والتعجيز**»، أي تشطير قصيدة البردة لمحمد بن القاسم ابن داود السلوي، الذي كان بقيد الحياة أواخر عام 812 هـ/1410 م[88]، منه نسخة في الخزانة العامة بالرباط رقم ج 1152 في 31 ص من حجم صغير، بخط مغربي لا بأس به بين المبسوط والمجوهر، وقد كتبت فيه «البردة» بالحمرة والتشطير بالسواد، على فتور في اللونين معا.

11 ـ «**تسميط قصيدة البردة**»، لمحمد بن يحيى بن محمد بن محمد بن يحيى بن جابر الغساني المكناسي، المتوفى ـ بها ـ عام 827هـ/23ـ 1424م[89]، ولا يزال غير معروف.

12 ـ «**تخميس قصيدة البردة**»، لعبد الرحيم ابن يجبش التازي، خ، ع، د 157 ضمن مجموع.

تجاوب جهات من الغرب الإسلامي مع الحفلات المولدية المرينية

كان المغرب الأقصى هو الذي ابتدأ الاحتفال بالمولد النبوي في الغرب الإسلامي، وفي هذا يقول ابن مرزوق[90] : «هذه مكرمة خص الله بها هذه المملكة الشامخة، والسلطنة المرينية، وان حكاها غيرهم فما أشبه ولا قرب، أثار الفقيه العزفي ـ رحمه الله ـ صيدها فصادوه، ونبه على الخير فمضوا عليه واعتادوه».

وجاء في «**فهرس الرصاع**»[91] عن حفلات المستوى الشعبي : «وجرت

= يحيى في سفر لم يكمل»، ومن المعروف أن ابن أبي يحيى لقب شخصي اشتهر به الفقيه المغربي أبو سالم ابراهيم بن عبد الرحمن بن أبي بكر التسولي التازي نزيل فاس والمتوفى ـ بها ـ بعد عام 748هـ، وهو مترجم في «**الإحاطة**»، المطبوعة بمصر عام 1319هـ، ج 1، ص. 217ـ218، وفي غيرها، فإذا تأكد أن هذا هو المعني بالأمر، يكون ابن أبي يحيى هو أول شارح مغربي لقصيدة البردة البوصيرية قبل كل من ابن الأحمر والزموري، ونستدرك هنا من شروح البردة «**العدة في شرح البردة**»، للبقني : أحمد بن عبد الله بن أحمد الأنصاري الغرناطي، من مخطوطات خزانة وزان، رابعة مجموع رقم 532.

(88) لا تعرف له ترجمة، وتوجد بعض معلومات عنه عند : محمد المنوني : «ملاحم ودواوين في السيرة والمديح النبوي»، مجلة «**دعوة الحق**»، السنة التاسعة، العدد التاسع والعاشر «مزدوج» ـ ص. 105ـ106.

(89) «**الروض الهتون**» المطبعة الملكية ـ ص. 57، وانظر عن ترجمته «**جذوة الاقتباس**»، ص. 201ـ203، و«**درة الحجال**»، رقم 772 ط. الرباط، و«**إتحاف أعلام الناس**»، ج 3، ص. 590ـ594.

(90) «**المسند الصحيح الحسن**»، الباب السادس، الفصل 6.

(91) مطبعة 20 مارس بتونس ص. 23.

عادة المغاربة باظهار السرور والفرح باليوم الذي ظهر فيه نور سر الوجود، وحبيب الملك المعبود».

وقد انتشر هذا التقليد ـ مع مر الزمن ـ بين بقية جهات الغرب الإسلامي، وظهر ـ أولا ـ في تونس، في دولة السلطان أبي يحيى أبي بكر بن الأمير أبي زكرياء يحيى بن السلطان ابراهيم الحفصي، حيث كان ـ حسب المرقبة العليا» ـ[92] «أراد إقامة رسم المولد النبوي على العادة الغربية : من الاحتفال في الأطعمة، وتزيين المحل بحضور الإشراف، وتخير القوالين للأشعار الموزونة بالأصوات المطربة»، وقد امتدت دولة أبي يحيى من 718 إلى 747هـ، ويبدو أن هذا الاحتفال لم ينتظم في تونس إلا بعد هذا كما سيتبين.

ثم في عام 750هـ/1349م، صادف ابن بطوطة[93] أميري قابس : عبد المالك وأحمد ابني مكي يحتفلان بالمولد النبوي.

وفي الأندلس وجد هذا الاحتفال من أيام السلطان أبي الحجاج يوسف الأول، حيث تلقى ـ في هذه المناسبة ـ قصيدة ميلادية من نظم لسان الدين ابن الخطيب[94]، الذي يلاحظ أن شعرها من منظومه في الزمن القديم، وهو يفيد ـ بهذا ـ أن الاحتفال بالمولد النبوي في غرناطة يبتدىء من أوائل عهد هذا السلطان : «من 733 إلى أن آغتيل عام 755 هـ».

والغالب أن ولده : محمد الخامس «الغني بالله» عمل لتطوير هذا الاحتفال من بعد، حيث جاء في «**العبر**» أنه صار يحتفل في الصنيع في ليلة المولد والدعوة وانشاد الشعراء، اقتداء بملوك المغرب»، وقد سجل ابن خلدون هذا عن مولد عام 764هـ/ 1362م[95].

وابتداء من عام 760هـ/1359م، تبتدىء احتفالات بني زيان بتلمسان أيام السلطان أبي حمو موسى الثاني، قال المقري[96] : «وكان السلطان أبو حمو يحتفل

(92) نشر دار الكاتب المصري بالقاهرة، 1948 ـ ص. 162.

(93) «**تحفة النظار**»، ج 2، ص. 179.

(94) القصيدة واردة في «ديوانه» السابق الذكر عند التعليق رقم 36 ـ ورقتي 50 ب ـ 52 ب.

(95) «**العبر**»، ج 7، ص. 412.

(96) «**نفح الطيب**»، ج 4، ص. 193، مع «**أزهار الرياض**»، ج 1، ص. 243.

للبلة مولد رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ غاية الاحتفال، كما كان ملوك المغرب والأندلس في ذلك العصر وما قبله يعتنون بذلك».

وقد انتظمت الاحتفالات المولدية بتونس من أيام السلطان عبد العزيز الحفصي، الذي استمر في الحكم من 796 إلى 837هـ، قال في «المؤنس»[97] عند حديثه في هذا الموضوع: «وأول من اعتنى بتعظيمه «المولد» في البلاد الغربية، وأظهر فيه شعائر الولادة المحمدية، أبو عنان المريني شكر الله سعيه، ثم اقتدى به بنو أبي حفص في الديار التونسية، وأولهم أمير المومنين أبو فارس عبد العزيز...».

ويؤخذ على «المؤنس» أن أبا عنان لم يكن هو المبتكر لهذا الاحتفال في المغرب، وإنما أضاف له تحسينات سبق الالماع لبعض مظاهرها عند موضوع «الاحتفالات المرينية بالمولد النبوي».

ويبدو أن من أسباب انتشار هذه الظاهرة خارج المغرب، قيام أبي الحسن المريني بالاحتفال بالمولد النبوي الشريف حضرا وسفرا، لا يشغله عن إقامته شاغل[98]، ومن هذا أنه أقام ليلة المولد بتونس بمحضر علمائها ومشايخها وغيرهم[99].

ومن الطريف في هذا الباب، أن بعض المغاربة كان يعمل على إشاعة الفرح بالمولد حتى خارج الغرب الإسلامي، وهذا هو أبو الطيب محمد بن ابراهيم بن محمد بن أبي بكر السبتي نزيل قوص، والمتوفي ـ بها ـ عام 695هـ/1296م، فقد ذكر عنه الادفوي[100] ما يلي :

وحكى لي صاحبنا العدل ناصر الدين محمد بن العماد محمد : أنه «أبا الطيب» كان يجتاز بالفقيه عثمان باليوم الذي فيه مولده صلى الله عليه وسلم، فيقول : يا فقيه هذا يوم سرور، أصرف الصبيان فيصرفنا».

---

(97) مطبعة 20 مارس بتونس ـ ص. 306.

(98) «المسند الصحيح الحسن»، الباب السادس، الفصل 6.

(99) «فهرسة الرصاع»، مطبعة 20 مارس بتونس ـ ص. 24 و30.

(100) «الطالع السعيد الجامع لأسماء الفضلاء والرواة بأعلى الصعيد»، مطبعة الجمالية بمصر ـ ص. 263، ونقله في «نيل الابتهاج»، ص. 232.

موقف علماء المغرب من عمل المولد النبوي

لم تتفق كلمة علماء المغرب حول الاحتفال بالمولد النبوي، وكان فيهم من ينكر ذلك، غير أن الذين لم يعارضوه أوصوا بالاحتراس من تسرب البدع إلى حفلاته، وقد جاء في هذا الصدد عند ابن مرزوق في رسالتة، «جنى الجنتين»[101] :

«سمعت شيخنا الإمام، أبا موسى ابن الإمام ــ رحمة الله عليه ــ وغيره من مشيخة المغرب : يحدثون فيما أحدث في ليالي الموالد في المغرب، وما وضعه العزفي في ذلك واختاره، وتبعه فيه ولده الفقيه أبو القاسم ــ وهما من الايمة ــ فاستصوبوه واستحسنوا مقاصده فيه، والقيام بها، وقد كان نقل عن بعض علماء المغرب انكاره، والأظهر ــ في ذلك عندي ــ ما قاله بعض الفضلاء من علماء المغرب أيضا، وقد وقع الكلام في ذلك فقال ما معناه :

لاشك أن المسلك الذي سلكه العزفي مسلك حسن، إلا أن المشتغل في هذه الليلة بالصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم، والقيام باحياء سنته، ومعونة آله ومساهمتهم وتعظيم حرمتهم، والإستكثار من الصدقة وأعمال البر، وإغاثة الملهوف، وفك العاني، ونصر المظلوم : هو أفضل مما سوى ذلك مما أحدث، اذ لا يخلو من مزاحم في النية، أو مفسد للعمل، أو دخول الشهوة، وطريق الحق والسلامة معروف، ولا أفضل في هذه الليلة مما ذكرناه من أعمال البر، والاستكثار من الصلاة على النبي صلى الله عليه وآله وسلم، ليحظى المستكثر منها ببعض ما ورد في فضلها».

ويذكر السيوطي في رسالته : «**حسن المقصد في عمل المولد**»، أسماء ثلاثة أعلام من المغاربة الذين استحسنوا عمل المولد النبوي، وهم : أبو الخطاب ابن دحية السابق الذكر، وقد ألف «**كتاب التنوير في مولد السراج المنير**»، الثاني : أبو الطيب السبتي آنف الذكر، الثالث : محمد بن محمد بن محمد (ثلاثا) ابن الحاج العبدري الفاسي نزيل القاهرة، والمتوفى ــ بها ــ عام 737هـ/36-1337م، وقد جاء عند السيوطي في رسالته المذكورة تفسير مذهب ابن الحاج في «**المدخل**»، حيث يذكر أنه إنما ذم ما احتوى عليه المولد من المحرمات، مع تصريحه قبل بأنه ينبغي تخصيص هذا الشهر بزيادة فعل البر وكثرة الصدقات والخيرات، وغير ذلك من وجوه القربات[102].

(101) خ. ع. ك 1228 ــ ص. 112-113، ونقله الونشريسي في «**المعيار**»، ج 11 ص. 211-212، ط.ف.، ثم لخصه في «**نيل الابتهاج**»، ص. 193.

(102) كلام السيوطي وارد عند محمد بن عبد الباقي الزرقاني في «**شرح المواهب اللدينة**»، المطبعة الأميرية =

ونحو من هذا ينبغي أن يفسر به كلام أبي العباس أحمد القباب في فتوى له في الموضوع[103].

وأخيرا : هذه فتوى ابن عباد الرندي، وقد ساقها الرصاع في «**فهرسه**»[104] هكذا.

«إن هذا اليوم عيد من أعياد المسلمين، لظهور نور خير الخلق فيه وسيد المرسلين، فالتزين فيه بأحسن الثياب من اللباس، واستعمال الطعام، وإظهار المحبة بالركوب على أحسن الدواب، وكثرة الصلاة عليه، وإنشاد القصائد في صفته، وتزيين الأولاد والمكاتب بما يجوز شرعا : لا شك في جواز ذلك كله إذا سلم من البدع المحرمة التي لا يجوز تعظيم شعائر الله تعالى بها».

وجاء نحو هذا الجواب في «**رسائل ابن عباد الكبرى**»[105]، ثم في «**المعيار**»[106]، حيث عقب عليه الونشريسي بكلام بعض العلماء الذي يقول فيه :

«وما أنكر من أنكر ما يقع في هذا الزمان من الاجتماع في المكاتب للأطفال، إلا خيفة المناكر واختلاط النساء والرجال، فأما إذا أمن ذلك فلا شك في حسن ما يفعل من الاجتماع، وذكر محاسنه والصلاة عليه ــ صلى الله عليه وسلم ــ في سائر البقاع، ويحرم استعمال آلة اللهو عند الاجتماع في هذه الليلة، ولا يجوز تعظيم نبي الله تعالى إلا بما يرضيه ويرضي الله تعالى، بل تنبغي الصدقة في السر بما يعمل في تلك الأيام من الأطعمة، فإن ذلك أسلم من فساد النيات، ومن حضور الجماعات».

= المصرية ــ ج 1 ص. 163 ــ 164، ثم نقله العلامة محمد بن المدني كنون في «**الزجر والإقماع**»، ط.ف، الملزمة 12، ص. 8، وانظر عن ابن دحية وكتابه «**التنوير**» : التعليق رقم 4، وعن ترجمة ابن الحاج وبعض مصادرها ومراجعها : «**معجم المؤلفين**»، ج 11، ص. 284 حيث وقعت أغلاط في نسبة مؤلفات الغير له.

(103) وردت عند الونشريسي في «**المعيار**»، ج 12، ص. 33–34، ط.ف.

(104) ص. 24.

(105) ص. 37.

(106) ج 11، ص. 211، ط.ف.

الفصل الثاني

وصف المغرب
أيام السلطان أبي الحسن المريني

الفصل الثاني

وصف المغرب أيام السلطان أبي الحسن المريني

مقتبس من «مسالك الأبصار، في ممالك الأمصار»

لابن فضل الله العمري

مقدمة

تكمن بين طيات عدد من المؤلفات، نصوص دفينة تكشف عن كثير من حقائق لا تزال غير معروفة عن تاريخنا الوطني، وما أجدر أمثال هذه الدفائن بأن تمنح حق الأولوية، حتى تكون لها الأسبقية في البحث والنشر قبل مؤلفات التاريخ المغربي الموضوعية.

ومن هذه النصوص : القطعة التي تصف المغرب أيام السلطان أبي الحسن المريني، وينشر نصها العربي لأول مرة، مقتبسا من الباب الثالث عشر من كتاب **«مسالك الأبصار، في ممالك الأمصار»**.

إن مؤلف هذا الكتاب هو شهاب الدين أحمد بن يحيى بن فضل الله بن المجلي، القرشي العمري ثم الدمشقي الشافعي، ولد سنة 700هـ/1300م، وكانت وفاته سنة 749هـ/1348م، توجد مصادر ومراجع ترجمته في **«معجم المؤلفين»** ج. 2، ص. 204- 205، مع ج. 13، ص. 371.

أما كتاب **مسالك الأبصار** فهو موسوعة كبرى في الجغرافية، ويتناول - أيضا - التاريخ والأدب والإجتماع ونواحي من العلوم الطبيعية، وينقسم - مبدئيا - الى قسمين : يتحدث القسم الأول عن الأرض، فيصف المسالك ثم الممالك، ثم يتحدث القسم الثاني عن سكان الأرض : انسان، وحيوان، ونبات، ومعادن، وقد أفاض المؤلف في وصف سكان الأرض وترجم كثيرا من الرجالات.

لا يزال معظم الكتاب مخطوطا، وتوجد منه قطع ـ تخرج منها نسخة كاملة ـ في مكاتب الإستانة، ومنه أجزاء أخرى متفرقة في مكاتب أوربا وشمال افريقيا، وتحتفظ دار الكتب المصرية بنسخة كاملة مضورة من مكتبة أيا صوفيا وطوبقبو بالاستانة، تقع في 16 جزءا كبيرا، ويبلغ عدد لوحاتها 9381، وكان الذي استحضر هذا المصور من تركيا هو الأستاذ الكبير أحمد زكي باشا.

ومع أهمية هذا الكتاب فلا يزال لم ينشر نصه العربي بكامله، وقد طبع منه الجزء الأول بمطبعة دار الكتب المصرية سنة 1342 هـ ـ 1924 م بتحقيق زكي باشا آنف الذكر، كما نشر منه وصف افريقية والأندلس بعناية الأستاذ الجليل حسن حسني عبد الوهاب ـ مطبعة النهضة بتونس ـ وقام عدد من المستشرقين بترجمة أقسام منه.

ومن بين المؤلفين الذين اقتبسوا منه : القلقشندي الذي جعل من «**مسالك الأبصار**» المصدر الأول لكتابه الجليل «**صبح الأعشى**»، وهو ـ أيضا ـ من مصادر ليون الإفريقي في كتابه «**وصف إفريقية**».

* * *

إن النص الذي يقدم للنشر، مكتوب عن قطعة من «**مسالك الأبصار**» تشتمل على الممالك الواردة في هذا الكتاب، وعددها أربعة عشر موزعة على الأبواب التالية :

الباب الأول في مملكة الهند والسند، الثاني في ممالك بيت جنكزخان، الثالث في مملكة الجبل، الرابع في مملكة الجبال، الخامس في مملكة الأتراك بالروم، السادس في مملكة مصر والشام والحجاز، السابع في مملكة اليمن، الثامن في ممالك المسلمين بالحبشة، التاسع في ممالك مسلمي السودان على ضفة النيل الممتد الى مصر، العاشر في مملكة مالي وما معها، الحادي عشر في مملكة جبال البربر وبلاد السودان أيضا، الثاني عشر في مملكة إفريقية، الثالث عشر في مملكة بر العدوة، الرابع عشر في مملكة الأندلس.

تقع هذه القطعة أول مجموعة تشتمل ـ أيضا ـ على مختارات من «**تحفة الألباب لمجالسة الأحباب**» لمحمد بن عاصم بن عبيد الله بن محمد بن ادريس القيسي الأندلسي الرندي، مما انتقاه ـ على جهة الاختصار ـ من الكتاب المسمى

«**مناهج الفكر ومناتج العِبَرِ**»، كما تشتمل على مقيدات متنوعة، عدد أوراق المجموعة 155، ينوب منها قطعة المسالك 113 ورقة، مسطرة مختلفة، حجم صغير، كتبت المجموعة بخط واحد، وهو خط شرقي نسخي دقيق، مكتوب بالسواد وملون ــ قليلا ــ بالأحمر، به قليل من التصحيف والنقص، وفي آخر مختارات تحفة الألباب ــ ورقة 149 ب ــ يحدد اسم الناسخ وتاريخ النسخ هكذا :

فرغ من تعليقه الفقير الى الله تعالى : محمد ابراهيم العينهاي بدمشق، خامس جمادى الأخير سنة تسع عشر وثمانمائة.

توجد هذه المجموعة بيد كاتب السطور، ومنها مصورة بالخزانة العامة بالرباط تحمل رقم د 2642، ومنها مصورة أخرى في حوزة المدير السابق للثانوية اليوسفية بالرباط الأستاذ دو فيردان، وقد كتب عن، هذه المجموعة مقالا نشر في مجلة «**هسبريس**»، 3ـ4، سنة 1954م.

* * *

إن الباب الثالث عشر في مملكة بر العدوة هو الذي تقتطف منه القطعة التي ننشرها، وهي تصف مظاهر من حياة المغرب أيام السلطان أبي الحسن المريني، وبالضبط في سنة 738هـ/1338 م، ويوجد من بين المواضيع التي تناولتها :

مباني المرينيين بفاس الجديد ــ أصناف الجيش المريني وأوصافه ــ وصف فاس العتيق ــ العملة المرينية والأوزان والمكاييل ــ زراعة قصب السكر في العصر المريني ــ مراكش القديمة ــ وصف مراكش الموحدية : «القصبة» ــ الأزياء الرسمية للسلطان أبي الحسن ورجال الجيش ــ نظام استعراض الجيش ــ المرتبات والمنح ــ العمل اليومي للسلطان أبي الحسن المريني ــ جلوسه للمظالم ــ نظام السفر الملكي ــ شعارات الدولة ــ تقاليد صلاة العيدين ــ نظام المكاتبات السلطانية.

وهكذا نتبين أن هذه القطعة تمدنا بمعلومات يندر أن نعثر على كثير منها لو لم يدونها ابن فضل الله العمري في «**مسالكـ**»ـه.

ويزيد في أهمية هذه المعلومات، أن يكون آبن فضل الله العمري استقى كثيرا منها من مصدرين هامين : الأول من مشافهة مغاربة كانوا معاصرين لما دونه عنهم مؤلف «**المسالك**»، ويتعلق الأمر بثلاثة وهم محمد السلاحي، ومحمد بن عبد الواحد العقيلي، وابن حراز.

والمؤلف في هذه الحالة لا يتساهل في توثيق النقل عن كل من يحدثه، وقد أوضح منهاجه في هذا الصدد في مقدمة «**المسالك**»، ج 1، ص. 2 لما يقول :

«... اعتمدت في ذلك على تحقيق معرفتي له : فيما رأيته **بالمشاهدة**، وفيما لم أره بالنقل ممن يعرف أحوال المملكة المنقول عنه أخبارها، مما رآه بعينيه، أو سمعه من الثّقات بأذنه»، ثم يذكر نقده لهذه الأخبار التي يرويها عن معاصريه ويقول :

«واستكثرت ما أمكنني من السؤال عن كل مملكة، لأمن من تغفل الغفلاء، وتخيل الجهالات الضالة، وتخريف الأفهام الفاسدة».

المصدر الثاني كتاب «**المغرب، في حلى المغرب**»، تأليف أبي الحسن علي بن موسى بن محمد بن سعيد العنسي الغرناطي، المتوفى بتونس سنة 673 هـ/1275 م، فإن كثيرا مما ذكره في وصف فاس العتيق ومراكش الموحدية، مقتطف من الجزء الخاص بالمغرب الذي هو أحد أجزاء كتاب «**المغرب في حلى المغرب**»، وتظهر أهمية هذه المقتطفات ـ عظيمة جدا ـ إذا علمنا أن الجزء الخاص بالمغرب مفقود الآن، حيث أن نسخة المغرب المكتوبة بخط المؤلف والمحفوظة بدار الكتب المصرية : لا تشتمل إلا على أجزاء مصر والأندلس، وقد نشرت هذه الأجزاء.

وابن فضل الله العمري حين يعتمد ابن سعيد لا ينساق معه انسياقا، وقد نقده فيما ادعى من وجود ثلاثة آلاف رحى على الضفة الغربية لنهر فاس الأعظم ـ انظر ص 555 من هذا العمل، وهذا مما يزيد في صحة المعلومات التي تقدمها هذه القطعة، التي يذكر من محاسنها ـ أيضا ـ أنها تصف عمران فاس ومراكش قبيل الطاعون العام الذي نزل بالعالم سنة 749هـ/ 1349م، وقد قضى على كثير من محاسن العمران بالمغرب والمشرق، كما يقرر هذا ابن خلدون في «**المقدمة**»، ص.27 : المطبعة البهية، بمصر.

* *

أما خطة تصحيح هذا النص فقد ارتكزت على اعتماد النسخة الموصوفة سابقا، لما لم يتيسر ـ الآن ـ الحصول على نسخ أخرى، وقد انتفعت كثيرا بالمقتبسات التي أثبتها عن «**المسالك**» مؤلف كتاب «**صبح الأعشى**» بالجزء الخامس، كما استعنت بمصادر ومراجع أخرى في تحقيق بعض الكلمات والتعليق على بعض الفقرات، وقد سميت هذه المصادر والمراجع أثناء التعاليق .

(مبانٍ مرينية بفاس الجديد) (103 ـ أ) ... ومكان السلطان في بر العدوة، وهو بفاس الجديد «المسماة بالبيضاء»، في دار لا يختص فيها بزيادة رفعة على بشر ولا ربوة.

و ..[1] .. القصر وهو عالي البناء، ذو قباب علية ضخمة لائقة بالملوك، وغرف مرتفعة، ورفارف[2]، ومجالس سلطانية.

وبداخله القبة المعروفة بـ «قبة الرضا»، وهي قبة عظيمة الإرتفاع، خارقة الاتساع، وقدامها بركة ممتدة بها مركب لاتساعها وكبرها، وخلفها بركة أخرى مثلها، بها مركب آخر لاتساعها وكبرها، ومساحة المركبين واحدة، والقبة العظمى بينهما، وفي جميع جدر القباب شبابيك مطلة، والبستان[3] حاف بالجميع، وهو بستان جليل منوع بصنوف الأشجار والغراس على اختلافها.

ويجري الماء الى قصر السلطان من مكان يعرف بأسايس[4] على بعد نصف نهار وأقل[5]، مرفوعا في قناة على قناطر مبنية إليها.

واصطبلاته الى جوانب قصره، لا يسكن معه في قصوره إلا حريمه وفتياته، «وهم الخدم الخصيان»، ويبيت حوله في ظاهر قصره طائفة من الفرنج، وأناس يعرفون بالعدويين : «بمنزلة النقباء»، ووصفان السلطان، والبوابين.

ولا ينازله في قصره أحد من الأشياخ ولا الجند ولا الغرباء.

(نسب الملوك المرينيين)

ومرجع ملوك بني مرين : سلاطين بر العدوة في زناتة، وكذلك مرجع بني عبد الواد، فأما بنو مرين فملوكهم (103 ـ ب) في بني عبد الحق.

---

(1) كلمة مخروقة.

(2) رفوف.

(3) هذا غير بستان المصارة الواقع خارج فاس الجديد، وسيرد ذكره بعد.

(4) يقصد البسيط الفسيح الواقع بين فاس ومكناس، وينبع هذا الماء من الموضع المعروف برأس الماء، كما هو تعبير **روضة النسرين**، ص. 20 : المطبعة الملكية بالرباط.

(5) صواب التعبير : أو أقل.

(أصناف الجيوش المرينية)

ومن قبائلهم بنو عسكر، وبنو وطاس، وبنو الكاس، وبنو يابان، وبنو تنالفت، وبنو فرنت، وبنو يرنيان.

وأما أتباعهم فهم الحشم، وبنو فودود، مع ما يضاف الى هؤلاء من الأفراد الأنجاد : ممن له فروسية وشجاعة، وهم كثير جدا، فيدخلون في سلك وصفان السلطان، أو وصفان أشياخ هذه القبائل المذكورة، وكلهم بنو مرين، غير هؤلاء الأفراد.

والذين كانوا مع بني عبد الواد : مغراوة «وهم أفخاد كثيرة»، وبنو راشد، وبنو توجين، وبنو مليكس، وبنو سدويكس، ومن بني توجين : بنو عبد القوي، ومن بني عبد القوي : من كان قد تغلب وملك، حتى قهرهم بنو عبد الواحد وملكوا عليهم فاتخذوهم أعوانا، وقد صار الكل لهذا السلطان جندا مع من كان معه من قبائله.

ومن جملة عساكره : قبائل من الغرب كثيرة، منهم بنو حسان، والعاصم[6]، وبنو جابر، والخلوط، ورياح، وسويد، والشبانات، وبنو عامر، وبنو سالم، وغيرهم.

وله في عسكره من الغز[7] : مقدار ألف وخمسمائة فارس، ومن الفرنج : مقدار أربعة آلاف فارس أو أزيد[8]، وهم يركبون ـ خاصة ـ خلف ظهره، وله علوج مماليكه مسلمون مقدار خمسمائة فارس : فرسان رماة، ومن الجند رماة ـ وهم الأندلسيون ـ يرمون بقوس الرجل : أزيد من ألفي فارس، وطائفة كثيرة يقال لهم الوصفان، خاصون بالسلطان يسكنون حواليه، وينزلون ـ في السفر ـ الى جوانب محلته دائرين في جملة نواحيه : يقال لهم أهل الدوار[9] .

---

(6) في الأصل : والعباهم.

(7) الغز ويقال لهم الأغزاز : أصلهم جماعات من أتراك مصر، وقد دخلوا شمال إفريقية على عهد الموحدين، واستخدم يعقوب المنصور الموحدي طائفة منهم في الجيش النظامي، وفي **المعجب**، ص. 191، أن هذا الملك منحهم امتيازات سخية زائدة على ما للجيوش الموحدية الأخرى. وانظر **المعجب** أيضا، ص. 168 مطبعة السعادة بمصر.

(8) الذي في **المسند الصحيح الحسن** : أن عدد النصارى الملازمين لخدمة السلطان أبي الحسن المريني يتراوح بين ثلاثة ءالاف وألفين، ويفيد هذا المصدر أن رواتبهم كانت من الخمسين دينارا ذهبا إلى خمسة في كل شهر، مخطوط خ. ع. ق 111.

(9) الدوار يطلق في الاستعمال الأمازيغي على مجموعة من سكان الخيم الذين يضمهم مكان واحد.

(صفات الجيش المريني)

وكل جيوشه أبطال نقاوة[10]، ولا يطاق هياج أسدهم، ومصالتة سيوفهم.

(104 ـ أ)... ولقد أنشأ هذا السلطان[11] من فرسان الزمان، ورجالات الدهر، ما خمل كل مذكور، وغلب على كل مشهور، مع ما هم عليه من العلم والتقى، مما لا يقدر واحد منهم ـ لمهابته ـ على ارتضاع كاس، ولا اهمال صلاة، يناقشهم على هذا، ويواخذهم به، حتى إذا كانوا في السفر وأذّن المؤذّن نزل ونزلوا، حتى تقام الصلاة ويصلون جماعة.

(فاس الجديد والعتيق)

... وقاعدة الملك مدينة فاس، ثم مراكش، وهي التي كانت ـ قديما في زمان بني عبد المومن ـ قاعدة الملك العظمى، فلما انتقل الملك الى بني مرين، وتحلى جيده بعقدهم الثمين، أبوا إلّا أن يتخذوا لهم مدينة فاس دار ملك، فاستوطنوها، وبنوا ـ معها ـ ثلاث مدن موازية لها، على ضفة الوادي المعروف بوادي الجواهر[12] : غربا بقبليه .

فأولها : «المدينة البيضاء» وتعرف بالبلد الجديد، بناها أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق[13]، وهو أول من استقل بالملك بعد الموحدين، لأن أخاه أبا يحيى أبا

(10) نقاوة الشيء خياره وخلاصته.

(11) هو أبو الحسن المريني كما صرح باسمه في مواضع من هذه القطعة.

(12) يعرف أيضا بغدير الحمص **روضة النسرين**، ص.20.

(13) كان الشروع في بنائها ثالث شوال سنة 674 هـ **روض القرطاس**، ص.232 و295، ط. ف 1305، وفي **العبر** ـ ج 7، ص. 195 ـ يصف تأسيس يعقوب المريني لفاس الجديد هكذا :
«... وشرع في تأسيسها لثالث شوال : من سنة أربع وسبعين وستمائة، وجمع الأيدي عليها، وحشد الصناع والفعلة لبنائها... فكمل تشييد هذه المدينة على ما رسم وكما رضي، ونزلها بحاشيته وذويه سنة أربع وسبعين كما ذكرنا، واختطوا بها الدور والمنازل، وأجرى فيها المياه إلى قصوره، وكانت من أعظم آثار هذه الدولة وأبقاها على الأيام».
وجاء في **روضة النسرين**، ص. 20 ـ في هذا الصدد ـ وهو «يعقوب المريني» الذي أسس المدينة البيضاء : «دار الإمارة المعروفة بالبلد الجديد»... ولما تم سورها بني بها قصره والجامع الأعظم، والسوق الذي حده من باب القنطرة التي يقال لها ـ الآن ـ «باب الوادي» المصاقبة لباب السبع : إلى باب عيون صنهاجة، والحمام الكبير، وأمر الوزراء وأشياخ بني مرين ببناء الدور بها، وكلفت همم الملوك من بنيه بها، فشيدوا القصور الضخمة الرائعة المنظر، المختلفة الأسماء، وجلبوا إليها الماء العذب من العين المعروفة بعين عمير، وهذه المدينة يأتيها الوادي المعروف بوادي الجواهر وغدير الحمص».

بكر : ثار عليهم[14] ومات وما استقل لهم[15] سلطان، ولا استقر له[16] من عزيز الملك أوطان.

ثم «مدينة حمص» ويعرف موضعها با « لملاح»[17]، بناها ولده أبو سعيد عثمان بن أبي يوسف : والد سلطانها القائم الان : بناها الى جانب البيضاء.

و«ربض النصارى» المتخذ لسكنى (104 ـ ب) الطائفة الفرنجية المختصة بخدمة السلطان[18].

ويطلق على هذه الثلاث المتخذات : اسم : «فاس الجديد»، (وهذه)[19] المتخذات[20] كلها على ضفة الوادي الغربية على ترتيب ما نذكره :

---

(14) الموحدين.

(15) المرينيين.

(16) يحيى أبي بكر.

(17) يوخذ من **الجذوة**، ص.28، أن هذه المدينة غير الملاح المبني برسم اليهود، وهذه عبارتها ـ ط. ف : «ودار الخلافة اليوم بفاس الجديد وبها الجند وغيرهم، وبازائها مدينة أخرى تدعى بالملاح لسكنى يهود الذمة، وأما ملاح فاس الجديد فقد بنيت في أيام أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق الريني، فهو الذي أمر ببنائها في اليوم الثاني من شوال عام أربعة وسبعين وستمائة : «أي قبل تأسيس فاس الجديد بيوم، وذلك أن عامة فاس مدوا أيديهم إلى اليهود.. ولولا ركوب أبي يعقوب لأهلكوهم عن آخرهم، فلذلك أمر ببناء الملاح المذكور».

هاذاوفي بعض نسخ **روض القرطاس** المخطوطة ذكر عن مدينة حمص ما يلي : «وفي سنة خمس عشرة (وسبعمائة) أمر أمير المسلمين أبو سعيد ببناء القنيطرة من مدينته الجديدة، ثم بعد ذلك أدار الستارة بالمدينة المذكورة»، أما مدلول «الستارة» فيوضحه ما ورد في **رحلة التجاني**، ط. تونس : **أثناء** كلام ص 240: «... ويحيط بهذا السور ـ الآن ـ فصيل آخر أقصر منه على العادة في ذلك، يسمونه الستارة.

(18) تحدث عن هذا الربض مصدران مرينيان الأول : **الذخيرة السنية التي** قالت، ص.100، ط. الجزائر : «وأخرج «يعقوب المريني» أجناد الروم الذين يسكنون مدينة فاس عنها، وبنى لهم «حظيرة» بخارج المدينة وأسكنهم فيها، ورفع أذاهم عن الناس».

وجاء في نفس المصدر، ص.106، أثناء حوادث 659 هـ : وفيها أمر أمير المسلمين أبو يوسف بإخراج النصارى من فاس، وبنى لهم المرس القديم بخارج باب الشريعة، الثاني : **المسند الصحيح الحسن** الذي ذكر هذا الربض في الفقرة التالية : «وخص «يعقوب المريني» النصارى الخدام بمسكن يميزون به عمن سواهم».

(19) هذه عبارة «الصبح»، ج 5، ص.154، وفي الأصل «وهي».

(20) يقصد بها مدن فاس الجديد الثلاث.

فربض النصارى يقع قبالة فاس القديمة على بعد من ضفة الوادي من غير مسامتة ولابد، والبيضاء ـ وهي المسماة بفاس الجديد ـ آخذة[21] من شمالي ربض النصارى الى ضفة النهر، وتقع أول عمارة فاس الجديد، قبالة آخر عمارة فاس العتيقة[22]، وحمص ـ راكبة على النهر بشمال، على جانب فاس الجديدة ـ آخذة إلى ربض النصارى، عقد على الوادي قناطر، وبنيت حمص على ضفته وهي فوق الجميع، لأن الوادي منها ينحدر على ما نبينه : وهو أن هذا النهر ينصب من الجنوب إلى الشمال، ثم ينعطف على زاوية آخذة من الغرب إلى الشرق (حتى يصير)[23] كأنه ينحدر من الغرب، وحمص على مجراه هناك، ثم يمر آخذا إلى الشرق على حاله فوق فاس الجديدة، ثم ينعطف عليها (بـ)[24] زاوية إلى الجنوب، ثم ينعطف إلى الشرق جائزا بها، وهناك فاس العتيقة على الضفة الشمالية، والقصبة[25] بها في غربيها مرجلة على الأرض، لا تتميز على المدينة برفعة ولا ببناء عال. وتلك المتخذات كلها على الضفة الغربية، ويبقى النهر مستديرا بفاس الجديدة من جانب الشمال على المجرى المركب عليه حمص، ومن الشرق حيث انعطف النهر حيث فاس العتيقة.

وهذا (النهر)[26] هو متوسط المقدار يكون عرضه ـ في المكان المتسع ـ قرب أربعين ذراعا، وفي المضايق دون هذا، وربما تضايق إلى خمسة عشر ذراعا وأقل من ذلك، وعمقه في الغالب يقارب قامة رجل، وعليه. الناعورة[27] المشهورة، ترفع إلى بستان السلطان المعروف بـ«المسارة»، وهو بستان جليل فيه قصر جميل[28]، وهذا

---

(21) هذا تعبير **الصبح**، ج 5، ص.154، وفي الأصل أخذها.

(22) لم يكن بين المدينتين سور يصل بينهما حتى عهد السلطان العلوي الحسن الأول، حيث قام ببناء سور شارع أبي الجنود، ووصل به المدينة الجديدة بالقديمة : **الدرر الفاخرة**، ص.103.

(23) الزيادة من «الصبح»، 5 ص. 155.

(24) الزيادة من «**الصبح**» أيضا في نفس الصفحة.

(25) هي قصبة النوار التي بناها محمد الناصر الموحدي، وقد ورد ذكرها في **روض القرطاس**، ص.165، **والجذوة**، ص.129، وفي **الدوحة المشتبكة** أنها بنيت سنة 600، وانظر **زهرة الآس**، ص.32، ط. الجزائر.

(26) الزيادة من «**الصبح**»، ج 5، ص.155.

(27) وضعت على الوادي في رجب سنة 685 هـ ودارت في صفر سنة 686، **روض القرطاس**، ص 297.

(28) في **روض القرطاس**، ص.297، سنة 686 : «وفيها غرست «المصارة» وبنيت الدار البيضاء من البلاد الجديدة، وعبارة **الاستقصا**، ج 2، ص.43، سنة 686 هـ، ط مصر :
«وفيها غرس بستان «المصارة» بفاس الجديد وبنيت الدار البيضاء بها أيضا».

البستان خارج المدينة الجديدة، وهذه الناعورة مشهورة الذكر، يضرب بها المثل ويتحدث بها الرفاق.

وفاس العتيقة ذات عيون جارية، يقال : إن فيها أربعمائة عين سارحة، قال الامام أبو عبد الله، إنها خمسمائة وستون عينا[29] معدودة، والماء مسلط[30] عليها، أي على دياراتها ومساكنها، وأما المتخذات فإنها على علو، لا عيون بها ولا يحكم الوادي عليها، وجميع أرض فاس العتيقة مجبلة غير مستوية، وأما المتخذات فمستوية.

(و)[31] على كل من عتيقها وجديدها أسوار دائرة محصنة ذات بروج وبدنات، وجميع أبنيتها من الحجر والآجر والكلس، موثقة البناء، مشيدة الاركان، وتزيد فاس الجديدة على فاس العتيقة في الحصانة والمنعة، والعتيقة بسور واحد من الحجارة، والجديدة بسورين من الطين المفرغ بالقالب من التراب والرمل والكلس المضروب، وهو أشد من الحجر، ولا تعمل فيه المجانيق ولا تؤثر فيه.

ويلي القصبة القديمة مخازن الغلال داخلها المطامير، وهي مجموعة في مكان واحد يستدير به سور منيع، عليه باب وغلق، ويسمى هذا الموضع بـ«المرس القديم»[32].

وابنية فاس ومتخذاتها : جميعها جليلة مفخمة، وان كانت لا تلتحق بمراكش فيما كانت عليه من عظم مبانيها، وفخامة مغانيها، وهو باق منه دليل على ما كان، وسيأتي ذكرها في موضعه.

= وقد ورد ذكر الدار البيضاء من قصور أبي سعيد المريني في **العبر**، ج 7، ص.244، ويؤكد البعض أن هذه الدار البيضاء تسمى أيضا «دار دبيبغ».

أما موقع بستان المصارة فقد أشار له محمد الفاطمي الصقلي في أحد تعاليقه على **روض القرطاس**، ص 23، وحدد جهته بالاستناد لكلام ابن أبي زرع بأنه يقع قرب المحل المعروف بالملعب، المتخذ لمسابقة الخيل أيام الأعياد، وخلافا لما في النسخة التي نعتمدها، فإن كلا من **روض القرطاس** و**الاستقصا**، يكتبان المصارة بالصاد لا بالسين.

(29) عبارة **الصبح**، ج 5، ص.153 : وفيها عدة عيون، قال أبو عبد الله العسلي (العقيلي) : «عدتها ثلاثمائة وستون عينا»، والذي في **المعجب** ص 239 : «وتتخلل الأنهار أكثر دورها زائدا على نحو من أربعين عينا تنغلق عليها أبوابها، ويحيط بها سورها». وقال في **الاستبصار** ص 180 : «وفيها (فاس) عيون كثيرة لا تحصى عددا.

(30) سياق التعبير مقسط بدل مسلط.

(31) الزيادة من **الصبح**، ج 5، ص.155.

(32) ورد إسم المرس في **الجذوة**، ص 28.

وبفاس ــ داخل سورها ــ جنائن ورياض (105 ــ أ)، ذوات أشجار ورياحين في دور الكبراء وبيوت الأعيان، وبها أرجاء كثيرة دائرة على الماء تقارب أربعمائة رحى.

وبكل من فاس القديمة وفاس الجديدة المسماة بالبيضاء وحمص : الجوامع[33] والمساجد والمآذن والحمامات والأسواق، فأما المدارس والخوانق والربط، فمما خلت صحائف حسنات أهل المغرب من أجورها إلا النزر اليسير جدا[34]، وبفاس العتيقة مارستان[35].

وعمائر العتيقة ــ كما قدمنا القول فيه ــ بالآجر، وأما المتخذات فغالبها بالقالب من نسبة أسوارها، وسقوفها بالأخشاب، وربما قرنصت[36] بعض السقوف بالقصدير والأصباغ الملونة، وتفرش دياراتهم[37] بالزليج ــ وهو نوع من الآجر القاشاني ــ بأنواع[38] الألوان : الأبيض والأسود والأزرق والأصفر والأخضر وما تركب (من)[39] هذه الألوان، وغالبه بالأزرق الكحلي، ومنه من يتخذ منه وزرات حيطان الدور[40]، أما دور هؤلاء[41] فتفرش بآجر يسمى المزهري[42].

ولأهل فاس ولع ببناء القباب، فلا تخلو دار كبيرة في الغالب من قبة أو أزيد،

(33) كان أول جامع تأسس في فاس الجديد هو الجامع الكبير، سنة 677 هـ، ثم في يوم السبت 27 ربيع الأول سنة 679 هـ علقت به الثريا التي تزن سبعة قناطير وخمسة عشر رطلا، وتشتمل على 287 مصباحا : **روض القرطاس**، ص 296.

(34) هذه فلتة من ابن فضل الله العمري، ولتصحيح الوضع يراجع بالخصوص **روض القرطاس والذخيرة السنية والمسند الصحيح الحسن ومعيار الاختبار**.

(35) لاشك أنه يقصد بيمارستان سيدي فرج الذي كان موقعه قرب سوق العطارين وسوق الحناء، انظر عنه بالخصوص : **تاريخ البيمارستان في الإسلام**، ص.284 ــ 287.

(36) عبارة **الصبح**، ج 5، ص.155 : غشيت.

(37) عبارة **الصبح**، ج 5، ص.156 : وأرض دور رؤسائها مفروشة بالزليج»، فعلى هذا سقطت كلمة رؤساء من النسخة التي نعتمدها.

(38) يبدو أن الأصل : «مدهون بأنواع».

(39) الزيادة من **الصبح**، ج 5، ص.156.

(40) عبارة **الصبح**، ج 5، ص.156 : «وربما اتخذ منه الوزرات بحيطان الدور»، والوزرات جمع وزرة وهي في الأصل كساء صغير، ويقصد بها هنا نطاق صغير من الزليج بحيطان الدور : في أسافلها.

(41) يبدو أن أصل التعبير : «أما دور غير هؤلاء» يعني غير الرؤساء، استنادا لما تقدم عن الصبح بالتعليق 37.

(42) لا يزال هذا الاسم يطلق بالمغرب على نوع من الزليج لا يحتل الدرجة الأولى.

وصورة تفسير أبنية دورهم : مجالس متقابلة على عمد من حجر أو آجر، ورفارف مطلة على صحن الدار، وقدامها طيافير يجري الماء اليها، ثم يخرج بركة في وسط الصحن، «والبركة عندهم صهريجا»[43].

وغالب أغنيائهم يعملون لهم حمامات في بيوتهم، أنفة من الدخول مع عامة الناس، لأن حماماتهم صحن واحد لا خلوة فيها تستر بعض الناس من بعض، ولهم تأنق في البناء، وهم لا يقصر بهم عن الغاية فيه.

وفاس القديمة ـ هي أيضا ـ مدينتان، أقدمهما المعروفة بمدينة الأندلسيين، بنيت في زمان ادريس بن عبد الله الحسني أحد خلفاء المغرب[44]، ثم المعروفة بمدينة القرويين بنيت بعدها[45]، قلت : وهذان المدينتان هما المعبر عنهما ـ الآن ـ بفاس العتيقة، فجملة فاس ـ الآن ـ ما نذكر : مدينة الأندلسيين، ومدينة القرويين، ومدينة البيضاء، ومدينة حمص، وربض النصارى، والقصبة، وفاس القديمة لجميع الأندلسيين والقرويين، وفاس الجديدة لجميع البقية[46]، وهي البيضاء، وحمص، والربض، ويطلق على الجميع اسم «فاس».

وذكر ابن سعيد : أنها إنما سميت فاس، لأنهم لما شرعوا في بناء أساسها وجدوا فأسا فسموها به فاس[47]، وقد ذكر ابن سعيد فاسا فقال : «هي متوسطة بين مدن المغرب، يعني الداخل : من مراكش وسبتة وسجلماسة وتلمسان عشرة أيام»، قلت ولتوسطها صلحت أن تكون قاعدة الملك من جميع نواحيه. ولها جنان كثيرة، وزروع وضرع، وحراثة، وعلى نهرها الأعظم الغربي ثلاث آلاف رحى[48]، وعلى حافتيه القرى والضياع والمدن الجليلة، وهي تشبه بدمشق وبغرناطة، والجبال تكتنفها،

(43) يبدو أنه سقط من وسط هذه الفقرة كلمة : «تسمى».

(44) إن نسبة تأسيس فاس الأندلس للمولى إدريس الأول، هو الذي يصححه المستشرق الفرنسي ليفي بروفنصال في مقاله : «تأسيس مدينة فاس» انظر كتاب **الإسلام في المغرب والأندلس**، الفصل الأول، الترجمة العربية.

(45) هذا التقسيم لعدوتي الأندلس والقرويين قد تغير الآن، وأضيف لهما قطاع اللمطيين.

(46) تعبير الأصل هكذا : «والذي يطلق على الجميع : فاس القديمة ولجميع الأندلسيين والقرويين، وفاس الجديدة ولجميع البقية وهي البيضاء ...»، وما ذكرناه تصويب.

(47) لا تعدو هذه القولة أن تكون أسطورة : ليفي بروفنصال، كتاب **الإسلام في المغرب والأندلس**، الفصل الأول. الترجمة العربية.

(48) سيفند ابن فضل الله العمري هذه القولة في نفس هذه الصفحة.

وهي ممتدة بينها، ونهرها يلاقي نهر وادي سبو، وهو من أعظم أنهار المغرب، يصب في المحيط بين سلا وقصر عبد الكريم، وفوهته من هناك متشعبة، وأمواجه مضطربة، وهي أكثر مياها من دمشق ومن غرناطة، قال ابن سعيد : ولم أر قط حماما في داخلها عين تنبع إلا بها، واثنى الشريف الإدريسي في **أخباره** على مآكلها ومطاعمها، ولأهلها اليد الطولى في (105 ب) صناعة المخروطات من الخشب والنحاس، وهي تشبه دمشق في البساتين، وأهلها يشبهون بأهل إسكندرية في المحافظة على علوم الشريعة وتغيير المنكر والقيام بالناموس، وفي عامتها الذعارة والمفاخرة بالقتل، وبها بستان ابن جيدر يشقه نهر فاس، وما يدري أحد ما أنفق فيه من الأموال : بين بنيان ونجارة وزخرفة وغرس.

قال : «وفي فاس مظاهر من هذه الألون، ما تعوى»[49] به غيرها من البلدان، وقد قال ابن منقد رسول الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب الى المنصور ابن عبد المومن، في «رسالته المغربية» : «ولقد أخرجوني إلى بستان بفاس يقال له «البحيرة» أتفرج فيه، ضمانه خمسة وأربعون ألف دينار، وفيه بركة ذرعت كل جانب منها : مائتين وستة عشر ذراعا بالمرفق، ويكون دور البركة ثمانمائة ذراع وأربعة وستين ذراعا، وعندهم ما هو أكبر من ذلك، وأكثر عمائر المتنزهات بها خفيفة الآلات لا مبالغة لها ولا كلفة.

قال[50] : وقول ابن سعيد : «على ضفة البحر[51] ثلاثة آلاف رحى» لا حقيقة له ولا بعضه، إلا نحو ما تقدم ذكره.

وفاس وخيمة البقعة، ثقيلة الماء، يعلو وجوه سكانها صفرة، ويحدث لأجسامهم كسلا وفترة.

... وسألت (107 ـ أ) السلاحي عن مقدار عمارة فاس، عتيقها وجديدها؟ فقال لي يكون قدر ثلث مصر والقاهرة[52] وحواضرهما، لكن عالمها أقل، وبالغ في وصف دياراتها وأوطانها، وما اشتملت عليه بساتينها المنوعة الثمار، المطردة الأنهار، وما بها من الرخاء الدائم، والأمن والدعة.

---

(49) قد يكون أصل التعبير «ما تغري» أو نحو ذلك.

(50) **المؤلف**.

(51) الذي تقدم عن ابن سعيد : «وعلى نهرها الأعظم»، فقد تصحف هنا النهر بالبحر.

(52) هاكذا في النسخة التي نعتمدها، والظاهر أن واو القاهرة زائدة.

(النقود والأوزان والمكاييل)

فسألته عن معاملاتها وأسعارها فقال : المثقال الذهب بمائة وعشرين درهما من الدراهم الصغار، وكل درهم[53] من هذه الدراهم ستون درهما من الكبار، لأن كل درهم من الكبار بدرهمين من الصغار، وكل درهم من هذه الدراهم الكبار يكون نظير درهم أسود في مصطلح أهل مصر : والدرهم الأسود بمصر هو ثلث نقرة[54] من معاملة مصر والشام.

قال وحيث يقال درهم ويسكت لا يراد به إلا الدرهم الصغير، وهو سدس درهم، إلا بمراكش وما جاورها وقاربها حيث قيل درهم لا يراد به إلا الدرهم الكبير، حتى ينص على الصغير، هذا في مراكش وعملها وما قاربها خاصة، دون بقية العدوة على الإطلاق[55].

والرطل هو نظير إفريقية سواء، على (ما) تقدم ذكره[56]، وأما الكيل الأكثر : بالوسق[57].

(الأسعار)

قال : أوسط الأسعار : كل وسق قمح بأربعين درهما من الصغار، والشعير دون ذلك، وكل رطل لحم بدرهم واحد من الصغار، وكل طائر من الدجاج بثلاثة دراهم من الصغار، وهذا كله في المتوسط بالسعر المتوسط في غالب الأوقات.

(النباتات)

وبر العدوة به (من)[58] أنواع الحبوب : القمح والشعير والفول والحمص

(53) عبارة **الصبح**، ج 5، ص.177 : «وكل مثقال ذهب ـ عندهم ـ يساوي ستين درهما كبارا»، ومنها يتبين أن المثقال تصحف في هذه النسخة بالدرهم، «والمثقال هو الدينار».

(54) عبارة **الصبح**، ج 5، ص.177 : «ثلث درهم من الدراهم النقرة».

(55) هذا يفيد أن ديار ضرب السكة كانت غير موحدة.

(56) يشير إلى ما ذكره في الباب 12 الذي خصصه لمملكة افريقية : «ورطلها ستة عشر أوقية، ووزن الأوقية أحد وعشرون درهما من دراهمها»، **مسالك الأبصار، في ممالك الأمصار**، لابن فضل الله العمري ـ النسخة التي تحقق عنها هذه القطعة : ورقة 98 ب.

(57) عبارة **الصبح** ج 5، ص.177 : وأما كيلها فأكثره الوسق ويسمى الصحفة، وهو ستون صاعا بالصاع النبوي على السواء.

(58) الزيادة من **الصبح**، ج 5، ص.175.

والعدس والدخن والسلت وغير ذلك، إلا الأرز فإنه قليل، وإن ازدرع في بعض الأماكن من بر العدوة، ولكنه يجلب إليهم من بلاد الفرنج، وما لهم نهمة في أكله ولا عناية به، ويزرع به السمسم ولكنه (ليس) بكثير، ولا يعتصر منه بالمغرب شيرج[59]، ولا يأكل الشيرج منهم إلا من وصفه له الطبيب، وإنما أكلهم عوضه الزيت، و(حتى) مزورات الضعفاء، وهم يعملون الحلوى بالعسل والزيت.

وبها أنواع الفواكه المستطابة اللذيذة المتعددة الأنواع والأجناس : من النخل والعنب والتين والرمان والزيتون والسفرجل والتفاح على أصناف، والكمتري كذلك، ويسمى ببر العدوة الأنجاص كدمشق، والمشمش والعين[60] والبرقوق والقراشيا[61] والخوخ، (و)[62] غالب ذلك على عدة أنواع، فأما التوت فقليل، وبها الجوز واللوز، ولا يوجد بها الفستق والبندق إلا مجلوبا، وبها الأترج والليمون والليم والنارنج والزنبوع وهو الكباد، والبطيخ الأصفر، فأما الأخضر فهو يسمى عندهم بالدلاح وهو قليل، (107 ب) والموجود منه لا يستطاب، وبها الخيار والقثاء واللفت والباذنجان والقرع والجزر واللوبيا والكرنب والشمار والصعتر وسائر البقول، وأما القلقاس[63] فلا يزرع عندهم إلا للفرجة على ورقه، لا لأن يؤكل، ولا يوجد بها الموز إلا في بعض المواضع نادرا مما يهدى ويباع.

وأما قصب السكر فهو كثير : بجزائر بني مزغنان وبالسوس وبنواحي مراكش، وبسلا : كثير، ولولا عدم استقامة أهل السوس وتلك الأطراف وكثرة المراسم لكان كثيرا جدا، والموجود منه يعمل منه قند[64] ويسيل منه السكر، ولكنه متوسط المقدار، وسألت ابن جرار[65] عما يعمل بمراكش من السكر؟ فقال يعمل منه أنواع،

---

(59) دهن الجلجلان.

(60) لا يدري ما يقصد بالعين، وقد تكون تصحيفا عن العناب.

(61) وردت في **الصبح**، ج 5، ص.176 بالصاد وهي حب الملوك.

(62) الزيادة من **الصبح**، ج 5، ص.176.

(63) هو القرزقاز بلغة أهل فاس.

(64) القند عسل قصب السكر إذا جمد.

(65) قد يكون هو عثمان بن يحيى بن محمد بن جرار التلمساني، وهو رئيس مذكور، ورد عنه في **العبر**، ج 7، ص 114 : أنه حينما استولى أبو الحسن المريني على تلمسان «27 رمضان 737 هـ» استأذنه هذا في الحج فأذن له، وصار قائد ركب الحجاج من المغرب إلى مكة سائر أيام أبي الحسن حتى استولى على تونس، وله ترجمة في **الدرر الكامنة**، ج 2، ص.452.

ويخلص منه مكرر يجيء في غاية البياض والصلابة ولطافة الذوق، يقارب مكرر مصر ان لم يكن مثله، ولكنه[66] نوع السكر المعمول بالمغرب غير كثير، قال : ولو أنهم أكثروا من نصب الأقصاب لكثر، قال العقيلي : إن بمراكش أربعين معصرة للسكر وأزيد، وزادت على سوس، ومزارعه في أرض مراكش بوادي تعرف بوادي نفيس[67]، وإن حمل حمار من القصب يباع بثلاثة دراهم : يكون بدرهم واحد كاملي، فسألته عن السبب المانع لهم من الإستكثار منه؟ فقال : لكثرة وجود عسل النحل واعتياد المغاربة لأكله، ووصف العسل عنده[68] ولذاذة طعمه وكثرة ألوانه، وقد سألت كثيرا من المغاربة حتى ممن أقام بمصر وتمصر : عن السكر، فوجدتهم مائلين ـ بالطباع ـ إلى تفضيل العسل في الأكل عليه، واستطابتهم له أكثر من السكر، واستعمالهم للعسل بدلا منه في أطعمتهم وحلوائهم، وزعموا أن ما يعمل من العسل ألذ مما يعمل من السكر، وهذا مما لا نسلمه إليهم، ولا يدعي هذه الدعوى ذو ذوق سليم، ولا نظر مستقيم[69]، وما يستعمل السكر عندهم ـ في الغالب ـ إلا المرضى أو الغرباء، أو الكبراء من الناس في المواسم والضيافات.

قالوا : وكذلك الأرز لا يؤكل عندهم إلا في يوم حفل أو دعوة، أو مريض، أو غريب اعتاد أكل الأرز في بلاده.

ونعود إلى تكملة ما يوجد في بر العدوة : وبها ـ من الرياحين ـ الورد والبنفسج والياسمين، والأس والنرجس والسوسن، والبهار، وغير ذلك.

(الحيوانات)

وبها من الدواب الخيل[70] والبغال والحمير، والإبل والبقر والغنم، ولا يعدم عندهم إلا الجاموس فانه لا يوجد عندهم.

(66) السياق يقتضي «لاكن».

(67) في جنوب خط يمتد من مدينة مراكش إلى مدينة الصويرة، توجد أسوار في أعلاها أشكال شديدة الشبه بأشكال السواقي الضخمة، وقد كشف التنقيب في ورشة بضواحي الصويرة عما يقوم حجة دامغة على أن معامل ضخمة واسعة لصناعة السكر كانت توجد في تلك الجهة، حسب **نشرة السكر المغربي**، ص.9.

(68) السياق يقتضي «عندهم».

(69) الواقع أن هناك أصنافا من المطعومات لا يكمل صلاحها إلا بالعسل دون السكر، كما أن مطعومات أخرى لا يصلح لها إلا السكر دون العسل.

(70) في الأصل : «والخيل».

وبها أنواع من الطير : من الأوز، والحمام، والدجاج، وغير ذلك، والكركي كثير عندهم على الديار، وغريب الأوطان وتسمى عندهم الغرانيق، وهي عندهم صيد الملوك كما هي بمصر والشام.

وفي صحاريها ـ من أنواع الوحش ـ الحمر، والبقر، والنعام، والغزال، والمها، وغير ذلك.

(مراكش القديمة والحديثة)

فأما مراكش فهي متوسطة بين المحيط إلى الصحراء : إلى البحر أربعين ميلا، ومثله إلى الصحراء، وهي ـ كما قدمنا ـ ثانية قواعد الملك.

وحكى لي غير واحد عن سعة دورها، وضخامة عمائرها، وما فيها من قصور بني عبد المؤمن وأولادهم وأجنادهم، حتى يقال : إنه إذا كان الرجل في صدر الدار ونادى رفيقه وهو في صدرها الآخر بأعلا صوته لا يكاد يسمعه لاتساعها، ودوْرها سبعة أميال، وهي بسيطة يمتد فيها البصر، بناها أمير المسلمين (108 ـ أ) يوسف بن تاشفين، وأول ما بنى القصر المعروف بقصر الحجر، ثم بنى الناس حوله.

ثم إن يوسف العسري، وهو ابن يعقوب بن عبد المؤمن[71] كبرها، وفخمها ومصرها وضخمها، وجلب إليها المياه والغراس، ومنارة جامعها المعروف بالكتبيين طولها مائة وعشرة أذرع من الحجر، وعلى باب جامعها ساعات[2/71] ارتفاعها في الهواء خمسون ذراعا، ينزل عند انقضاء كل ساعة صنجة وزنها مائة درهم، يتحرك ـ بنزولها ـ أجراس يسمع وقعها من بعد، وتسمى عندهم «المنجانة»، وهي ـ الآن ـ بطالة لا تدور.

قال ابن سعيد : وحضرة مراكش مما سكنت بها وعرفتها ظاهرا وباطنا، ولا أرى العبارة تفي بما تحتوي عليه، ويكفي أن كل (قصر)[72] من قصورها مستقل بالديار والبساتين والحمام والاصطبلات والمياه وغير ذلك، حتى يغلق الرئيس منهم بابه على

---

(71) يوسف العسري هو ابن عبد المومن، ويعقوب إنما هو ابنه، وما في الأصل لعله تصحف فيه أبو يعقوب بابن يعقوب، وقد كان يوسف هذا أعسر أيسر، يعمل بيديه جميعا **روض القرطاس**، ص.145.

(2/71) لعل الصواب ساعة بالإفراد.

(72) الزيادة من **الصبح**، ج 5، ص.161.

جميع خوله وأقاربه وما يحتاج (إليه)[73]، ولا يخرج له أمره إلى خارج داره[74]، ولا يشتري شيئا من السوق لمأكل، ولا يقرىء أولاده في مكتب خارج، ويخرج هو من بابه راكبا لا تقع عليه العين راجلا.

وفيها قصور عظيمة، وبها قصر الخلافة، بناه المنصور يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن وهو وسط المدينة[75]، اختطها خارج مراكش خاصة به وبخواصه، وتعرف بتا مراكش، قال ابن سعيد : ولا أدري كيف أصل إلى غاية في الوصف أصف به ترتيب هذه المدينة المحدثة، فإنها من عجائب همات السلاطين : ذات أسوار ضخمة، وأبواب عالية، وبها قصر الخلافة، وبه ديار عظيمة، منها دار البلور[76]، و«دار الريحان»، و«دار الماء»، وكل دار منها لا يخلو من المياه والبساتين العجيبة، والمناظر المرتفعة المشرقة على بسائط مراكش.

ولها ثلاث أبواب مختصة بها: باب البستان، وكان لا يراه إلا خواص بني عبد المومن، يفضي إلى مكان يعرف بالبحيرة، طوله اثنا عشر ميلا، فيها العمائر الجليلة، والمصانع العظيمة، والبركة التي لم يعمل مثلها، قال العقيلي وطولها ثلاثمائة وثمانون باعا، على جانبها الواحد أربعمائة شجرة من النارنج، وبين كل اثنتين إما ليمونة وإما ريحانة.

---

(73) الزيادة من **الصبح**، ج 5، ص. 161.

(74) عبارة **الصبح**، ج 5، ص. 161 : «ولا يخرج من بابه إلى خارج داره لحاجة يحتاجها».

(75) السياق يقتضي «المدينة التي اختطها»، وفي **الاستبصار**، ص 210 : أن يعقوب المنصور أمر بعمارة «تامراكش» أول سنة 585 هـ، ويوخذ من هذا المصدر أن موقع هذه المدينة الجديدة كان جنوبي مدينة مراكش، وسوى المنصور، فإن بعض ملوك الموحدين وأمرائهم بنوا في تامراكش بنيات فخمة، فقد أحدث محمد الناصر قبة بزاوية الرحبة الكبرى : **الذيل والتكملة**، مصور الخزانة العامة بالرباط رقم د 1705، كما أن السيد أبا الربيع الموحدي : سليمان بن عبد الله بن عبد المومن : يصف في **ديوانه** قصرا له بتامراكش : «العلوم والآداب والفنون على عهد الموحدين»، ط. تطوان، ص 244 ـ 245، وجاء في **البيان المغرب**، مخطوط خ.ع.، ق 200 في صدد الحديث عن مباني عمر المرتضي الموحدي ص. 404 : «وبنى داخل القصبة ديارا كثيرة».

(76) في **زهر الأفكار، في جواهر الأحجار**، تأليف أبي العباس أحمد بن يوسف بن أحمد القيسي التيفاشي المتوفى سنة 651 هـ، ما يوخذ منه وجه تسمية هاذا القصر بدار البلور، فقد جاء في الباب 24 الذي خصصه لمعدن البلور الفقرة التالية :

«وقد ظهر منه بهذا التاريخ معدن بالمغرب بمقربة من مراكش حاضرة المغرب : نقي اللون إلا أن فيه تشعيرا، وكثر عندهم حتى فرش منه لملك المغرب مجلس كبير أرضا وحيطانا».

والباب الثاني : باب الوادي، وهو في داخل مدينة مراكش، ينصرف منه إلى ما يحتاج إليه بالمدينة.

والباب الثالث : باب الرياض، أمامه رحبة عظيمة تحمل طراد الخيل، وكان بها أنواع من الوحش في زمان بني عبد المومن، وبها قبة الخلافة إلى جانب الباب، كان يخرج إليها خليفتهم بكرة كل نهار، ويكون بها الخدمة، وفي رحبة القصر: «دار الكرامة والأضياف»[77]، وفي هذه الرحبة «المدرسة»، وهي مكان جليل به خزائن الكتب[78]، وقد كان خلفاء بني عبد المومن يجالسون العلماء، وفيها دار مخصوصة للوزارة المحلاة بوزير الجند، وتفضي هذه الرحبة إلى باب السادة، وهو يفضي إلى

---

(77) في **الصبح**، ج 5، ص.162 : وبها دار الضيافة المعروفة بدار الكرامة، وفيها يقول محمد بن محمد البربري :

خيـر قـــوم دُعـــوا إلى خير دار ... هي للمــــلك نضرة وكامــــــة
عالم السبعـــــة الأقـــــاليم فيها ... وهــــم في فنائهـــا كالقلامــــة

(78) أصبح من المؤكد أن أحد متأخري الملوك الموحدين أسس خزانة عامة بمدرسة في جهة ما من المغرب، فهناك وثيقة أصلية توجد على أول السفر الثامن من كتاب **التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد**، تأليف أبي عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر النمري القرطبي : نسخة المكتبة الملكية بالرباط رقم 927.
وهذا نص المقروء من تلك الوثيقة :
«بسم الله الرحمن الرحيم، صلى الله على سيدنا ومولانا محمد وءا ... حبس سيدنا ومولانا الخليفة الإمام المومن بالله تعالى ... إبراهيم ابن الخليفتين أميري المومنين، رضي الله .. عنهم ... هذا السفر الذي هو من التمهيد لابن عبد البر، على المدرسة المباركة التي با ... س ... ليقرأ فيها طلبة العلم أو ينسخوا ... تحبيسا تاما مؤبدا، والله تعالى ... ويجعله خالصا لوجهه ... على التحبيس من علمه وتحققه، في 5 من شعبان المكرم، ثمان وخمسين وستمائة. عبد الله بن علي بن عبد الله بن قطرال، ومحمد بن هارون..)، انتهى نص المقروء من الوثيقة، أما اسم الخليفة الذي ضاع من جزاء خرق، فلاشك أنه عمر «المرتضى»، فهو ابن السيد أبي ابراهيم بن أميري المومنين يوسف بن عبد المومن الموحدي، وقد امتدت دولته من سنة 646 هـ حتى سنة 665 هـ.
ومما يؤكد هذه الحقيقة، ويحدد مكان الخزانة والمدرسة بالضبط : كتابة توجد على مخطوط محفوظ بالمكتبة اليوسفية بمراكش، ويحمل رقم 216، ونصها : «حبس على المدرسة بقصبة مراكش حرسها الله»: ص.1، ومعلوم أن هذه القصبة إنما هي مراكش الجديدة المعروفة بتامراكش.
أما المخطوط المشار له، فهو كتاب «**الإنجاد، في أبواب الجهاد، وتفصيل فرائضه وسننه، وذكر جمل من آدابه ولواحق أحكامه**»، تأليف محمد بن عيسى بن أصبغ الأزدي، جمعه برسم الأمير الموحدي أبي عبد الله بن السيد أبي حفص بن الخليفة (عبد المومن).
وفي ءاخر المخطوط أن هذه النسخة أمر بنسخها الواثق أمير المومنين أبو العلي بن السيد أبي عبد الله بن السيد أبي حفص : «يقصد أبا دبوس ءاخر ملوك الدولة الموحدية».

خارج مراكش، كان مخصوصا ببني عبدَ المومن، إليه ينتهون على خيلهم، وعليه سلسلة (أما) مها ينزلون، وهنالك مقابر أكابرهم وجنائز[79] الأعيان : في نهاية حسن المباني والغراس.

وفي الرحبة باب السقائف، وهو باب كبير يخرج منه إلى سقائف أهل الجماعة : وهي ذرية العشرة أصحاب مهديهم ابن تومرت، وسقائف أهل خمسين، وسقائف الطلبة، وهم أهل العلم والقرآن، وسقائف الحفاظ، وهم المقدمون على الأعمال لحفظها، وسقائف أهل الدار، وهم غلمان الخلافة.

ثم يخرج من هذه الرحبة إلى سقائف القبائل (108 ـ ب) وأعيان الغز والجموع، ثم يفضي إلى رحبة عظيمة فيها سقائف خنفيسة، وجدْ ميوة، والقبائل : هسكورة، وصنهاجة، وهؤلاء هم قبائل الموحدين، وبها موضع صاحب الشرطة.

وبإزائها الجامع المبني في تامراكش، على صحنه شبك من الصفر الأندلسي، وهو في غاية الزخرفة والاتقان، ولا يبرح المنبر مستورا في بيت المقصورة، وهو والمقصورة مستوران إلى يوم الجمعة، (و) قرب الصلاة ترفع ستورهما[80].

والنهر الذي جلبه المنصور[81] يخترق قصوره، ثم يمر على السقائف والمرجات[82] المقدمة الذكر، ثم يحدق بالجامع، ثم يمر بالأسواق ـ قدر ميل ـ إلى أن يخرج على باب الصالحة من أبواب مراكش .

وفي هذه الرحبة المقدمة الذكر، باب الكحل : كان منه دخول الموحدين، وأمامه فضاء عظيم يسع وقوف الخلائق وتصرفها، وباب[83] لايدخل هذا النوع إلا منه، لاحتمال ان مدخل المدينة حجر[84] .

وبها الصهريج الكبير، «والصهريج في مصطلح أهل المغرب البركة»، وهي بركة

---

(79) تصحيف عن جبانات.

(80) كان ذلك بطريقة ميكانيكية موصوفة في **الحلل الموشية**، ص.109، ط. تونس، مع **رفع الحجب المستوردة**، ج 1، ص.71، **ونفح الطيب**، ج 2، ص.163.

(81) سنة 585 هـ **روض القرطاس**، ص.154 و194.

(82) تصحيف عن الرحاب.

(83) يبدو أنه سقط من نسختنا إسم الباب، أو كلمة «هو» بين الواو وباب.

(84) كذا.

عظيمة عليها سور وباب، يصب فيها النهر الثاني الداخل إلى مراكش، وفيها تزرع[85] بقياس معلوم على قصور الناس، ثم ينحدر بقية الماء في نهر يشق المدينة من جهة أخرى في وسط الأسواق وما بعد[86]، وفيها برك تصب فيها المياه .

وفي هذه الرحبة «باب الشريعة» أمام مصلي العيدين، وبينهما فسيح عظيم به سوق الخيل، وللسلطان به قصر مطل عليه، ويليه باب نفيس يخرج منه إلى بلد نفيس المفضلة المياه والأعناب، وقدامه بركة أقنا[87]، يتعلم فيها الصبيان العوم، ويليه باب مخزن السلطان، كان به[88]، وإلى جانبه قصر أمة العزيز، وقصر ابن جامع، لا يعلم كم غرم على كل واحد منهما، حتى قال ابن سعيد في «**المغرب**» عن قصر ابن جامع ـ وهو أحد وزراء بني عبد المومن [89] ـ وانه كان في داره ساحة يلعب فيها خمسمائة جارية على خيل الخشب وتتطاعن، ويلي ذلك باب مسوفة، تفضي إلى المقابر، وباب دكالة، وهو مفض إلى المنتزهات، ويليه باب الرخا، ويليه باب تاغورت[90]، ويليه باب فاس، وهو مفض إلى فضاء يفضي إلى نهر كبير، لا يخاض إلا في زمان الصيف، وعليه بساتين جليلة ومنتزهات، ويليه باب الدباغين، ويليه باب ينتان[91]، ويليه ايلان[92]، ويليه باب أغمات، وأمامه منازل المجذومين، لأنها وخم بالخضرة، ويليه باب الصالحة، وخارجه مقابر وبساتين .

ولمراكش بواد فسيحة، وما اختار ابن تاشفين بقعتها إلا لمراعي إبله حولها، وبها كثير من أرباب العمائر .

(الأزياء الرسمية)

... (110 ـ أ) وأما زي هذا السلطان وزي الأشياخ وعامة الجند : فهي

---

(85) السياق يقتضي «توزع».

(86) كذا، ويظهر أن المراد في وسط الأسواق وما بعد منها.

(87) لعل الصواب «أكناو»، ولا يزال بجهة قصبة تامراكش باب يسمى «باب أكناو»، وهو باب فخم تتوجه كتابة موحدية.

(88) لاشك أنه سقط هنا شيء.

(89) يبدو أن المعني بالأمر هو أبو سعيد عثمان بن عبد الله بن ابراهيم بن جامع وزير محمد الناصر الموحدي، انظر **المعجب**، ص.208.

(90) تصحيف عن «تاغزوت».

(91) وردت هذه الكلمة في الأصل غير منقوطة، وتصحيحها من **التشوف**، ص.292 و298 و449: طبع الرباط.

(92) سقطت كلمة باب.

عمائم طوال، رقاق، قليلة العرض : من كتان، ويعمل فوقها إحرامات يلقونها على أكتافهم من الحباب، ويتقلدون بالسيوف تقليدا بدويا، والأخفاف في أرجلهم[93] والمهاميز[94]، والمناطق[95]، ولا يشدونها إلا في يوم الحرب أو العرض، وتعمل من فضة وذهب[96]، ومنها ما يبلغ ألف مثقال، ويختص سلطانهم بلبس البرنس الأبيض الرفيع، لا يلبسه ذو سيف سواه، فأما العلماء، وأهل الصلاح ـ وإسمهم عندهم المرابطون ـ فإنه لا حرج عليهم في لبسه، هذا في البرانس البيض، فأما سائر الألوان فلا حرج على أحد في لبسها كائنا من كان.

ولا يدق طبل لأحد في سفر ولا حضر إلا للسلطان خاصة لا غير.

(استعراض الجيش)

ويعرض السلطان جيشه في رأس كل ثلاثة أشهر، ليعرف الحاضر والغائب، والقادر والعاجز، ويجلس على علو، ويجلس تحته الكتاب.

(مرتبات وإحسانات الجيش)

وأما سائر (110 ب) العسكر فلهم إقطاعات وبلاد وإحسان : من رأس السنة إلى رأس السنة.

والذي للأشياخ الكبار على السلطان : يكون لكل واحد منهم في كل سنة عشرون ألف مثقال من الذهب، يأخذها من قبائل وقرى وضياع وقلاع، ويتحصل له من القمح والشعير والحبوب في تلك البلاد نحو عشرين ألف وسق، و(لكل واحد مع الإقطاع : الإحسان) في (رأس) كل سنة، (وهو)[97] حصان بسرجه ولجامه، وسيف ورمح محليان، وسبنية وهي بقجة قماش، فيها ثوب طرد وحش مذهب إسكندري، ويسمى عندهم الزردخانة، وثوبان بياض من الكتان عمل إفريقية، وأحرام وشاش طوله ثمانون ذراعا، وقصبتان من ملف يعنى من الجوخ، وربما يزيد الأكابر (على ذلك

(93). في **الصبح**، ج 5، ص.203 وتسمى عندهم الأغمقة.

(94) عبارة **الصبح**، في نفس الصفحة : ويشدون المهاميز فوقها.

(95) عبارة **الصبح** في نفس الصفحة : ويتخذون المناطق ويعبرون عنها بالضمات.

(96) عبارة **الصبح** في نفس الصفحة أو ذهب.

(97) الزيادات من **الصبح**، ج 5، ص.204.

وربما نقص من هو دون هذه الرتبة)[98]، والأشياخ[99] (الصغار) : فعلى النصف (مما للأشياخ الكبار، مع) الحصان المسرج (الملجم)، والسيف والرمح والكسوة، (ومنهم من لا يلحق هذه الرتبة فيكون أنقص، ومن عدا الأشياخ من الجند على طبقات)[100]، وأعلا طبقات الجند : المقربون إلى السلطان : فللرجل منهم ستون مثقالا من الذهب في كل شهر، وقليل ما هم، وأما المعظم فأعلا طبقاتهم من يكون له في الشهر ثلاثون مثقالا، ثم ما دونها (إلى أن يتناهى إلى أقل الطبقات، وهي ستة مثاقيل في كل شهر)[101]، ولا بلد لهم ولا مزدرع، وجميع أرزاقهم ناضة إليهم، ميسرة عليهم.

(العمل اليومي للسلطان أبي الحسن)

ومن عادة هذا السلطان أن يجلس في بكرة كل يوم، ويدخل عليه الأشياخ الكبار ـ وهم في دولته بمنزلة أمراء التوابين بإيران، ومقدمي الألوف بمصر ـ ليسلموا عليه، ثم يمد لهم سماط ثرائد في جفان، وحولها طوافير ـ وهي المخافي ـ فيها أطعمة ملونة منوعة، ومعها الحلوى، منها ما هو بالسكر، ومعظمها بالعسل، والنوعان موجودان إلا أن السكر قليل، وما يعمل من الحلوا بالزيت، (فيأكلون ثم يتفرقون إلى أماكنهم، وربما ركب السلطان بعد ذلك والعسكر معه، وقد لا يركب، أما أخريات النهار فإن الغالب أن يركب بعد العصر)، ويركب العسكر حوله، (ويذهب إلى نهر هناك، ثم يخرج إلى مكان فسيح من الصحراء فيقف به على نشر من الأرض)، وتتطارد قدامه الخيل، فيتطاعن الفرسان، وتتداعى الأقران، (وتمثل الحرب لديه، وتقام صفوفها على سبيل التمرين، حتى كأنها يوم الحرب حقيقة، ثم يعود في موكبه إلى قصره)[102] وتتفرق العساكر، وتحضر العلماء والفضلاء والأعيان إلى مسامرته (حينئذ)، ويمد لهم سماط بين يديه، (فيأكلون)[103] ويواكلهم، وفي ذلك الوقت

(98) الزيادة من **الصبح**، ج 5، ص.204.
(99) كذا في الأصل وسياق التعبير يقتضي : وأما الأشياخ.
(100) الزيادات من **الصبح**، ج 5، ص.204.
(101) الزيادة من **الصبح**، ج 5، ص.205.
(102) الزيادات من **الصبح**، ج 5، ص.205.
(103) الزيادة من **الصبح**، ج 5، ص.206.

لكاتب السر معه اجتماع للمهم، فيعرض القصص، ويبيتون عنده أكثر الليالي[104]، إلا كاتب السر فإنه في بعض الليالي قد يأمره بالمبيت.

(جلوسه للمظالم)

ويجلس على فرش مرفوعة، في قبة معلومة للجلوس له، بحضرته الأشياخ مقلدين لسيوفهم، وإذا أراد صاحب الشكوى إبلاغ شكواه ـ وهذا إنما يكون حال ركوبه وظهوره ـ صاح من بعد : «لا إلاه إلا الله أنصرني نصرك الله»، فيعلم أنه شاك فتوخذ قصته وتعطى لكاتب السر، فإذا رجع إلى مقره اجتمع مع كاتب سره، وقرأ عليه تلك القصة وغيرها، فينظر في ذلك بما يراه.

(أنظمة السفر)

وإذا سافر السلطان وخرج من قصره، ونزل بظاهر بلده، وارتحل من هناك : ضرب له طبل كبير قبيل الصبح إشعارا بالسفر، فيتأهب الناس له، ويشتغل كل واحد بالاستعداد للرحيل، فإذا صليت الصبح ركب الناس في قبائلهم وطبقاتهم ومنازلهم المعلومة، ووقفوا في طريق سلطانهم صفا بجانب صف[105].

فإذا ركب تقدم أمامه «العلم الأبيض» الذي هو سعد الدولة، ويقال له : «(العلم)[106] المنصور»، وبين يديه الرجالة بالسلاح، والخيل المجنوبة ببراقع الوشى، والبراقع هي ثياب السروج، وعندما يضع السلطان رجله في الركاب يضرب في طبل (111 ـ أ) كبير ثلاث ضربات ـ يقال له تريال ـ إشعارا بركوبه، ثم يسير السلطان بين صفي الخيل، ويسلم كل صنف عليه بأعلى صوته : «سلام عليكم»، ويكتنفانه يمينا ويسارا، وحينئذ تضرب جميع الطبول التي تحت البنود الكبار الملونة خلف الوزير على بعد من السلطان.

ولا يتقدم راكب ـ إلا على بعد كبير ـ أمام العلم الأبيض، إلا من يكون من

---

(104) عبارة **الصبح**، ج 5، ص.206 «ويبيت عنده من يسامره من الفضلاء في بعض الليالي».

(105) زاد في **الصبح**، ج 5، ص.208 : «ولكل قبيل رجل علم معروف به، ومكان في الترتيب لا يتعداه، فإذا صلى السلطان الصبح قعد أمام الناس، ودارت عليه عبيده ووصفانه ونقباؤه، ويجلس ناس حوله يعرفون بالطلبة يجري عليهم ديوانه، يقرؤون حزبا من القرءان، ويذكرون شيئا من الحديث النبوي، على قائله وءاله أفضل الصلاة والسلام، فإذا صلى الصبح ركب».

(106) الزيادة من **الصبح**، ج 5، ص.208.

خلاص[107] علوجه، وربما يأمرهم بالجولان بعضهم على بعض، ثم ينقطع ضرب الطبول إلى أن يقرب من المنزل.

فإذا نزل[108] ضربت له شقة من الكتان في قلبها جلود، يقوم بها عصى وحبال من القنب[109]، وتكون هذه الشقة كالمدينة[110]، لها أربعة أبواب[111]، ويحف بها عبيده وعلوجه ووصفانه.

وهؤلاء بنو مرين أكثر ميلهم إلى بيوت الشعر، على عادتهم الأولى في البداوة، مع أنهم اليوم أشياخهم لهم من ضرب[112] أخبية كبيرة مع البيوت، ولهم في ذلك تنافس. ويضرب للسلطان (أمام ذلك[113] قبة كبيرة مرتفعة من كتان تسمى قبة الساقة، لجلوس الناس فيها[114].

وإذا ركب هذا السلطان لا يسايره إلا بعض الأشياخ الكبار من بني مرين، أو بعض عظماء العرب، وكثيرا ما إذا استدعى أحدا لا يجيء إليه إلا ماشيا، فربما حدثه وهو سائر معه، وربما أكرمه فأمره أن يركب.

وإذا عاد السلطان إلى حضرة ملكه ضربت البشائر له سبعة أيام، وأطعم الناس طعاما شاملا في موضع يسع الجماهير.

(شعار الدولة)

وشعار هذه المملكة هو اللواء الأبيض المقدم الذكر، وهو المسمى عندهم «العلم المنصور»، وهو أبيض مكتوب بالذهب ـ نسيجا من الحرير ـ آي من القرآن

---

(107) في **الصبح**، ج 5، ص.208 : «خواص».

(108) في **الصبح**، ج 5، ص.209 : فإذا قرب السلطان من المنزل تقدمت الزمالة : وهم الفراشون، ويضربون شقة من الكتان.

(109) زاد في **الصبح** : «في أوتاد».

(110) عبارة **الصبح**، ج 5، ص.209 : «وتستدير على كثير من الأخبية وبيوت الشعر الخاصة به وبعياله وأولاده الصغار».

(111) زاد في **الصبح** «في كل جهة باب، وهذه الشقة هي المعبر عنها في الديار المصرية بالحوش».

(112) كذا.

(113) الزيادة من **الصبح**.

(114) زاد في **الصبح**، ج 5، ص.209 : «وحضورهم عنده بها، وهذه هي التي تسمى بمصر المدورة».

بدائر طرته[115]، وحوله أعلام[116] مختلفة الألوان، وخلفه الجنائب يجرها أناس مشاة، وهي مسرجة ملجمة، وعلى السروج براقع حرير منسوجة[117] بالذهب، وثياب السروج مخروزة بالذهب خرزا شبيها بالزركش، وركبها ذهب مشبوك، زنة ركابي السرج ألف مثقال ذهبا[118]، فأما تحلية السروج بالأطواق وما يجري مجراها فإنه لا يعرف عندهم[119].

(تقاليد صلاة العيدين)

ومن عادته في العيدين إلا بعد أن يفرغ من الصلاة والخطبة، وله طعام عام يحضره الضعفاء والمساكين[120].

(مرتبات وإحسانات القاضي والكاتب ومن إليهما)

و(أما قاضي)[121] القضاة فله في كل يوم مثقال من الذهب، وله أرض يسيرة

---

(115) عبارة **الصبح**، ج 5، ص.206 : بأعلى دائره.

(116) في **الصبح** أعلام دونه.

(117) عبارة **الصبح** «مرقومة».

(118) عبارة **الصبح** : كل ركاب زنته ألف دينار.

(119) في **الصبح**، ج 5، ص.206 ـ 207 : يذكر شعارات أخرى للدولة ويعددها هكذا : «ومنها : سيف ورمح ودرقة، يحملن بين يديه في المواكب أيضا، يحملها ثلاثة من خاصته : من وصفانه أو من أبناء خدم سلفه.
ومنها : أطبار تحمل حوله، ويعبرون عنها بالطبرزينات، يحملها أكابر قواد علوجه من الفرنج، ورجال من الأندلسيين : خلفه وقدامه.
ومنها : رماح طوال وقصار يحملها خمسون رجلا مشاة بين يديه، مشدودي الأوساط، بيد كل واحد منهم رمحان : رمح طويل ورمح قصير، وهو متقلد مع ذلك بسيف.
ومنها : الطبول تدق خلف ساقته، وهي من خصائص السلطان، ليس لأحد من الناس أن يضرب طبله غيره، حتى يمنع من ذلك أصحاب الحلق.
ومنها : البوقات مع الطبل على العادة».

(120) لاشك أنه سقط من النسخة الوحيدة التي نعتمدها : شيء غير قليل في هذا الموضوع، وعبارة **الصبح**، ج 5، ص.207، هكذا :
«قال السلالجي : وفي ليلة العيدين ينادي والي البلد في أهلها بالمسير، ويخرج أهل كل سوق ناحية، ومع كل أحد منهم قوس أو آله سلاح، متجملين بأحسن الثياب، ويبيت الناس تلك الليلة : أهل كل سوق بذاتهم خارج البلد، ومع أهل كل سوق علم يختص بهم، عليه رنك أهل تلك الصناعة بما يناسبهم، فإذا ركب السلطان بكرة اصطفوا صفوفا يمشون قدامه، ويركب السلطان ويركب العسكر معه ميمنة وميسرة، والعلوج خلفه ملتفون به، والأعلام منشورة وراءه والطبول خلفها، حتى يصلي ثم يعود، فينصرف أرباب الأسواق إلى بيوتهم، ويحضر طعام السلطان خواصه وأشياخه».

(121) الزيادة من **الصبح**، ج 5، ص.205.

يزرع بها ما تجيئ منهٔ مؤونته وعليف دوابه.

و(أما)[122] كاتب السر ــ وهو الفقيه الإمام العالم أبو محمد عبد المهيمن الحضرمي ــ فله في كل يوم مثقالان من الذهب.

وله مجسران «يعني قريتين» يتحصل منهما متحصل جيد، وله رسوم كثيرة على البلاد، ومنافع وارفاقات.

ولكل واحد منهما ــ في كل سنة ــ بغلة بسرجها ولجامها، وسبنية قماش برسم الكسوة، نظير ما للأشياخ الكبار، إلا الثوب الزردخاناه، (يعني طرد الوحش).

ويطلق الرواتب من المحارث والأرض للفقهاء والعلماء والفقراء، والحسباء وهم أرباب البيوت.

(مكاتبات السلطان)

وأما ما يكتب عن هذا السلطان، فمن عادته أنه إذا كتب عنه كتاب يكتب في أوله بخط الكاتب ــ بعد بسم الله الرحمن الرحيم، والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم ــ من أمير المسلمين، المجاهد بهم في سبيل الله رب العالمين : أبي سعيد عثمان، بن أمير المومنين[123]، المجاهد بهم في سبيل الله رب العالمين : أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق، فإذا انتهى الكتاب (111 ــ ب) إلى آخره وختمه الكاتب بالتاريخ، كتب هذا السلطان بخطه في آخره ما صورته : «وكتب في التاريخ المؤرخ به»، قال[124] : ولم يكتب أحد من ملوك بيته هذا بيده، بل كان كاتب السر هو الذي يكتب هذا، إلا هذا السلطان أبو الحسن وأخوه (أبو)[125] حفص عمر حين حياته، هذا مع وثوقه العظيم بكاتب سره الفقيه أبي محمد عبد المهيمن بن الحضرمي، واعتماده عليه، ومشاركته في كل أمر له.

(122) الزيادة من **الصبح**، ج 5، ص. 205.

(123) سقط من هذه الفقرة اسم أبي الحسن الذي كان موضع ذكره قبل اسم أبي سعيد. أما تلقيب يعقوب بأمير المومنين، فلا شك أنه محرف عن أمير المسلمين، وهو اللقب الذي كان مستعملا لدى سلاطين بني مرين قبل عصر أبي عنان، كما تدل لهذا النقوش والمكاتيب المرينية الباقية لهذا العهد.

(124) سقطت هنا كلمة السلاحي التي توجد في **الصبح**، ج 5، ص. 210.

(125) الزيادة من **الصبح**، ج 5، ص. 210.

ملحق

ننشر في هذا الملحق ما جد من الأبحاث والمقالات، ويتبع ترقيمها لائحة إنجازات المؤلف المنشورة بذيل كتاب المصادر العربية لتاريخ المغرب الجزء 2، ص. 443–457 :

160 ـ «**ندوة العلاقات بين المغرب وإفريقيا**»، جمعية موظفي كلية الآداب بالرباط سنة 1987.

المساهمة : «**المدرسة الكنتية كأبرز قناة بين الإفريقيتين في العصر الحديث**».

«**سجل الندوة**»، ص. 61–97.

161 ـ «**الملتقَى الفكري الثاني لمدينة أسفي**»، المجلس البلدي بأسفي ـ كلية الآداب بالرباط، أسفي أيام 26–29 ماي 1989.

المساهمة : «**إسهام دعوة أبي محمد صالح للحج والزيارة في ازدهار أدب الحجازيات في الغرب الإسلامي خلال ق 13/7**». **سجل الملتقى**، ص. 81–85.

162 ـ «**ندوة تكريم الأستاذ محمد حجي**»، كلية الآداب بالرباط ـ الجمعية المغربي للبحث التاريخي بالرباط، يومي 9–10 فبراير 1990.

المساهمة : «**الحياة الفكرية بمكناس من خلال تقييد في أسرة البيجريين الأندلسيين ق18**».

لا يزال مخطوطا.

163 ـ «**ندوة النوازل**» برسم تكريم الأستاذ المرحوم محمد زنيبر، كلية الآداب بالرباط ـ الجمعية المغربية البحث التاريخي بالرباط.

المساهمة : «**لقطات من معيار الونشريسي عن الحياة العلمية في فاس المرينية**».

«**التاريخ وأدب النوازل**» (دراسة تاريخية مهداة للفقيد محمد زنيبر)، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، مطبعة فضالة، المحمدية، ط.1، ص. 87–91.

164 ـ «**الأسبوع الثقافي الثالث لمدينة القنيطرة**»، كلية الآداب ـ المجلس البلدي، أيام 5–12 أكتوبر 1990.

المساهمة : «**وصف الطريق الرابطة بين مدينتي زرهون وسلا، اقتباسا عن رحلة مغربية سنة 1911**».

مجلة كلية الآداب بالرباط، عدد 20، ص. 121–132.

165 ـ «مهرجان المغرب العربي الأول للخط العربي والزخرفة الإسلامية، الرباط : يومي 7 و8 مارس 1990.

المساهمة : «**تحليل رسالة تحف الخواص...**» في صنعة الأمدة والأصباغ والأدهان، تأليف أبي بكر القلّلوسي الأندلسي.

لا تزال مخطوطة.

166 ـ «**ندوة الإمام أبي إسحاق الشاطبي**»، المعهد الوطني العالي لأصول الدين بالجزائر، أفريل 1991.

المساهمة : «**موافقات أبي إسحاق الشاطبي، واستمرار تأثيرها في مؤلفات العصر الحديث**».

مجلة كلية اللغة العربية بمراكش : العدد الأول.

167 ـ **أعمال الندوة التاريخية لتأبين العلامة المرحوم الشيخ الرحالي الفاروقي**، كلية اللغة العربية بمراكش أيام 14–16 نوفمبر 1991.

المساهمة : «**الحركة العلمية بمراكش حوالي الثلاثينيات**» سجل الندوة، ص. 137–140.

168 ـ «**ملتقى الإمام سحنون بن سعيد القيرواني**» (تونس) أيام 13–15 ديسمبر 1991.

المساهمة : «**حضور المدونة الكبرى في المؤلفات والحلقات الدراسية المالكية...**».

سجل الملتقى، ص. 79–96.

169 ـ «**الندوة العلمية حول الرباط وسلا**»، جمعية رباط الفتح ـ جمعية أبي رقراق أيام 16–18 يناير 1992.

المساهمة : «**منوعات من مساهمات العدوتين في مبادرات تحديثية وحضارية عبر ق19 وما إليه**».

سجل الندوة 1/53–57.

170 ـ «**ندوة المخطوط العربي وعلم المخطوطات**»، كلية الآداب ـ الرباط أيام 27–29 فبراير 1992.

المساهمة : **تقنيات إعداد المخطوط المغربي**».

سجل الندوة : 11–32.

171 ـ «**ندوة تاريخ المقاومة المسلحة والحركة الوطنية في المنطقة الوسطى الجنوبية 1908–1955**»، المندوبية السامية ـ كلية الآداب بمكناس، أيام 20–22 أفريل 1992.

المساهمة : «**لمحات عن العمل الوطني بمكناس إلى سنة 1944**».

قيد النشر.

172 ـ «**ندوة الخصائص المنهجية للفكر الأندلسي المغربي**»، كلية الآداب بالرباط ـ مجلة المناظرة : يومي 27–28 مايو 1992.

المساهمة : «**منهجية التعلم في مغرب العصر الوسيط**».

لا تزال مخطوطة.

173 ـ «**ندوة تاريخ الحماية : مسألة الأرصدة الوثائقية**»، الجمعية المغربية للبحث التاريخي، كلية الآداب بالرباط : يومي 29–30 مايو 1992.

المساهمة : **لائحة مطالب وطنية مبكرة، يقدمها عالم من فاس إلى المقيم ستيغ سنة 1926**»

مجلة كلية الآداب بالرباط ع 18، ص. 171–193.

174 ـ «**ندوة المغرب وإفريقيا في بدايات العصر الحديث**»، معهد الدراسات الإفريقية ـ مراكش : أيام 23ـ25 أكتوبر 1992.

المساهمة : «**التعريف بمجموعة أشعار سنغالية ومن مالي والصحراء الغربية**».

لا تزال مخطوطة.

175 ـ «**الملتقى الرابع لتاريخ وفنون الشاوية**»، وزارة الشؤون الثقافية ـ سطات، 30 شتنبر ـ 1 و12 أكتوبر 1993.

«المساهمة : **أصداء حرب الشاوية على المستوى الوطني والإعلام الخارجي**».

قيد النشر.

176 ـ «**ندوة صلاح الدين الأيوبي بطل القدس في ذكراه الثمانين**»، قاعة المحاضرات في فندق حسان بالرباط : يومي 9ـ10 أكتوبر 1993.

المساهمة : «**مساهمات نخب من الغرب الإسلامي في الحروب الصليبية**».

لا تزال مخطوطة.

177 ـ «**الندوة الخامسة لجامعة مولاي علي الشريف**»، مركز الدراسات والبحوث العلوية بالريصاني ـ إقليم الرشيدية : أيام 23ـ26 ديسمبر 1993.

المساهمة : «**محاولة السلطان مولاي عبد الرحمن لوضع نواة لشبه كتلة إسلامية**».

مجلة «دعوة الحق» ع 304، ص. 43ـ46.

178 ـ «**ندوة البيعة والخلافة الإسلامية**» : الدورة الثانية، العيون 21 و22 يوليوز 1994.

المساهمة : «**دور علماء المناطق الصحراوية في تثبيت الدعوة الوطنية**»، سجل الندوة.

179 ـ «**صور من تطلع المغرب للحياة الدستورية**»، مجلة «المناهل»، ع 41، سنة 1993، ص. 115ـ139.

180 ـ **«منوعات عن قصبة شالة وما إليها»**، مجلة آفاق الثقافة والتراث، السنة الأولى، العدد 4 سنة 1994، ص. 50ـ54.

181 ـ **«لقطات مضيئة عن حياة المعتمد ابن عباد وأبنائه بالمغرب»**، مجلة «دعوة الحق»، ع 315 سنة 1995، ص. 67ـ69.

فهرس الصور والأشكال

فهرس المحتويات

الباب الثاني : نُظُم الدولة المرينية

مجالس السلطة العليا

الجهاز المساعد لهذه المجالس
السلطة الثانوية المساعدة لهذه المجالس

الباب الثالث :

تاريخ الفكر الإسلامي والدخيل في العصر المريني

الباب الرابع : منوعات موضوعية





Royaume du Maroc
Université Mohammed V

Publications de la Faculté des Lettres
et des Sciences Humaines - Rabat

SERIE : ESSAIS ET ÉTUDES N° 20

Mohammed Al-MANOUNI

LA CIVILISATION MÉRINIDE

FEUILLETS